

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية
ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له : معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي
والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدلان
ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد السابع

يوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل


بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ سُورَةِ يُوسُفَ (١٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة يوسف ﷺ هي السورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف، والثالثة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة هود وقبل سورة الحجر، وهي مئة وإحدى عشرة آية باتفاق، وألف وتسع مئة وست وتسعون كلمة، وسبعة آلاف ومئة وستة وسبعون حرفًا، وهي سورة مكية، اشتملت على قصة يوسف كاملة، ولم تتكرر في القرآن.

ويوسف هو ابن يعقوب بن إسحاق من زوجه (راحيل)، وهو أحد الأسباط الاثني عشر الذين تشعبتْ منهم قبائل بني إسرائيل.

أسماء الأسباط: والأسباط: هم روبيل، وشمعُون، ولاوى، ويهوذا، ويساكر، وزبولون (وهؤلاء أمهم ليئة)، ويوسف، وبنيامين (أمهما راحيل)، ودان ونفتالي (أمهما بلهة)، وجاد وأشير (أمهما زلفة)[١].

يوسف ﷺ: وكان يوسف أحب أبناء يعقوب إليه، وكان هذا سبب غيرة إخوته منه، وتدبيرهم المكايد له، ومنها إلقاؤه في الجُب، ثم التقطه أناس من العرب الإسماعيليين وهم في طريقهم إلى مصر، وباعوه رقيقًا في سوق العاصمة المصرية للوجه البحري، وكان ذلك في زمن الهكسوس، في حدود سنة تسع وعشرين وسبع مئة وألف قبل الميلاد، فاشتراه رئيس شرطة فرعون (أي: رئيس المدينة) الملقب بالعزيز.

وبسبب رؤيا رآها الملك وعبَّرها يوسف، قرَّبه المَلِك إليه، وزوَّجه (أسنات) بنت أحد الكهنة، وعمره يومئذ ثلاثون عامًا، وولَّاه على جميع أرض مصر، وفي فترة حُكمه جلَب أباه وأقاربه من بادية الشام إلى مصر، وكان ذلك سبب إقامة بني إسرائيل في مصر، إلى أن خرجوا منها نهائيًا مع نبيهم موسى ﷺ.

وتُوفي يوسف ﷺ بمصر في حدود سنة خمس وثلاثين وست مئة وألف قبل الميلاد، وكان قد أوْصى قبل موته، أنهم إذا خرجوا مِن مصر يأخذون جسده معهم، وكانوا قد

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١/ ٧٣٢).

حنَّطوه على الطريقة المصرية، ووضعوه في تابوت، ولَمَّا خرج بنو إسرائيل من مصر حملوه معهم، ودفنوه في (شكيم) في مدة يوشع بن نون.

وُصفت قصة يوسف ﷺ في القرآن بأنها أحسن القصص؛ لما فيها من العبَر والحِكَم والفوائد.

قال خالد بن معدان: سورة يوسف وسورة مريم يتفكَّه بهما أهل الجنة في الجنة.

وقال عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها[1].

وهي القصة الوحيدة التي ذُكرت متكاملة في سورة واحدة.

نزول السورة: وقد نزلت سورة يوسف في عام الحزن الذي مات فيه أبو طالب عم النبي ﷺ، وماتت فيه زوجته خديجة ﵂، واشتد كرب النبي ووحْشتُه، واشتد إيذاء المشركين له في الفترة قبل بيعة العقبة الأولى والثانية.

وقد نزل قبل سورة يوسف سورة هود ويونس بما فيهما من القصص القرآني؛ تسلية لقلب الرسول ﷺ، وبيانًا للعبرة والعظة من هذا القصص، فضلًا عما فيه من الحث على الصبر، كما صبر مَن سبقه من الرسل.

ابتلاءات يوسف: وقد ابتُلي يوسف ﷺ بعدة ابتلاءات؛ منها: كيد إخوته له، وإلقاؤه في الجب، وبيعه رقيقًا، وهو نبي مرسل، وأبوه نبي مرسل، وجده نبي مرسل، وجده الأعلى خليل الله إبراهيم عليهم جميعًا الصلاة والسلام، فقد قال عنه النبي ﷺ كما جاء في حديث عبد الله بن عمر ﵁: **«الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله»**[2].

لقد بيع يوسف سليل الأنبياء عبدًا رقيقًا، والذين باعوه كانوا زاهدين فيه، كأنه حمل ثقيل، وانتقل ابن الأنبياء إلى قصر الملِك؛ ليعمل فيه خادمًا، ويواجه أنواعًا من الابتلاءات.

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٢/ ٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب من انتسب إلى آبائه في الإسلام والجاهلية، وفي كتاب التفسير برقم (٤٦٨٨) وراجع (٣٣٨٢، ٣٣٩٠) وهو في «المسند» (٥٧١٢) بإسناد صحيح على شرط البخاري ورجال ثقات (محققوه) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٤٩٠) والحاكم (٢/ ٣٤٦)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٤٧).

وقد ابتُلي يوسف -أيضًا- بالفتنة والشهوة من امرأة العزيز، وابتُلي بالسجن، وابتُلي بالسلطان، والرخاء بعد الشدة، وتولى وزارة الخزانة في مصر، وابتُلي بملاقاته لإخوته.

والله تعالى يقص للنبي ﷺ ذلك ويقول له: هذا نبي الله يوسف، قد حدث له ما حدث، فاصبر وتأسَّ به.

ويوسف الصديق هو أصغر أبناء يعقوب عليهما السلام، وقد أنجب يعقوب اثْنَيْ عشر ولدًا، هم الأسباط، وأصول عشائر بني إسرائيل، منهم ستة أولاد من زوجته الأولى، ابنة خاله (ليا بنت ليان)، وبعد أن تُوفيت تزوج يعقوب بأختها (راحيل) وأنجب منها بنيامين ويوسف، وهو أصغر الأبناء، والأربعة الباقون أبناء جاريتَيْن له، اسمهما (زلفة وبلهة).

نبوة يوسف عليه السلام: ذُكر يوسف ﷺ في السورة التي سميت باسمه أربعًا وعشرين مرة، وذُكر مرة واحدة في سورة الأنعام في الآية [٨٤] ومرة أخرى في سورة غافر في الآية [٣٤] وهو أحد الأسباط، وليس من أبناء يعقوب -على الصحيح- نبي مرسل إلا يوسف عليه السلام، والبقية من أبنائه لم يكونوا أنبياء؛ لأن النبوة لا يستقيم معها التآمر على القتل، وهؤلاء الإخوة تآمروا على قتل يوسف وإلقائه في الجب، وهذه الأفعال تتنافى مع عصمة النبوة، وليس هناك من دليل قطعي على أن أبناء يعقوب كانوا أنبياء، إلا ما يُستدل به من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] ومثلها في [آل عمران: ٨٤] فيَستدل بعضُهم بهذه الآية على أن الأسباط من الأنبياء، ويوسف من الأسباط، والصحيح أن الآية لا تعني الأبناء الاثني عشر، ولكن تعني الأنبياء من بني إسرائيل، وكانوا كثرة، فالمراد بالأسباط (شعوب بني إسرائيل)، وفيهم أنبياء كثيرون.

لقد حظي يوسف بميراث النبوة عن أبيه وأجداده دون إخوته، وهو أصغرهم، وقد ساق الله إليه هذه البشرى في رؤيا رآها وهو صغير، وخشي عليه أبوه من إخوته الذين حقدوا عليه وطاردوه؛ حتى ألقوه في بئر بين الموت والنجاة، وقد أعلمه الله تعالى أن هؤلاء الإخوة المتآمرين عليه سيقفُون بين يديه يومًا؛ ليوبخهم على ما صنعوا ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [١٥] وقد تحقق ذلك بعد أربعين عامًا، يوم أن دخلوا عليه -وهو على خزائن مصر- يطلبون منه الصدقة، ويقولون له: ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [٨٨]

فعرفهم وهم له منكرون، لقد خرج يوسف من قعر الجب إلى سُدَّة الحُكم وتدبير شؤون الدولة، فما أعجب أقدار الله!!

موضوعات سورة يوسف:

وبعد افتتاح سورة يوسف بجانب من خصائص القرآن الكريم، تناولت **الموضوعات التالية**:

١- تحدثتْ عن مكر إخوة يوسف به، وحسدهم له، وتآمرهم على إيذائه، وإلقائه في الجب، ومن ثم انتشاله منه وبيعه بخمسة دراهم معدودة.

٢- تحدثت السورة عن كيد امرأة العزيز له، وشيوع الخبر بين نسوة المدينة، ودخوله السجن بعد أن استجار بربه، وأحب دخول السجن عن فتنة النساء.

٣- اشتهر يوسف بتعبير الرؤى في السجن، ودعا الناس إلى الواحد القهار، وأخلص العبادة لله، وكانت رؤيا الملك سببًا في إخراجه من السجن، وظهور براءته، وتعيينه أمينًا على خزائن مصر.

٤- تحدثت السورة عن لقاءات يوسف الأربع بإخوانه، وجَمْع شمله بأخيه الشقيق وأبويه في أرض مصر.

٥- التعقيب على السورة بما تَحمله من عبر وعظات وآداب وهِدَايَاتٍ.

حوار السورة يدور حول ثماني شخصيات:

أبطال القصة:

والحوار الذي في السورة يدور بين **ثماني شخصيات**، كل منهم له دوره في القصة:

١- **يوسف** عليه السلام: وهو بطل القصة، وصاحب الدور الرئيس الذي تدور عليه أحداث السورة.

٢- **يعقوب** عليه السلام: يمثل عنصر الحب الأبوي لولده، الملهوف عليه، المطمئن على الوصول إليه.

٣- **إخوة يوسف**: يمثلون عنصر الغيرة والحسد، والتآمر والمكر والخداع، ومواجهة آثار الجريمة.

٤- **امرأة العزيز**: تمثل عنصر النزوة، والشهوة، واندفاع الغريزة، وتسلُّط الشيطان، ثم الندم والتوبة.

٥- **عزيز مصر**: يمثل مواجهة جريمة الشرف داخل مجتمعه، حيث تضعُف نخوته

ويتغلب عليه الرياء وستر الظواهر.

٦ - **شخصية الملِك**: وهو يلقي بظلاله على يوسف، فيخرجه من السجن ويعيِّنه وزيرًا للمالية؛ لإصلاح الوضع الاقتصادي في البلاد وما جاورها.

٧- **النسوة**: وهن يمثِّلن عنصر الطبقة الراقية في المجتمع، ويستنكِرْن على امرأة العزيز سلوكها، ثم يقعن في الافتتان به، ويعذُرْنها فيه.

٨ - **شاهد يوسف**: وهو الذي كشف عن الحقيقة التي دارت في دهاليز القصر، ولم يطلع عليها إلا رب العالمين.

إن قصة يوسف عليه السلام ليست خيالًا، ولا رواية مصطنعة، وليست تاريخًا خطَّهُ أقلام البشر، إنها قطعة من تاريخ الأحياء، تفيض بالحقائق لمن يُحْسِن الإفادة والاعتبار، وليس لخاتم المرسلين ﷺ دَخْل فيما أَوْحى الله إليه به ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

يوسف في بيت العزيز: لقد أحب عزيز مصر يوسف؛ لشمائله النبيلة، ودماثة خلُقه، وحِفْظ بيته، وصيانة محارمه، وأحبتْه امرأة العزيز؛ لروْعة جماله، وحُسن مظهره ومخبره؛ فطمعت فيه، وراودتْه عن نفسه، ولكن إيمان يوسف ومواثيق الشرف التي ورثها عن آبائه، وحُرمة رب البيت الذي أكرمه، انتصرت على المراودة الخاطئة، فأخذ يفرُّ منها وهي تشدُّ قميصه؛ حتى بلغتِ المعركة نهايتها.

وقد اعترفت امرأة العزيز بذلك وصرحت به في قولها: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ﴾ [٣٢] ومع ذلك فقد كادت له حتى أدخلته السجن، وجاءَتْه الرسالة وهو فيه فيقول:

﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ﴾ [٣٧، ٣٨]

﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾.

وكان تأويل الرؤيا هو الطريق لإبراز يوسف عليه السلام من بين المساجين.

يوسف يعبر الرؤيا: وفي سورة يوسف ثلاث رؤى:

١- رؤيا يوسف. ٢- رؤيا السجن. ٣- رؤيا الملِك.

الرؤيا الأولى: هي التي قصها على أبيه في أول السورة؛ من سجود الشمس والقمر والأحَدَ عشر كوكبًا، وأحداث السورة كلها تفسير لهذه الرؤيا.

وقد خُتمت هذه الأحداث بهذا المشهد المعبر عنها ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [٩٩، ١٠٠].

الرؤيا الثانية: وهي التي قصها عليه رفيقاه في السجن، حيث رأى أحدهما أنه يعْصِر خمرًا، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه.

وقد فسر يوسف هذه الرؤيا بأن مصير الرفيقيْن متناقضٌ، فالأول سينجو ويخرج من السجن، أما الآخر فسيُقتل ويُصلب حتى تأكل الطير من رأسه.

الرؤيا الثالثة: هي التي رآها الملِك؛ فأفزعتْه وعجز الناس عن تأويلها.

وفسرها يوسف الصديق بأن السبع بقرات السمان هي سبع سنوات يكثر فيها الخير ويعُمُّ، والسبع بقرات العجاف هي سبع سنوات كلها قحط وجوع، تجاوز أرض النيل حتى بلغ أرض الشام وغيرها، ثم يأتي بعد ذلك عام يزول فيه الهم والغم ويكون خصبًا كثير الخير والنعم.

ووضع لهم يوسف خُطة اقتصادية: أن يزرعوا سبع سنوات متواصلة، ويتركوا الحب في سنبله حفاظًا عليه من السوس إلا ما يلزم للضروري من الطعام، فإذا جاءت السبع سنوات العجاف أكلوا مما خزَّنُوه في السنوات الخصبة كثيرة الخير.

وكان هذا سببًا في ظهور براءة يوسف مما دبَّرتْه له امرأة العزيز، حيث قالت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [٥١] كما كان سببًا في اختياره وزيرًا للمالية ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ [٥٦].

رحلات إخوة يوسف الأربع إلى مصر:

١- وبسبب المجاعة التي وصلت إلى الشام وتجاوزَتْها؛ قدِم إخوة يوسف عليه **أربع مرات**:

لقد كان إخوة يوسف من بين القادمين عليه في السنوات العجاف؛ فأكرمهم وأحسن وفادتهم في المرة الأولى دون أن يُعرِّفهم بنفسه، وطلب منهم أن يأتوا معهم في المرة القادمة بأخ لهم من أبيهم وإلا فلا كيل لهم عنده، وقد أشار إلى الرحلة الأولى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [آية: ٥٨].

٢- وجاؤوا إليه في المرة الثانية؛ فاستقبل أخاه الشقيق استقبالًا خاصًا، حيث آواه وقرَّبه إليه، وعرَّفه بنفسه، ثم احتال في حَجْزه عنده؛ حتى يفرض عليهم العودة إلى أبيهم بدونه، بعد أن احتجزه بسبب مكيال المِلك الذي خبَّأه في متاع أخيه.

وأشار إلى دخولهم مصر في هذه المرة قوله تعالى ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ [آية: ٦٨]

أما لقاءهم بيوسف للمرة الثانية فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ٦٩].

٣- وقَدِم إخوة يوسف عليه بمصر في المرة الثالثة بقلوب منكسرة ذليلة، وفي هذه المرة أماط يوسف اللثام عن شخصيته بعدما لمس من إخوته الضعف والهوان، فقال لهم في نبرة هزَّت قلوبهم ومشاعرهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝٨٩ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ﴾ [٨٩، ٩٠].

وقد جاء هذا اللقاء في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [آية: ٨٨].

وعاد الركب إلى الشام ومعهم قميص يوسف، وما أن تحرك الإخوة بالقميص من أرض مصر حتى سمع الذين حول يعقوب وهو يقول: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [٩٤] أي: لولا أن تكذبوني وتنسبوني إلى الحماقة.

٤- وجاء إخوة يوسف إليه في المرة الرابعة ومعهم أبوه وأمه، وكان في هذا تأويل رؤياه وهو صغير، قال تعالى ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [آية: ٩٩].

إذن فقد قام إخوة يوسف بأربع رحلات من بادية الشام (العربات من أرض فلسطين)

إلى مصر للقاء أخيهم يوسف ﵇، وكان معهم أبوهم في المرة الأخيرة، وعاش معه أربعًا وعشرين سنة، ثم مات ودُفن في الشام لوصيَّته، وعاش يوسف مئة وعشرين عامًا، وفُسرت رؤياه في أربعين عامًا.

وكان النبي ﷺ يعلِّم أصحابه هذه السورة في بدء إسلامهم، كما أخرج الحاكم بسنده أن رفاعة بن رافع الزُّرَقي ومعاذ بن عفراء قدما مكة قبل بيعة العقبة الأولى؛ فأتيا النبي ﷺ، وطلبا منه أن يعرض عليهما الإسلام؛ فسألهما مَن خَلَقهما، ومَن صنع الأصنام التي يعبدونها؟ وبيَّن لهما أن الخالق أحق بالعبادة من المخلوق، وأنهم قد عملوا الأصنام بأيديهم، فهي أحق أن لا تُعبد، ثم قال لهم: **«وأنا أدعو إلى عبادة الله، وشهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وصلة الرحم، وترك العدوان، وبُغْض الناس»**.

فقالا: لو كان الذي تدعونا إليه باطلًا؛ لكان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق، ثم إنهما أتيا الكعبة فطافا وضربا الأقداح سبعًا.

قال رفاعة: فَصِحْتُ أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ فاجتمع الناس عليَّ وقالوا: مجنون، رجل صبأ، قلت: بل رجل مؤمن، ثم جئت أعلى مكة، فلما رآني معاذ قال: لقد جاء رفاعة بوجه ما ذهب بمثله، فجئت وآمنت، وعلمنا رسول الله ﷺ سورة يوسف وسورة العلق، ثم رجعنا إلى المدينة[1].

سبب النزول:

قيل: إن اليهود قالوا لمشركي مكة: سلوا محمدًا عن أمر يعقوب وقصة يوسف؛ فنزلت السورة[2].

وعن سعد بن أبي وقاص أن أهل مكة قالوا للنبي ﷺ: لو حدثتنا -وكان القرآن قد تلي عليهم- فأنزل الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقالوا له: لو قصصت علينا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾.

---

(١) الحديث في «المستدرك» (٤/ ١٤٩).

(٢) رواه الضحاك عن ابن عباس «زاد المسير» (٤/ ١٧٧).

أي: عن طريق الوحي المنزل وكنت قبله لا تعرف شيئًا عن هذه القصة وغيرها.

ثم قالوا: يا رسول الله، لو ذكَّرتنا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[١] [الحديد: ١٦].

وورد أن اليهود سألوا النبي الكريم -عن طريق مشركي مكة- سألوه عن قصة نبي ذهب ابنه من الشام إلى مصر ولحقه أبناؤه، وكيف أنه أخذ يبكي حتى عمي؛ فأنزل الله ﷻ هذه السورة[٢].



(١) ينظر: البزار (١١٥٢) وأبو يعلى (٧٤٠) وابن حبان (٦٢٠٩) والحاكم (٢/ ٣٤٥) و«المطالب العالية» (٤٠١٣) والطبري (١٣/ ٨) وهو حديث حسن.

(٢) ينظر: «تفسير الخازن» والبغوي.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقُرْآنُ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ

١ - ﴿الٓر[1] تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ①﴾

ابتدأت السورة بحروف الهجاء الثلاثة: الألف واللام والراء، ثم بيَّن ﷻ أن هذا القرآن المعجِز في ألفاظه وبلاغته ومعانيه، مكوَّنٌ من مثل هذه الحروف التي تعرفونها، فإن كنتم في شك من كونه مُنزلًا من عند الله فهاتوا مثله، وادعوا مَن شئتم مِن الخَلْق؛ لإعانتكم.

وهي حروف تُنبه الغافلين إلى الاستماع لهذا القرآن والانتفاع بما جاء فيه، وأنه كتاب مبين واضح في ألفاظه ومعانيه، ومُفصَّل لما فيه من الهدى والحلال والحرام وحججه وبراهينه.

تلك الآيات التي أُنزلت عليك يا محمد في هذه السورة، هي آيات الكتاب المعجز في بيانه الساطع، الذي لا تشتبه حقائقه ولا تلتبس دقائقه.

ووُصف الكتاب هنا بأنه مبين، كما وُصف في أول سورة يونس بأنه حكيم؛ لأن قصة يوسف لم تكن معروفة للعرب قبل نزول هذه السورة لا إجمالًا ولا تفصيلًا، وقد بيَّنها القرآن وفصَّلها في سورة يوسف، وكان نزولها معجزة قبل أن يلتقي النبي ﷺ باليهود في المدينة، فقد أعلم الله بها نبيَّه، وهي من علوم تاريخ الأديان القديم، ولا علم له بها قبل نزول هذه السورة.

أما القَصَصُ الذي ذُكر في سورة يونس، فقد كان معروفًا للعرب إجمالًا، فكان وصف القرآن هنا بأنه مبين ووَصْفه في سورة يونس بأنه حكيم يناسب ما جاء في كل منهما من القصص القرآني.

ولأن سورة هود اشتملت على عدد أكبر من قصص الأنبياء، ومنه ما كان معلومًا لدى العرب، ومنه ما كان مجهولًا، فقد وُصفت آيات السورة بالإحكام والتفصيل معًا، فهي

---

(١) سكت أبو جعفر على حروف الهجاء الثلاثة سكتة يسيرة بدون تنفس، والباقون بدون سكت، وأمال الراء فيها أبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف العاشر، وقللها الأزرق، وفتحها الباقون، وكلها لغات عند العرب.

آيات أُحكمت ثم فُصلت من لدن حكيم خبير. قال تعالى:

٢- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ[1] قُرْءَٰنًا[2] عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾

والعربية: هي اللغة المختارة للنبي الخاتم، وإن وُجد في القرآن ألفاظ غير عربية فقد عرَّبها القرآن.

وفي الحديث عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني**»[3].

فلا حاجة مع القرآن إلى شيء من كتب أهل الكتاب؛ لأنه مشتمل عليها، محفوظ من التحريف والتبديل.

والعربية هي الأساس، ولغات غير العرب يُؤخذ منها بقدر الحاجة.

قيل: لما كانت قصة يوسف في التوراة باللغة العبرانية، سأل الرسول ﷺ ربه أن تذكر هذه القصة بالعربية في القرآن؛ فأنزل الله عليه سورة يوسف[4].

وأُنزل القرآن بلسان عربي مبين، على نبي عربي، وجُعلت ألفاظه قوالب لمعانيه، وجُعل مشتملًا على ما فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ معانيه، وتفهمون ألفاظه، وتنتفعون بهداياته، وتعرفون حدوده وأصوله وفروعه وأوامره ونواهيه، وتدركون أنه ليس من كلام البشر، فإذا عقلتم ذلك نتج عنه عمل الجوارح والانقياد له.

وتجويد القرآن -كالإظهار والإدغام وتحقيق الهمز وتسهيلها- هو من اللسان العربي المبين، ولو نزل القرآن بلغة أخرى لقيل: لماذا هذه اللغة دون غيرها؟ والسؤال يدور.

---

(١) وصل ابن كثير هاء الضمير من (أنزلناه) بحرف مد، والباقون بالقصر.

(٢) نقل ابن كثير حركة همزة (قرآنا) إلى الساكن قبلها، وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بعدم النقل.

(٣) أخرجه أحمد عن جابر بن عبد الله «المسند» (٣/٣٧٨) برقم (١٥١٥٦)، بإسناد ضعيف لضعف مجالد (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (٩/٤٧) وابن أبي عاصم في السنة (٥٠) والبزار (١٢٤) كشف والبيهقي في الشعب (١٧٧) والبغوي في شرح السنة (١٢٦).

(٤) «تفسر الخازن» و«زاد المسير» للآية.

أَحْسَنُ الْقَصَصِ

٣- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾

نحن نحدثك يا محمد، ونروي لك أخبار الأمم السابقة، بأصدق كلام، وأحسن بيان؛ بإيحائنا إليك هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو قصص حسن بما اشتمل عليه من فصاحة الألفاظ إلى حد الإعجاز، وحُسْن البيان، وبلاغة التأثير، وما حَوَى من الحِكَمِ والعجائب، ووسائل التربية، وتهذيب الخُلُق، ومغبة الحسد، وعاقبة الصبر.

وقصص الناس فيه ترويح عن النفس، وإبعاد لها عن الملل، بما ترتاح له النفوس، ولا يخلو من الخيال أو الباطل أو المبالغة ونحو ذلك، ولكن قصص القرآن أحسن القصص؛ لأنه حقائق وعبر وعظات وهدايات، فهو أحسن من قصص الناس؛ لأنه وارد من حكيم خبير، وقبل نزول القرآن به كان محمدٌ ﷺ خالي الذهن، لا يعرف عنه شيئًا، وهذا معنى ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ فلَمْ تقْرع سمعك، قبل ذلك، ولم تخطر لك على بال، ولم تعرفها إلا عن طريق الوحي الإلهي ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

وقصة يوسف ليست رواية ولا أدبًا ولا خيالًا، بما فيها من شخصيات، كل منها يقوم بدوره، ولكنها قرآن منزَّلٌ، وكلام رب العالمين، وحقيقة ثابتة وعلم يقيني.

ولمّا مدح القرآن ما اشتمل عليه من القصص، شرع في قصة يوسف عليه السلام:

رُؤْيَا يُوسُفَ عليه السلام

٤- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ[١] إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ[٢] عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾

هذه الرؤيا مقدمة لأحداث السورة كلها، وقد رآى يوسف عليه السلام أن إخوانه الأحد عشر، وهم الكواكب، والشمس وهي أمه، والقمر وهو أبوه، رآهم يوسف خاضعين له إكرامًا وتعظيمًا، حيث ستنتقل به الأحوال حتى يصل إلى سُدّة الحكم في مصر، ويقدمون عليه من الشام أربع مرات طلبا للقوت والميرة.

أخرج الطبري بسنده إلى جابر رضي الله عنه أن رجلًا اسمه بستانة اليهودي، جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها؟ فلم يجبه بشيء، ونزل عليه جبريل؛ فأخبره بأسمائها؛ فبعث إليه النبي ﷺ وقال له: **«هل أنت مؤمن إن أخبرتُك بأسمائها؟»** قال: نعم؛ فذكرها له النبي ﷺ؛ فقال اليهودي: إي والله، إنها لأسماؤها[٣].

وتبدأ القصة بالرؤيا التي رآها يوسف الصديق، وهذه الرؤيا ليست رؤيا عادية، فهي رؤيا صبي صغير، تسوق له البشرى بوراثة النبوة عن أبيه وأجداده، وهي رؤيا صالحة تشير إلى مستقبل هذا الصبي، وأنه سيكون له شأنٌ عند الله تعالى، فهي وحي من الله تعالى وجزء من النبوة، وكان سِنُّه آنذاك اثنتي عشرة سنة.

الرؤيا والحلم: وقد بيَّن النبي ﷺ الفرق بين الرؤيا والحلم، فذكر أن الرؤيا من الله تعالى، والحُلم من الشيطان.

والرؤيا: هي التي ينشرح لها الصدر، وهي جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة.

أما الحلم: فإنه من الشيطان، وهو الذي يفزع منه الإنسان وينزعج.

---

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر بفتح التاء من (يا أبت) والباقون بكسرها، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب، ووقف عليها الباقون بالتاء.

(٢) قرأ أبو جعفر بإسكان العين من (أحد عشر) إشعارًا بأنهما اسم واحد، والباقون بالفتح، وهما لغتان.

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٥٥٥) و«تفسير ابن عطية» (٣/ ٢٣٠). قال ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٩٩): هذا من حديث الحكَم بن ظَهير، وقد ضعفه الأئمة عن السُّدِّي.

وقد عَلَّمنا النبي ﷺ أن الحلم الذي يَنْزعج منه الإنسان، عليه أن يتحول من جنبه إلى الجنب الآخر، ويستعيذ بالله تعالى ويتفل عن يساره ثلاثًا، ولا يذكر هذا الحلم لأحدٍ؛ حتى لا يضره بمشيئة الله تعالى، أما الرؤيا الصالحة التي ينشرح لها صدره فإنه يذكُرها لمن يحب.

أحاديث في الرؤيا والحلم:

١- قال أبو قتادة : سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الرؤيا من الله، والحُلم من الشيطان، فإذا حلَم أحدكم حُلْمًا يكرهه؛ فلينفث عن يساره ثلاثًا، وليتعوذ بالله من شرها، فإنها لا تضره»**[١].

وفي لفظ مماثل أن النبي ﷺ قال: **«الرؤيا من الله والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم فليتعوذ منه وليبصق عن شماله فإنها لا تضره»**[٢].

٢- وفي حديث أبي قتادة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«الرؤيا الصالحة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها إلا مَن يحب، وإن رأى ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثًا، وليتعوذ بالله من شر الشيطان وشرها، ولا يحدِّث بها أحدًا فإنها لن تضره»**[٣].

٣- وفي حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصُق عن يساره ثلاثًا، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثًا، وليتحوَّل عن جنبه الذي كان عليه»**[٤].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»**[٥].

٥- وفي حديث عائشة ﵂: أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[٦].

وهذه السورة بأكملها تدور حول رؤيا يوسف، وتُفصِّل أحداثها على مدى أربعين عامًا،

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٦١) و«صحيح البخاري» (٣٢٩٢، ٥٧٤٧).
(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٩٢، ٦٩٨٦) و«صحيح مسلم» (٢٢٦١).
(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٦١).
(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٦٢).
(٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٦٣) و«صحيح البخاري» برقم (٦٩٨٨، ٧٠١٧).
(٦) «صحيح البخاري» برقم (٣، ٢٣٩٢، ٤٩٥٣) و«صحيح مسلم» (١٦٠).

والمقصود بالكواكب هم إخوة يوسف الأحد عشر، والشمس أمه على قول، وقيل: إنها خالته التي تزوَّجها أبوه بعد موت أمه؛ لأن الشمس مؤنثة، والقمر أبوه؛ لأنه مذكَّر، وسجودهم له سجود تحية واحترام وتقدير.

وهذه الرؤيا قد تحققت في عشرات السنين؛ حيث جمع الله شمله بأبيه وأمه وإخوته، وخروا له سجدًا، وقال: يا أبت هذا تأويل رؤياي، قد تحققت حدثًا حدثًا، وكان عُمْرُ يوسف حين رآها نحو اثني عشر عامًا، وقد فهم يعقوب ﷺ من هذه الرؤيا أنه سيكون لابنه شأن عظيم:

نماذج من الرؤي:

١- ورؤيا الأنبياء وحي، فقد رأى إبراهيم في منامه أن يذبح ابنه الوحيد إسماعيل، فامتثل إبراهيم وإسماعيل أمر الله تعالى عن طريق الرؤيا المنامية.

٢- وفي البخاري عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**رأيت في المنام أن أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، ورأيت فيها بقرًا تذبح، ورأيت والله خير**»[1].

فكانت غزوة أحد وما حدث فيها تفسيرٌ لهذه الرؤيا.

٣- وفي حديث المنام الطويل الذي رآه النبي ﷺ أتاه فيه آتيان؛ فأيقظاه وذهبا به يُطلعانه على أصناف من أمته في صور متعددة من العقاب الذي يلحق بهم، وغير ذلك من رؤى النبي ﷺ، وفي البخاري أكثر من أربعين رؤية، ومن رأى النبي ﷺ في منامه فكأنما رآه حقًّا؛ فإن الشيطان لا يتمثل به.

٤- وقد قام عبد المطلب بحفر بئر زمزم بناء على رؤيا رآها، وفيها وصف وتحديد لمكانها.

٥- وقد رأى عبد الله بن سلام أنه في رَوْضة، وأن فيها عمودًا، وأن فيه عروة، وأنه أخذ بتلك العروة؛ فارتقى إلى أعلى العمود، فعبَّرها له النبي ﷺ بأن العروة الوثقى هي الإيمان، والروضة هي الجنة.

ولم يبقَ من النبوات إلا المبشرات؛ وهي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له.

---

(١) ينظر حديث طويل في «صحيح البخاري» (٣٦٢٢، ٣٩٨٧، ٤٠٨١، ٧٠٣٥، ٧٠٤١) و«صحيح مسلم» (٢٢٧٢).

وتأويل الرؤيا يختلف حسب أحوال الناس، فمَن رأى أنه يشرب خمرًا مثلًا وكان من طلاب العلم فهو زيادة له في العلم، فإن كان من عامة الناس كان ذلك علامة على أنه من أهل الغواية والضلال، وهكذا.

ومعنى الآية: اذكر -يا محمد- لقومك قول يوسف لأبيه: إني رأيت في المنام هذه الرؤيا العجيبة؛ وهي أن الكواكب الأحد عشر، والشمس والقمر -وهما أعظم الكواكب- ساجدون له.

الأحلام وَتَعْبِيرُهَا: وقد تكون الأحلام انعكاسات لما يشغل قلب الإنسان من أحداث، وقد يتغلب الشيطان على الإنسان؛ فيرى في منامه ما يزعجه، كأن يرى مَن يخنُقُه مثلًا، أو يقطع رأسه أو يدفعُه في بئر ونحو ذلك.

وغالبًا ما يرى الإنسان في منامه ما تحدِّثه به نفسه، أو تتمناه في اليقظة، أو يرى ما يغلب على مزاجه، وما يقع له في المستقبل غالبًا[1]، وقد تكون الرؤيا ناشئة عن:

١- غلبة الدم؛ نتيجة كثرة الغذاء.

٢- أو غلبة الصفراء؛ نتيجة الأغذية اليابسة.

٣- أو غلبة البلغم الناشئ من الأغذية الباردة الرطبة.

٤- أو غلبة السوْداء؛ نتيجة الإكثار من أكل العدس والباذنجان والدخن ونحو ذلك من الأغذية السوداويَّة[2].

ويُفَسَّر اللبن بالفطرة، والنار بالفتنة، والنجوم بالعلماء، والدم بالماء، والزرع والحرث بالعمل للآخرة، وطول الثياب أو قصره بالزيادة أو النقص في الدِّين.

وأنواع السلاح بالقوة والنصر، والرائحة الطيبة بالثناء الحسن، والميزان بالعدل، والجراد بالجنود، والحية بالعدوِّ، والثعلب بالرجل الماكر، والكلب بالصديق أو العدوِّ الضعيف، والذئب بالرجل الفاجر، والأسد بالرجل القاهر، والفأرة بالمرأة الفاجرة.

---

(١) ينظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١٢/ ٢٨٤).

(٢) ينظر: «تفسير الشيخ الطنطاوي جوهري» للآية.

والبيض يعبر عنه بالنساء، واللحم الطريُّ يفسَّر بالغيب، والمفاتيح بالكنوز، والسفينة بالنجاة، واللباس بالنساء، وحلول الملك في مكان مَّا، حلول مصيبة فيه، والغراب يفسر بالرجل الفاسق، والضلع بالمرأة، وطول اليد زيادة في صنائع المعروف، وجمع الحطب نميمة، والمرض نفاق، ورَمْي الناس بالحجارة أو السهام ذكْرُهم بسوء، والبكاء يفسَّر بالفرج، ويفسر الفرح والضحك والرقص بالحزن والهم والغم، ومَن يدخل قبرًا يُسجن، وطول الشَّعر سعادة وزيادة مال، وحَلْقه عكس ذلك وهكذا[1].

ويفسر الخشب المسْنَد إلى شيء، بالمنافقين، والغيث بالرحمة والعلم، ومن رأى اليهود أو النصارى فهذا إشارة إلى الابتداع في الدين، والقط العبد أو الخادم، والكبش، الرجل الذي يتْبعُه الناس.

وكل ما كان وعاءً للماء فهو دالٌّ على الإناث، وكل ما كان وعاء للمال فهو دالٌّ على القلْب، والسقوط من عُلُوٍّ إلى أسفل سيئ في المنام، والعكس حسن.

والطلاق في المنام، يدل على الأخذ برأي قاطع في أمر من الأمور.

وما ينكسر من الأوعية، هو شيء لا ينجبر ولا يُرجى صلاحه، وكذلك ما يُحرق.

والشيء الذي يُسرق أو يُخطَف، هو شيء يضيع ولا يُعثر عليه، إلا إذا عُرف سارقه فيرجى عودتُه.

والزيادة في أعضاء الجسم أو في الشعر دلالة على الخير.

والعُرْي فضيحة، والخروج من الأبواب الضيقة، يدل على الفرج والنجاة والسلامة، والسفر تغيُّر في الأحوال.

وموت الحيِّ يدل على رجوعه إلى الله تعالى، وقد يدل على ارتكابه مخالفة في الدين.

وتوديع المريض أهله يدل على موته، والموتى في دار الحق، وكل ما يَردُ على لسانهم حق وصدق، وأحوالهم الحسنة أو السيئة تدل على وضعهم حقًّا في قبورهم، والنُّعاس أمن، والطفل الرضيع عدوٌّ، والنخلة، تدل على الإسلام والكلمة الطيبة، وظهور عورة

(١) ينظر: «تعبير الرؤيا» لابن سيرين و«مقدمة ابن خلدون» و«إعلام الموقعين» لابن القيم.

الإنسان، ذنب يرتكبه، وغرقُه في الماء فتنة في دينه ودنياه، وتعلقه بحبل، تمسّكه بالإسلام، والحجارة يعبر عنها بالقسوة، والمريض الذي يخرج من بيته دون أن يتكلم يموت، والسمك معروف العدد نساء، وما ليس معروفًا عدده مال وغنيمة، وهكذا.

رُؤْيَا يُوسُفَ عليه السلام تُبَشِّرُ بِمُسْتَقْبَلِهِ وَتُشِيرُ إِلَى أَحْدَاثِ الْقِصَّةِ

٥- ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ[1] لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ[2] عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

فَهِمَ يعقوب من رؤيا يوسف أن الله تعالى سيرفع من شأنه، ويصطفيه للنبوة، وينال شرف الدارَيْن، فخاف عليه من حسد إخوته، ونهاه أن يقص رؤياهُ عليهم.

أسباب زيادة محبة يعقوب ليوسف عن إخوته:

وكان يعقوب يميز يوسف عن إخوته بالمحبة؛ لأسباب ثلاثة:

الأول: أن يوسف هو الابن الذي أُعطي خصائص النبوة والرسالة، ولهذا فقد ألقى الله تلك المحبة في قلب يعقوب ليوسف دون إخوته.

الثاني: أن الأب عادة يحنُّ ويعطف أكثر على الابن الأصغر.

الثالث: أن الأب يحب مِن أبنائه مَن يكون أكثر طاعة له، وقد كان يوسف كذلك.

فهذه أسباب ثلاثة مشروعة لزيادة محبة يوسف عليه السلام عن إخوته، وهي إلهام ووحي من الله تعالى؛ لوجود خصائص معينة في يوسف دون إخوته.

ولهذا حذَّر يعقوب ابنه يوسف من أن يَرْوي تلك الرؤيا لإخوته؛ حتى لا يحسدوه ويحتالوا في المكر به والكيد له.

والشيطان يوغر الصدور، ويملأ القلوب بالبغضاء، فهو عدو لدود للإنسان واضح العداوة، وقد علم يعقوب أن أبناءه جميعًا يفسرون الأحلام، فقال له: لا تخبر إخوانك

---

(١) قرأ حفص بفتح ياء الإضافة من (يا بني) والباقون بكسرها.

(٢) أبدل السوسي همزة (رؤياك) واوًا مديَّة هكذا (رُوياك) وقرأ أبو جعفر بياء مشددة بعد الراء هكذا (رُيَّاك) والباقون بهمزة ساكنة.

بما رأيته؛ حتى لا يغريهم الشيطان بالكيد لك، فيولِّد بينكم العداوة والبغضاء، ويحملهم على الحسد والإضرار بك.

يَعْقُوبُ يُبَشِّرُ يُوسُفَ بِالرِّسَالَةِ وَتَأْوِيل الرُّؤَى:

٦- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

ثم يبين يعقوب لابنه فضل هذه الرؤيا الصالحة التي بشرته بالمنزلة العظيمة في المستقبل، فقال له: إن الله سيختارك ويصطفيك للرسالة، وكما سخر الله الأجرام العظام، يسخر لك وجوه الناس ونواصيهم مذعنين لطاعتك منقادين لك، ويعلمك من تأويل الأحاديث، وتعبير الرؤى ما تؤول إليه من أخبار في المستقبل، ويتم نعمته عليك بالنبوة كما أتمها من قبل على أبويك إبراهيم وإسحاق، فاصطفاهم للنبوة والرسالة، وأخرج الأنبياء من صلبهما.

إن ربك عليم حيث يجعل رسالته، حكيم في تدبير شؤون خَلقه وما يصلحهم، **فالتأويل**: هو تعبير الرؤى، وسميت أحاديث؛ لأن الرائي يتحدث بها، وكما أراك ربك هذه الرؤيا، فكذلك يصطفيك ويعلمك تفسير ما يراه الناس في منامهم من الرؤى، بما تؤول إليه واقعًا في حياتهم.

وهكذا: بشّر يعقوب يوسف بثلاثة أمور، هي:

١- اصطفاء الله له. ٢- تعبير الرؤي. ٣- تمام النعمة عليه في الدنيا والآخرة.

كما أنعم على أبويه إبراهيم وإسحاق من قبل، وعِلْمُ الله تعالى محيط بكل شيء، وبما تحتوي عليه ضمائر العباد، وهو سبحانه حكيم، يضع الأشياء في مواضعها، ويعطي عباده وفق ما تقتضيه حكمته.

ابْتِلَاءُ يُوسُفَ بِخَمْسِ مِحَنٍ: إِخْوَةُ يُوسُفَ يَتَآمَرُونَ عَلَيْهِ

٧- ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ[1] لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾

(١) قرأ ابن كثير (آيات للسائلين) بإفراد (آيات) على إرادة الجنس هكذا (آية) والباقون بالجمع.

وتبدأ القصة بهذه الآية، فهي مقدمة لِمَا تعاقب على يوسف من أحداث؛ أي: لقد كان في خبر يوسف وإخوته عبر وعظات تدل على قدرة الله تعالى وحكمته، وفيها دلائل على صدق محمدٍ ﷺ، ودلائل على عواقب الصبر المحمودة، وعواقب الحسد المذمومة، وذلك لِمَن سأل عنها من اليهود وغيرهم؛ ليستدل بها على نبوة محمدٍ ﷺ، ذلكم أنه ﷺ لم يقرأ الكتب المتقدمة، ولم يجالس العلماء والأحبار، وقد أخبرهم ﷺ عما سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب عليهما السلام إلى أرض مصر؛ فوجدوها موافقة لما في التوراة، فدل ذلك على أن ما أتى به محمدٌ ﷺ وحي من عند الله تعالى، ينتفع به أهل البصائر ويعرض عنه غيرهم.

الْمِحْنَةُ الأُولَى: مِحْنَةُ حَسَدِ إِخْوَتِهِ وَكَيْدِهِمْ لَهُ

٨- ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ[1] ﴿٨﴾﴾

وقد ابتلي يوسف في هذه القصة بضروب من المحن، ومع أن يوسف عليه السلام لم يقصص رؤياه على إخوته، فقد قال الإخوة: لَيوسُفُ وأخوه الشقيق بنيامين -وكانت أمهما قد ماتت- أحب إلى أبينا منا، ونحن عشرة أبناء أقوياء فينا الكفاية والمنفعة.

وكان حب يعقوب ليوسف وبنيامين؛ لصغرهما وموت أمهما، وحب الصغير من فطرة البشر.

قيل لابنة الحسن: أيُّ بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يفيق.

وفوق ذلك فقد كانت مخايل النجابة والذكاء تظهر على يوسف، وقَوَّى هذا المعنى الرؤيا الصالحة التي تبشره بمستقبل ينفرد فيه عن إخوته، فضلًا عن أن المحبة القلبية لا مدخل للإنسان فيها، ولا بُدَّ أن يكون حب يعقوب ليوسف إلهامًا من الله تعالى، وقد يكون حبه له نظرًا لما فيه من الخصائص التي ليست في غيره من بقية إخوته، ولا لوم على

(١) وفي حالة وصل هذه الآية بما بعدها قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وقنبل وابن ذكوان بخلف عنهما بكسر التنوين وصلًا من (مبين اقتلوه) والباقون بضمه، وهو الوجه الثاني لقنبل وابن ذكوان، والتخلص بالكسر من التقاء الساكنين هو الأصل، فإذا بدأ القارئ بـ(اقتلوه) فإنه يضم همزة الوصل تبعًا لضم ثالث الفعل وهو التاء.

الوالد في تفضيل بعض ولده على بعض في المحبة لمثل ذلك.

ومع هذه الافتراضات، فإن دعوى زيادة محبة يعقوب لابنيه عن غيرهما دعوى باطلة؛ سببها شدة الغيرة منهما بسبب شفقة يعقوب عليهما لصغرهما ووفاة أمهما؛ فتوهموا أن ذلك زيادة في محبتهما، مع التساوي في المعاملة الظاهرة للجميع، ومع تفاوت إخوة يوسف في حسدهم له قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ والمعنى: أنهم قصدوا وَصْف يعقوب بأنه أخْطأ في تفضيله يوسف وأخاه عليهم، وغاب عن علمهم حقيقة الأمر، ولم يقصدوا الضلال في الدين؛ لعصمة الأنبياء، ولو أنهم أرادوا ذلك لكفروا، ولكنهم أرادوا الخطأ الدنيوي بإيثار يوسف عليهم.

وهذا كقولهم مخاطبين أباهم ﷺ: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] وقوله تعالى في حق نبينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى] أي: لست على عِلم بهذه العلوم التي لا سبيل لمعرفتها إلا عن طريق الوحي، فهداك الله إليها وعلمك إياها عن طريق الوحي المنزل، وبدأت اقتراحات التخلص من يوسف، فقال أحدهم:

٩- ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾

وتأتي هذه الآية بعد أن تهيأت النفوس لاستقبال الغرض المطلوب، وهو تقرير مصير يوسف من قبل إخوته، فهو مقصود القائلين، ثم أخذوا يأتمرون على يوسف؛ كي ينفردوا بمحبة أبيهم لهم؛ لأن حبه له شغَله عنهم، وصرفَه عن محبتهم كما يزعمون، ولذلك اقترح أحدهم قتله، واقترح الآخر نفيه من البلاد إلى مكان بعيد عن العمران؛ كي يكونوا بعد قتله أو نَفْيه قومًا صالحين عند أبيهم، ويتوبوا إلى الله تعالى بعد قتله.

والرأي الأول اقترحه يهوذا وكان صاحب الرأي فيه، وهكذا فإن إخوة يوسف يرون أن محبة أبيهم لأخيهم جرم عظيم، يستحق إزهاق روح الأخ، فاقترح يهوذا -وهو والد اليهود- قتل يوسف قتلًا ماديًّا بالإجهاز عليه، أو قتلًا معنويًّا بنفيه وإلقائه في مكان بعيد مجهول، لا يصل إليه علم أبيهم ويتركونه حتى يموت، ثم يخلُص لهم حب أبيهم ويُقبل عليهم بكليته، وبعد قتله يتوبون إلى الله؛ فيقبل منهم توبتهم، وتسْلَم لهم دنياهم من المنغِّصات التي يسببها يوسف لهم.

وهكذا فإن الحسد يعمي قلب صاحبه؛ حتى يؤدي به إلى ارتكاب جريمة القتل، وما قصة قتل قابيل لهابيل إلا من هذا الباب[١].

المِحْنَةُ الثَّانِيَةُ: مِحْنَةُ إِلْقَاءِ يُوسُفَ فِي الْجُبِّ

١٠- ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ[٢] ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾

ثم إن الله تعالى قد أراد ليوسف أن يكون نبيًّا ورسولًا، وأن يمكِّن له في أرض مصر، وهو أمر لَا بُدَّ من إمضائه وإتمامه؛ فصرفهم الله عنه، حيث إن القول بقتل يوسف وهو أخوهم الصغير أفزع بعض إخوته.

فقال روبيل أكبرهم سنًّا: ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ أي: في أسفل البئر وظُلْمته، والجب يوجد على مقربة من بحيرة طبرية على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب في الأردن، وقيل: في بيت المقدس.

قال روبيل: ألقوه في ظلمات الجب؛ حتى يلتقطه بعض المارة فيأخذوه ويبيعوه، وكان هذا الرأي أهونهم شرًّا، ويبدو أن داعي الشفقة قد تغلب على داعي الانتقام؛ فنزلوا عليه.

---

(١) والذي في سفر التكوين من التوراة أن الذي أشار بقتل يوسف هو (راوبين) وأن يهوذا دل السيارة عليه، ولعل هذا من التحريف الذي طرأ على التوراة؛ لتحسين صورة اليهود في التاريخ.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بجمع لفظ (غيابة) هكذا (غيابات) وقرأ الباقون بالإفراد، والجب هو البئر الذي لم يطو، والغيابة هي الحفر التي تكون في جوانبه، وقراءة الإفراد على أن يوسف لم يجد في البئر إلا حفرة واحدة، وهذه الكلمة مرسومة في المصحف بالتاء المفتوحة، والوقف عليها يكون بالتاء تبعًا للرسم.

حِوارُ الْإِخْوَةِ مَعَ أَبِيهِمْ فِي شَأْنِ يُوسُفَ

١١- ﴿قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا[(١)] عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ۝١١﴾

لقد كان يعقوب يشعُر بحسد إخوة يوسف له، فكان لا يأمنهم عليه من باب الحيطة والحذر، فلعله كان لا يأذن ليوسف بالخروج مع إخوته للرَّعْي أو السَّبْق؛ خوفًا عليه أن يصيبه شيء من مكرهم، ولم يصرح لهم بشيء من ذلك، ولكن حاله كانت تنطق بذلك، فحاول الإخوة استرضاء أبيهم محاولين استصحاب يوسف معهم؛ فاستمالوا قلبه، وحركوا فيه العواطف بنداء الأبوة؛ حتى يعدل عن تصميمه على عدم خروج يوسف معهم، فقالوا بعد اتفاقهم على إبعاده: يا أبانا، ما لك لا تجعلنا أمناء على يوسف، مع أنه أخونا، ونحن نريد له الخير، ونشفق عليه ونرعاه، ونخلص له النصح والعناية، مع أنهم يريدون خلاف ذلك، فقد اتفقوا على أخذه وإلقائه في البئر، فلما نفوا عن أنفسهم التهمة ذكروا له مصلحة يوسف في إرساله معهم فقالوا:

١٢- ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ[(٢)] وَيَلْعَبْ[(٣)] وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝١٢﴾

---

(١) أصل (لا تأمنّا) تأمنُنا بنونين، فأُدغمت النون الأولى في الثانية، وصار النطق بواحدة مشددة، ورسمت في المصحف بنون واحدة، وقد قرأ أبو جعفر بالإدغام المحض، من غير روم ولا إشمام، وقرأ بقية القراء بوجهين : **الوجه الأول**: الإدغام مع الإشارة بالشفتين حال النطق بالإدغام من غير أن يظهر لذلك أثر في النطق، وهذا معنى الإشمام، ولا يوجد إشمام في وسط الكلمة إلا في هذه الكلمة، وهو يشير على أن أصل حركة النون هو الضم، ويتعين هذا الإشمام على القراءة بقصر المد المنفصل لحفص عن عاصم.

الوجه الثاني: هو الروم؛ أي: القراءة بنونين مظهرتين، مع اختلاس حركة النون الأولى؛ أي: خفض الصوت عند النطق بها، بحيث يسمعه القريب دون البعيد

(٢) لفظ (يرتع) فيه **خمس قراءات**: (أ) قرأ نافع وأبو جعفر بالياء وكسر العين، على أن الفعل مجزوم بحذف حرف العلة، مع إسناده إلى يوسف عليه السلام هكذا (يرتعِ). (ب) وقرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بالياء مع سكون العين، مضارع رتع صحيح الآخر مجزوم بالسكون هكذا (يرتعْ). (ج) وقرأ أبو عمرو وابن عامر بالنون وجزم العين لمناسبة (معنا) هكذا (نَرْتَعْ). (د) وقرأ البزي بالنون وكسر العين من غير ياء هكذا (نرتعِ). (هـ) وقرأ قنبل بالنون وكسر العين مع إثبات الياء وحذفها وصلًا ووقفًا، فله في الياء وجهان هكذا: (نرتعِي) وهكذا: (نرتعِ).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر (نلعب) بالنون، والباقون بالياء.

ثم أخذوا يرغبون أباهم، ويحببونه في ترك يوسف لهم؛ فأضافوا قائلين: أرسله معنا غدًا عندما نخرج إلى مراعينا، يتنعَّم بأكل الفاكهة، وكل ما لذَّ وطاب، ويدفع السآمة والملل عن نفسه بالاستجمام، وألوان الرياضة، واللعب المباح كالقفز والجري والتسابق معنا، وهو تحت رعايتنا وعنايتنا، ننصح له، ونحفظه من كل شيء نخافه عليه، وهكذا أخذوا يتحايلون على أبيهم؛ لإقناعه بخروج يوسف معهم؛ حتى يحققوا مآربهم ونواياهم السيئة فأجابهم يعقوب:

١٣- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ[١] أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾

في هذه الآية يبين يعقوب سبب امتناعه من خروج يوسف معهم بعيدًا عن مساكنهم، فقال: إن نفسي تتألم لفراق يوسف، وأخشى أن يفترسه الذئب حال غفلتكم عنه، ومنه يُعلم أن يوسف كان صغيرًا؛ لأنه يخشى عليه من الذئب ويخشى غفلتهم عنه، فالذي يمنعني أن أرسله معكم أمران:

الأمر الأول: إن خروجه معكم أمر يحزنني.

والأمر الثاني: أخاف أن يأكله الذئب وأنتم غافلون عنه.

وخَصَّ لهم الذئب؛ لأنه رأى في منامه أن الذئب قد شبَّ على يوسف، وقيل: لأن أرضه كانت مليئة بالذئاب.

قال أبومِجْلِز: لا ينبغي لأحد أن يلقِّن ابنه الشر، فإن بني يعقوب لم يدْرُوا أن الذئب يأكل الناس حتى قال لهم أبوهم: إني أخاف أن يأكله الذئب[٢].

فلما لقَّن يعقوب أبناءه أن الذئب يأكل الناس قالوا: أكله الذئب، فكانت إجابة إخوته:

١٤- ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ[٣] وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ[٤] ﴿١٤﴾﴾

---

(١) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من (ليحزنني أن) مضارع أحزن، والباقون بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزن، وفتح الياء الأخيرة وصلًا نافع وابن كثير وأبو جعفر.

(٢) ابن أبي حاتم (٧/٢١٠٨).

(٣) قرأ ورش والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر وأبو عمر بخلف عنه بإبدال همزة (الذئب) ياء في الحالين، وكذا حمزة عند الوقف حيث وقعت في القرآن.

(٤) قرأ الأزرق بترقيق الراء وتفخيمها من (لخاسرون) والباقون بالتفخيم.

قال إخوة يوسف محاولين إدخال الطمأنينة على قلب أبيهم وإزالة الخوف والحزن عنه: يا أبانا، يأكله الذئب ونحن عَشَرة أقوياء؟! إنا إذًا لخاسرون، لا خير فينا، ولا نفع يُرجى منا، ونستحق أن يُدعى علينا بالخسارة والوبال والدمار، فلما ذكروا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، سمح بإرساله معهم:

إِخْوَةُ يُوسُفَ يُلْقُونَهُ فِي الْجُبِّ وَيَكْذِبُونَ عَلَى أَبِيهِمْ

١٥، ١٦- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ[1] أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾

ومن ثمَّ استسلم الشيخ الكبير لأبنائه وأعطاهم يوسف، وبينما هم في طريقهم كانوا يوبخونه ويعذبونه، ولما وصلوا به إلى حافة البئر كي ينفذوا ما عزموا عليه من إلقائه فيه تعلق بهم، وظلَّ يبكي بصوت عالٍ؛ فنزعوا يده وأنزلوه في البئر.

وقيل: إن أيدي جبريل عليه السلام قد تلقته، وألبسته قميص سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي ألبسه إياه جبريل وهو في النار التي أعدها له النمروذ، فكانت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، ألبس جبريل هذا القميص ليوسف عليه السلام وهو في البئر.

قيل: إن يوسف جلس على حَجَرَ مرتفع في البئر؛ حتى جاء قوم مارُّون وهم في طريقهم إلى مصر؛ فأرسلوا الساقي لكي يجلب لهم الماء، وكان اسمه (مالك بن ذعر الخزاعي)؛ فأدلى دلوه في البئر، وظن أنه قد امتلأ بالماء، وإذ بطفل قد أُعطي شطر الحُسْن قد تعلق بالحبال، فقال الساقي: يا بشرى، هذا غلام، وأسروه بضاعة؛ أي: أخفوه لكي يبيعوه كما يباع الرقيق، والله عليم بما يصنعون.

وعندما ألقى إخوة يوسف به في الجب، أوحى الله إليه وحيًا حقيقيًّا: إنك يا يوسف، سوف تنبئهم بما حدث منهم، ويكون منك عتاب لهم، تخبرهم فيه عما حدث منهم، وهم لا يشعرون بك، وفيه بشارة بأنه سينجو ويجتمع مع إخوته ويمكَّن له في الأرض، وقد حدث كُلّ هذا كما جاء في نهاية السورة، فبعد نحو أربعين عامًا نبأهم يوسف بهذا الأمر.

---

(١) همزة (وجاؤوا) بالنسبة إلى الألف قبلها مد متصل، وهمزة (أباهم) بالنسبة إلى الواو قبلها مد منفصل، ويلغى البدل، عملًا بأقوى السببين.

والمعنى: فلما أقنع الإخوة أباهم، وأجابهم إلى ما طلبوا أرسله معهم، وذهبوا به إلى المكان الذي فيه الجب، على الطريق بين مصر والشام، على بُعد اثني عشر ميلًا من طبريَّة مما يلي دمشق، وعزموا على إلقائه في جوف البئر، ونفذوا ما أرادوا تنفيذه دون رحمة ولا شفقة، وأوحى الله إليه -وهو في البئر عن طريق الإلهام القلبي، أو عن طريق جبريل، أو عن طريق الرؤيا الصالحة- لتخبرنَّ إخوانك في المستقبل القريب بما فعلوه بك في الصغر، وهم لا يشعرون أنك أنت يوسف؛ لاعتقادهم أنك هلكت في البئر، وقد تحقق هذا في نهاية القصة.

وكان في وحي الله تعالى إلى يوسف وهو في الجب تأنيس يوسف، وتقوية قلبه، وهو في ظلمة الجب، وبشارته بما سيؤول إليه أمره من تجاوز هذه المحنة، وولايته أمر البلاد، وفي هذا تهوين المصاعب عليه، وشدٌّ على قلبه بالصبر، وإعطاؤه قوة معنوية تحوِّل الظلمة نورًا، والشدة رخاءً، والوحشة أنسًا.

ورجع إخوة يوسف إلى أبيهم عندما أقبل الليل بظلامه ليس معهم يوسف، وهم يتباكون متظاهرين بالأسى والحزن والجزع:

١٧- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

روي أن يعقوب لما سمع بكاءهم فزع، وقال: ما لكم يا بَنيَّ، وأين يوسف؟ فكان جوابهم أن قالوا: يا أبانا، إنا ذهبنا نتسابق عن طريق الرمي بالسهام، أو جريًا على الأقدام، وتركنا يوسف؛ لصغر سِنه عند ملابسنا وحوائجنا وزادنا؛ ليحفظها، فعدا عليه الذئب وافترسه، ولم نقصِّر في حفظه والاعتناء به، بل تركناه في مأمن، ولم نفارقه إلا وقتًا يسيرًا فأكله الذئب، ولم يُبقِ منه شيئًا لندفنه.

ونحن نعلم أنك لن تصدقنا فيما أخبرناك به، ولو كنا صادقين في حقيقة الأمر، وذلك لشدة محبتك ليوسف، وقولهم هذا يدل على ارتيابهم فيما يقولون، فالكاذب دائمًا يلجأ لمثل هذا الأسلوب، فيعاجل مَن يتهمه بمثل ذلك، وكان أبناء يعقوب يقولون لأبيهم: أنت لا تصدق بالصدق ولو كنا صادقين.

دَعْوَاهُمْ أَنَّ الذِّئْبَ قَدْ أَكَلَهُ

١٨- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

وبالإضافة إلى تباكي إخوة يوسف حينما رجعوا إلى أبيهم، فقد جاؤوا بقميصه معهم ملطخًا بدمٍ غير دم يوسف؛ ليشهد هذا الدم على صدقهم، وقد زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب فكان دليلًا على كذبهم؛ لأنه لم يمزق ولم يخرم، فقد أدرك يعقوب من قسمات وجوههم، ومن دلائل حالهم، ومن نداء قلبه المفجوع أن يوسف لم يأكله الذئب، وأنهم قد اصطنعوا حيلة مكشوفة ومخادعة لا يقبلها العقل ولا الفكر، فقال لهم: ليس الأمر كما تقولون، بل إن أنفسكم الأمارة بالسوء قد زيَّنت لكم أمرًا قبيحًا في شأن يوسف؛ فزعمتم أن الذئب قد أكله، وهذا الأمر القبيح ستظهره الأيام، فصبري صبر جميل على احتمال ما تصفون من الكذب، فإن الصبر على مثل ذلك من جهاد النفس، ومحاربة الهوى، ومقاومة الشيطان.

قيل: إنهم جاؤوا بشاة؛ فذبحوها ولطَّخوا قميص يوسف بدمها، وقد وصف الله تعالى ذلك الدم بأنه دم كذب، مبالغة فيه كأنه الكذب نفسه.

ويُروى أن يعقوب ﷺ أمسك بالقميص الملطخ بالدماء، وقال: كذبتم، لو أكل الذئب يوسف لشق القميص، وأخذ يقلب القميص ويقول: ما أرى به أثر ناب ولا ظُفُر، إن هذا لَسبُع رحيم.

وقيل: إنه قال: ما أحلمك من ذئب، تأكل ابني ولا تمزق قميصه[1]، يقول ذلك تهكمًا بهم، فكان القميص دليلًا ليعقوب على كذبهم، ودليلًا على براءة يوسف حين قُدَّ من دُبره، ومعجزة ليوسف حين أُلقِيَ على وجه يعقوب فارتد بصيرًا.

والصبر الجميل: هو الذي لا شكوى فيه ولا جزع، فإن من بَثَّ شكواه لم يصبر.

قال يعقوب: لقد زينتْ لكم أنفسكم أمرا قبيحا، فصبرى صبر جميل لا سخط فيه ولا

---

(١) انظر جملة من الآثار في ذلك عن ابن عباس وقتادة والحسن وغيرهم في «الدر المنثور» (٨/ ٢٠٧).

شكوى، وأستعين الله على ذلك.

ورد أن امرأة جاءت إلى شريح القاضي فبكت، فقال الشعبي: يا أبا أمية، أما تراها تبكي؟ فقال شريح: لقد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلَمة كاذبون، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق[١].

اسْتِخْرَاجُ يُوسُفَ مِنَ الْجُبِّ

١٩- ﴿وَجَآءَتْ[٢] سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ[٣] دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ[٤] هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

وبعد أن ألقى أبناء يعقوب أخاهم يوسف في البئر، تركوه وانصرفوا، فمرَّت به قافلة من المسافرين، كانوا متجهين من الشام إلى مصر، قيل: إنهم كانوا من أهل مدين، وقيل: إنهم كانوا من الإسماعيليين؛ أي: من أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ فنزلوا قريبًا من البئر، وهي بئر معروفة ببيت المقدس، وأرسلوا مَن يبحث لهم عن الماء؛ فوجد بئرًا؛ فأدلى دلوه فيها؛ فتعلق به يوسف فأخرجه، فلما رآه غلامًا فرح به واستبشر، فلما رأى حُسْنه وجماله قال: يا بشرى هذا غلام، والغلام من كان سنُّه بين العشر والعشرين، وكان سن يوسف يومئذ سبع عشرة سنة، وأخفى هؤلاء المسافرون خبر التقاط يوسف عمن يجاورون البئر من الناس، وعن غيرهم ممن يستقي منه، فكتموا أمره وأخفوه معهم، واعتبروه عرَضًا من عروض التجارة القابلة للبيع والشراء، والله عليم بما يعملونه بيوسف.

(١) «تفسير الفخر الرازي» (١٨/ ١٠١) وقد أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٨/ ٢٠٧).

(٢) أمال ابن ذكوان وحمزة وخلف ألف (وجاءت) وهشام بالفتح والإمالة، وفتحها الباقون، ومثلها (وجاؤوا).

(٣) أمال ألف (فأدلى) حمزة والكسائي وخلف، وللأزرق عن ورش الفتح والتقليل.

(٤) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف (يا بشرى) بألف مقصورة، وقرأ الباقون بفتح الياء، على إضافة على النداء وإضافة البشرى إلى المتكلم، وذكر ابن عطية في تفسيره أن ورشًا قرأ بسكون الياء، والصحيح أنه يقرأ بفتح الياء، ولا يسكنها إلا الكوفيون، وأمال ألفها حمزة والكسائي وخلف، ولابن ذكوان الفتح والإمالة ومثله شعبة، وقللها الأزرق ولأبي عمرو ثلاثة أوجه؛ هي: الفتح والتقليل والإمالة.

المِحْنَةُ الثَّالِثَةُ: مِحْنَةُ بَيْعِ يُوسُفَ عَبْدًا رَقِيقًا

٢٠- ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝٢٠﴾

وكان بعض إخوة يوسف يتردد على البئر، وبعضهم كان يجلس قريبًا منها، يرقبون ما يحدث له، فلما رأوا هذه القافلة قد التقطته، وأخفوه معهم؛ جاؤوا إليهم وقالوا: هذا عبد آبق من أمَّنا، وقد وهبْته لنا ونحن نبيعه لكم؛ فباعوه إليهم بثمن قليل من الدراهم، قيل: عشرون درهمًا، وقيل: خمسة دراهم، وكانوا غير حريصين على بقائه معهم، راغبين في التخلص منه بأقل ثمن، وكان بيعه حرامًا؛ لأن الحُر لا يباع، وهم لا يعلمون منزلته عند الله تعالى، فلا يعلمون أنه سليل الأنبياء، ولا يعلمون أن الله تعالى قد أراد ذلك لما يدخره له في المستقبل القريب، وأنه سيكون أمينًا على خزائن مصر، يصرِّف شؤون الدولة في أحلك أوقاتها أيام المجاعة.

٢١- ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢١﴾

ولما ذهب المسافرون وأخذوا يوسف معهم إلى مصر، باعَتْه القافلة في سوق مصر السفلى، أي: في مدينة منف أو منفيس، كما يُباع الرقيق، واشتراه (قطفير) وزير خزانة مصر، أو رئيس الشرطة من قبل الملك (الريان بن الوليد) وقال عزيز مصر الذي اشترى يوسف لامرأته (زليخا) ويقال لها: راعيل، أكرمي مثواه في إقامته بيننا، وأكرميه في المطعم والملبس، عسى أن ينفعنا حين يكبُر، أو نتخذه ولدًا نستمتع به، وكان عزيز مصر رجلًا حصورًا ليس له ولد، وكما نجينا يوسف من الجب ونجيناه من كيد إخوته، مكنا له في أرض مصر، وجعلناه يتولى شؤون البلاد فيها، وعلمناه تفسير الرؤيا، يعرف منها ما سيقع في المستقبل من الحوادث والأحوال.

وكان يوسف في بيت عزيز مصر يعيش فيه بعز وأمان بعد نجاته من القتل وإخراجه من الجب، وحكم الله نافذ، لا يرده شيء، ولا يعجزه أمر، فهو سبحانه يفعل ما يشاء، ولا يغلبه شيء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون فضل الله تعالى وحكمته.

قال ابن مسعود ﷺ: أفرس الناس ثلاثة:

١- العزيز حين تفرَّس في يوسف فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

٢- والمرأة التي أتت موسى فقالت لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦].

٣- وأبو بكر حين استخلف عمر[1].

اصْطِفَاءُ يُوسُفَ عليه السلام

٢٢- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

ولما بلغ يوسف أشده حوالي ثلاثة وثلاثين عامًا، ولم يقل سبحانه: (واستوى) كما قال عن موسى عليه السلام في سورة القصص [١٤] ولعل لفظ (استوى) يفيد تمام الأشد؛ أي: أربعين عامًا، فالآية تشير إلى ما دون ذلك، قال ابن عباس ﷺ: بلغ أشده ثلاثًا وثلاثين سنة[2].

والمعنى: أن الله تعالى أعطي يوسف عليه السلام مقدمات النبوة والرسالة والعلم والحكمة، كما قال سبحانه عن نبيه لوط عليه السلام: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤] ويوسف أيضًا لما بلغ أشده آتيناه حُكْمًا.

والحُكْم: هو الفصل في القضاء، **والعلم:** هو التفقه في الدين؛ أي: آتيناه الفقه والعلم والعقل قبل النبوة، وبمثل هذا الجزاء الذي جزينا به يوسف نجزي به المحسنين.

والمحسن: هو الصابر على النوائب، الذي يُتقن عمله، ويخشى ربه في خلوته وجلوته.

ويستدل بعض أهل العلم على نبوة يوسف بهذه الآية إلى جوار آية سورة غافر ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤] والأظهر أن يوسف قد أُعطي النبوة والرسالة وهو في السجن حين دعا مَن فيه إلى عبادة الواحد القهار، وعدم الإشراك بالله تعالى.

---

(١) «تفسير سعيد بن منصور» (١١١٣) وابن سعد (٣/ ٢٧٣) وابن أبي شيبة (١٤/ ٥٧٤) والطبراني في «الكبير» (٨٨٢٩) والحاكم (٢/ ٣٤٥).

(٢) الطبري (١٣/ ٦٧) وابن أبي حاتم (٧/ ٢١١٨) والطبراني (٦٨٢٩).

المِحْنَةُ الرَّابِعَةُ: فِتْنَةُ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ

٢٣- ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ(١) لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ(٢) مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

ليس المراد من هذه الآية وما بعدها أن قصة امرأة العزيز حدثت ليوسف بعد أن بلغ أشده وبلغ مبلغ الرجال، وآتاه الله العلم والحكمة، فالقرآن لا يأتي بالحوادث مرتبة حسب ترتيبها الزمني ككتب التاريخ، ولكنه كتاب هداية وعبرة وإعجاز، فقد يذكر القرآن قصة لاحقة قبل قصة وقعت بعدها، فلا يلزم أن تكون قصة امرأة العزيز وقعت بعد بلوغ يوسف عليه سن الأشدّ، فقد علمنا أن يوسف ﷺ لما نجاه الله تعالى من الجبِّ كان سنُّه -على أكثر الأقوال- سبعة عشر عامًا، وليس بين خروجه من البئر وبيعه رقيقًا وشراء عزيز مصر له إلا وقت قصير، لا يبلغ أشهرًا.

وقد جاءت هذه الآية بعد أن وصف الله تعالى يوسف ﷺ بأنه من المحسنين في الآية قبلها، فكانت هذه الآية المبينة لنجاة الله له من كيد امرأة العزيز مكافأة من الله تعالى له على إحسانه، فهي تبين ما حدث ليوسف وهو في منزل العزيز، بعد أن أمر امرأته بإكرام مثواه، وأنها نظرت إليه بعين تخالف العين التي نظر بها إليه زوجها، وأن الله قد حفظه من الوقوع في حبائلها، وهو في رَيْعان الشباب، وحياة العزوبة، والشهوة العارمة.

فقد طلبت امرأة العزيز من يوسف فعل المنكر، ودعَتْه إلى ذلك بكل رفق ولين، وتوسلت إليه بكل الوسائل؛ ودعتْه إلى نفسها مع التحايل والإغراء، وقد استعملت امرأة العزيز **ألوانًا ثلاثة** من دواعي الغواية؛ وهي:

---

(١) في قوله تعالى (هيت لك) أربع قراءات:

(أ) قرأ نافع وابن ذكوان وأبو جعفر بكسر الهاء وفتح التاء، بينهما ياء مديَّة، هكذا (هيتَ لك).

(ب) وقرأ ابن كثير بفتح الهاء وضم التاء، بينهما ياء ساكنة، هكذا (هَيْتُ لك) تشبيهًا لها.

(ج) وقرأ هشام بكسر الهاء، بعدها همزة ساكنة، مع فتح التاء وضمها، هكذا (هِئْتَ) و (هِئْتُ) على معنى: تهيأ لي أمرك، وتهيأت لك.

(د) وبقية القراء بفتح الهاء وسكون الياء وفتح التاء، هكذا (هَيْتَ لك).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الاضافة من (ربي أحسن) والباقون بإسكانها.

١- مراودة يوسف عن نفسه (أي: عن عفافه) بأن يُسْلم نفسه إليها، ويمكنها مما تريد.

٢- أنها غلَّقت الأبواب.

٣- قالت له: لقد أعددت نفسي وتهيأت وتزينت لك.

فهذه ثلاثة أنواع من الغواية، ولكن يوسف عليه السلام يدرك أن من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: شاب نشأ في طاعة الله، ورجل دعَتْه امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله[1].

ويوسف عليه السلام شاب نشأ في طاعة الله، وآتاه الله العلم والنبوة، وعصَمهُ كما عصم سائر الأنبياء من الوقوع في المعاصي، وقد دَعتْه امرأة حَسْناء ذات منصب وجمال، وهو يخدُم في قصرها، وهي تأمره وتنهاه، وليس في وُسعه إلَّا أن يطيع أمرها، ومع ذلك فقد توددت إليه كما يتقرب المحب إلى مَن يحب، ولكنه أبى وامتنع.

فالمراودة: طلَبٌ برفق ولين ومخادعة، وقد كان يوسف في قَصْرها سنوات، واكتملت رجولته داخل القصر، وقد أعطاه الله نصف الحُسْن، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ في حديث الإسراء والمعراج، حين استفتح جبريل عليه السلام السماء الثالثة؛ فوجد النبي ﷺ فيها يوسف عليه السلام وقد أعطي شطر الحُسْن والجمال.

والقرآن يعلمنا الأدب؛ فيتحاشى ذِكْر أسماء النساء تكريمًا لهن، وكلما ذاع اسم المرأة وانتشر كان ذلك أمرًا غير محمود بالنسبة لها، فإن كانت المرأة من أهل السوء وذاع صيتها بين الناس فإنها تكون أقرب إلى النار.

والقرآن لم يصرح باسم امرأة إلا مريم، وكان ذلك لهدف عظيم؛ لأن النصارى قالوا عن المسيح: عيسى ابن مريم، إنه ابن الله -حاشا لله-.

ومن عادة العرب ألا تَذْكُر أسماء نسائهم في مجتمعاتهم أمام الناس؛ ولذا فإن القرآن لم يصرح باسم امرأة العزيز، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ أي: تحت

---

(١) ينظر: حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٦٦٠، ١٤٢٣، ٦٤٧٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٣١).

سلطانها، ثم إنها أحكمت غلق الأبواب، قيل: إن عددها سبع، ثم دعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ بفتح التاء وضمها، أي: هلم وأقبل فقد تجملتُ وتحسَّنتُ وتهيأت لك، فماذا كان موقف يوسف ﷺ؟ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعتصم بالله وألجأ إليه، وأستعين به من الوقوع في الفاحشة.

وكان من الممكن أن تحْدُث الجريمة، ولا يَعرِفُ عنها أحدٌ، ولكن علَّام الغيوب هو الذي يحكي لنا ما حدث، ويُطْلِعنا على ما خفي علينا، فقد استجار يوسف بربه من خيانة سيده الذي أكرمه وأحسن نزله، فلا يجوز أن يخونه في أهله، فيقابل الإحسان بالإساءة.

قال يوسف: إني أعتصم بالله تعالى أن يعصمني من الزنى، فإن الله ﷻ قد حفظني وحماني ونجَّاني من الجب، وأكرمني العزيز في هذا المنزل، وأحسن إقامتي فيه، ويجب عليَّ ألا أخونه؛ لأنه سبحانه لا يفلح الظالمون المتجاوزون الحلال إلى الحرام.

والضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ الأولى يعود إلى الله تعالى، ويذكُر بعض المفسرين أنه يعود على رب القَصْر؛ أي: صاحبه، وهو العزيز واسمه (قطفير).

أما ضمير ﴿إِنَّهُۥ﴾ الثانية فيعود على الله تعالى قولًا واحدًا.

عَشَرَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى عِصْمَةِ يُوسُفَ عليه السلام

٢٤- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا[(١)] بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ[(٢)] إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ[(٣)] ﴿٢٤﴾﴾

ولقد مالت نفس امرأة العزيز لفعل الفاحشة بعزم وقصد وتصميم أكيد، واستعدَّت لذلك بوسائل الإغراء المختلفة، ومالت نفس يوسف بمقتضى الطبيعة البشرية دون عزم ولا قصد، ولولا أن الله تعالى صرفه عن الوقوع في الفاحشة لهمَّ بها؛ فبرهان ربه هو صَرْفه عن الهمِّ بها؛ ليدفع عنه السوء والفاحشة، فيوسف من عباد الله الذين طهَّرهم ربهم

(١) أمال الراء والهمزة من (رأى) ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وقللهما ورش، وأمال أبو عمرو الهمزة فقط.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية من (الفحشاء إنه) والباقون بتحقيقها.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بكسر لام (المخلصين) اسم فاعل. والباقون بفتحها اسم مفعول.

واصطفاهم لرسالته، وأخلصهم لطاعته وتوحيده، فكانوا مخلصين لله في كل أمورهم، ومن ذلك عدم الإقدام على المعصية؛ لعصمتهم وحفظ الله لهم.

وقد وضَّح القرآن الكريم براءة يوسف ﷺ من الوقوع في الهمِّ بمثل ما هَمَّت به المرأة، فذكَر شهادة كل مَن له تعلُّق ببراءته ﷺ، وفوق ذلك شهادة رب العالمين ببراءته.

أما مَن لهم تعلُّق ببراءة يوسف فهم: يوسف نفسه، وامرأة العزيز، وزوجها، ونسوة المدينة، والشهود.

وأما شهادة رب العالمين ببراءة يوسف ﷺ، ففي قوله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فقد شهد الله له:

أولًا: بأنه صرف عنه السوء. **ثانيًا**: صرف عنه الفحشاء.

ثالثًا: شهد له أنه من عباده. **رابعًا**: شهد له بالإخلاص.

فهذه **أربع شهادات** من رب العالمين بنفي التهمة عن يوسف.

وقد جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية في قوله: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.
وقوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾.

أما شهادة زوجها فقد جاءت في قوله لزوجته: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

أما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾.
وقولها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وفي شهادة نسوة المدينة ببراءته فقد قالوا: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

أما شاهد يوسف أو اعتراف زوجها، ففي قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1].

وهذه عشرة **أدلة على عصمة يوسف** ﷺ وعدم العزم على مطاوعته للمرأة:

الأول: امتناعه الشديد ووقوفه في مواجهة امرأة العزيز بكل عزم وصلابة ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير الفخر الرازي» (١٨/ ١١٦) و«أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي في تفسير الآية.

الثاني: فراره منها بعد أن غلَّقت الأبواب وشدَّدت عليه الحصار ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾.

الثالث: إيثاره السجن على اقتراف الفاحشة ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾.

الرابع: شهادة الله تعالى بأنه بريء عن الهمِّ بالفاحشة في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾.

الخامس: شهادة الطفل الذي أنطقه الله تعالى وهو في المهد ببراءة يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾.

السادس: اعتراف امرأة العزيز ببراءة يوسف وعفَّته، والاعتراف سيد الأدلة؛ حيث قالت: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

السابع: استغاثته بربه؛ لينجيه من كيد النساء ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾.

الثامن: إدخال يوسف السجن؛ لدفع كلام الناس عن امرأة العزيز ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٣٥﴾.

التاسع: عدم قبوله الخروج من السجن إلا بعد ظهور براءته من التهمة ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

العاشر: الاعتراف الصريح من امرأة العزيز ببراءة يوسف عليه السلام ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1].

وكل دليل من هذه الأدلة كافٍ في نفي التهْمة عن يوسف وتبرئة ساحته من الهمِّ بالمرأة.

هذا: وهمُّ امرأة العزيز كان همًّا بمعصية مقرونًا بالقَصْد والعزم على الفعل، أما همُّ يوسف عليه السلام فقد كان مجرد خاطرة دون عزم ولا قصد، كما تميل نفس الصائم إلى الماء في الحر الشديد، ولكن دينه يمنعه من الشرب؛ لأن دينه لا يسمح له بذلك؛ نظرًا لما غرسه الله في قلبه من تحريم ذلك، وهذا هو البرهان الذي حال بين يوسف وبين الوقوع في المحرم.

---

(١) ينظر: تفسير الآية للشيخ محمد علي الصابوني في «صفوة التفاسير».

مراحل الهم: والهمُّ: هو المقاربة من الفعل من غير وقوع فيه، وهو على أربع مراحل:

المرحلة الأولى: تبدأ بخاطرة القلب، مجرد خاطر دون قصد ولا هم، وهذه المرحلة لا يؤاخذ عليها العبد.

المرحلة الثانية: مرحلة حديث النفس يقال: همَّ فلان؛ أي: حدَث في فكره وخاطره وقلبه، ومن هذا القبيل ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس ﷺ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة**»[1].

زاد في رواية: «**ومحاها الله، ولن يهلك على الله إلا هالك**»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات].

المرحلة الثالثة: مرحلة القصد والهم والعزم دون وقوع الفعل.

المرحلة الرابعة: مرحلة الإصرار والفعل.

وهمُّ يوسف ﷺ هو أول هذه المراحل، فقد فكَّر في أمر المرأة وشأنها.

أما همُّ المرأة زوجة العزيز: فهو الإصرار والفعل وإرادة وقوع الفاحشة، وهو آخر المراحل.

فالهمُّ يبدأ بخاطرة القلب، ثم حديث النفس، ثم العزم، ثم الفعل أو الترك، وهمُّ الخاطر لا مؤاخذة عليه، وهمُّ الفعل يُؤاخذ عليه العبد، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة.

معنى البرهان: ويوسف ﷺ فكَّر في أمر المرأة، ولولا أنه رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه وجد برهان ربه فلم يهم بها، فالهم منفي لرؤية البرهان، وهو آية من ربه حالت بينه وبين القصد والعزم، والهم بالسيئة مع عدم الوقوع فيها لا ينافي عصمة الأنبياء، وهذا البرهان هو ما آتاه الله من الحكم والعلم، ومعرفته بالحلال والحرام، وأن الزنى حرام.

---

(١) هذا لفظ مسلم برقم (١٣١) وأخرجه البخاري برقم (٦٤٩١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٣١).

١- فوازع التقوى في نفس يوسف، هو الذي حال بينه وبين الفاحشة.

٢- والبرهان -أيضًا- هو الحُجة والعصمة التي حالت بينه وبين أن ينتقل هذا الهم من مرحلة الخاطرة إلى مرحلة الفعل.

٣- ويقال: إن يعقوب عليه السلام قد تجلَّى ليوسف وظهر له في صورته، عاضًا على إصبعه محذِّرًا له، أو إنه: ضربه في صدره وخرجت شهوته من أنامله.

٤- أو إنَّ امرأة العزيز سترَتْ صنمًا لها بثوب، حينما غلَّقت الأبواب؛ حتى لا يراه يوسف، فيستحي منه - على حد زعمها - فقال يوسف: أنا أحق أن أستحيي من ربي؛ فهرب منها.

٥- أو إنَّ جبريل عليه السلام تمثَّل ليوسف؛ فزجره ونهاه.

٦-أو إنّه قرأ في سقف البيت (ولا تقربوا الزنى) وغير ذلك مما ذكره بعض المفسرين، وهو من الإسرائيليات التي لم يثبت فيها خبر صحيح.

والصحيح أن البرهان الذي رآه يوسف هو علمه بتحريم الزنى، وعصمة الله له من الوقوع في الفاحشة، وما آتاه الله من الحكم والنبوة، بدليل قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾

والفحشاء: هو الزنى، **والسوء:** هو مقدمات الزنى.

ويوسف من الذين أخلصوا لربهم، أو الذين أخلصهم الله له واجتباهم.

وبعض المفسرين يقول: إن يوسف همَّ بضربها، وهذا بعيد شيئًا مّا عن الحقيقة ، ولسنا في حاجة إليه، فإن امرأة العزيز قد شهدت واعترفت بأن يوسف امتنع عنها وأبَى الفاحشة فقالت: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ وقالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ كما شهدت النسوة اللاتي قطعن أيديهن وقلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾.

وقد كان المانع ليوسف من إجابتها: تقوى الله تعالى، وبرهان الإيمان الذي في قلبه، وهو يقتضي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهو من عباد الله الذين أخلصهم الله له واختارهم، فكان مخلصا لله في طاعته، وصان نفسه من الظلم، وراعي حق سيده.

شَقُّ الْقَمِيصِ مِنْ خَلْفٍ

٢٥- ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

لقد همَّت امرأة العزيز بيوسف تريد الفاحشة، وهمَّ يوسف بالفرار منها متوجهًا نحو الباب؛ للهرب منها، ولحقت به امرأة العزيز، فشدَّته وجذبت قميصه من خلف؛ لتحول بينه وبين الخروج؛ فشقت القميص من خلف، فهي طالبة وهو مطلوب، والذي يطلب الآخر يجره من الخلف؛ ولذا قدَّت قميصه من الخلف حين استبقا الباب؛ حيث أسرع هو إلى الخروج، وأسرعت هي للإمساك به.

ووجدا سيدها عند الباب الذي تسابقا للوصول إليه، وسيدها -في اللغة المصرية القديمة- هو زوجها، أو أن القرآن قال: سيدها، ولم يقل: سيده؛ لأن يوسف لم يكن رقيقًا ولم يكن مملوكًا للعزيز على وجه الحقيقة، ولم يستطع العزيز أن يدخل؛ لأن الباب كان مغلقًا، ولما فوجئت به امرأة العزيز أرادت أن تنفي التهمة عن نفسها، فقالت: ما جزاء مَن أراد بامرأتك فاحشة إلا أن يسجن أو يعذب العذاب المؤلم؟ فحددت العقوبة بأحد أمرين: إما أن يسجن، وإما أن يُضرب ويؤدب، وهكذا انقلب الظالم مظلومًا، والبريء متهمًا كما يقول الْمَثَل: (ضربني وبكى وسبقني واشتكى) لقد أرادت أن تنتقم من يوسف لمَّا لم تنل مرادها منه.

شَاهِدُ يُوسُفَ

٢٦، ٢٧- ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

ولم يكن ليوسف أن يتحدث عن هذه القصة لولا اتهام امرأة العزيز له، فكان لَا بُدَّ له أن ينفي التهمة عن نفسه، قال يوسف: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ أي: هي التي طلبت مني الفاحشة، فشهد صبي في المهد من أهلها أو شهد شاهد من أهل بيتها: إن كان قميصه شُق من الأمام فصدقت في اتهامها له وهو من الكاذبين، وإن كان ثوبه قد شق من الوراء فهي كاذبة وهو صادق؛ لأن المنطق يقضي بشق الثوب من الخلف إن كانت هي الطالبة له

وهو الهارب منها، لقد قيض الله ليوسف مَن يشهد ببراءته من أهلها، ولو كان يوسف غير واثق ببراءة نفسه ما استطاع أن يواجه المرأة في حضرة زوجها، ولو لم تبادر هي بتلك التهمة أمام زوجها؛ لاستحى يوسف أن يقول ما قال، لكنها كانت البادئة.

قيل: وكان مع العزيز وهو عند الباب مستشار الملك، وهو ابن عم أو ابن خال للمرأة، وكان رجلًا حكيمًا، فشهد بالحُكْم الذي يفصل في القضية، قال: إن كان قميصه قُدَّ من أمام، فمعنى ذلك: أنه هو الذي كان يطلبها، وإن كان قميصه قُدَّ من الخلْف، فمعناه: أنها هي التي كانت تطلبه، وكون الشاهد من أهلها أوجب، لإقامة الحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف، وأنفى للتهمة.

وشهادة الشاهد تصلح أساسًا للتحقيقات الجنائية التي تكشف عن الحقائق، وتأخذ بالقرائن، وتبين وجه الصواب في المسألة، والظاهر أن الشاهد كان يظن صدق المرأة، فأراد أن يقيم دليلًا على صدقها؛ فوقع عكس ذلك؛ كرامة ليوسف عليه السلام.

وهذا الشاهد المذكور في الآية قيل: هو ابن عمها، كان رجلًا حكيمًا[1] وكان واقفًا مع العزيز عند الباب، وهو رجل كبير، وقيل: كان صبيًا في المهد، فأنطقه الله تعالى.

واستدلوا على ذلك بحديث ابن عباس: **«تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم»**[2].

وهذا الحديث مُخَرَّج في الصحيحين دون ذكر شاهد يوسف.

وكان الشاهد من أهل المرأة؛ ليكون أقوى في نفي التهمة عن يوسف، مع وجود القرائن الأخرى؛ كتزيين المرأة لنفسها، وتغليقها للأبواب، وكون يوسف في قصرها مملوكًا لها، وقَدِّ القميص من الخلف، مما يدل على هروبه منها وطلبها له.

---

(١) قاله زيد بن أسلم وقتادة، ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٢٩) والطبري (١٣/ ١٠٩).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١/ ٣١٠) برقم (٢٨٢١، ٢٨٢٢) بإسناد حسن، والطبراني (١٢٢٨٠) عن عبد الله بن أحمد عن أبيه وابن حبان (٢٩٠٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٨٩) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٩٦) من طريق حماد بن سلمة، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ورواه الطبري (١٦/ ٥٥) عن أبي هريرة موقوفًا، والقول بهذا أولى لوجود دليل عليه، وبه قال جمع من الصحابة والتابعين.

مَوْقِفُ الْعَزِيزِ

٢٨- ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

فلما رأى الزوج بنفسه أن الثوب قد شُق من الخلف؛ ظهرت له براءة يوسف، واكتفى بلوم المرأة على ما حدث منها، وأن ادِّعاءها عليه من كيد النساء، فقال لها: إن هذا الكذب الذي اتهمت به هذا الشاب هو من جملة مكركُن -أيتها النساء- إن مكركنَّ عظيم، وهو أعظم من كيد الرجال، وأعظم من كيد الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦] وذلك لأن الشيطان يكيد للإنسان ويوسوس له في الخفاء، ويمكنه أن يتغلب عليه بقوة الإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل].

أما المرأة فإنها إذا تعرضت للرجل بوسائل الإغراء تسلب عقله فتغلبه، حيث يكون الشيطان معها؛ فيسوِّل لها المعصية، وينفخ أوداجها، ويغريها بلذة الفاحشة؛ ولذا فإن النساء حبائل الشيطان، والمرأة تكيد للرجل وهي ماثلة أمامه تتفنَّن في إغوائه وإغرائه، وإن قرأ عليها آية الكرسي أو حتى القرآن كله لا تنصرف، ما دامت لا تخاف الله تعالى، أما الشيطان فإنه يخنس عند ذكر الله تعالى، وينصرف عند قراءة آية الكرسي والاستعاذة بالله منه.

٢٩- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ[1] ﴿٢٩﴾﴾

ويبدو أن العزيز كان رجلًا قليل الغيرة، فقد طلب من يوسف الستر وعدم ذكر هذا الحديث؛ حتى لا ينتشر ويشيع بين الناس، واكتفى بأن طلب من المرأة الاستغفار والتوبة، مما ألمَّت به من الإثم والخطيئة ورمت به يوسف، وقد يكون الرجل مولعًا بحب المرأة وهو سهل لين العريكة، ولا يريد أن يغضبها كما هو الشأن في المجتمع الغربي، يقابل الفضائح الجنسية بالبرود والرخاوة، ولم يتخذ العزيز قرارًا بإبعاد يوسف عن قصره، وهذا شأن أهل الطبقات المترفة، وقيل: إن هذا من كلام الشاهد.

---

(١) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة من (الخاطئين) ومثله حمزة في الوقف عليها.

هذا: والمتأمل في قصة امرأة العزيز يجد أن الخلوة بين الرجل والمرأة هي السبب فيما حدث، سواء أكانت الخلوة بالسائق، أو بالحارس، أو بالخادم، أو بالعامل، أو بأخي الزوج أو زوج الأخت، أو بابن العم أو ابن العمة، أو ابن الخال، أو ابن الخالة، أو المدرس، أو زميل العمل أو زميل الدراسة، أو ابن الجيران، ونحو ذلك، ولذلك فقد حرم الإسلام الخلوة بالأجنبية ولو كانت أمة سوداء؛ سدًا لباب وقوع الفتنة، ومنعًا من تهيئة الوسائل للوقوع في الفاحشة والاقتراب منها.

وفي حديث عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والدخول على النساء**» فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو يا رسول الله؟ قال: «**الحمو الموت**»[1] **والحمو**: هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه.

وسئلت امرأة عن سبب انحرافها فقالت: قُرب الوساد، وطول السواد؛

أي: حملني على ذلك قربي ممن أحبه، وكثرة محادثتي له، وخلوتي به.

وينبغي على المسلم إذا همَّ بفعل معصية أن يبادر بكف النفس عن الوقُوع فيها، كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وحديث الثلاثة الذين آواهم الغار؛ ففرج الله عنهم ما هم فيه، ومنهم الذي قام عن المرأة؛ خوفًا من الله تعالى بعد أن قعد بين شعبها الأربع.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**قالت الملائكة: يا ربنا، ذلك عبدك يريد أن يعمل سيئة -وهو تعالى أبصر به- فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرَّايَ**»[2].

وفي حديث أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلم**»[3].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٣٢) و «صحيح مسلم» برقم (٢١٧٢).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٢) و «صحيح مسلم» برقم (١٢٩).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٢٥٢٨) و «صحيح مسلم» برقم (١٢٧).

شُيُوعُ خَبَرِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ بَيْنَ نِسَاءِ الطَّبَقَةِ الْمُتْرَفَةِ

٣٠- ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ[1] ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

قيل: إن امرأة العزيز باحت بالسر لبعض خليلاتها، وكأنها أرادت التشاور معهن، أو أرادت الارتياح بالحديث إليهن، فإن مَن أحب شيئًا أكثر مِن ذكره؛ ولذا فشا الخبر وانتشر بين نسوة العاصمة المصرية، فتحدثْن به، وأنكرْن على امرأة العزيز أنها تحاول أن توقع يوسف في غرامها، وهي صاحبة مكانة عالية ومنزلة رفيعة، ولا يليق بها أن تدعوه لنفسها، إنها لفى ضلال بيِّن وأمر مستقبح.

ويصرح القرآن الكريم لأول مرة في مطلع الربع الثاني أن امرأة العزيز هي التي راودت يوسف عن نفسه، وأن الخبر قد شاع في مصر، وأخذت النسوة تتحدث عنه، وهؤلاء النسوة قيل: كُنَّ خمسًا: امرأة ساقي الملك، وامرأة خبازه، وامرأة الحاجب، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة صاحب السجن.

وقيل: إن عدد النسوة كان أربعين امرأة، من أشراف المدينة، وعاصمة مصر آنذاك كانت منطقة (عين شمس) حيث كان يقيم العزيز، وانتشر بين النسوة أن امرأة العزيز قد ملأ شغاف قلبها (أي: غلافه) حب يوسف ﷺ، وتعلق شغاف قلبها به، فهي تراوده عن نفسه، وهو يمتنع عنها، إنا لنراها في هذا الفعل لفي ضلال واضح، فاللائق بها أن تكون في عزة وعفة.

قال سفيان: الشغاف جلدة رقيقة بيضاء تكون على القلب، وحب يوسف خرق ذلك الجلد حتى وصل إلى القلب[2].

وفي حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «**أُعطي يوسف وأمه شطر الحُسْنِ**»[3].

---

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب على (امرأة) بالهاء، وهي لغة قريش، ووقف الباقون بالتاء، وهي لغة طيئ، وأمالها الكسائي وقفًا، وهي مرسومة في المصحف بالتاء المفتوحة.

(٢) ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣١).

(٣) «المسند» (١٤٠٥٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه الحاكم (٢/ ٥٧٠) والطبري (١٣/ ١٣٦) وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣٦).

وقال محمد العبداني: قال رجل ليوسف: إني أحبك، فقال له يوسف: لا أريد أن يحبني أحد غير الله، مِن حب أبي أُلقيتُ في الجبِّ، ومن حب امرأة العزيز أُلقيتُ في السجن[1].

اِعْتِرَافُ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ فِي مَجْلِسِ النِّسْوَةِ

٣١- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً[2] وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ[3] ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ[4] لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾

فلما سمعت امرأة العزيز بهذه المقولة التي تنال من شرفها في غيبتها؛ أرسلت إلى النسوة تدعوهن لزيارتها وأعدَّت لهن مجلسًا، ووسائد يتكئْنَ عليها، وقدمتْ لهن الطعام والفاكهة، وفيها ما يُقطع بالسكين، وكان الأكل بالسكين من عادتهن عند أكل اللحم والفواكه في المجتمع المصري المترف، وسُمي حديث النسوة مكرًا؛ لأنه كان خفية فيما بينهن، ولأنهن أردْن أن يتوصلْن بكلامهن إلى رؤية يوسف الذي افتتنت به امرأة العزيز، حتى تغضب وتُريهنَّ إياه فيعذرنها، وسمى هذا مكرًا وتحايلًا.

وكانت امرأة العزيز قد وصفت يوسف لهن، فطلبْن رؤيته؛ فأرادت أن تلتمس لنفسها عذرًا عندهن في حبه، فأعدته للقائهن ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وكان لا يستطيع مخالفتها، فهو في قصرها وتحت سلطانها ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي: أعظَمْنه وأجللنه، وأخذهن حُسْنه وجماله وجرحْن أصابعهن بالسكين وهن يقطعن الطعام من فرط الدهشة والذهول ﴿وَقُلْنَ﴾ متعجبات ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذ الله أن يكون هذا بشرًا، فقد أُعطي يوسف عليه السلام من الجمال الباهر ما كان آية للناظرين.

ولفظ ﴿حَٰشَ﴾ كلمة عربية تقال عند التبرئة من الشر، وتدل على المباعدة بين الإنسان والفعل المنسوب إليه، وقلن أيضًا ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ ليس هذا من جنس البشر، فجماله غير

(١) ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣٢).

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (متكأ) والنطق بكاف منصوبة منونة بعد التاء، وإذا وقف يبدل التنوين ألفًا، وسهلها حمزة عند الوقف.

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر التنوين وصلًا من (وقالت اخرج) والباقون بالضم.

(٤) قرأ أبو عمرو بألف بعد الشين وصلًا من (حاش) وحذفها وقفًا والباقون بحذف الألف في الوصل والوقف.

معهود في بني آدم ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ من ملائكة الله الكرام، وهذا تنزيه ليوسف عن صفات البشر في نظرهن، وبهذا فإن امرأة العزيز قد نجحت في كسب أصوات النسوة لصالحها وإعذارها فيما أقدمت عليه، وكان في تصرفها إثبات الحسن والجمال المفرط ليوسف.

٣٢- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

وعندئذٍ قالت امرأة العزيز للنسوة اللاتي قطعن أيديهن، مصرحة بما في نفسها من حب يوسف، بعد أن اشتركت النسوة معها في حبه، وشعرت بانتصارها عليهن: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ قالت ذلك بصوت مرتفع صريح دون استحياء ولا تلميح، والاعتراف بالجريمة أمر فاضح، فهو مجاهرة بمعصية الله.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملًا، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه**»[1].

فالمجاهر بالمعصية يكشف اللثام عن وجهه، ولو ستر نفسه لستره الله، والله تعالى يأمر بالستر ما لم يصل الأمر إلى الحاكم، والذين ينشرون الفضائح في وسائل الإعلام، على مرأى ومسمع من العالم يتوعدهم رب العالمين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٩].

وهذه امرأة العزيز تقول للنسوة: هذا الذي رأيتموه هو الذي لمتنني في حبه والافتتان به، ثم صارحتْهنّ بالأمر؛ فأعلنت أمامهن أنها أغرته بمواقعتها فلم يستجب وأبى إباء شديدًا، قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ امتنع بشدة، وطلب العصمة لنفسه.

وقد صرحت بذلك لمَّا علمت عدم الملامة عليها من النسوة، ولما شعرت امرأة العزيز أن نسوة العاصمة المصرية قد عذرْنها في شغفها بيوسف واشتركن معها في التعلق به، عندئذ أصرَّت على التمادي في الباطل، وتجرأت على مراودته مرة أخرى بمحضر من النسوة؛ فهتكت جلباب الحياء، وتوعَّدتْه بالسجن إن لم يفعل، وبعد أن كان الأمر سرًّا

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٠٦٩) واللفظ له، و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٠).

بينها وبينه، أصبح جهارًا نهارًا، دون أن تخشى لومًا ولا مقالًا، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾ أي: ولئن لم يطاوعني فيما أريده منه ليُعاقبنَّ بالسجن والحبس ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ الأذلاء المهانين، فأنا سيدته الآمرة الناهية، ولَا بُدَّ له أن يطيع أمري، وعندئذ اعتصم يوسف بربه ولجأ إليه:

هذا: والوقف على ﴿وَلَيَكُونًا﴾ حسب الرسم، بإبدال التنوين ألفًا.

يُوسُفُ يَلْجَأُ إِلَى رَبِّهِ كَيْ يَصْرِفَ عَنْهُ كَيْدَ النِّسْوَةِ

٣٣- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ[1] أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

ورد أن امرأة العزيز لما توعدت يوسف بالحبس والإذلال قالت له النسوة: أطع مولاتك، وافعل ما أمرتك به؛ ولذلك نسب يوسف طلب الفاحشة إليهن جميعًا في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ﴾ فلم ينسب الدعوة إلى امرأة العزيز وحدها، بل نسبها إلى الجميع.

لقد أحب يوسف السجن مع ما فيه من الألم والشدة وضيق النفس على ما يدعونه إليه من الاستمتاع ولذة الشهوة، ولما علم أنه إما أن يفعل الحرام وإما أن يُسجن، كان السجن أحب إليه من طلب النسوة؛ لأن فيه الخلاص من الحرام، وهذا موقف رجل أعده الله لأن يكون نبيًّا، فهو يُؤْثِرُ شظف العيش، وخشونة الفراش، وعذاب النفس على معصية الله تعالى، ويقول بلسان حاله: إذا كانت امرأة العزيز تملك سجني وعذاب جسدي، فإنها لا تملك ديني ولا خُلقي ولا روحي.

ثم فزع يوسف إلى ربه في هذا الوقت العصيب، ولجأ إليه في وقت اشتدت فيه الفتنة، واستفحل فيه أمر النسوة، وتغلب فيه حزب الشيطان؛ فطلب منه أن يكشف عنه هذه الغمة، وينجِّيه من كيد النسوة، وجدير بمن دعا ربه في وقت الشدة أن يخلِّصه من محنته، وينقذه من فتنته، ويجيب دعوته، لقد دعا يوسف ربه وسأله أن يصرف عنه كيد النسوة

---

(١) قرأ يعقوب بفتح السين من لفظ (السجن) في هذه الآية خاصة على أنه مصدر أريد به الحبس، والباقون بكسرها على أن المراد به المكان، ولفظ (أحب) ليس تفضيل؛ لأن يوسف عليه السلام لم يحب ما يدعونه إليه قط.

فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: أمِلْ إلى ما يدعونني إليه، فالعصمة منك يا رب، وأنت الحافظ، وإلا كنت من السفهاء الذين يرتكبون الإثم؛ لجهلهم بحق ربهم.

٣٤- ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

وقد استجاب الله تعالى لدعاء يوسف؛ لأنه دعاء خرج من قلب مظلوم، والله تعالى يجيب دعوة المظلومين؛ فصرف عنه كيد امرأة العزيز وصواحباتها من الوقوع في معصية الله ونجَّاه من مكرهن، وأدخل اليأس في قلوبهن من الطمع فيه، وهو سبحانه السميع لدعاء كل مَن دعاه، العليم بحاجة جميع خلقه وما يصلحهم.

المِحْنَةُ الْخَامِسَةُ: مِحْنَةُ دُخُولِ يُوسُفَ السِّجْنَ

٣٥- ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

ولما فشا الخبر في أرجاء المدينة؛ قالت امرأة العزيز لزوجها: إن هذا العبراني قد فضحني بين الناس، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر للناس، وإما أن تحبسه، فإن ذلك من المصلحة، ومع تضافر البراهين والأدلة على براءة يوسف، فقد بدا للعزيز وأصحابه إيداع يوسف في السجن مدة قصيرة أو طويلة؛ منعًا للفضيحة، وسترًا للمقالة، وكتْمًا لما شاع بين الناس، وكان ذلك بعد أن يئست المرأة من محاولاتها وإغرائها وتهديدها ليوسف، فقد كان زوجها مطواعًا لها، وجملًا ذلولًا، زمامه في يدها، حتى أنساه ذلك ما عاين من براهين براءة يوسف، فأخذ برأيها في سجنه؛ ليلحق الصَّغار به كما توعدته، وتم إيداع يوسف في السجن؛ ليأتي له بعد ذلك الرخاء والعز والسلطان وإظهار براءته للعالمين.

قال عكرمة: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْءَايَٰتِ﴾ قال: ما سألني عنها أحد قبلك، من الآيات: قدُّ القميص، وأثرها في جسده، وأثر السكين، وقالت امرأة العزيز: إن أنت لم تسجِنْه ليصدقنَّه الناس[1]، وقَدُّ القميص من دبر أهم الآيات.

---

(١) ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٣٩).

رُؤْيَا السَّجِينَيْنِ

٣٦- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ[١] أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ[٢] أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا[٣] بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

ودخل يوسف السجن مع براءته، ودخل معه في الوقت نفسه خبَّاز الملك وساقيه؛ بتهمة دس السم في الطعام، في محاولة من أشراف مصر لقتل المَلِك واغتياله، وكان الساقي قد تراجع عن قبول الاشتراك في اغتيال المَلِك، وقَبِلَ الخباز الرشوة، ثم أخبر كل منهما عن الآخر عند الملك قَبْل تناوله الطعام والشراب؛ فأمر بحبسهما، ودخلا السجن مع يوسف، وكان يوسف قد أخذ يدعو الضعفاء والمسجونين معه؛ لنبذ الشرك، وعبادة الله الواحد القهار وهو بداخل السجن، واشتهر يوسف بين السجناء بحسن المعاملة وكثرة العبادة، وعُرف بحسن الخلق، وتفسير الرؤيا، والأمانة والصدق.

فلما عَرف ذلك الفتَيان اللذان دخلا معه السجن؛ اقتربا من يوسف وأخبراه بحبهما له، فقال يوسف: ما أحبني أحد إلا وأصابني ضُر بسبب هذا الحب، أحبتْني عمَّتي؛ فاحتالت في بقائي عندها وأنا طفل صغير، بأن شدَّت منطقة جدِّي إسحاق عليَّ تحت ثيابي، وكانت هذه المنطقة يتوارثها أبناء يعقوب؛ فاتهموه بها، وبقي عند عمته بسبب ذلك حتى ماتت، وكان السارق يؤخذ بسرقته في شريعتهم، وأحبَّني أبي؛ فأُلقِيتُ في الجبِّ بسببه، وأحبتني امرأة العزيز؛ فدخلتُ السجن بسببها[٤].

طلب الفتَيان من يوسف تفسير رؤياهما، فقال أحدهما وهو الساقي: إني رأيت -في المنام- أني أعصر عنبًا؛ ليكون خمرًا، وأني دخلتُ بستانًا فيه أشجار من العنب؛ فقطعتُ ثلاثةَ عناقيد وعصرْتها في كأس، وسقيْتها للملك.

وقال الخباز: إني رأيت أني خرجتُ من مطبخ الملك، أحمل فوق رأسي ثلاث سلال

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أراني) في الموضعين معًا، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (أراني أعصر) و(أراني أحمل) وسكنها غيرهم.

(٣) قرأ أبو جعفر بخلف عنه بإبدال همزة (نبئنا) حرف مد وصلًا ووقفًا ومثله حمزة عند الوقف.

(٤) ينظر: «تفسير الخازن» للآية والطبري (١٣/ ١٥٤، ١٦٨) وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٢، ٢١٤٧).

من الخبز، وأن الطيور تأكل منه وهو فوق رأسي.

قالا: يا يوسف، أخبرنا بتأويله، إنا نراك من المحسنين العالمين بتعبير الرؤيا، المواسين للضعفاء والمساكين، المقرَّبين من الله عز وجل.

يُوسُفُ يُعَرِّفُ أَهْلَ السِّجْنِ بِنَفْسِهِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ

٣٧- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ(١) إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا(٢) بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ(٣) إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

وقبل أن يفسر لهما الرؤيا، أخذ يوسف يمهد لذلك بأن يعرفهما بنفسه وعقيدته ويدعوهما إلى عبادة الله وحده، ويقيم لهما الأدلة على وحدانية الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، وما فيه من الثواب والعقاب، ومن جملة ذلك أنه يعبر الرؤيا، يقول يوسف: وهذا التعبير للرؤى مما علمني ربي، إني آمنت بالله وأخلصت له العبادة، وابتعدت عن دين قوم لا يؤمنون بالله، وهم جاحدون بالبعث والجزاء.

وقد تخول يوسف الوقت المناسب لدعوة رفاقه إلى التوحيد، ليكون هذا أنجح للدعوة.

فلم يعبِّر لهما يوسف الرؤيا مباشرة، وإنما ابتدأ معهما الحديث بما هو أهم؛ حيث ابتدأ بدعوتهما إلى التوحيد والإسلام، وأخبرهما بأنه نبي مُرسَل من عند الله تعالى، وأن الله سبحانه قد أيده بمعجزات من عنده؛ منها: إخباره بما سيكون في المستقبل للفتَيَيْن، ومنها: أن تعبير الرؤيا جزء من العِلْمِ الذي علَّمه الله إياه.

وأخذ يوسف عليه السلام يخبرهما أنه نبي يُوحى إليه، وأن له شأنًا أكبر من تعبير الرؤيا، وأن بإمكانه أن يخبرهما بما يحدث لهما في النوم واليقظة والحال والاستقبال، فقال لهما: لا يأتيكما طعام أو غيره وأنتما في السجن أو خارجه، في النوم أو اليقظة، ومن أي جهة

---

(١) قرأ قالون وابن وردان بخلف عنهما بكسر هاء (ترزقانه) من غير صلة، والباقون بالكسر مع الصلة، وهو الوجه الثاني لهما.

(٢) قرأ أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (نبأتكما) ألفًا في الوصل والوقف، ومثلهما حمزة عند الوقف.

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (ربي إني) في حالة الوصل، والباقون بإسكانها.

كانت إلا نبأتكما عن حقيقة هذا الطعام وأوصافه، ومن أين آل لكما قبل أن يصل إليكما، وهذا ليس من عندي، ولكنه وحي من الله ﷻ، وهذه المعجزة كمعجزة عيسى ﵇، كما قال تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

يُوسُفُ يُبَاشِرُ مَهَامَّ الرِّسَالَةِ فِي السِّجْنِ

٣٨- ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَاءِي[1] إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أخبر يوسف أهل السجن أنه ترك دين أهل الشرك والوثنية ممن نشأ فيهم وممن تربى بينهم، واتبع دين التوحيد الذي عليه آباؤه وأجداده، قال يوسف: إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم الكنعانيون ومَن معهم ممن نشأ فيهم، وكان ذلك وهو في فلسطين قبل أن يُلقى في الجب، ثم وهو في بيت العزيز وحاشيته، وكانوا يعبدون الشمس من دون الله، وأخبرهم أنه ترك دين الفراعنة الوثنيين، وأنه يعبد الله وحده، ولم يجعل له شريكًا في عبادته.

وهكذا دعا يوسف أهل السجن إلى **أصول الإيمان الثلاثة** وهي: الإيمان بالله، وتوحيده في العبادة، والإيمان باليوم الآخر، فهذه أصول عقيدة المسلم، ثم أخبرهم ﵇ أنه سليل بيت النبوة، فأبوه يعقوب، وجده إسحاق وإبراهيم، وقد اتبع ملتهم في التوحيد، وما كان لأهل بيت النبوة أن يشركوا بالله شيئًا، وهذا الاصطفاء للرسالة، والعصمة من الشرك، والإيمان بالله وحده، من فضل الله علينا وعلى عباد الله، وليس باجتهادنا ولا مجهودنا، ولكن أكثر الناس لا يشكرون فضل الله عليهم، ثم صرّح يوسف بدعوة أهل السجن إلى التوحيد فقال:

٣٩- ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾

هذا شروع في إقامة الأدلة على صحة عقيدته وفساد عقيدتهم، قال يوسف ﵇ وهو يدعو الفتَيين وغيرهما إلى التوحيد: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ يا رفيقَيَّ في السجن أخبراني:

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (آبائي إبراهيم) والباقون بإسكانها.

﴿ءَأَرۡبَابٞ﴾ عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر ولا تعطي ولا تمنع، وهي أرباب متعددة ومختلفة ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾ وآلهة شتى تعبدونها ما بين حجارة وأشجار وملائكة وأموات ﴿خَيۡرٌ أَمِ﴾ عبادة ﴿ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾، الذي انقاد الكون لقهره وسلطانه فما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها.

وقد كان المصريون المخاطبون بهذه الآية والتي بعدها كغيرهم من الأمم يعبدون آلهة متعددة مختلفة في ذواتها وصفاتها وأعمالها، وكان لهم نحو ثلاثين ربًّا، وأكبر هذه الآلهة (آمون رع) فكانوا أهل وثنية وشرك، وكانوا يؤمنون ببعث الأرواح لا الأجساد، وأن الثواب والعقاب يكون للأرواح دون الأجساد، ومثلهم الإغريق، فهم أحسن حالًا من مشركي العرب الذين يعبدون الحجارة، وهم أيضًا أحسن حالًا من الكلدانيين والآشوريين الذين جعلوا الآلهة رموزًا للنجوم والكواكب، وكلها آلهة مزعومة ما أنزل الله بها من سلطان.

تَفْنِيدٌ لِلْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ وَالْأَوْهَامِ الْفَاسِدَةِ

٤٠- ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

وسواء أكانت هذه الأرباب من الإنس أو الجن أو الشياطين، أو من شجر أو حجر أو غير ذلك، فكلها لا تضر ولا تنفع، وليس عندكم دليل على صحة عبادتها، إنها آلهة تقلدون فيها آباءكم، فيوسف عليه السلام يخاطب الفطرة، ويقول: إن الفطرة تَعْرف إلهًا واحدًا، ولا تُعدِّد الأرباب، ثم بين لهم عجز هذه الآلهة، وبيَّن أنها ألفاظ فارغة، لا قيمة لها، وليس لها قدرة ولا سلطان، فهي مخلوقة وليست خالقة، وزائلة وليست باقية، وعبادتها جهل وضلال، فلا حجة ولا برهان لهم إلا تقليد الآباء.

ثم أبطل سبحانه عبادة الآلهة المزعومة؛ لأنها لا تملك تصرفًا ولا تدبيرًا ولا حكمًا في هذا الكون فقال: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ بيده الأمر والنهي، والملك والسلطان، وبعد إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى أمرهم بإخلاص العبادة لله وحده فقد ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾.

ثم خُتمت الآية ببيان أن ما أُمروا به من توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له هو الدِّين القويم الذي لا اعوجاج فيه، ولكن أكثر الناس يجهلون ذلك ولا يعلمون حقيقته.

وبهذا فقد وضع يوسف ﷺ أصول العقيدة، وجذور التوحيد، ونبذ جذور الشرك، في دعوته لقومه بالسجن، وأخبرهم أن الحُكْم والقضاء لله وحده، والعبادة لا تُوجَّه إلا إلى الله وحده، وقد انتشر التوحيد في مصر على يد يوسف.

وبعد دعوة يوسف أهل السجن إلى توحيد الله تعالى، شرع في تأويل رؤيا صاحبيْه في السجن:

يُوسُفُ يُعَبِّرُ رُؤْيَا السَّجِينَيْنِ

٤١- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ[1] قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

هذا هو النداء الثاني من يوسف لرفيقَيْه في السجن بعد أن حاز ثقتهما فيه، وأقام لهما الأدلة على وحدانية الله تعالى ووجوب إخلاص العبادة له، وبعد أن تدرج في دعوتهما وألزمهما الحجة، وبين لهما أن آلهتهما لا تستحق العبودية، وأن الذي يُعبد هو الله الواحد القهار، وهذا من الأسلوب الحكيم؛ حيث يقدم الداعي الهداية والإرشاد، والنصيحة والموعظة قبل أن يتكلم في الأمر المقصود.

وكان يوسف ﷺ قد طمْأنَ رفيقَيْه في بادئ الأمر أنه سيخبرهما عن تأويل الرؤيا، ولكنه أخَّر الكلام عن الرؤيا؛ للمصلحة الراجحة، وهي الدعوة إلى التوحيد أوَّلًا؛ ولأن تعبير الرؤيا فيه مكروه لأحدهما، وهو يقتضي تذكيره بالإيمان بالله واليوم الآخر، والصبر على المكاره.

وبعد أن تحدث يوسف عن التوحيد، وبلَّغهم رسالته، أجابهم عن الرؤيا، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ﴾ أي: أن الذي رأى في منامه أنه يعصر العنب، فإنه سيخرج من السجن، لأن سُقْياه للملك، يستلزم خروجه من السجن، ويعود إلى الملِك فيسقيه خمرًا، ولوضوح هذا المعنى وجلائه فقد طوَتْه الآية؛ أي: أن عناقيد العنب الثلاثة التي اقتطفها الساقي من البستان معناها: أنه سيقضي ثلاثة أيام في السجن، لأن سقياه للملك يستلزم خروجه من السجن ثم يأمر الملِك بإخراجه، ويبرأ من التهمة

(١) قرأ أبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر بإبدال همزة (رأسه) ألفًا، وأسكنها غيرهما، ومعهم أبو عمرو في وجهه الآخر.

التي نُسبت إليه، وسيعود إلى قصر الملك ويعمل ساقيًا له كما كان قبل ذلك.

وأما الخباز فإنه سيُقتل ثم يُصلب وتأكل الطير من رأسه بعد موته، فإن سلال الخبز الثلاث التي رأى في المنام أنه يحملها فوق رأسه، ويأكل الطير منها، معناها: أنه سيقضي ثلاثة أيام في السجن، ثم يأمر الملك بقتله، وأنه لن يدفن حتى يواريه الثرى، ولكنه سيصلب ويعلق على خشبة حتى تنهشه السباع والطيور وتأكل من رأسه.

وهكذا فإن الخبز الذي تأكله الطير، يعني لحم رأسه وشحمه ومُخَّه، وأنه لا يقبر ولا يستر عن الطيور، بل يصلب، ويترك في العراء لتتمكن الطيور من أكله.

قال عكرمة عن صاحب الرؤيا الأول: أتى يوسف فقال: رأيت فيما يرى النائم أني غرستُ حبَّة من عنب، فنبتَتْ فخرج فيه عناقيد فعَصرْتُهُن، ثم سقَيْتُهن الملِك، فقال: تمكث في السجن ثلاثة أيام، ثم تخرج فتسقيه خمرًا[١].

وعن قتادة أن يوسف قال للخباز: إنك تُصْلب فتأكل الطير من رأسك، وقال لساقيه: أما أنت، فتردُّ على عملك[٢].

فلما سمعا هذا التأويل للرؤيا، قالا: ما رأينا شيئًا، إنما كنا نلعب، قال يوسف: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[٣] وفُرغ منه، وليس ذلك محلًّا للجدل والمناقشة، وسيقع لكما ما قلته، سواء صدقتما أم كذبتما.

يُوسُفُ يُرْسِلُ مَظْلَمَتَهُ لِلْمَلِكِ

٤٢- ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

بهذه الآية يُنهي يوسف حديثه إلى صاحبيْه في السجن، ونظرًا لأن يوسف قد دخل السجن بدون جُرم ولا ذنب، وبدون بحث أو تروٍّ في حقيقة أمره، أراد يوسف أن يبلغ الملك عن

(١) «تفسير الطبري» (١٣/ ١٥٥).

(٢) أخرجه أبو الشيخ كما في الدر (٨/ ٢٥٧).

(٣) ينظر الطبري (١٣/ ١٦٧، ١٦٩) وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٨).

طريق الساقي الذي سيخرج من السجن وينجو منه؛ كي يعيد النظر في قضيته، وهذا من الأخذ بالأسباب المادية التي لا يمانع الشرع فيها، فيوسف بريء وسَجين بدون وجه حق.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ﴾ أي: أيقن ﴿أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ أي: خارج من السجن بعد ثلاثة أيام وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا ﴿اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر قصتي عند سيدك الملك، فقل له: إن بالسجن غلامًا محبوسًا ظلمًا، وقد طال حبسه، فأنسى الشيطان الساقي أن يذكر حال يوسف عند الملك، فمكث يوسف بعد ذلك في السجن عدة سنوات، والبضع من ثلاث إلى تسع، قيل: إنه مكث سبع سنين في السجن بعد خروج الساقي منه.

قال مجاهد: قال يوسف للذي نجا من صاحبي السجن: اذكرني للملك، فلم يذكره حتى رأى الملكُ الرؤيا، وذلك أن يوسف أنساه الشيطان ذكر ربه، وأمره أن يذكر الملك ابتغاء الفرج من عنده ﴿فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ عقوبة لقوله: ﴿اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾[1].

وهكذا يقول بعض المفسرين: إن الضمير في كلمة ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ يعود إلى يوسف؛ لأنه قد استعان بالمخلوق وهو الساقي أن يبلغ مظلمته إلى الملِك.

وهذا كلام لا يصح؛ لأن العبد مأمور بالأخذ بالأسباب، ولا حرج عليه أن ينتصر لنفسه ويدفع الظلم عنها، فقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى] فإن لم يستطع أن ينتصر لنفسه فلا أقل من أن يرفعها للحاكم، فالذي أنساه الشيطان أن يذكر أمر يوسف عند الملك هو الساقي، وترتب على ذلك مكث يوسف في السجن بضع سنين، **والبضع**: ما بين الثلاث والتسع، والاستعانة بالمخلوق في الأسباب التي في قدرة العبد، كدفع الضرر المادي عنه، أمر جائز شرعًا.

رُؤْيَا مَلِكِ مِصْرَ

٤٣- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ[2] سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ

---

(١) الطبري (١٣/ ١٦٩) وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٤٨).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني أرى) والباقون بإسكانها.

خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ[1] أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ[2] إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

وجاء جبريل فبشر يوسف بخروجه من السجن، وكانت الرؤيا الثالثة في السورة، وهي رؤيا ملك مصر (الريان بن الوليد) وهو من ملوك الرعاة (الهكسوس) الذين حكموا مصر في الفترة من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٥٢٥ قبل الميلاد، وهم من خارج مصر، ولم يدَّعوا الربوبية كالفراعنة، حيث سبقتهم دعوة التوحيد قريبًا منهم على لسان إبراهيم إلى يعقوب عليهما السلام، وعرفوا شيئًا عن دِين الله، فالتوحيد كان معروفًا في مصر قبل يوسف، وجدد هو صاحب الدعوة إليه.

ولما استرد الفراعنة زمام الأمور في مصر بعد عهد ملوك الرعاة الوافدين الذي استغرق نحو قرن ونصف، أعادوا إليها الوثنية التي تقوم عليها الفرعونية.

والقرآن الكريم أطلق على حاكم مصر في عهد يوسف عليه السلام لفظ ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ ولم يلقِّبه فرعون؛ لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة، بل كان من العمالقة، وهم من الكنعانيين أو من العرب، ويسميهم مؤرخو الإغريق: ملوك الرعاة؛ أي: البدو، وكان لمصر آنذاك مَلِكان: ملك لمصر العليا؛ أي: الوجه القبْلي (محافظات الصعيد)، وملك لمصر السفلى؛ أي: (محافظات الوجه البحري)، وكانت السيادة لملوك مصر السفلى، أما في عهد موسى عليه السلام، فقد ذكر القرآن الكريم ملك مصر بلغته (فرعون).

هذا: ورؤيا الملك قد فتحت باب الفرج ليوسف عليه السلام، فقد رأى الملك في منامه رؤيا أهمته وأفزعته وجمع لها أشراف القوم وكهنَتَهم ليعبِّروها له، وكانت هذه الرؤيا هي السبب في إخراج يوسف من السجن، كما كانت سببًا في براءته من تهمة امرأة العزيز، فقد رأى الملك سبع بقرات سمان قد امتلأن شحمًا ولحمًا، يَخْرُجْنَ من النهر، ويخرج بعدهن سبع بقرات ضعاف، شديدة الهزال، فابتلع السبع العجاف السبع السمان، ودخَلْن في بطونهن.

ورأى أيضًا سنبلات خُضْر قد امتلأت حبًّا وانعقد حبُّها، ورأى سبع سنبلات يابسات، قد التوت على السبع سنبلات الخضر فأكلَتْها وبلعتها، فقال: يأيها العلماء والحكماء

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بإبدال الهمزة الثانية واوًا من (الملأ أفتوني) والباقون بتحقيقها.

(٢) أبدل الأصبهاني عن ورش وأبو عمرو بخلف عنه، همزة (رؤياي) واوًا، ومثله حمزة عند الوقف، وأبدلها أبو جعفر ياء مشددة ومثله حمزة أيضًا عند الوقف.

والأشراف، أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون:

٤٤- ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ۝٤٤﴾

قال السحرة والكهنة والمعبرون للملك الأعظم: رؤياك هذه ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ﴾ أي: أخلاط ومنامات باطلة وكاذبة وأحلام مختلطة، لا تأويل لها، ولا علم لنا بتفسير الأحلام، فالتأويل يكون للأحلام الصحيحة، أما وسوسة الشيطان فلا تأويل لها، وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، لقد أعجز الله جماعة الكهنة والمعبرين عن تأويل الرؤيا، ومَنَعَهم من الجواب؛ ليكون ذلك سببًا لخلاص يوسف من السجن، مع ما أصاب الملِك من القلق والاضطراب منذ رأى في منامه أن الضعيف الهزيل من البقر والسنبلات يستولي على القوي والسمين منها؛ فجمع السحرة والكهنة لتأويلها.

السَّجِينُ النَّاجِي يَتَذَكَّرُ وَصِيَّةَ يُوسُفَ لَهُ

٤٥- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا[١] أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ[٢] ۝٤٥﴾

ولما سمع الساقي الذي نجا من القتل، رؤيا الملك، تذكَّر يوسف، صاحبه في السجن، بعد أن غمرَتْه أضواء قَصْر الملك؛ فنسي السجن وأيامه ورفاقه، ونسي وصية الرجل المحسن البريء المحبوس ظلمًا، وعندئذٍ قال: إن في السجن رجلًا يعبر الرؤيا، وكان السجن خارج المدينة؛ ولذا فإنه قال: فأرسلوني إليه لآتيكم بتفسيرها، فأرسَلُوه، فجاء إلى يوسف وقال:

٤٦- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ[٣] أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٤٦﴾

أي: ولما وصل الساقي إلى يوسف، بعد أن سُهلت له مهمة الدخول إليه في السجن،

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف (أنا) فيصير من قبيل المد المنفصل؛ لوقوع الهمزة بعدها، والباقون بحذفها وصلًا، واتفق الجميع على إثباتها وقفًا.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا في (فأرسلون) والباقون بحذفها في الحالين.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (لعلي أرجع) والباقون بإسكانها.

قال له: يوسف أيها الصديق، فَسِّرْ لنا رؤيا مَن رأى سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع بقرات هزيلات، ورأى سبع سنبلات خضر وأخر يابسات، لعلِّي أرجع إلى الملك وأصحابه فأخبرهم؛ ليعلموا تأويل ما سألتك عنه، وليعلموا مكانتك وفضلك.

والسبع السمان: هي السنوات الخصبة، **والسنبلات الخضر**: هي الزروع والثمار والنبات الذي يكون فيها، فهن سبع سنوات مخصبات.

والسبع العجاف: هي السنوات المجدبة، والسنبلات اليابسات إشارة إلى أنها لا تنبت شيئًا، فهن سبع سنوات مجدبات، وكانت البقر تحرث الأرض، وتسقي الزرع، وكان القمح ولايزال، هو أعظم القوت.

يُوسُفُ يُفَسِّرُ رُؤْيَا الْمَلِكِ

٤٧- ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا[1] فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قال يوسف لمن سأله عن تفسير رؤيا الملِك: إن القوم سيمُرُّون بسبع سنين مخصبة خضرة، فيها خيرات وأرزاق كثيرة، ثم يَمُرُّون بعد ذلك بسبع سنوات فيها جدب وفقر شديد، ثم وضع لهم خطة اقتصادية، جديرة بأن تُدَرَّس وتطبق في عالمنا المعاصر، لَا سِيَّمَا في الدول النامية، قال لهم: ازرعوا سبع سنين متواصلة بجد ونشاط حتى يكثر عطاء الأرض فيها، والذي تحصدونه في كل مرة خذوا منه ما تحتاجونه فقط لطعامكم، والآخر ادخروه واتركوه في سنبله حتى يحفظ، ولا يأتي عليه السوس، فلا تدرسُوا من الحنطة إلا بقدر الحاجة الضرورية، واحفظوا ما بقي منها في سنبله للسنوات المجدبة.

ومن المعلوم أن الحنطة في مصر لا تبقى بدون تسوس أكثر من عامين إلا إذا حُفظت في الصوامع أو بقيت في سنابلها، ولم تكن الصوامع موجودة ولا معروفة؛ ولذا فقد نصحهم أن يتركوا الحب في سنبله إلا ما لَا بُدَّ منه للأكل، وقوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ إخبار عما يكون، ومضى يوسف قائلًا:

---

(١) قرا حفص بفتح همزة (دأبا) والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

٤٨- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ثم يأتي بعد السنين المخصبة، سبع سنين مجدبة شديدة على الناس، ينفد فيهن ما ادخرتم من الطعام في السنين المخصبة إلا قليلًا مما تُحْرِزُونه وتدَّخِرونه محفوظًا في حصنه من البذور ونحوها؛ ليكون بذورًا للزراعة في الأعوام المقبلة، وقد كان يوسف في غاية الكرم والصبر؛ حيث فسَّر الرؤيا دون شرط ولا مقابل، ودون تعنيف لرسول الملك على نسيانه وصية يوسف:

وخلاصة تفسير يوسف لرؤيا الملك: أنه فسَّر البقرات السمان والسنبلات الخضر بالسنين السبع المخصبة، وفسَّر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بالسنين السبع المجدبة التي تأتي في أعقاب السنين المخصبة، وفسَّر ابتلاع البقرات العجاف للبقرات السمان، بأكلهما لِمَا جُمع في السنين المخصبة للسنوات المجدبة.

وهاتان الآيتان أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الدين والنفس والعقل والعِرْض والمال، فكل ما تضمن حفظ هذه الأمور الخمس يجلب مصلحة لها أو دفع مفسدة عنها، فهو من مقاصد الشريعة.

وإلى سنوات الجدب التي حلَّت بالناس في عهد يوسف عليه السلام أشار النبي ﷺ فيما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره: إن قريشًا لمَّا أبطؤوا عن رسول الله ﷺ بالإسلام قال: «**اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف**»[1]؛ فأصابتهم سنة حَصَدَتْ كل شيء حتى أكلوا العظام، حتى جعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى بينه وبينها مثل الدخان، قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [الدخان]

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان]

أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ وقد مضى الدخان، ومضت البطشة؟[2].

ويمضي يوسف في تفسيره لرؤيا الملك قائلًا:

---

(١) ، (٢) من حديث ابن مسعود في «صحيح البخاري» برقم (١٠٠٧، ٤٦٩٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٩٨).

٤٩- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ[(١)] ﴿٤٩﴾﴾

ثم أخبرهم يوسف بأمر لا عَلاقة له بالرؤيا، وهو أنه يأتي بعد السنوات الأربع عشرة عام خصب يرفع الله عنهم فيه الشدة، ويحل فيه الرخاء، ويأتي اليسر بعد العسر، ويكون فيه مطر وغيث وزروع وثمار وأرزاق كثيرة، وفيه يعصر العنب والزيتون والسمسم ونحوها من كثرتها، وينجو الناس فيه من شدة البلاء والجدب، وعام الرخاء هذا ليس له رمز أو ملحظ في رؤيا الملِك، وهو من تعليم الله تعالى ليوسف، ومن آيات نبوته، وقد أراد يوسف ﷺ أن يبشر الملِك وسائر الناس بالخلاص من الجدب والجوع، ومجيء الرخاء والعيش الرغيد، ومن المعلوم أن الجدب إذا زال، تأتي الخيرات والأرزاق من بعده، فهو نتيجة طبيعية، وإن لم يصرح بها في رؤيا الملك، رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، فعجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح، ثم أرسل الملك يأمر بإحضار يوسف إليه:

المَلِكُ يَأْمُرُ بِإِخْرَاجِ يُوسُفَ مِنَ السِّجْنِ، وَيُوسُفُ يَطْلُبُ الْبَرَاءَةَ

٥٠- ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي[(٢)] بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ[(٣)] مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

وبعد تأويل يوسف لرؤيا ملك مصر، رجع الساقي إلى الملك وحاشيته، فقص عليهم تعبير يوسف للرؤيا، وقد كانت هذه الرؤيا بتدبير من الله سبحانه؛ لتكون سببًا في إخراج يوسف من السجن، وإظهار براءته، وتتويجه أمينًا على خزائن مصر، والانتهاء من كثرة الآلام التي مر بها يوسف، منذ إلقائه في الجب، وبيعه بيع الرقيق، ومن محنة امرأة العزيز، ومحنة إلقائه في السجن نحو سبع سنوات؛ ليبدأ يوسف بسبب هذه الرؤيا مرحلة

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بتاء الخطاب في (يعصرون) لمناسبة (يأكلن ما قدمتم) وقرأ الباقون بياء الغيب؛ لمناسبة (فيه يغاث).

(٢) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلفه بإبدال الهمزة الساكنة من (وقال الملك ائتوني) واوًا في حال الوصل بين الكلمتين، والباقون بالتحقيق، وعند البدء بلفظ (ائتوني) يكون بهمزة وصل مكسورة، بعدها ياء مدية.

(٣) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة الهمزة من (فسأله) إلى السين قبلها، مع حذف الهمزة هكذا (فسَلْه) والباقون بعدم النقل وإسكان السين.

أخرى هي مرحلة الرخاء والعز والتمكين له في الأرض.

ولما بلغ الملك تأويل يوسف لرؤياه، أراد أن يستمع إلى ذلك بنفسه، فأمر بإخراجه من السجن، وإحضاره بين يديه؛ ليقص عليه تأويل الرؤيا.

ولما جاء رسول الملك إلى يوسف، لم يُسرع في لقاء الملك؛ ولم يبادر بالخروج من السجن، لأنه لم يكن من الذين يَخِفُّون ويفرحون أو يفزعون لمقابلة المسؤولين، ويتمرغون على أعتاب الحكام، والتملُّق لهم، ومدْحهم والثناء عليهم، لبيان أنه العبد الخاضع، والخادم الأمين.

لم يسارع يوسف لتلبية الدعوة، والتهافت على الخروج من السجن، قبل أن تظهر براءته، وآثر أن يبقى في السجن لتظهر الحقيقة ناصعة دون تدخل منه، فسأل رسول الملك أن يعود إليه مرة ثانية، ويسأله إن كان يعرف شيئًا عن إلقاء يوسف بالسجن، وما هو لسبب في إيداعه فيه؟ إن ربي عليم بصنيعهن وأفعالهن، لا يخفى عليه شيء من ذلك.

ولما جاء رسول الملك إلى يوسف، قال له: ارجع إلى الملك، فاسأله عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، لم يجرح يوسف امرأة العزيز، ولم يخصَّها بالذكر، ولم يعيِّنْها باسمها، وإنما جعلها ضمن النسوة اللاتي راودْنَه عن نفسه فقال:

﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ فعمم ولم يخصص، ثم إن الملك استقصى هذا الموضوع وتتبعه، فأتى بالنسوة وسألهن، ويوسف بعدُ في السجن لم يخرج منه.

جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لو لبثتُ في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»**[1].

وفي لفظ لأحمد **«لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر»**[2].

---

(١) البخاري برقم (٣٣٧٢، ٣٣٧٥، ٤٥٣٧، ٤٦٩٤) ومسلم برقم (١٥١) والترمذي (٣١١٦) و«المسند» (٢/ ٣٣٦) برقم (٨٣٢٩، ٨٣٩٢).

(٢) «المسند» (٢/ ٣٤٧) برقم (٨٥٥٤، ٩٠٦٠) والحاكم (٢/ ٣٤٦) والطبري (١٣/ ٢٠٠) قال محققو «المسند»: صحيح، وهذا إسناد حسن، من أجل محمد بن عمرو وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٠): وفيه محمد بن عمرو وهو حسن الحديث، وأخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٢٣٥).

وعند عبد الرزاق بإسناد مرسل، عن عكرمة عن النبي ﷺ قال: **«لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين سُئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجوني... والله يغفر له حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر»**(١).

فقد أثنى النبي ﷺ على يوسف عليه السلام، وبيَّن فضله وحُسْن صبره على المحنة والبلاء، وبين قوة يوسف وثباته، وعدم مبادرته إلى الراحة، ومفارقته لما هو فيه من الضيق والسجن الطويل، لقد طلب يوسف من الملك أن يسأل النسوة، لماذ قطّعْن أيديهن، فأَحْضَرَهُنَّ الملك وسألهن:

بَرَاءَةُ يُوسُفَ مِنْ تُهْمَةِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ

٥١- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ(٢) لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ(٣) حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾

صبَر يوسف حتى تظهر براءته على ملأ من الدنيا، وكأن الملك قد استقصى الأمر، وعلم أمر النسوة قبل مواجهتهن، ولما أحضر النسوة قال: ما شأنكن حين راودتُنَّ يوسف عن نفسه يوم الضيافة؟ هل وجدتُنَّ منه ميلًا إليكن.

والخطب: هو الشأن العظيم، والخطاب لجميع النسوة بما فيهن امرأة العزيز.

قالت النسوة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذ الله أن يُتهم يوسف بشيء من الخيانة أو مقارفة الذنب، فما علمنا عليه أدنى شيء يشينه، وكلمة ﴿حَٰشَ﴾ تقال للمبالغة في البعد عن الشر، والتبرئة منه، وكلمة (السوء) كلمة جامعة، تشمل التهمة وغيرها، والمراد: أيُّ سوء.

---

(١) «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٢٨١) و«المعجم الكبير» للطبراني (١١/ ٢٤٩) وقد وصله إسحاق بن راهويه في «مسنده» وهو في الطبري (١٣/ ٢٠٢) موصولًا من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزي، وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٥٦)، وحكى الحافظ في الفتح عن عكرمة: رفعه، وقال: هذا مرسل (فتح الباري (١٢/ ٣٨٣).

(٢) قرأ أبو عمرو بالمد الطبيعي في (حاشا لله) والباقون بحذف الألف (حاش لله).

(٣) قرأ ورش وابن وردان بخلف عنه بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها من (الآن) والباقون بعدم النقل، وهو الوجه الثاني لابن وردان.

وعندئذٍ قالت امرأة العزيز: الآن ظهر الحق بعد خفائه، وتبينت براءة يوسف ونزاهته، فأُقر واعترف أني راودته عن نفسه، وأني حاولت إغراءه وفتنته فامتنع، وإنه لمن الصادقين في قوله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ وهذا اعتراف صريح على رؤوس الأشهاد ببراءة يوسف، وشهادة منها أمام الملك بعد شهادتها أمام النسوة أنها راودته عن نفسه؛ فاستعصم وامتنع بشدة.

قيل: إن يوسف لما راعى حرمة امرأة العزيز في قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ دون أن يقول: ما بال زليخا، أرادت أن تكافئه على ذلك فرفعت الغطاء عن وجهها واعترفت بأن الذنب منها؛ أي: أنها لما رأت من يوسف أدبًا جمًّا قابلت ذلك بإعلان الحقيقة على الملأ واعترفت بالواقع، وكان ذلك في غيبة يوسف قبل أن يخرج من السجن.

ونظير ذلك ما يحكى أن امرأة جاءت بزوجها إلى القاضي وادَّعت عليه المهر؛ فأمر القاضي بأن تكشف عن وجهها حتى يتمكن الشهود من أداء الشهادة، وعندئذٍ قال الزوج: لا حاجة إلى ذلك، فإني مقر بصدقها في دعواها، فقالت المرأة -لمَّا أكرمها زوجها إلى هذا الحد-: اشهدوا أني أبرأتُ ذمته من كل حق لي عليه[1].

والقول بأن كل واحدة من النسوة راودت يوسف عن نفسه عند الوليمة التي أقامتها امرأة العزيز قول بعيد؛ لأنهن في ضيافتها فلا يشاركنها في معشوقها، ولأنهن رأَيْنه لأول مرة، ولم تجرِ العادة بأن امرأة تراود رَجُلًا عن نفسه في أول مقابلة بينهما، والمراودة في العادة تكون بين رجل واحد وامرأة واحدة، فلا يعقل أن عددًا من النسوة يراوِدْن رَجلًا واحدًا عن نفسه.

والظاهر أن النسوة جامَلْن امرأة العزيز، وعذَرْنها في حبها ليوسف، ورفَعْن الملامة عنها في ذلك؛ وعليه فإن مراودة النسوة ليوسف الواردة في الآية كانت مراودة جماعية وليست فردية.

٥٢- ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾

١- قال يوسف لمَّا بلغه إعلان براءته وهو في السجن قبل أن يخرج منه حين وصله الرسول وأبلغه براءته عند الملك، وعلى لسان النسوة وامرأة العزيز قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعني: فعلتُ هذا وطلبتُ إثبات براءتي ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجته، بل تعففت عنها في غيبته

(١) نقلًا عن كتاب «دعوة الرسل إلى الله تعالى» للشيخ محمد أحمد العدوي ص.٢٦

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ ولا يرشدهم ولا يوفقهم، ولا يسدد خطاهم، ولو كنت خائنًا ما خلَّصني الله من هذه الورطة،

٢- وقيل: إن هذا من كلام امرأة العزيز أمام الملك، أي قالت امرأة العزيز: ذلك الإقرار الذي أقررتُ أني راودت يوسف عن نفسه ليعلم العزيز أني لم أخنه في غيبته، وأن الذي حدث هو مجرد مراودة وليس تدنيسًا للفراش

٣- وعلى القول بأن هذا من كلام المرأة؛ لأنه كلام متصل بما قبله، من قولها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠﴾ إلى قولها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّى لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: ذلك القول الذي قلته في تنزيه يوسف وعفته، وهو في السجن ليعلم أني لم أتكلم فيه بباطل وهو غائب؛ أي أنها لم تخن يوسف في غيبته وهو في السجن ولم تكذب عليه بل قالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ثم اعتذرت بقولها: ومع ذلك فلا أبرئ نفسي من الخيانة، فقد راودتُه عن نفسه، واتهمته بذلك، وأودعته السجن، فالنفس أمارة بالسوء بطبعها إلا مَن عصمه الله كيوسف ﷺ، فنجاه من نفسه الأمارة، حتى صارت نفسه مطئمنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، وهذا من فضل الله ورحمته بعبده، والله سبحانه غفور لمن تجرأ عليه بالذنوب والمعاصي، رحيم به، يقبل توبته، ويوفقه للعمل الصالح، فلما تحقق الملك من براءة يوسف أرسل في طلبه:

فالمعنى المراد: ليعلم يوسف أني لم أخنه في حال غيبته عني، بل قررت الحقيقة، وأنه صادق فيما قال، وهذا أرجح، وكل خائن لابد أن تعود خيانته ومكره عليه، ويتبين أمره، وهذا معنى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾.

٥٣- ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِىٓ(١) إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ(٢) إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ(١) إِنَّ رَبِّى غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

ثم قال يوسف متواضعًا هاضمًا لنفسه، أو أن امرأة العزيز هي القائلة، وهو مقتضي

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (نفسي إن) و(ربي إن) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ قالون والبزي بإبدال الهمزة الأولى واوًا من (بالسوء إلا) مع إدغامها في الواو التي قبلها، فينطق بواو مكسورة مشددة بعدها محققة، ولهما تسهيل الهمزة الأولى مع المد والقصر، وقرأ ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس بتسهيل الثانية بين بين، ولورش وقنبل إبدالها حرف مد مع المد المشبع، وأسقط البصري الهمزة الأولى مع القصر والمد، والباقون بالتحقيق.

السياق: قال يوسف أو قالت امرأة العزيز: ومع ذلك فأنا لا أزكي نفسي ولا أنزهها، فإن النفس البشرية تميل إلى الشهوات، وتأمر صاحبها بالسوء، **والسوء**: كلمة جامعة لأنواع الشر.

والنفس واحدة، ولها **ثلاث صفات**؛ وهي:

١- إمَّا أن تكون نفسًا أمَّارة، تأمر بالشر وتُسرع إليه.

٢- وإمَّا أن تكون نفسًا لوَّامة، تلوم صاحبها على فعل المنكر وتؤنِّبه.

٣- وإمَّا أن تكون نفسًا مطمئنة، تفعل الخير وتسارع إليه.

والنفس البشرية تأمر صاحبها غالبًا بالسوء، إلا مَن حفظها الله وعصمها، وهيأ لها أسباب الرحمة والغفران، إن هذا الكلام الذي ينضح بالإيمان، هو من كلام الصالحين والصديقين، وكلام الأنبياء والمرسلين: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قيل: إن هذا الكلام من كلام يوسف ﷺ، فهو كلام مؤمن واثق بربه، يؤمن بقضائه وقدره، ويهضم نفسه ولا يزكيها -وامرأة العزيز وقتئذ لم تكن قد أسلمت- وأن يوسف ﷺ قال ذلك وهو في السجن، حين بلغه إعلان براءته.

وبعض المفسرين يرى أن يوسف قال ذلك عند حضوره لدى الملك.

والسياق يقضي بأن الكلام كله من امرأة العزيز بحضرة الملك، وأن يوسف أحضره الملك بعد ذلك وأخرجه من السجن[1]، لأن الملك قد أرسل بعد ذلك في طلب يوسف؛ ليجعله من خاصته ويوليه وزارة المالية.

يُوسُفُ مُسْتَشَارٌ لِلْمَلِكِ وَوَزِيرٌ لِلاقْتِصَادِ

٥٤- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

بعد أن ثبتت براءة يوسف، أرسل الملك في طلبه؛ ليجعله مستشارًا له، يستخلصه لنفسه، قال الملك: ائتوني به أجعله من خُلَصائي وأهل مشورتي، فلما جاء يوسف وكلمه الملك، طلب منه يوسف أن يقص عليه الرؤيا التي رآها؛ فذكرها الملك على وجه التفصيل، وقال له رأيت كذا وكذا... ثم قمت فزعًا من النوم، قال الملك: والله ما

---

(١) اختار هذا كثير من المفسرين منهم أبو حيان في «البحر المحيط» (٥/ ٣١٧) وابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٢٠).

أخطأتُ منها شيئًا، فما تأويل هذه الرؤيا؟ فأوَّلها يوسف له، فلما كلمه أعجبه كلامه، وزادت مكانته عنده، فقرّبه منه وقال له: أنت مقيم بيننا، أمين على أسرارنا، وكان الملك بحاجة إلى حافظ مدبر يقوم على شؤون موارد أرض مصر في هذا الوقت العصيب الذي عمت فيه المجاعة.

فقال الملك: ومَن لي بمنْ يجمع محصول الزرع، ويخزِّنه ويبيعه، ويكفيني العمل فيه؟ وأبدى الملك رغبته في تولي يوسف هذه المهمة حين قال له: إنك اليوم عندنا عظيم المكانة، ومؤتمن على كل شيء، فأبدى يوسف رغبته في ذلك:

٥٥- ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝﴾

طلب يوسف من الملك أن يجعله أمينًا على خزائن أرض مصر، يحفظ الداخل والخارج من غلّاتها، فلا يضيع منه شيء في غير محله، فإن له علمًا بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، وحسن التصرف، والدافع إلى ذلك هو الرغبة في النفع العام.

وعندئذٍ ذكر له يوسف أن البلاد والشعوب المجاورة مُقْبِلة على مرحلتين: سبع سنوات خصبة، وسبع سنوات مجدبة (أي: فقر وجوع) وذلك يحتاج إلى صاحب الخبرة وصاحب الأمانة، وعفة اليد؛ كي يمسك بزمام الأمر، وطلب يوسف من الملك أن يجعله واليًا على خزائن الأرض في مصر، وهي المستودعات الضخمة، والمخازن الكبرى التي كانت في الإهرامات، يخزِّن فيها يوسف الغلال والطعام، وقال للملك: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ﴾ لهذه الخزائن ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يحتاجه العباد من مصالح الدنيا والدين، على علم وبصيرة بما أتولاه، وتقديم الخبرة والسيرة الذاتية.

ومَدْح النفس وتزكيتها، بقصد إيصال النفع والخير إلى الناس، أمر غير مكروه، بل هو مطلوب شرعًا.

مَن يطلب الإمارة لا يُعطاها: ويوسف عليه السلام لم يطلب الإمارة أو الحكم، بل طلب تقديم خدماته وخبراته في مجال الاقتصاد، لَا سِيَّمَا في أعوام المجاعة، وقد جاء في الحديث النهي عن طلب الإمارة، وأن مَن يطلبها لا يُعطاها.

في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا عبد**

الرحمن بن سمرة: **لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُوتيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أُوتيتها عن غير مسألة أُعنتَ عليها»**[١].

وفي حديث أبي ذر ﷺ قال: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: **«يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا مَن أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»**[٢].

وهذا محمول على من لا يستطيع القيام بأعباء الولاية، إما لضعف فيه، وإما لعدم خبرة وكفاءة، فإذا كان ذلك متوافرًا فلا حرج في ذلك.

ويوسف ﷺ قد رشحه الملك لولاية تصريف الأموال، وعنده دراية بإدارتها، وقد أخذها بحقها وأبدى رغبته فيها؛ لأنه نبي مرسل، وهو أعلم بمصالح الأمة من غيره، فقد علم عن طريق الوحي، أو تأويل الرؤيا، أن البلاد مقبلة على مرحلة هلاك، ولا سبيل له لرفع هذا الضرر ونفع العباد إلا بطلب الإمارة، فوجب عليه ذلك، هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإن الإمساك عن طلب الإمارة يكون في المجتمع المسلم، وعند الحاكم المسلم، ولكن يوسف لم يكن عند ملك مسلم، وقد وجد في نفسه الخبرة، وكفاءة القيام بهذه المهمة، وأنه مقبل على سنوات فقر وجوع، وهو لا يريد لنفسه غُنْمًا من هذه الولاية، وإنما سوف يتولى أمر شعب وشعوب مجاورة في فترة المحنة والجوع والجدب، إذًا فهو لا يطلب الدنيا، ولا يريد لنفسه الولاية، وإنما يريد إنقاذ الشعوب في هذه المحنة، حسبة لله تعالى، وتولي الأعمال لمصلحة العباد، وطلب هذا من قِبَل السلطان أمر جائز.

وقد أخذ الفقهاء من هذه الآية جواز طلب القضاء لمن يعلم أنه أهل له، وأنه إذا لم يول ضاعت الحقوق.

كما أن مَن يأنس في نفسه أنه أقرأ وأفقه من حضر للصلاة -ما عداالإمام الراتب- فإن عليه أن يؤمهم، وهكذا.

ولذلك فإن يوسف ﷺ كان -وهو على خزائن الأرض- يجوِّع نفسه، فقيل له: لِمَ

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٢٢، ٦٧٢٢، ٧١٤٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٥٢).
(٢) «صحيح مسلم» (١٨٢٥) و«سنن النسائي الكبرى» (٦٤٦١) وغيرهما.

تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع[١].

وكان يأمر طباخ الملوك أن يتأخروا في وقت الغذاء لهم؛ كي يشعروا بشيء من الجوع؛ حتى لا ينسوا غيرهم من عوام الشعب.

يُوسُفُ يُتَوَّجُ تَاجَ المُلْكِ:

٥٦- ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ[٢] نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾

وكما أنعم الله على يوسف فأنجاه من الجب، وخلَّصه من السجن، قرَّبه من الملك، ومكَّن له في أرض مصر، يتصرف فيها كيف يشاء بلا منازع، فبعدَ سنة من طلب الإمارة، دعاه الملك، وقلَّده سيفه، وتولَّى زمام الأمور في البلاد؛ فدانت له ملوك الأرض.

ويُرْوَى أن الملك قد أسلم على يد يوسف وكثير من الناس، ثم عزل المِلك (قطفير)، العزيز، وأسند إلى يوسف مهمته، ولزم المِلك بيته، وتوَّج يوسف تاج الملك، وأسلمه إياه، وأجلسه على كرسيه، وأسند إليه مهام البلاد ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾.

وهو سبحانه يخص بنعمته ونبوته وعطائه الدنيوي والأخروي مَن يشاء مِن عباده، ولا يضيع أجر من أحسن شيئًا من العمل الصالح من المحسنين الصابرين على نوائب الدنيا المخلصين لخالقهم، ويوسف من سادات المحسنين. قال تعالى:

٥٧- ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾

جمع يوسف بين الإيمان والتقوى، وبالتقوى تُترك المحرمات من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التام يحصل الإقرار والتصديق، ويتبع ذلك أعمال القلوب والجوارح من الواجبات والمستحبات، وهكذا كافأ الله تعالى يوسف ﷺ على صبره وتقواه وإحسانه، بما يستحقه من خير وسعادة في الدنيا والآخرة، فإن هذا الثواب الجزيل قد أعده الله تعالى للمحسنين المتقين، الذين يخافون عقاب الله، ويطيعونه في أمره ونهيه.

---

(١) البيهقي في «شعب الإيمان» عن الحسن (٥٦٨٣) وأخرج الخطيب مثله في رُواة مالك عن جابر.

(٢) قرأ ابن كثير (حيث نشاء) بالنون، والباقون بالياء.

ويوسف ﷺ كان منهم، لقد كان مسلمًا تقيًا حين طلبته امرأة العزيز، وهي ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين، وكان مسلما تقيا حين كان داعيًا محسنًا إلى رفاقه في السجن، وما أعده الله له في الآخرة من الأجر والمثوبة أفضل من مُلْك الدنيا.

أخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم: أن الملك قد زوج يوسف امرأة العزيز بعد أن مات زوجها، وكانت بكرًا، وكان زوجها عنينًا، وأنجبت منه ولدين هما (أفرائيم) و(ميشا) وأن الأول كان والدًا لنون والد يوشع، ورحمة امرأة أيوب.

قالوا: ولما دخل يوسف بزليخا قال لها: أليس هذا خيرًا لك مما كنت تريدين (وكانت تكبره، وكان هو ابن الثلاثين)؟ قالت: لقد كنت امرأة فاتنة جميلة، وكان زوجي لا يأتي النساء وكنتُ في قَصْر ومُلْك ودنيا، وكنتَ في حُسْنك وهيبتك؛ فغلبتني نفسي وعصمك الله[1].

وقال الفضيل بن عياض: وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مرَّ يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكًا بطاعته، وجعل الملوك عبيدًا بمعصيته[2].

وهكذا: مكن الله ليوسف في أرض مصر، وجاءت السنوات السبع المخصبة، وفاض النيل بالمياه، وزرع يوسف أرض مصر كلها، وازدادت الخيرات والبركات، وعرَّف الناس بمقدار حاجاتهم الضرورية في هذه السنوات السبع؛ فأخرجها لهم، واحتفظ بالاحتياطي من الغلال والطعام.

ثم جاءت السنوات المجدبة، وعم الجدب والجوع مصر وغيرها من البلاد المجاورة، ووصلت المجاعة إلى الشام، وأرض كنعان في فلسطين، فأحسن تصريف شؤون الدولة بأمانة ودقة وشفافية.

---

(١) ينظر في هذا «تفسير الطبري» (١٣/ ٢٢٠) وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦١) والحكيم الترمذي (٢/ ١٨١، ٣/ ٣٥) و«الدر المنثور» (٨/ ٢٨٠) وانظر «تفسير فتح القدير» وابن كثير والخازن وابن عطية للآية، ورواه أيضًا ابن إسحاق، وهذه الرواية لم ترد في الكتاب أو السنة.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٩٧) وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٢).

قُدُومُ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ فِي أَرْبَعِ رِحْلَاتٍ

الرِّحْلَةُ الأُولَى: مِنْ فِلَسْطِينَ إِلَى مِصْرَ طَلَبًا لِلْقُوتِ وَعَوْدَتِهِمْ مِنْهَا

٥٨- ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ[1] يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

تولى يوسف خزائن مصر، فدبرها أحسن تدبير، حيث زرع الأرض جميعها في السنين المخصبة، وخزّن الحبوب في المخازن الكبرى، وجبا من الأطعمة الكثير فحفظه وضبطه، فلما دخلت السنون المجدبة ووصل القحط والجوع إلى فلسطين حيث يقيم يعقوب وبنوه، أرسل يعقوب ﷺ أبناءه العشرة في رحلتهم الأولى من الشام إلى مصر، وكان ذلك في السنة الثانية من سنوات القحط؛ ليأتوا له بالطعام منها، لمَّا بلَغه شأن عزيزها يوسف، وأنه يسد مجاعة الناس في هذه الأيام، وأمسك يعقوب عنده ابنه بنيامين (شقيق يوسف) وجاء هذا العدد للإكثار من الطعام؛ ولئلا يطمع فيهم أحد وهم في الطريق، وقطَعُوا المسافة من فلسطين عند حدود الشام حتى وصلوا إلى يوسف في مصر.

فلما رأوه كلَّموه بالعبرانية؛ فرد عليهم وعرَفهم وهم له منكرون لم يعرفوه، فقد كانت المدة من وقت إلقائه في الجب وهو آخر عهدهم بيوسف، إلى ذلك الوقت -وهو عزيز مصر- نحو ثلاثة وعشرين عامًا، وكان إخوة يوسف رعاة إبل وغنم، فأصابهم الجوع، وكان الناس يأتون إلى مصر يمتارون منها، وكان يوسف واليًا على الناس، فلا يعطي الوارد عليه أكثر من حِمْل بعير من الحنطة.

فلما قدم إخوته عليه، عرفهم ولم يعرفوه لبُعد عهدهم به، وقد تقدَّمت به السن، وأصبح ملكًا لمصر، وتغيَّر لسانه من العبرية إلى المصرية، وتغيرت هيئته وملامحه. قال تعالى:

٥٩- ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ[2] أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾

أمر يوسف بإعطاء إخوته نصيبهم من الطعام بعد إكرامهم وحسن ضيافتهم، وكانت التعليمات تقضي أن يُعطى لكل فرد حمل بعير واحد لمدة عام لا يزيد عن ذلك، وكان

---

(١) سهل الهمزة الثانية من (جاء إخوة) نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ورويس، وحققها الباقون.

(٢) فتح ياء الإضافة من (إني أوف) نافع وأبو جعفر، وأسكنها الباقون.

يبيع القمح بالأموال، وبالمتاع، والبضائع والعقار، وغير ذلك بطريق التبادل والمقايضة، وجاء إخوة يوسف بثمن الميرة معهم، قيل: إنه كان من الفضة، وقيل: إنه نِعال وجلد، وقيل: إنه أوعية، وقيل غير ذلك.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ وأوفى لهم الكيل أراد أن يتعرف على أخبارهم، بما علَّمه الله من حيل، فأتى بترجمان وسألهم: من أين أنتم؟ قالوا له: إننا أولاد نبي الله يعقوب، جئنا من فلسطين وقد أصابتنا المجاعة، وعلِمْنا بأمرك؛ فجئنا نبتاع الطعام، فقال لهم: لعلكم عيون (أي: جواسيس) تعملون لحساب بلد آخر، وجئتم تعرفون عورة بلادي[١].

قالوا: معاذ الله، إننا أبناء يعقوب، وهو يُهديك السلام، ويدعو لك، فسألهم هل لديكم إخوة آخرون؟ قالوا: نعم، لنا أخ صغير، قد هلك في البرية (يقصدون يوسف) ولنا أخ آخر من أبينا أمسكه أبوه خوفًا عليه لصغره، وهذا بعيره معنا، فقال لهم من باب الترغيب: إن كنتم صادقين في كلامكم أريد أن تأتوني به معكم في المرة القادمة؛ ليكون هذا دليلًا على صدقكم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ فلا أبخسكم شيئًا، وسوف أزيدكم حمل بعير لأخيكم، وأنا من المضيفين لكم.

٦٠- ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ[٢] ﴿٦٠﴾﴾

فإن لم تأتوا به معكم في المرة القادمة، فلا تعودوا إلى هذه البلاد، وليس لكم عندي طعام أكيله لكم، فقد رغَّبهم ثم توعَّدهم.

قال أبو حيان: والظاهر أن كل ما فعله يوسف كان بوحي من الله، وإلا فمقتضى البِر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه، لكن الله تعالى أراد أن يكمل أجر يعقوب ومحنته، وليتم تفسير الرؤيا[٣]. قال تعالى:

---

(١) استبعد هذا الفخر الرازي في تفسيره، ونقله كثير من المفسرين عن السدي وغيره، منهم: ابن أبي حاتم وابن كثير وابن عطية والقرطبي والخازن والشوكاني والجلالين وابن الجوزي وجاء ذلك في التوراة في الإصحاح الثاني والأربعين من سفر التكوين.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء من (تقربون) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

(٣) «تفسير البحر المحيط» (٥/ ٣٢٢).

٦١- ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

هذا وعد منهم ببذل الجُهد في إقناع أبيهم أن يرسله معهم، فقالوا: سنحاول ونجتهد في الإتيان به معنا، وقد دل هذا على أن يعقوب كان لا يصبر على فراق بنيامين، وكان يتسلى به بعد رحيل يوسف، فلذلك احتاج إلى مراودة في شأنه:

٦٢- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ[1] ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

وأمر يوسف عمَّاله أن يعيدوا ثمن الطعام الذي أتوا به معهم من الشام (فضة أو غيرها) وأن يوضع لهم في رحالهم التي جاؤوا بها؛ حتى يجدوه عندما يعودون إلى بلادهم؛ ليكون هذا مرغِّبًا لهم في العودة بأخيهم بنيامين، وحرصًا منه على أن يكون عند أبيه شيء من المال؛ ولأنه لا ينبغي له أن يأخذ ثمن هذا الطعام من إخوته، مع شدة حاجتهم له، أو ليعلمهم الكرم والسخاء وحسن الضيافة، وحتى يقدِّروا إكرامه لهم؛ فيَرجعوا إليه طمعًا في عطائه، عندما يفتحون أوعيتهم ويجدون أن متاعهم رُد إليهم. قال تعالى:

٦٣- ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ[2] وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾

هذه الآية تحكي قول إخوة يوسف لأبيهم فور عودتهم إليه: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ بالطعام من أرض مصر ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا﴾ إنا قدمنا على خير رجل، فأكرمنا وأحسن وفادتنا، وقال لنا: إذا رجعتم إلى أبيكم فأقرئوه مني السلام، ولكنه سوف يمنع منا الكيل في المرات القادمة ما لم نأخذ معنا بنيامين، فأرسل معنا أخانا؛ حتى نأخذ حمل بعير من الطعام لكل منا، ونزداد حملًا لأخينا، ونتعهد لك بحفظه، وقيل: إنهم طلبوا منه طعامًا لأبيهم وأخيهم، فقال: حتى تُحضروا لي أخاكم، ولما كان لهم سابقة مع يوسف بادروا أباهم قائلين: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فسنرده عليك ولن يناله مكروه.

قال ابن إسحاق: كان منزل يعقوب وبنيه -فيما ذكر لي بعض أهل العلم- بالعَرَبات، وهي

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف (لفتيانه) جمع كثرة، وقرأ الباقون (لفتيته) جمع قلة لفتى.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (يكتل) بالياء والباقون بالنون، على عودة الضمير إلى بنيامين في الأول، وإلى الإخوة في الثاني.

بلاد في جبل على طريق مصر من أرض فلسطين بغَوْرِ الشام، وقال بعضهم: كان بالأولاج - وهو مكان في شعب بنواحي حسمى- وكان يعقوب صاحب بادية بها شياه وإبل[١].

٦٤- ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ[٢] حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

لقد أثار طلب الإخوة كوامن الأحزان والآلام في نفس يعقوب، فهم الذين قالوا في شأن يوسف وهو صغير: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ ولذلك فقد رد عليهم في استنكار وألم بعد أن ألحوا عليه في إرسال أخيهم معهم وتعهدوا بحفظه، قال لهم أبوهم: كيف آمنكم على بنيامين وقد أمنتكم على أخيه يوسف من قبل؟ وقد التزمتم بحفظه ففعلتم به ما فعلتم، ولم توفوا بعهدكم، فلا أثق بالتزامكم وتعهدكم بحفظه.

وأمام إلحاحهم وإلحاح الحاجة، فوَّض يعقوب أمره إلى الله عز وجل قائلًا: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ وحفظه خير من حفظكم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وأرجو منه سبحانه أن يرحمني؛ فيحفظه ويرده عليَّ؛ فأرسَلَه معهم، وهو يعلم أن الحسد الذي كان بينهم وبين يوسف أقل منه فيما بينهم وبين بنيامين.

قال كعب الأحبار: إن الله تعالى أجاب يعقوب: وعزتي وجلالي لأردنَّ عليك كليهما (أي: يوسف وبنيامين) حين قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾. قال تعالى:

٦٥- ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

ولما وصلوا بلدهم، وأنزلوا أمتعتهم وفتحوها وجدوا بضاعتهم (أي: ثَمن الطعام) الذي دفعوه إلى يوسف رجع معهم، فقالوا: يا أبانا، أي شيء نريد؟! وماذا نطلب أكثر من هذا؟ هذا ثمن بضاعتنا رده العزيز إلينا، فكن مطمئنًا على أخينا وأرسله معنا؛ كي نمير أهلنا، ونحمل لهم الطعام من مصر ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين، فلا يُصاب بشيء مما تخاف، ونزداد أيضًا حمل بعير من الطعام لأخينا بنيامين، فإن عزيز مصر يكيل لكل واحد

(١) ينظر: ابن أبي حاتم (٧/ ٢١٦٥).

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف (خير حافظًا) تمييز أو حال، والباقون (خير حفظًا) تمييز.

حمل بعير واحد، وذلك الطعام الذي نأتي به، أو الذي نزداده لأخينا ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ فهو قليل لا يكفينا، أو هو سهل وهين على الملِك.

٦٦- ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ[1] مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

قال لهم يعقوب: لن أتركه يذهب معكم حتى تؤتوني عهدًا مؤكدًا موثقًا باليمين بالله أن تردوه إليَّ سالمًا معافى، إلا أن تُغلَبوا عليه فلا تستطيعوا تخليصه، أو يأتيكم شيء قاهر لا تطيقونه؛ فتهلكوا جميعًا، أو يحيط بكم أمر مفاجئ فيغلبكم، ولا تستطيعون له ردًّا.

فلما عاهدوا الله تعالى على طلب أبيهم، وأقسموا على المحافظة على أخيهم، قال يعقوب: الله رقيب وحسيب، وشهيد علينا وعليكم، وقد فوضت أمري إلى الله، فهو الذي سيحاسبكم ويجازيكم إن كنتم تريدون الغدر أو الوفاء، وهو حسبي ونعم الوكيل، وأرسل معهم أخاهم بنيامين، متوكلًا على الله تعالى.

وَصِيَّةُ يَعْقُوبَ لِأَبْنَائِهِ عِنْدَ السَّفَرِ فِي الرِّحْلَةِ الثَّانِيَةِ

٦٧- ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ[2] لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

هذه هي الرحلة الثانية لإخوة يوسف من فلسطين إلى مصر ومعهم هذه المرة بنيامين، حيث أشفق يعقوب على أبنائه، وخاف عليهم من الحسد -كما في أصح الأقوال- أو خاف عليهم أن يُتَّهموا بالجاسوسية أو السرقة أو أن الملك يظن فيهم شيئًا، فعددُهم يسترعي الانتباه، وهم غرباء، وقد يحدُث لهم اغتيال، وكانوا قد اشتهروا في مصر وهم في الرحلة الأولى وتحدث الناس عنهم.

---

(١) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (حتى تؤتون) وابن كثير ويعقوب بإثباتها في الحالين، والباقون بحذفها في الحالين، وأبدل همزتها واوًا الأصبهاني ورش وأبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) وقف يعقوب على (يا بني) بهاء السكت بخلف عنه، ووقف غيره بسكون الياء المشددة.

وقيل: إن يعقوب كان يعلم أن ابنه يوسف ملك مصر، وكان غرضه أن يصل بنيامين إليه في وقت الخلوة، وكان لمصر آنذاك أربعة أبواب، وكانت مدينة منفيس من أعظم مدن العالم، فقال لهم: إذا دخلتم مصر، فلا تدخلوا جميعًا من باب واحد، فأنتم أحد عشر رجلًا أبناء رجل واحد، وبهيئة واحدة ومنظر واحد، ولكن ادخلوا من أبواب متعددة.

وإني أوصيتكم بهذا ولا أدفع عنكم شيئًا قضاه الله عليكم، فلا يغني الحذر من القدر، ولا أمنع عنكم قضاء الله وقدره، ولكنا نأخذ بالأسباب، والعين حق، ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وما الحكم في كل شيء إلا لله وحده، لا ينازعه منازع، ولا يدافعه مدافع.

وقد اعتمدتُ عليه ووثقتُ به في كل أموري، وعليه وحده يعتمد المؤمنون الصادقون، فالتوكل على الله والأخذ بالأسباب كلاهما مطلوب، إلا أن العبد عندما يأخذ بالأسباب عليه أن يجزم بأن الحكم لله وحده، فهو النافع الضار، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، وهو سبحانه الفعال لما يريد، وقد ربط جل شأنه الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات.

ومعنى ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: لا يتم أمر إلا ما أراده الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق: ٣] وعلى العبد أن يأخذ بالأسباب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] فإن حدث للعبد غير ما سعى لأجله من أسباب؛ فقد حصل له فائدة امتثال أمر الله تعالى.

وقد جمع يعقوب في نصيحته لأبنائه بين الأخذ بالأسباب في قوله: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ وبين الاعتماد على الله تعالى في قوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ وختم ذلك ببيان أن التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب هو شأن المؤمنين الواثقين بربهم ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وفي هذا يبين النبي ﷺ أن الطيور لا يأتيها رزقها إلا مع السعي، فهي تذهب في الصباح جائعة وتعود إلى عشها في المساء وقد امتلأت حواصلها بالقوت.

ويقول عمر ﷺ: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، ثم يمد يديه إلى السماء، ويقول: اللهم ارزقني، فإن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة.

وُصُولُ إِخْوَةِ يُوسُفَ إِلَى مِصْرَ فِي الرِّحْلَةِ الثَّانِيَةِ

٦٨- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

لقد بيَّن الله سبحانه أن الأبناء امتثلوا أمر أبيهم، وقضوا الحاجة التي في نفسه، وهو خوفه عليهم من الحسد، ودخلوا من أبواب متعددة.

ويبيِّن الله جل شأنه أن هذا من تعليم الله ليعقوب، فهو صاحب علم من عند الله، علَّمه إياه عن طريق الوحي الإلهي، وقد علَّمه ربه عواقب الأمور، ودقائق الأشياء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن إرادة الله نافذة، وعِلْمه بخلقه شامل محيط، وقد منح الله يعقوب شيئًا من علمه الواسع؛ فحفظ ما علَّمه إياه وعمل به، ومن لم يعمل بعلمه لا يكون عالمًا، وهذا ثناء من الله تعالى على يعقوب عليه السلام.

٦٩- ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ[1] أَنَا۠[2] أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

وصل إخوة يوسف قادمين من بادية الشام إلى مصر، ومعهم هذه المرة أخوهم بنيامين، فلما أُذن لهم في الدخول قالوا ليوسف: هذا أخونا قد جئناك به كما أمرتنا، قال: أحسنتم وأجبتم، ثم أكرمهم وأحسن ضيافتهم، ولمَّا أعد لهم الطعام، أجلس كل اثنين منهم على مائدة، وبقي بنيامين وحده، فأجْلسه معه، فلما جاء الليل، نام كل اثنين منهم على فراش، وبقي بنيامين دون رفيق، فضمه إليه، فلما خلا به سأله عن اسمه، واسم أمه، وعدد إخوته، ثم قال له: هل لك أخ من أم؟ قال: كان لي أخ شقيق، ولكنه هلك، قال يوسف: أتحب أن أكون بدلًا منه؟ قال: ومَن يجد أخًا مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف، وقام إليه وعانقه.

ويطوي القرآن الكريم هذه الأحداث، وما عساه أن يكون قد تمَّ عند هذا اللقاء،

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني أنا) والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف (أنا) وصلًا ووقفًا، فيكون من قبيل المد المنفصل، والباقون بحذف الألف وصلًا وإثباتها وقفًا.

ويكتفي السياق بأن يوسف قد ضم إليه أخاه، وقال له: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ أي: فلا تحزن على شيء مضى، فإن الله قد نجانا من الهلاك، وأحسَن إلينا، وجمع بيننا.

ثم أسرَّ يوسف إلى بنيامين، بأنه سيحتال في بقائه معه، وأنه سيوفي لإخوته المكيال من الطعام، ويجعل لكل واحد منهم حمل بعير، ويجعل له معهم حمل بعير باسمه، ويدس صواعه في رحله، ثم ينادى عليهم بالسرقة، فيكون ذلك سببًا لبقائه معه؛ لأن شريعة يعقوب تقضي بأن يؤخذ السارق ذاته في سرقته، فيُسترق لمدة سنة عند مَن سرقه، فوافق بنيامين على هذه الخطة، وهذا ما تشير إليه الآية.

أي: ولما دخل إخوة يوسف عليه في منزل ضيافته، ومعهم شقيقه، ضمه يوسف إليه، وقال له سرًّا: إني أنا أخوك، فلا تحزن ولا تغتم بما صنعوه بي فيما مضى، وأمره بكتمان ذلك عنهم.

صُوَاعُ الْمَلِكِ فِي رَحْلِ بِنْيَامِين

٧٠- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ[1] أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾

هذا بيان لما فعله يوسف مع إخوته؛ كي يُبقي شقيقه معه حتى لا يسافر معهم عند الرحيل، فلما جهزهم يوسف وأعد حمل بعير من الطعام لكل منهم ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ أي: صواع الملك، وهو إناء كان يكتال به للناس، وكان يقدر بمقدار رطل وثلث، وكانوا يشربون فيه الخمر، وهو يشبه طاس الفضة أو الذهب، كان يشرب فيه الملك، ثم جُعل صواعًا يكال به الطعام؛ لعزَّته وندرته؛ لئلا يكال بغيره.

وقيل: إنه كان يُستخدم للشراب من ناحية، ويستخدم قعرهُ المجوَّف من الناحية الأخرى في كيل القمح، وكان هذا الصواع في الغالب من الذهب.

أمر يوسف عُمَّاله بوضع هذا الصواع في متاع أخيه بنيامين من حيث لا يشعر أحد، وخرجوا من مصر راجعين إلى بلادهم، ولما فارقوا العمران، أرسل يوسف خَلْفهم مناديًا يقول: يا أصحاب العير المحملة بالطعام، إنكم لسارقون فقفوا للتفتيش، وإعطاء الجائزة

---

(١) قرأ الأزرق وأبو جعفر بإبدال الهمزة واوًا من (مؤذن) وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

لمن يأتي بالمسروق.

فالمؤذن: هو المنادي، **والعير:** اسم للإبل التي تحمل الطعام، وتطلق العير على قافلة الحمير، وغلب استعمالها على كل قافلة تحمل الزاد وألوان التجارة.

وهل كان هذا النداء بأمر يوسف، أم كان بغير أمره؟ **قولان:**

١- ليس في القرآن ما يدل على أنهم قالوا ذلك بأمر يوسف، وظاهر الحال أنهم طلبوا السقاية فلم يجدوها.

٢- إن كان ذلك بأمره، فَيُحْمَل على أنه على سبيل الاستفهام، أو التعريض بسرقة يوسف من قبل، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، أو لأن أخاه لن يتألم بذلك؛ لأنه أعلمه مسبقًا بما سيكون، وهذا من الكيد الذي يَسَّره الله ليوسف، ولعله كان بوحي منه سبحانه.

٧١- ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾

أقبل إخوة يوسف على الذين ينادون عليهم بالسرقة، قائلين لهم في دهشة وفزع: ماذا تفقدون؟ لم يجيبوهم قائلين: ما سرقنا، وإنما سألوهم مستفسرين: ماذا تفقدون؟ وإقبالهم عليهم فيه إبعاد للتهمة عنهم، فإن السارق ليس له همٌّ - في العادة - إلا الهَرب والبُعد، وهؤلاء جاؤوا مقبلين على المنادي لنفي التهمة عنهم، وكارد المنادي ومن معه أنهم:

٧٢- ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾

أي: قال المنادي ومَن معه: نفقد صواع الملك الذي يكال به الطعام، وقد أعددنا مكافأة لمن جاء بهذا الصواع؛ وهي حمل بعير من القمح زائد على حمله الخاص به، قال المنادي: وأنا بهذا الحمل كفيل وضامن بتأديته لمن يأتي بالصواع.

٧٣- ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

أقسم إخوة يوسف قائلين: والله لقد تأكدتم من سلوكنا وأخلاقنا، أننا ما جئنا أرض مصر لنرتكب فيها ما لا يليق، والسرقة ليست من صفاتنا.

والتاء لا تدخل في القسم إلا على اسم الجلالة، وهؤلاء قد أقسموا على أمرين:

قالوا **أولًا**: ما جئنا من الشام لنفسد في أرض مصر، وقالوا **ثانيًا**: وما كنا سارقين.

واستشهدوا بمعرفة أهل مصر لهم، وأنهم على الطاعة والخير والبر، واشتهارهم بالعفة والأمانة، وأنهم أبناء نبي الله يعقوب، وأصحاب يوسف وحاشيته يعلمون أنهم أهل أمانة وأهل ديانة، وأنهم لم يسرقوا قبل ذلك، واستدلوا على أمانتهم **بأمرين**:

الأمر الأول: أنهم أعادوا البضاعة التي وضعها يوسف في رحالهم عند عودتهم من الرحلة الأولى، حين وجدوها معهم في المتاع، وهذا من باب الديانة والأمانة، ولو كانوا غير ذلك ما أرجعوا هذه البضاعة من الشام إلى مصر مرة أخرى.

الأمر الثاني: أنهم لما دخلوا أرض مصر كمموا أفواه الدواب؛ حتى لا تأكل شيئًا من الزروع أو النبات أو الثمار، بخلاف جميع الوفود القادمة؛ لأخذ الطعام آنئذ، وهذا من باب الأمانة وشدة الحرص؛ حتى لا تأكل دوابهم شيئًا غير مشروع، أو تفسد الزرع وتضره.

ولما كانت السرقة من أعظم الفساد في الأرض أقسموا على أنهم غير سارقين ولا مفسدين، لأنهم عرفوا أن حاشية الملك سبروا أحوالهم، وعرفوا عفّتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم.

٧٤- ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾

أي: قال المكلفون بالبحث عن المكيال لإخوة يوسف: ما جزاء السارق في شريعة يعقوب؟ وما عقوبته عندكم إن كنتم كاذبين في قولكم وتبين أنكم سارقون؟

٧٥- ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قال إخوة يوسف: جزاء السارق في شريعتنا أن يؤخذ رقيقًا عند مَنْ سرقه، فيسلم إليه بسرقته ويسترقه لمدة عام كامل، فهذا جزاء من ظلم بالسرقة، وهذا ديننا وسنتنا فيمن سرق، قالوا ذلك وهم واثقون من براءتهم، مستنكرون لهذه التهمة.

٧٦- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ[1] أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ

(١) أبدل الهمزة الثانية من (وعاء أخيه) ياء خالصة مفتوحة نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ورويس، وحققها الباقون، ولا خلاف في تحقيق الأولى.

مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ(١) دَرَجَٰتٍ(٢) مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

أمر يوسف عليه السلام بتفتيش الأوعية، بعد عودة إخوته إليه، وبدأ - من باب نفي التهمة - بتفتيش أوعية الإخوة قبل وعاء بنيامين؛ إحكامًا لما دبره لاستبقاء أخيه معه، فلم يجد شيئًا، وكان يستغفر الله عند فتح كل متاع، ولما وصل إلى متاع بنيامين في النهاية يُروى أنه قال: ما أظن أن هذا أخذ شيئًا، وأراد أن يترك متاعه دون تفتيش، قالوا: لا والله حتى تفتح متاعه، ويطيب خاطرك بتفتيشه، فبحث في وعاء أخيه بنيامين، ثم استخرج منه الإناء، كذلك يسَّرنا ليوسف وعلَّمناه هذه الحيلة، ودبرنا له السبب؛ ليبقي له أخاه.

ثم من الذي تولى التفتيش؟ قيل: هو يوسف بنفسه، وهذا مقتضى السياق.

وقيل: هو المنادي ومَن معه، وأنهم الذين أخرجوا الصواع من رَحْل بنيامين.

والكيد من البشر: هو التحايل على الأمر، أما **الكيد من الله سبحانه**: فهو تدبير الأمر وتهيئة الأسباب، وقد ألهم الله سبحانه يوسف وعلَّمه، ودبَّر له أن يضع الصواع في رحل أخيه؛ ليضمه إليه بطريقة لا يستطيعون دفعها، وألهم الله إخوة يوسف أن ينطقوا بالحكم فقالوا:

﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ بحيث يبقى السارق عند المسروق منه مدة عام رقيقًا، وهذا كله من تدبير الله ﷻ، وهو من الكيد الذي يقول الله عنه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾

وما كان له أن يأخذ أخاه في حكم ملك مصر؛ إذ ليس في شريعته أن يتملك السارق مقابل سرقته.

ودين الملك: يعني حُكْم السارق في قانون أهل مصر ونظامهم وقتئذٍ، فعبَّر عن النظام بأنه الدين.

وشريعة أهل مصر في ذلك أن يُضرب السارق، وأن يغرَّم ضِعْفي مقدار السرقة، ولم يكن في نظام الملك وقضائه أن يُسترق السارق عند المسروق لمدة عام، ولو أنه حكم

---

(١) قرأ يعقوب بالياء في (نرفع) و (نشاء) والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، والباقون بنون العظمة.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالتنوين في (درجات) على أنه منصوب على الظرفية، و(من) مفعول؛ أي: يرفع من يشاء مراتب ومنازل، والباقون بغير تنوين على الإضافة، فدرجات مفعول به.

بالنظام المعمول به عند ملك مصر آنئذ لم يتمكن يوسف من إبقاء بنيامين معه، وهذا معنى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ وقد علق ذلك بمشيئة الله تعالى؛ أي: إلا أن ألهم الله يوسف أن يأخذ بشريعة يعقوب في هذا الحكم؛ ليتم له استبقاء أخيه عنده، وكل أمر معلق بمشيئة الله سبحانه.

وهكذا يرفع الله منازل مَن يشاء في الدنيا على غيره، وقد رفع الله درجة يوسف على إخوته بالعلم والنبوة والملك، وفي هذا إشارة إلى أن هذه الحيلة كانت بتعليم الله تعالى ليوسف وإلهامه له، وفوق كل صاحب علم مَن هو أعلم منه، إلى أن ينتهي العلم إلى رب العزة سبحانه، فمنه سبحانه بدأ العلم وتعلم العلماء، وإليه تعالى يعود العلم وينتهي، وكان إخوة يوسف علماء، وكان يوسف أعلم منهم، ويجب على العالم أن يتهم نفسه، ويدرك أن هناك مَن هو أعلم منه.

إِخْوَةُ يُوسُفَ يَرْمُونَهُ بِالسَّرِقَةِ

٧٧- ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

أقبل إخوة يوسف على بنيامين -لمَّا وُجد الصواع في رحله- يؤنِّبونه ويوبِّخونه، قالوا له: يابن راحيل (أمه) لقد فضحتنا وسوَّدت وجوهنا، وقالوا للملِك (يوسف): هذا شأنه وشأن أخيه الهالك، فقد كان سارقًا (يقصدون يوسف) وهما من أم واحدة، وهذه أخلاقهم.

وهذا الكلام مجرد كذب؛ لنفي التهمة عنهم، ولتبرئة أنفسهم، وليبينوا أنهم مختلفون في أخلاقهم عن بنيامين وأخيه، وهذا الكذب ليس بغريب عليهم، ففي أول السورة بيان أنهم كذبوا على أبيهم، وجاؤوا بقميص ملطخ بالدم، وقالوا: هذا دم يوسف، ومَن يكذب بالفعل والقول أهون ممن يكذب في القول فقط، والذي قالوه هنا مجرد كذب في الكلام، فنسبتهم السرقة إلى يوسف كذب محض، بدليل كذبهم السابق.

قال بنيامين: إن الذي وضع الصواع في رحلي هو الذي وضع البضاعة في رحالكم، وكأنهم لم ينتبهوا لهذا الجواب واستبعدوه.

والمفسرون يذهبون في تقصِّي هذه السرقة على أقوال: ماذا سرق يوسف على فرض

صحة الادعاء؟:

١- قالوا: إن يوسف ﷺ سرق صنمًا كان يعبده جده من جهة أمه، فأخذه وكسَّره وألقاه في الطريق، فسَّموا ذلك سرقة[١]!!

٢- وقيل: إنه كان يأخذ الطعام من البيت إذا سأله مسكين أو جائع، فربما أعطاه بيضة أو دجاجة ونحو ذلك، فعدُّوا هذا سرقة!!

٣- وقيل: إن يوسف كانت له عمة (أخت إسحاق، جده) وكانت قد احتضنته وهو طفل صغير، ثم أراد يعقوب أن يأخذه منها بعد سنوات، وكانت تحبه حبًّا شديدًا، فأرادت أن تحتال في بقاء يوسف معها، وكان عندها منطقة إسحاق (وهي ما يشبه الحزام) وهو موروث عن إبراهيم إلى إسحاق، ثم انتقل إلى أكبر الذرية، وهي هذه العمة، فاحتالت بأن تضع هذه المنطقة تحت ثياب يوسف وهو صغير، ثم قالت: إنه سرق، فقال يعقوب: إن كان قد سرق فهو لكِ لمدة عام آخر، كما كان ذلك في شريعة يعقوب ﷺ، وعندما تم تفتيش يوسف وجدوا هذه المنطقة تحت ثيابه، وبهذا احتالت عمته في إبقاء يوسف معها مدة أخرى، فأمسكته عندها حتى ماتت، ثم رجع إلى أبيه فعدوا ذلك سرقة[٢]!!.

ولعل هذا هو الأرجح.

سمع يوسف مقالتهم تلك، فأخفاها في نفسه ولم يظهرها لهم، وحدَّث نفسه قائلًا: أنتم شر مكانًا وأسوأ حالًا ومنزلة عند الله ممن رميتموه بالسرقة، فأنتم سرقتم يوسف من أبيه، وألقيتموه في الجب، وبعتُموه بيع الرقيق، ودبرتم كل ذلك ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ به يوسف إن كان ما تقولونه حقيقة أم كذبًا.

حِوَارٌ بَيْنَ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ فِي شَأْنِ بِنْيَامِينَ

٧٨- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

قال إخوة يوسف له على وجه الاستعطاف: إذا كان ولَا بُدَّ لك أن تأخذ بنيامين فلتأخذ

(١) «تفسير فتح القدير» (٣/ ٤٣).

(٢) جاء هذا عن مجاهد وابن إسحاق والطبري، ينظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ١٩٦) وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٧٨) وابن كثير (٤/ ٣٢٧).

أحدنا مكانه حتى نوفي بالعهد مع أبينا، وحتى لا يصاب بفجيعة في حالة عدم عودته إليه، فقد كان من المفروض أن يبقى بنيامين عند يوسف؛ لأن الصواع وُجد في رحله، ولكنهم أخذوا يرجون يوسف أن يعطيهم بنيامين؛ ليعودوا به إلى أبيهم وفاءً بالعهد والميثاق؛ فأخذوا يستعطفونه قائلين: إن له أبًا شيخًا كبيرًا في السن، وقورًا، عالي القدر والمنزلة والمكانة، وهو لا يقدر على فراقه؛ لأنه أصغر أبنائه، وأحبهم إليه، وقد أخذ علينا العهد الموثق أن نعيده إليه، فَخُذْ أحدنا بدلًا منه، واستبقه عندك رهينة أو رقيقًا، فإن من عادتك الإحسان، وحسن الضيافة، ومقابلة السيئة بالإحسان ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في أقوالك وأفعالك.

٧٩- ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قال يوسف: نعوذ بالله أن نأخذ غير مَن وجدنا المكيال عنده، لم يقل: لن نأخذ إلا مَن سرق، تحرزًا من الكذب؛ لأنه يعلم أن بنيامين لم يسرق، وإنما قال: ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ إنا إذا أخذنا بريئًا بذنب غيره نكون من الظالمين في مذهبكم، فكيف تطلبون ما تعرفون أنه ظلم؟

وإنما استساغ يوسف ذلك، مع ما فيه من مخالفة الحقيقة والشدة على أبيه بفراق بنيامين؛ لأنه فعله بأمر من الله له، وليزيد الله من بلاء يعقوب مضاعفة له في الأجر، كما أخفى عنه خبر يوسف؛ ليزيد بلاءه، وقد كان رد يوسف عليهم قاطعًا، لا يترك أملًا في العفو عن بنيامين، أو أخذ أحد منهم مكانه.

الأَخُ الأَكْبَرُ يَبْقَى فِي مِصْرَ مَعَ بِنْيَامِينَ وَيُرْسِلُ إِخْوَتَهُ إِلَى أَبِيهِمْ

٨٠- ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟[١] مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ[٢] أَبِىٓ[٣] أَوْ

(١) قرأ البزي بخلف عنه بتقديم همزة (استيئس) وجعلها موضع الياء مع إبدالها ألفًا، وتأخير الياء وجعلها في موضع الهمزة، فيصير النطق بألف بعدها ياء مفتوحة هكذا (استَايَس) والباقون بياء ساكنة بعدها همزة مفتوحة هكذا (استَيْئَسَ) وهو الوجه الثاني للبزي.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (لي أبي) والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من ياءَيْ (أبي أو يحكم الله لي) والباقون بالإسكان.

يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِىٓ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

فلما يئسوا من العزيز ومن قبول شفاعتهم، وأيقنوا أنه لا جدوى من الرجاء في ذلك، ولا سبيل لأن يجدوا حلًّا عند يوسف، انفردوا عن الناس، وهذا معنى ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ أي: خلو للمشاورة حيث جلسوا في مجلس خاص يتناجون ويتشاورون فيما بينهم على عادتهم في تدبير أمورهم، قال كبيرهم في السن، أو رئيسهم، أو أرجحهم عقلاً، وكان كبيرهم يسمى (روبيل) وهو الذي نهاهم عن قتل يوسف، وأرجحهم عقلًا هو (يهوذا) ورئيسهم هو (شمعون) قال كبيرهم مذكرًا لهم: ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم العهد المؤكد لتعيدُنَّ بنيامين إلى أبيه، ثم ذكَّرهم بتفريطهم وتقصيرهم في شأن يوسف من قبل وإضاعتهم له؛ لذلك فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لي أبي من موقعه في فلسطين بالخروج من مصر، أو يقضّي الله لي برد أخي، أو بالخروج معكم، أو بالموت، والله خير الحاكمين العادلين المنصفين.

ذكر القاضي عياض أن أعرابيًا سمع رجلًا يقرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام، وذلك لأن هذه الجملة ذَكَرَتْ صفة اعتزالهم جميع الناس، وانفرادهم عن غيرهم وتقلُّبهم للآراء ظهرًا لبطن، واتفاقهم على ما يَلْقَوْن به أباهم عند عودتهم إليه.

ثم وصاهم يوسف بما يقولوه لأبيهم عند عودتهم إليه، فقال:

٨١- ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

قال الأخ الأكبر لأبناء يعقوب: ارجعوا أنتم إلى أبيكم من مصر إلى فلسطين وأخبروه بما جرى، وسأبقى هنا رهينة عند عزيز مصر، وقولوا له: إن ابنك بنيامين سرق -وهذا في ظاهر الأمر لا في حقيقة الحال- وما شهدنا بذلك إلا بعد أن تيقنا، فقد أخرج يوسف الصواع من متاعه أمام أعيننا، فأخبرنا عما رأينا، وشهدنا عند الملك أن السارق يؤخذ بسرقته كما هو في شريعتنا -وكانوا يعتقدون بكفر الملِك؛ لأنهم حتى الآن لم يعرفوا أنه يوسف- وما كان عندنا علم بالغيب، وما كنا نعرف المجهول، ولا الذي سيحدث في المستقبل حين أخذنا بنيامين، ولو علمنا أنه سيسرق ما أخذناه منك، ولا عاهدناك على رده، ولعل الصواع يكون

قد دُسَّ في رحله وهو لا يدري، فيكون هذا دليلًا على صحة قولنا.

٨٢- ﴿وَسْـَٔلِ[1] ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أي: إن كنت في شك مما نقول فاسأل أهل القرية التي كنا فيها، ونودي علينا فيها بالسرقة حين خرجنا من حدود مصر، أرسل إلى أهل هذه القرية واسألهم.

يقال: إن المراد بهذه القرية هي العاصمة، ويرجح أنهم كانوا قد تركوا العاصمة، وخرجوا من حدودها إلى مسافات بعيدة، ويذكر أن هذه القرية هي (بلبيس) على بعد نحو خمسين كيلو مترًا تقريبًا من القاهرة، وهي التي حدث فيها التفتيش.

واسأل -أيضًا- أصحاب العير الذين قدموا من الشام بصحبتنا، وهم قوم من كنعان جيران يعقوب، وإنا لصادقون فيما قلناه، وإنما أمرهم أخوهم الأكبر بهذه المقالة مبالغة في نفي التهمة عنهم لموقفهم السابق من يوسف عليه السلام.

الْحِوَارُ الْحَزِينُ بَيْنَ يَعْقُوبَ وَأَبْنَائِهِ

٨٣- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

ولما وصلوا إلى يعقوب وأبلغوه هذا الكلام، قال كلمته الأولى عند فقد يوسف: بل زينت لكم أنفسكم الأمارة بالسوء مكيدة دبرتموها كما فعلتم من قبل مع يوسف، وهي حَمْلُ أخيكم معكم إلى مصر؛ فإن هذه المشكلة بسبب المكيدة السابقة بيوسف.

فقد جال بخاطر يعقوب أنهم فعلوا ببنيامين كما فعلوا بيوسف من قبل، فصبري على ما قلتم صبر جميل لا جزع فيه ولا شكوى معه، عسى الله أن يرد إليَّ أبنائي الثلاثة: يوسف وبنيامين والأخ الكبير الثالث روبيل، الذي بقي في مصر متخلفًا من أجل أخيه، قال يعقوب ذلك لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته، فأحسن الظن بالله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾

---

(١) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة همزة (واسأل) إلى الساكن قبلها في الوصل والوقف، وكذا حمزة عند الوقف هكذا (وسَل) والباقون بعدم النقل.

بحزن يعقوب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فيما يدبره ويقضيه.

٨٤- ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ[١] عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾

وجاشت الأحزان في نفس يعقوب، فابتعد قليلًا عن أبنائه معرضًا عنهم، وقد ضاق صدره بما قالوه، وأخذ يتحسر ويتألم لفقد أبنائه لَا سِيَّمَا يوسف.

والأسف: هو شدة الحزن؛ وذلك لأن الحزن القديم على يوسف قد تضاعف وتجدد بفقد بنيامين، وهي شكوى إلى الله تعالى كأنه يقول: يا رب ارحم أسفي.

قال سعيد بن جبير: إن الاسترجاع (أي: قول إنا لله وإنا إليه راجعون) لم يكن في شريعة يعقوب، وإنما خص الله تعالى به هذه الأمة[٢].

أخذ يعقوب يشكو أمره إلى الله، لا إلى أحد من خلقه، وكثُر بكاؤه حتى غلب بياض عينيه على سواده، فذهب بصره وعمي؛ بسبب فراقه وهو كظيم، شديد الكتمان، ممتلئ بالكمد والحُزن، قالوا: إنه بقي أعمى ست سنوات.

قال الحسن: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم اللقاء ثمانون سنة لم تجف عينا يعقوب فيها.

ولما ظهر من يعقوب هذا الحزن والهم الذي ذكّره بالمصيبة الأولى، تعجب منه أولاده:

٨٥- ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾

ويذكر القرآن ما قاله أبناء يعقوب له حين رأوا ما به من الهم والحزن قالوا له مقسمين: تالله تفتأ تذكر يوسف؛ أي: لا تزال تذكر يوسف ومحبته ويشتد حزنك عليه حتى تكون حرضًا؛ أي: هزيلًا مريضًا قريبًا من الموت فاسد الجسم والعقل مشرفًا على الموت والهلاك من شدة الحزن؛ فخفف عن نفسك.

٨٦- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ[٣] إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

---

(١) وقف رويس على (يا أسفا) بهاء السكت بخلف عنه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٣٢٧) والطبري (٢/ ٧٠٨، ١٣/ ٢٩٥) وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٨٥).

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (وحزني إلى الله) والباقون بإسكانها.

قال يعقوب لما رأى غلظتهم: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، فهو كاشف الضر والبلاء.

والبث: هو ما انطوت عليه النفس من الهم والغم، **وبثُّ الحزن:** نشْره، ويعقوب لا يشكو حزنه العظيم وحزنه القليل إلا إلى الله وحده، لا إلى أبنائه ولا غيرهم، فحين يصاب الإنسان بمصيبة، ويتكلم بها إلى الناس شاكيًا جزعه، فهو يبث حُزْنه إليهم، كأنه يشكو ربه، وقد أراد يعقوب أن يبين لهم أن شكواه يرفعها إلى الله تعالى لا إليهم، والبث أشد من الحزن؛ لأن الحزن يكون في القلب لا يُنشر ولا يُتكلم به.

ثم أشار يعقوب عليه السلام إلى أنه كان يعلم حياة يوسف، ويتوقع رجوعه إليه، فهو يعلم صدق رؤيا يوسف، وقد أحسَّ بلقائه.

وقيل: إن ملك الموت أخبره بحياته، وهذا معنى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأعلم من رحمة الله وفَرَجِه ما لا تعلمون، من أن الله تعالى سيردّهم عليّ، وتقر عيني بالاجتماع بهم.

رِحْلَةُ أَبْنَاءِ يَعْقُوبَ الثَّالِثَةُ إِلَى مِصْرَ

٨٧- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَسُواْ[١] مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

قال يعقوب لأبنائه في فلسطين: يا أبنائي عودوا إلى مصر مرة أخرى؛ فاستقصوا أخبار يوسف وأخيه واطلبوا أخبارهم في كل مكان، ولا تقنطوا من رحمة الله وفَرَجِه، فالمؤمن يصبر عند البلاء، ويحمد عند الرخاء، والكافر عكس ذلك، واليأس من فرج الله ورحمته كُفر والعياذ بالله.

فلا تقطعوا رجاءكم من رحمة الله، ولا تفقدوا الأمل في العثور على يوسف وأخيه، إنه لا يقطع الرجاء من رحمة الله إلا الجاحدون لقدرته الكافرون به، والمؤمن لا ييأس من فرج الله أبدًا ولو أحدقت به الكروب واشتدت عليه المصائب وتوالت عليه النكبات، فإن الله تعالى إذا أراد تفريج الكروب هيأ له الأسباب.

---

(١) قدم الهمزة من (ولا تيئسوا) و (لا ييئس) على الياء وأبدلها ألفًا البزي بخلف عنه.

والتحسس: طلب المعرفة عن طريق الحواس؛ باستخدام السمع والبصر والمواهب وإجهادها في الظفر بالمطلوب، ويستعمل التحسس في جانب الخير، أما التجسس فيستعمل في جانب الشر.

٨٨- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ[1] فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

امتثل إخوة يوسف أمر أبيهم فخرجوا من فلسطين متوجهين إلى مصر للمرة الثالثة؛ ليبحثوا عن يوسف وأخيه، وليشتروا من عزيز مصر ما هم في حاجة إليه من الطعام، فخرجوا من عند أبيهم قاصدين مصر، فلما دخلوا على يوسف قالوا له بأدب واستعطاف: يا أيها العزيز، وكان العزيز لقب ملك مصر يومئذٍ، ومعناه: القادر الممتنع، قالوا: أصابنا وأهلنا -ممن خلّفنا من الزوجات والعيال والأرحام- القحط والجدب، وألمَّ بنا الفقر والجوع.

فقد أضرت بنا المجاعة ونفد منا النقود وجئناك ببضاعة مزجاة؛ أي: قليلة ورديئة لا يقبلها أحد إلا تجاوزًا، قيل: كانت دراهم مزيَّفة، أو صوفًا وأقط، أو أدمًا ونعال... إلخ؛ كي نشتري بها الطعام، فأعطنا ما كنت تعطينا من قبل بالثمن الجيد، ولا تعاملنا بمقتضى ما معنا من بضاعة كاسدة غير مقبولة، بل أعطنا طعامًا جيدًا وافيًا كما كنت تعطينا من قبل وتصدق علينا بقبول هذه الدراهم القليلة وتجوَّز فيها، وتفضَّل علينا وسامحنا، ولا تنقصنا شيئًا، وزد لنا في الكيل، وهب لنا أخانا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ على أهل الحاجة بالثواب الجزيل والأجر العظيم.

فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رق لهم يوسف رقة شديدة، فعرّفهم بنفسه وعابتهم:

حِوَارُ يُوسُفَ مَعَ إِخْوَتِهِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ

٨٩- ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾

بعد هذا التضرع والانكسار، لم يستطع يوسف المضيَّ في التخفِّي عن إخوته، والاستمرار في تمثيل دور العزيز، ففاضت عيناه حين سمع مقالتهم، ولم يتمالك إلا أن

---

(١) أمال ألف (مزجاة) حمزة والكسائي وخلف، وقلله ورش بخلف عنه.

عرَّفهم بنفسه عن طريق التلميح والتعريض والتذكير لهم بأخطائهم، قال: هل تذكرون الذي فعلتموه بيوسف وأخيه من الأذى في وقت الصبا وحال الجهل منكم بما يؤول إليه أمر يوسف، وهكذا فإن يوسف قبل أن يتم الجملة اعتذر عنهم بقوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ أي: لا تعلمون قبح ما فعلتم ولا عاقبته؛ ولذا أقدمتم عليه، ومن هذا الكلام عرفوا أن محدِّثهم هو يوسف عليه السلام:

٩٠- ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ[1] لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ[2] وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

قيل: إن يوسف أخرج لهم نسخة الكتاب الذي كتبه يهوذا حين باعوه إلى (مالك بن ذعر الخزاعي) الذي أدلى دَلْوه وأخرجه من البئر، بعد ادعائهم أنه عَبْد آبق منهم، ومن ثَم باعه (مالك) إلى عزيز مصر (قطفير) فلما قرؤوا الكتاب اعترفوا بصحته[3]، وقالوا متعجبين مستغربين: أئنك لأنت يوسف؟ قيل: إنهم لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه، وكان له علامة تشبه الشامة في جسده عرفوه بها، وهذا تصديق لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال: نعم، أنا يوسف الذي قصدتم قتله، فألقيتموه في الجب وبعتموه بيع الرقيق، وهذا أخي بنيامين الذي ظلمتموه معي، قد تفضل الله علينا بالخلاص من البلاء، والعزة بعد الذلة، فأعطانا خير الدنيا والآخرة، وجمع بيننا بعد تفرق، إنه من يتق الله ويبتعد عن الفحشاء بامتثال أمره واجتناب نهيه، ومراقبته في السر والعلانية، ويصبر على المحن، وعلى طاعة الله تعالى، ويصبر عما حرَّم الله عليه، ويصبر على ما تكره النفس، فإن الله تعالى لا يُذهب ثواب إحسانه، وإنما يَجزيه أحسن الجزاء.

وهذان الأمران (التقوى والصبر) يترتب عليهما نتيجة حتمية هي النجاح والفلاح،

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو جعفر بهمزة واحدة مكسورة على الإخبار في (أإنك) والباقون بهمزتين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة على الاستفهام التقريري، وكل على مذهبه في التسهيل والتحقيق والإدخال وعدمه.

(٢) قرأ قنبل بخلف عنه بإثبات الياء وصلًا ووقفًا من (يتق) والباقون بحذفها، وإثبات الياء على لغة من يثبت حرف العلة مع الجازم.

(٣) «تفسير الخازن» للآية.

والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لأنه كان محسنًا في عمله.

أخرج عبد الرزاق في المصنف عن شيبة أن يوسف لما لقي أخاه قال له: هل تزوجت بعدي؟ قال: نعم، قال: وما شغلك الحزن عليَّ؟ قال: إن أباك يعقوب قال لي: تزوَّج لعل الله أن يذرأ منك ذرية يثقِّلون، أو قال: يسكنون الأرض بتسبيحة[1].

٩١- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ[2] (٩١)﴾

اعترف إخوة يوسف بخطئهم، فاعتذروا عما فعلوه، وانتابهم الخزي والخجل؛ حيث إنه قابل إساءتهم إليه بإحسانه إليهم، وأقسموا أن الله سبحانه قد فضل يوسف عليهم بالنبوة والرسالة والمُلْك والعلم والعقل والحلم والتقوى والصبر والحُسن، ولذلك فقد أعزه الله وأذلنا، وأكرمه وأهاننا ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ فيما صنعناه بك وبأخيك متعمدين، وهذا اعتراف بالخطيئة، وإقرار بالذنب، وتقرير منهم لتفضيل يوسف عليهم، فماذا كان مِن يوسف؟

٩٢- ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾

إن أصحاب النفوس الكريمة، والقلوب الكبيرة، والهمم العالية، حينما تترقى في التقوى، وتتقلب في النعم، وتصل إلى درجة عالية، من الجاه والمال والسلطة، حتى تبلغ القمة، وتتمكن من العقاب، أصحاب هذه النفوس لا ينتقمون لأنفسهم، ولا يُكنُّون في صدورهم حقدًا لأحد.

ويوسف عليه السلام في مواجهة ظلم إخوته له، وتمكنه من عقابهم، لم ينتقم لنفسه، ولم يُكنَّ لإخوته حقدًا ولا بغضًا، مع ما هو فيه من المنزلة الرفيعة، والجاه العريض، والسلطة المطلقة، وإنما عفا عنهم، ولم يزدد إلا تواضعًا وانكسارًا، فلم يكُن منه إلا أن عفا وصفح عن إخوته دون توبيخ ولا تعنيف ولا تأنيب ولا تقريع.

قال لهم يوسف: لا تأنيب عليكم اليوم، فليس هناك من عقوبة ولا محاسبة، ولا إعادة للماضي، فقد عفوت عما صدر منكم في حقي وفي حق أخي، وأرجو الله أن يغفر لكم

(١) «مصنف عبد الرزاق» (١٠٣٨٩).

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (لخاطئين) وصلًا ووقفًا، ووقف عليها حمزة بالتسهيل والحذف.

ما فرط منكم، فهو سبحانه المتفضل على التائبين بالعفو والمغفرة والرضوان، ثم دعا لهم طالبًا من الله المغفرة زيادة على عفوه وصفحه، فقال: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لمن تاب من ذنبه وأناب إلى ربه، وأنا الفقير الضعيف، فسامحهم، ولم يذكر لهم ما حدث منهم، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة.

جاء في السيرة: أن أبا سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أمية، لما وصلا المدينة مهاجرين، أعرض عنهما النبي ﷺ لقبح أفعالهما السابقة، فشق ذلك عليهما، فذهبا إلى أبي بكر، ومن بعده عمر، يطلبان منهما الشفاعة لدى رسول الله ﷺ فأبيا، ثم ذهب أبو سفيان إلى عليٍّ ابن عمه، وذهب عبد الله إلى أم سلمة أخته، فقال عليٌّ ﷺ: الرأي أن تلقيا رسول الله ﷺ فتقولان له: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ فإنه لا يرضى أن يكون دون أحد من الأنبياء، ففعلا ذلك، فقال لهما: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ﴾[1].

ولفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ إما يكون متعلقًا بما قبله، فيحسُن الوقف عليه، وإما أن يكون متعلقًا بما بعده، فيحسن الوقف على ما قبله في التلاوة ولعل الأول أصح.

٩٣- ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾

انتقل يوسف من الصفح عن إخوته إلى السؤال عن أبيهم يعقوب ﷺ، فقالوا له: إنه قد عمي من شدة الحزن، وكثرة البكاء.

جاء عن ابن عباس ومجاهد والضحاك: أن الله تعالى قد أنزل جبريل بقميص من الجنة على إبراهيم ﷺ، حين أُلقي في النار، وألبسه إياه، فكان درعًا واقيًا له من الإحراق، ولا يلبس هذا القميص مبتلى ولا سقيم إلا عوفي؛ لأن فيه رائحة الجنان في الدنيا، وهذا القميص ورَّثه إبراهيم لابنه إسحاق، ثم ورَّثه إسحاق لابنه يعقوب، ثم وضعه يعقوب في قصبة من فضة فأغلقها وعلَّقها في عنق يوسف ﷺ، فلما أُلقِي في البئر أخرجه جبريل وألبسه إياه، فنجاه الله تعالى من الجب.

وقد أوحى الله إلى يوسف ﷺ أن يرسل هذا القميص إلى أبيه يعقوب، وأن يُلقى به على وجهه، فيعود إليه بصره، ويزول عنه البكاء والحزن، وينشرح صدره، ويفرح قلبه،

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٢٧٧).

فأعطى يوسف القميص إلى أخيه يهوذا وَفْق طلبه، قال يهوذا لإخوته: قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص الترحة، فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة[١]؛ لأنه هو الذي كان قد حمل القميص الملطَّخ بالدم الكاذب إلى أبيه يعقوب، وقال له: إن الذئب قد أكل يوسف، فهو الذي سبق له أن كسر قلب أبيه وأحزنه، فأراد يهوذا أن يُدخل السرور والفرح على أبيه، كما أدخل الحزن عليه، فطلب من يوسف أن يحمل القميص بنفسه لأبيه ويعطيه إياه.

وخرج يهوذا بالقميص من مصر حافيًا حاسرًا، بعد أن قال لهم يوسف: عودوا إلى أبيكم ومعكم قميصي هذا، فاطرحوه على وجه أبي يعُدْ إليه بصره، ثم أحضروا إليَّ جميع أهلكم: الأخوة وزوجاتهم وأولادهم، قيل: كانوا ثلاثة وسبعين ما بين رجل وامرأة، فما فعله يوسف كان بوحي من الله إليه، وما حدث ليعقوب برد بصره من الخوارق التي أيد الله بها يوسف ويعقوب عليهما السلام، وكان إرساله القميص معهم علامة ودليلًا ليعقوب على أنهم قادمون إليه من طرف أخيهم يوسف حتى لا يكذبهم، إلى جوار بشرى رد بصر يعقوب إليه.

يَعْقُوبُ يَشُمُّ رَائِحَةَ يُوسُفَ مِنْ قَمِيصِهِ بِمُجَرَّدِ خُرُوجِ الْقَافِلَةِ مِنْ مِصْرَ

٩٤- ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ[٢] (٩٤)﴾

استجاب إخوة يوسف إليه، فأخذوا القميص ورجعوا إلى أبيهم في فلسطين، ولما خرجت القافلة من مصر بالقميص متوجهة نحو الشام بأرض كنعان، ثم فارقت العمران والبنيان ووصلت إلى العريش، هبَّت ريح الصبا، قيل: من مصر، وقيل: من العريش، وهي تحمل ريح القميص وفيه رائحة الجنة، حملت الرياح رائحة القميص إلى يعقوب عليه السلام على مسافة ثمانين فرسخًا؛ أي: مسيرة ثمانية أيام، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[٣].

ولمّا كان هذا القميص فيه أثر ريح يوسف، أراد الله سبحانه أن يشمه يعقوب عليه السلام،

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٢٨٠).

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا في (تفندون) وحذفها غيره في الحالين.

(٣) كما في «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٣٢٩) والطبري (١٣/ ٣٣٧) وابن أبي حاتم (٧/ ٢١٩٧).

فترجع إليه روحه، ويرجع إليه بصره، ولله في ذلك حكم وأسرار.

وبينما كان يعقوب مع الحاضرين معه إذ سمعوا منه صيحة، قال أبوهم: إني أشم ريح يوسف لولا أن تكذبوني أو تسخروا مني، وتقولوا: إنه صدر مني من غير شعور، ولا تصدقوا قولي، فتنسبوني إلى التخريف.

قال الإمام مالك: أوصل الله ريح قميص يوسف ليعقوب كما أوصل عرش بلقيس إلى سليمان قبل أن يرتد إليه طرفه.

فماذا كان موقف الأبناء تجاه كلام أبيهم؟

٩٥- ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾

أي: قال الحاضرون عند يعقوب: تالله إنك لا تزال في خطئك القديم، فأقسموا بالله أن يعقوب لا يزال في حبه الأعمى ليوسف لا ينساه، والمراد بالضلال: الخروج عن الصواب في حبه ليوسف وتفضيله عليهم.

عَوْدَةُ بَصَرِ يَعْقُوبَ إِلَيْهِ

٩٦- ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ(١) أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

وتحقق ما وجده يعقوب من رائحة يوسف، وحان وقت المفاجأة التي حكاها القرآن، فوصل البشير وهو يهوذا إلى أرض كنعان، وألقى القميص على وجه يعقوب، فارتد بصيرًا، وعمه السرور والفرح، وتيقن أن يوسف حيٌّ، ويجوز أن يكون يعقوب هو الذي ألقى القميص على وجهه فعاد إليه بصره، وكان هذا معجزة ليوسف ويعقوب، وسُمي الرسول بشيرًا؛ لأنه بشَّر يعقوب بأن يوسف حيٌّ، وعندئذ قال يعقوب لمن حوله: ألم أخبركم أني أعلم من الله بمقتضى الوحي والنبوة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أن يوسف حي لم يمت، وأن الله سيجمع بيننا.

قال قتادة: إن يعقوب لقي ملك الموت فقال: هل قبضت نفس يوسف فيمن قبضت؟

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني أعلم) والباقون بإسكانها.

قال: لا ، فعند ذلك قال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

ثم سأل يعقوب يهوذا قائلًا : كيف تركت يوسف؟ قال : تركته مَلِك مصر ، قال يعقوب : ماذا أصنع بالمُلك؟ على أي دين تركته؟ قال: تركته على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة[2].

٩٧- ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾

قال إخوة يوسف حين وصلوا إلى أبيهم وأخذوا يعتذرون إليه مما صنعوا به وبيوسف: يا أبانا ، سل لنا ربنا أن يعفو عنا ، ويستر علينا ذنوبنا ، واطلب لنا الغفران من الله، ثم اعترفوا بخطئهم فقالوا : إنا كنا خاطئين في حقك وحق يوسف وشقيقه .

٩٨- ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ[3] إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

ورد أن يوسف لما استغفر لإخوته، ويعقوب استغفر لأبنائه، قال بعضهم لبعض: وما يغني عنا هذا إن لم يغفر الله لنا؟ فاعترفوا بخطئهم وطلبوا من يعقوب أن يطلب لهم المغفرة من الله تعالى، فقال يعقوب: سوف أسأل ربي أن يغفر لكم ذنوبكم، وسوف للمستقبل البعيد، وكان يوسف ﷺ قد قال لهم من فوره لما سألوه المغفرة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.

قال المفسرون: إن يعقوب أجَّل الدعاء وطلبَ المغفرة لهم إلى وقت هو أكثر مظنَّة لإجابة الدعاء، وكان يعقوب يصلِّي بالليل وقت السَّحر، فأجَّل الدعاء إلى هذا الوقت[4] أو أجَّله إلى يوم الجمعة[5]؛ لأنها أشرف الليالي، ويجمعهما قول طاوس: أخر الاستغفار إلى وقت السحر من ليلة الجمعة، فوافق ذلك ليلة عاشوراء، فاستغفر ربه لهم، وطلب منه العفو عنهم، فأوحى الله إليه: إني قد غفرت لك ولهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده التائبين ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بجميع خَلْقِه.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٨/ ٣٣٠).

(٢) «تفسير الفخر الرازي» (١٨/ ٢٠٩).

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (ربي إنه) والباقون بإسكانها.

(٤) جاء ذلك عن ابن عباس عند ابن المنذر والطبري وأبي الشيخ وابن مردويه كما في الدر (٨/ ٣).

(٥) ينظر: ابن جرير (١٣/ ٣٤٨).

روى ابن جرير عن محارب بن دثار قال: كان عمر ﷺ يأتي المسجد، فيسمع إنسانًا يقول: اللهم دعَوْتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السَّحَر فاغفر لي، قال: فاستمع إلى الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسئل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخَّر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾[1].

الرِّحْلَةُ الرَّابِعَةُ وَالْأَخِيرَةُ

لِإِخْوَةِ يُوسُفَ بِرِفْقَةِ أَبِيهِمْ إِلَى مِصْرَ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ

٩٩- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ[2] إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾

خرج يعقوب وأبناؤه من بادية فلسطين، وساروا حتى وصلوا إلى أرض الكنانة، وكانت هذه هي المرة الرابعة بالنسبة لإخوة يوسف، والمرة الأولى بالنسبة ليعقوب ﷺ، وعلى مداخل أرض مصر ومشارفها استقبلهم يوسف ملِك مصر استقبالًا حافلًا في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر.

وكان يعقوب يتوكأ على يد ابنه يهوذا، فلما دخلوا على يوسف بأرض مصر ضم إليه أباه يعقوب وأمه وعانقَهما.

قال أهل الكتاب: إن أمه راحيل كانت قد ماتت وهي تلد بنيامين.

وذكر بعض المفسرين: أن المراد بالأم خالته (ليئة) التي تزوجها يعقوب بعد موت أختها راحيل أم يوسف.

قيل: إن يوسف قال لأبيه حين ضمه إليه: يا أبت بكيت حتى ذهب بصرك، ألم تكن تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى، ولكن خشيت أن يُسْلَب دينك، فيحال بيني وبينك.

ثم أَذِن لهم يوسف بالإقامة في أرض مصر ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٢٦١).

(٢) اتفق القراء على تفخيم راء (مصر) وصلًا للفصل بحرف الاستعلاء، وأما وقفًا ففيها الترقيق والتفخيم، والتفخيم أرجح.

وهذا بمثابة الإذْن لهم بالإقامة بمصر، وكان لا يدخلها أحد من الناس إلا بجوارهم، وذلك بسبب المجاعة التي حدثت، فرأى ولاة الأمر ألا يدخل مصر الغرباء؛ حتى لا يضاعفوا عليها المجاعة، فأذن لهم يوسف بالدخول والاستيطان بمصر آمنين على أنفسهم وأهليهم مع تأمين وسائل العيش لهم، فالاستثناء للتبرك، أو أنه يرجع إلى الأمن أو الدخول.

تَأْوِيلُ رُؤْيَا يُوسُفَ

١٠٠- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ[١] هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ[٢] إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ[٣] ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ[٤] ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾

رفع يوسف أبويه وأجلسهما على سرير الملك وهو (الكرسي) أجلسهما بجانبه إكرامًا لهما، وحياه أبواه وإخوته الأحد عشر بالسجود له تحية وإكرامًا، لا عبادة وخضوعًا، وخرَّ الجميع ليوسف سجَّدًا، ومعهم يعقوب عليه السلام.

قيل: إن الأنفة والكبر ربما منعتا إخوة يوسف من السجود له، فلما رأوا أن أباهم قد سجد، سجدوا له أيضًا على سبيل التحية والتواضع، فقد كان هذا السجود سجود تحية، إما بالانحناء، وإما بالسجود المعروف بوضع الجبهة على الأرض، وهذا السجود كان في الحقيقة لله تعالى على سبيل الشكر، كما سجدت الملائكة لآدم عليه السلام، وكان هذا السجود جائزًا في شريعتهم.

وهو تحية الملوك من لدن آدم إلى عيسى عليهما السلام، ثم حرَّمه الله ورسوله في الإسلام، فنسخ السجود لغير الله جل شأنه؛ سدًّا لذريعة الشرك بالله تعالى، فلا سجود في الإسلام إلا لله سبحانه.

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر بفتح التاء من (يا أبت) والباقون بكسرها، والوقوف عليها بالتاء.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (أحسن بي إذ) والباقون بإسكانها.

(٣) فتح الياء من (إخوتي إن) ورش وأبو جعفر، وسكنها الباقون.

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية بين بين من (يشاء إنه) وإبدالها واوًا خالصة، والباقون بتحقيقها.

وفي الحديث أن معاذًا قدم الشام، فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال ﷺ: **«ما هذا يا معاذ؟»** فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يُسجد لك يا رسول الله، فقال: **«لو كنت آمرًا أن يُسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»**[١].

وورد أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ فقال: **«لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يموت»**[٢].

قال قتادة: كانت تحية مَن كان قبلكم السجود، بها يُحيِّي بعضهم بعضًا، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة، كرامة من الله، عجَّلها لهم ونعمة منه[٣].

وقال ابن زيد: ذلك السجود تشرفة، كما سجدت الملائكة تشرفة لآدم، وليس بسجود عبادة[٤].

وقال ابن جريج: بلغنا أن أبويه وإخوته سجدوا ليوسف إيماء برؤوسهم كهيئة الأعاجم، وكانت تلك تحيتهم كما يصنع ناس اليوم[٥].

وقال يوسف لأبيه عندما رأى ذلك: هذا السجود هو تفسير رؤياي في المنام التي قصصتها عليك من قبل وأنا صغير، قد جعلها ربي حقًّا وصدقًا في اليقظة.

قال الحسن: إن يوسف كان عمره حين أُلقي في الجب سبع عشرة سنة، وأقام في العبودية والسجن والملك ثمانين سنة، وأقام مع أبيه وإخوته وأقاربه ثلاثًا وعشرين سنة، وتوفاه الله وهو ابن مئة وعشرين سنة[٦].

وقال الحسن أيضًا: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة، لم يفارق الحزن

---

(١) حديث معاذ في «المسند» (٤/ ٣٨١) برقم (٢١٩٨٦) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين إلا أن فيه انقطاعًا فحُصيْن بن جندب لم يدرك معاذًا، وهو في «سنن ابن ماجه» برقم (١٨٥٣) وصححه ابن حبان وأخرجه الطبراني (٣٧٣) وابن أبي شيبة (٤/ ٣٠٥).

(٢) حديث سلمان من طريق شهر بن حوشب، رواه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٢/ ١٠٣).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٣٢٨) والطبري (١٣/ ٣٥٥) وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٢).

(٤) الطبري (١٣/ ٣٥٦) وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٢).

(٥) أخرجه الطبري (١٣/ ٣٥٥) وابن المنذر وأبو الشيخ كما في الدر (٨/ ٣٤٠).

(٦) ابن أبي شيبة (١١/ ٥٦٤) وأحمد في «الزهد» ص٨٠ والطبري (١٣/ ٣٦٠) وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٠٢).

قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب[١].

وصح عن سلمان الفارسي ﷺ أنه قال: كان بين رؤيا يوسف وعبارتها أربعون عامًا[٢].

وأحداث السورة من بدئها إلى هنا تفسِّر هذه الرؤيا، قال يوسف: وقد تفضل الله عليَّ حين أخرجني من السجن، واكتفى يوسف من حُسْن أدبه بذكر إخراجه من السجن؛ حتى لا يجرح إخوته ويخجلهم، ولم يذكر إلقاءه في الجب، ولا بيعه بيع الرقيق، ولا محنته مع امرأة العزيز وغيرها من النسوة، ولا غير ذلك.

اليهود قوم رُحَّل:

ثم أكمل يوسف كلامه قائلًا: وجاء بكم إليَّ من البدو، والبدو خلاف الحضَر، فبنو إسرائيل هم رعاة إبل وبقر وغنم، وهم قوم رُحَّل ليس لهم وطن ثابت، وإنما يتنقَّلون بخيامهم ومواشيهم هنا وهناك، شأن أهل البادية.

وهذه الكلمة ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ من نبي الله يوسف ﷺ تؤرخ لبني إسرائيل، أنهم بلا حاضرة ولا وطن ثابت، فقد كانوا في حياة أبيهم أهل بادية ومواشٍ وبريَّة، وشأن أهل البادية التنقل والترحال.

وقد جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨] وغير الصهاينة من اليهود يقرون بذلك ويتبرؤون من قيام الكيان الصهيوني في فلسطين، ويذكرون أن ذلك محاربة لله الذي عاقبهم بترك الجهاد مع نبيهم موسى ﷺ بالتشتت في الأرض هنا وهناك.

وآية سورة الإسراء توضح هذا المعنى ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد موسى ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ و (ال) في الأرض لاستغراق الجنس؛ أي: اسكنوا الأرض كلها متفرقين في أي مكان من العالم هنا وهناك، غير مجتمعين، فإذا اقتربت الساعة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [آية: ١٠٤] أي: جمعناكم في مكان واحد، ويكون هذا الجمع بداية النهاية، ليقاتلكم المسلمون، وينصرهم الله عليكم، وتكون نهايتكم على أيديهم؛ حيث يُنطق الله الحجَر

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ٢٧٣). وأخرجه عبد الله بن أحمد في (زوائد الزهد) ص٨٤).

(٢) قال ابن حجر: أخرجه الطبري والحاكم والبيهقي في «الشعب» بسند صحيح، «فتح الباري» (١٢/ ٣٠٧٧) وانظر «تفسير الطبري» برقم (١٩٩١٧) و«المستدرك» (٤/ ٣٩٦) و«شعب الإيمان» برقم (٤٧٨٠).

ويقول: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فتعالَ فاقتله.

ولعلَّ اجتماع عدد كبير منهم في فلسطين اليوم، هو نهايتهم إن شاء الله.

ويأتي هذا تحقيقًا لقول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ أي: فلسطين ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: حرمة أبدية ويلزم الوقف على ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في التلاوة، ثم يستأنف القارئ ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [آية: ١٢] لأن مدة التيه كانت أربعين عامًا، أما التحريم فهو مؤبد، ووجودهم الحالي في فلسطين لا ينافي ذلك؛ ليظل باب الجهاد مفتوحًا أمام المسلمين؛ فيثابون عليه.[١]

وقد نسب يوسف ما حدث من الفساد بينه وبين إخوته بسبب الحسد، إلى الشيطان من باب الأدب؛ لئلا يجرح إخوته فهو الذي أفسد رابطة الإخوة بينهم.

ثم أثنى يوسف على ربه بأنه سبحانه يدبِّر الأمور ويصرفها لجميع خلقه، ويعلم دقائقها وخفاياها ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمصالح العباد ﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع أفعاله وأقواله.

مدفن يعقوب ﷺ: قالوا: إن يعقوب عاش مئة وسبعة وأربعين عامًا كما حققه بعضهم، عاش منها أربعة وعشرين عامًا في مصر مع ابنه يوسف، وأوصى إذا مات أن يدفن في الشام، فلما مات حمله يوسف مع إخوته بعد أن نفخ فيه المرّ لحفظ الجثة، ودفن إلى جوار أبيه إسحاق بالشام، ورجع يوسف إلى مصر، وعاش بعد موت يعقوب ثلاثة وعشرين عامًا، ومات يوسف بعد مئة وعشرين عامًا من عمره، وذكر بعضهم أنه عاش مئة وثلاثين سنة، وعند أهل الكتاب مئة وعشر[٢].

مدفن يوسف ﷺ: ولما مات يوسف تنافس أهل مصر على المكان الذي يدفن فيه، فرغب كل منهم أن يدفن في مكانه، فاتفقوا على أن يضعوه في صندوق من المرمر أو الرخام ويدفن في النيل حتى تمر عليه المياه، وتحمل ريحه هنا وهناك، وبقي هكذا حتى كانت رسالة موسى ﷺ، فأخرج موسى هذا الصندوق من النيل بدلالة عجوز من بني

---

(١) ينظر تفسير آيات سورة المائدة في حرب العمالقة.

(٢) انظر ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس (٧/ ٢١٩٦).

إسرائيل عليه، وحمله إلى فلسطين ودفنه هناك[١].

وكان بداية دخول بني إسرائيل إلى مصر في عهد يوسف عليه السلام، وكان عددهم نحو ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأة، وبقوا في مصر مدة تقرب من أربع مئة عام، ثم خرج بنو إسرائيل من مصر خروجًا نهائيًا في عهد موسى عليه السلام، وكان عددهم آنئذ ست مئة وسبعين ألفًا، وحين خرج يعقوب إلى يوسف بمصر كان معه اثنان وسبعون من ولده وولد ولده[٢].

يُوسُفُ يَسْأَلُ رَبَّهُ تَمَامَ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ فِي الآخِرَةِ

١٠١- ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

ذكر يوسف عليه السلام في هذه الآية بعض نعم الله عليه، ثم سأل ربه أن يتم عليه النعمة في الآخرة كما أتمها عليه في الدنيا، لقد أتم الله النعمة على يوسف فتضرع إلى ربه بالدعاء: رب قد أعطيتني من مُلْك مصر، وأنعمت عليَّ بالنبوة والرسالة، وعلَّمتني من تفسير الرؤيا وغيرها من العلوم، يا خالق هذا الكون ومبدعه، يا فاطر السموات والأرض، أنت متولي شؤوني في الدنيا والآخرة، توفني إليك مسلمًا، فلا تمتني إلا مسلمًا.

لقد سأل يوسف ربه أن يثبته على الإسلام، وأن يظل عليه حتى يلقى ربه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر] وهذا معنى ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾. أي أدم عليّ الإسلام وثبتني عليه إلى أن ألقاك.

وقد ذكر يوسف عليه السلام في الآية نعمتين من نعم الدنيا عليه هما: نعمة الولاية على الأرض ونعمة العلم، كما ذكر نعمة ثالثة أخروية؛ وهي نعمة الإسلام والدين الحق، فيوسف عليه السلام لم يتمنَّ الموت، وإنما طلب من ربه أن يبقيه على ملة الإسلام (التوحيد) حتى الموت.

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يتمنينَّ أحدكم الموت لضر نزل**

(١) ينظر أثر عروة بن الزبير عند ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٦٨).

(٢) انظر أثر أبي هريرة في «الدر المنثور» (٨/ ٣٣٨) عن أبي الشيخ.

به، فإن كان لَا بُدَّ متمنيًا للموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»[(١)].

وفي الحديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**يأتي على الناس زمان يمر فيه الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه**»[(٢)]. وذلك لما يرى من البلاء والفتن.

وأكمل يوسف دعاءه قائلًا: وألحقني بعبادك الصالحين وبإخواني من الأنبياء والمرسلين، وبآبائي إبراهيم وإسحاق.

ويحتمل أن يوسف عليه السلام قد سأل ربه ذلك عند احتضاره للموت، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا اشتكى منا إنسان، مسحه بيمينه، ثم قال: «**أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا**» فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل، أخذتُ بيده؛ لأصنع به نحو ما كان يصنع، فانتزع يده من يدي، ثم قال:

«**اللهم اغفر لي واجعلني مع الرفيق الأعلى**» قالت: فذهبت أنظر، فإذا هو قد مضى[(٣)].

ويحتمل أن يوسف عليه السلام سأل ربه إذا حان أجله وانقضى عمره أن يميته على الإسلام، كما في الأثر: اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين.

والنهي عن تمنى الموت يكون ما لم يحدث للناس فتنة في الدين، فإن حدثت فتنة فإنه يجوز سؤال الموت حينئذٍ، كما طلب سحرة فرعون ذلك فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وقالت مريم لما جاءها المخاض: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٣].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٦٧١، ٦٣٥١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٨٠).

(٢) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» (١٥٧/٥٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٦٧٥، ٥٧٥٠، ٧٥٤٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٩١) و«المسند» (٧٤/٦) برقم (٢٤١٨٢، ٢٤٩٤٦) وأخرجه ابن ماجه (١٦١٩) والطيالسي (١٤٠٤) والبيهقي في «السنن» (٣٨١/٣) وفي «الشعب» (٩٢٠١) وأبو يعلى (٤٤٥٩) وغيرهم من طرق متعددة.

وفي حديث معاذ: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون»[١].

التَّعْقِيبُ عَلَى قِصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام

١٠٢- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

وفي نهاية قصة يوسف عليه السلام يوجه الله تعالى الخطاب إلى نبيه محمدٍ ﷺ يخبره أن ما قصَّه عليه في هذه السورة هو من إخبار الغيب الذي علَّمه الله إياه عن طريق الوحي؛ ليظهر لقومه صدقه في دعوة الرسالة، فهي من دلائل صدقه ﷺ ومن براهين رسالته، كما قال تعالى في نهاية قصة نوح عليه السلام: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هود: ٤٩].

وقال سبحانه في التعقيب على قصة مريم: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٤].

وفي التعقيب على قصة موسى عليه السلام قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص]

وقال أيضًا ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٥، ٤٦].

وهكذا قصة يوسف عليه السلام، هي من الأخبار الغيبية، ومحمدٌ ﷺ كان أميًّا، لم يقرأ كتب أهل الكتاب، حتى يتعرف على قصة يوسف فيها، ولم يكن حاضرًا مع إخوة يوسف حين ألقوه في البئر، ولم يسافر في طلب العلم، ولم يتلقَّ العلم على أحد من خلق الله، ولم يكن حاضرًا مع أبناء يعقوب وهم يمكرون بيوسف ويعقوب وبنيامين، ويتآمرون على قتل يوسف، وَيكْذبون على نبي الله يعقوب، فهذا كله من باب المعجزة والوحي الإلهي، والدليل القاطع على صحة نبوَّة محمد ﷺ، وأنه قد عرف ذلك عن طريق الوحي.

---

(١) «المسند» (٥/ ٢٤٣) و«سنن الترمذي» برقم (٣٢٣٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

لا تحزن يا رسولنا

١٠٣- ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾

ومع أن الإخبار بالغيب دليل قاطع على صدق الرسالة، إلا أن أكثر الناس لا يؤمنون، ولو كان النبي ﷺ حريصًا على إيمانهم، فإنه لن يؤمن منهم إلا مَن شاء الله له ذلك.

لقد طلب المشركون واليهود من النبي ﷺ أن يذكر لهم قصة يوسف؛ فشرحها الله لهم شرحًا وافيًا، وكان ﷺ يطمع في إسلامهم، وبعد أن سمعوها ولم يُسْلِموا حَزِن ﷺ؛ فأنزل الله سبحانه يسلِّي رسوله، ويقول له: لا تحزن[1].

فما أكثر الناس من أمتك بمصدِّقيك ولا مُتَّبعيك ولو حرصت على هدايتهم وإيمانهم، ولو اجتهدت في ذلك، فمهمتك هي البلاغ، وهداية الإرشاد والبيان والدلالة.

١٠٤- ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾

وأنت لم تسألهم على تبليغ الرسالة أجرًا، وما طلبت منهم شيئًا دنيويًّا من مال أو متاع أو جاه، حتى يمتنعوا من الإيمان بك، وما هذا القرآن إلا عظة وتذكير وبيان للعاملين المهتدين.

١٠٥- ﴿وَكَأَيِّن[2] مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥﴾

وليس للناس عذر في عدم الإيمان بالله تعالى وعدم التصديق بصاحب الرسالة الخاتمة، فالمشركون يمرُّون صباح مساء على الآيات الكونية الكثيرة، التي تقتضي إيمانهم بالله تعالى؛ من سموات وأرض وشمس وقمر وكواكب وأفلاك ونبات وجماد وحدائق... إلخ، ولكنهم في غفلة عن دلائل التوحيد والقدرة، لا يتفكَّرون فيها، ولا يعتبرون بها، ولا يلتفتون إليها، كأنهم لم يرَوْها، وليس هذا الإعراض عن عظيم قدرة الله تعالى، بأعجب من إعراضهم عنك يا محمد، فلا تحزن على عدم إيمانهم بك.

---

(١) ينظر: «تفسير الألوسي» وابن الجوزي والخازن وغيرهم للآية.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو جعفر (وكائن) بألف ممدودة بعد الكاف بعدها همزة، فتكون من قبيل المد المتصل، وأبو جعفر يسهل الهمزة مع المد والقصر، والباقون (وكأين) بهمزة مفتوحة بعد الكاف بعدها ياء مشددة، وهما لغتان بمعنى كثير.

الْإِيمَانُ الْخَالِي مِنَ التَّطْبِيقِ الْعَمَلِيِّ وَعُقُوبَةُ ذَلِكَ

١٠٦- ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

أي وإن وُجد بعض الإيمان، مِمَّنْ يُعرض عن دلائل التوحيد فإنهم لا يكونوا مؤمنين لأنهم، يعترفون بوجود الله ويشركون معه غيره في العبادة.

وهؤلاء المكذبون مقرون ومؤمنون بوجود الله سبحانه، وأنه خالقهم ورازقهم، يلجؤون إليه إذا مسهم الضرُّ، ولكنهم لا يفردونه جل شأنه بالعبادة؛ ولذا فإن مَن يؤمن منهم بالله تعالى يكون إيمانه مشوبًا بالشرك، فمع إقرارهم بأن الله تعالى خالق كل شيء، يشركون معه غيره في العبادة، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وقد سماهم القرآن مؤمنين؛ لأن هذا الإيمان يراد به الإيمان اللغوي؛ أي: الخالي من التطبيق العملي، فليس معه عمل للجوارح، حيث يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]

ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون]

والمشركون يقولون يوم القيامة: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]

وإبليس يعترف بوجود الله تعالى فيقول: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦].

فالتصديق بوجود الله تعالى لا يقتضي الإيمان الشرعي، وهو العمل بالجوارح، ولذلك فالذي يعترف بأن له ربًّا، ثم يُوجِّه العبادة لغير الله، أو يدعو غير الله، أو يعتقد النفع والضر من غير الله، أو يستعيذ بغير الله، أو يستغيث بغير الله، أو يطلب المدد والعون من غير الله، فإنه في هذه الأحوال وما يشبهها يكون ممن تنطبق عليه هذه الآية، وهي تنهى عن الشرك بالله تعالى، سواء أكان ظاهرًا أم خفيًّا، كبيرًا أم صغيرًا، وتدعو إلى إخلاص العبادة والطاعة لله وحده:

أحاديث في معنى الآية:

١- فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى**

الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»[١].

٢- وفي حديث ابن مسعود ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»**[٢].

٣- وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، نادى منادٍ: مَن كان أشرك في عمل عمله لله أحدًا، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»**[٣].

٤- وعن محمود بن لَبيد أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»** قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: **«الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جُزِيَ الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»**[٤].

٥- ولما سأل الصحابة رسول الله ﷺ: كيف نتقي الشرك وهو أخفى من دبيب النمل؟ فقال: **«قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»**[٥].

٦- وفي حديث أبي بكر ﷺ قال: يا رسول الله، علمني شيئًا أقوله إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ، وإذا أخذتُ مضجعي، قال: **«قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب**

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١) و«صحيح مسلم» برقم (٨٦).

(٣) «المسند» (٤/ ٢١٥) برقم (١٥٨٣٨، ١٧٨٨٨) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن من أجل زياد بن ميناء، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح، وأخرجه الترمذي (٣١٥٤) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤٢٠٣) وابن حبان (٤٠٤).

(٤) «المسند» (٥/ ٤٢٨) برقم (٢٣٦٣٠، ٢٣٦٣١، ٢٣٦٣٦) قال محققو «المسند»: حديث حسن، رجاله رجال الصحيح إلا أنه منقطع، فعمرو بن أبي عمرو لم يسمع من محمود بن لبيد، وبينهما عاصم بن عمر بن قتادة، وهو ثقة، وعمرو صدوق، وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (٤١٣٥) وابن خزيمة (٩٣٧) والطبراني في «الكبير» (٤٣٠١) وحسنه ابن حجر في «بلوغ المرام».

(٥) «المسند» (٤/ ٤٠٣) من حديث أبي موسى برقم (١٩٦٠٦)، قال محققوه: وإسناده ضعيف لجهالة أبي علي الكاهلي وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٣٧) والبخاري في التاريخ الكبير (٩/ ٥٨) والطبراني في الأوسط (٣٥٠٣).

والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه»[(١)].

ومن أمثلة الشرك مع الإيمان ما كان يقوله المشركون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

وليس للمشرك المؤمن إلا أن يحل به عذاب الله، ويَفْجَؤُه العقاب وهو آمن: قال تعالى:

١٠٧- ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

ثم توعَّد الله تعالى المكذبين بدلائل التوحيد، وصدق الرسالة، وكل من يشوب إيمانهم شرك بالله تعالى، توعّدهم بحلول قارعة أو داهية تدمرهم تدميرًا.

فهل عند هؤلاء المكذبين ما يجعلهم آمنين من أن ينزل بهم عذاب من الله يعمُّهم، أو تأتيهم القيامة فجأة، وهم لا يَشْعُرون بذلك؟

وهل هؤلاء الناس في مأمن من أن تحل بهم عقوبته تعالى في صباحهم أو مسائهم، أو غدوِّهم ورواحهم، فتنزل بهم صاعقة، أو ينزل بهم عذاب مفاجئ أو زلازل وبراكين؟

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [النحل]

وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف]

وهل هم في مأمن من قيام الساعة المفاجئ فتحل بهم الصيحة وهم في أسواقهم وأعمالهم؟ ومن ثم يكون البعث والحساب والجزاء على الأعمال، فليتوبوا إلى الله ويتركوا ما كان سببًا في عقابهم.

---

(١) «المسند» (٩/١) برقم (٥١، ٥٢، ٦٣، ٨١) وعن ابن مسعود (٣٩١٦) وعن ابن عمرو (٦٥٩٧، ٦٨٥١) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه)، و«سنن أبي داود» برقم (٥٠٦٧) و«سنن الترمذي» برقم (٣٣٩٢) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٧٦٩١).

مَنْهَجُ الدُّعَاةِ إِلَى اللهِ

١٠٨ - ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ[١] إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ ويأمر الدعاة إلى الله من بعده في كل زمان ومكان أن يسيروا في الطريق الذي رسمه الله لهم، وأن يقوموا بدعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله وحده ببصيرة نيِّرة، ومنهاج واضح، وطريق مستقيم لا اعوجاج فيه، وألَّا يكفوا عن الدعوة إلى الله تعالى مهما اعترضتهم العقبات.

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا رسولنا، لكل مَن كفر أو أشرك بالله سبحانه: إن كفرتم أو أشركتم بالله تعالى، فأنا ماضٍ في تبليغ الدعوة إليكم، أَحُثُّ الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغبهم في ذلك، وأرهبهم مما يبعدهم عن الله، وهذه طريقتي أدعو إلى عبادة الله وحده على بصيرة وحجة، وعلى يقين وهدى، وعلى معرفة ونور من عند ربي، أنا ومن اقتدى بي، فمن آمن وصدَّق بما جئتُ به، وسبح الله تعالى تنزيهًا له عما لا يليق بجلاله من الشرك والمشركين، فهو ممن سلك طريق الهدى وسار على النهج الصحيح في توجُّهِه ودعوة غيره إلى طريق الخير والرشاد.

وفي ختام الآية أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من الشرك وأهله فيقول: وأنا لست من المشركين مع الله غيره، وهو أمر لكل مسلم، ولكل من دعا إلى الله تعالى على بصيرة.

عُقُوبَةُ مُكَذِّبِي الرِّسَالَاتِ

١٠٩ - ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ[٢] إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[٣]﴾

فإن كذبك الجاحدون والجاهلون فلا تحزن يا محمد، فإن مَن قبلك مِن الرسل كانوا مثلك، ولستَ بدعا من الرسل، فقد سبقك مَن قاموا بهذه الدعوة، فلماذا بادروا إلى

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (سبيلي أدعو) والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ حفص (نوحي) بالنون وكسر الحاء، والباقون (يوحي) بالياء وفتح الحاء.

(٣) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب بتاء الخطاب في (تعقلون) والباقون بياء الغيب.

إنكار رسالتك والإعراض عن النظر فيما جئتَ به؟ ولماذا قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥] ولماذا قالوا: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٤٨] لقد أرسل الله قبلك رجالاً؛ فكذبوهم، ولم يرسل الله تعالى ملائكة ولا جناً ولا نساء، وإنما أرسَلَ رجالًا من البشر، يبلغون أوامر الله ونواهيه إلى خلقه، وهم من أهل الأمصار والمدن؛ ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ والقرية في القرآن هي المدينة الكبيرة، وأهل الحضر أعلم وأكمل عقلًا، وأحلم من أهل البوادي، وليس فيهم جهل ولاجفاء ولا قسوة.

ثم نعى القرآن على المكذبين بالدعوة غفلتهم وجهالتهم، وعدم الاعتبار بما حدث لغيرهم ممن كذب رسل الله، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وينظروا في مصائر الأمم المكذبة؛ كقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم نوح، فيرون ما حدث بهم، وكيف أهلكهم الله بتكذيبهم، فاحذروا أن تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم.

ثم أشار سبحانه إلى أن ما عند الله من الثواب الجزيل خير من الدنيا وما فيها لمن آمن بخاتم الرسل، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، وخاف لقاء الله واتقى الشرك، وامتثل أمر الله ونهيه، وكان من أهل التقوى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتتفكّرون وتعتبرون ممن سبقكم فتؤمنون، وتؤثرون ما يبقى على ما يفنى.

إِذَا اشْتَدَّ الْكَرْبُ جَاءَ الْفَرَجُ

١١٠- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ[١] جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ[٢] مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

هذه الآية لبيان أنه إذا اشتد الكرب، واستحكمت الشدة، ولم يبقَ أمل في غير وجه الله تعالى، جاء النصر والفرج من الله تعالى، ولهذه الآية اتصال بالآية التي قبلها، على معنى: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالًا ننزل عليهم الوحي لهداية الناس، فأعرَض الكثير منهم عن دعوة الرسل وكذَّبوهم، ووقفوا منهم موقف الجاحد المعاند، حتى إذا ضاق الرسل ذرعًا بعدم إيمانهم، وأيقنوا من تكذيبهم لهم، جاء نصر الله الذي لا يتخلف، وأنت أيها الرسول واحد منهم، فلا تستعجل النصر على من كذَّبك، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يتأخر هذا النصر بعض الوقت ولا يأتي عاجلًا.

سأل عروة بن الزبير عائشة ﵂ عن معنى الآية، قال: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟ قالت: بل كُذِّبوا، فأخبرتْهُ أن الضمائر كلها تعود على الرسل على قراءة تشديد الذال؛ أي: أن الأقوام هم الذين كذَّبوا الرسل، وأن الرسل قد تيقنوا أن أقوامهم كذَّبوهم.

وأخبرتْه عن قراءة التخفيف أن الضمائر كلها تعود على المرسل إليهم، والمراد بهم: أتباع الرسل الذين آمنوا بهم وصدقوهم وطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر، حتى

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بتخفيف الذال من (كذبوا) جاء عن ابن عباس أن الضمائر كلها ترجع إلى المرسَل إليهم؛ أي: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما ادَّعوا من النبوة، وفيما يوعد به من لم يؤمن من العقاب، ورد أن سعيد بن جبير لمَّا أجاب بذلك قال الضحاك وكان حاضرًا: لو رحلتُ في هذه المسألة إلى اليمن كان قليلًا، وقرأ الباقون بتشديد الذال على عود الضمائر كلها على الرسل؛ أي: وظن الرسل أن أممهم قد كذبتهم فيما جاءوا به، ولشدة البلاء وطوله عليهم جاءهم نصر الله.

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بنون واحدة مضمومة مشددة، بعدها جيم مشددة، ثم ياء مفتوحة هكذا (فَنُجِّيَ) على أنه فعل ماضٍ مبني للمفعول، و(من) نائب فاعل، وقرأ الباقون بنونين، الأولى مضمومة، والثانية ساكنة بعدها جيم مخففة، هكذا (فَنُنْجِي) وبعد الجيم ياء مدية، على أنه فعل مضارع أنجى مبني للمعلوم، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، و(من) مفعول.

إذا يئس الرسل من إيمان المكذبين جاء نصر الله حاسمًا فاصلًا[١].

قالت عائشة: والله ما وعد الله رسوله من شيء إلا علم أنه سيكون قبل أن يموت، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن مَن معهم من المؤمنين قد كذَّبوهم وكانت تقرؤها: (وظنوا أنهم قد كُذِّبوا) مثقَّلة[٢].

وهكذا الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان، عليهم ألاَّ ييْأسُوا من نصر الله تعالى لهم، مهما كثُرت العقبات ومهما أحدق الخصوم، ومهما اشتد الكرب، فإن فرج الله آتٍ لا محالة ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧].

والمعنى: إن رسل الله يبلِّغون الدَّعوة إلى الله تعالى، فإذا يئسوا من إيمان أقوامهم وفقدوا الأمل فيهم، واستبطؤوا النصر، وأيقنوا أن الأمم قد كذَّبوهم - بتشديد الذال - وظن الأقوام أن الرسل قد كُذِبوا - بتخفيف الذال وضم الكاف - جاء فرج الله بهلاك الأعداء ونصرة الرسل عليهم.

فنجى الله المؤمنين عند نزول العذاب، وأهلك الكافرين، ولا يردُّ عذاب الله عمن أجرم وتجرأ على الله تعالى من المشركين المجرمين، فسنة الله تعالى لا تتخلف ولا تتبدل، فالظن بمعنى اليقين في جانب الرسل، وبمعنى التوهم والحسبان في جانب الأمم، والضمير في ﴿كُذِّبُوا۟﴾ على قراءة التشديد يعود على الرسل، وعلى قراءة التخفيف يعود على أتباع الرسل.

خِتَامُ السُّورَةِ كَأَوَّلِهَا

١١١- ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ[٣] ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

(١) انظر الحديث في البخاري بأرقام: (٣٣٨٩، ٤٥٢٥، ٤٦٩٥، ٤٦٩٦) والنسائي (١١٢٥٥) والطبري (١٣/ ٣٩٥) وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢١١).

(٢) ينظر «صحيح البخاري» (٤٥٢٤، ٤٥٢٥) والطبراني (١١٢٤٥) والطبري (١٣/ ٣٩٥).

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس بخلف عنه بإشمام الصاد صوت الزاي من (تصديق) وهي لغة قيس، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة، وهو الوجه الثاني لرويس، وهي لغة قريش.

لقد كان في نبأ المرسلين الذي قصصناه عليك - أيها المسلم -، وما حل بالمكذبين للرسل من عقوبة، عظة لأولي النهى والألباب، ولقد كان في قصة يوسف على وجه الخصوص عبرة لأصحاب العقول الصحيحة، فيتأملون ويتفكَّرون ويتَّعظون بما حدث ليوسف ﷺ من إلقائه في الجب، وسجنه، وعبوديته، ثم عزيز مصر.

ما كانت هذه القصة وغيرها من قصص الأنبياء والمرسلين حديثًا يفترى، أو يختلقه محمد ﷺ من عند نفسه، ولكنها تصديق ما جاء في الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل، فهو ﷺ لم يقرأ الكتب ولم يخالط العلماء، ومع ذلك ففيها بيان لكل ما يحتاجه العباد من حلال وحرام، ومحبوب ومكروه، وفيها إرشاد من الضلالة وتفصيل لكل شيء وهدى إلى كل خير، ورحمة لأهل الإيمان تهتدي به قلوبهم؛ فيعملون بما فيه من الأوامر والنواهي، وأنزلنا هذا القرآن لقوم يؤمنون؛ لأنهم الذين ينتفعون به، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

هذا: وفي سورة يوسف الكثير من الفوائد والعبر:

١- فهي أحسن القصص وأوضحه وأبْينه.

٢- وفيها أصل تعبير الرؤى وأنه علم شرعي.

٣- وفيها دلائل على صحة نبوة محمد ﷺ.

٤- وفيها أنه ينبغي على العبد أن يبتعد عن أسباب الشر ويكتم ما يُخشى منه الضرر.

٥- وفيها أن العدل مطلوب في كل شيء، ومنها معاملة الوالد لأولاده في المحبة والإيثار.

٦- ومنها الحذر من شُؤم الذنوب، فإن الذنب الواحد تتبعه ذنوب كثيرة كما حدث من إخوة يوسف.

٧- ومنها أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى، فإلقاء يوسف في الجب أهون من قتله.

٨- ومنها الحذر من فتنة النساء والخلوة بهن.

٩- ومنها أن الإيمان إذا خامر القلب دفع الله عنه أسباب المعاصي.

١٠- ومنها أن العبد إذا رآى فتنة في دينه فعليه أن يفر ويهرب منها.

١١- ومنها اختبار الحبس على المعصية وأن يلجأ العبد إلى ربه ويحتمي بحماه.

١٢- ومنها أن المفتي إذا سئل يبدأ بالمهم فالأهم.

١٣- ومنها أن العبد إذا وقع في مكروه لا يستعين إلا بمن له قدرة على تخليصه.

١٤- ومنها أن الإنسان لا يُلام في دفع التهمة عن نفسه.

١٥- ومنها أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما عنده من مهارات وقدرات ليتولى عملًا أو منصبًا من المناصب.

١٦- ومنها حسن تدبير شؤون البلاد اقتصاديًّا.

١٧- ومنها أن سوء الظن مع وجود القرائن عصمة، وحسن الظن مع وجود القرائن العكسية ورطة، كما دار من حوار بين يعقوب وأبنائه في شأن يوسف وبنيامين.

١٨- ومنها دفع الحسد واتقاء العين بالأساليب الشرعية.

١٩- ومنها جواز استعمال الحيل في التوصل إلى الحق، واستعمال المعاريض القولية والفعلية.

٢٠- ولا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما رآى وعلم.

٢١- ومنها أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا.

٢٢- ومنها جواز أن يخبر الإنسان عما مسه من ضر دون جزع ولا شكوى، وأن يذكر نعمة الله عليه بعد ما مسه الضر(١).

تم تفسير (سورة يوسف) ولله الحمد والمنة

---

(١) هذه رؤوس أقلام استفدت فيها من تفسير ابن سعدي بتصرف كثير.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الرَّعْدِ (١٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الرعد هي السورة الثالثة عشرة في ترتيب المصحف، والسابعة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يوسف، وقبل سورة إبراهيم على القول بأنها مكية، وبعد سورة القتال، وقبل سورة الرحمن على القول بأنها مدنية.

وهي ثلاث وأربعون آية في المصحف الكوفي[١].

وثمان مئة وخمس وخمسون كلمة، وثلاثة آلاف وخمس مئة وستة حروف.

ولذكر الرعد فيها سُمِّيت به.

وسورة الرعد نزلت على رسول الله ﷺ في مكة المكرمة في أصح القولين، وهي من السور المختلف فيها بين كونها مكية أو مدنية، وموضوعها هو موضوع السور المكية.

فهي تتناول جانب العقيدة والتوحيد كما في الآيات الأربع الأولى، والآية الثامنة وما بعدها، وتتناول جانب الوحي والرسالة كما في الآية الثلاثين وما بعدها، وتتناول جانب البعث واليوم الآخر كما في الآية الخامسة وما بعدها.

والسورة تقيم الأدلة الكثيرة من هذا العالم الفسيح على قدرة الله سبحانه، وعلى صنع الخالق جلَّ شأنه في هذا الكون؛ كي يستدل بها الكافر على توحيد الله سبحانه، ويقر ويعترف بأن الله تعالى واحد أحد، وأنه خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، ورازقه ومدبر أمره، وهذا حال المشركين الذين تخاطبهم السورة في كل مكان وزمان؛ فالمجتمع الجاهلي في مكة كان يضم المسلمين والمشركين في عهد رسول الله ﷺ.

وبعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة، كان فيهم المسلم وغير المسلم، وهذا المزيج من المسلمين وغيرهم في المجتمعات، موجود في كل مكان من عالمنا الفسيح، على

---

(١) وأربع وأربعون آية في المصحف المدني، الأول والثاني والمكي، وخمس وأربعون آية في المصحف البصري، وسبع وأربعون آية في المصحف الشامي.

مختلف عقائده وطبقاته.

وهذه الأدلة التي وردت في السورة -وهي تشير إلى كمال القدرة الإلهية- من شأنها أن تزيد إيمان المؤمن، وتَحْمِل من يعترف بوجود الله تعالى ولا يفرده بالعبادة أن يتوجَّه بدعائه ونذْره وذبحه واستغاثته وسائر العبادات إلى الله وحده، ويعتقد أن النفع والضر منه ﷻ.

١- وهكذا بدأت السورة بقضية **الإيمان والتوحيد**، وهي بداية تُلخِّص الموضوع الأساس للسورة وتركز عليه؛ فالحق -الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله تعالى- واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن فاقد البصر لا يُنتظر منه إيمان صحيح، ومن لم يحسن النظر في نفسه، لا يُتوقع منه أن يعرف الله تعالى معرفة حقيقية، فالحق يضل عنه كثيرون، وليس هناك عذر لهذه الكثرة التي أعرضت عن الحق، ورفضت الانقياد له.

لقد أقامت السورة أدلة متنوعة على كمال قدرة الله تعالى، وعظيم حكمته:

أ- تارة عن طريق التأمل في هذا الكون وما فيه من سموات مرتفعة بغير عمد، وأرض صالحة للاستقرار فيها، وشمس وقمر، وليل ونهار، وجبال لتثبيت الأرض، وأنهار لسقي الزرع، وكلها لمنافع الناس.

ب- وتارة عن طريق علم الله تعالى المحيط بكل شيء؛ فهو العليم بما تنقص الأرحام وما تزداد، وهو العليم بأحوال العباد، وهم مُسْتَخْفون بالليل وظاهرون بالنهار.

ج- وتارة عن طريق المنع والعطاء لمن يشاء من عباده؛ فهو سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

د- وتارة عن طريق المصائب والقوارع التي تنزل بالجاحدين المكذبين لوحدانية الله تعالى، ولصاحب الرسالة الأخيرة؛ فتصيبهم بما صنعوا، أو تحل قريبًا من دارهم.

- وكما أن القرآن دليل ناطق يقود إلى الإيمان بالله تعالى؛ فإن الكون دليل صامت يُعرِّف برب العزة والجلال، وكلا الدليلين يحتاج إلى يقظة العقل، ودقة الشعور.

وفي إيقاظ الحس النائم، يذكر القرآن الكريم أن في الأرض قطعًا متجاورات، القطعة الواحدة من الأرض تشتمل على ألوان من: الزروع، والثمار، والفاكهة؛ كالعنب،

والليمون، والتفاح، والحنظل، والبرتقال، والشوك، وهكذا، وكلها تُسقى بماء واحد، ويختلف المذاق واللون والأثر.

وهذا يشبه الدودة تأكل من ورق التوت فتُخرج حريرًا، وتأكل منه النحلة فتُخرج عسلًا، وتأكل منه الشاة فتُخرج بعْرًا!! فسبحان الخالق العظيم.

ومن الأرض إلى الفضاء الكبير، فقد اكتشف علماء الفلك ما يعتقدون أنه ثُقب أسود في مجرَّة نائية، أكبر مئة مرة من أي ثُقب أسود تم اكتشافه من قبل، ويعتقد علماء الفلك أن هذا الثقب يضم ألف مليون نجم.

فإذا كان هذا مجرد ثُقب صغير في هذا الكون الكبير، فماذا يكون الكون نفسه؟

لقد ختم الله الآيات التي تُلفت النظر إلى التأمل وإعمال العقل بمثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وهكذا.

٢- كما تتناول السورة إثبات **البعث والجزاء**، فتتعجب ممن ينكرون الحشر والنشر، والثواب والعقاب، وممن يستبعدون ذلك فيستعجلون نزول العذاب، لقد قصُرت أنظارهم عن إدراك أن الذي خلق هذا الكون الهائل قادر على إعادة الخلق في بعث جديد، وعلى إثابة المطيع وعقاب العاصي، وكان عليهم أن يطلبوا هداية الله ويرجوا رحمته، بدلًا من أن ينكروا قدرة الله تعالى، ويطلبوا نزول العذاب بهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [٦].

٣- وتتحدث السورة على **الوحي النازل من السماء**، وعن قيام النبي ﷺ بتبليغه قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ [١].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [١٩].

وقال جل شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [٣٠].

وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ [٣٦].

وتَردُّ السورة على المكذبين بالرسالة، الذين يطلبون معجزة غير القرآن تدل على صدق محمد ﷺ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [٧، ٢٧].

ويمضي هؤلاء في كُفرهم حتى يصلوا إلى هذه النتيجة ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

وترد عليهم أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةًۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ [٣٨].

أ- وتتضمن السورة عشرة أوصاف للمؤمنين، من الآية التاسعة عشرة إلى الآية الرابعة والعشرين، من استجمع هذه الوصايا العشر، كان أهلًا للجزاء الأوفى في جنات عدن، تسلِّم عليه الملائكة، ويَنْعَم فيها بعقبى الدار.

ب- وتضرب السورة **مثلين للحق والباطل**:

أحدهما: بالماء النازل من السماء، فتسيل به الأودية والشعاب، ثم يجرفُ في طريقه الغثاء، فيطفو الزَّبَد الذي لا فائدة فيه على وجهه، ثم يذهب سريعًا ويبقى الماء الصافي.

وثانيهما: المعادن التي تذاب؛ لتصاغ منها الأواني والحليُّ من الذهب والفضة، وما يعلو هذه المعادن من الزَّبَد الذي سرعان ما يذهب ويتلاشى، ويبقى المعدن النقي الصافي، وهكذا ثبات الحق وذهاب الباطل.

جـ - كما تذكر السورة مثلين لأهل السعادة والشقاء، فتشبِّه السعيد بالمبصر، والشقي بالأعمى ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ﴾ [١٩].

د- وقد أشارت السورة إلى زيادة الرقعة الإسلامية، ونقصان أرض الشرك والكفر، وفي ذلك نبوءة قد تحققت، فقد قرع الإسلام أبواب: مصر، والشام، والعراق، وإيران، وباكستان، وأفغانستان، والأندلس، والمغرب العربي، وغيرها، وغيرها، وسرعان ما دخل الناس في دين الله أفواجًا، فاعتنقوا الإسلام وصاروا حماة له وحملوه إلى العالم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

فَاتِحَةُ السُّورَةِ تُنَوِّهُ بِشَأْنِ القُرْآنِ

١ -﴿الٓمٓرۚ[١] تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ[٢]﴾

تبدأ السورة بأربعة من حروف الهجاء: الألف، واللام، والميم، والراء؛ للإشارة إلى أن هذا القرآن المعجز، المتحدي بمثل أقصر سورة منه إلى يوم القيامة، مكوَّن من هذه الحروف، ولجذب انتباه غير المسلمين للتأمل فيه، وهذا أصح ما قاله المفسرون فيها.

فإن كنتم في شك في أنه منزل من عند الله فهاتوا مثله، واستعينوا بمن شئتم من الإنس والجن، فإن عجزتم فأتوا بعشر سور مثله، وإن عجزتم فأتوا بمثل أقصر سورة منه، فإن لم تستطيعوا فاعلموا أنما أُنزِل بعلم الله.

ثم تتناول السورة قضية الوحي بعد هذه الحروف مباشرة، لبيان هذا المعنى، فتتحدث عن هذا الكتاب الذي نزل به الوحي الأمين، وكأنها تقول: هذه هي آيات القرآن، وهي مكوَّنة من هذه الحروف، وفيها إشارة إلى أن آيات هذه السورة، وسائر الوحي المنزل من الله سبحانه على رسوله ﷺ هو الحق الوحيد الذي لا مزيد عليه ولا شك فيه، ولا تناقض بينه، فأخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل، وهو مؤيد بالأدلة والبراهين القاطعة، وليس كما يقول المشركون: إنك تأتي به من عند نفسك، فاعتصم به وتمسَّك بما فيه، فهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا القرآن هو آيات الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه.

ومع وضوح الأدلة على صدقه فإن كثيرا من الناس لا يصدقونه ولا يعترفون به، ولا يعملون بما فيه، فيكذِّبون بالوحي الذي أنزل عليك -يا محمد- ويعرضون عنه عنادًا وظلما، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف] ويكذبون باليوم الآخر وما فيه من بعث، وحشر، ونشر، وحساب، وجزاء:

---

(١) سكت أبو جعفر على ألف، ولام، وميم، وراء من (المر) سكتة لطيفة بدون تنفس إشارة إلى أنها حروف مقطعة مستقلة، والباقون بعدم السكت.

(٢) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (يؤمنون) واوًا، وكذا حمزة في الوقف.

عَشْرَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ
ثَلاثَةٌ مِنَ العَالَمِ العُلْوِيِّ وَسَبْعَةٌ مِنَ الْعَالَمِ السُّفْلِي

٢-﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

تأخذ السورة في ذكر حشد عظيم من بدائع صنع الله ﷻ في الكون بعد الآية الأولى، فتشير إلى السموات، وإلى العرش، وإلى الشمس والقمر، فهن آيات ثلاث عظام من العالم العلوي، وهذه هي القضية الأولى في السورة من قضايا القرآن المكي: قضية التوحيد.

الآيَةُ الأُولَى: خَلْقُ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾.

وهذه السموات كالقبة على الأرض محيطة بها، وبما حولها من الماء والهواء من كل جانب، مرتفعة بدون أعمدة تحملها، وبدون دعائم، وبدون ركائز، وأنتم ترون هذا بأعينكم.

وقيل: إن المعنى: لها أعمدة، ولكنكم لا ترونها، بناء على أن الضمير يعود على الأعمدة، والأول أصح.

والسموات ممتدة طولًا وعرضًا، لا يحيط بها بصر الإنسان، ولا بواسطة المجهر.

وفيما ورد أن بين السماء الأولى والأرض مسيرة خمس مئة عام، وسُمك السماء الواحدة مسيرة خمس مئة عام، وبين السماء الأولى والثانية مسيرة خمس مئة عام، وهكذا كل السموات، وكل سماء محيطة بالتي تحتها إلى السماء السابعة، ثم العرش والكرسي، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق]

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

الآيَةُ الثَّانِيَةُ: عِظَمُ عَرْشِ الرَّحْمَنِ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾

استواء يليق بجلاله تعالى، والعرش كالسقف، وهو أعلى المخلوقات، وهو سرير الملك عند علماء اللغة، لا يعرف قدره إلا خالقه، ولا يحيط بكنهه إلا خالقه، فهو من

الأمور الغيبية التي أعلمنا الله بها، ولم يطلع عليه أحد من خلقه، وهو معلوم من الدين بالضرورة، لا ينكِر وجوده إلا كافر.

وقد ذُكر العرش في القرآن في إحدى وعشرين آية، وذكر الاستواء في سبع آيات.

وقد جاء في الأثر: «**والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة**»(١).

فالعالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الكرسي كحلقة في أرض فضاء، أي: كقرش، أو ربع ريال ملقى في صحراء واسعة، فماذا يأخذ هذا القرش من هذه الأرض الواسعة؟

فالسموات في مجموعهنَّ، وما بينهنَّ بالنسبة إلى الكرسي، كهذا التشبيه، ولله المثل الأعلى، والكرسي بالنسبة إلى العرش، كحلقة ملقاة في أرض فضاء واسعة.

إن مُلْك الله عظيم لا يحيط به هذا العقل المخلوق المحدود، فكل مخلوق محدود لا يرقى إلى الكمال المطلق.

وهذا العرش له قوائم، وله حمَلَة من الملائكة يحملونه، ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]

الاستواء: أما كيف استوى ربنا على العرش؟ وكيف ينزل كل ليلة في الثلث الأخير من الليل؟ ونحو ذلك من آيات الصفات، فالله أعلم، وعلينا أن نؤمن بها كما نطق القرآن الكريم ونضع أمامها ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فالله سبحانه استوى على العرش استواء يليق بجلاله، والله أعلم بكيفيته، تقرؤون مثلًا في تفسير الجلالين: استوى على العرش أي: استولى عليه وملَكه، وهذا تأويل للآية، ومذهب أهل السُّنَّة والجماعة أن يمر المسلم على هذه الآية وأمثالها مرورًا، وأن يؤمن بها كما جاءت من غير أن يؤوِّل، ولا يشبِّه، ولا يعطِّل، ولا يمثِّل، ولا يكيِّف.

---

(١) هذا لفظ ابن مردويه، وقد ورد هذا مقطوعًا وموصولًا عن أبي ذر، يُنظَر: «تفسير الطبري» (٥/ ٣٩٩) و«مصنف ابن أبي شيبة» برقم (٥٨) و«المعجم الصغير» للطبراني (١/ ٢١٥) وفي سنده محمد بن أبي السري العسقلاني، ضعَّفه ابن أبي حاتم، ووثَّقه ابن معين، وقال ابن عدي: كثير اللغط، أفاده محقق «تفسير ابن كثير» سامي محمد السلامة في تفسير آية الكرسي. وانظره في تفسير آية الكرسي من هذا الكتاب.

كما قال الإمام مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وكما قال بعضهم لمن سأله عن معرفة: كيف استوى الرحمن على العرش؟ فقال له: أنت لا تعرف كيف تأكل؟ وكيف تبول؟ ما هي المصانع التي بداخلك تحوّل هذا الطعام زكيَّ الرائحة، طيب النكهة، طيب الطعم، لذيذ المذاق، كيف تحوله إلى فضلات قذرة؟

ما الذي يحدث بداخلك، فيحول هذا الماء العذب، وهذه المشروبات النقية الشهية، إلى بول كريه الرائحة، كريه الطعم والمذاق؟ أنت لا تعرف كيف تأكل وكيف تبول؟ تريد أن تعرف كيف الاستواء؟ وكيف النزول؟ أي: كيف استوى ربنا على العرش؟ وكيف ينزل كل ليلة؟ وهذا أمر يشق على الإنسان معرفته؛ لأنه مخلوق محدود ضعيف، ضمن مخلوقات الله العظيمة، والمخلوق لا يحيط علمًا بالخالق.

الآيَةُ الثَّالِثَةُ: تَسْخِيرُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ لِمَنَافِعِ النَّاسِ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾

أي: ذللهما لمنافع العباد والبلاد، كل منهما يدور في فلكه، يسيربانتظام لا يفتُران، ولا يسبق أحدهما الآخر ولا يدركه، حتى يجيء الأجل المسمى، ليُطوى هذا العالم، وتُبدل الأرض غير الأرض والسموات، فتكور الشمس والقمر، ويجمع بينهما فيلقيان في النار، واكتفى ربنا بالشمس والقمر، عن سائر الكواكب؛ لأنهما أعظم الكواكب السبعة السيارة.

قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس].

ويدخل في الآية ما دون ذلك من الكواكب، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

وقال ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]

أي: أن الشمس تجري لمستقر لها تحت العرش؛ حيث تدور الشمس دورتها في كل عام مرة، ويدور القمر دورته في كل يوم وليلة، وكل منهما يجري لأجل مسمى، أي: إلى وقت انقضاء العالم، حيث تتكور الشمس، وتتكور النجوم وتتناثر، ويخسف الشمس القمر، وهذا عند قيام الساعة.

وهو سبحانه ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ في العالم العلوي والسفي ويصرِّفه حسبما يريد، يدبر أمر هذا الكون كله في وقت واحد ولحظة واحدة، فلا يشغله أمر عن أمر، ويدبر شؤون خلقه كلها من: الخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة، والرزق، والشقاء والسعادة، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويعز ويذل، ويفرج الكربات، وينفذ الأقدار، ويرسل الرسل، وينزل الكتب، ويرسل الملائكة لتنفيذ ما قضى الله به من تدبير شؤون الخلق، وغير ذلك من أحوال العباد والبلاد.

والله تعالى ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي يوضِّح الآيات الكونية الدالة على قدرته تعالى؛ لتؤمنوا بالله وحده، وتوقنوا بالعودة إليه في يوم المعاد؛ فتصدِّقوا بوعده ووعيده، وأمره ونهيه وتُخْلِصوا العبادة له وحده.

والآيات الدالة على وحدانية الله تعالى **قسمان**:

قسم موجود **مشاهد**؛ كالسموات والأرض، والشمس والقمر، والجبال، والنجوم.

وقسم حادث **غير مشاهد**؛ كالحياة والموت، والفقر والغنى، والصحة والمرض، والنصر والهزيمة، والقوة والضعف، وغير ذلك من أحوال العالم.

وهو سبحانه ينزِّل كتبه ويبعث رسله، ويوضِّح لكم الآيات، لعلكم - أيها المكذبون - توقنون بلقاء الله تعالى، وأن القادر على الإيجاد من العدم، قادر على الإحياء بعد الموت، ولعلكم تصدقون باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب، وأنكم مجزيُّون على أعمالكم التي قدمتموها في دنياكم، وهذه الآية تحدثت عن العالم العلوي، السماء وما فيها.

الآيَةُ الرَّابِعَةُ: خَلْقُ الأَرْضِ صَالِحَةً لِلمَعَاشِ وَالاسْتِقْرَارِ

٣- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى[1] ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

أما هذه الآية فقد لفتت الأنظار إلى العالم الأرضي السفلي، وإلى الدلائل الأرضية،

---

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف (يغَشّي) بفتح الغين وتشديد الشين، مضارع غشَّى المضاعف، وقرأ الباقون بإسكان الغين وتخفيف الشين، مضارع أغْشى.

فأقامت منها خمسة أدلة من الأدلة العشرة على توحيد الله تعالى، أولها خلق الأرض:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ مدها، أي: بسطها طولًا وعرضًا، ومهَّدها ووسَّعها، وبارك فيها، وأودع فيها أرزاقكم، وهيَّأها لمعاشكم، وذلَّلها لمصلحة الإنسان ونفعه.

ولاتساع رقعة الأرض من كل جانب لا تظهر كُرويتُها للإنسان، فهو لا يرى هذه الكروية؛ لأنه يشاهدها ممدودة من كل جهة، كالسطح الكبير لا ترى أطرافه، وكلما ذهب في جهة من جهات الأرض وجدها منبسطة، فهي متسعة ممتدة أمامه لا يرى لها نهاية فهي كروية من كل جانب، وليس لها أربعة أطراف تحيط بها الرؤية، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات].

الآيَةُ الخَامِسَةُ: خَلْقُ الجِبَالِ لِتَثْبِيتِ الأَرْضِ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾

أي جبالًا عظامًا، لئلا تميد بالناس، لأنها على تيّار ماء لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجبال الرواسي، التي جعلها الله أوتادًا لها، ولأن اليابس من الأرض يمثل الربع، بالنسبة للمياه التي تمثل ثلاثة أضعاف اليابس، فلا بد لها من أوتاد تثبتها، ولو تُركت هذه الأرض بدون جبال رواسٍ ثوابت تُمسكها لانجرفت في مياه المحيطات والبحار والأنهار، من أجل ذلك خلق الله تعالى الجبال أعمدة تُثَبِّت الأرض وترسيها.

قال ابن عباس: جبل أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض.

قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]

وقال سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر].

الآيَةُ السَّادِسَةُ: خَلْقُ الأَنْهَارِ لِمَنْفَعَةِ الإِنْسَانِ وَالحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ

قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي: وجعل في الأرض أنهارًا تجري فيها المياه؛ لشربكم ومنافعكم، لحياة الإنسان، وحياة الحيوان، وحياة النبات، وكل شيء حي، فأخرج به من الأشجار والزروع والثمار خيرًا كثيرًا ونفعًا عميمًا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]

وقال سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس]

وقال تعالى: عن الماء ﴿لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان].

الآيَةُ السَّابِعَةُ: تَعَدُّدُ أَنْوَاعِ وَأَشْكَالِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ

قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: وجعل في الأرض من كل أنواع الثمرات صنفين: ذكرًا وأنثى، حامضًا وحلوًا، كبيرًا وصغيرًا، أبيض أو أخضر، أو أحمر أو أسود، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس].

وقال: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: ١١].

ويجمع هذه الفقرة -وما قبلها- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾﴾ [النبأ]

وقوله: تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة].

وقد شاع استعمال الزوجين في الذكر والأنثى في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠] وقوله ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ [طه: ٥٣].

الآيَةُ الثَّامِنَةُ: تَعَاقُبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ وهو سبحانه يغشي الليل النهار، أي: يدخل الليل على النهار، فيلبسه ويغشيه، أي: يغطيه بظلمته، فيذهب ضوء النهار ويأتي ظلام الليل، حتى يلبس النهار الليل فيُذهِب ضوءه، ويسكن كل حيوان إلى مأواه ويستريح من التعب والنصب، فإذا قضوا مأربهم من النوم غشى النهار الليل فإذاهم مبصرون ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ القصص: ٧٣]

وفيما تقدم من عجائب صنع الله تعالى وعظيم قدرته، دلالات قاطعة لمن يستدل بالصنعة على الخالق، وبالسبب على المسبِّب، إن في صنع الله وفي دلائل قدرته لآيات

توصل إلى معرفة الله تعالى.

والفكر: هو إعمال العقل وتصرفه في معرفة الأحوال.

وفي الأثر: «**تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكَّروا في ذاته فتهلكوا**»(١).

فإذا كانت الصنعة تدل على الصانع، والبعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، كيف لا تدلان على اللطيف الخبير؟!

ومجمل معنى الآية: الله سبحانه جعل لكم الأرض متسعة ممتدة، وقد هيَّأها لكم لمعاشكم، وجعل فيها جبالًا لتثبتها، وأنهارًا لشربكم ومنافعكم، وجعل فيها من كل الثمرات صنفين اثنين، فكان منها الأبيض والأسود، والحلو والحامض، وجعل الله الليل يغطي النهار بظلمته، إن في ذلك كله لعظات لقوم يتفكرون فيها ويتعظون.

الآيَتَانِ التَّاسِعَةُ وَالعَاشِرَةُ:

اخْتِلَافُ طَبَقَاتِ الأَرْضِ وَخَلْقُ النَّخِيلِ صِنْوَانًا وَغَيْرَ صِنْوَانٍ

٤-﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ(٢) صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ(٣) بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ(٤) بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ(٥) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

في الآية الرابعة دليلان على توحيد الخالق وكمال قدرته، وهما: اختلاف طبقات الأرض، وخلْق النخيل صنوانًا وغير صنوان، واختلاف ما يخرج من الأرض من ثمر وزرع وشجر، وهي من دلائل صنع الله سبحانه في الكون لمن يعقل ويتفكر.

---

(١) سبق تخريجه في آية آل عمران (١٩٠).

(٢) قرأ برفع هذه الألفاظ الثلاثة (وزرْعٌ ونَخيلٌ صنوانٌ وغَيرُ) ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب، بالعطف، على (قِطَعٌ) المنون المرفوع وقرأها الباقون (وَزَرْعٍ ونَخيلٍ صنوانٍ وغَيْرِ) بالخفض، عطفًا على (أعنابٍ).

(٣) قرأ (يُسْقَى) ابن عامر وعاصم ويعقوب، بالتذكير، أي: يُسقَى ما ذكر، وقرأ (تُسقَى) الباقون، بالتأنيث أي: تُسقى هذه الأشياء.

(٤) قرأ (ويُفَضِّلُ) حمزة والكسائي وخلف بالبناء للمفعول، وقرأ (وَنُفَضِّلُ) الباقون، على البناء للفاعل.

(٥) قرأ (في الأُكْلِ) نافع وابن كثير بإسكان الكاف وهي لغة تميم، وقرأ (في الأُكُل) الباقون بضم الكاف، وهي لغة الحجازيين.

أما ما يتعلق بالأرض ذاتها فقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ منها: أراضٍ متلاصقة متتابعة، ولكنها تختلف في التربة، هذه أرض طيبة، تشرب الماء، وتنبت العشب والكلأ والزرع والثمر.

وإلى جوارها أرض ثانية، يابسة لا تنبت عشبًا ولا ثمرًا، ولا تمسك ماءً.

وأرض ثالثة تتشرب المياه، ولكنها لا تنبت الزرع ولا الثمر.

وأرض رابعة تشرب المياه، وتنبت أنواعًا من الثمار والزروع، بمعنى أنها قد تنبت أشجارًا وثمارًا، ولا تنبت زرعًا أو العكس.

هذه ألوان وأنواع من الأرض: أرض طيبة صالحة، وأخرى سبخة مالحة، هذه طينية، وأخرى رملية، هذه سميكة وأخرى رقيقة، هذه تربتها حمراء، وأخرى سوداء، هذه قليلة الريع، والأخرى كثيرة الريع، هذه صلبة وأخرى رخوة...، والكل قطع متجاورات ولكنها مختلفة، متباينة أو متتابعة، ومتلاصقة، وكلها آية من آيات الله سبحانه.

أما دلائل قدرة الله تعالى فيما يخرج من جوف الأرض من زروع وثمار، فقد جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ﴾ والجنات: هي البساتين ذات الشجر الكثيف، ملتف الأغصان، أي: وفي الأرض حدائق وبساتين من أنواع الفواكه المختلفة، كالعنب والزيتون، وأنواع الزروع المختلفة في طعمها ولونها من أنواع الحبوب.

والنخيل منه ما يكون في منبت واحد مُجْتَمِع فيه، ومنه غير المُجْتَمِع في منبت واحد.

والصنو: ما كان أصله واحدًا وهو متفرق، مثل جذع النخلة وأصلها، فقد يكون الصنو جذعًا واحدًا، أو أصلًا واحدًا، وينبت منه نخلة واحدة، وقد يكون جذعًا واحدًا أو أصلًا واحدًا، ويتفرع منه نخلتان أو ثلاث أو أربع، هذا معنى ﴿صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾ أي: أن للجذع فرعًا واحدًا أو أكثر، وقد تكون النخلة واحدة وطعامها مختلف وهو يشرب بماء واحد.

وهذه الزروع أو الثمار أو النخيل، يُسقى جميعه بماء واحد، ومع هذا يفضل الله سبحانه بعضها على بعض في الأكل، هذا حلو وهذا حامض، هذا مرٌّ وهذا عذب، هذا أصفر وهذا أحمر، أو أبيض أو أسود، هذا خوخ وهذا رمان، هذا عنب وهذا تفاح أو برتقال، والنوع الواحد مختلف في مذاقه ومطعمه، وهو متعدد الأشكال والألوان

والأوراق والأزهار.

وهذا مثل مضروب لاختلاف قلوب بني آدم وطبائعهم، فمنهم من يَرِقُّ قلبه ويخشع، ويلين ويخضع، عند ما يستمع إلى آيات الله تتلى، فيحيا قلبه وإيمانه، كالماء الذي ينزل من السماء على الأرض الميتة فيحييها، ومنهم من يقسو قلبه، فيلهو ويغفل، ولا يتعظ ولا ينتفع، كالماء ينزل على الأرض الجدبة فلا تنبت شيئًا.

قال الحسن: ما جالس القرآن أحدا إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء].

إنها لآيات من عجائب صنع الله تعالى، توقظ الحس النائم، وتسترعي الانتباه، وتستدعي التأمل، ولكن الإنسان من كثرة ما يألف من هذه المخلوقات العظيمة، ومن مداومته على رؤيتها، وامتداد يده إليها في كل حين، يمر بها دون أن يمعن النظر ويتأمل فيها.

كيف أن قطعة واحدة من الأرض فيها شجرة عنب، إلى جوار شجرة الليمون، إلى جوار شجرة الحنظل، إلى جوار شجرة الشوك، تُسقى جميعًا من مصدر واحد بماء واحد، ويختلف الجنْي والمذاق واللون والأثر.

إن الدودة تأكل من ورقة التوت فتضع حريرًا، وتأكل منه النحلة فتضع عسلًا، وتأكل منه الشاة فتضع بعرًا، سبحان الخلَّاق العظيم، وتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين.

إن الله سبحانه خلق الأنواع والأصناف في فجاج الأرض، وآفاق السماء على نحو عجيب مثير، ومع ذلك يأتي امرؤ ملحد فيقول: لا إله، والحياة مادة، ويأتي آخر فيقول للرسول ﷺ: لا أومن بك حتى تنسف هذا الجبل، وتنشئ مكانه بستانًا لي!![1].

وخلاصة الأدلة التي ساقها الله سبحانه في هذه الآيات الثلاث، على كمال قدرة الله تعالى عشرة أدلة، وهي:

(أ) خلق السموات بغير عمد.

---

(١) الأسطر الثلاثة الأخيرة مستوحاة من كتاب «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» للشيخ محمد الغزالي رحمه الله ص (١٩٠).

(ب) تسخير الشمس والقمر لمنافع الناس.

(ت) خلق الأرض صالحة للمعاش والاستقرار.

(ث) خلق الجبال لتثبيت الأرض.

(ج) خلق الأنهار لمنفعة الإنسان والحيوان والنبات.

(ح) خلق صنفين من كل نوع من الزروع والثمار.

(خ) تعاقب الليل والنهار.

(د) تعدد أنواع وأشكال الزروع والثمار.

(ر) اختلاف طبقات الأرض.

(ي) خلق النخيل صنوانًا وغير صنوان.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ عظات بليغة لقوم يعقلون، ويتفكرون فيها فيتعظون بما فيها من الدلائل على قدرة الله سبحانه، بما عندهم من عقول يتدبرون بها، ويُعْملون الفكر والنظر في ملكوت الله ﷻ، فيقودهم هذا إلى ما يرشدهم ويسعدهم في دنياهم وأخراهم، أما أهل الإعراض فهم في ظلمات يعمهون وفي غيٍّ يترددون.

وُجُوبُ الإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَعُقُوبَةُ مُنْكِرِهِ

٥-﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا[١] كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا[٢] لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ[٣] أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾

ثم يأتي الحديث عن القضية الثانية من قضايا القرآن المكي، وهي الإيمان باليوم الآخر، وفي هذه الآية توبيخ لمنكري البعث، وتعجب من جهلهم وإعراضهم عن الحق،

---

(١) ، (٢) قرأ نافع والكسائي ويعقوب بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني هكذا (أئذا كنا ترابا إنا)، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني هكذا (إذا كنا ترابا أئنا)، وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما معًا (أئذا كنا ترابا أئنا) وكلٌّ على أصله في التحقيق والتسهيل.

(٣) قوله تعالى (لفي خلق جديد) ترك عدها الكوفي، وعدها غيره آية.

فيخاطب الله تعالى رسوله ﷺ ويخاطب كل مسلم أن يعجب من المكذبين بالبعث والنشور، فإن تعجب من شيء فأعجب منه تكذيبهم بالبعث والنشور؛ لأن الأدلة السابقة لم تبقِ لهم عذرًا.

وإن تعجب -يا محمد- من تكذيب بعض الناس لك، وتعجب من عدم إيمانهم بالله تعالى، بعد قيام الأدلة والبراهين السابق ذكرها على عظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم العلوي والسفلي، وما فيهما وما بينهما، وما يخرج من جوف الأرض، فأعجب من ذلك إنكار البعث والحساب والجزاء مع قيام الأدلة على أن الله سبحانه قد ابتدأ خلق هذا العالم وأنشأه النشأة الأولى، فهي تدل لكل ذي لب، على أن إعادة خلق الكون مرة ثانية أهون على الله جلَّ شأنه من بدء خلقه، وكل شيء بالنسبة إلى الله تعالى هين، ولكن هذا تقريب لأفهامنا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فالقادر على خلْق السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والزروع والثمار، قادر على إعادة خلق الإنسان بعد موته من باب أولى.

وليس هناك ما هو أشد عجبًا من إنكار الملحدين والمشركين والكفار للبعث واليوم والآخر، ومن قولهم: أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أنُبعث من جديد، بعد أن تفتَّت أجسامنا وأكلها الدود، وتحللت في الأرض؟! ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يقولون ذلك على وجه الاستبعاد، أي إن هذا بعيد وفي غاية الامتناع، فقاسوا قدرة المخلوق على قدرة الخالق.

١- كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠].

٣- وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾[سبأ: ٧، ٨]

وهكذا وصفوا النبي ﷺ بالكذب والجنون، واستبعدوا البعث بعد الموت.

٤- قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]

٥- وقال جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف]

٦- وقال أيضًا: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق]

٧- وقال: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾﴾ [القيامة].

وقد حكم ﷻ على منكري البعث **بثلاثة أشياء**:

الأمر الأول: أنهم كفرة

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ فإنكار البعث كفر؛ لأنه إنكار لقدرة الله تعالى، ومن أنكر صفة من صفاته تعالى فهو كافر.

الأمر الثاني: أنهم يساقون إلى جهنم في السلاسل والأغلال:

﴿وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ يوم القيامة يطوقون بقيود من حديد عندما يساقون إلى النار بقهر وذلة، وذلك بسبب إنكارهم قدرة الله تعالى على البعث، فتشد أيديهم إلى أعناقهم بقيود من حديد، ويسحبون إلى جهنم في السلاسل الحديدية، كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر] لأنهم في الدنيا قد ضلوا عن طريق الهدى وعن معرفة الحق، فقد دُعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا، فهم في أغلال، في دنياهم وأخراهم.

والأمر الثالث: أنهم يخلدون في النار

﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فهم مقيمون فيها، لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢].

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]

اللهُ تَعَالَى لَا يُعَاجِلُ بِالعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا مَنْ كَذَّبَ خَاتَمَ الرُّسُلِ ﷺ

٦-﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ[1] الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾

ثم إن المنكرين للبعث يكذبون الرسول محمدًا ﷺ، ويكذبون القرآن، ودلائل التوحيد في النفس والكون، ولا يتعظون بآيات الله المبثوثة في الآفاق، ولا يعبؤون بمصارع الغابرين، فيستعجلون ما وعدهم به رسول الله ﷺ من العذاب؛ استهزاء وسخرية، ويطلبون وقوعه بهم على وجه التهكم والاستبعاد، فيقولون للرسول ﷺ: أنت تعدنا بالعذاب، فأت به إن كنت صادقًا، كما قال قائلهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت].

وقال أيضًا: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى].

ومعنى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي: يستعجلك المكذبون بنزول العذاب بهم قبل أن يؤمنوا، وقبل أن يأتوا بالحسنة، وهي الإسلام، والله تعالى لا يعاجل بالعقوبة قبل الإيمان، فبه يتحقق الأمن والأمان والرخاء والحسنات، وقد رفع الله عذاب الاستئصال عن هذه الأمة

وقد مضت عقوبات المكذبين قبلهم، ومرَّ بهم مصارع الكافرين فلم يعتبروا، فلينظروا إلى الأمم التي سلفت، ماذا حاق بها من عذاب؟! وماذا نزل بهم من عقوبات؟! لينظروا إلى قوم نوح، وقوم لوط، وقوم هود، وقوم صالح، كيف دمر الله وأباد هذه الأمم؟! فهذه أمثلة للعقوبات السابقة.

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم وصلًا من (من قبلهم المثلات)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمهما، والباقون بكسر الهاء وإسكان الميم، وعند الوقف على (قبلهم) لا خلاف في كسر الهاء وإسكان الميم.

فالمَثُلَات هي: العقوبات الشديدة التي أصبحت مثالًا يُضرب لمن يعتبر، فكيف لا يعتبرون؟! ونظير ذلك قوله تعالى: على لسان صالح ﷺ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل]

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ [هود].

قال سبحانه في نهاية الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ﴾ قالوا: إن هذه أرجى آية في كتاب الله؛ لأن الله تعالى ذكر فيها المغفرة مقرونة بالظلم من غير توبة، فهم يعصونه، ويدعوهم إلى التوبة، ويُجرمون، فلا يحرمهم من خيره وإحسانه.

ولأن الله تعالى يقرن الرجاء بالخوف، والعذاب بالمغفرة، ويطلب من عباده أن لا يأمنوا مكر الله، وألا يقنطوا من رحمة الله، وأن يعملوا للآخرة، ويخافوا ما عند الله من عقوبات، لذا؛ ختم الله الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن أصر على الكفر والضلال، ولم يتب من المعاصي، فهو سبحانه صاحب المغفرة، وهو شديد العقاب لمن يُصرّ على الذنب ويأبى التوبة والندم .

والمعنى: إن هؤلاء المكذبين بآيات الله، والمكذبين بالبعث والحساب والجزاء، يستعجلون السيئة وهي وقوع العذاب بهم قبل الحسنة، أي: قبل أن يدخلوا في الإسلام ويطمئنوا بالإيمان، ولم يعتبروا بعاقبة من سبقهم ممن كذب بآيات الله، وأنكر لقاء الله، ومع ذلك فإن الله تعالى يفتح باب التوبة والمغفرة لمن رجع إليه وأناب، أما من مات على كفره وشركه فعقابه عند الله شديد.

وهو سبحانه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب.

ونظير نهاية هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر].

وغير ذلك من الآيات التي تجمع بين الخوف والرجاء، ولولا حلم الله تعالى لعاجل

أهل الكفر والمعاصي بالعقوبة، ولكنه سبحانه يمهلهم، ويترك لهم الفرصة ليتوبوا.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

الإتْيَانُ بِخَوَارِقِ العَادَاتِ لَا يُحَقِّقُ إيمَانًا

٧-﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ[1] ﴿٧﴾﴾

ثم إن المكذبين -الذين كذبوا الوحي- لا يقتنعون بالقرآن دليلًا معجزًا على رسالة محمد ﷺ، ولا يقتنعون بالآيات الكونية التي جاء بها محمد ﷺ؛ كانشقاق القمر، وتسبيح الحصى في كفه، ونبع الماء من بين أصابعه، وحنين الجذع له، وتكليم الجمل للنبي ﷺ فهم لا يكتفون بذلك، إنما يطلبون خوارق أخرى للعادات، ليس في استطاعة النبي ﷺ أن يأتي بها من تلقاء نفسه، والذي يأتي بها هو الله، ولو علم الله سبحانه أنهم سيؤمنون بها لأجابهم إليها ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقد غاب عنهم أن المعجزات التي يطلبونها معجزات حسية، تُرى بالعين، يؤيد الله بها أصحاب الرسالات المؤقتة المحدودة، ولا تصلح لمن لم يرها بَعْدَهُم، أما هذا القرآن فهو معجزة قائمة بين أيديهم إلى يوم الساعة.

والمعجزات التي يطلبونها إنما هي للأمم التي قضى الله بهلاكها واستئصالها، وأمة محمد ﷺ كتب الله لها البقاء، فلا بد أن تكون معجزتها مناسبة للأجيال المتعاقبة.

والمعنى: ويقول الذين كفروا هلَّا جاءته معجزة محسوسة، كإبراء الأكمه والأبرص، فنحن نريد آية أخرى غير هذه الآيات، كعصا موسى وناقة صالح، يقول الله سبحانه: لا عليك منهم، فهذا مجرد عناد ولجاج، ومهمتك -أيها الرسول- هي البلاغ والإنذار، إنما أنت مُخوِّف من لم يأمَنْ بأس الله وعقابه.

ولست بدعًا من الرسل في هذا، فكل أمة من الأمم أرسل الله إليهم رسولًا يهديهم إلى

---

(١) قرأ ابن كثير بإثبات الياء وقفًا من (هاد)، والباقون بحذفها وصلًا ووقفًا، ومثلها (وال) آية: (١١).

الإيمان، ولكل أمة رسول يرشدهم إلى الله تعالى، فما عليك إلا البلاغ، وإنذار من لم يؤمن.

والكفار في هذه الآية، هم أصحاب الضمير في الآية السابقة من لفظ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ الذين يطلبون سرعة نزول العذاب بهم، ظنًّا منهم أن تأخير نزوله بسبب عجز النبي ﷺ عن الإتيان بما توعَّدَهم به.

وفي هذه الآية قصر إضافي على صفة الإنذار لهداية هذه الأمة؛ لأن الهداية والإنذار متلازمان، والهداية أعم من الإنذار، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥)﴾ [الشعراء].

وهذا القرآن مشتمل على الهداية والإنذار، وهو معجزة الرسول العظمى، وكل رسول يؤيده الله بمعجزة تلائم حال المرسل إليهم.

صح في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»[1].

مِنْ دَقَائِقِ عِلْمِ الأَجِنَّةِ

٨- ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾

ولما أقامت السورة البراهين الدالة على عظيم قدرة الله تعالى ووحدانيته، بدأ سبحانه بالخلق والتدبير في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

ثم أتبع ذلك بإقامة الأدلة على علم الله تعالى بدقائق الأشياء وعظائمها، وجاء افتتاحها بالأسلوب الذي ابتدأ به البراهين السابقة ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ فهذه الآية وما بعدها من تتمة الحديث عن قضية العقيدة والتوحيد في السورة.

والآية تخبر عن تمام علم الله تعالى، وأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فهو سبحانه يعلم ما في البر وما في البحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ويعلم سبحانه حبة البقل في جوف الأرض، فما من حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٤٩٨١، ٧٧٧٤) ومسلم برقم (١٥٢).

ولا يابس إلا وهو سبحانه يعلمها ويراها ويسمعها، إنه سبحانه يرى تجلط الدم في العروق، ويسمع صوت الرعد في السماء وهو يسبح بحمد الله، ويرى جلَّ شأنه أحوال النجوم والكواكب في الفضاء حين تغيب وحين تشرق؛ **«سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه ومداد كلماته»**(١).

وبعد أن تحدثت سورة الرعد عن الكون الكبير، تتحدث عن الإنسان وهو صورة مصغرة من هذا الكون العظيم، ففي داخل الإنسان يوجد المعمل والمصنع والأشجار، وغير ذلك من محتويات الكون الكبير.

في الإنسان مئة ألف شجرة، تتمثل في الشَّعْر الذي ينبت في الجسد، هذا الشَّعْرُ يكبر وينمو، ثم ينقصف ويتبدل ويتغير، سبحان الخلَّاق العليم.

كُرات الدم الحمراء والبيضاء آلاف مؤلفة، ينشئها ويرسلها رب العالمين حسب حاجة الجسم واحتياجه.

شبكة الأعصاب التي في جسم الإنسان تتلقى الأوامر والنواهي من المخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والله سبحانه يحيط علمه بالجنين قبل أن يوجد في بطن أمه، وقبل أن يخرج من صلب أبيه، وما يكتشفه الأطباء عن الجنين أو يرونه من حيث النوعية، ومن حيث سلامة الأعضاء والحواس وغيرها، عن طريق الأشعة ونحوها، كل هذا يكون بعد التكوين والخلق في بطن الأم.

وعلم الله تعالى يحيط بالإنسان قبل أن تنفصل بيضة المرأة وتستعد لملاقاة الحيوان المنوي من الرجل، ثم عند ما يحدث التلقيح، وتلتقي النطفتان، وتمر بالمراحل المختلفة: علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا، ثم تُكسى هذه العظام باللحم، سبحان الخلَّاق العليم.

وعن أطوار خلق الإنسان يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]

(١) الحديث في صحيح مسلم برقم (٢٧٢٦) عن أم المؤمنين جويرية ﵂.

وقال جلَّ شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦].

جاء في الصحيح، عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد**»[١].

الله يعلم ما تحمل كل أنثى من: ذكر أو أنثى، طويل أو قصير، أبيض أو أسود، غني أو فقير، شقي أو سعيد، ويرزق هذا الجنين وهو في أحشاء أمه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢] ويمده بالعقل والحواس قبل أن ينزل إلى الأرض ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل].

وقد تكفل الله سبحانه برزق الجنين وهو في بطن أمه، يمده بالغذاء من دم الحيض الذي ينقطع عن الحامل؛ ليصبح غذاءً للجنين، وحين تنقطع السرة يحوِّل الله سبحانه رزق هذا الجنين من بطن أمه وأحشائها إلى الثديين، فيرضع من ثديي أمه، وحين ينزل من بطن أمه يستهل صارخًا استنكارًا لتغيير مكانه، ثم يشب الإنسان ويصير رجلًا، ويكدح ويكد ويسعى، ويشقى وينعم، ويحزن لما يفوته من الأرزاق في الدنيا، وقد تكفَّل الله برزقه وهو في أحشاء أمه[٢].

قال تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٧].

وهو سبحانه يعلم ما تُنقِصُه الأرحام فيسقُط أو يولد قبل تسعة أشهر، ويعلم ما يزيد حمله عنها، وكل شيء مقدر عند الله تعالى: من النقصان، أو الزيادة، لا يتجاوزه فهو، سبحانه، يعلم كل شيء علمًا مفصلًا لا شيوع فيه ولا إبهام.

قال عكرمة: ما غاضت الرحم بالدم يومًا إلا زاد في الحمل يومًا حتى تستكمل تسعة أشهر طاهرًا[٣].

---

(١) من حديث ابن مسعود في «صحيح البخاري» برقم (٣٢٠٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٣).

(٢) جاء هذا المعنى عن مكحول في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٣٦) وعند ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٢٧).

(٣) الطبري (١٣/ ٤٤٨) وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٢٧).

وغَيْضُ الرحم: انحباس دم الحيض، **وازديادها**: فيضان الحيض عنها.

أو أن **الازدياد** معناه: تعدد الأجنة في الرحم، **والغيض**: عدم تعددها.

وعبَّر بالحمل ليشمل ما تحمل كل أنثى، من الإنسان والحيوان؛ لأن الحَبَل يخص المرأة.

أقل مدة الحمل وأكثره:

١- وأغلب النساء يحملْن مدة تسعة أشهر.

٢- ويشير القرآن الكريم إلى أن أقل مدة للحمل ستة أشهر، جاء هذا استنباطًا من قول الله سبحانه عن المولود: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] يُطرح من هذه الأشهر الثلاثين مدة الفصال، وهي مدة الرضاعة والفطام، التي جاء أكثرها في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

فيبقى -من الثلاثين شهرًا بعد الحولين- ستة أشهر، هي أقل مدة للحمل، فمن جاء له مولود فإنه ينسب إلى أبيه، وإن حملت به أمه ستة أشهر.

وأكثر مدة الحمل استنبطها الفقهاء من تتبع أحوال النساء، فليس لها أصل في الكتاب أو السُّنَّة، وإنما هي مستنبطة من عادات النساء وأحوالهن.

٣- **فعند أبي حنيفة**: أن أطول مدة للحمل سنتان.

٤- **وعند الشافعي وأحمد**: أربع سنوات.

٥- **وعند مالك**: خمس سنوات، فالمولود ينسب لأبيه وإن وصل الحمل إلى خمس سنوات، وهو في بطن أمه.

أ - قال الضحاك: ولدتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين، وولدتني وقد نبتتْ ثنيَّتي، وسُمِّيَ الضحاك لذلك، أي: أنه ولد بعد أن ظهرتْ أسنانه وهو في بطن أمه.

ب - وقد وُلِد عبد الملك بن مروان لستة أشهر هلالية.

ج - روى الدارقطني عن الوليد بن مسلم قال: قلت لمالك بن أنس: إني حُدِّثت عن عائشة أنها قالت: لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قدْر ظل المغزل، فقال: سبحان الله! من يقول هذا؟ هذه جارتُنا امرأة محمد بن عجلان، تحمل وتضع في أربع سنين،

وكانت تسمى حاملة الفيل.

د- وجاء رجل إلى مالك بن دينار وسأله أن يدعو لامرأته، فهي حامل منذ أربع سنين، وقد أصبحت في كرب شديد، فقال في دعائه: اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجه عنها، وإن كان في بطنها جارية فأبدلها غلامًا، فإنك تمحو وتثبت، وعندك أم الكتاب، ورفَعَ مالك يده، ورَفَع الناس أيديهم، فجاء رسول إلى زوجها يقول له: أدرك امرأتك، فذهب الرجل، فما حطَّ مالِك يده، حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جعْد قطط، ابن أربع سنين، قد استوت أسنانه، ما قُطِعَتْ سراره[١].

هـ - وجاء رجل إلى عمر ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين، إني غبت عن امرأتي سنتين فجئت وهي حُبلى، فشاور عمر الناس في رجْمها، فراجعه معاذ في ذلك، فتركَها حتى وضعتْ غلامًا قد خرجت ثنيتاه، وهو شبيه تمامًا بأبيه، فقال الرجل: ابني ورب الكعبة، فقال عمر: عجزتْ النساء أن يلدن مثل معاذ، لولا معاذ لهلك عمر[٢].

و- وقيل: إن محمد بن عجلان مكث في بطن أمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطرابًا شديدًا، فشق بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه.

ز- وقال عباد بن العوام: وَلَدتْ جارة لنا -لأربع سنين- غلامًا شَعْرُه إلى منكبيه.

ومن هذا يتبيَّن أنه لا حدَّ لأكثر مدة الحمل، وإن كان الأعم الأغلب أنها تسعة أشهر، وأدناها ستة أشهر، وكل شيء عنده - سبحانه - بمقدار، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتقدم ولا يتأخر.

صح في الحديث عن أسامة بن زيد ﷺ: أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثتْ إليه: أن ابنًا لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره، فبعث إليها يقول: **«إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمُرْها فلتصبر، ولتحتسب»**[٣].

وعن إحاطة علم الله تعالى بما في الرحم، ما صح عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطرُ أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض**

(١) ، (٢) «أضواء البيان» للشيخ الشنقيطي (٣/ ٨٥).

(٣) من حديث أسامة بن زيد في البخاري برقم (١٢٨٤) ومسلم برقم (٩٢٣).

تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان].

وعلم ما في الأرحام من خصائص عالم الغيب والشهادة:

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِمَا غَابَ وَمَا شُوهِدَ

٩- ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ[2] ﴿٩﴾﴾

وهو جلَّ شأنه عالم الغيب والشهادة، المرئي، وغير المرئي، يعلم ما يظهر وما يستتر، ما يراه العباد، وما لا يرونه ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩] يعلم المحسوس وغير المحسوس، يعلم المعدوم والموجود، يعلم ما غاب عن الأبصار وما هو مشاهد، وهو الكبير في ذاته وفي أسمائه وصفاته، الذي يصغر كل شيء دونه، وهو المتعال على جميع خلقه بذاته وقدرته وقهره؛ فالعلو والرفعة والكبرياء صفة ذاتية لله وحده.

قال الحسن في معنى الآية: يعلم من السر ما يعلم من العلانية، ويعلم من العلانية ما يعلم من السر، ويعلم من الليل ما يعلم من النهار، ويعلم من النهار ما يعلم من الليل[3].

١٠- ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾

السر والعلانية عند رب العالمين سواء، فإذا أنت رفعت صوتك، أو ناجيت نفسك، أو أسررت إلى غيرك، فالكل عند رب العالمين سواء ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه] أي: يعلم ما هو أخفى من السر، وهو ما يحدِّث به الإنسان نفسه، ويجول داخل صدره ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الملك].
﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦].

أي: يستوي عند الله من أسر القول فأضمره في نفسه ومن نطق به، ويستوي في علمه

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٩٧).

(٢) قرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا من (المتعال)، والباقون بحذفها في الحالين.

(٣) ابن أبي حاتم (٧/٢٢٢٨).

من استخفى بذنبه وخرج على الناس يظهر أنه بريء من الإثم، ومن جهر بالمعصية وكشف اللثام عن وجهه، ويستوي في علمه من استتر بعمله فاختفى وتوارى عن أعين الناس بأعماله القبيحة في ظلمات الليل، وهو في سربه، أو في قصر، أو في كهف، أو في مغارة، بعيد عن أعين الناس أو قريب منهم.

ويستوي عند رب العالمين من يجهر بأعماله في وضح النهار، ومن أسرها في جوف الليل. أي: أن الله تعالى يعلم المتخفي المتواري عن الأعين في سواد الليل البهيم، ويعلم الظاهر البارز الذي يمشي في وضح النهار.

والآية تتضمن **ثلاثة أصناف** من الناس:

١- الْمُسِرُّ بقوله وفعله. ٢- والذي يجهر بقوله وفعله.

٣- والمتلوِّن، أي الذي يُخفي المعصية، ويُظهر البراءة.

وكلها عند الله سواء، والمستخفي هو المستتر، والسارب هو الظاهر البارز.

قالت عائشة ﵂: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المرأة المجادِلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

وقال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس].

وقال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان].

مُرَاقَبَةُ اللَّهِ لِأَعْمَالِ العِبَادِ وَسُنَّتُهُ فِي تَغْيِيرِ أَحْوَالِهِمْ

١١-﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

في هذه الآية بيان لبعض مظاهر قدرة الله تعالى في رعايته لعباده، فكل من نطق بالقول، أو أضمره في نفسه، وكل من توارى بعمله عن أعين الناس أو أظهره، قد وكَّل الله به ملَكَيْن بالليل، وملَكَيْن بالنهار، يتعاقبان أو يتناوبان على حفظ الإنسان وحراسته، ووقايته من السوء والضرر الذي قد يلحق به ليلًا أو نهارًا، فيحفظانه من الهوام والوحوش والسباع، والحوادث واللصوص، والقتل والغرق والحريق.

وهؤلاء الملائكة يراقبون أحوال كل إنسان في سره وعلانيته، وسكونه وحركته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار]

وفي هذه الآية يقول تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أي: ملائكة تتعاقب عليه ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ملَك من أمامه وملَك من خلفه، يحفظونه من المساوئ والأضرار بأمر الله، يقومون على أحواله ويراقبون تصرفاته ويحصونها - كرجال الديوان العام للمراقبة على الدوائر الحكومية - ويحفظونه مما ينزل به من القضاء المعلّق.

ألم تروْا إلى بعض الحكام لهم حرس خاص، كل حارس مُوكَّل بعضو من أعضاء جسد هذا المخلوق، مدرَّب على أعلى مستوى عالمي، لحراسته من العدوان والأخطار.

ونحن عباد الله جميعًا قد جعل الله لكل منا حفَظة، يراقبون أقواله وأفعاله، ويحرسونه من الأضرار التي قد تصيبه.

قيل: إن مع كل واحد من بني آدم ملَكين، ملَكًا عن يمينه وهو صاحب الحسنات، وملَكًا عن شماله وهو كاتب السيئات.

وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل العبد حسنة كتبها له بعشر حسنات، وإذا عمل سيئة قال صاحب الشمال لصاحب اليمين: أكتبها عليه؟ فيقول: أنظره لعله يتوب، أو يستغفر، فيستأذنه ثلاث مرات، فإن هو تاب منها وإلّا قال: اكتبها عليه سيئة واحدة.

ومَلَك مُوكَّل بناصية العبد، فإذا تواضع العبد لله رفعه بها، وإن تجبَّر على الله ﷻ وضعه بها.

ومَلَك مُوكَّل بعينيه يحفظهما من الأذى.

ومَلَك مُوكَّل بفيه يمنع أن يدخل في فمه شيء من الهوام يؤذيه.

فهؤلاء خمسة من الملائكة مُوكَّلون بالعبد في ليله، وخمسة غيرهم في نهاره.

فانظر إلى عظمة الله وقدرته وكمال شفقته عليك أيها العبد، فهي تحفظك من أمامك ومن خلفك، فإذا جاء القدَر خَلَّوْا عنه[١].

وقال ابن كثير: إنهم أربعة ملائكة بالنهار، وأربعة بالليل بدلًا عنهم، حافظان أو حارسان من الأضرار والأسواء، وكاتبان يكتبان أعمال العبد من خير أو شر.

قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق]

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار]

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف] أي: يسجلون ويكتبون أقواله وأعماله، واثنان يراقبانه ويحرسانه.

جاء في الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم، كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون**»[٢].

أي: أتيناهم في صلاة العصر وهم يصلون، وتركناهم في صلاة الفجر وهم يصلون، أو العكس.

هذه الشهادة من الملائكة تكون لمن يصلي العصر في وقته، ولمن يصلي الفجر في وقته، فالذي لا يصلي الفجر، ولا يصلي العصر، تشهد له الملائكة التي تتعاقب عليه، بأنه لا يصلي، والويل لمن شهدت عليه الملائكة بأنه لا يصلي؛ حيث يُسأل المجرمون يوم القيامة ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر].

---

(١) تفسير الخازن للآية، وقد وردت آثار بذلك لا تخلو من مقال، وانظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٧٠).
(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٥٥)، و (٧٤٢٩) و«صحيح مسلم» برقم (٦٣٢).

وفي الحديث عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والتعري فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط، وحين يُفضي الرجل إلى أهله، فاستحيوهم وأكرموهم**»[١].

أي: فاستحيوا منهم بالتستر، ونحوه، وكل إنسان معه قرين من الجن، وقرين من الملائكة.

١- عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة**»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**»[٢]. وقوله (فأسْلَمُ) بضم الميم، أي أسلمُ من شره وأذاه وتسلُّطِه عليّ.

٢- قال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى عليٍّ ﷺ وهو يصلي، فقال: احترس، فإن ناسًا من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر، فإذا جاء القدر خلَّيا بينه وبينه، وإن الأجل جُنَّة حَصينة[٣].

٣- وجاء في الحديث عن حفظ الملائكة للعبد بأمر الله تعالى، عن أبي خِزامة عن أبيه قال: سألت رسول الله فقلت: يا رسول الله، أرأيت رُقًى نَسْترقي بها، ودواء نتداوى به، وتُقاة نتَّقيها، هل تَردُّ من قَدر الله شيئًا؟ قال: «**هي من قَدَر الله**»[٤].

٤- وقال مجاهد: ما من عبد إلا ومعه ملَك مُوكَّل به، يحفظه في نومته ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال الملَك: وراءك وراءك، إلا شيء قد قضى له أن يصيبه[٥].

والمعنى: إن لله تعالى ملائكة يتعاقبون على الإنسان من بين يديه، ومن خلفه يحفظونه

---

(١) رواه الترمذي في «السنن» برقم (٢٨٠٠) من طريق ليث عن نافع عن ابن عمر مرفوعًا، وأوله (إياكم والتعرِّي) قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٤) و«المسند» (١/ ٣٩٧) برقم (٣٦٤٨، ٣٨٠٢) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الجعد فمن رجال مسلم، وأخرجه الدارمي (٢/ ٣٠٦) والطبراني في الكبير (١٠٥٢٣) وأبو يعلى (٥١٤٣).

(٣) الطبري في التفسير (١٦/ ٣٧٨).

(٤) رواه الترمذي في «السنن» برقم (٢٠٦٥) من حديث أبي خزامة، وقال: حديث حسن صحيح.

(٥) «زاد المسير» (٤/ ٣١٢).

بأمر الله من قضاء الله وقدره المعلق على سبب من الأسباب، ويُحصون ما يصدر عنه من خير أو شر.

سنة الله في خلقه لا تتغير: وفي سياق الاستدلال على عظيم قدرة الله تعالى، والتذكير بها يبيِّن سبحانه سُنَّة من سنن الله في خلقه لا تتخلف؛ وهي أن الله تعالى لا يغير ما بقوم من نعمة، وعافية، وأمن، ورخاء، وتمكين في الأرض، فلا يسلُب الله منهم هذه النعم وأمثالها إلا إذا غيَّروا ما هم عليه من الطاعة والعمل الصالح، قال تعالى:
﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

قال ابن أبي حاتم: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية، ولا أهل بيت، يكونون على طاعة الله، فيتحوَّلون منها إلى معصية الله إلا تحوَّل الله لهم مما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: ومصداق ذلك في كتاب الله.
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

وعن عمير بن عبد الملك قال: خطبنا علي بن أبي طالب ﷺ على منبر الكوفة، فقال: كنت إذا سكتُّ عن رسول الله ﷺ ابتدأني، وإذا سألته عن الخير أنبأني، وأنه حدثني عن ربه ﷻ قال: «**قال الرب: وعزتي وجلالي، وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية، ولا أهل بيت كانوا على ما كرهتُ من معصيتي، ثم تحوَّلوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتي، إلا تحوَّلتُ لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي**»[2].

ومن هذا يُعلم أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ لبيان تقلب أحوال الأفراد والشعوب والأمم، فالله، سبحانه، لا يغير أحوال العباد من حال إلى حال، إلا بسبب ذنب أو معصية، أو توبة وطاعة وامتثال؛ بمعنى أن الأمة التي تُهزم بعد نصر، أو تُقهر بعد قوة، وكذا الشخص الذي يصاب بمرض أو ابتلاء بعد صحة وعافية، فإن هذا يكون بسبب ما اقترف من معصية بعد طاعة، فلا يسلُب الله قومًا نعمة

---

(١) ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٣٢) و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٤٠) قال: وهذا غريب وفي إسناده من لا أعرفه وقد أخرجه ابن أبي شيبة (١٩) وقال محققه: إسناده ضعيف.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في كتابه صفة العرش برقم (١٩) وفيه الهيثم مجهول، قال ابن كثير في تفسيره للآية: وهذا غريب، وفي إسناده من لا يُرف.

أنعمها عليهم حتى يغيروا ما كانوا عليه من الطاعة والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ﴾ [المائدة: ٤٩].

ويبيِّن تعالى سبب وقوع المحن والشدائد بالعباد في مثل قوله جلَّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ [محمد] فلا يغير الله ما بقوم من النعمة والخير، والأمن والرخاء إلى البؤس والضر، والعذاب والشقاء، والخوف والهزيمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ فيتحوَّلوا من الطاعة إلى المعصية، وهذه سُنَّة الله في خلقه.

والعكس صحيح، فقد يتحول العبد من المعصية إلى الطاعة، فيغير الله حاله إلى أفضل؛ حيث تتحول الهزيمة إلى نصر، والشدة إلى رخاء، والقلق إلى طمأنينة.

وقد يصاب الإنسان ببعض المحن والشدائد؛ ابتلاءً وامتحانًا من الله تعالى، ورفعًا لدرجات العبد إن كان من المؤمنين، فلا يلزم أن يكون كلُّ ما يصيب الإنسان من مصائب ومحن بسبب ذنوبه، فقد يكون ذلك تمحيصًا للعبد وتخفيفًا عنه في الآخرة، أو رفعًا لدرجاته.

لا مرد للقضاء المبرم:

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ﴾ أي: إذا أراد الله بفرد أو جماعة بلاء فلا مفر منه، ولا بد من تحقق وقوعه، وذلك أن الملائكة الذين يحفظون العبد، ويحرسونه بأمر الله من الأخطار والأضرار يتخلَّوْن عنه وقت نزول القدَر المُبْرم الذي لا مرد له.

وفي هذا تحذير من ارتكاب المعاصي والموبقات، وتحذير من مقابلة النعمة بالبطر والتحقير والغرور، وفيه بيان أن الله تعالى لا يَرُدُّ إرادته شيء، إذا أراد أن ينزل بعبده قضاءه المبرم.

ألا ترون إلى من يكون عنده كثرة من الحراس على كل عضو من أعضائه، فإذا أراد الله به سوءًا غفل هؤلاء الحراس، وأعماهم الله، فيتم اغتياله، فالله تعالى قد خلق السبب وخلق المسبب، فلا تقف الوقاية من الرصاص أمام قدَر الله ولا تحول دون بأس الله وقضائه.

وإذا أراد الله سبحانه أن ينزل بعبده أمرًا خلَّت الملائكة بين العبد وبين وقوع القدر، فلا تُغْني الحرَّاس عنه شيئًا.

وقد يموت الإنسان في حادثة، أو غرق، أو حريق، أو تحت أنقاض إذا كان قضاء الله منجزًا أي: غير معلق على سبب من الأسباب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧] وفي هذه الحال لا يوجد من يحول بينهم وبين وقوع قضاء الله وقدره، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي: ليس لهم من يتولى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه غير الله، فلا حفيظ ولا ناصر ولا معين لهم غيره سبحانه.

وقد تنزل المصائب بسبب ذنوب الآخرين، إذا رضي العبد بها فسكت ولم ينكر على مرتكبيها، فقد سألت أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها النبي ﷺ: أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **«نعم إذا كثر الخبث»**[1].

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

خَمْسٌ مِنَ الظَّوَاهِرِ الكَوْنِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى

١٢- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾

ابتدأت الآيات التي تحمل الأدلة الرئيسة على توحيد الله تعالى بلفظ الجلالة (الاسم العلم)، وابتدأت الآيات التي تحمل فروع الأدلة بالضمائر ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ ومنها هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ففيها مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى وعجيب صنعه، وفي هذه الآية والتي بعدها: خَمْسَةٌ مِنَ الظَّوَاهِرِ الكَوْنِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى

أولها: ضوء البرق. **ثانيها**: خلْق السحاب المحمَّل بالمياه.

ثالثها: تسبيح الرعد. **رابعها**: تسبيح الملائكة.

خامسها: إنزال الصواعق المحرقة.

---

(١) صحيح البخاري (٣٣٤٦، ٣٥٩٨)، وصحيح مسلم (٢٨٨٠) و«صحيح سنن الترمذي» (١٧٧٨) وفي «سنن ابن ماجه» (٣٩٥٣).

الظَّاهِرَةُ الكَوْنِيَّةُ الأُولَى: ضَوْءُ البَرْقِ

فهو حالة تحمل مثالًا واحدًا يجمع بين النعمة والنقمة في آن واحد، وتصرُّف واحد، يَعتبر بهما المؤمن والكافر، والطائع والعاصي؛ لبيان تغيُّر أحوال الجماعة من الناس، تبعًا لتغيُّر ما أحدثوه من الطاعة بعد المعصية، أو المعصية بعد الطاعة؛ ففيه إنذار وبشرى في آن واحد، وفيه تخويف من عذاب الله وطمع في رحمته، وهو أمر نسبي يختلف باختلاف أحوال الناس؛ منهم من يخاف منه، ومنهم من يفرح به، فهو يشبه النعمة من وجه، ويشبه العذاب من وجه آخر.

والبرق نور لامع، يظهر من خلال السحُب، وعند ما يراه الرائي يخاف من نزول الصواعق المحرقة، ويخاف من نزول السيل الجارف مَن ليس في حاجة إلى الماء، ومَن يتضرر به، ويفرح به ويستبشر مَن هو في حاجة إليه، كأهل البوادي والمزارعين، ومَن إذا نزل المطر عليهم أخصبت الأرض وأنبتت، وشربت المواشي، وخزَّنوا منها المياه لسقياهم ومنافعهم، وإذا لم ينزل المطر أصابهم القحط والجدب في أرضهم وبهائمهم وأنفسهم.

فيخاف بعض الناس من السيل المدمر، والصواعق المحرقة إذا رأوا البرق، ويطمع أكثرهم في إغاثة العباد والبلاد؛ لإحياء الموات وجريان الأنهار.

الظَّاهِرَةُ الكَوْنِيَّةُ الثَّانِيَةُ: خَلْقُ السَّحَابِ المُحَمَّلِ بِالمِيَاهِ

تتمثل هذه الظاهرة في أن الله، سبحانه، يخلق السُّحُب المحملة بالمياه الكثيرة التي تهطل بالأمطار؛ لإغاثة العباد والبلاد، فهو - جلَّ شأنه - المنشئ والموجد لها، ومُظهرها للناس، وهذا معنى ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي: يخلق السحب المحملة بالماء الكثير لمنافعكم؛ حيث يرسلها الله تعالى من مكان إلى مكان، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف].

جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله ينشئ السحاب، فينطق**

أحسن المَنْطِقِ، ويضحك أحسن الضحك»[١].

قال إبراهيم بن سعد: إنَّ **نُطْق** السُّحُب: هو الرعد، **وضحكها**: البرق.

وبيَّن ﷻ أن البرق آية من آيات الله فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٢٤].

وَمِنَ الظَّوَاهِرِ الكَوْنِيَّةِ وتَسْبِيحُ الرَّعْدِ وَالمَلَائِكَةِ وَإِرْسَالِ الصَّوَاعِقِ قال تعالى:

١٣-﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

ثم عطف ﷻ الرعد على ذكر البرق والسحاب؛ لأنه قرين لهما، وفي هذه الآية ثلاث من الظواهر الكونية الدالة على عظيم قدرة الله تعالى:

الظَّاهِرَةُ الكَوْنِيَّةُ الثَّالِثَةُ: تَسْبِيحُ الرَّعْدِ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾

ظاهرة الرعد، وهو يسبح بحمد الله تعالى تسبيحًا يدل على خضوعه لربه.

والرعد: اسم للمَلك الذي يزجُر السحاب، وصوته تسبيحه، كما جاء في الحديث عن ابن عباس ﷺ قال: أقبلت يهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، أَخْبِرنا عن الرعد ما هو؟ فقال: **«ملَك من الملائكة، مُوكَّل بالسحاب، معه مخاريق من نار، يسوق بها السحاب، حيث شاء الله»**، فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: **«زَجْرَة بالسحاب إذا زجره، حتى ينتهي إلى حيث أُمر»**، قالوا: صدقت...[٢].

---

(١) أخرجه أحمد بسنده عن شيخ من غفار في «المسند» (٥/ ٤٣٥) ورقمه (٢٣٦٨٦) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٨٨) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين، وجهالة الغفارى لا تضر، وأخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٢٠) وأبو الشيخ في العظمة (٧٢٢).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٣٣٤) وهذا لفظه وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٩٢) وهو في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (١٨٧٢) وأخرجه أحمد من حديث طويل في «المسند» برقم (٢٤٨٣)قال محققو المسند: حديث حسن دون قصة الرعد، فقد تفرد بها بُكَيْر بن شهاب، وهو لم يَرْو عنه سوى اثنين.. وقد توبع في حديثه هذا برقم (٢٥١٤) سوى قصة الرعد فإنها منكرة، وباقي رجال الإسناد ثقات غير عبدالله العجلي، فقد روى له الترمذي والنسائي وهو ثقة، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٩٠٧٢).

وقد أطلق القرآن اسم الرعد على أنه آلة من آلات التخويف والإنذار كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] وجاء لفظ الرعد معرَّفًا في هذه السورة، ونكرة في سورة البقرة.

فلفظ الرعد يطلق على الملَك إذا كان معرفة، ويطلق على الصوت الهائل الذي يُسمع كأنه شُحنة كهربائية في طبقات الجو؛ فيثير الخوف والإنذار إذا كان نكرة.

والرعد يسبح تسبيحًا مقترنًا بحمد الله تعالى والثناء عليه، ولا إشكال في ذلك، على أساس أن الرعد اسم للملَك المُوكَّل به، فإن الصوت المسموع، هو تسبيح الملَك.

ولا إشكال كذلك في أن الرعد باعتباره صوتًا مسموعًا، يسبح بحمد الله تعالى تسبيحًا حقيقيًّا، يجب علينا أن نؤمن به، كما صرَّح به القرآن الكريم، وإن كنا لا نفهم معناه، فنفوض الأمر فيه إلى الله كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

الظَّاهِرَةُ الكَوْنِيَّةُ الرَّابِعَةُ: تَسْبِيحُ المَلَائِكَةِ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾

تسبيح الملائكة بحمد الله تعالى، وتنزيهها لربها خوفًا منه سبحانه، من آيات الله الكونية، فإذا سمعت الملائكة تسبيح الرعد بحمد الله سبحت جميعًا، خوفًا من الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ فكلهم ينزهون الله تعالى، ويخضعون لجلاله. فإذا رفعت الملائكة أصواتها بالتسبيح نزل المطر.

قال أحمد بن داود: بينما سليمان بن داود، عليهما السلام، يمشي مع أبيه، وهو غلام، إذ سمع صوت الرعد، فخرَّ، فلصق بفَخِذ أبيه داود، فقال: يا بني، هذا صوت مقدمات رحمته، فكيف لو سمعتَ صوت مقدمات غضبه؟![1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**بينا رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتًا** في سحابة يقول: اسقِ حديقة فلان، فأفرَغَ السحاب ماءه في أرض ذات حجارة سود، وسال الماء من الحرة إلى السهل، قال: فتتبعتُ الماء فإذا رجل قائم في حديقة له يحوّل الماء بمسحاته، فقلت: يا عبد الله، ما اسمك؟ فقال: فلان، للاسم

---

(١) أخرجه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٥٦٢) – منتقى.

الذي سمعتُه في السحابة، ثم سألته: ماذا تصنع؟ قال: إني أتصدق بثلث ما يخرج منها، وآكل أنا وعيالي الثلث، وأرُدُّ فيه ثلثه[١].

أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن سالم عن أبيه ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «**اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك**»[٢].

وكان علي ﷺ إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من سبَّحتْ له[٣].

وكان عبد الله بن الزبير ﷺ إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول: إن هذا لوعيد لأهل الأرض شديد[٤].

الظَّاهِرَةُ الكَوْنِيَّةُ الخَامِسَةُ: إِنْزَالُ الصَّوَاعِقِ المُحْرِقَةِ

قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾.

ذِكْر الصواعق في الآيات على أنها جند من جنود الله تعالى، يهلك بها من تجبَّر من خلقه؛ حيث يكتمل جوُّ الرهبة، والابتهال إلى الله تعالى في الآية بذكر الصواعق، وهي الصوت الشديد، أو العذاب النازل من البرق، فيحترق بها من تصيبه وتهلكه، والصواعق منذرة بالهلاك، كما قال تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ١٩]

وهذه **الصواعق**: نار تتخلل السحب تنزل من السماء، فيهلك الله بها من يشاء من خلقه، فأين أصوات البشر الضعفاء إلى جوار صوت البرق والرعد والصواعق؟

والكفار يجادلون في صفات الله وفي قدرته على البعث، وينسبون له الشريك والولد،

---

(١) جاء هذا المعنى في «صحيح مسلم» الحديث برقم (٢٩٨٤).

(٢) «المسند» (٢/ ١٠٠) برقم (٥٧٦٣) و«سنن الترمذي» برقم (٣٤٥٠) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٧٦٤) والبخاري في الأدب المفرد برقم (٧٢٢) والحاكم (٤/ ٢٨٦) وضعَّفه الألباني النووي في الأذكار ص (١٦٤) وضعَّفه الألباني في ضعيف «سنن الترمذي» (٦٨٠) و«السلسلة الضعيفة» (١٠٤٢)، وقال محققو المسند: إسناده ضعيف لضعف ابن أرطاة وجهالة حال أبي مطر.

(٣) الطبري (١٣/ ٤٧٧).

(٤) رواه مالك في «الموطأ» (٢/ ٩٩٢) والبخاري في «الأدب المفرد» برقم (٧٢٤) وهو في «صحيح الأدب المفرد» (٥٥٦) وأحمد في «الزهد» ص (٢٠١).

ويشبِّهونه بآلهتهم، وهو سبحانه شديد الحول والقوة والبطش بمن عصاه ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي: شديد الأخذ والعقوبة والكيد لأعدائه.

والمجادلة: هي المفاوضة والمنازعة والمراجعة في القول.

ومنْ جَدل الكفار: ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾ [الحج].

ومن ذلك ما جاء عن أنس وابن عباس ﷺ: أن هذه الآية نزلت في عامر بن الطفيل، وإربد بن ربيعة حين قدما على النبي ﷺ يشترطان لدخولهما في الإسلام شروطًا لم يقبلها النبي ﷺ حيث قال عامر: إن أنا أسلمت، أتجعل لي الأمر من بعدك؟ وأخذ يجادل النبي ﷺ ويلهيه، وإربد يدور حول النبي ﷺ يستل سيفه ليقتله، فلما رآه النبي ﷺ قال: «**اللهم اكفنيهما بما شئت**» فصرفهما الله عنه، فخرج هو وعامر، وتوعَّدا النبي ﷺ أن يجلبا عليه خيل بني عامر، فأهلك الله إربد بصاعقة أصابته، وأهلك عامرًا بغدَّة نبتت في جسمه فمات بها، وهو في بيت امرأة من بني سلول في طريقه إلى قومه، وأخذ يقول وهو يَمَسُّ غدته: أغدَّة كغدَّة البعير، وموت في بيت سَلُولية؟! ثم مات على ظهر فرسه [(١)] وصار هذا مثلًا يُضْرَب.

وقال أنس بن مالك ﷺ: بعث رسول الله ﷺ إلى بعض فراعنة العرب يدعوه إلى الله تعالى، فقال للرسول: وما الله؟ أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من نحاس؟ فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: «**ارجع إليه فادعه إلى الله**» فرجع، فأعاد عليه الكلام، إلى أن رجع إليه ثالثة، فبينما هما يتراجعان الكلام، إذ بعث الله سحابة حيال رأسه، فرعدتْ

---

(١) رواه الطبري في تفسيره عن ابن زيد (١٦/ ٣٧٩) وما بعدها والواحدي في «أسباب النزول» (١٥٦) والسيوطي (١٥٧) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ٣٧٩) و«تفسير ابن عطية» وابن كثير وغيرهما قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٣): في سنده عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.

ووقعتْ منها صاعقة، فذهبتْ بحِقْف رأسه، ونزلت الآية[١].

وعن مجاهد أن هذه الآية نزلت في يهودي جادل في الله، فأصابته صاعقة[٢].

فإذا الله سبحانه هو الذي يسوق الأمطار، وينشيء السحاب، ويدبر الأمر، وهو الذي تخضع له جميع المخلوقات، فهو يستحق العبادة وحده:

مَنْ يَتَوَجَّهُ بِعِبَادَتِهِ لِغَيْرِ اللهِ كَمَنْ يُمْسِكُ المَاءَ بِأَصَابِعِهِ المُنْفَرِجَةِ

١٤-﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

أى وهؤلاء الكفار المجادلون في الله يدعون غير الله، ويتوجهون بعبادتهم إلى غير الله تعالى، ويسألون غيره؛ فعبادتهم باطلة.

أما الذين يدعون دعوة الحق فهم الذين يعبدون الله وحده؛ لأنه المتفرد بالخلق والبعث، والقدرة التامة، وهو الذي ينبغي أن يصرف له: الدعاء والخوف والرجاء، والحب، والرغبة، والرهبة، والإنابة، والاستغاثة، والاستعانة، والاستجارة، وما إلى ذلك.

فطلب الإغاثة، أو طلب النعمة لا يكون إلا من الله تعالى، وإقبال الداعي وهو طالب النجدة أو العطاء لا يكون إلا على الله سبحانه، وهذا معنى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لله وحده دعوة التوحيد (لا إله إلا الله) فلا يُعبد، ولا يُدعى إلا هو ؛ فالله سبحانه هو الذي يسمع، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

وهو الذي رد عامر بن الطفيل، وإربد بن ربيعة لما دعا النبي ﷺ ربه وقال: «اللهم

---

(١) رواه الطبري (١٣/ ١٢٥) والواحدي (١٥٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٢٥٩) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٢) عن أبي يعلى والطبراني في «الأوسط» (٢٦٠٢) والبزار، وهو في «مسند أبي يعلى» برقم (٣٣٤١، ٣٣٤٢، ٣٤٦٨) قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» برقم (٦٩٢)وقال الألباني في «ظلال الجنة»: إسناده صحيح، ورجاله ثقات، رجال الشيخين غير ديلم بن غزوان وهو ثقة، وصحَّحه ابن حجر في «مختصر زوائد البزار» برقم (١٤٧٤) وهو في «كشف الأستار» برقم (٤٢٢١) والبيهقي (٦/ ٢٨٣) في «الدلائل» وألفاظه متقاربة.

(٢) رواه الطبري في تفسير الآية.

اكفنيهما بما شئت» فكانت الدعوة دعوة حق، وهو سبحانه المعبود بحق دون سواه.

والدعاء الخالص والعبادة الخالصة لا تكون إلا لله تعالى، وما سواها باطل، أي: أن الآلهة التي يعبدونها من دون الله لا تجيب دعاء من دعاها، وحالهم معها كحال عطشان يمد يده إلى الماء من بعيد؛ ليصل الماء إلى فمه فلا يصل له شيء.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: أنهم في غاية البعد من الصواب؛ لإشراكهم مع الله غيره؛وذلك لأنهم يدعون جمادًا لا يشعر بدعائهم،ولا يستجيب لهم، كما أن الماء جماد لا يشعر ببسط الكفين، ولا بعطَش من يريد الماء.

وقيل: **المعنى**: إن القابض على الماء ناشرًا أصابعه لا يمسك بيده شيئًا من الماء، كحال من يدعو أصنامًا لا تضر ولا تنفع، ولا تفيده شيئًا.

والمقصود من الآية: نفي استجابة الآلهة لمطالب المشركين نفيًا قاطعًا؛ لأن الماء لا يتحرك، ولا يسمع نداء من يناديه؛ فيتحصل من هذا المثل **ثلاثة أوجه** كما ذكرها القرطبي[1]:

الأول: إن الذي يدعو إلهًا من دون الله، كالظمآن الذي يطلب الماء إلى فيه من بعيد، فهو يشير إليه ، ولكنه لا يأتيه.

الثاني: أنه كالظمآن الذي يرى خياله في الماء، فبسط كفيه إلى الماء يظنه حقيقة، ثم بدا له وهْمه وفساد ظنه.

الثالث: أنه كمن قبض الماء بكفيه بعد بسط يديه إليه، ثم لم يجد في كفه شيئًا منه.

وهكذا حال من يتوجه بعبادته لغير الله تعالى.

وهذه جملة من الآثار في ذلك:

١- أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طالب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هذا مثل المشرك مع الله غيره، فمثله كمثل الرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد، فهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه.

٢- وفي تفسير علي بن أبي طالب رضي الله عنه للآية: مثل الذين يعبدون آلهة غير الله، كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبدًا، فكيف يبلغ فاه؟ فكما أن الذي يبسط يده إلى الماء؛ لينتفع به، ثم لا يصل إليه الماء، فكذلك المشركون في عبادتهم غير الله

(١) «تفسير القرطبي» (٩/ ٣٠١).

لا ينتفعون بهذه العبادة في الدنيا، ولا في الآخرة.

٣- قال أبو السعود: شبَّه حال المشركين في عدم حصولهم عند دعاء آلهتهم على شيء أصلًا، بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل، قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فمه، وليس الماء ببالغ فمه أبدًا؛ لكونه جمادًا لا يشعر بعطشه(١).

٤- قال قتادة: هذا مثل ضربه الله، إن هذا الذي يدعو -من دون الله- هذا الوثن، وهذا الحجر، لا يستجيب له بشيء في الدنيا، ولا يسوق إليه خيرًا، ولا يدفع عنه سوءًا حتى يأتيه الموت، كمثل هذا الذي يبسط ذراعيه إلى الماء ليبلغ فاه، ولا يبلُغ فاه، ولا يصل ذلك إليه حتى يموت عطشًا(٢).

٥- وقال ابن عباس ﷺ: هذا مثل المشرك الذي عبد مع الله غيره، فمثلُه كمثل الرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد وهو يريد أن يتناوله، ولا يقدر عليه(٣).

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، تشبيه بأمر محال، والتعليق على المحال محال، كما قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ الأعراف: ٤٠]

كُلُّ مَنْ فِي الكَوْنِ يَخْضَعُ لِلَّهِ تَعَالَى طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

١٥- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ (١٥)﴾

ثم إن الله ﷻ بيَّن في هذه الآية أن المؤمن يخضع لله تعالى طواعية، والكافر يخضع رغما عنه؛ لأنه يستكبر عن عبادة الله تعالى، ولكن فطرته ولسان حاله يكذِّبانه، وينقاد لعظمة الله تعالى جميع المخلوقات.

وبيان ذلك أن الكفار إذا لم يسجدوا لله سبحانه، وإذا لم ينقادوا إليه ويطيعوه، فإن الكون كله بما فيه ومن فيه، يسجد طوعًا أو كرهًا، لبارئه وخالقه ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) «تفسير أبي السعود» (٣/ ١٠٢).

(٢) الطبري (١٣/ ٤٩٠).

(٣) الطبري (١٣/ ٤٨٩) وابن أبي حاتم كما في التعليق (٤/ ٢٣٠).

﴿وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ أي: أن الملائكة في السموات يسجدون لله، ومسلمي الإنس والجن يسجدون لله، والشمس والقمر، والنجوم والشجر، والجبال والدواب، وغير ذلك من الكائنات والمخلوقات يسجدون لله تعالى.

والمنافق يسجد كرهًا؛ لأنه يتظاهر بالإسلام، ولا يرجو على سجوده ثوابًا.

والكافر يسجد كرهًا بفطرته التي تكذبه، ويخضع وينقاد لله تعالى عند الشدة والاضطرار، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]

وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وظلال جميع هذه الكائنات تسجد لله تعالى؛ لأنها تقع على الأرض في كل مكان، والظل يلازم صاحبه.

١- قال المفسرون: ظِلُّ كل شخص يسجد لله، سواء ظِلُّ المؤمن أم ظل الكافر؛ فظِلُّ الكافر يصلي، وصاحبه لا يصلي.

٢- وقال مجاهد: ظِلُّ المؤمن يسجد لله طوعًا وهو طائع، وظِلُّ الكافر يسجد لله طوعًا وهو كاره[(١)].

٣- وقال الضحاك: إذا طلعت الشمس سجد ظِلُّ كل شيء نحو المغرب، فإذا زالت الشمس سجد ظِلُّ كل شيء نحو المشرق حتى تغيب[(٢)].

٤- وقال الزجاج: الكافر يسجد لغير الله، وظِلُّه يسجد لله.

٥- وقال ابن الأنباري: لا يبعد أن يخلق الله للظلال عقولًا وأفهامًا تسجد بها وتخشع، كما جعل للجبال أفهامًا، حتى سبَّحت مع داود، فالكافر يسجد لله كرهًا إذا اضطر إلى ذلك، وظله يسجد طوعًا لله سبحانه.

٦- كان ربيع بن خثيْم إذا سجد في سجدة سورة الرعد قال: بل طوعًا ياربنا.

وهل المراد بالسجود: سجود حقيقي شرعي بوضع الجبهة على الأرض من الإنسان

---

(١) الطبري (١٣/ ٤٩٢).

(٢) أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٨/ ٤١٦).

ونحوه، ويكون السجود بكيفية يعلمها الله تعالى في الأشجار والجبال والنبات، وغير ذلك من الميل أو الاتجاه إلى القبلة.

أو المراد بالسجود: سجود خضوع وانقياد لله سبحانه، وهذا معنى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي: أن الظل يسجد تبعًا للشخص صباحًا ومساء، فهو يقع على الأرض وقوع الساجد؛ لأنه مرتبط بنظام انعكاس أشعة الشمس على الأرض، ولو كان وجه الأرض لامعًا أو شفافًا كالماء لم يظهر الظل، وهذا من عظمة الصانع سبحانه.

وهذا السجود يكون أول النهار وآخره ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

أَرْبَعَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى بُطْلَانِ عِبَادَةِ الْمُشْرِكِينَ

١٦- ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ[١] أَمْ هَلْ تَسْتَوِى[٢] ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ[٣] أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

ثم يوجِّه الله سبحانه **أربعة أسئلة** تهكمية للكفار:

وهي سؤالهم **أوّلًا**: عن خالق هذا الكون.

وسؤالهم **ثانيًا**: عن اتخاذ الأنداد من دونه.

---

(١) قوله تعالى (هل يستوي الأعمى والبصير) عدها الدمشقي آية، وتركها غيره من العدد.

(٢) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف بياء التذكير في (أم هل تستوي الظلمات)، والباقون بتاء التأنيث وجاز في الفعل التذكير والتأنيث؛ لأن الفاعل غير مؤنث حقيقي.

(٣) قوله تعالى (أم هل تستوي الظلمات والنور) ترك عدها الكوفي، وعدها غيره آية.

وسؤالهم **ثالثا**: عن استواء المؤمن والكافر.

وسؤالهم **رابعًا**: عن وجود شَبَه في الخلْق بين الخالق والشركاء.

وقد صُدِّرت هذه الأسئلة بلفظ ﴿قُلْ﴾ ثم تلاها أربع استفهامات إنكارية، الثاني منها جواب لما قبله، وجاء السؤال الرابع في قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾.

وفي هذه الآية خمسة أوامر للنبي ﷺ، فيها جوابان للمشركين هما: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ والثانية: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والثلاثة الباقية فيها أسئلة موجهة إلى الكفار، وهي: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ﴾ ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾.

السؤال الأول: من رب السموات والأرض؟ من خالق هذا الكون؟ من مالكه؟ من يدبر أمره؟ من يرزقه؟ هل خلق الإنسان نفسه؟ أم أنه خُلق من غير خالق؟

ولمَّا كان الكفار يعترفون بوجود الله تعالى، ويقرون بأن هذا كله من خصائصه تعالى، فإن هذا السؤال جاء مشفوعًا بالإجابة عليه ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ الجميع يقر بأن الله تعالى هو الخالق الرازق مدبر الأمر، يحيي ويميت، يقر بذلك المؤمن والكافر؛ ولذلك فالله سبحانه يلقن رسوله الجواب، أي: فإن أنكر بعضهم ذلك فأجبهم يا محمد: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ وأيضًا فلما كان السؤال واضحًا لا ينكره ولا يدفعه أحد كان السبق إلى الجواب أفصح من انتظار جوابهم؛ إذ لا جواب غيره ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر] الله خالق هذا الكون بكل ما فيه ومن فيه، ومدبر أمره، خالق النبات والجماد والحيوان، والإنسان والجن والملائكة، وكل ما كان وما يكون.

ثم يأتي **السؤال الثاني** لإلزامهم بالحجة، ما داموا معترفين بما جاء في السؤال الأول: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

أي: قل لهم -يا محمد: أجعلتم لله شركاء وعبدتموهم من دونه، وهم لا يملكون نفع أنفسهم، ولا دفع الضر عنها، فكيف يملكون لغيرهم.

وهذا استفهام تقريري توبيخي يسفِّه رأيهم في اتخاذهم من ليس أهلًا للعبودية، وفي

هذا تنبيه لاستعمال الفكر في أن هؤلاء الأولياء عاجزون تمام العجز عن نصر أنفسهم وتولي أمرها، فضلًا عن غيرهم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة]

وقال: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج].

السؤال الثالث: يبرهن على بطلان معتقداتهم عن طريق العلم المشاهد المحسوس

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ﴾ أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير لا يستوي الكافر والمؤمن، وكما لا تستوي الظلمات والنور لا يستوي الكفر والإيمان.

وشُبِّه الكافر بالأعمى؛ لأن الأعمى لا يهتدي إلى الطريق، وكذلك الكافر لا يهتدي إلى الصواب، وحال الكافر كحال الظُّلْمة في انعدام الرؤية، وحال المؤمن كحال النور في العلم والرؤية.

والكفر انطماس في البصيرة وظلمات في القلب، والإيمان نور في القلب وإشراق في النفس، وقد جُمع الظلمات؛ لتعدد طُرقه وأسبابه، وأُفرد النور لأن طريقه واحد، ونتيجته واحدة.

ثم انتقل الاستفهام التهكمي في **السؤال الرابع** إلى إنكار آخر على المشركين عن طريق الالتفات من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة، فقال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ﴾.

والمعنى: هل هؤلاء الأولياء الذين أشركوهم مع الله، خلقوا شيئًا مثل خلق الله، فتشابه عليهم خلق الله بخلق الشركاء، وكانت لهم شبهة فاغتروا بهم، واعتقدوا أنهم مستحقون للعبادة، فاتخذوهم آلهة؟ وهذا تهكم لاذع؛ لأنهم يعلمون أن كل شيء من خلق الله، وأن هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

ومع هذا فهم يتوجهون لهم بالعبادة، وهذا أحط ما تصل إليه العقول البشرية.

وإذا تبيَّن أن هؤلاء الشركاء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، وأنهم خلْق من خلق الله، وليس في استطاعتهم خلْقُ أوهن شيء كالعنكبوت أو الذباب، تعيَّن أن يكون الله

تعالى هو المتفرد بالنفع والضر، والخلق والتدبير؛ وبذا تكون الحجة قد لزمتهم، ووجب عليهم أن يصرفوا عبادتهم لله وحده.

ولذا فإن الله تعالى أمر رسوله أن يعْلمهم بهذه النتيجة الحتمية ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ومُوجده من العدم ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ المتوحد بالربوبية والألوهية ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ الذي لا يُغلب ولا يقهر، وجميع الخلق تحت قضائه وقدره، فالقهر والتوحيد متلازمان وهما من خصائص الله تبارك وتعالى.

قال مَعْقِل بن يسار: انطلقتُ مع أبي بكر الصديق إلى النبي ﷺ فقال: **«يا أبا بكر، لَلشِّرْكُ الخفيُّ فيكم أخفى من دبيب النمل»** فقال أبوبكر: وهل الشرك إلَّا مَن جعل مع الله إلهًا آخر؟ فقال النبي ﷺ: **«والذي نفسي بيده، للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قُلْتَه ذهب عنك قليله وكثيره؟»** قال: قل: **«اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»**[1].

وقد ورد الاستفهام ﴿قُلۡ﴾ في هذه الآية خمس مرات، وفيه إنكار من الله ﷻ على المشركين ما زعموه من أن هذه الأوثان تقرِّبهم من الله زلفى، أو تشفع لهم عند الله.

كما قال تعالى عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]

وقد نفى الله تعالى ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم] وقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه].

وجميع الخلق يحشرون إلى الله تعالى، وكل منهم يأتي بما قدم في دنياه.

وقد أعذَرنا الله سبحانه فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وبيَّن الهدى من الضلال، وأمر ونهى فلا عذر لمشرك في شركه.

---

(١) «صحيح الأدب المفرد» (٥٥١).

مَثَلُ الحَقِّ وَمَثَلُ البَاطِلِ

١٧ -﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ[1] عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ[2] فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

في هذه الآية ضرب الله سبحانه مثلين للحق والباطل، أو للمؤمن الذي ينتفع بما أنزله الله على رسوله، والكافر الذي عطَّل مداركه فلم ينتفع بشيء من الهدى والنور، مع أن أهل الإيمان وأهل الكفر قد استويا في تلقي شيء واحد، ولكن فريقًا من الناس انتفع به وهم أهل الحق، والفريق الآخر لم ينتفع به وهم أهل الباطل، فمثل المؤمن كالماء الصافي والجوهر النقي، ومثل الكافر كرغوة الماء ورغوة الذهب حين يصهر.

المثل الأول: مضروب بالماء وما يعلوه من رغوة

فقد شبَّه إنزال القرآن المشتمل على هداية الناس، وبه تحيا القلوب والأرواح، بإنزال الماء الذي يحيا به الإنسان والحيوان والنبات، وبه تحيا الأبدان والأشباح.

وشبَّه ورود القرآن على أسماع الناس بالسيل يمر على التلال والجبال فلا يستقر فيها، ويمضي إلى الأودية فيأخذ من كل واد بقدر سعَته، وهذا معنى ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ وهذه السيول تحمل في أعلاها رغوة الماء الذي يطفو على سطحه، فيذهب الزَّبَد ويبقى الماء الصافي ينتفع به الناس.

وهكذا القرآن ينتفع به أهل الإيمان بنسب متفاوتة على قدر قوة إيمانهم وضعفه، ولا ينتفع به المنكرون له المعرضون عنه.

ويخالط القرآن قلوب قوم فيأخذون منه ما يثير الشُّبَه والإلحاد، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

واختلاف الناس في قابلية الانتفاع بما نزل من عند الله، كاختلاف الأودية في قبول الماء.

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بياء الغيب في (يوقدون)، والباقون بتاء الخطاب.

(٢) عدّ لفظ (والباطل) الحمصى وحده وتركه الآخرون.

أخرج الطبري، بسند حسن، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﷺ قال: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدْر يقينها وشكِّها؛ فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وكما يُجعل الحُليُّ في النار فيؤخذ خالصُه، ويترك خبيثُه، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك[١].

فالشك يمثله قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ واليقين يمثله قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا المثل لإقامة الحجة على الكفرة في عدم إيمانهم بالله تعالى.

وقد فسَّر هذا المثل قول النبي ﷺ فيما يرويه أبو موسى ﷺ: «**إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا ورعَوْا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فَقُه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به فتعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**»[٢].

قال العلماء: والأرض **ثلاثة أنواع**، وكذلك الناس؛ لأنهم منها خُلِقوا:

النوع الأول: أرض طيبة التربة تنتفع بالماء؛ فتُنبت العُشب لنفع الإنسان والحيوان، وكذلك الصنف الأول من الناس، يبلُغه الهدى فيحيا به قلبه، فيعمل به ويعلِّمه غيره؛ فينفع نفسه وينفع الناس.

النوع الثاني: أرض لا تتشرب الماء في نفسها، ولكنها تمسكه لغيرها، وكذلك الصنف الثاني من الناس لا ينتفع بالهدى في حد ذاته، ولكنه يبلِّغه للناس فينتفعون به.

النوع الثالث: أرض سَبِخَة لا تمسك ماء، ولا تتشربه، ولا تنبت كلأ، وهكذا الصنف الثالث من الناس لا ينتفع بالهدى في حد ذاته ولا يمسكه لغيره، فهو لا يقبل الهدى أبدًا.

---

(١) الطبري (١٣/ ٤٩٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٧٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعري وهذا لفظه.

والمثل الآخر: مضروب بالمعادن النقية وزبَدها

فقد شبه الله سبحانه ما يوقد عليه في النار من المعادن والجواهر حين تُصهَر، بالهدى الذي ينتفع به الناس، كما يُصهر الذهب والفضة طلبًا للزينة، أو النحاس والحديد طلبًا للانتفاع به كمتاع، فإنه يخرج منه زبد يطفو أعلاه، وهو من الخبث الذي لا يصلح لشيء، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ: **«كما ينفي الكير خبث الحديد»**(١).

وهكذا: شبه الله تعالى ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها، بالزبد الذي يعلو الماء ويعلو ما يوقد عليه في النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها، وكذلك الشهوات والشبهات لايزال القلب يكرهها ويجاهدها حتى تذهب، ويبقى القلب صافيا ليس فيه إلا ما ينفع الناس.

فالزَّبَد في المثالين مثل للباطل، والماء والحلي مثل للحق.

والباطل كغثاء الماء وخبث الحديد، يذهب ويزول، ويُرمى، ولا يُنتفع به.

والحق كالماء الصافي، والمعادن النقية، تبقى للانتفاع بها.

قال قتادة: هذه ثلاثة أمثالة ضربها الله في مثل واحد، يقول:

كما اضمحلَّ هذا الزَّبَد فصار جُفاء لا يُنتفع به، ولا تُرجى بركتُه، كذلك يضمحلُّ الباطل عن أهله.

وكما مكث هذا الماء في الأرض، فأثمرتْ ورَبَتْ، وأخرجت نباتها، كذلك يبْقى الحق لأهله.

وكما يبْقى خالص الذهب والفضة حين أُدخل النار، فذهب خَبَثُه، كذلك يبْقى الحق لأهله، وكما اضمحلَّ خَبَثُ الذهب والفضة حين أُدخل في النار، كذلك يضمحلُّ الباطل عن أهله(٢).

وقد ضرب الله سبحانه للمنافقين في أول سورة البقرة مثلًا ناريًا في قوله تعالى:

---

(١) الحديث في البخاري (١٨٧١) ومسلم (١٣٩٢) عن أبي هريرة، وجاءت هذه النهاية للحديث أيضًا في المتابعة بين الحج والعمرة، وفي صحيح الجامع الصغير (٢٨٩٩) عن ابن مسعود، وفي المسند (٣٦٦٩) وابن حبان (٣٦٩٣) والطبراني في الكبير (٣٦١٠) والترمذي (٨١٠) والنسائي في المجتبى ٥/ ١١٥ وفي الكبرى (٣٦١٠).

(٢) الطبري (١٣/ ٥٠١).

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [آية: ١٧].

ومثلًا مائيًّا في قوله سبحانه: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩].

وضرب سبحانه مثلين للكفار في سورة النور:

أحدهما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [النور: ٣٩].

وثانيهما في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ [النور: ٤٠].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**مثلي كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعْن فيها، وجعل يَحْجِزُهُنَّ ويغْلِبْنه فيتقحَّمن فيها، قال: فذلكم مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحُجُزِكُم عن النار: هَلُمَّ عن النار، هَلُمَّ عن النار، فتغلبوني، تقحَّمون فيها**»[1].

فهذا مثل ناري ضربه النبي ﷺ لمن يتبع طرق الباطل ويُلقي بنفسه في النار، والنبي ﷺ يدعوهم إلى الهدى، ويحاول منعهم من الكفر والشرك الذي يأخذ بأيديهم إلى النار، وهم يصرُّون على أعمالهم فتؤدي بهم إلى النار.

ومعنى الآية التي تقرر مثل الحق والباطل: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾:

أودية الأرض: جمع وادٍ، والوادي هو الذي يسيل فيه الماء، ويكون بين جبلين ﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي: فيها واد ضيق، وواد واسع، وواد متوسط، كل واد أخذ من الماء بحسب سعته، وكذلك الناس قد يسمع بعضهم مئة كلمة فيأخذ المئة كاملة ينتفع بها، وبعضهم يأخذ منها خمسين كلمة، وبعضهم يأخذ خمسة.

وهكذا من ينتفع بالهدْي الإلهي يأخذه كله، أو بعضه.

ومعنى: ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ **الزَّبَد**: هو الغثاء، أو الرغوة التي تكون في أعلى القِدْر عند الغليان فوق الماء وهو يتحرك ويضرب، أي: فحمل الماء السائل في الأودية بكثرة وقوة.

---

(١) مسلم برقم (٢٢٨٤) وهذا لفظه وأخرجه البخاري برقم (٦٤٨٢) و«المسند» (٢/ ٣١٢) برقم (٨١١٧).

هذا مثل الباطل ومثل الكُفْر، وهو الذي يذهب جفاءً؛ فالباطل - وإن علا وارتفع أحيانًا - فإنه سرعان ما يذهب ويزول، ويبقى الحق والإيمان ثابتًا راسخًا؛ لأن ما ينفع الناس هو الذي يمكث في الأرض.

وهكذا الصانع الذي يوقِدُ النارَ على الذهب والفضة؛ ابتغاء الحلية والزينة للنساء، وهذا معنى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾.

الحلية: ما يتحلى به الإنسان من الذهب والفضة، ونحوهما، أي: من أجل استخراج الذهب والفضة الخالصتين للزينة، أو استخراج أمتعة الأواني من النحاس والحديد المشار إليها في قوله تعالى: ﴿أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

المتاع: هو ما يتمتع به الإنسان في حياته من الأواني والآلات المتخذة من الحديد والرصاص، وأشباههما؛ حيث يخرج لهذا المتاع رغوة وغثاء، هذا الغثاء سرعان ما يطفو ويذهب، وكذلك الباطل والكُفر، وأما الماء والمتاع، أو الذهب والفضة، فإنه يبقى ويُنتفع به، وهذا مثل الحق والإيمان.

ثم قسَّم سبحانه المثل إلى قسمين، في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ من الماء والحلي ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ لا فائدة فيه ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء الصافي والمعدن النقي ﴿فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وينتفع منه الناس.

وكما ضرب الله لكم - أيها الناس - هذه الأمثلة، يضرب المثل للحق والباطل، والهدى والضلال ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت].

قال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلًا من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.

وبمثل الماء والزَّبَد يضرب الله المثل بالحق والباطل؛ فالباطل كغثاء الماء يتلاشى، أو يُرمى به فلا فائدة فيه، والحق كالماء الصافي يبقى في الأرض للانتفاع به، وهكذا يتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

عَاقِبَةُ أَهْلِ الحَقِّ وَعَاقِبَةُ أَهْلِ الضَّلَالِ

١٨- ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ[1] ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ[2] وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

يبيِّن الله سبحانه في هذه الآية عاقبة أهل الحق، وعاقبة أهل الباطل؛ بعد أن بيّن الحق من الباطل فيقسّم البشر إلى صنفين:

سعداء مستجيبون لأمر ربهم، وهم أهل الحق.

وأشقياء غير مستجيبين لأمر ربهم، وهم أهل الباطل.

فأما السعداء وهم الصنف الأول - نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم- فهم الذين استجابوا لربهم استجابة حسنة؛ فعقلوا عن الله أمره ونهيه، واعتبروا بما يضربه القرآن لهم من الأمثال، وبما وقع للأمم السابقة قبلهم من هلاك ودمار، وامتثلوا أمر ربهم واجتنبوا نهيه، وأطاعوا رسول الله ﷺ، وهؤلاء السعداء لهم المنزلة العالية في الآخرة، والفوز بالجنة يوم لقاء رب العالمين، وهذا معنى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ أي الجنة.

أما الصنف الثاني من البشر، فهم الأشقياء، من المشركين والكفار -نعوذ بالله تعالى منهم ومن أعمالهم- وهم الذين لم يستجيبوا لربهم؛ فلم يؤمنوا به، ولم يطيعوه ولم يمتثلوا أمره، ولم يجتنبوا نهيه، وهؤلاء الأشقياء لو أن لأحدهم يوم القيامة ملء الأرض ذهبًا، ومثله معه، ليفدي نفسه من عذاب الله، يوم لقاء رب العالمين لفعل، ولَمَا قُبل منه ذلك، وهذا معنى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ فقدَّموه فدية لأنفسهم من عذاب الله يوم القيامة ما قُبل منهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة].

---

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (لربهم الحسنى) حالة الوصل، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمهما، والباقون بكسر الهاء وضم الميم.

(٢) عدّ (لهم سوء الحساب) آية، الشامي وحده، وتركها غيره.

وقد جاء الكلام في صورة الاستفهام؛ تنبيهًا على غفلة الضالين و عدم استوائهم مع المهتدين، قال سبحانه عن الذين لم يستجيبوا لربهم مبيِّنًا سوء مصيرهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيحاسبون على أعمالهم وأقوالهم السيئة، في حق الله وحق عباده، والحساب السيئ هو مناقشة الحساب.

جاء في الحديث عن عائشة ﵂: «**من نوقش الحساب عُذِّب**»(١).

والمؤمن يحاسبه الله حسابًا يسيرًا فيقرره بما عمل، ثم يقول الله له: «**سترتُها عليك في الدنيا واليوم أغفرها لك**»(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق].

وقال تعالى: على لسان ذي القرنين: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف].

وغير المؤمن يناقش الحساب على الملأ ورؤوس الأشهاد؛ فيحاسب على النقير والقطمير، وعلى كل صغيرة وكبيرة، والذي مات على الكفر والشرك الأكبر لا يغفر الله له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]

وهؤلاء مصيرهم إلى النار ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ بما فيها الزقوم والزمهرير والضريع والغسلين، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: بئس المسكن والمستقر لهم، وبئس الفراش الذي مهدوه لأنفسهم.

لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْرِفُ الحَقَّ بِمَنْ هُوَ أَعْمَى عَنْهُ

١٩- ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

ثم بيَّن الله سبحانه أن هذين الصنفين لا يستويان عند الله تعالى، لا يستوي الذي عَلِمَ أن ما أُنزل على محمد ﷺ من الوحي، هو حق وصدق لاشك فيه ولا مرية، فعَلِمَ ذلك، وآمن به، وصدَّقه وعمل عملًا صالحًا، واتبع هدْي محمد ﷺ.

(١) من حديث عائشة في البخاري (١٠٣، ٤٩٣٩) وهو في صحيح مسلم (٢٨٧٦) بزيادة (يوم القيامة).
(٢) ينظر حديث ابن عمر في البخاري (٢٤٤١) وفي مسلم (٢٧٦٨).

لا يستوي هذا بالكافر أعمى البصيرة، كما سماه القرآن؛ لأنه لم يُبصر الحق، ولم يتبع الهدى والنور الذي أُنزِل إليه من ربه، وهذا إشارة إلى المثَل المتقدم.

فالمؤمن العالم بما أنزل الله على رسوله، كالمبصر الذي يرى الطريق، وينجو من الهلاك، والكافر الذي لا يعلم بما أنزل الله، كالأعمى، مطموس البصيرة، يقع في المهالك ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ لا يستوي المؤمن والكافر، ولا يستوي من يعلم الحق بمن لا يعلم، فبينهما فرق كما بين السماء والأرض.

قيل: نزلت هذه الآية في حمزة أو عمار، وأبي جهل، فهل يستويان؟

والآية عامة في كل من عَلِمَ وعمل، ومن أعرض وتولى، فمن يؤمن بالقرآن المنزل على محمد ﷺ، ويعتقد أنه حق وصدق، ويعمل بمقتضاه، لا يستوي بالأعمى عن الحق، وهو الكافر الذي لم يصدِّق بالقرآن، ولم يؤمن بالله ربًا، ولا بالإسلام دينًا، ولا بمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، لا يستويان!

وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر]

ثم مدح سبحانه أهل العلم المنتفعون بعلمهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إنما ينتفع بالموعظة، ويعتبر بها أصحاب العقول السليمة، فحقيق بالعبد أن يتفكر ويتذكر أيّ الفريقين أحسن حالًا وخير مآلًا، فيسلك سبيلها كي ينجو يوم لقاء الله.

تِسْعُ صِفَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ وَحُسْنُ عَاقِبَتِهِمْ

٢٠- ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾

ثم وصف الله سبحانه أولي الألباب - وهم أهل السعادة الذين استجابوا لربهم فأطاعوا الله ورسوله - بتسع صفات؛ لنفي المساواة بين المؤمن والكافر، وكلها صفات لموصوف واحد:

الصفة الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾

إنهم يوفون بالعهد، والوفاء بالعهد أن يحقق المرء ما عاهد الله عليه من الوعد الموثق والمؤكد، والعهد المذكور في الآية عهد مطلق، يتناول العهد بين العبد وربه، وبينه وبين الناس، وبينه وبين نفسه، فيجب عليهم الوفاء بجميع هذه العهود.

والتوحيد هو النوع الأول من العهود: فقد عهد الله إلى بني آدم، وهم في أصلاب آبائهم، أن يوحدوه ويطيعوه، ويمتثلوا أمره، ويجتنبوا نهيه، قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس] وهذا عهد لهم أن يعبدوا الله سبحانه، ولا يعبدوا غيره.

وقد استمر البشر على توحيد خالقهم من لدن آدم إلى نوح، ثم طرأ على بعضهم تحريف فاجتالتهم الشياطين، وطرأ عليهم الشرك؛ لتفريطهم في النظر في دلائل التوحيد، فكان الشرك بالله نقضًا للعهد مع الله تعالى.

والنوع الثاني من العهود، هو العهد فيما بين الناس وبعضهم من: العقود، والعهود، والمعاملات، والالتزامات، والأمانات، وغير ذلك فيجب الوفاء بها.

والنوع الثالث من العهود، هو العهد فيما بينهم وبين أنفسهم من الأمور التي يلتزمون بها في أنفسهم، ولا يطلع عليها إلا رب العالمين من كل ما هو جائز شرعًا.

قال قتادة: عليكم بالوفاء بالعهد، ولا تنقضوا الميثاق؛ فإن الله قد نهى عنه، وذكره في بضع وعشرين آية، حجة عليكم، ونصيحة لكم، وإنما تُعظَّم الأمور بما عظَّمها الله عند أهل الفهم، وأهل العقل، وأهل العلم بالله، وذُكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول في خطبته: «**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**»[1].

الصفة الثانية: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾

وهذه الصفة مؤكدة للأولى، ومحذرة من نقض المواثيق والعهود.

وميثاق التوحيد هو العهد الأكبر، وهذا العهد يتجدد مع رسل الله في كل زمان ومكان، وآخرهم محمد ﷺ.

ونقض المواثيق ضد الوفاء بها، أي: لا يخالفون ما وثَّقوه من العهود المؤكدة بينهم وبين الله، وبينهم وبين الناس، وهذا معنى: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ كالمنافقين الذين إذا

(١) أخرج الإمام أحمد الجزء المرفوع منه من طريق قتادة عن أنس مرفوعًا بإسناد حسن ورجال ثقات، في «المسند» (١٢٣٨٣، ١٢٥٦٧، ١٣١٩٩) وأخرج ابن جرير الجزء الأول منه (٥٠٧٨٣)، وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ١١ وعبد بن حمدي (١١٩٨) والطبراني في الأوسط (٢٦٢٧) والبزار في الكشف (١٠٠).

عاهدوا غدروا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا حدَّثوا كذبوا، وإذا خاصموا فجروا، وإذا ائتمنوا خانوا.

والميثاق: هو العهد المؤكد، أي: العهد الموثق بالأيمان، وأكبر عهد هو العهد الأول القديم قدم الفطرة، الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرج ذريتهم من صُلب آبائهم على هيئة الذر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢] هذه الشهادة هي مقتضى الإيمان؛ فتوحيد الله تعالى أمر مركوز في الطباع، وموجود في الفطرة، وهو عهد وميثاق أخذه الله سبحانه على بني آدم وهم في أصلاب آبائهم، ومن صفات أولي الألباب أنهم لم ينقضوا هذا الميثاق، وعملوا بمقتضى التوحيد وتوجيه العبادة لله وحده.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: صِلَةُ الْأَرْحَامِ وَنَحْوِهَا

٢١- ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾

إنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل، وما أمر الله به أن يوصل شيء عام في جميع الأواصر والعلاقات.

وأولها آصرة الإيمان بدعوة الرسل، والقيام بتكاليف الميثاق المأخوذ على بني آدم من: عبادات، وسلوك، وأخلاق.

ثم ما أمر الله به أن يوصل من: صلة الأرحام، ومن صلة الأقارب والجيران والمحتاجين، وغير ذلك.

واتفق المفسرون على أن صلة الرحم تدخل في الآية دخولًا أوّليًّا.

وفي الحديث القدسي: «**قال الله تعالى: أنا الله، وأنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته**»[١].

---

(١) أخرجه الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف برقم (١٩٨٩) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (١٥٥٧) و«السلسلة الصحيحة» (٥٢٠).

وعن جبير بن مطعم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**»[١].

وهذا داخل في معنى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾. فهو أمر عام في كل ما أمر الله بوصله من الإيمان والانقياد لله ورسوله، وصلة الوالدين ببرهم وعدم عقوقهم، وصلة الأقارب والأرحام بالإحسان إليهم قولًا وعملًا، بأداء حقوقهم جميعا كاملة موفورة.

وليس الوصل من باب المكافأة، وليست المعاملة بالمثل، أو رد الجميل، إنما هو الذي يصل ما انقطع من رحمه، فيعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، سِيَّمَا القريب الفقير الذي يبغض قريبه، وإلقاء السلام على مَنْ بينك وبينه خصومة.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطِعتْ رحمه وصلها**»[٢].

وصلة الرحم تُوَسِّع الرزق وتبارك في العمر

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من سره أن يُبسط له في رزقه، أو يُنْسأ له في أثره فليصل رحمه**»[٣].

الصفة الرابعة: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾

إن أولي الألباب يخشون ربهم خشية تحملهم على امتثال أمره واجتناب نهيه، مع الهيبة والإجلال؛ فهم يراقبونه في السر والعلانية، في ما يفعلون وفي ما يتركون، لا يخافون العباد، ولكن يخشون خالقهم الذي يطلع عليهم في ظُلَم الليل، وفي وضح النهار؛ فهو سبحانه رقيب عليم بكل صغيرة وكبيرة، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر].

الصفة الخامسة: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ﴾

إنهم يراقبون ربهم، ويخافون أن يحاسبهم على ذنوبهم ولا يغفر شيئًا منها، وهذا

---

(١) أخرجه الشيخان عن جبير بن مطعم، البخاري برقم (٥٩٨٤) ومسلم برقم (٢٥٥٦) و«صحيح سنن الترمذي» (١٥٥٩) وصحيح «سنن أبي داود» (١٤٨٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٩٩١) و«صحيح سنن الترمذي» (١٥٥٨) وصحيح «سنن أبي داود» (١٤٨٩).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٢٠٦٧، ٥٩٨٦) ومسلم برقم (٢٥٥٧).

معنى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: يخافون من الموقف العظيم، ويخافون من مناقشة الحساب يوم القيامة، وأن تُفضح سرائرهم وتظهر أعمالهم على رؤوس الأشهاد، فهم يحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا، وهم -لرهبتهم- جادون في طاعة الله، محافظون على حدوده، يخافون من القدوم عليه في يوم الحساب إن تجرّؤوا على معاصي الله أو قصّروا في طاعته.

الصِّفَةُ السَّادِسَةُ: الصَّبْرُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ

٢٢-﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ[1] ﴿٢٢﴾﴾

هذه الصفة، وصفتان بعدها، عطفت على ما قبلها بصيغة الماضي؛ لإفادة تحقق هذه الصفات الثلاثة، لأنها أصول لفضائل الأعمال: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: صبروا على أداء الطاعات؛ فالعبادات كلها تحتاج إلى صبر، فإذا لم يكن عند المؤمن صبر فليس من أولى الألباب، إنه لا يصبر على الجلوس في المسجد نصف ساعة مثلاً يصلي النوافل، أو يذكر الله تعالى، أو يجلس في حلقة علم، وإذا لم يكن عند المؤمن صبر فهو لا يطمئن في ركوعه وسجوده، ولا يصبر على قراءة جزء من القرآن مثلًا، ولا يصبر في صيامه، ولا على أداء زكاته، ولا على أداء المناسك في الحج على الوجه المطلوب؛ فالطاعات كلها تحتاج إلى صبر.

وكذا ترك المعاصي والشهوات كلها تحتاج إلى صبر؛ فمن الناس من لا يصبر على ترك نظرة يجدها أمامه في الشارع، ولا يصبر على ترك معصية تتهيأ له فرصتها، ولا يصبر على عدم أخذ مال يجده مهيأ أمامه وهو مُحرَّم عليه، وهكذا سائر المحرمات، والمآثم، والذنوب.

فهناك خمسة أنواع من الصبر

١- صبر على أداء الطاعات. ٢- وصبر على ترك الشهوات والمعاصي.

٣- وصبر على الأذى الذي يلاقيه الإنسان من الناس.

---

(١) أمال (الدار) أبو عمرو والدوري والكسائي، وقللها ورش، وفتحها الباقون.

٤- وصبر على قبول الحق من الناس، وعدم المكابرة والعناد فيه.

٥- وصبر على ما يصيب الإنسان من المحن والابتلاءات.

وكل هذا يحتاج إلى صبر، **والصبر**: منه **المحمود**، ومنه **المذموم**.

والقرآن يشير إلى الصبر ابتغاء وجه الله، وهو النوع المحمود من الصبر؛ فيصبر العبد احتسابًا وابتغاء لوجه الله تعالى يرجو رحمة الله ويخشى عذابه، ويطلب الأجر منه سبحانه، والصبر المحمود لا بد أن يصحبه الرضا، وعدم السخط، وعدم الجزع.

والصبر المذموم هو الذي يكون ضَعْفًا، وقلة حيلة، ليس أمامه طريق آخر؛ فهو يصبر من باب العجز.

ومن الصبر المذموم الذي يصبر عنادًا؛ لئلا يعاب على الجزَع، وليقال: إنه بطل وشجاع؛ إذ ليس هذا الصبر ابتغاء وجه الله.

ومن الصبر المذموم الذي يصبر لئلا يشمت فيه الآخرون في أمر من الأمور، فيظهر في هيئة القويِّ المتماسك، وهو ليس كذلك، وليس كل هذا من باب الصبر المحمود، فشرط الصبر، أن يكون ابتغاء وجه الله، وليس لغرض آخر، وهذا الصبر من خصائص أهل الإيمان.

والصبر ملاك استقامة الأعمال، فإذا تحقق الصبر صدرت عنه الحسنات.

الصفة السابعة: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

أي: حافظوا على أداء الصلاة في مواقيتها مع الجماعة بأركانها، وفرائضها، وسننها، وهيئاتها، ونوافلها، وأدائها على الوجه الأكمل، وداوموا على ذلك؛ فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٢٥] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

الصفة الثامنة: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾

أي: أخرجوا الزكاة، وأخرجوا صدقة التطوع في السر والعلن؛ فالنفقة تشمل الأمرين معًا: الزكاة المفروضة، والصدقة وأعمال البر.

ويُفضَّل في الصدقة أن تكون سرًّا، إلَّا إذا قصد منها التشجيع والتنافس في مشروع

خيري، ونحو ذلك، ويُفضَّل في الزكاة أن تكون جهرًا؛ لإعلان هذه الفريضة، ولئلا يُتَّهم المرء بعدم إخراجها، ويدخل في النفقة: نفقة الأبناء والزوجات والوالدين، ويدخل فيها الكفارات والنذور والنفقة المستحبة وصلة الرحم ونحو ذلك.

الصفة التاسعة والأخيرة: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾

أي: إن أولي الألباب في معاملتهم مع الناس يقابلون السيئة بالإحسان، ويدفعون القبيح بالحسن، والأذى بالصبر الجميل والعفو والاحتمال، ويقابلون كل عمل سيئ بعمل وقول صالح، وإذا كان هذا بالنسبة للمسيء فما بالك بغير المسيء؟

وقد عاد السياق إلى صيغة المضارع؛ ليشير إلى التجدد والاستمرار، والحرص الدائم على دفع السيئة بالحسنة، فقال تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالحسنة السيئة فتمحوها، كقوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] أي: لا يكن أحدكم شحيح النفس يتعامل مع الناس بالمثْل.

ففي الأثر: **«إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»**[(١)].

كما بيَّن النبي ﷺ في معنى قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف] من حديث عقبة بن عامر **«صل من قطعك، واعط من حرمك، واعف عمن ظلمك»**[(٢)].

هذه هي أخلاق الإسلام؛ لأن معاملة الند والمثْل معاملة شحيحة، وغير كريمة تنبئ عن شخصية غير ممتلئة بالإيمان.

والإسلام فيه **درجات** للتعامل مع الناس: **أدناها** كظم الغيظ، ثم العفو عمن أساء، **وأعلاها** الإحسان إلى المسيء.

قال ابن عباس ﷺ: يدفعون بالعمل الصالح العمل السيئ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]

---

(١) من حديث أبي هريرة عند البزار بسند حسن كما قال الحافظ في الفتح (١٠/٤٥٩) وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٦١) وفيه: «ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق».

(٢) السلسلة الصحيحة برقم (٨٩١) وهو بلفظ «أن تعفو عن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك، وتحسن إلى من أساء إليك» ضعيف جدا كما قال الألباني في ضعيف الجامع الصغير عن أنس برقم (٢٥٨٦).

قال: وإذا عملت سيئة فاعمل بجانبها حسنة تمحها، السر بالسر، والعلانية بالعلانية.

وجاء في حديث عقبة بن عامر مرفوعًا: «**مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات، كمثل رجل عليه درع ضيقة قد خنقته، ثم عمل حسنة فانفكّت حلقة، ثم عمل أخرى فانفكت حلقة أخرى حتى يخرج إلى الأرض**»[١].

فالمسلمون إذا حُرِمُوا أعطوا، وإذا ظُلِموا عَفَوْا، وإذا قُطِعوا وصَلوا، وإذا أذنبوا تابوا، وإذا رأوا منكرًا أمروا بتغييره.

وفي الحديث عن أبي ذر ومعاذ بن جبل ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[٢].

فهذه تسع صفات لأولي الألباب يستحقون بمقتضاها حسن العاقبة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، والآية التالية فسَّرت المراد بعقبى الدار:

حُسْنُ الجَزَاءِ لِمَنْ اتَّصَفَ بِالصِّفَاتِ التِّسْعِ

٢٣- ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ[٣]﴾

وبعد أن بيَّن ﷻ أن المتصفين بالصفات التسع السابقة لهم العاقبة الحسنة، فسَّر سبحانه هذه العاقبة بأنها ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ يعني: جنات إقامة، هي مسكنهم في الدار الآخرة، يدخلونها ولا يخرجون منها، بل يستقرون ويخلَّدون فيها في أواسط الجنة، فيقيمون فيها، ولا يزولون عنها، ولا يحولون، لأنهم لا يروْن فوقها غاية.

في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «... **فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، فوقه عرش الرحمن،**

---

(١) أخرجه البغوي بسنده عن عقبة بن عامر عن رسول الله في شرح السنة (٤١٤٩) (وهو في «المسند» برقم (١٧٣٠٧)، بإسناد حسن لأنه من رواية عبد الله بن المبارك وسماعه من ابن لَهيعة قبل احتراق كتبه وباقي رجال الإسناد ثقات، (محققوه) وأخرجه ابن المبارك في الزهد (٠١٧٠) والطبراني في الكبير ١٧ (٧٨٣).

(٢) رواه الترمذي برقم (١٩٨٧) وقال: حديث حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣١٦٠).

(٣) (من كل باب) عدّها البصري والشامي والكوفي، وتركها المدنيان والمكي.

ومنه تفجر أنهار الجنة»[1].

ومن تمام نعمة الله عليهم أن يُلحق بهم الصالحين من: أبنائهم، وآبائهم، وأزواجهم من الذكور والإناث، ممن هو أهل لدخول الجنة، بشرط أن يكونوا صالحين لدخولها؛ لأن النسب لا يفيد شيئًا، فهذا ابن نوح لم يُلْحَق بأبيه، وهذه زوجة نوح لم تُلحق بزوجها، ولذلك فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ فمن كانت مرتبته في الجنة دون مراتبهم لحق بهم، ومن كانت مرتبته فوق مراتبهم لحقوا هم به؛ إكرامًا لهم في الحالين، بأن يجعل سبحانه أصولهم، وفروعهم، وأزواجهم المتأهلين لدخول الجنة معهم، وهذا عكس ما يحدُث مع الكفار، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات] فإن مشاهدة عذاب الأقارب عذاب مضاعف.

وفي هذا بشرى لمن كان له سلف صالح، أو خلَف صالح، أو زوج صالح من أصوله وفروعه؛ فتُرفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، والقدْر المشترك هو الإيمان بأن يكون العبد مؤمنًا، ولكنه في درجات أدنى من الآخر، فيلحق بهذه الدرجة الأعلى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ولا يترتب على ذلك نقص من حسنات الطرف الآخر، أو درجاته ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

والملائكة يدخلون على المؤمنين من أبواب الجنة يهنئونهم بالسلامة، ويقولون لهم:

٢٤-﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

وحين يدخلون الجنة تأتي الملائكة فتُرحِّب بهم، وتسلم عليهم، وتهنئهم ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ وهذا إشارة إلى كثرة أبواب الجنة، وكثرة قدوم الملائكة عليهم، وتقول لهم: لقد سَلِمتم من كل سوء، وسلمتم من المحن وسلمتم من الآفات بصبركم في الدنيا؛ فقد عملتم صالحًا، وأطعتم الله في الدنيا، ونلتم الجزاء الأوفى في هذا اليوم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ على الأذى، وعلى مشاق التكاليف، وعلى طاعة الله، وعن

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٢٣) وأوله (من آمن بالله ورسوله) والجهاد (٢٧٩٠) ورواه أحمد (١/ ٣٣٩) برقم (٨٤١٩) والترمذي في صفة الجنة (٢٥٣٠).

محارم الله، فلئن تعبتم فيما مضى فقد استرحتم اليوم، وهذه بشرى لهم بدوام السعادة.

ومن أوائل من يدخلون الجنة: الفقراء في الدنيا، والضعفاء الذين صبروا على الحاجة، والذين عملوا في صمت من أهل الثغور والمكاره:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«هل تدرون مَن أول مَنْ يدخل الجنة مِنْ خلْق الله»**؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون، الذين يُسدُّ بهم الثغور، وتُتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم، وحاجتُه في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيُّوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سماواتك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنُسلِّم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا، وتُسدُّ بهم الثغور، وتُتقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاء، قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾»**[1].

وجاء في رواية: **«وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة، فتأتي بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب»**[2].

وهذه الجنة التي هي دار المتقين والفقراء من أولي الألباب هي العاقبة الحسنة لهم ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾. فحريٌّ بالمؤمن أن يجاهد نفسه لعلها تأخذ بنصيب من صفات أولى الألباب، فتحظى بسعادة الداريْن.

---

(١) أخرجه أحمد بسنده في «المسند» (٢/ ١٦٨) برقم (٦٥٧٠) قال محققوه: إسناده جيد، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٥٩): رجاله ثقات، وصحَّحه أحمد شاكر ومحققو «المسند» وأخرجه ابن حبان في «الإحسان» (١٦/ ٤٣٨) برقم (٧٤٢١) والبزار (٢٤٥٧) والبيهقي في «الشعب» (٤٢٢٩) والحاكم (٢/ ٧١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٤٧).

(٢) الطبراني في «الكبير» برقم (١٥٢) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٧١) بنحوه وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وابن حيان (٧٣٧٨) والبيهقي في «الشعب» (١٠٣٨٠).

ثَلاثُ صِفَاتٍ لِأَهْلِ الشَّقَاءِ وَبَيَانُ سُوءِ عَاقِبَتِهِمْ

٢٥-﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

ثم يذكر القرآن الكريم أوصاف أهل الشقاء، ويحدد هذه الأوصاف بثلاثة أمور هي ضد أوصاف أهل السعادة:

الوصف الأول: أنهم ينقضون العهد

أي إنهم لا يوفون بعهد الله تعالى بإفراده بالعبادة بعد أخذ الميثاق عليهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ يعني: أنهم كفروا بالله، ولم يوفُّوا بعهده، ولم يقروا له بالوحدانية ولم يتوجوا له بالعبادة، فلم يعملوا بمقتضى الميثاق المأخوذ عليهم وهم في أصلاب آبائهم، وهو أن يؤمنوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، بل نقضوا عهدهم مع الله فكفروا به ولم يوحدوه.

ولم يوفوا بعهودهم أيضا مع الناس، فنافقوا، وأخلّوا بعقودهم وعهودهم في معاملاتهم مع خلق الله تعالى.

ذكر أبو العالية أن المنافقين لهم **ست خصال**، يظهرونها إذا كان لهم الغلبة على الناس، وهي:

١- إذا حدَّثوا كذبوا. ٢- وإذا وعدوا أخلفوا.

٣- وإذا ائتُمنوا خانوا. ٤- ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه.

٥- وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل. ٦- وأفسدوا في الأرض.

وإذا كانوا مغلوبين أظهروا ثلاث خصال من النفاق، وهي:

١- إذا حدَّثوا كذبوا. ٢- وإذا وعدوا أخلفوا. ٣- وإذا ائتُمنوا خانوا[1].

وقد جعل الله تعالى نقض العهد والميثاق من صفات الفاسقين، فقال تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٥٣).

يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقد وصفتْهم هذه الآية بالخسران في الدنيا والآخرة، ووصفتهم الآية التي معنا بسوء العاقبة وحلول اللعنة عليهم.

وجاء عن ابن عباس ﷺ أن أكبر الكبائر: الإشراك بالله، ونقض العهد، وقطيعة الرحم.

الوصف الثاني: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾

أي إنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من: الإيمان بالله، والإيمان برسالات الرسل جميعًا، كل في زمنه، ويقطعون ما أمر الله بوصله من صلة الأرحام، فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم، ولم يصلوا ما بينهم وبين الناس.

والرسالة الأخيرة تَنسخ ما قبلها، فالذي آمن بموسى في وقته مطلوب منه حين يأتي عيسى أن يؤمن به، ويترك رسالة موسى؛ لأن رسالته قد انتهى وقتها، وأدت مهمتها في وقت معين، فالذي يظل مؤمنًا بموسى في زمن عيسى يكون قد قطع ما أمر الله به أن يوصل؛ لأن رسالات الأنبياء متصلة ببعضها، كل منها يكمل الآخر، حتى كان خاتم الرسل والأنبياء محمد ﷺ، وخاتم الكتب القرآن، ولا صلاحية لأي كتاب، ولا لأي رسالة قبله؛ فالإيمان به ﷺ أمر لا بد منه لكل إنسان على وجه الأرض منذ بعثته ﷺ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

ومن صفات أهل الشقاء أنهم يقطعون أرحامهم فلا يصلونها، ويقطعون أقاربهم وجيرانهم فلا يصلونهم بالمعاونة والمودة والمحبة، ويقطعون كل ما أمر الله به أن يوصل.

قال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبد العزيز: لا تؤاخيَنَّ قاطع الرحم؛ فإني سمعت الله لعنهم في سورتين من القرآن: في سورة الرعد، وسورة محمد ﷺ[1].

الوصف الثالث: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

أي إنهم يفسدون في الأرض: بالشرك، والمعاصي، والكفر، والذنوب والآثام، وظلم

---

(١) أخرجه أبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٨/ ٤٣٣).

العباد، وهتك الأعراض، ومحاربة الدعوة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذه الصفات الثلاث القبيحة ﴿لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ فهم مطرودون ومُبْعدون من رحمة الله، ولهم العاقبة السيئة بالخلود في نار جهنم، فهي دارهم كما أن عقبى الدار دار المؤمنين ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: ولهم ما يسوؤهم من العذاب الشديد في الدار الآخرة.

حِكْمَةُ اللهِ تَعَالَى فِي بَسْطِ الرِّزْقِ لِلكَافِرِ

٢٦-﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا(١) وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا(٢) فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾

لما بيَّن الله سبحانه أن الكافر له سوء الدار، وأنه مغضوب عليه، ينشأ على ذلك سؤال؛ حيث يقول المؤمنون: إن بسط الرزق للكافر في الدنيا من شأنه أن يزيده كفرًا وطغيانًا، كما قال موسى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾ [يونس: ٨٨].

أما الكافرون فيسخرون من الوعيد، ويحتجون بأنهم أوفر نعمة من المؤمنين، و يقولون: هذا دليل رضى الله عنهم في الدنيا والآخرة، ولو لم يكونوا على صواب لما كانوا في هذا الجاه والمتاع(٣).

وتأتي هذه الآية للرد على هذا الاعتراض من الفريقين؛ فبيَّن سبحانه أن الفقر والغنى بيد الله، وأن العطاء لا يعني الرضى عن العبد، والمنع والحرمان لا يعني السخط على العبد؛ فقد يبسط الله الرزق لمن كان كافرًا، ويُقتِّره على من كان مؤمنًا، ولا يدل البسط في الرزق على الكرامة، ولا التضييق فيه على الإهانة، وقد بيَّن سبحانه أن الكافر هو الذي يرى هذا المفهوم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ﴾ [الفجر: ١٥- ١٧]

وهو يظن أن سعيد الدنيا سعيد الآخرة فيقول: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦] ويقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصلت: ٥٠].

---

(١) ، (٢) أمال لفظ (الدنيا) حيث وقع في القرآن حمزة والكسائي وخلف، وقللها أبو عمرو، وورش بخلفه.

(٣) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٣/ ١٣٤) بتصرف .

وعلى هذا فقد يقول قائل: نحن نرى أن الكافر أكثر حظًا، وأوسع رزقًا، وأكثر متاعًا، فكيف يكون هذا؟ يقول سبحانه في الإجابة على ذلك: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ أي: يوسعه على من يشاء، ويضيِّقه على من يشاء، وهو أعلم بما يصلح العباد، وله في ذلك حِكَم.

والله سبحانه يفعل هذا بالنسبة للكافر؛ لأنه يأخذ متاعه كاملًا في الدنيا؛ فالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، ولا حظَّ له في الآخرة، فإن كان يعمل بعض أعمال الخير والبر، فإنه يثاب عليها في الدنيا؛ لأن الكفر لا يفيد معه عمل صالح يثاب عليه في الآخرة.

ثم بيَّن سبحانه أن الكفار مسرورون بالتوسعة عليهم في الدنيا، وهم لا يعلمون أنه متاع زائل، فقال تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ حيث بيَّن سبحانه أن نعيم الدنيا قليل جدًّا بالنسبة لنعيم الآخرة، فقال: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ أي: أن من صفات الكافر أنه يفرح بمتاع الدنيا فَرَح بطر وأشر، فيتعالى على الناس ويتكبر، ولا يدرى أنه متاع دنيوي، وظل زائل، وهذا يشمل كل من لم يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر.

فقد يوسِّع الله الرزق على الكافر استدراجًا، وقد يضيق على المؤمن ابتلاء، ورفعًا للدرجات، وقلة المال في الدنيا يتبعه قلة الحساب يوم القيامة عن المصدر والمورْد، قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون].

وقد فضل النبي ﷺ ما عند الله تعالى من الجزاء الأخروي على أن تكون له جبال مكة ذهبًا، وهذه هي آيات القرآن ناطقة بهذا، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]

وقال سبحانه: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى].

وفي الحديث عن المستورِد بن مخرمة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع؟**»[١] وأشار إلى السبابة.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٥٨) من حديث المستورد أخي بني فهر ورواه أحمد في «المسند» (٤/٢٢٨) (١٨٠٠٨، ١٨٠٢٠) والترمذي (٢٣٢٣) وابن ماجه (٤١٠٨) والنسائي في الكبرى كما في التحفة (٨/ ٢٧٦) وابن ماجه (٤١٠٨) والحميدي (٨٥٥).

وقد مر النبي ﷺ بجدْي أَسَكَّ، أي: صغير الأذن، لا يرغب الناس فيه، ثم قال: **«واللهِ للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه»**(١).

وقد كان النبي ﷺ مثلًا يُحتذى في عدم التعلق بالدنيا:

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء، فقال ﷺ: **«ما لي وللدنيا؟! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل بشجرة، ثم راح وتركها»**(٢).

قال ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ﴾ كان الرجل يخرج في الزمان الأول في إبله أو غنمه، فيقول لأهله: متّعوني، فيُمتّعوه فلقة الخبز أو التمر، فهذا مثل ضربه الله للدنيا(٣).

ضَلَالُ المُعَانِدِينَ وَهِدَايَةُ المُنِيبِينَ

٢٧-﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾

ولما كانت الآيات السابقة تتحدث عن السعداء والأشقياء فقد بيّنت هذه الآية في نصفها الثاني، أسباب الشقاء، وأسباب السعادة، بعد إعادة صدْر الآية لأهميته.

فقد أبهم، سبحانه، أسبابًا خفية يعلمها الله تعالى، طواها تحت المشيئة وعلّق عليها ضلال أهل الشقاء.

وبيّن سبحانه أن سبب هداية أهل السعادة هو الإنابة والرجوع إلى الله تعالى.

وتتمثل هذه الإنابة في الاعتراف بالحق الذي جاء من عند الله تعالى على لسان محمد ﷺ عندما ظهرت دلائله، وفي هذا تعريض بأن سبب ضلال أهل الشقاء هو عدم الإنابة إلى الله تعالى، وعدم الإيمان بمحمد ﷺ مع وضوح الدلائل على صحة نبوته.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٩٥٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي وصحّحه (٢٣٧٧) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٣٦) وأخرجه الحاكم (٤/ ٣١٠)، وصحيح ابن ماجه (٤١٠٩).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٨/ ٤٣٣).

فسبب الشقاء هو النفور من الحق، وعدم الرجوع إليه، والإعراض والتكبر عن دعوة النبي ﷺ، ولو أنهم أذعنوا، وأنابوا لهداهم الله تعالى، ولكنهم نفروا وابتعدوا عن الحق.

أما نصف الآية الأول فهو يتحدث عن تعنت المكذبين في طلب الآيات الخارقة للعادة من النبي ﷺ للدلالة على صدقه.

وقد كانت آيات صدق النبي ﷺ واضحة وكافية لإيمانهم، لولا أن عقولهم لم تدركها، فقد كان مطلبهم هو الآيات الحسية، ولم يدركوا أن هذه الآيات كانت لأمم أخرى رأوْها ولم يؤمنوا بها، وهكذا فالمكذبون لم يكتفوا بالقرآن معجزة لرسول الله ﷺ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]

ولم تكفهم الآيات الأخرى التي أيد الله بها رسوله؛ كانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وغير ذلك من آيات ظهرت للصحابة ورأوْها بأعينهم.

وقالوا: لولا أنزل على محمد آية غير القرآن، وغير انشقاق القمر؛ كالعصا واليد معجزة موسى، أو كإحياء الموتى معجزة عيسى، أو كالناقة، معجزة صالح، والله سبحانه يعلم أنه لو أنزل عليه هذه الآيات ما نفعتْهم وما آمنوا؛ لأن الله تعالى قد علم منهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال سبحانه: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهبًا، وأن يجري لهم ينبوعًا، وأن يزيل جبال مكة، ويجعلها بساتين ومروجًا كما طلبوا: **«فإن كفروا فإني أعذبهم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئتَ فَتَحْتَ عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: بل تَفْتَحُ لهم باب التوبة والرحمة»**[1].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» عن ابن عباس (١/ ٢٤٢).

ولما قال المكذبون ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهم يزعمون أنها لو جاءت لآمنوا، فأجابهم الله تعالى بقوله ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

فالهداية والضلال ليست بأيديهم حتى يجعلوا ذلك متوقفا على الآيات .

والله تعالى لايضل إلا من من اختار الضلال لنفسه، قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

ولا يهدي إلا من اختار الهدى لنفسه، قال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]

فمن أناب إلى الله ورجع إليه فإن الله يهديه، قال تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾.

ومعنى الآية: ويقول الكفار على سبيل العناد والجحود: هلَّا أُنزل على محمد معجزة محسوسة؛ كإحياء الموتى، وتحويل جبل الصفا ذهبًا، قل لهم -يا محمد- متعجبًا من شدة ضلالهم: إن الله يضل المعاندين الجاحدين عن الهداية، فلا تنفعهم المعجزات ولا غيرها، والله تعالى يهدي إلى دينه من رجع إليه، وطلب رضوانه بالتوبة والإنابة.

عِلَاجُ الْقَلَقِ وَالاكْتِئَابِ

٢٨-﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

ذِكْرُ الله في هذه الآية قد يُراد به تلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وقد يراد به ما اشتمل عليه القرآن من المعاني والأحكام والأدلة والبراهين، والعلم اليقيني الذي يزيل التعارض والشكوك، ويراد به الهداية والإنابة وطُرق الرشاد.

وهكذا فسَّر سبحانه وتعالى الذين أنابوا إلى ربهم بأنهم المؤمنون، الذين تطمئن قلوبهم بذكر الله، وعلى ضوء الآية السابقة، فلو شاء الله لجعل الناس كلهم مؤمنين جبرًا وقسرًا، ولكنه سبحانه ترك لنا الحرية والخيار، وجعل الجنة لمن أطاعه، والنار لمن زاغ قلبه عن الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وقال:

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]

فالهداية تكون لمن أناب ورجع إلى ربه، والذين أنابوا إلى ربهم هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ هم الذين يخشون ربهم إذا استمعوا إلى القرآن أو قرؤوه، وتخشع قلوبهم إذا ذكر الله في الصلاة وخارجها، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وذِكْرُ الله باللسان ينبه القلب إلى مراقبة الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فراحة النفوس، والسكينة والطمأنينة تكون بذكر الله تعالى، وعلاج القلق والاكتئاب والاضطراب النفسي، وتشتيت الذهن يكمن في ذكر الله تعالى والركون إليه، فإذا علمتم سبب راحة بال المسلم فماذا يمنعكم أن تكونوا مثله، وهذا السبب في متناول أيديكم؟!

ومن استغرق في ذكر الله تعالى: بتلاوة القرآن، وألوان التسبيح والتحميد والتهليل، أغناه ذلك عن مراجعة العيادات النفسية، وتناول العقاقير الطبية.

أما الكافر فهو يشمئز من ذكر الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥] ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات] ألَا بطاعة الله وذكره تطمئن قلوب المؤمنين، والذين لم تطمئن قلوبهم بذكر الله، لا يعدون القرآن آية من آيات الله ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. قال تعالى:

٢٩- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

وقد أعد الله للمؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، المنْزلةِ العالية، والدرجة الرفيعة يوم لقاء رب العالمين.

قيل: إن طوبى: اسم للجنة، وقيل: إنها شجرة في الجنة.

وجاء في الصحيحين عن سهل بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها**»[١].

ذكر ذلك البخاري وغيره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ في سورة الواقعة.

وعقولنا مخلوقة محدودة لا تحيط بهذا الكون العظيم، وليس لنا أن نحكِّمها في الغيبيات.

والمعنى: إن المؤمنين الذين تزودوا بالعمل الصالح لهم عند ربهم في الآخرة عيش طيب، وخير وفير، وثواب جزيل، وفرح وسعادة، وقرة عين، ومرجع حسن يرجعون به إلى ربهم وخالقهم، ولهم في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

جاء في الصحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد ﷺ أنه يقال لآخر أهل الجنة دخولًا: «**تمنَّ، فيتمنى حتى إذا انتهت به الأماني، يقول الله تعالى له: تمنَّ كذا وتمنَّ كذا، يذكِّره، ثم يقول: ذلك لك وعشرة أمثاله**»[٢].

وعن أبي ذر ﷺ، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، إلَّا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر**»[٣].

مُحَمَّدٌ خَاتَمُ الرُّسُلِ وَمُعْجِزَتُهُ صَالِحَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ

٣٠-﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ[٤] ۝٣٠﴾

ثم يأتي الرد على طلب المشركين من الرسول ﷺ أن ينزل عليهم آية محسوسة بأن رسالة محمد ﷺ ليست بدعًا من الرسل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، فلا يحق لهم أن يستنكروا ما جئت به من آيات بينات أوحاها الله إليك،

---

(١) البخاري برقم (٦٥٥٢) ومسلم برقم (٢٨٢٧) من حديث سهل بن سعد.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٧٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٢) عن أبي هريرة وأبي سعيد.

(٣) من حديث طويل أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٧).

(٤) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا من (متاب)، والباقون بحذفها في الحالين، ومثلها (عقاب) في الآية: (٣٢).

لطهارة القلوب وتزكية النفوس.

وقد كانت معجزات الرسل السابقين معجزات حسية مناسبة لزمن الرسالة، **أما معجزة** هذا النبي فهي القرآن ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحى الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»**[1].

والآيات التي تشير إلى تكذيب الرسل السابقين من أممهم كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النحل: ٦٣].

فمحمد ﷺ قد سبقه رسل كثيرون، وسبقت أمَّته أممٌ كثيرة، أرسل الله فيهم رسلًا، وأنزل فيهم كتبًا، وأيد الرسل بمعجزات دالة على صدق رسالتهم.

وهذا معنى ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي: كما كان قبلك -يا محمد- أمم كثيرة، أرسل الله إليهم رسلًا كثيرين، أرسلناك في هذه الأمة، لتتلو على مسامعهم هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وحال قومك الجحود بوحدانية الله تعالى، فهم مع ذلك يكفرون بالرحمن، ولم يقابلوا إحسانه إليهم بهذه الرسالة، بالقبول والشكر، وإنما قابلوها بالإنكار والرفض، ولم يعتبروا بما حدث للأمم المكذبة لرسل الله.

وعند ما قيل لمشركي مكة: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟ وزادهم نفورًا.

ولما سمع أبو جهل رسول الله ﷺ يدعو في الكعبة عند الحجر يقول: **«يا الله، يا رحمن»** رجع إلى المشركين يقول لهم: إن محمدًا يدعو إلهين: يدعو الله، ويدعو إلهًا آخر يُسمَّى الرحمن، ولا نعرف إلا رحمن اليمامة، يقصدون مسيلمة الكذاب.

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٤٩٨١) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٢) من حديث أبي هريرة.

ولما أملى النبي ﷺ في صلح الحديبية على عليٍّ بن أبي طالب ﷺ أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم؛ قالوا: لا نعرف إلا رحمن اليمامة اكتب كما نكتب، باسمك اللهم[١].

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ﴾ لهم -يا محمد: الرحمن الذي أنكرتم معرفته ﴿هُوَ رَبِّي﴾ الذي رباني بنعمه، وهو إلهي الذي أعبده، وأتوكل عليه ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وقد جمعت هذه الفقرة من الآية بين توحيد الربوبية في ﴿رَبِّي﴾ وتوحيد الٰهية في ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ عليه أعتمد، وبه أثق، ولا أعبد إلهًا غيره، وإليه أتوب وأرجع، وفي هذا إبطال لكفرهم.

قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن**»[٢].

فلتحذر هذه الأمة من حلول النقم بها إذا كذَّبت رسولها، كما حدث لمن قبلهم، والمراد بالأمة في الآية: أمة الدعوة، لا أمة الإجابة.

الْقُرْآنُ هُوَ الْمُعْجَزَةُ الْكُبْرَى

٣١-﴿وَلَوْ أَنَّ قُرَانًا[٣] سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَايْئَسِ[٤] الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

ولا يزال الرد موصولًا على الكافرين الذين طلبوا من النبي ﷺ معجزات حسية، للرد عليهم بأن هذا القرآن هو المعجزة الكبرى الباقية في أيدي البشر إلى قيام الساعة، أما المعجزات الكونية فلو رآها جيل لم يرها جيل آخر.

---

(١) قصة صلح الحديبية في «صحيح البخاري» برقم (٢٧٣٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢١٣٢).

(٣) نقل حركة الهمزة إلى الراء من كلمة (قرآنا) ابن كثير هكذا (قُرَانًا).

(٤) قرأ البزي بخلف عنه بجعل الهمزة في موضع الياء من (ييأس) وإبدالها ألفًا فيقرأها هكذا (يايس).

سبب النزول:

ذكر الطبري، والواحدي، وابن مردويه، وغيرهم عن ابن عباس ﷺ أن كفار قريش: أبا جهل، وابن أبي أمية، وغيرهما، جلسوا خلْف الكعبة، وأرسلوا للنبي ﷺ يقولون له: لو وسَّعت لنا جبال مكة فسيَّرتها حتى تتسع أرضنا، فنحرُثها فإنها ضيقة، أو قرّبت إلينا الشام فإنا نتَّجر إليها، أو أَخرِج لنا قُصَيًّا نكلِّمه، فأنزل الله الآية[1].

وفي مسند أبي يعلى عن الزبير بن العوام ﷺ أن قريشًا قالوا للنبي ﷺ: تزعم أنك نبي، وأن سليمان سُخِّر له الريح، وموسى سُخِّر له البحر، وعيسى كان يُحيي الموتى، فادع الله أن يُسيِّر عنا هذه الجبال، ويفجر لنا الأرض أنهارًا، فنتخذها محارث ومزارع، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا...[2].

فكان الرد عليهم بهذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ يُقرأ فتزول به الجبال عن أماكنها، أو تشقق به الأرض أنهارًا و جنانًا وبساتين، أو يحيا به الموتى وتكلمهم كما طلبوا؟

والجواب: لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، ولو حدث هذا لما آمنوا، ولم يثبت ذلك لغيره من الكتب، وتخصيص هذه الثلاثة بالإشارة إلى سبب النزول سالف الذكر.

فلو ثبت أن كتابًا من الكتب المنزَّلة سُيِّرت به الجبال؛ بسبب قراءته وتلاوته، وترتب على نزوله زحزحة الجبال وإزالتها عن أماكنها، أو قُطِّعت به مسافات الأرض، فنُقِلت من مكان إلى مكان، وفُجِّرت أنهارًا وعيونًا، أو كُلِّم به الموتى فأحياهم، لو ثبت هذا لكتاب من الكتب لكان هذا القرآن أولى بذلك، فهو أفضل الكتب وأكملها ولو حدث كل هذا ما آمنتم، وما أثمر ذلك في قلوبكم.

---

(١) جاء هذا المعنى بسند صحيح عن مجاهد في «تفسير الطبري» (١٣/ ٥٣١) والطبراني (١٢٦١٧) والضياء المقدسي في «المختارة» (٩/ ٥٥٦).

(٢) «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٥) وأبو يعلى (٦٧٩) قال محققه: إسناده ضعيف وأخرجه أيضًا ابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٢/ ١٩٠).

ولكن الكتب التي نزلت من عند الله لم تشتمل على أكثر من هداية البشر، وليست منزَّلة لإيجاد العجائب، والقرآن كذلك نزل لهداية الخلق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومهمته الإنذار والتبشير.

فالله، سبحانه، يعلم أن طلب الآيات الخارقة من رسول الله ﷺ لا تفيدهم شيئًا، ولا تجعلهم يؤمنون، ولو كان يترتب على مجيئها إيمانهم لفعل سبحانه، ولو أجابهم الله إليها، ولم يؤمنوا، لفعل بهم كما فعل بالأمم السابقة من الإهلاك، والإبادة والعذاب.

ثم قال سبحانه: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ﴾ أي: ليس ما طلبتم من تسيير الجبال وتكليم الموتى، شأن الكتب المنزلة، بل الله هو الذي يخلق العجائب، وهو الذي يأتي بالخوارق، وليس هذا مما يستطيعه النبي ﷺ.

والجواب المذكور في قوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ﴾ معناه: إن شاء الله فعل، وإن شاء لم يفعل، وإن شاء أتى بالمعجزات وغيرها؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

ثم يأَّس الله المؤمنين من إيمان الكافرين، فأشار إلى أنه لو شاء سبحانه لجعل الناس جميعًا مهتدين كالملائكة، ولكن حكمته سبحانه اقتضت أن يخلق خلقًا آخر، غير الملائكة، فيهم استعداد للخير والشر، وكلٌّ يختار طريقه بنفسه، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ أي: أفلم يقنط المؤمنون من إيمان الكفار، ويقطعوا الأمل من ذلك؟ فإنهم قد اختاروا الكفر طريقًا لهم، ولا فائدة من إنذارهم ووعظهم.

أفلم يعلم المؤمنون، ويتيقنوا أن الكفار لا فائدة فيهم، وأنهم لن يؤمنوا؟

ثم حذَّر سبحانه الكافرين من التمادي في كفرهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله، وكفروا برسول الله، تنزل بهم مصيبة في عقْر دارهم، أو تحل قريبًا منهم ومن غيرهم إلى قيام الساعة، وهذا وعيد الله تعالى لأهل الكفر والضلال بنزول العذاب.

وفي هذا تهديد ووعيد لهم لعدم إيمانهم، وفي مقدمتهم من كانوا في عهد النبي ﷺ، ثم مَنْ هم في عصرنا، وفي كل عصر من العصور السابقة واللاحقة؛ وهذا التهديد لئلا تصيبهم قارعة في الدنيا بسبب ذنوبهم وشركهم وكفرهم؛ كالقتل، والأسر، أو تحيط بهم في عُقْر دارهم داهية، أو طامة، أو نكبة فتنزل على مقربة منهم.

وتسمى المصيبة قارعة؛ لأنها تقرع أسماعهم وتُقْلِق بالهم، وهذه الدواهي والمصائب، أو هذه النكبات حاصلة ومتجددة لأعداء الله تعالى في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

فاليهود مثلًا يعيشون اليوم بين المسلمين في خوف مستمر، يعيشون في قلق ورعب، وعدم أمن واستقرار، فهذه قارعة حالَّة بهم من الله سبحانه، وليس هناك ما هو أعظم من عدم الأمن وعدم الاستقرار، فهم في توقع للانفجارات، وتوجُّس من الملاحقات، وتربُّص مستمر، وخوف دائم من الحروب، ولا تزال هذه الحالة قائمة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ بعذابهم أي: أن هذا الوضع مستمر إلى يوم القيامة، أو أن يفتح الله على المؤمنين بالنصر، وبالقوة، وبالغلبة، بعد أن يغيروا ما بأنفسهم، فيغيِّر الله أحوالهم.

فالمراد **بوعد الله**: قيام الساعة، أو الفتح والنصر للمؤمنين، والكلام يعم كل من كفر بالله، ولم يؤمن برسول الله محمد ﷺ، وكذَّب بهذا القرآن.

ولفظ ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ يفيد الدوام والاستمرار، والله لا يخلف الميعاد.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم].

وقد حدث لأهل مكة أن ابتلاهم الله بسبع سنوات من الجوع والقحط، وهُزِموا في غزوة بدر، وفتح مكة بسبب كفرهم بخاتم الرسل ﷺ.

وَعِيدُ المُكَذِّبِينَ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ

٣٢- ﴿وَلَقَدِ[١] ٱسْتُهْزِئَ[٢] بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر الدال وصلًا من (ولقدِ استهزئ)، والباقون بضمها.

(٢) وقرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة من (استهزئ) ياء مفتوحة وصلًا، ساكنة وقفًا، ويقف عليها حمزة بالتسهيل مع الرَّوْم وبإبدال الهمزة ياء مفتوحة، ثم تسكن للوقف.

ثم يعقِّب الله سبحانه على تعنت المشركين في طلب الآيات الخارقة من رسول الله ﷺ، وعلى استعجالهم نزول العذاب الذي وعدهم به، على وجه السخرية، والاستبعاد، والاستهزاء برسول الله ﷺ، وتكذيبهم للقرآن الكريم، فيتوعدهم بأن ينزل بهم من العقاب ما نزل بمن قبلهم ممن كذبوا رسل الله.

ومثْلُ هذا يحدُث على مرِّ العصور والدهور، من أعداء الإسلام، في كل زمان ومكان.

وها هم اليهود اليوم في الأرض المحتلة يحرقون القرآن، ويمزِّقونه ويُهينونه؛ نكاية بالإسلام والمسلمين.

ومثْلُ ذلك يحدث على أيدي البوذيين في أعقاب هدْم صنم بوذا في أفغانستان.

والله ﷻ يُمْهِل ولا يُهْمِل، ويتوعَّد أمثال هؤلاء بالعقاب الشديد، فيبيِّن سبحانه أنه كما استهزأ المشركون برسول الله ﷺ، وتعنَّتوا معه في طلب الآيات الخارقة، وكذَّبوا آيات الله، فقد استهزأت الأمم السابقة برسل الله جميعًا، فأمهلهم الله تعالى، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وهكذا يسلِّي الله تعالى رسوله، فيخفف عنه ويقول له: لا تحزن - يارسولنا - فقد حدث مثل هذا لكثير قبلك ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما استهزؤوا بك وبدعوتك ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أمهلتهم، وأخَّرتُ عقوبتهم بعض الوقت حتى ظنوا أنهم غير معذبين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي عاقبْتُهم عقابًا شديدًا ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ لهم، لقد كان عقابًا أليمًا استأصلهم، وقطع دابرهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود]

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج].

وفي حديث أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[1].

وهذه أمثلة نضربها من تكذيب واستهزاء السابقين برسلهم:

١- فقد استهزأ قوم نوح به ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨] وقالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ

(١) البخاري برقم (٤٦٨٦) من حديث أبي موسى و في مسلم برقم (٢٥٨٣).

نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

٢- واستهزأ قوم عاد بهود ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف].

٣- واستهزأ قوم ثمود بصالح ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف] ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود].

واستهزأ قوم مدين بشعيب فقالوا له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود] ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء].

واستهزأ فرعون بموسى فقال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف].

وهكذا كل من سخر بالإسلام وبرسول الإسلام، أو كذَّب بآيات الله، فإنه يعاقب بذنبه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف]

والله تعالى لا يخلف الميعاد كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم] وهكذا كان عقاب الله شديدًا لكل من كذب رسله.

فلا يغتر هؤلاء المكذبون بإمهال الله لهم، وليحذروا أن يفعل بهم كما فُعل بمن قبلهم.

مِنَ الأَدِلَّةِ السَّاطِعَةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى: نَفْيُ المُمَاثَلَةِ بَيْنَ الخَالِقِ والمَخْلُوقِ

٣٣- ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ[1] بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟[2] عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ

(١) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم الباء من (أم تنبئونه) وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة عند الوقف، وله التسهيل والإبدال.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضم الصاد من (وصُدُّوا) على البناء للمفعول، والباقون بفتحها على البناء للفاعل.

ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ[1] ﴿٣٣﴾﴾

الله سبحانه يُحصي على كل نفس عملَها: من آمن به، ومن أشرك، فيجازي كُلًّا بما يستحق، وهو ﷻ قائم على شؤون بني آدم، ومتكفِّل بأرزاقهم وآجالهم، وحفيظ على أعمالهم، وكل ما يعبده البشر من دون الله لا يملك ذلك، فالله تعالى رقيب على كل نفس، قد خلقنا، ورزقنا، وأحيانا، ويميتنا، وهو سبحانه الحفيظ الرقيب المطلع عليها، المحاسب والمجازي لها على أعمالها، والعالم بسرها ونجواها وعلانيتها، يعلم ما تكسب كل نفس في كل لحظة من الأعمال الصغيرة والكبيرة، والخير والشر.

والمعنى: أفمن يحصي على كل نفس ما تعمله، وهو مطلع على دقائقها وخفاياها، ومسجل لما تكتسبه من الخير والشر.

والخبر محذوف تقديره: أحقُّ أن يُعبد، أم هذه المخلوقات العاجزة؟

وفي هذا إنكار على تسوية من هو قائم على كل نفس، بمن ليس كذلك.

فمعنى ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ﴾: مُتولي أمورها ومدبرها، في جميع شؤونها، من الخلق والأجل والرزق، العالم بأحوالها، الرقيب عليها، المحيط بأعمالها، الحفيظ لها، القائم على سائر شؤونها، والمجازي لها بما كسبت يوم البعث والنشور.

ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

وقوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد] وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

ومع ذلك فإن غير المسلمين يشركون مع الله ما يعبدونه من خلقه ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ هؤلاء الشركاء ماذا يملكون لأنفسهم أو لغيرهم؟ وهي من الحجارة والأوثان أو من البشر، أو غيرهم وليس هذا في عهد الرسول فحسب فنحن لا ننظر إلى الجزيرة العربية، ولا إلى بلاد المسلمين في العالم إنما ننظر إلى العالم بأسره، فالدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ومن الشعوب اليوم من يعبد الحجارة، ومنهم من يعبد بقرة، ومنهم من يعبد

(١) وقف ابن كثير على (هاد) و (واق) بياء ساكنة بعد الدال والقاف.

تماثيل، ومنهم من يعبد الشيطان، كما كان الحال في الجاهلية.

ولما قرر الله سبحانه هذه الحقيقة، وهي عبادتهم للأوثان من دون الله، طلب تسمية هذه الآلهة، فقال: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: قل -يا محمد- لكل من أشرك بالله تعالى: صِفُوا لنا هؤلاء الشركاء، واذكروا أسماءهم لنا، فلن تجدوا في صفاتهم ما يؤهلهم للعبادة، ولا شبهة لهم في تأليهها، فماذا لهم من صفات القدرة الإلهية؟ ماذا يفعلون؟ ماذا يعلمون؟ ماذا يخلقون؟ من يرزقون؟

أم أنكم تخبرون الله تعالى بشيء موجود في هذا الكون فوق أرضه، لا يعلمه خالقه، وهو علام الغيوب، وهذا معنى: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو عالم الغيب والشهادة، ولا يعلم سبحانه أن له شريكًا، فهل أنتم أدرى من الخالق جلَّ شأنه؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨]

أم أنكم تعبدونها تقليدًا لغيركم؟ فهي مجرد أسماء وهْمية لآبائكم ورثوها عن غيرهم، ليس لها حقيقة كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣] وهو قول باطل لا أصل له، كمن يسمِّي التفاح عدْسًا، وقد عُلم بهذا بطلان دعوى الشريك.

وسماه القرآن: ظاهرًا من القول، أي: ليس له حقيقة، والسبب في ذلك هو أن الشيطان زين لهم عبادة غير الله سبحانه، وصد الناس عن سبيل الله كما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]

فسوَّل لهم الشيطان إخفاء الشر ووسائل الضر، وصرفهم عن عبادة الله بحيلة.

أما في الحقيقة فلا معبود بحق إلا الله، وما سواه ظاهر من القول ليس له حقيقة.

ومن لم يوفقه الله للهداية فليس له أحد يهديه ويوفقه إلى الحق والرشاد؛ لأنه يحمل في نفسه استعدادًا للضلالة من البداية كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

وقال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١].

ويؤخذ من هذه الآية ما يلي:

أ- توبيخ المشركين على قياس الأصنام على الله سبحانه في إثبات الإلهية، وإثبات أنه قياس فاسد لانتفاء الشَّبه.

ب- تجهيلهم في جعلهم للآلهة أسماء لا مسميات لها، والله سبحانه فرد واحد لا يشاركه أحد في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته.

ت- نفي كون هذه الأصنام آلهة؛ إذ لو كانت كذلك لعلمها الله سبحانه.

ث- ادعاء أن هذه الأصنام آلهة كلام باطل ليس له نصيب من الواقع.

ج- القول بأن هذه الأصنام آلهة تمويه باطل روَّجه دعاة الكفر.

ح- هؤلاء الكفار بادعائهم هذا يصدون الناس عن سبيل الهدى.

النِّهَايَةُ الأَلِيمَةُ لِغَيْرِ المُؤْمِنِ وَنَعِيمُ أَهْلِ الإِيمَانِ

٣٤-﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ[١] ﴿٣٤﴾﴾

والنهاية الأليمة لهذا الصنف من الناس هو العذاب في الدنيا والآخرة، فهم يعذبون في الدنيا بألوان مختلفة من العذاب: بالقتل، والأسر، والخزي، والخوف، والقلق، وغير ذلك من العذاب الدنيوي، ولعذاب الآخرة في نار جهنم أشق وأغلظ، وليس لهم من الله من واق يقيهم عذاب النار، فيمنعهم منه أو يدفعه عنهم، وينصرهم حين ينزل بهم.

كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر]

وقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان] وعذاب الدنيا له انقضاء وعذاب الآخرة لا ينقضي.

٣٥-﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا[٢] دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) أثبت ابن كثير ياء في (من واق) عند الوقف عليها هكذا: واقي، وحذفها وصلًا كغيره.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بإسكان الكاف من (أكْلها)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

وشأن القرآن إذا تحدث عن النار أن يتحدث عن الجنة، وإذا تحدث عن أهل الشقاء أن يتحدث عن أهل السعادة، وإذا تحدث عن الوعد أن يتحدث عن الوعيد، وإذا تحدث عن الترغيب أن يتحدث عن الترهيب إلى جواره، وهكذا؛ لبيان الفرق بين الأمرين، ولأخذ العبرة والفائدة منهما معًا.

وبعد ذكر النار في الآية السابقة يأتي ذكر الجنة في هذه الآية لمن وقى نفسه بالإيمان، وصالح الأعمال.

أي: وصفة هذه الجنة التي وعدها الله لعباده المتقين الذين يخشونه، أنها جنة تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من عسل مصفى، وأنهار من خمر في غاية اللذة، ليس فيها ما يغتال العقل، ولا يفقد الوعي، وأنهار من ماء لا يتغير مع طول المكث: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥] وهذه الجنة أكلها دائم لا ينقطع أبدًا، إذا أخذْتَ ثمرة من شجرة، عادت مكانها ثمرة أخرى على الفور.

كما في حديث ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى**»[1].

وأهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يتبوَّلون ولا يتمخَّطون، ولا يتغوَّطون ولا يتجشؤون، عرقُهم رائحته كالمسك، يُلْهمون التسبيح والتحميد، كما يلهَمون النفَس، هذا شأنهم بصفة مستمرة.

وظلها أيضًا دائم؛ إذ ليس هناك شمس ولا قمر، ولا ظل يتقلَّص أو يزول بسبب دوران الشمس، كما قال سبحانه: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ [الواقعة]

تلك المثوبة بالجنة، وهذا النعيم، عقبى الذين خافوا الله، فأدوا فرائضه، واجتنبوا معاصيه.

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٢/ ١٠٢) وفيه عباد بن منصور، متكلَّم فيه.

ومن أحاديث الجنة ونعيمها

١- ما جاء في الصحيحين من حديث ابن عباس ﵄ قال: خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلَّى، قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولتَ شيئًا في مقامك، ثم رأيناك تكعكعت، قال: **«إني أُريتُ الجنة، فتناولتُ منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيتْ الدنيا»**[١]. ومعنى (تكعكعت) تأخّرْت.

٢- وعن جابر ﵁ قال: بينما نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدَّمْنا، ثم تناول شيئًا ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة، قال له أُبَيُّ بن كعب: يا رسول الله، صنعتَ اليوم في الصلاة شيئًا، ما رأيناك كنت تصنعه، فقال: **«إني عُرضتْ عليَّ الجنة وما فيها من الزهرة والنَّضرة، فتناولتُ منها قِطْفًا من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه مَنْ بين السماء والأرض لا ينقصونه»**[٢].

٣- وعن جابر بن عبد الله أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«يأكل أهل الجنة فيها، ويشربون، ولا يتغوَّطون، ولا يتمخَّطون، ولا يبولون، ولكن طعامهم ذاك جُشاء كريح المسك، يُلْهَمون التسبيح، كما يُلْهَمون النفَس»**[٣].

وطعام أهل الجنة وشرابهم وفاكهتهم دائمة لا تنقطع، كما قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۝٣٣﴾ [الوقعة] وقال: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا ۝١٦﴾ [النبأ]

وقال سبحانه: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ۝١٤﴾ [الإنسان]

وقال جلَّ شأنه: ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وكثيرًا ما يقرن الله سبحانه بين صفة الجنة وصفة النار، كما في عقبى المتقين وعقبى الكفار في هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾ [الحشر].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٤٨) وبنحوه في «صحيح مسلم» برقم (٩٠٧) بعد وصف صلاة الكسوف.

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده، ورواه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٥٢) بنحوه.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٥).

مَوْقِفُ أَهْلِ الكِتَابِ مِنَ القُرْآنِ

٣٦-﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ[١] ﴿٣٦﴾﴾

ثم بيَّن الله سبحانه موقف أهل الكتاب من رسالة الإسلام، فالقرآن هو الكلمة الأخيرة في الأرض، والكتاب الأخير في سلسلة الكتب السماوية، وكلمة الله الأخيرة إلى خلقه أجمعين، أثبت الله فيه ما أراد لعباده إلى يوم القيامة، ونسخ منه ما نزل قبله مما كان يناسب الوقت الذي نزل فيه في مراحل الدعوة التي سبقت محمدًا ﷺ.

وهذه الآية التي معنا تتحدث عن القرآن وهو الكتاب الخاتم، وتبيِّن موقف أهل الكتاب منه، وأنهم **ثلاث فرق**:

١- فرقة آمنت به كله، فدخلت في الإسلام، إن قديمًا أو حديثًا، وهؤلاء هم المعْنيُّون بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٢- وفرقة آمنت ببعض القرآن وكفرت ببعض في جميع العصور، وهؤلاء هم المعنيُّون بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾.

٣- وفرقة كفرت مطلقًا، ولم تؤمن به كُليًّا، وهذه الفرقة في مقابلة من آمن به كله، ومن آمن ببعض دون بعض، وهي مقتضى القسمة، وهذا على أن هذه الآية مدنية، وهو الأرجح.

والمراد: أن أهل الكتاب من أصحاب الشرائع السابقة من اليهود والنصارى في كل عصر ومصر ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ في هذا القرآن من زيادات على ما في كتبهم، ويستبشرون بما فيه مما يوافق كتبهم، فيؤمنون به ويصدقونه.

الصنف الأول: وأول ما ينطبق هذا على من أسلم في العصر النبوي من اليهود؛ كعبد الله بن سلام، وأصحابه، الذين دخلوا في الإسلام، ومن النصارى أربعون رجلًا من أهل نجران، وثلاثون من أهل الحبشة، وعشرة من غيرهم، والنجاشي ومن معه، وثمانون من النصارى دخلوا في الإسلام في وقت النبي ﷺ، وهذه الآية تعنيهم **أوَّلًا**، ثم تعني مَن

(١) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا في لفظ (مآب)، والباقون بحذفها في الحالين.

بعدهم، ممن ينطبق عليهم الوصف إلى قيام الساعة.

وقد أثبت الله تعالى في هذا القرآن ما شاء إثباته مما فيه صلاح البشر إلى يوم القيامة، فهو الحَكَم الفصْل الذي لا بديل عنه؛ لأنه أتى بالتوحيد، وصدق الكتب التي نزلت على رسل الله قبله، فهي تصدق رسالة محمد ﷺ، وتبشِّر بما جاء به.

أما **الصنف الثاني** فهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: من أحزاب اليهود والنصارى والمشركين، المتحزبين على الكفر ضدك، من ينكر بعض المنزَّل عليك؛ حيث ينكرون الآيات الدالة على عموم رسالة محمد ﷺ، وينكرون البعث بالأجساد، ولا يصدقون القصص وأخبار الأمم السابقة.

والصنف الثالث: صنف كفر بالإسلام كله من فجر الدعوة إلى وقتنا، ومنهم أكثر اليهود والنصارى، وأولهم من بقي على كفره في العصر النبوي، مثل: كعب بن الأشرف، والسيد[1]، والعاقب[2] من أساقفة نجران.

والله سبحانه يأمر رسوله بأن يعلن كلمة الله الأخيرة في خلقه، فيقول له:

﴿قُلْ﴾ -أيها الرسول- لمن خالفك، ولم يتبعك: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾.

وإلى عبادته تعالى أدعو الناس، وإليه مرجعي ومصيري.

وفي الآية مدح لمن عرف الحق وفرح به، وذم لمن أنكره جحودًا وعنادًا.

وهذا التفسير بناء على أن هذه الآية مدنية؛ لأن إسلام عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وبعض نصارى نجران واليمن، كان بالمدينة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة] ولأن لفظ الأحزاب يطلق غالبًا على أحزاب أهل الكتاب.

وقد أمر الله نبيه أن يعلن لهم أنه ما أُمِر إلا بتوحيد الله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ

---

(١) اسم السيد: الأيهم وقيل شرحبل، كان صاحب رحالهم ومجتمعهم ورئيسهم في ذلك.

(٢) العاقب: اسمه عبد المسيح، كان صاحب مشورتهم.

كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]

وفيمن آمن منهم بالقرآن يقول تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء]

ويقول أيضًا: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران].

فمن فرح بالقرآن منهم فليزدد فرحًا، ومن أنكر بعضه فليأخذ بما لا ينكره وهو عدم الشرك، والنصارى يتبرؤون من الشرك، ويعتبرون بنوَّة عيسى ليست شركًا.

وقد أمر الله نبيه بأمرين: أن يعبده وحده، ولا يشرك به شيئًا.

أما على القول بأن الآية مكية، فإن الذين أرسل الله إليهم محمدًا بالقرآن انقسموا في التصديق به فرقًا ثلاثًا:

١- فريق آمن به وهم المؤمنون، فهم ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٢- وفريق كفر به، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

٣- ومن أهل الكتاب، فريق فرح بالقرآن وصدَّق به، وهم الذين ذُكروا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة].

وكلهم من النصارى؛ كورقة بن نوفل، وغيره، لأنهم كانوا يفتخرون على المشركين بأنهم أول من سيؤمن بمحمد ﷺ ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩] كما كان اليهود يستفتحون على النصارى ببعثة محمد ﷺ.

وفريق آخر من أهل الكتاب، وهم معظم اليهود والنصارى كفروا به، وأعلنوا عداءهم

للإسلام، بعد ما علموا أنه دعوة عامة للبشر جميعًا، وكانوا يظنون أنها دعوة مقصورة على العرب، وعلى هذا فالمراد **بالأحزاب**: من ينكرون عموم الرسالة من اليهود والنصارى.

التَّحْذِيرُ مِنَ اتِّبَاعِ طَرِيقِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى

٣٧-﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ[1] مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ[2] ﴿٣٧﴾﴾

لقد أنكر اليهود والنصارى أن تكون رسالة محمد ﷺ رسالة عالمية، وحسدوه أن تنتقل النبوة من بني إسرائيل إلى ذرية إسماعيل، وأن يكون القرآن بلغة العرب، وهذا هو سبب إنكار بعض أحزابهم له، وسبب كفر من كان منهم يبشر الوثنيين بقرب مَقْدَمه ﷺ، وأنهم أول من يفتح عليه عندما يُبعث.

وفي هذه الآية، يُعرِّض القرآن الكريم بسوء تلقِّي المشركين للقرآن، وكان الواجب عليهم أن يحسنوا تلقِّيهم له؛ فبيَّن ﷻ أنه كما نزلت الكتب السابقة على الأنبياء السابقين بلغاتهم ولسانهم، فإن هذا القرآن نزل على محمد ﷺ بلغته ولسان قومه.

وفي هذا امتنان عليهم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وهنا قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

وقد تضمنت هذه الجملة كمال القرآن الكريم من جهة معانيه ومقاصده، وكماله من جهة ألفاظه العربية المعجزة للبشر، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الشعراء].

وقد نزل هذا القرآن بلسان العرب؛ ليحْكُم به النبي ﷺ بين الناس أجمعين، وتُحكِّمه البشرية في جميع أحوالها، وهو يتضمن الحكمة كلها، ويتضمن جميع التشريعات التي تُصلِح

---

(١) أمال لفظ (جاءك) ابن ذكوان وحمزة وخلف.

(٢) قرأ ابن كثير بإثبات الياء بعد القاف وصلًا، وحذفها وقفًا من (ولا واق)، والباقون بحذفها في الحالين.

البشر إلى يوم القيامة من الحلال والحرام، والنقض والإبرام، وسائر التكاليف الشرعية.

وهذا القرآن هو الكلمة الختامية للخلق أجمعين، وهو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد شرَّف الله نبيه به وفضَّله على من سواه.

ثم ساق الله تحذيرًا للأمة في شخص نبيها، فحذرهم في سورة الزمر من اتباع كل كافر، أو فاسق، أو مبتدع، وبيَّن سبحانه أن النبي ﷺ لو اتبع أهواء المنحرفين عن طريق الحق -على سبيل الفرض والتقدير- وهو أكرم الناس على الله، فليس له من ينصره، أو يمنعه من عذاب الله كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر].

وهنا حذر الله الأمة في شخص نبيها ألا يتبعوا أهل الضلال في عبادة غير الله تعالى، وفي طلب المعجزات الخارقة، وفي التحاكم لغير الله، فقال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الذي بلغك وعلمته، وهو الحق الذي جاء من عند الله في هذا القرآن الذي أُمرتَ بتبليغه، والقيام بما فيه من أوامر ونواهٍ، والغرض من هذا هو تحذير الناس أن يتبعوا سبل أهل الضلال والغواية؛ لأنه ﷺ معصوم عن مثل هذا.

وقد جاء مثل هذا التحذير في سورة البقرة بالنسبة لليهود والنصارى، بعد أن بيَّن، سبحانه، أنهم لن يرضَوْا عنَّا إلا إذا اتبعْنا دينهم، فقال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وجاء هذا في سورة البقرة أيضًا بعد أن بيَّن سبحانه أنهم لن يتبعوا قبلة الإسلام، ولو أتاهم الرسول بكل آية، فقال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

والآية التي معنا جاءت في التحذير من اتباع أهواء اليهود والنصارى الذين يكفرون برسالة محمد ﷺ جملة وتفصيلًا، والذين يقولون: إنه ﷺ رسول إلى العرب خاصة.

والآيات الثلاث تصب في مَعِين واحد.

ويلاحظ أن آية الرعد ٣٧ جاءت بلفظ: ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ﴾ وآية البقرة الأولى ١٢٠ بلفظ: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ﴾ والثانية ١٤٥ بلفظ: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ﴾.

وختام الآيات الثلاث لا يختلف في المعنى: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

مِنْ شُبُهَاتِ المُكَذِّبِينَ لِلرِّسَالَةِ

٣٨-﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

تضمنت هذه الآية شبهتين للمشركين تكررَ ذكرهما في القرآن الكريم:

الشبهة الأولى: كيف يكون للرسول ﷺ أزواجٌ وذرية؟ فأجابهم الله تعالى بأن هذا شأن الرسل جميعًا، فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية كما كان لإخوانك من المرسلين.

الشبهة الثانية: أنهم يطلبون من النبي ﷺ آيات خارقة، كالآيات التي أيَّد الله بها موسى، وعيسى، وصالح ﷺ، فكان الجواب: أن هذه الآيات من الله وحده، وليس في إمكان النبي ﷺ أن يأتي بها.

أما عن الشبهة الأولى فقد ورد أن اليهود عيَّرت رسول الله ﷺ، وقالت: ما نرى لهذا الرجل مهمة إلَّا النساء والنكاح، ولو كان نبيًّا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله الآية[1].

الرد على الشبهة الأولى: أن جميع الرسل قبل محمد ﷺ كانوا من البشر يتزوجون ولهم ذرية، ويأكلون ويشربون، وليسوا ملائكة، فلماذا يستغرب الكفار أن يكون محمد ﷺ بشرًا؟! وقد قال تعالى عن الرسل جميعًا: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء].

وقد سئلت أم المؤمنين عائشة ﵂ عن التبتُّل، فقالت للسائل: لا تفعل، أما سمعت الله

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص (٢٣١) والسيوطي ص (١٥٨) و«زاد المسير» لابن الجوزي (٤/٣٣٦) و«تفسير البغوي والخازن» للآية.

ﷺ يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فلا تبتُّل[1].

وقد جاء النهي عن التبتل في الصحيحين وغيرهما.

وكان النبي ﷺ قد تزوج في الفترة المكية خديجة ﵂ وحدها، وكانت ثيِّبًا، وتكبُره بخمسة عشر عامًا، وبقي معها إلى أن توفاها الله تعالى، وكان قد بلغ الخمسين من عمره، أما بقية زوجاته ﷺ فكنَّ في المدينة، والزواج بهن جميعًا كان محصورًا في سبع سنوات، كلها جهاد وغزوات، من سن الثالثة والخمسين إلى سن الستين، فلم يتزوج ﷺ في الثلاث سنوات الأخيرة من حياته ﷺ، ولم يتزوج فيما بين الخمسين والثالثة والخمسين، ولم يُنجب إلا من خديجة ﵂، وإبراهيم من مارية، ولم يتزوج بكرًا سوى عائشة، ومع هذا فقد عاب المشركون على النبي ﷺ أن يتزوج النساء.

والله ﷻ يبيِّن في هذه الآية أنه ليس بدعًا من الرسل؛ فنوح ﷺ قد تزوج، ولوط ﷺ قد تزوج، وكان لبعضهم أكثر من زوجة، كإبراهيم، وموسى عليهما السلام، وكان لداود ﵇ مئة امرأة، وكان لسليمان ﷺ ثلاث مئة امرأة، وسبع مئة جارية، فلم يقدح هذا في نبوتهم.

وقد كان (يحيى) حصورًا، فأعلم الله أباه زكريا بأن ابنه لا يكون له نسل، وقد كانت امرأته عاقرًا، فسأل الله الولد فمنحه (يحيى) كرامة له، وخاطبه بقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

أما عيسى ﵇ فلم يذر أحد - فيما أعلم - الحكمة في أنه لم يتزوج، وقد رُفع وهو في سن الثالثة والثلاثين.

كما عاب المشركون على الرسول ﷺ أن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]

قال تعالى: في الرد عليهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

كما عابوا عليه ﷺ أن يكون بشرًا ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦].

---

(١) صحيح «سنن النسائي» برقم (٣٠١٥) و«مسند أحمد» (٩٧/٦) والترمذي برقم (١٠٨٢) وابن ماجه برقم (١٨٤٩) وصحيح «سنن ابن ماجه» (١٤٩٩).

فكان الجواب ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

الرد على الشبهة الثانية: وأما اقتراح الآيات التي طلبها عبد الله بن أمية ومن معه فهي إلى الله تعالى، وليست لرسوله ﷺ، ولو علم الله سبحانه أنها ستُجدي فيهم نفعًا لأجابهم إليها. ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]

ومعجزة القرآن كافية في إثبات نبوته ﷺ، ومع ذلك فقد أيَّده الله تعالى بمعجزات حسية كثيرة؛ كانشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكثير الطعام بين يديه، وتكليم الحجَر والشجر والجبل له، وحنين الجذع إليه ﷺ، ولكن الذي منعهم من الإيمان به هو العناد والجحود، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] وقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ثم بيَّن سبحانه أن كل شيء عنده بمقدار، له بداية ونهاية، ولكل أمر قضاه الله تعالى له كتاب وأجل، قد كتبه عنده لا يتقدم ولا يتأخر، فلكل رسالة سبقت وقت محدد، وللعذاب الذي يستعجل المشركون نزوله بهم أجل معين، ولكل كتاب أنزله الله من عنده على رسول من رسله مدة معينة، نُسخت كلها بالقرآن الكريم، وكل مخلوق له أجل محدد ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج].

وفي الآية تهديد للمشركين الذين كانوا يتعجلون نزول العذاب بهم.

وهذه الآجال اقتضتها حكمة الله تعالى، فهو أعلم بما يُصلح شؤون خلقه.

والمراد بالكتاب هو الوقت المحدد لا يتقدم ولا يتأخر، والأجل يشمل عمر الإنسان، وعمر الرسالات.

المَحْوُ وَالإِثْبَاتُ

٣٩- ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ(١) وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب بإسكان الثاء وتخفيف الباء من (ويثْبِت) مضارع أثبت، والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء، (وَيُثَبِّت) مضارع ثبَّت.

هذه الآية لبيان أن علم الله تعالى لا محو فيه ولا تبديل، من كل ما سبق به القضاء، وأن المحو والإثبات يقع فيما أخبر الله تعالى أنه يبدل، كعفو الذنوب ونسخ آية بعد تلاوتها، ونسخ الرسالات، وما يكون في صحف الحفظة، والمحبة والبغض.

قال المشركون: إن محمدًا يأمر أصحابه اليوم بأمر، ثم يأمرهم بخلافه غدًا، وما ذلك إلا لأنه يقول من تلقاء نفسه؛ فأجاب الله تعالى عن ذلك بأن لكل قرن أجل، ولكل دين وقت، ولكل أمة رسولًا وكتابًا، يلتقي عليه المؤمنون، ثم يمحو الله من الرسالات السابقة، ومن الشرائع والأحكام التي نزلت على رسل الله ما يشاء، مما انقضت مهمته، فينسخ منها ما يشاء، ويثبت ما يشاء مما تبقى فائدته نافعة إلى يوم القيامة، وهذا معنى المحو والإثبات في الآية.

والمحو والإثبات يكون أيضًا في صحف الملائكة؛ فالملائكة منهم حفظة يتناوبون في اليوم الواحد لكتابة أعمال الناس وأقوالهم، وحفظة يرفعون الأقوال والأعمال في يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، كما جاء في الحديث أن الأعمال ترفع فيهما، وفي منتصف شهر شعبان من كل عام تعرض الأعمال على رب العالمين، كما صح في الحديث عن أسامة بن زيد ﷺ حين سئل النبي ﷺ عن سبب إكثاره من الصيام في شهر شعبان، فقال: «**ذاك شهر تُرفَع فيه الأعمال إلى رب العالمين، وأحب أن يرفع عملي وأنا صائم**»(١).

فهناك رفع يوميٌّ للأعمال، ورفع أسبوعيٌّ، ورفع سنويٌّ؛ حيث يحدث محو وإثبات في صحف الملائكة بالنسبة للأقوال والأفعال التي ليس فيها حسنات ولا سيئات؛ كالذي يتعلق بالمأكل والمشرب، والملبس والعمل، والذهاب والإياب، ولغو الكلام وما لا فائدة فيه؛ فإن هذا تسجله الملائكة، ثم يُمحى منها ما ليس فيه حسنات، أو سيئات ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

وقد يكون الإنسان كافرًا أو عاصيًا، ثم يتوب، وهذه التوبة تجُبُّ ما قبلها، ويحصل بها

---

(١) من حديث أسامة بن زيد في سنن النسائي (٤/ ٢٠١) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٠٢٢) وهو في المسند (٢١٧٥٣) إسناده حسن، لأن ثابت بن قيس صدوق حسن الحديث وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) وأخرجه البزار في مسنده (٢٦١٧) وعبدالرزاق (٧٩١٧) وابن أبي شيبة (٣/ ١٠٣).

محو وإثبات في صحف الملائكة.

وقد يرتكب المسلم بعض صغائر الذنوب بين الجُمُعة والجُمُعة، أو بين رمضان ورمضان، أو بين الحج أو العمرة، وهذه الذنوب تُمحَى من صحف الملائكة من فضل الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

فالذي يصلي الصلوات الخمس، ويلم ببعض اللمم، أو صغائر الذنوب، ويجتنب الكبائر، فإن هذه الصغائر تُمحى من ديوان الحفظة.

قال تعالى بعد ذكر أكبر الذنوب: الشرك، والقتل، والزنى وعقوبتها: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الأصل، وهو اللوح المحفوظ الذي لا محو فيه ولا إثبات، وهو النسخة الثابتة الأساس، والصورة الأخيرة لأعمال الخلق وأحوالهم، وما قبلها مسودات، يكون فيها محو وإثبات.

وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الأشياء، وهو الذي لا محو فيه ولا إثبات، أودع الله فيه كل ما كتب وقدر من: الموت والحياة، والسعادة والشقاء، والرزق والعمل.

وهناك أربعة أشياء لا محو فيها ولا إثبات، وهي في أم الكتاب ثابتة: السعادة والشقاء، والرزق والأجل، هذه الأربع هي التي يؤمر الملَك بكتابتها حين تُنفخ الروح في المولود، وهو جنين في بطن أمه:

في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أُسَيْد ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملَكًا فصوَّرها، وخلق سمعها وبصرها، وجِلْدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يارب، أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما يشاء، ويكتب الملَك، ثم يقول: يارب أجلُه؟ فيقول ربك ما شاء، ويكتُب الملك، ثم يقول: يارب، رزقُه؟ فيقضي ربك ما يشاء، ويكتُب الملَك، ثم يَخرُج الملَكُ بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص»**[1].

(١) «صحيح مسلم» (٤/٢٠٣٧) برقم (٢٦٤٥).

وفي لفظ آخر عن حذيفة بنُ أسيْد يبلغ به النبي ﷺ قال: **«يدخل الملَك على النطفة بعدما تستقر في الرحم، بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يارب، أشقي أو سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أيْ رب، أذَكَر أو أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره، وأجله ورزقه، ثم تُطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا يُنقص»**[1].

وما في اللوح المحفوظ هو مقتضى علم الله تعالى الذي أودعه إياه، وعلم الله الأزلي لا يتغير ولا يتبدل.

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد].

وفي الحديث عن ابن عباس ﷺ: **«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رُفعت الأقلام، وجفت الصحف»**[2].

وكان عمر رضي الله عنه يطوف بالبيت، وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني عندك سعيدًا فأثبتني، وإن كنت كتبتني عندك شقيًّا فامحُ شقوتي[3].

ومن ذلك الدعاء الوارد عن عبد الله بن مسعود ﷺ:

يا ذا المنِّ ولا يُمنُّ عليه، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطَّوْل والإنعام لا إله إلا الله، ظَهْرَ اللاجئين، وجار المستجيرين، ومأمن الخائفين، إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيًّا فامح عني اسم الشقاء، واثبتني عندك سعيدًا، وإن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب محرومًا مقتَّرًا عليَّ في الرزق فامح حرماني ويسِّرْ رزقي، واثْبتْني عندك سعيدًا موفَّقًا للخيرات؛ فإنك تقول في كتابك الذي أنزلت: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٤).

(٢) من حديث ابن عباس في «جامع الترمذي» برقم (٢٥١٨) وقال: حديث حسن صحيح، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠٤٣) و«المسند» (١/ ٢٩٣) برقم (٢٦٦٩، ٢٧٦٣، ٢٨٠٣) بإسناد قوي وأوله (ياغلام) والبيهقي في «الشعب» (١٩٥، ١٠٧٤) وفي «الأسماء والصفات» (١٢٦)، وأبو يعلى (٢٥٥٦) والطبراني (١٢٩٨٨).

(٣) «تفسير الطبري» (١٦/ ٤٨١).

ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾»[1].

وقد شاع في بعض البلاد قراءة هذا الدعاء مع سورة يس ثلاث مرات في ليلة النصف من شعبان، مع صلوات خاصة بنية طول العمر وسعة الرزق، ويزعمون أنها الليلة التي يُفرَق فيها كل أمر حكيم ويبرم، وكل هذا من البدع والجهل والتقليد الأعمى.

والليلة المباركة التي يُفرَق فيها كل أمر حكيم هي ليلة القدر، ولم يصح في فضل ليلة النصف من شعبان حديث عن رسول الله ﷺ، ولا في مشروعية هذه الصلوات، ولا هذا الدعاء، ولا قراءة سورة يس، والسعادة والشقاء ثابتان لا يتغيران.

وليلة النصف من شعبان تحوَّلت فيها القبلة، وفي شهر شعبان تُرفَع أعمال العام إلى رب العالمين.

ومن المحو والإثبات: أن يتغير حال الإنسان قبل الموت إلى العمل بأعمال أهل السعادة بعد عمل أهل الشقاء، أو العكس.

كما جاء في الحديث عن ابن مسعود ﷺ: **«إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلَّا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلَّا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»**[2].

والمتأمل في الحديث يجد أن الكتاب يسبق عليه في كلتا الحالتين، إن التحول عن العمل يتم؛ ليوافق ما هو ثابت في الأزل، فمعنى ذلك: أن العبرة بالختام، وأنه لا تغيير ولا محو لما هو في علم الله، أو في اللوح المحفوظ من السعادة أو الشقاء، وأن هذا التحويل في العمل قد حدث قبل الموت؛ ليوافق ما هو عند الله تعالى مما كُتب له في الأزل وَفْق عِلْمِ الله تعالى عنه.

فالتغيير والتبديل يكون في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة؛ التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابًا ولمحوها أسبابًا، كما جعل البر والصلة من أسباب

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٠/ ٣٣١) وابن أبي الدنيا في الدعاء.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٣) و«صحيح البخاري» برقم (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤).

طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببًا لمحق بركة الرزق والعمر.

فمن المحو والإثبات ما جاء في الحديث عن ثوبان ﷺ: **«إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يردُّ القدر إلَّا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»**[1].

وأيضًا قوله ﷺ من حديث أنس ﷺ: **«من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»**[2].

وعن ثوبان أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يزيد في العمر إلَّا البر، ولا يرد القدر إلَّا الدعاء»**[3].

ففي هذه الأحاديث وأمثالها ثلاثة أشياء هي:

أ- الزيادة في العمر بسبب صلة الرحم.

ب- رفع القضاء بسبب الدعاء.

ج - حرمان الرزق بسبب الذنوب، وزيادته بسبب صلة الرحم.

ومعنى ذلك: أن الله تعالى قد عَلِم في الأزل أن فلانًا من الناس سيصل رَحِمَه، وأنه سيبارك له في عمره أو يُزاد له فيه، ويُوسَّع عليه رزقه بسبب هذه الصلة، فكتب الله له السبب والمسبب، وكلاهما مخلوق لله تعالى، أي: أنه سبحانه يجعل زيادة العمر، أو البركة فيه مُرتَّبة على صلة الرحم، وهذا الأمر يظهر للملائكة في الصحف، ولكنه قديم في علم الله تعالى، ويقال مثل ذلك في رفع القضاء بسبب الدعاء، وحرمان الرزق بسبب الذنب، وهكذا.

---

(١) «المسند» (٥/ ٢٧٧) برقم (٢٢٤١٣، ٢٢٤٣٨) قال محققوه: و هو حديث حسن لغيره، لضعف أبي الجعد، و«سنن ابن ماجه» برقم (٩٠) عن ثوبان، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٤١) وابن المبارك في الزهد (٨٦) والطبراني في الكبير (١٤٤٢) والحاكم (١/ ٤٩٣) وقوله (إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) وهي زيادة ضعيفة، وللحديث شواهد دونها.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٧) و«صحيح البخاري» برقم (٢٠٦٧) بنحوه.

(٣) حسنه الألباني في صحيح «سنن ابن ماجه» برقم (٧٣) وصحَّحه الحاكم بموافقة الذهبي (١/ ٤٩٣) وهو في «صحيح ابن حبان» برقم (٨٧٢) «الإحسان» وفي «المسند» (٥/ ٢٧٧) برقم (٢٢٣٨٦، ٢٢٤١٣) و«المعجم الكبير» للطبراني برقم (١٤٤٢) و«السلسلة الصحيحة» (١٥٤).

والعبرة في ذلك بما يُختم به عمل الإنسان قبل الموت، حيث يكون موافقًا لما هو في اللوح المحفوظ.

وقد استشهد عمر بن الخطاب ﷺ بهذه الآية في خطبته بالشام كما جاء عن السائب بن ملحان، أو ابن مَهْجان وهو من أهل الشام أدرك الصحابة، قال: لما دخل عمر الشام، حمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكَّر، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قام فينا خطيبًا كقيامي فيكم، فأمر: بتقوى الله، وصلة الرحم، وصلاح ذات البين، وقال: **«عليكم بالجماعة، فإن يد الله على الجماعة، وإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، لا يخلُوَنَّ رجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما، ومن ساءته سيئته، وسرَّته حسنتُه، فهو أمارة المسلم المؤمن، وأمارة النفاق الذي لا تسوؤه سيئتُه، ولا تسرُّه حسنتُه، إن عمل خيرًا لم يَرْجُ من الله في ذلك ثوابًا، وإن عمل شرًّا لم يَخفْ من الله في ذلك الشرِّ عقوبة، وأجملوا في طلب الدنيا؛ فإن الله قد تكفَّل بأرزاقكم، وكل سيتمُّ له عملُه الذي كان عاملًا، استعينوا بالله على أعمالكم؛ فإنه يمحو ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب»** صلَّى الله على نبينا محمد وآله، وعليه السلام ورحمة الله، السلام عليكم.

قال البيهقي: هذه خطبة عمر بن الخطاب ﷺ على أهل الشام، أثَرها عن رسول الله ﷺ[1].

عَذَابُ الكُفَّارِ حَاصِلٌ فِي الدُّنْيَا أَوِ الآخِرَةِ أَوْ فِيهِمَا مَعًا

٤٠-﴿وَإِن مَّا[2] نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾

يقول الله سبحانه لرسوله ﷺ: قد نعجِّل العذاب في الدنيا لهؤلاء المكذبين لك وأنت موجود بينهم، وقد أراك الله ذلك؛ حيث قتل بعضهم بالسيف يوم بدر، ويوم حنين وسائر المعارك الإسلامية فضلًا عن الخزي والنَّكال الذي لحق بهم.

وقد نؤخرعذابهم إلى بعد مماتك، كما حدث في حروب الردة وما بعدها، وهذا معنى ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ حيث ترى العذاب بعينيك، هذه هي الحالة الأولى.

---

(١) البيهقي في «شعب الإيمان» (١١٠٨٥).

(٢) معنى (وإن ما) وإن نُرينك، فهي (إن) الشرطية دخلت عليها (ما) لتأكيد معنى الشرط، وقوله: (أو نتوفينك) شرط آخر، وجوابه محذوف، تقديره أو نتوفينك قبل ذلك، فاترك لنا الأمر.

والحالة الثانية جاءت في قوله تعالى: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: نقبض روحك في الدنيا قبل نزول العذاب بهم، وحينئذ فإلينا مرجعهم في الآخرة حيث يُعذبون علىً النقير والقِطْمِير، فلا تشغل نفسك بهم، ولا تترقب هلاكهم، فمهمتك التبليغ لا غير، وعلينا حسابهم وعقابهم ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية].

نُقْصَانُ الأَرْضِ مِنْ أَطْرَافِهَا

٤١ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

هذه الآية للاتعاظ بانتشار الإسلام وعقوبة المكذبين؛ حيث إن تباشير نصر النبي ﷺ قد ظهرت، وملامح ظفره على الكفار قد طلعت، أو لم يرَ المكذبون لك أنا نمكن للمؤمنين في الأرض، ونفتح لهم البلد تلو البلد، فتنقص ديار الكفر، وتزداد ديار المسلمين.

ونقصان الأرض من أطرافها - معناه: أن أرض الكفر تنتقص بفتحها فتحًا إسلاميًا، وأرض الإسلام تتسع، والرقعة الإسلامية تزداد، ويدخل الناس في دين الإسلام أفواجًا، فمكة والمدينة هما طرفا بلاد العرب، مكة طرفها من جهة اليمن، والمدينة طرفها من جهة الشام، وقد أسلم أهل البلدين، وزال الكفرمنهما، ثم زال الكفر من بقاعٍ جمة في شتى أرجاء المعمورة.

وفي الآية بشرى للنبي ﷺ بأن الله مظهر دينه في حياة نبيه، وهذه بدايته، فقد ابتدأ الإسلام في مكة، ثم المدينة، ثم الجزيرة، ثم الشام، إلى أن انتشر في شرق الأرض وغربها، وهكذا تتسع الرقعة الإسلامية إلى يومنا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالمراد: اتساع أرض الإسلام، وانقباض أرض الشرك والكفر بإلحاقها ببلاد المسلمين.

وما حَكَم الله به من عقاب الكفار لا يرده أحد، فهو واقع ولا بد، وإن تأخر بعض الوقت، وهو سبحانه سريع الانتقام من الكفار، وسريع المثوبة للمؤمنين، فلا يستعجلون العذاب؛ فكل آت قريب، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]؛ وذلك كي يتداركوا أمرهم، ويغيروا أحوالهم، كما قال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد].

وانتقاص الأرض ذاتها قد يكون بانجراف أطراف الجامد منها في المياه.

ومن انتقاص الأرض: موت العلماء، وذهاب الفقهاء، وانتقاص العلم.

ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يترك عالمًا اتخذ الناس رؤساء جهالًا، فسألوا فأفتوا بغير علم فضلُّوا وأضلُّوا**»[1].

وقال الحسن عن عبد الله بن مسعود: موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ماالختلف الليل والنهار.

ومعنى الآية: أعَمِيَ المكذبون برسالة خاتم الرسل عن التفكر والاعتبار، ولم يُبصروا قدرة الله تعالى وقوّته القاهرة التي أتت على الأمم القوية الغنية حين كفرت بأنعم الله، ولم تؤمن بسيد المرسلين، فقد بدَّل الله قوتها ضعفًا، وغناها فقرًا، وعزها ذلًّا، وأمنها خوفًا، وحصَرها في بقعة ضيِّقة من الأرض، بعد أن كانت مترامية الأطراف، فأين إمبراطورية فارس والروم، وهما أقوى دولتين في العالم عند مجيء الإسلام.

وبعد أن بدأت الدعوة بين جبال مكة، أصبحت الشمس لا تغيب عن ممالك الإسلام في أرض الله الواسعة، حتى في عُقْر دار الدولة المنفردة بالقوة في العصر الحاضر، وقد حَكَم الله بعزة الإسلام، وحُكْم الله نافذ، ووعْده ناجز، وسوف تخضع كل قوة في العالم لحكم الإسلام ونفوذه بمشيئة الله تعالى، والله يحكم لا معقب لحكمه، وسوف يجازى كل مخلوق على ما قدمت يداه.

٤٢- ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ[2] لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٤٢﴾

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٣) و«صحيح البخاري» برقم (١٠٠، ٧٣٠٧) و«المسند» برقم (٦٥١١، ٦٧٨٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه عبدالرزاق (٢٠٤٨١) وابن ماجه (٥٢) والترمذي (٢٦٥٢) والنسائي في الكبرى (٥٩٠٧).

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف (وسيعلم الكفار) جمع تكسير، وقرأ الباقون (وسيعلم الكافر) على الإفراد.

ونقص أرض الكفر من أطرافها؛ من مكر الله تعالى بالكفار؛ جزاءَ مكرهم بالإسلام، وتدبير المكايد له ولرسوله وأهله، وقد دبَّر الذين من قبلكم المكايد لرسل الله:

فقد مكَر النمروذ بإبراهيم ﷺ، ومكر فرعون بموسى ﷺ، ومكر اليهود بعيسى ﷺ.

ومكَر المشركون برسول الله ﷺ فدبَّروا قتله ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال] .

كما دبر قوم ثمود قتْل صالح عليه السلام ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل].

وهذا معنى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ بالكفر والشرك وقتل الأنبياء، كما مكَر المكذبون بك يا محمد ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ حيث يعود عليهم جزاء مكرهم بالندم والحسرة، فيحاسبهم ويعاقبهم يوم لقائه، وينكِّل بهم في الدنيا، ويصل إليهم العذاب من حيث لا يعلمون.

وهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير أو شر فيجازي عليه، وسوف يعلم الكفار إذا قدموا على ربهم، ووقع بهم العذاب لمن تكون العاقبة المحمودة، لأتباع الرسل أم للمكذبين لهم؟ وفي هذا تهديد ووعيد للكفار.

في حديث ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يدعو ويقول: **«ربِّ أعنِّي ولا تُعِنْ عليَّ، وانصرني ولا تنصُرْ عليَّ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ، واهدني ويسِّر الهدى إليَّ، وانصرني على من بغى عليَّ، ربِّ اجعلني لك شكَّارًا، لك ذكَّارًا، لك رهَّابًا، لك مطواعًا، إليك مخبتًا، لك أوَّاهًا منيبًا، ربِّ تقبَّل توبتي، واغسل حَوْبتي، وأجب دعوتي، وثبِّتْ حُجَّتي، واهْدِ قلبي، وسدِّدْ لساني، واسْلُل سخيمة قلبي»**[1].

شَهَادَةُ اللهِ تَعَالَى وَشَهَادَةُ أَهْلِ الكِتَابِ عَلَى صِدْقِ الرِّسَالَةِ

٤٣ - ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾

---

(١) «المسند» (٣/ ٣٠٩) برقم (١٩٩٧) إسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات (محققوه) وأبو داود برقم (١٥١٠، ١٥١١) والترمذي برقم (٣٥٥١) والنسائي برقم (٦٠٧) في عمل اليوم والليلة، وابن ماجه برقم (٣٨٣٠) و«صحيح ابن حبان» (٣/ ٢٢٧) و«المستدرك» (١/ ٥١٩) وابن أبي عاصم في كتاب «السنة» برقم (٣٨٤) وقد صحَّحه الألباني في صحيح «سنن أبي داود» (١٣٣٧) والحاكم (١/ ٥١٩) وأحمد شاكر في المسند.

ومن مكر الكفار أنهم يظهرون الشك في رسالة محمد ﷺ ويبطنون تكذيبه، وقد بيَّنت آخر آية في سورة الرعد، أنهم أفصحوا عما أبطنوه وصرحوا به، وخرجوا من طوْر المكر الباطني إلى طوْر المجاهرة بالكفر، ويقول الذين كفروا: لست -يا محمد- رسولًا من عند الله.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين أنكروا نبوتك: حسبي شهادة الله بصدقي وتكذيبكم، وكفى تأييده لي بالمعجزات الباهرات، والآيات الواضحات، فالله حسبي وكافيني.

وحسبي أيضًا شهادة الذين عندهم علم التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى، ممن آمن منهم برسالتي، وما جئتُ به من عند الله، فاتَّبع الحق وصرَّح بتلك الشهادة ولم يكتمها.

وكان اليهود قبل الهجرة يبشِّرون المشركين بمجيء النبي المصدِّق للتوراة، ومن أول من آمن به من أهل الكتاب (ورقة بن نوفل) الذي قال في أول ما نزل الوحي على رسول الله ﷺ: هذا هو الناموس الذي نزل على موسى ﷺ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. وكان (ورقة) منفردًا بمعرفة التوراة والإنجيل في وقته.

وممن آمن بالنبي ﷺ عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري.

قال قتادة: كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحق ويعرفونه، منهم عبد الله بن سلام، والجارود، وتميم الداري، وسلمان الفارسي(١).

وقال الزهري: كان عمر بن الخطاب ﷺ شديدًا على رسول الله ﷺ فانطلق يومًا حتى دنا من رسول الله ﷺ وهو يصلي، فسمعه وهو يقرأ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ حتى بلغ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨، ٤٩] وسمعه وهو يقرأ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ إلى آخر الآية فانتظره حتى سلَّم، فأسرع في أثره فأسلم(٢).

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف].

---

(١) عبد الرزاق (١/ ٣٣٩) والطبري (١٣/ ٥٨٣).

(٢) رواه عبد الرزاق مطولًا برقم (٩٧١٩).

فالآية تشمل أهل الكتاب جميعًا، ممن لم يكتموا صفة محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، وآمنوا به واتبعوه قديمًا وحديثًا.

وفي دلائل النبوة: أن عبد الله بن سلام لقي النبي ﷺ والناس حوله، وكان يجدد العهد بزيارة الكعبة، فقال لرسول الله ﷺ: انعت لنا ربنا، فقرأ عليه سورة الإخلاص، فانصرف إلى المدينة وكتم إسلامه، فلما قدم النبي ﷺ المدينة كان ابن سلام فوق نخلة، فألقى بنفسه من فوقها، فقالت له أمه: لو كان موسى بن عمران ما كان لك أن تُلقي نفسك من رأس النخلة، فقال: والله إني أَسَرُّ بقدوم رسول الله ﷺ من موسى بن عمران حين بُعث[1].

قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]

وقال سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقال: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

وقد استشهد القرآن بأهل الكتاب على أن محمدًا رسول الله على أساس أنهم كانوا يؤمنون به قبل بعثته، وكانوا يفتخرون على المشركين الوثنيين بمجيء النبي المصدِّق للتوراة، وأنهم أول من سيؤمن بالله، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وحسدوه ﷺ؛ لأنه من العرب، وليس من ذرية إسرائيل.

وقد أمر الله بالاستشهاد بأهل الكتاب، لأن كل أمر إنما يستشهد فيه بأهله، وهم أهل الشأن في هذا لأنهم أصحاب كتاب بخلاف مشركي العرب فلا فائدة في الاستشهاد بهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم.

تم تفسير (**سورة الرعد**) ولله الحمد والمنة.

(١) يُنظَر: «دلائل النبوة» (١/ ١٢٥) و«المعجم الكبير» للطبراني برقم (٣٧٢) ولفظه في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٧٤).

تَفْسِيرُ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ (١٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة إبراهيم هي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف، والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الشورى، وقبل سورة الأنبياء، وهي اثنتان وخمسون آية في العدد الكوفي برواية حفص[١].

وعدد كلماتها ثمان مئة إحدى وثمانون كلمة، وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربع مئة وأربعة وثلاثون حرفًا.

وسورة إبراهيم نزلت على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، ولا يُعرف لها اسم آخر.

وموضوع هذه السورة موضوع السور المكية في القرآن كله، والسور المكية تتناول ثلاثة عناصر، **هذه العناصر الثلاث** هي:

العنصر الأول: جانب العقيدة والتوحيد:

فأقامت السورة عشرة أدلة على توحيد الخالق سبحانه في ثلاث آيات، من الآية الثانية والثلاثين إلى الآية الرابعة والثلاثين.

والعنصر الثاني: جانب الرسالة والوحي:

وقد جاء ذكرهما في الآيات السبعة عشر الأولى من السورة.

والعنصر الثالث: هو جانب اليوم الآخر:

وما فيه من بعث وحساب وجزاء، وهو من الآية الحادية والأربعين إلى نهاية السورة.

وهذه العناصر بعد أن تحدثت السورة عن وظيفة القرآن، وعن جانب من مظاهر قدرة الله تعالى، وسوء عاقبة المكذبين.

---

(١) وإحدى وخمسون آية في العدد البصري، وخمس وخمسون في المصحف الشامي، وأربع وخمسون في المصحف المدني الأول والثاني والمكي.

وسورة إبراهيم تتميز عن السور المكية بأسلوب خاص في عرضها للعنصر الثاني؛ فهي حين تتكلم عن وحدة الرسالة لا تتناول دعوة كل رسول مع قومه، وإنما تتناول دعوة الرسل جميعًا، ووحدة الرسالات كلها، كأنها تجعل الرسل في جانب، وتجعل الأقوام، أو الأمم، أو أهل الجاهلية من كل أمة، في جانب آخر.

وتوجِّه السورة الخطاب أولًا لرسول الله ﷺ المنزل عليه هذا القرآن، ثم تخص من بين الرسل موسى وإبراهيم عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ لأن إبراهيم هو أبو الأنبياء، وخليل الله، ولأن موسى من أولي العزم من الرسل، ومن أكثرهم مكابدة ومثابرة لقومه، ولأن أمته كانت أكثر الأمم قبل أمة محمد ﷺ.

وضربت السورة الأمثال للمكذبين بالرسل من الأمم السابقة؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، ومثَّلت لكلمة التوحيد بالشجرة الطيبة، ولكلمة الكفر بالشجرة الخبيثة، ومثَّلت أيضًا للكفر والإيمان بقبول أعمال المؤمن، وعدم قبول أعمال الكافر.

وأبرزت السورة بعض مشاهد القيامة في التلاوم الذي يكون بين الضعفاء والمستكبرين، كما أبرزت خطبة الشيطان البتراء يوم القيامة في التبرؤ من أتباعه، وبيَّنت سوء مصير الظالمين في نهاية السورة، وتنقسم السورة إلى **مقطعين**:

المقطع الأول: يصوِّر المعركة بين الرسل والأمم المكذبة، أو حقيقة الرسالة والرسول.

والمقطع الثاني: يتحدث عن نعم الله تعالى على البشر، فذكَّرتْهم بنعم الله عليهم، وحرَّضتْهم على شكرها، وحذَّرتهم من كفرها وجحودها، وبيَّنت أن شكر النعَم يزيدها، وأن جحودها يستوجب العقاب الشديد، وضربت لهم المثل بمَن بدَّلوا نعمة الله كفرًا، وهم الذين كفروا بالنعمة بدل أن يشكروها ويؤدوا حق الله فيها، فجرُّوا بذلك الوبال عليهم وعلى أقوامهم.

وبيَّن جلَّ شأنه في سورة إبراهيم أنه أعطانا من كل النعم، وأن نعمه تعالى لا تُعدُّ ولا تحصى، ولكن الإنسان كثير الظلم لنفسه، شديد الكفر بربه.

وذكَّرت الفريقين من أهل الإيمان والكفر بحال إبراهيم ﷺ؛ ليعلم كل منهما من يسلك طريق الحنيفية السمحة، ومن يتنكَّب الطريق القويم.

وتناولت السورة سوء عاقبة الظالمين في الدار الآخرة، وأنهم يودّون العودة إلى الدنيا لإجابة دعوة الرسل، فيجابون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الآيتان: ٤٤، ٤٥].

و﴿يَوْمَ﴾ القيامة ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [الآية: ٤٨].

﴿وَ﴾ عندئذ ﴿تَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [الآيتان: ٤٩، ٥٠].

وكل نفس توفى جزاء عملها يوم القيامة ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]

وخُتمت السورة بكلمات جامعة فيها بلاغ للناس، وإنذار لهم، وتوحيد لخالقهم، وتذكير لأولي الألباب منهم.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

فَاتِحَةُ السُّورَةِ

١، ٢- ﴿الٓر(١) كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ(٢) بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ(٣) ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ(٤) ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾

تبدأ سورة إبراهيم بثلاثة أحرف هجائية؛ هي: الألف، واللام، والراء، والله أعلم بأسرار كتابه، وفيها إشارة إلى أن هذا القرآن المعجز مكون من هذه الحروف، وأنه جدير بالتأمل وإعمال النظر فيه، وأن هذا الكتاب الذي نزل على محمد ﷺ إنما هو لإخراج الناس من ظلمات الكفر والجهل والضلال والأخلاق السيئة، إلى نور الإيمان والعلم والأخلاق الحسنة، وهذا هو الغرض الأساس الذي نزل الكتاب من أجله.

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩].

وهذا الإخراج لا يكون إلا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فلا يحصل هذا إلا بإرادة الله.

ثم فسر سبحانه هذا النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فبيّن أنه صراط العزيز الحميد، فمن سلك هذا الطريق فهو عزيز بعز الله، ولو لم يكن له أعوان، وهو محمود في الدنيا والآخرة.

والآيات تجمع الظلمات وتفرد النور؛ لأن الظلمات أو طُرق الباطل عديدة كثيرة متنوعة

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت بدون تنفس على حروف الهجاء الثلاثة من (الر).

(٢) عدّ (إلى النور) آية، المدني الأول والثاني والمكي والشامي، وترك عدها البصري والكوفي.

(٣) قرأ قنبل ورويس بالسين في (صراط)، وأشمَّ الصاد صوت الزاي خلف عن حمزة، والباقون بالصاد الخالصة.

(٤) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر برفع الهاء من لفظ الجلالة (الله) وصلًا بـ (الحميد) قبلها، وابتدأ بلفظ الجلالة على أنه مبتدأ خبره (الذي) أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو الله، وقرأ رويس برفع الهاء في الابتداء، وخفضها في الوصل، والباقون بالجر في الحالين على أنه بدل مما قبله.

ومختلفة؛ فهي ظلمات الكفر والشرك، والغي والضلال، والطغيان والمعاصي، والآثام والذنوب، والجهل والباطل... إلخ، وآيات القرآن تخرجهم إلى طريق الحق والهدى والإيمان.

وطريق النور واحد لا يتعدد؛ لأن الحق واحد لا يختلف ولا يتنوع، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأُسند الإخراج إلى النبي ﷺ؛ لأنه المبلِّغ عن ربه.

وهذا الإخراج بإذن الله سبحانه؛ لأن وظيفة الرسول ﷺ أنه مبلِّغ عن ربه، يبشِّر وينذر، ولكن حقيقة الهدى والضلال بيد الله سبحانه وفْق ما عَلِمَه من خلْقه، ومن استعدادهم لأن يكون كل منهم من أهل الهدى، أو من أهل الضلال؛ فإخراجهم من الظلمات إلى النور يكون ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ وتوفيقه إياهم إلى الإسلام الذي هو طريق الله وصراطه المستقيم.

ولفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ يفيد عموم الرسالة، وأن محمدًا ﷺ بُعِث إلى جميع الناس في أرجاء المعمورة إلى قيام الساعة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]

وهو سبحانه العزيز الذي لا يُغلب، وهو المحمود بكل لسان في الأرض وفي السماء، والمحمود في السرَّاء والضراء، والمحمود على كل حال.

الكَافِرُ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ

والله سبحانه لا تنفعه الطاعة، ولا تضره المعصية؛ فهو سبحانه مالك الكون كله، وهو غني عن الناس كلهم، ومسيطر على هذا الكون بما فيه ومَنْ فيه، له ما في السموات وما في الأرض: ملكًا، وخلقًا، وعبيدًا، وتصرفًا، وتدبيرًا، لا يشاركه مشارك، ولا ينازعه منازع، له ملك هذا الكون بعالَمَيْه العُلْوي والسُّفْلي، وهو المستحِق للعبادة دون سواه؛ ولذلك فإن الكافر الذي لا يؤمن بالله سبحانه المتبع لغير صراط الله، له الويل والعذاب الشديد يوم لقاء رب العالمين.

وَصْفُ الكَافِرِينَ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ

٣- ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾

ثم وصف الله سبحانه الكفار الجاحدين لآيات الله المكذبين لرسله بأنهم يقاومون الوحي، ويكرهون العيش في ظلاله، يفضلون شهواتهم، ويؤثرون ملذاتهم، ويختارون دنياهم، ويقدِّمونها على طاعة الله ورسوله والعمل للقائه، ويتركون الآخرة الباقية، فيبيعون دنياهم بنعيم الآخرة، ولا يكتفون بذلك، بل يضعون العقبات في طريق الإسلام؛ حتى يبتعد الناس عنه ويصدوهم عن سبيل الله.

إنهم يقاومون الدعوة، ويعرقلون الطريق أمامها، ويمنعون الناس من اتِّباع دين الله، ويقفون حائلًا مانعًا من وصول كلمة الحق إلى عباد الله، ويريدون لكلمة الحق أن تكون معوجَّة، ويريدون لهذا الدين أن يكون فيه انحراف، وأن يكون معوجًّا؛ ليوافق هواهم، فهم يبغونها طريقًا عوجًا، وقد وصف الله الطريق المعتدل في الجانب المحسوس بقوله: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه]

وهكذا طريق الحق والنور، طريق معتدل مستقيم.

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى].

وقد وصف الله الكفار في الآية بأربع صفات هي:

١- محبتهم الدنيا دون الآخرة.

٢- صدهم الناس عن دين الله.

٣- رغبتهم في أن يكون دين الله موافقًا لهواهم.

٤- بُعدهم عن طريق الحق، وأسباب الهداية.

وهكذا وصف الله الظالمين، ووصف أهل الكتاب، ووصف غير المؤمنين باليوم الآخر، ووصف المشركين بالله تعالى.

أ- فجاء وصف الظالمين في قوله سبحانه: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [هود: ١٨، ١٩] وقوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥]

ب- وعن أهل الكتاب يقول سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ [آل عمران: ٩٩]

جـ-ثم وصف الله تعالى المكذبين باليوم الآخر بالضلال؛بسبب صدهم الناس عن سبيل الحق، وابتغائهم سبيل الباطل، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨] وقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨]

د-كما جاء وصف المشركين بالله بالضلال أيضًا، في مثل قوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

والذي يمنع الناس من الدخول في الإسلام؛ طلبًا لمرضاة الهوى والشيطان،كمن يمنع المارة من عبور الطريق.

وهؤلاء قد عطَّلوا مداركهم ومواهبهم عن تدبر آيات القرآن.

العَرَبِيَّةُ هِيَ اللِّسَانُ المُخْتَارُ لِلرِّسَالَةِ الأَخِيرَةِ

٤- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

ثم إن الكفار في كل زمان ومكان يقولون: هلَّا نزل هذا القرآن بغير لغة العرب؛ كالعبرانية، أو البلجيكية، أو الإنجليزية، أو الفارسية؛ ظنًّا منهم أن للكتب الإلهية لغة خاصة تنزل بها، كما زعم السراج البلقيني أن لغة الملائكة ولغة الأرواح وسؤال الميت يكون باللغة السريانية، وهو زعم غير صحيح.

وكان من يتهوَّد أو يتنصَّر من العرب -كعرب اليمن- تُترجَم لهم بعض التوراة، أو الإنجيل بالعربية، كما جاء في حديث ورقة بن نوفل في كتاب بدء الوحي من صحيح البخاري، فاستقر في نفوس المشركين أن القرآن لو كان من عند الله لكان باللغة التي جاءت بها الكتب السابقة، فكانت عربية القرآن عندهم وجهًا من وجوه الطعن فيه، أنه منزل من الله تعالى.

وفي هذه الآية إجابة على هذا الزعم الفاسد؛ فكل رسول أرسله الله بلسان قومه؛ ليسهل التفاهم والتخاطب بينهم، وليتمكنوا من تعلُّم ما أتى به، ولو كان الوحي بغير لسانهم لا احتاجوا إلى تعلم تلك الله حتى يفهموا عن الله مراده.

وقبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فيكون المعنى: أنزلنا إليك يا محمد، هذا القرآن بلغة قومك؛ لتبين لهم الذي أوحينا إليك، فتخرجهم من الظلمات إلى النور، وما من رسول أرسلناه إلى قومه إلَّا بلسانهم؛ ليبيِّن لهم.

فكل رسول يُبعث إلى أمته بلغتهم، وقوم محمد ﷺ هم العرب، أما أمته المبعوث إليهم فهم الناس كافة، وقد نزل القرآن بلغة العرب؛ لأن النبي ﷺ منهم، وهم أول من تلقَّى الوحي، ومن المتعذر أن ينزل القرآن بلغة الأمم جميعًا، فاختار الله رسوله من أفصح الأمم لسانًا، وأحسنهم استعدادًا لقبول الهدى والإرشاد، ولم يؤمن برسول من رسل الله في حياته عدد من الناس مثل العدد الذي آمن بمحمد ﷺ؛ فقد عم الإسلام في حياته بلاد العرب، وحج معه مئة ألف من الرجال المستطيعين للحج.

وقد اختار الله لغة العرب للكتاب الخاتَم؛ لأنها أصلح اللغات وأكثرها جمعًا للمعاني، وهي أكثر من غيرها إيجازًا وسهولة وسرعة للحفظ، ولها جمال ووقع في الأسماع، ولأنها أبعد من التحريف، وأسلم من الاختلاف.

وجُعلت الأمة العربية هي المتلَقية له في البداية، وعَهِد الله إليها نشْرَهُ بين الأمم.

ولو نزل القرآن بجميع اللغات لكان هذا مظنة للتنازع، وفتحًا لباب الاختلاف، وادَّعت كل أمة من المعاني في لغتها ما لا يعرفه غيرها من بقية اللغات، فيفضي هذا إلى التغيير، والتبديل، والتصحيف؛ بسبب الدعاوى الباطلة التي يقع فيها المتعصبون.

ونزول القرآن بلغة واحدة، مع اختلاف الأمم وتباين اللغات، أبلغ في اجتهاد المجتهدين في تعليم معانيه، وتفهم فوائده وأسراره وعلومه، وحدوده وأحكامه.

إذًا فقد بعث الله محمدًا ﷺ من العرب وبلسانهم، والناس تبع لهم؛ ليترْجموا لهم بألسنتهم، ويدعوهم إلى الله تعالى بلغاتهم، والعرب آثمون بالنسبة لأي لغة في العالم لا يصل إليها القرآن بلغتهم؛ لأن بعثة النبي ﷺ إلى الخلق جميعًا.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]

بل إنه ﷺ رسول إلى الثقلين: الإنس، والجن، بل عمت رسالته ﷺ العالمين جميعًا، فهي رسالة تشريف بالنسبة للملائكة ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان].

ولو نزل القرآن في العرب بلغة العجم ما آمنوا به ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۝١٩٩﴾ [الشعراء]

﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت: ٦٤].

فما من رسول أرسله الله إلى قومه إلا بلغة هؤلاء القوم؛ كي يفهموا عن الله مراده، وليبين لهم شرعه وأحكامه بلغتهم التي يفهمونها، كما جاء عن عليٍّ ﷺ: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذب الله ورسوله؟![1].

فإذا قال لهم شيئًا لا يفهمونه فإنه يكون مثارًا للخلاف والجدل وعدم الفَهم، ولذا، فقد أرسل الله لكل أمة رسولًا بلغتهم؛ ليوضح لهم شرع الله تعالى.

ففي الحديث عن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لم يبعث الله نبيًّا إلا بلغة قومه»**[2].

وفي الصحيحين عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى كل أحمر وأسود، وأُحِلَّت لي الغنائم، ولم تُحلَّ لأحد قبلي، وجُعِلَتْ لي الأرض طيبة طهورًا ومسجدًا، فأيُّما رجل أدركته الصلاة صلَّى حيث كان، ونُصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأُعطيت الشفاعة»**[3].

قال ابن عباس ﷺ: إن الله تعالى فَضَّل محمدًا على أهل السماء وعلى الأنبياء، قيل: فما فضلُه على أهل السماء؟ قال: إن الله قال لأهل السماء: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ﴾ [الأنبياء: ٢٩] وقال لمحمد ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ

---

(١) من قول عليٍّ ﷺ في البخاري برقم (١٢٧).

(٢) «المسند» (٥/١٥٨) برقم (٢١٤١٠) قال محققوه: متْنُه صحيح ورجاله ثقات رجال الصحيح، وفيه انقطاع في السند بين مجاهد وهو ابن جبير وأبي ذر، وأخرجه البزار في مسنده (٤٠٥٤) والحميدي (١٣٣) وابن ماجه (٩٢٧) وابن خزيمة (٧٤٨).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٥٢١) واللفظ له و«صحيح البخاري» بأرقام: (٣٣٥، ٤٣٨، ٣١٢٢).

وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فكتب له براءة من النار.

قيل له: فما فَضْلُه على الأنبياء؟ قال: إن الله يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨] فأرسله إلى الإنس والجن[(١)].

وكل نبي بُعث إلى قوم كان بلغتهم، واختُصَّ محمد ﷺ بعموم الرسالة، وكانت العربية هي نقطة الانطلاق إلى لغات العالم، ولو نزل القرآن بغيرها لدار السؤال.

وأمة محمد ﷺ اختار الله لها هذا الرسول العربي من بين العرب في بقعة تتوسط العالم، واختار لها هذه اللغة، ولم ينزل القرآن بلغات الأمم جميعًا، إنما أنزله الله بلسان واحد هو العربية، ومهمة الدعاة إلى الله بعد محمد ﷺ أن يترجموا معاني هذا القرآن، ويوصلوها بلغات العالم جميعًا، ويبلغوا هذه الدعوة للناس جميعًا.

فالنبي ﷺ لم يمت إلا والإسلام قد انتشر في جزيرة العرب كلها، وقبل أن يموت ﷺ جهز جيش أسامة؛ لإرساله إلى أطراف الجزيرة وإلى الشام، ثم امتد الإسلام بعد ذلك إلى خارج الجزيرة، فأرسل الرسول ﷺ -وهو حي- كُتبه إلى المقوقس، وإلى النجاشي، وإلى كسرى وقيصر، وغيرهم من الملوك والرؤساء، أرسل إليهم بلغاتهم يدعوهم إلى الإسلام، ولو كان القرآن بهذه اللغات المتعددة لكانت أساليبه مختلفة، وألفاظه متباينة، ومعانيه تبعًا لذلك مختلفة، ولكن القرآن كان واحدًا بلسان العرب، وتبليغ الدعوة إلى الناس كافة مهمة هذه الأمة، حكَّامًا وعلماء.

وقد أصبح توصيل دعوة رسول الله ﷺ عبر الفضائيات، وشبكة المعلومات، ووسائل الإعلام المتعددة، والأجهزة العالمية الحديثة إلى العالم كافة، سهلة وميسورة.

وبعد أن يبيِّن لهم الرسول هُدى الله وشرعه، ويُقيم عليهم الحجة، يضل الله من يشاء، ويهدي من يشاء على يدي هذا الرسول، فمن كان فيه استعداد للضلال بسبب زيغ قلبه فطريقه الضلال، ومن كان فيه استعداد للهدى بسبب هداية في قلبه واستقامة منه فطريقه

---

(١) أخرجه أبو يعلى كما في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٥٥) والطبراني في «الكبير» (١١٦١٠) والحاكم (٢/ ٣٥٠) والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٤٨٦) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير الحكم بن أبان وهو ثقة.

الهدى، وذلك وفق علم الله تعالى منه في الأزل، وقد سُجِّل هذا في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الله الإنسان، وهو سبحانه عزيز في ملكه لا يغلبه غالب، حكيم في صنعه يضع الأمور في مواضعها وفق حكمته ومشيئته.

مُوسَى عليه السلام يُذَكِّرُ قَوْمَهُ بِنِعَمِ اللَّهِ وَنِقَمِهِ

٥- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ[١] وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ[٢] شَكُورٍ ۝٥﴾

ثم أفرد الله سبحانه بالذكر من بين الرسل، موسى عليه السلام في دعوته لقومه خاصة، بعد أن وجَّه سبحانه الخطاب إلى محمد ﷺ صاحب الرسالة العامة الخاتمة لجميع الرسالات.

أي: وكما أنزل الله كتابه على محمد خاتم الأنبياء؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليعلمهم أن الحياة الدنيا مرحلة إلى ما بعدها، أرسل الله من قبله موسى ﷺ؛ لينقذ قومه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ويدعوهم إلى إخلاص العبادة لله وحده، وينقذهم أيضًا من ظلمات الذل والعبودية، ويَمُن عليهم بالحرية المطلقة: حرية العقل، والضمير، والحركة، والمرح، في نعم الله تعالى، ولم يطلب موسى من قومه أكثر من أن يذكروا فضل الله عليهم، ويعرفوا حق صاحب الفضل، فيؤدوا واجب شكره، ويقدِّروه حق قدره، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ إلى بني إسرائيل ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ الدالة على صدق رسالته يدعوهم إلى الإيمان، ويخرجهم من الضلال إلى الهدى، ويذكِّرهم بنعم الله وإحسانه إليهم، ويذكرهم بحوادث الدهور ووقائع الأيام بالكافرين،ليشكروا نعمهويحذروا عقابه ويستدلوا بأيام الله على كمال قدرته وعميم إحسانه، وتمام عدله وحكمته.

وقد أيَّد الله موسى بالمعجزات الدالة على صدقه؛ وهي التوراة التي نزلت عليه، **والمعجزات التسع**: العصا، واليد، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدَّمُ، والجَدْب، ونقص الثمرات، أو فلق البحر، ونتق الجبل.

فالمهمة واحدة؛ مهمة الدعوة عند محمد ﷺ هي نفس المهمة عند موسى ﷺ، وسائر

(١) عدّ (إلى النور) آية، الحجازيون والشامي، وتركها العراقي.

(٢) قرأ البصري ودوري الكسائي بإمالة ألف (صبار)، وقللها ورش، وفتحها الباقون.

الرسل؛ وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

و بالنسبة إلى محمد ﷺ قال ﷺ: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: تخرج الخلق جميعًا في أرجاء المعمورة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

أي: من الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الضلالة إلى الهدى.

أما بالنسبة إلى موسى ﷺ، فقال تعالى: ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾ فهي دعوة خاصة بقومه الذين طال عليهم الأمد بعد يوسف ﷺ، فسَرى إليهم الشرك؛ بسبب مخالطتهم للفراعنة في مصر، فكانت رسالة موسى ﵇؛ لإصلاح عقيدتهم، وإخراج بني إسرائيل من مصر، ودعوة فرعون وقومه إلى التوحيد.

فالدعوة واحدة، ولكنها عامة في الرسالة الأخيرة، وقد قال الله سبحانه عن جميع الرسل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾

وقال تعالى بالنسبة لمحمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]

فكل رسول له دعوة خاصة، لها زمان معين، ومكان معين.

ثم أمر الله موسى ﵇ أن يعظ قومه بالترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وأن يذكِّرهم بالأيام التي نجَّى الله فيها بني إسرائيل من عدوهم.

وقد مرَّ ببني إسرائيل أيام غمَرهم الله فيها بكثرة النعم، وأيام أخرى أصيبوا فيها بالنِّقَم، وقد أمرهم الله أن يتذكروها، فقال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾.

عن أُبَيِّ بن كعب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنه بينما موسى ﵇ في قومه يُذكِّرهم بأيام الله، وأيام الله نعماؤه وبلاؤه إذ قال: ما أعلم في الأرض رجلا خيرا وأعلم مني. .**» الحديث[1]، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

والأيام كلها أيام الله، والمراد: الأيام التي فيها المحن والشدائد، والبلاء والعبر، وفيها كثرة النعم كفلْق البحر، وإنزال المَنِّ والسَّلْوى، وتظليل الغمام، وغير ذلك.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٨٠)، من حديث طويل في قصة موسى والخضر.

صح عن النبي ﷺ أنه فسَّر أيام الله قال: «**نعم الله وآلاؤه**»[١].

فيذكِّرهم موسى عليه السلام بنعم الله ونقمه، ويذكِّرهم بما حدث للأمم السابقة؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود؛ حتى يشكُروا، ويصبروا، ويعتبروا، ولا يغفلوا.

وفي هذا التذكير، دلالات لكل من: صبر في الضراء والعسر والضيق، وشكر على السراء والنعمة؛ فالمؤمن إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له، فهو إذا ابتُلِي صبر، وإذا أُعطِي شكر.

مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: نَجَاتُهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ

٦- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾

ومن أيام الله التي فيها تذكير موسى لبني إسرائيل بنعم الله عليهم حين نجَّاهم الله من فرعون وقومه، فعبَر بهم موسى البحر الأحمر، ونجَّاهم الله من الغرق؛ كي يشكروه سبحانه.

وهذا يذكرنا بما عليه اليهود في أيامنا هذه من: إفساد في الأرض، واستعلاء وجبروت، وتخطيط شامل لنسف من عداهم، وانفرادهم بالحكم والقوة مع أن اليهودية قد نسختْها رسالة عيسى ﷺ، ورسالة محمد ﷺ نسخت رسالة عيسى ﷺ، ولم يبقَ لليهودية، ولا لغيرها من الشرائع وجود في ظل الرسالة الإسلامية، فلماذا هذا الطغيان؛ طغيانهم في وقت نبيهم، وطغيانهم في هذا العصر بعد وجود عيسى ومحمد عليهما السلام؟

ومن هذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل أن نجَّاهم من آل فرعون، وكانوا يذيقونهم أشد العذاب، ويسخِّرونهم في الأعمال الشاقة التي كانوا يتولوْنها من حفر وبناء، فيستغلّونهم ويذلّونهم، ويذبحون الذكور منهم ويستبقون الإناث؛ حتى لا يأتي منهم من يستولي على ملك فرعون.

---

(١) صحَّ هذا عن أُبَيِّ بن كعب في زوائد «المسند» برقم (٢١١٢٨) عن عبد الله بن أحمد وقال محققوه: حديث صحيح وهو في «السنن الكبرى» للنسائي (١١٢٦٠) وعند البيهقي في «الشعب» (٤٤١٨)، وعبد بن حميد (١٦٨) والطبري في التفسير (١٣/ ١٨٤).

قيل: وكان فرعون قد رأى في منامه رؤيا فسَّرها له الكهنة بأن مولودًا يولد من بني إسرائيل يكون زوال ملكه على يديه، فأراد فرعون أن لا يبقي فيهم قوة، وأن يقتل الذكور؛ حتى لا يخرج منهم هذا الذي يسلبه ملكه، وأن يستبقي الإناث للخدمة والاستمتاع، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة]

وفي هذا البلاء والإنجاء اختبار لكم من ربكم عظيم.

قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]

وقال سبحانه ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

الشُّكْرُ يَزِيدُ النِّعَمَ وَعَدَمُ الشُّكْرِ كُفْرٌ بِهَا

٧- ﴿وَإِذْ[١] تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

واذكروا -أيها الناس- نعمة الله عليكم؛ إذ أعلمكم الله إعلامًا واضحًا مؤكدًا أنكم إن شكرتموه على نعمه زادكم من عطائه، وإن جحدتموها واستعملتموها في غير ما يرضيه محقها من أيديكم، وهذه سُنَّة الله في خلقه؛ النعم تزيد بكثرة الشكر، كما يزيد الثواب بكثرة الطاعة.

وفي الحديث عن ثوبان ﷺ: **«إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»**[٢].

فالمعصية يقع فيها العبد فيُحرم الرزق بسببها.

وفي مسند الإمام أحمد وغيره عن أنس ﷺ أن رجلًا مرَّ بالنبي ﷺ، وسأله فأعطاه تمرة، فردها الرجل ولم يقبلها؛ لأنها تمرة واحدة، ثم مر سائل آخر فأعطاه النبي هذه التمرة، فأخذها الرجل، وقال تمرة من رسول الله، أي: يكفي أنها من رسول الله، وفرح بها الرجل وشكر الله، فلما رأى النبي ﷺ قناعته، قال للجارية: **«اذهبي إلى أم سلمة**

(١) أدغم الذال في التاء من (وإذ تأذن) البصري وهشام وحمزة والكسائي وخلف، وأظهرهما الباقون.

(٢) حسَّنه العراقي في «زوائد البوصيري» (١/ ٦١) وهو في «المسند» (٥/ ٨٠) برقم (٢٢٤١٣، ٢٢٤٣٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٩٠)، وانظر تخريجه في الآية (١٣٩) من سورة الرعد.

فأعطيه الأربعين درهمًا التي عندها»[١].

ولم يستبقِ شيئًا في بيته أو لنفسه، فإن شكرتم الله على نعمه زادكم من فضله، وشكْرُها يكون بالقول والعمل والسلوك، وإن كفرتم نعم الله عليكم؛ جحدتموها ولم تشكروها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

وشكر النعمة يقتضي القيام بواجب حق الله فيها، وعدم الاستعلاء بها على الناس، ونسبة الفضل فيها إلى الله تعالى، ولا يكون العبد كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] فينسب لنفسه أنه جدير بها، مستحق لها؛ بمقتضى علمه وخبرته، أو وراثته للمال والمتاع عن غيره، قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧].

ضَرَرُ الكُفْرِ يَعُودُ عَلَى فَاعِلِهِ

٨- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾

ثم أعلمهم موسى عليه السلام أن ضرر جحودهم وكفرهم يعود عليهم، وفائدة شكرهم وطاعتهم تعود عليهم، فإن شكرتم أنتم وجميع الخلائق فلن تنفعوه شيئًا، وإن كفرتم أنتم وجميع الخلائق فلن تضروه شيئًا؛ إن الله غني عن عبادة خلقه؛ فالطاعة لا تنفعه، ولا تضره المعصية: **«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا.**

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا.

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»[٢].

---

(١) يُنظَر هذا المعنى في: «المسند» (٣/ ١٥٤) بسند فيه مقال لأن ابن راذان مختلف فيه ورقمه (١٢٥٧٤، ١٣٧٣١)، وهو عند البيهقي في شعب الإيمان (٩١٣٥).

(٢) من حديث أبي ذر في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٧).

والله سبحانه غني عن خلقه، مستحق للحمد والثناء من جميع خلقه.

الاعتبار بما حل للأمم التي كذبت رسلها

٩- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ[1] وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم[2] بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

والآية التاسعة من سورة إبراهيم فيها تذكير بأيام الله في نقمته من الأمم الكافرة، وهذه الآية وما بعدها تحمل قصة الرسل جميعًا مع أممهم في مواجهة الكفر، وتبيِّن عاقبة الأمم المكذبة التي لم تهتد بهدْي الرسل، ولم تقتف أثرهم، في كل زمان ومكان؛ كي تعتبر هذه الأمة، وتتعظ بما أصاب المكذبون؛ لئلا يحدث لها ما حدث لغيرها.

يخاطب الله بذلك أمة الإجابة الذين أجابوا رسول الله ﷺ، واستجابوا لدعوته، ويخاطب أيضًا غير المسلمين من: اليهود، والنصارى، وسائر الكفار من الوثنيين وغيرهم إلى قيام الساعة، من أمة الدعوة التي وُجِّهت إليها دعوة المصطفى ﷺ، ويُطلَب منها الدخول في الإسلام.

ألم يأتكم -يا أمة خاتم الرسل- خبر الأمم السابقة، وماذا حدث لهم حين كذبوا رسلهم، ووقفوا في وجوههم، ولم يهتدوا بهدْيهم؛ كقوم نوح وما حل بهم من الطوفان، وقوم عاد وثمود، كيف أبادهم الله وخرَّب ديارهم؟ وما حل بالمكذبين بعدهم كقوم لوط الذين قلب الله ديارهم وأمطرهم بحجارة من سجيل، وما أصاب قوم شعيب، وأصحاب الرَّس، وقوم تُبَّع، فهم من العرب يقيمون في مساكنهم وبلادهم، وهم يمرون على ديارهم في غُدوِّهم ورواحهم، ويخبر بعضهم بعضًا بما حدث لهم، وكذا الأمم التي بعدهم ولا يحصي عددهم إلا الله، وهم غير الأمم التي ذُكرت في القرآن، ورسل كثيرون لا يحصِي عددهم إلا رب العالمين، ومنها أمم قد مضت وانتهت وطوى التاريخ صفحاتها فاندثرت معالمها، ولم تُعْلَم للبشر، ولا يعلمها إلا رب العالمين.

---

(١) (وعاد وثمود) عدّها آية البصري والمكي والمدنيان وأسقطها من العدد الشامي والكوفي.

(٢) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسْلهم)، والباقون بضمها، وهما لغتان، ومثلها (رسُلهم) في الآية التالية.

كان ابن مسعود ﷺ عندما يقرأ هذه الآية يقول: كذب النَّسَّابون من فوق عدنان، أي: الذين يدَّعون علم النسب إلى آدم؛ وذلك لأن الله سبحانه قد نفى علمه عن العباد، كما نفى علم الإنسان عن كثير من الأمم والرسل قال سبحانه: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨] وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المؤمنون] فقد أجملهم القرآن، ولم يفصل أسماءهم ولا ديارهم، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

عن ابن عباس ﷺ قال: كان بين إبراهيم وعدنان ثلاثون قرنًا لا يعلمهم إلا الله. وذكر المهدوي: أن بين عدنان وإسماعيل ثلاثين أبًا [(١)].

وهذه الأمم جاءتهم رسلهم بالبينات، أي: المعجزات الدالة على صدق دعواهم.

وفي سورة الأعراف، وهود، وغيرهما من السور التي فيها ذِكْرُ قصص الأنبياء ذَكَر الله فيها قصة كل رسول مع قومه: قصة نوح مع قومه، وقصة هود مع قومه، وقصة صالح مع قومه، وهكذا.

وفي سورة إبراهيم إجمال لهذه القصص كلها، وما حدث على وجه الإجمال مع جميع الرسل في كل زمان ومكان، وقد جاؤوا أقوامهم بالمعجزات والخوارق الدالة على رسالتهم، وعلى صدق دعواهم فلم يؤمنوا.

كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر»**.

أي: ما من نبي إلا وقد أيَّده الله بمعجزة وآية، دالة على صدق رسالته يؤمن على مثلها البشر، قال ﷺ في تتمة الحديث السابق: **«وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»**[(٢)].

فما كان من الملأ، وكبار القوم، والرؤساء إلا أن كذبوا رسلهم، وأعرضوا عنهم،

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/٣٢٦) وأخرجه أبو عبيد وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٨/٤٩٦) وأخرجه الحاكم بسند صحيح ووافقه الذهبي في «المستدرك» (٢/ ٣٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٩٨١) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٢).

وهذا معنى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾.

١- أي: أنهم عضُّوا أصابعهم وأناملهم غيظًا وحنقًا على ما جاءت به الرسل، استنكافًا عن قبول الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ [آل عمران: ١١٩].

٢- وقد يكون المعنى: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم استهزاءً وتعجبًا من كلام الرسل.

٣- أو أنهم ردوا أيديهم في أفواههم، بمعنى: أشاروا إلى الرسل بأصابعهم أن اسكتوا، ووضعوا أصابعهم على أفواههم.

والمعنى العام: أنهم كذَّبوهم، وردوا قولهم.

أخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة قال في معناها: ردوا على الرسل ما جاءت به، كما أنهم ردوا النعمة والحق الذي جاء به الرسل، ولو آمنوا لعاد الخير عليهم في الدنيا والآخرة، ولكنهم كذبوا الرسل، وردوا أقوالهم، وقالوا لرسلهم: إنا لا نصدق بما جئتمونا به، حسب زعمكم أنكم أُرسِلتم إلينا، وإلَّا لو كانوا قد اعترفوا بالرسالة، وقالوا ذلك؛ إيمانًا منهم لما كانوا كفارًا، ولكنهم لم يعترفوا، وقالوا: إنا كفرنا بما تزعمون أنكم أُرسِلتم به، وعلى الأقل فنحن في قلق واضطراب، وفي حيرة وشك مما جئتم به، ونحن لا نصدقه، فضلًا عن أننا كفرنا برسالتكم.

الحِوَارُ بَيْنَ الرُّسُلِ وَالأُمَمِ المُكَذِّبَةِ لَهُمْ

١٠- ﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ[1] إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾

قالت الرسل للأقوام على سبيل الإنكار والتعجب من أقوالهم الباطلة: بماذا تكفرون؟ أتكفرون بالله؟ أفي وجود الله تعالى وعبادته ريب؟ أفي إلهيَّة الله وربوبيته شك؟ إن الفِطَرَ تشهد بأن الله واحد أحد، فكيف تشكُّون في وحدانيته تعالى، وفي إفراده بالعبادة؟ وهو خالق السموات والأرض، وهما أكبر شاهد على وحدانيته وألوهيته ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (ويؤخركم) واوًا ومثلهما حمزة عند الوقف.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر].

أفي الله شك وهو خالق هذا الكون بما فيه من العالم العلوي والسفلي ومبدعهما، وخالق مَنْ فيهما من الكائنات والمخلوقات على غير مثال سابق؟ هل أحد ينكر ذلك؟ وهو سبحانه يدعوكم إلى الإيمان به جلَّ شأنه عن طريق الرسل، وعن طريق الكتب؛ ليغفر لكم بعض ذنوبكم، ولتكون العاقبة لكم.

ومما يستفاد من هذا الإيمان: غفران الذنوب لكم فيما بينكم وبين الله تعالى من: الكفر، والمعاصي، والكبائر التي تقع منكم إن أنتم تبتم، ورجعتم إلى الله تعالى قبل الغرغرة، فيغفر الله لكم ما بينكم وبينه من بعض ذنوبكم التي هي حق لله تعالى.

أما المظالم وحقوق العباد فإنها ترجع للعباد، ويؤخر الله بقاءكم في الدنيا إلى أجل قدَّره وهو نهاية آجالكم، فيمهلكم إليه بلا عقوبة، ولا يعاجلكم بالذنب في الدنيا كالأمم التي سبقت، وإنما يؤخركم إلى أن ينتهي أجلكم وهو الأجل المسمى، أو إلى أن تقوم الساعة.

وعندئذ يبدأ الحوار بين الرسل وبين الكفار، فيقول الكفار للرسل: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ صفاتكم كصفاتنا، لا فضل لكم علينا يؤهلكم أن تكونوا رسلًا، وهذه المقولة قالتها كل الأمم إلى جميع الرسل، فهم يستنكِرون أن يكون الرسول بشرًا منهم، ويعتقدون أنه لا بد أن يكون ملَكًا، فيقولون: أنتم بشر مثلنا، تأكلون وتشربون وتنكحون النساء مثلنا! فكيف تُفضَّلون علينا؟ وكيف تكونون رسلًا، وليس هناك ما يؤهلكم للرسالة؟!

وكان المفروض أن يعتزوا بأن يكون الرسول من البشر، ولكنهم عكسوا الآية، وقالوا: تريدون أن تمنعونا عمَّا كان يعبد آباؤنا، وما ورثناه عن أجدادنا؟ فكل ابن يرث عن أبيه أشياء لا يفكر فيها، وكل مجتمع يرث عن مجتمعه أشياء لا يفكر في مشروعيتها، يقلدها ويفعلها، وإن كان فيها عصيان، أو شرك، أو كفر فأتونا بحجة ظاهرة تشهد على صحة ما تقولون.

التَّمَاثُلُ البَشَرِيُّ لَا يَمْنَعُ التَّفَاضُلَ بِالنُّبُوَّة

١١- ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١١﴾

قال الرسل لمن كذبوهم بعد سماع أقوالهم: نحن نعلم حقًّا أننا بشر مثلكم كما قلتم،

ولكن المماثلة في البشرية لا تقتضي المماثلة فيما زاد عليها؛ فالبشر كلهم عباد الله، ونحن لم نَدَّعِ أننا ملائكة، وإنما نحن بشر منكم، ونحن نسلِّم بهذا، ولكن الله يمُنُّ بالفضل، والنبوة، والرسالة على من يشاء من عباده، فيصطفي من الملائكة رسلًا، ومن الناس ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وهكذا بعدما سلَّمت الرسل للمكذبين دعواهم المماثَلة في البشرية، بيَّنوا لهم جهلهم بأن هذه المماثلة لا تمنع التفاضل بأن يختص الله بعض البشر بالنبوة.

ثم أجابوهم عما يقترحونه عليهم من الإتيان بدلائل النبوة، فقالوا: أما ما طلبتم من المعجزات والخوارق فهذا يرجع إلى الله، ولا نملكه إلا بتوفيق الله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بآية خارقة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وإرادته، وأمره؛ فنحن عباد الله، ولا نتصرف إلا بإذنه، ونحن ماضون في طريق الدعوة إلى الله، ومتوكلون عليه في دفع شروركم وأذاكم، وهو الذي يمنعنا وينصرنا.

وعليكم أن تنظروا فيما جئناكم به، فإن كان حقا فاقبلوه، وإن كان غير ذلك فردوه، ولا تجعلوا بشرية الرسل حجة لكم على ردّ ما جاؤوكم به. قالت الرسل لأممهم:

١٢- ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا(١) وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

وما الذي يمنعنا من التوكل على الله؟ وكيف لا نعتمد عليه، ونحن على الحق والهدى، بخلاف من كان على ضلال، فهو غير ضامن على الله، لأن حاله يناقض التوكل.

والله سبحانه هو الذي أرشدنا إلى طريق النجاة من عذابه باتباع أحكام دينه.

ومن هذا الباب قول نوح عليه السلام لقومه ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يونس ٧١] وقول هود لقومه ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٦]

وهكذا يستمر الرسل في دعوة أقوامهم غير مبالين بما ينالهم من أذى، قائلين لهم: ولنصبرنَّ صبرًا جميلًا في حاضرنا ومستقبلنا على ما آذيتمونا بالكلام السيئ والفعل

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان الباء من (سبْلنا)، والباقون بضمها.

القبيح؛ فالله كافينا، وعلى الله وحده يجب أن يعتمد المؤمنون في نصرهم وهزيمة أعدائهم، فنحن ثابتون على الحق إن شاء الله، ومستمرون في طريق الدعوة إليه، وماضون في التوكل عليه؛ لدفع شروركم وأذاكم، ونعتمد عليه سبحانه في هزيمتكم ونصرنا.

والتوكل الثاني المذكور في هذه الآية، يعني الدوام والاستمرار على اعتمادهم على الله، وتفويض الأمر له، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وَعِيدُ اللَّهِ تَعَالَى لِمَنْ كَذَّبَ رُسُلَهُ

ولما ذكر سبحانه استمرار دعوة الرسل دون ملل مع ما ينالهم من أذى، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع أقوامهم، فقال تعالى:

١٣- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ[1] لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣﴾

هكذا يتوعد الكفار رسل الله فيهددونهم بالطرد أو اتباع ملتهم، فقد طلب الكفار من الرسل بعد أن ضاقت صدورهم من دعوتهم أحد أمرين: إما أن يخرجوا من بلادهم، أو يكفروا مثلهم، وأكدوا ذلك بالقسم، فقالوا: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ وليس معنى ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ أن الرسل كانوا على ملتهم قبل دعوة النبوة، وإنما المراد طلب الانتقال من حال سابقة إلى حال جديدة، فيصيروا كفارًا مثلهم، وهذه مقولة يقولها الكفار على سبيل التهديد لجميع الرسل في كل الأزمنة والأمكنة، فيخيِّرونهم بين طرْدهم، وإخراجهم من أرضهم، وبين أن يدخلوا في ملتهم ويكونوا كفارًا مثلهم.

فلا يكفيهم أن يتخلوا عن طريق الدعوة، وإنما يريدون أن يتحولوا إلى ملتهم، ويكونوا كفارًا مثلهم، كما قال قوم شعيب له: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٨].

فالمطلوب أحد الأمرين: إما أن تخرج أنت ومن آمن معك من هذه البلاد، وإما أن تصير إلى ملتنا، كما قالوا للوط ﷺ: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]

---

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (الرسلهم)، وبضمها الباقون.

وقالوا عنه أيضًا: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وكما كادوا يفعلون بمحمد ﷺ: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء]

وكما تآمروا عليه ﷺ في ليلة الهجرة؛ كي يخرجوه من مكة ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

والله سبحانه يقول في هذه السورة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ﴾ الذين جاؤوا لهدايتهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وذلك على مدى التاريخ كله، وهذه مقولة من جميع الأمم لجميع الرسل حيث قالوا لهم: لَنطْرُدنكم من بلادنا؛ حتى تدخلوا في ديننا.

والرسل لم يكونوا كفارًا ولا مشركين؛ حتى يعودوا إلى ما كانوا عليه، وإنما المعنى لنخرجنكم من أرضنا أو لتصيرُنَّ في ملتنا وتنتقلُن إليها؛ فالرسل لم يعرفوا الشرك، ولم يعرفوا إلا التوحيد منذ خُلِقوا جميعًا.

فأوحى الله سبحانه إلى رسله مجيبًا عن هذا التحدي بنصرة الله تعالى للحق، وأنه سيهلك الكافرين الجاحدين المكذبين لله ورسله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات].

وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة].

وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فلما تحدوهم بهذا الشكل، وخيَّروهم بين الأمرين أوحى الله سبحانه إلى رسله ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من المكذبين المعاندين بأنواع العقوبات، وهكذا وعد الله رسله بهلاك الظالمين، كما وعدهم بسكنى أرضهم بعد هلاكهم، فقال تعالى:

١٤- ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ[1] ﴿١٤﴾﴾

وعد الله رسله بالاستخلاف في الأرض والتمكين لهم فيها، وجعَلَ العاقبة الحسنة لهم ولأتباعهم، بإسكانهم أرض الكافرين بعد إهلاكهم، وهكذا وعْدُ الله لعباده المؤمنين إن هم رفعوا راية الحق، ونصروا لواء الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾ والمراد: أرض الظالمين وديارهم بالتمكين للصالحين فيها.

ثم بيَّن تعالى أن هذا الوعد بوراثة المؤمنين لأرض الكافرين، أمر مؤكد بالنسبة لمن خاف الوقوف بين يدي رب العالمين يوم القيامة، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن]

وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات].

وهذا الوعد لمن خاف وعيد الله تعالى بالعذاب وخشي لقاءه؛ حيث يتحقق له الأمن والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

وهذه الآية فيها وعْد للمؤمنين بنصرهم على عدوهم، ووعيد للظالمين بالهلاك والغلَبة عليهم، وفي الجمع بين الوعد والوعيد دلالة على أن المؤمن من شأنه أن يخاف غضب ربه ويطمع في ثوابه.

أخرج الحاكم عن عكرمة عن ابن عباس ﵄ قال: لما أنزل الله ﷿ على نبيه ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] تلاها رسول الله ﷺ على أصحابه ذات ليلة -أو قال يوم- فخرَّ فتى مغشيًّا عليه، فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده، فإذا هو يتحرك، فقال: **«يا فتى، قل: لا إله إلا الله»** فقالها، فبشره بالجنة، فقال أصحابه: يا رسول الله، أمِنْ بيننا؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أما سمعتم قول الله ﷿: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾»**[2].

---

(١) قرأ ورش بإثبات الياء وصلًا من (وعيد)، وقرأ يعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

(٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، «المستدرك» (٢/ ٣٥١) ومن رواته: محمد بن يزيد المكي، قال الذهبي: قال أبو حاتم: شيخ صالح كتبنا حديثه وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٣٤).

١٥- ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ(١) كُلُّ جَبَّارٍ(٢) عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ أي: طلب الرسل إنفاذ حكمه تعالى بنصرهم وتعجيل العذاب بغيرهم، فقد لجأ الرسل إلى ربهم، وسألوه الفتح والنصر بينهم وبين أعدائهم فاستجاب الله لهم، وهلك كل متكبر لا يقبل الحق، ولا يصدقه، ولا يقر بتوحيد الله والإخلاص له، كما قال تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقد يكون الضمير في ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ عائد على الكفار، أي أنهم هم الذين استعجلوا فتح الله بينهم وبين أوليائه، فجاءهم العذاب الذي طلبوه واستفتحوا به، وإلا فالله حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة.

وطلبت الأمم المكذبة التعجيل بنزول العذاب إن كان ما يقوله محمد حقًّا، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يعني: الذي وعدتنا به -يا محمد- من العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥].

ومعنى ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: تحقق نصر الله لعباده المؤمنين ولرسل الله الكرام، وحقت كلمة العذاب للجبابرة والطغاة الكافرين، فخابوا وخسروا كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق]. وقد شمل هذا الخسران كل من طغى وتجبر، فعصى الله وعاند رسله.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادى الخلائق، فتقول: إني وُكلت بكل جبار عنيد»**(٣).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«تخرج عُنُقٌ من النار يوم القيامة لها عينان تُبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، يقول: إني وُكِّلتُ بثلاثة: بكل جبار عنيد،**

---

(١) أمال الألف من (خاب) حمزة وحده ومثلها (خاف) في الموضعين.

(٢) قرأ بإمالة الألف من (جبار) أبو عمرو ودوري الكسائي وابن ذكوان من طريق الصورى، وقللها ورش، وفتحها الباقون.

(٣) «المسند» (٣/ ٤٠) و«سنن الترمذي» برقم (٢٥٧٤) وقال: حديث حسن غريب صحيح.

وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر، وبالمصورين»[١].

والمصورون: هم الذين ينحتون التماثيل على صورة إنسان، أو حيوان، أو طائر.

شَرَابُ أَهْلِ النَّارِ وَطَعَامُهُمْ

١٦- ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ۝١٦﴾

ثم إن جهنم تنتظر هذا الكافر العنيد بعد موته يَصْلى عذابها، ويُسقى فيها من: القيح، والدم الذي يخرج من أجسام أهل النار وهذا معنى ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: ومن أمام هذا الكافر عذاب جهنم؛ حيث يستعمل لفظ الوراء بمعنى الأمام، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ [الكهف: ٧٩] أي: وكان أمامهم ملك وهكذا؛

١- فالكافر أمامه جهنم يسقى فيها من **ماء صديد** في غاية الحرارة والنتن؛ وهذا الماء الصديد، كما يقال: إنه ما يسيل، أو ما يخرج من بين جلد الكافر ولحمه، أو أنه ما يسيل من فروج الزناة، من القيح والدم والصديد.

وهو أيضا يشرب من **ماء حميم** شديد الحرارة يقطع الأمعاء، ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ۝١٥﴾ [محمد] وهو ماء متناهي الحرارة؛ كالمهل، أي كالزيت المغلي يشوي الوجوه، ويُصهَر به ما في البطون، ويذيب الجلود.

٢- أما طعام أهل النار، فقد بيَّن تعالى أن طعام الكفار **هو الضريع** في قوله سبحانه: ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ۝٧﴾ [الغاشية]

وهو الزقوم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٦﴾ [الدخان].

---

(١) صحيح «سنن الترمذي» برقم (٢٠٨٣) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٣١٧) و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٥١٢) و«المسند» برقم (٨٤٣٠) وإسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والبزار برقم (٣٥٠٠) «كشف الأستار» عن عبد الصمد عن عبد العزيز بن مسلم، وصحح إسناده في تكملة تحقيق «المسند» الحسيني عبد المجيد هاشم برقم (٨٤١١) وأخرجه الترمذي برقم (٢٥٧٤) وقال: حديث حسن غريب صحيح، وأخرجه أبو يعلى برقم (١١٣٨، ١١٤٦).

وقد وصف الله هذه الشجرة بقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات]

وهو غسلين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة] فأهل النار تارة يكونون في أكل الزقوم، وتارة في شراب وحميم، وتارة يردون إلى الجحيم، نعوذ بالله من عذاب جهنم.

وهذا الماء الصديد الذي يشربونه كريه الطعم والرائحة، وهو في منتهي الحرارة:

١٧- ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

أي إن الكافر المتكبر يتحسَّى هذا الصديد؛ وهو القيح، والدم، الذي يسيل من أجساد أهل النار يتجرَّعه بعنف، فيحاول ابتلاعه كرهًا مرة بعد مرة، جُرعة بعد جرعة، فلا يستطيع أن يبتلعه؛ لقذارته وحرارته ومرارته، وإذا رآه كرهه، فإذا اقترب منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطَّع أمعاءه، حتى يخرج من دبره قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥] وقال جلَّ شأنه: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ أي: الزيت المغلي ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾[1] [الكهف: ٢٩]

وقال سبحانه: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص]

وهذا الصديد يسمَّى: (طينة الخَبَال) وهي: عصارة أهل النار[2].

وفي رواية عبد الله بن عمر ﷺ (عصارة أهل جهنم)[3].

---

(١) يُنظر حديث أبي أمامة في «المسند» (٥/ ٢٦٥) برقم (٢٢٢٨٥) وأوله (يُقرَّب إليه) أي الماء الصديد (فيتكرّهُه..) قال محققوا المسند: رجاله ثقات معروفون غير عبيد بن بسر، فقد اختلف فيه.. وأخرجه الترمذي (٢٥٨٣) والنسائي في الكبرى (١١٢٦٣) والطبراني في الكبير (٧٤٦٠) والبغوي في شرح السنة (٤٤٠٥) والبيهقي في البعث والنشور (٥٤٩).

(٢) كما في رواية أبي ذر في «المسند» (٥/ ١٧١). برقم (٢١٥٠٢) وهو صحيح لغيره عن جابر برقم (١٤٨٨٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو في صحيح مسلم (٢٠٠٢) وأخرجه البزار في مسنده (٤٠٧٤).

(٣) المسند برقم (٦٦٥٩) وإسناده حسن من أجل عمر وبن شعيب وأبيه وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين.

وتأتيه أسباب الموت، فتجتمع عليه من جميع الجهات: من كل قطرة دم، ومن تحت كل شعرة في جسده، ومن كل عرق، ومن كل عضو، ومن كل عَصَب، ومن كل جارحة؛ حيث يستولي عليه أسباب الموت المؤدية إلى الهلاك، والمنهية للآجال، ولكنه لا يموت فيستريح من الشقاء والعذاب، ولا يحيا فيسْلَم مما هو فيه.

قال مجاهد: تَعْلَقُ نفسُه عند حنجرته، فلا تخرج مِنْ فِيه فيموت، ولا ترجعُ إلى مكانها من جَوْفه فيجدُ لذلك راحة، فتنفعَه الحياة(١).

كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]

وقال جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى]

وقال أيضًا: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

إنه عذاب مستمر وخلود في جهنم بلا موت، وهذا معنى ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

ومن أمامه بعد هذا العذاب عذاب آخر أشد ألمًا مع الخلود في نار جهنم.

قال تعالى في شدة عذابها: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن].

وقال أيضًا: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة]

وقال سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج].

الكَافِرُ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ عَمَلٌ صَالِحٌ

١٨- ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ(٢) فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

---

(١) الطبري (١٣/ ٦٢١).

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بالجمع في لفظ (الرياح)، والباقون بالإفراد.

وإذا كان العذاب الشديد ينتظر الكفار في الآخرة، فما بال الأعمال الحسنة التي عملوها في الدنيا؟ كالذي يطعم الفقير، أو يتحمل الدية عن غيره، أو يفك الأسرى، أو يعتق الرقاب، أو يبرُّ أبويه، أو يصل أرحامه، أو يكرم الضيف، أو يحسن المعاملة، أو يتصدق، ونحو ذلك، فبيَّن ﷺ أن هذه الأعمال لا وزن لها، ولا قيمة لها عند الله، ولا تنفع فاعلها يوم القيامة، فقد أذهبها الكفر كما أذهبت الريح الرماد؛ لأن الأصل غير موجود وهو الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان] وكذا عمل الكافر الذي أشرك فيه مع الله غيره، أو عبد الأوثان والأصنام، وهو يظن أنه سينتفع بذلك ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ﴾.

هذا مثل ضربه الله لعدم الانتفاع بأعمالهم الحسنة.

ومعنى المثل: أيْ صفة أعمال الكفار الصالحة في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ جواب سؤال مقدر، وذلك أن المسلمين تطلعت نفوسهم إلى وجه الجمع بين العمل الصالح من الكافر وعدم انتفاعه به، وكأنه قال: ما صفة أعمال الكفار، فكان الجواب: أن أعمالهم الصالحة يمحقها الكفر، كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف؛ فلا يجدون لها ثوابًا في الآخرة، فهي ﴿كَرَمَادٍ﴾ مكدس أتت عليه الريح في يوم قوي الهبوب، أي: جاءت العاصفة الشديدة على التراب المتراكم؛ فصار هباءً منثورًا حملتْه الريح، وذهبتْ به هنا وهناك، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧].

كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]

وقال سبحانه عن صدقة المرائي: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٦٤]

أي: أنهم في الآخرة لا يجدون ثوابًا لأعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ فقد أذهبها الكفر، كما أذهبت الريح الرماد، فلم يقدروا على الانتفاع منها بشيء.

قالت عائشة: يا رسول الله، إن ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين،

فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه؛ لأنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[١].

إنه عمل باطل، وهو الخسران الواضح الذي يلحق بالإنسان في دنياه وأخراه؛ لأنه عمل على غير أساس.

قُدْرَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَى اسْتِئْصَالِ الكُفَّارِ

١٩- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ[٢] السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ[٣] يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ[٤]﴾

ثم إن هلاك أهل الكفر أمر عجيب يثير سؤالًا: كيف يتم هلاك هذه الفئة شديدة القوة؟

والجواب: أن الله تعالى القادر على خلْق هذا الكون قادر على أن يهلكهم، والله سبحانه لم يخلق هذا الكون بسمائه وأرضه وما فيهما وما بينهما باطلًا، لم يخلق هذا الكون عبثًا، ولا لهوًا، ولا لعبًا، سبحانه، إنما خلقه بالحق، والحق معناه هنا ضد العبَث؛ لمقابلته بالباطل، أي: خلقهما لغرض صحيح، وأمر عظيم، وغاية كبرى، وهدف نبيل، هذه الغاية هي أن يتعرف الخلق على خالقهم الذي فطَرهم، وربَّاهم، وأنعم عليهم بنعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، فإذا عرفوا خالقهم عبدوه وحده، وأطاعوه، وامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وشكروه على نعمه، وذكروه آناء الليل وأطراف النهار ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون].

وقد جعل الله ﷻ هذه الحياة مزرعة للآخرة؛ حيث يحاسب الله سبحانه الإنسان يوم القيامة على ما قدمت يداه في هذه الدنيا، فيكون مصيره الدائم في الآخرة: إما السعادة الأبدية، وإما الشقاوة الأبدية، وهذه هي الغاية التي خلق الله سبحانه الخلق من أجلها؛ خلقهم للعمل في الحياة الدنيا، وللحساب بعد ذلك في الآخرة ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢١٤).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (خالق) اسم فاعل، و(السمواتِ) مجرور بالإضافة، وقرأ الباقون (خلق) فعل ماض، و(السمواتِ) مفعول به، منصوب بالكسرة.

(٣) قرأ الأصبهاني وأبو جعفر، بإبدال همزة (إن يشأ) ألفًا وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٤) (بخلق جديد) عدها آية الكوفي والدمشقي والمدني الأول، وتركها من العدد غيرهم.

[الدخان] هذا الحق، هو الهدف والغاية، وهو الأمر العظيم الذي خلق الله الخلق من أجله؛ كي يعرف العباد ربهم وخالقهم، فيطيعوه ويمتثلوا أمره ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ أي: لم نخلقهما عبثًا، أو باطلًا، ولا لهوًا ولا لعبًا ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

والآية التي معنا تشير إلى هذا المعنى، فتخاطب النبي ﷺ، وتخاطب كل إنسان إلى يوم الساعة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تتفكر، وتتأمل، وتعلم أيها المخاطب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ﴾؟ خلقهما، وأوجدهما على الوجه الصحيح الدال على كمال حكمته وقدرته، وأنه سبحانه لم يخلقهما عبثًا، بل خلقهما للاستدلال بهما على وحدانيته تعالى وكمال قدرته من أجل نفع الإنسان وخدمته؛ كي يتعرف العبد على ربه وخالقه من خلالهما، ويكون عبدًا مطيعًا لله ﷻ فيعبده وحده، ولا يشرك به شيئًا

والله جلَّ شأنه قادر على أن يميت الكفار جميعًا، وأن يذهبهم من الوجود، ويأتي بقوم آخرين هم أطوع لله ﷻ منهم، وأسرع استجابة منهم وأكثر امْتثالا لأوامر الله جلَّ شأنه.

والذي خلق السموات على ارتفاعها واتساعها، وخلق ما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات.

وخلق الأرض بما فيها من: جبال، وبحار، وأنهار، وصحارٍ، وحيوان، وأشجار، ونبات، على اختلاف الأشكال، والألوان، والأصناف، قادر سبحانه على إفناء من يشاء من خلقه، وإيجاد قوم آخرين غيرهم، وهو سبحانه لا يشق عليه شيء.

ومن ذلك أنه يحيى الخلق بعد فنائهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ

أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس].

والقادرعلى خلْق السموات والأرض قادر على خلق ما دونهما من باب أولى ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر]

إن يشأ يُمِتْكم - أيها الناس - إن خالفتم أمره، ويأتِ بآخرين غيركم على غير صفتكم هم خيرٌ منكم يعبدون الله، ولا يشركون به شيئًا، ويكونون أطوع لله منكم، وهو سبحانه القادر على أن يمينكم ثم يعيدكم ويبعثكم خلقا جديدًا، وليس هذا بممتنع على الله تعالى.

٢٠- ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

أي وإهلاككم أيها الناس، والإتيان بغيركم أمر سهل ويسير على الله سبحانه؛ إذ ليس هناك أمر صعب وأمر سهل على الله سبحانه، فالكل هين على رب العالمين، ولكنه في نظرنا يكون شاقًّا وعسيرًا أو يسيرًا، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر].

وقال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ [النساء].

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال سبحانه ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقال أيضًا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧].

ومعنى الآية: ألم تعلم -أيها المخاطَبُ والمراد: عموم الناس- أن الله تعالى أوجد السموات والأرض، وما فيهما من أجرام عظيمة لحكمة بالغة؟ فهو منزَّه عن العبث على الوجه الصحيح الذي تقتضيه إرادته؛ ليستدل بهما على وحدانيته تعالى وكمال قدرته، فيعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئًا، وهو سبحانه قادر على الإفناء، كما هو قادر على الإحياء والإيجاد، وما ذلك -الإحياء والإماتة- بمتعذر على الله تعالى.

تَلاوُمُ أَهْلِ النَّارِ وَمَرَاحِلُهُ

٢١- ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾

ثم تنتقل الآيات إلى الدار الآخرة، بعد الانتقال إليها من دار الدنيا، إلى المقر الدائم؛ فالدنيا ممر، والآخرة مستقر، وهي مَعْبر للوصول إلى الدار الدائمة، فليست الدنيا هي الهدف، وإنما الهدف، هو المستقر الدائم بعد الحساب في يوم القيامة؛ حيث يخرج الناس من قبورهم، ويبعثون في ساحة القضاء.

والبروز: هو المكان الخالي الذي ليس فيه ساتر، ولا حجاب ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: خرجت الخلائق، وظهرت في عرصات القيامة؛ ليحكم الله بينهم في ساحة الحشر بعد الخروج من قبورهم: المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والصالح والطالح؛ لقد رفع عنهم الستار، وامتلأت بهم ساحة العدل الإلهية في أرض المحشر والمنشر، مكشوفين في الفضاء، لا يسترهم ساتر، ولا يحجبهم حاجب، ولا يقيهم واقٍ، وقد كان أهل المعاصي في الدنيا حين يفعلون الفواحش يستترون عن أعين الناس، وفي يوم القيامة يُفضحون على رؤوس الأشهاد، نسأل الله السلامة والعافية.

وفي هذه الآية يبيِّن الله ﷻ جانبًا من مشاهد يوم الحشر والنشر؛ حيث يخرج الكافرون من قبورهم، ويكون الخصام والتلاوم بين أهل النار، والعياذ بالله.

ومعنى التلاوم: أن كل فريق، أو كل إنسان يُلْقي باللائمة، أو المسؤولية على الآخر، ممن قلَّده في الضلال فاغتر به، ولم يُعمِل فِكْره وعقله، فألغى حريته الشخصية في التفكير، واغتر الفقير بالغني، أو المرؤوس بالرئيس، أو الأتباع بالقادة.

اغتروا بمن يَظْهَرون في مسرح الحياة أبطالًا في أعين الناس، وإن كانوا على غير هدى فانخدع بعض الناس بكاتب، أو بأديب، أو بممثل، أو بلاعب، أو بشخصية مشهورة ممن هو على ضلال، تابع أو متبوع، وهؤلاء جميعًا عبَّر عنهم القرآن الكريم بالضعفاء، والمستكبرين.

فالحوار يدور بين ضعيف وقوي، وفقير وغني؛ فالفقير قد اغتر بالغنيِّ وقلَّده، والجاهل قلَّد من يراه على علم، فسلبه فكره وعقله، واتبعه في الكفر والضلال، ويوم القيامة كل

منهم يُلقي باللائمة على الآخر، ويتبرأ منه؛ حيث يتبرأ الرؤساء من المرؤوسين، ويتبرأ المتَّبوعون من الأتباع.

ويبدأ الحوار بينهم، فيقول الأتباع للقادة، أو يقول الضعفاء للذين استكبروا: إنا كنا لكم أتباعًا في الدنيا، قلَّدناكم واتبعناكم، رأيناكم تُحِلُّون الحرام فاتبعناكم فيه، ورأيناكم تحرمون الحلال فاتبعناكم وأطعناكم، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] فهل تدفعون عنا اليوم بعضًا من عذاب الله، أو تتحملون عنا شيئًا منه، كما كنتم تَعدُوننا وتُمنُّوننا؟

وهنا يرد المستكبِرون على المستضعَفِين بضيق وتحسُّر، فيقولون لهم: لو هدانا الله إلى الإيمان الموصل إلى النجاة لأرشدناكم إليه، ولكن الضلال حصل لنا، ولو كنا نافعين أنفسنا لنفعناكم؛ فنحن وأنتم سواء في الضلال، ولو كنا على هدى لهديناكم، ولكن مصيرنا واحد؛ حيث لم نوفَّق، وضللْنا كما ضللْتم، والصبر والجزع لا ينفعان في هذا اليوم؛ حيث يستوي كل منهما، وليس لنا مهرب من عذاب الله، ولا نجاة لنا منه.

١- والظاهر أن هذا الجدال يكون في المحشر وهم وقوف بين يدي الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ].

٢- وهناك تخاصم، وتلاوم آخر بين الفريقين يكون في النار كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر].

وقال تعالى في المعنى نفسه: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى

ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٞ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابٗا ضِعْفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعْفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٖ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب].

٣- كما يكون هذا التبرؤ عند رؤية العذابالمتجدد وانقطاع أسباب الخروج من النار.

قال جلَّ شأنه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿هَٰذَا فَوْجٞ مُّقْتَحِمٞ مَّعَكُمْۖ لَا مَرْحَبَۢا بِهِمْۚ إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبَۢا بِكُمْۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابٗا ضِعْفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [ص].

٤- وبعد عدم حصول جدْوى من هذا التخاصم يذهب الكفار إلى خزنة النار،يطلبون منهم أن يخفف الله عنهم من عذاب النار ولو يومًا واحدًا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمٗا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾ [غافر]

أي: أن أهل النار يستغيثون بالخزنة، ويطلبون منهم أن يخفف الله عنهم يومًا من العذاب.

وعندئذ يقولون لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم﴾ في الدنيا ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالكتب المنزلة، والمعجزات المؤيدة للرسالة، وهؤلاء الرسل يبينون لكم ما يتعلق بالبعث والنشور؟

فيكون جواب أهل النار: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ جاءتنا الرسل، ونزلت الكتب ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠] أي: أنه لا جدوى، ولا فائدة من دعائكم.

٥- فلما لم يجد أهل النار حَلًا عند الخزنة يئسوا منهم، ثم يذهبون إلى مالك خازن النار ويطلبون منه أن يهلكهم الله، وأن يميتهم ويقضي عليهم مرة واحدة.

قال تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ﴾ [الزخرف: ٧٧] فنموت، ونهلك دفعة واحدة،

بدلًا من هذا العذاب المتجدد الذي قال الله عنه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

فيجيبهم مالك بعد سنين عدة: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف].

٦ - ثم يقول بعض أهل النار لبعض لَمّا لم يجدوا سبيلا لخروجهم من النار: تعالَوْا بنا ندعو، ونضرع إلى الله تعالى، فما أدرك أهل الجنةِ الجنةَ إلا بالبكاء والضراعة إلى الله تعالى فيفعلون. ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر].

وحين يرون أن ذلك لا ينفعهم يقولون: تعالوْا بنا نصبر ونتحمل، فيصبرون صبرًا لم يُر مثله، فلا ينفعهم ذلك أيضًا، وحينئذ يقولون: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ إذ ليس هناك مهرب، ولا منجا، ولا ملجأ من الله إلا إليه، فلا فرار من عذابه، ونحن وأنتم سواء في الجزع وفي سوء المصير!!

خُطْبَةُ الشَّيْطَانِ البَتْرَاءِ وَمَصِيرُ الكَافِرِ وَالمُؤْمِنِ

٢٢- ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ[1] عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ[2] إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ[3] مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

وبعد أن يعتذر الكبراء إلى الضعفاء، ويذكروا لهم أنهم لم يكونوا سببًا في إضلالهم،

---

(١) قرأ حفص (ليَ عليكم) بفتح ياء الإضافة من (لي) وصلًا، وسكّنها عند الوقف، والباقون بإسكانها وصلًا ووقفًا.

(٢) قرأ حمزة بكسر الياء من (مصرخي) على أصل التخلص من التقاء الساكنين، وأصلها (مصرخين لي) حذفت النون للإضافة، فالتقى ساكنان: ياء الإعراب، وياء الإضافة، وأصلها السكون، فكسرت للتخلص من التقاء الساكنين، وهي لغة بني يربوع من تميم وبني عجل بن لجيْم من بكر بن وائل، وقرأ الباقون بفتح الياء؛ لأن الياء المدغمة فيها أصلها الفتح، والياء الأولى لجمع المذكر والثانية ياء المتكلم.

(٣) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا وحذفها وقفًا من (أشركتمون)، وقرأ يعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

يقع في نفوسهم أن الشيطان هو الذي أغواهم وأضلهم فيتوجهون إليه بالملامة.

جاء في الأثر: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين، وقضى بينهم يقول المؤمنون: فمن يشفع لنا؟ فينتهون إلى محمد ﷺ فيشفِّعه الله فيهم، ويجعل لهم نورًا يمشون به، وحينئذ يقول الكافرون: قد وجد المسلمون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس، فهو الذي أضلنا، فيأتونه ويسألونه الشفاعة، فينهض ثائرًا من مجلسه، ويقوم فيهم خطيبًا بما جاء في هذه الآية، فيزيدهم حزنًا إلى حزنهم، وحسرة إلى حسرتهم**»[1] ويكون هذا حين يفرغ الله تعالى من الحساب، ويقضي بين الخلائق، ويدخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهل النارِ النارَ.

يستفاد هذا من قوله تعالى: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: حين تم الحساب، وعرف كل إنسان مصيره فإن أهل النار يلقون باللائمة على الشيطان؛ لأن التلاوم فيما بينهم لم يُجدِ، كما أن طلبهم التخفيف من الخزَنة لم يُجدِ، وطلبهم القضاء عليهم من مالك،الخازن الأكبر للنار لم يُجدِ.

وحينئذ يذهبون إلى إبليس يطلبون منه أن يشفع لهم، ويقولون له: أنت الذي زيَّنْت لنا الكفر، وأضللْتنا وأغويتنا فيقف إبليس، كما قال الحسن: على منبر من نار، يخطب في أهل النار[2] الخطبة البتراء، ويتبرأ من عبادتهم، ومن إشراكهم له مع الله سبحانه، يقوم إبليس خطيبًا في أهل النار يوم القيامة.

ولفظ الشيطان إذا كان مفردًا يراد به إبليس؛ لأنه رأس الشياطين ورئيسهم.

قال عامر الشَّعْبِي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول الله لعيسى ابن مريم: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[3] [المائدة: ١١٦] فيقف خطيبًا، ويتبرأ من النصارى، وممن أشركه مع الله سبحانه، فيقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٥٦٢) و«المعجم الكبير» للطبراني (١٧/ ٣٢٠) عن عقبة بن عامر وفي سنده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٧٦): وهو ضعيف، وهو في «تفسير الفخر الرازي» (١١/ ١١٠) و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٩٠) وغيرهما.

(٢) «تفسير القرطبي» (٩/ ٣٥٦).

(٣) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٩١) ورفعه ابن عطية في تفسيره (٣/ ٣٣٣) عن عقبة بن عامر.

أما إبليس، فإنه يخطب فيمن أغواهم بعد أن قضى الله الأمر، وفرغ من حساب خلقه، ودخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهل النارِ النارَ، يقول لهم: إن الله وعدكم وعدًا حقًا، فأخبركم على ألسنة الرسل أن هناك بعثًا وحسابًا وجزاء، وجنة ونارًا، ووعدتكم وعدًا باطلًا: أن لا حساب، ولا جزاء، ولا جنة، ولا نار فأخلفتكم وعدي، وضحكتُ عليكم، وكذبت عليكم[1] كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء] وما كان لي عليكم من قوة أقهركم بها على اتباعي، ولا أُجبركم، أو أُكرهكم على ما فعلتم، ولم يكن معي دليل، ولا برهان، ولا حجة على دعوتي لكم، كما جاءتكم الرسل بالحجج الواضحة، والأدلة القوية، وإنما هي مجرد إشارة، ووسوسة داخلية؛ فالإنسان لا يرى الشيطان بعينه، ولا يجبره بطريقة محسوسة على فعل شيء.

يقول الشيطان: ولكني دعوتكم إلى الكفر والضلال فاتبعتموني، فَيُلْقِي هو أيضًا باللائمة عليهم، ويقول لهم: الذنب ذنبكم، فلوموا أنفسكم على سوء نظركم وقلة تثبتكم؛ فأنا لا أملك القهر والغلبة، ولا أملك الحجة والبينة.

والقرآن الكريم يثبت في آية أخرى من سورة النحل أن الشيطان له سلطان على ضعفاء الإيمان من أوليائه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [آية: ١٠٠] والسلطان المذكور في الآية هنا: هو مجرد الإغواء، والتزيين، والإضلال، وليس بالقوة ولا بالحجة ولا البرهان، فهو يؤثِّر بإغوائه على أتباعه من الذين يتولَّونه، ويتبعون إشارته.

وبهذا يعلم أن السلطان المثبت للشيطان، هو التسلط بالإغراء على المعاصي، أما السلطان المنفى، فهو سلطان الحجة والبرهان، فليس له حجة على من يُغْويهم، وغاية أمره أنه يزين لهم الشهوات والشبهات ويُجرِّىء الإنسان على المعاصي.

وقد جاء هذا النفى والاثبات في آيتين من سورة النحل ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذا هو النفي، وجاء الإثبات في الآية بعدها ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [٩٩، ١٠٠].

ثم يتبرأ منهم الشيطان يوم القيامة، ويعلن أنه لا يملك لهم شيئًا فيقول: ما أنا بمنقذكم

(١) يُنظَر «تفسير الطبري» (١٣/ ٦٢٩).

من العذاب، ولا مغيثكم، ولا منجيكم مما أنتم فيه، وأنتم أيضًا لا تملكون ذلك لي، إني تبرأت مِنْ جعلِكم لي شريكًا مع الله في طاعته في الدنيا، إن الظالمين من الكافرين والمشركين لهم عذاب مؤلم؛ بسبب إعراضهم عن الحق، واتباعهم الباطل.

وقد أخبر الله سبحانه في كثير من آياته أن الشركاء يتبرؤون يوم القيامة ممن عبدوهم، ويكونون لهم أعداء، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف] أي: جاحدين لها.

وقال أيضًا: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر].

وورد أن أهل النار لما قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ قال لهم إبليس: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم، فنودوا: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾[1] [غافر: ١٠].

وفي الآية تحذير من وسوسة الشيطان وإغوائه حتى ينجو العبد من عذاب النار الذي يحل بأتباع الشيطان يوم القيامة.

هذا: وقد أوضح الشيطان في خطبته لأهل النار **خمسة أمور** هي:

أولًا: أن ما وعَدهم الشيطان به كان باطلًا، معارضًا وعْد الله الحق، وأنه أخلفهم ما وعدهم به.

ثانيًا: أنهم قبلوا غوايته عن طواعية واختيار من غير حجة له فيما قال، وإن دعوته لهم كانت خالية من البرهان.

ثالثًا: أنه لا ذنب له فيما حدث، وعليهم أن يلوموا أنفسهم؛ لأنهم قبلوا الباطل من غير دليل عقلي.

رابعًا: أنه لا قدرة له على نصرهم ولا على إغاثتهم، بل هو مثلهم قد وقع في البلية.

---

(١) نقله ابن كثير (٤/ ٤٩١) عن محمد بن كعب القرظي.

خامسًا: أنه جحد ما فعلوه من إشراكهم له بالله، فتوالت عليهم الحسرات والمصائب[١].

٢٣- ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

وبعد ذكر حال المشركين الظالمين، يأتي ذكر حال المؤمنين الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا الصالحات، فبين سبحانه أنهم يدخلون جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار العسل واللبن والخمر غير المسكرة، والماء الذي لا يتغير، ودخولهم فيها دخولًا أبديًا خالدًا مخلدا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بفضله وحوله وقوته، وتحيتهم فيها من الله السلام، وكذا فيما بينهم وبين الملائكة، وبين بعضهم البعض، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر: ٧٣].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد].

وقال سبحانه: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

وقال أيضًا: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس]

وليس بين المؤمنين في الجنة خصام، ولا نزاع، ولا تلاوُم كما هو الحال بين أهل النار؛ فإنَّ خُلَّتهم التي كانت في الدنيا مستمرة، ولم تنقلب إلى عداوة كشأن غيرهم، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف].

وقد نزع الله ما في صدورهم من الشحناء والبغضاء ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر].

مَثَلُ المُؤْمِنِ وَمَثَلُ الكَافِرِ

٢٤- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ[٢]﴾

وبعد أن بيَّن سبحانه أحوال الأشقياء والسعداء ضرب لكل فريق منهم مثلًا، فمثَلُ

---

(١) يُنظَر: «تفسير فتح القدير» للشوكاني (٣/ ١٠٤).

(٢) لم يعد لفظ (في السماء) آية المدني الأول وعدها غيره.

المؤمن الذي رسختْ في نفسه عقيدة التوحيد، وأثمرت فيه الثمار المفيدة بالعمل الصالح آناء الليل وأطراف النهار، مُثله كالشجرة الطيبة،وأطيب الشجر:النخلة غَرْسها في أعماق الأرض، وفروعها وأغصانها تمتد في السماء.

ومثل الكافر كشجرة الحنظل المرة، خبيثة الطعم، ليس لها قرار في الأرض، ولا ارتفاع في السماء.

وعمله الصالح كالبرِّ والصدقة لا يُرفع إلى رب العالمين، وقوله الطيب لا يُقبل منه؛ فليس له عمل مقبول، إنما هو مقطوع الأثر، مقطوع النفع والفائدة.

والكلمة الطيبة: هي كلمة التوحيد وما يترتب عليها من قول طيب، وعمل صالح، كما صح في الحديث أنها شهادة الإسلام: لا إله إلا الله محمد رسول الله، والعمل بمقتضى هذه الشهادة من: قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالجوارح:

١- أخرج البخاري وغيره بسنده عن نافع عن ابن عمر ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: **«أخبروني بشجرة تُشْبِه -أو كالرجل- المسلم، لا يتحاتُّ ورقها، ولا...، ولا...، ولا...، تؤتي أكلها كل حين»**، قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئًا، قال رسول الله ﷺ: **«هي النخلة»**، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، فقال: ما منعك أن تكلَّم؟ قال: لم أركم تكلَّمون فكرهتُ أن أتكلم، أو أقول شيئًا، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إليَّ من كذا وكذا[١].

٢- وفي رواية عنه أيضًا ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: **«إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم، حدثوني ما هي؟»** فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة، قال عبد الله: فاستحييتُ، فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا بها. فقال رسول الله ﷺ: **«هي النخلة»**[٢].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٩٨) وهذا لفظه، وانظر برقم (٦١) وبنحوه أخرجه مسلم (٢٨١١) ومالك وأحمد وغيرهم.

(٢) هذا لفظ البخاري (١٣١) وهو في مسلم (٤/ ٢١٦٥) برقم (٢٨١١).

قال العلماء: شبَّه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها، ووجوده على الدوام؛ فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس.

وبعد أن ييبس يُتخذ منه منافع كثيرة: من خشبها وورقها وأغصانها فيستعمل جذوعًا، وحطبًا، وعصيًّا، ومخاصر، وحُصُرًا وحِبالًا، وأواني، وغير ذلك، ثم آخر شيء منها نواها، وينتفع به علفًا للإبل.

ثم جَمالُ نباتها، وحُسْن هيئة ثمرها؛ ففيها منافع كثيرة، وفيها خير وجَمال، كما أن المؤمن خير كله؛ من كثرة طاعاته، ومكارم أخلاقه.

وقد صحَّ الخبر عن غير ابن عمر أيضًا أن الشجرة الطيبة التي ضُربت مثلًا في الآية للمؤمن: هي النخلة.

٣- ومن ذلك ما ورد عن شعيب بن الحبحاب قال: كنا عند أنس -أي: ابن مالك- فأتينا بطبق أو قِنْع عليه رطب، فقال: كُلْ يا أبا العالية؛ فإن هذا من الشجرة التي ذكرها الله ﷻ في كتابه[(١)].

فالشجرة الطيبة أصلها ثابت، ككلمة التوحيد مستقرة راسخة في قلب العبد المؤمن، وفروعها ممتدة في السماء، لها فروع وأغصان، تثمر الثمر النافع، والعمل الصالح للمؤمن صباح مساء، آناء الليل وأطراف النهار كالنخلة، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يعتبرون، وينتفعون، ويتعظون.

والحكمة في تشبيه كلمة الإسلام بالنخلة من خمسة أوجه:

الوجه الأول: أن كلمة التوحيد قوية الثبوت في قلب المؤمن، كثبوت أصل النخلة في الأرض.

الوجه الثاني: أن كلمة التوحيد ترفع عمل المؤمن إلى السماء، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] وكذلك فرع النخلة مرتفع في السماء.

الوجه الثالث: أن المؤمن كلما قال: لا إله إلا الله عاد عليه ثمرتها ومنافعها بالعمل

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣١١٩) وقال الألباني في صحيح «سنن الترمذي» برقم (٢٤٩٤): صحيح موقوف ولم يرفعه. قلت: وهذا أصح من طريق حماد بن سلمة المرفوع، كما أخرجه عبد الرزاق (١/ ٣٤٢) والطبري (١٣/ ٦٣٩).

الصالح في كل وقت، كما أن النخلة تؤتي أكلها كل حين.

الوجه الرابع: أن الإنسان خُلِق من الطين، ويتناسل بالتلقيح، وإذا قُطعتْ رأسه فإنه يموت، وكذلك النخلة مغروسة في الطين، ولا تحمل حتى تلقَّح بطلح الذكر، وإذا قُطِع رأسها ماتت وانقطع ثمرها.

الوجه الخامس: أن الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق واعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالبدن.

وكذلك النخلة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء: جِذْع راسخ، وأصل ثابت، وفرع قائم.

ومعنى الآية: ألم تعلم -يا محمد- كيف ضرب الله مثلًا لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بشجرة عظيمة هي النخلة أصلها متمكن في الأرض، وأعلاها مرتفع علوًّا نحو السماء.

٢٥- ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا(١) كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ(٢) لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

أي تعطي ثمارها كل وقت بإذن ربها، وكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن علمًا واعتقادًا، وفرعها من الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة ترفع إلى الله تعالى، وينال العبد ثوابه في كل وقت، ويضرب الله الأمثال للناس؛ ليتذكروا ويتعظوا، فيعتبروا، فإن في ضرب الأمثال تقريب للمعاني وتوضيح لها.

وفي معنى ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ قال الربيع بن أنس: غدوة وعشيًّا؛ لأن ثمر النخل يؤكل أبدًا، ليلًا ونهارًا، صيفًا وشتاء، فيؤكل منها الجُمَّار، والطلْع، والبلَح، والخلال، والبُسر، والمنصف، والرطب، وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى حين، والرطَب الطري؛ فأكلها دائم في كل وقت.

قال ابن عباس: الحين حينان: حين يُعرف، وحين لا يُعرف؛ فأما الحين الذي لا يعرف فقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ ۝٨٨﴾ [ص] وأما الحين الذي يُعرف فقوله:

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بإسكان الكاف من (أكْلها) وهو لغة تميم، والباقون بضمها، وهو لغة الحجازيين.

(٢) أمال ألف (الناس) دوري الكسائي، وفتحها غيره.

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾[١].

قال عكرمة: أرسل إليَّ عمر بن عبد العزيز، فقال: يا مولى ابن عباس: إني حلفت ألا أفعل كذا وكذا حينًا، فما الحين الذي يعرف به؟ فقلت: إن من الحين حينا لا يدرك، ومن الحين حين يدرك، فأما الحين الذي لا يُدرك فقول الله تعالى ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان] والله ما يدري كم أتى له إلى أن خُلق، وأما الحين الذي يُدرك فقوله ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ فهو ما بين العام إلى العام المقبل، فقال: أصبت يا مولى ابن عباس، ما أحسن ما قلت[٢].

وليس بين الأثرين تعارض، لأنه يصح إطلاق كل منهما على الآخر. قال تعالى:

٢٦- ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ[٣] ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ[٤]﴾

ضرب الله في هذه الآية، المثل، للكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، والكلمة الخبيثة هي كلمة الشرك والكفر، والعياذ بالله، وهي ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ المأكل والمطعم وهي نبت الحنظل، وهذه النبتة أو الشجرة تُقطع من أعلى الأرض؛ لأن عروقها قريبة من سطح الأرض فليس لها قرار، وليست ضاربة بجذورها في أعماق الأرض، إنما تقطع من سطح الأرض، وليس لها أصل راسخ في داخل الأرض، ولا فرع صاعد في السماء.

وكذلك الكافر لا ثبات له، ولا خير فيه، ولا يُرفع له عمل صالح إلى الله؛ والشجرة الخبيثة هي شجرة الحنظل، كما جاء في جامع الترمذي وغيره عن أنس بن مالك ﷺ قال: أُتي رسول الله ﷺ بقناع عليه رطب فقال: **«مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربها، قال: هي النخلة، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، قال: هي الحنظلة، فأخبرت بذلك**

---

(١) الطبري (١٣/ ٦٤٨).

(٢) البيهقي في «السنن» (١٠/ ٦٢) والطبري (١٣/ ٦٤٩).

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وقنبل وابن ذكوان بخلف عنهما بكسر التنوين وصلًا من (خبيثةٍ اجتثت)، والباقون بضمه.

(٤) أمال الألف من (قرار) أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري والكسائي وخلف وقللها الأزرق، ولخلف عن حمزة الإمالة والتقليل، ولخلاد الفتح والتقليل، وفتحها الباقون.

أبا العالية، فقال: صدق وأحسن»[١].

حُسْنُ الخَاتِمَةِ وَسُوءُ الخَاتِمَةِ

٢٧- ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا[٢] وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

ويوم القيامة يكون الحكْم بين الفريقين: فريق الإيمان، وفريق الكفر؛ فيثبت الله سبحانه المؤمنين على كلمة التوحيد بالقول الثابت إذا فُتنوا في دنياهم، عند ورود الشهوات والشبهات، وعند الموت بالثبات على الإسلام وحسن الخاتمة وإذا فُتنوا في قبورهم، عند سؤال الملكين للجواب الصحيح، وعند المساءلة يوم لقاء رب العالمين، وهم فريق السعداء المستمرُّون على التوحيد، ويضل الله الظالمين عن طريق الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة.

فالمؤمنون يثبتهم ربهم بالقول الثابت فلا يزيغوا إلى الباطل، ولا إلى الهوى في الحياة الدنيا إذا فُتنوا في الدين، ويثبتهم في الآخرة عند الابتلاء بفتنة القبر.. إذا جاءه الملَكان، وسألاه: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟.

فإذا شهد أن لا إله إلا الله، وأن الله ربه، وأن محمدًا رسول الله، ودينه الإسلام، فذلكم قول الله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

كما في حديث البراء بن عازب ﷺ عن النبي ﷺ قال «نَزَلَتْ في عذاب القبر، يقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله وديني دين محمد[٣]، فذلك قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣١١٩)، وقد ضعفه الألباني كما في حاشية صحيح الترمذي على الحديث (٣٣٣٧) ج٣ ص٦٥ ط مكتب التربية العربي لدول الخليج، وأخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٦٢) والحاكم (٢/ ٣٥٢) وأبو يعلى (٤١٦٥) وابن حبان (٤٧٥).

(٢) أمال ألف (الدنيا) حمزة والكسائي وخلف، وللدوري عن أبي عمرو الفتح والإمالة، وقللها الأزرق بخلفه، وفتحها الباقون.

(٣) صحيح سنن النسائي (١٩٤٤) وصحيح سنن ابن ماجه (٤٢٦٩) وهو حديث متفق على صحته كما سيأتي في الحديث التاسع.

والقبر هو عتبة الآخرة، وأول منزلة من منازلها، فإن صلح صلح ما بعده.

قالت امرأة يا رسول الله: إني امرأة ضعيفة، وإن هذه الأمة تُبتلى في قبورها وتسأل، فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[١].

والمسلم أُمر أن يستعيذ بالله تعالى من فتنة القبر عقب كل صلاة في نهاية التشهد، ويقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن فتنة القبر، ومن فتنة المحيا وفتنة الممات، وفتنة المسيح الدجال.[٢]

وفتنة القبر هي الفتنة عند السؤال؛ حيث يثبت الله المؤمنين على الشهادتين، وعلى شرائع الإسلام في الدنيا، ويختم لهم عند الممات بالخاتمة الحسنة، ويهديهم في القبر عند سؤال الملكين إلى الجواب الصحيح.

أما الكافر فيضله الله سبحانه عن الصواب في الدنيا والآخرة فلا ينطق بالحق، ولا يثبت على كلمة التوحيد، ولا يعمل بمقتضاها؛ لأنه زاغ عن الحق واتبع هواه، فأزاغ الله قلبه ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من توفيق أهل الإيمان، وخذلان أهل الكفر والطغيان.

ويتعلق بهذه الآية جملة من الأحاديث، منها:

١- ما جاء عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « **إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح، قالوا: اخرُجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرُجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، قال: فلا يزال يُقال لها ذلك حتى تخرُج، ثم يُعرَج بها إلى السماء، فيُستفتَح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحبًا بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخُلي حميدة وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يُقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله ﷻ.**

---

(١) ينظر الحديث الثامن من الأحاديث التالية.

(٢) ينظر حديث ابن عباس في صحيح مسلم (٥٩٠) وأبي داود (١٥٤٢) والترمذي (٣٤٩٤) وقال: حسن صحيح، والمسند (٢١٦٨) وانظر حديث أبي هريرة في مسلم (٥٨٨) وابن أبي عاصم في السنة (٨٧٢) والطبراني (١٣٧٥) والمسند (٢٣٤٢)

وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرُجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخْرُجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعرَج بها إلى السماء، فيُستفتَح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا تفتح لك أبواب السماء، فيرسَلُ من السماء، ثم يصيرُ إلى القبر»[1].

٢- وعن عثمان ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا فُرغ من دفْن الرجل، وقف عليه، فقال: **«استغفروا لأخيكم، واسألوا الله له التثبيت فإنه الآن يسأل»**[2].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ تلا: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال: **«ذاك إذا قيل له في القبر: مَن ربك؟ وما دينك؟ فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد، جاء بالبينات من عند الله، فآمنتُ به وصدقت، فيقال له: صَدَقت، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله»**[3].

٤- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: شهدتُ مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال رسول الله ﷺ: **« يا أيها الناس: إن هذه الأمة تُبتلى في قبورها، فإذا الإنسان دُفن، فتفرق عنه أصحابه، جاءه ملك في يده مطراق فأقعده، قال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنًا، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله، فيقول: صدقت، ثم يُفتح له باب إلى النار، فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربك، فأما إذا آمنت فهذا منزلك، فيفتح له باب إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه، فيقول له: اسكن، ويُفسح له في قبره.**

وإن كان كافرًا، أو منافقًا يقول له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، سمعت

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٤) برقم (٨٧٦٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن ماجه برقم (٤٢٦٢) وقال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ٣١١) هذا إسناد صحيح رجاله ثقات وهو في صحيح «سنن ابن ماجه» برقم (٣٤٣٧) و«مشكاة المصابيح» (١٦٢٧)، وأخرجه بنحوه مختصرا مسلم (٢٨٧٢).

(٢) انفرد به أبو داود برقم (٣٢٢١) وهو في صحيح «سنن أبي داود» (٢٧٥٨) والحاكم (١/ ٣٧٠) وعند البيهقي في عذاب القبر (٥٠، ٢٣٣، ٢٣٤).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (١٦/ ٥٩٦) وقال محققه: خبر صحيح الإسناد، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، الإحسان برقم (٣١١٣) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرك» (١/ ٣٧٩) والبيهقي في كتاب عذاب القبر (٨).

الناس يقولون شيئًا، فيقول: لا دَرَيْت ولا تَلَيْت، ولا اهتديْت، ثم يُفتح له باب إلى الجنة، فيقول: هذا منزلك لو آمنتَ بربك، فأما إذا كفرت به، فإن الله ﷻ أبدلك به هذا، فيفتح له باب إلى النار، ثم يقمعه قمعة بالمطراق، يسمعها خلْق الله كلهم غير الثقلين، فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحد يقوم عليه ملَك في يده مطراق، إلا هُبِل عند ذلك، فقال رسول الله ﷺ: يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت»[1].

٥ - وعن البراء بن عازب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر؟ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾»[2].

٦- وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع قرعَ نعالهم، قال: فيأتيه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال: فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، قال نبي الله ﷺ: فيراهما جميعًا، وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريْت ولا تليْت، ويُضرب بمطراق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين»[3].

٧- وعن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبي أن رجلًا قال: يا رسول الله، ما

---

(١) «المسند» (٣/٣) برقم (١١٠٠٠) وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٦٥) والبزار في «كشف الأستار» (٨٧٢) والبيهقي في عذاب القبر (٤١) قال محققو «المسند» حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، وقال الألباني في «ظلال الجنة» برقم (٨٦٥) حديث صحيح، وقال محمود شاكر في حاشية الطبري برقم (٢٠٧٦٢) حديث صحيح الإسناد، وقال السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٨٠) سنده صحيح، ونسبه الهيثمي إلى أحمد والبزار في «مجمع الزوائد» (٣/٤٨) وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٣٦٩، ٤٦٩٩) ومسلم برقم (٢٨٧١) وأبو داود (٤٧٥٠) والترمذي (٣١٢٠) والنسائي (٤/ ١٠١) برقم (٢٠٥٦) وابن ماجه برقم (٤٢٦٩).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٧٠) والبخاري (١٣٣٨، ١٣٧٤) وأبو داود (٤٧٥٢) و«المنتخب» لعبد بن حميد برقم (١١٧٨) واللفظ له، و«سنن النسائي» (٤/ ٩٧) برقم (٢٠٥٠).

بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «**كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة**»[١].

٨- وعن عائشة ﵂ قالت: قلت: يا رسول الله، تبتلى هذه الأمة في قبورها، فكيف بي وأنا امرأة ضعيفة؟ قال: «﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾» [٢].

٩- وقد ثبت في حديث البراء ﷺ أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر[٣].

وأن المؤمن يُوسَّع له في قبره، والكافر والمنافق يُضيَّق عليه حتى تختلف أضلاعه، وأنه لا ينجو من ضمة القبر أحد: فَيُضَمُّ المؤمن كما تَضُمُ الأم ولدها برفق وحنان، ويُضَمُّ الكافر فتختلف ضلوعه، ويُضرب بمطراق من حديد ضربة يصيح منها صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين[٤].

وتشير الأحاديث إلى أن العبد يُسأل في قبره بأن يخلق الله له إدْراكًا وتحصيلًا، سواء وُضع في قبره، أو احترق، أو مات غرقًا، أو ذُرِّيَ في الهواء، أو تقطَّع جسده إربًا، أو ابتلعته السباع، أو غير ذلك فيخلق الله فيه حياة بحيث يفهم السؤال ويجيب عليه، كما في الأحاديث: «**وإنه ليسمع خفق نعالهم**»[٥].

وفيها: «**وإنه يرى الضوء كأن الشمس دنت للغروب**»، وفيها: «**فتعاد روحه إلى جسده**».

والمؤمن يُفسح له في قبره، ويَرى مقعده من الجنة، والكافر يُضيَّق عليه في قبره، ويرى مقعده من النار، ويضمه القبر حتى تختلف أضلاعه.

ومعنى الآية: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الحق الراسخ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وما جاء به من الدين الحق، والعمل الصالح يثبتهم عليه مدة حياتهم، ويُختم لهم عند الموت بالخاتمة الحسنة، ويثبتهم الله عند سؤال الملكين،

---

(١) «سنن النسائي» (٢٠٥٢) وفي «السنن الكبرى» (٢١٨٠) وصحيح «سنن النسائي» (١٩٤٠)، والتعليق الرغيب (٢/ ١٩٧).

(٢) البزار في «كشف الأستار» (٨٦٨) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ٥٣): رجاله ثقات.

(٣) البخاري (١٣٦٩، ٤٦٩٩) ومسلم (٢٨٧١).

(٤) يُنظَر حديث ابن مسعود في: «الطبراني الكبير» (٩١٤٥) وحديث أنس في البخاري (١٣٣٨) ومسلم (٢٨٧٠).

(٥) ينظر الحديث السادس فيما سبق.

فيهديهم إلى الجواب الصحيح، ويهديهم إلى القول السديد في مواقف يوم القيامة.

وفي مقابل ذلك يضل الله الظالمين، فلا يوفَّقون للهداية في الدنيا، وتسوء خاتمتهم، ولا يهتدون إلى الجواب الصحيح في البرزخ، ولا في موقف الحشر والنشر.

سُوءُ خَاتِمَةِ مَنْ كَفَرَ بِنِعْمَةِ الإِسْلَامِ

٢٨، ٢٩ ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ[1] ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ[2] ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾

نعم الله تعالى على خلْقه لا تُعدُّ ولا تحصى، وأجلُّ نعمة أنعمها الله ﷻ على الإنسان، هي نعمة الإسلام؛ فهي التي أخرجتْه من الظلمات إلى النور، ومن الشرك والكفر إلى التوحيد، ومن الضلال إلى الهدى، وهي التي تأخذ بيد المسلم إلى الرحمة والمغفرة والرضوان، وتجعل مصيره جنات النعيم؛ هذه النعمة هي التي جاء ذكرها في قول الله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].

فالمراد بالنعمة في الآية: هي نعمة بعثة محمد ﷺ رحمة للعالمين، وواجب العباد أن يقوموا بشكر هذه النعمة، بامتثال أمر الله ﷻ واجتناب نهيه، ولكن فريقًا من الناس لم يؤمن برسالة محمد ﷺ كعبَدة الأوثان، وكل من أشرك بالله تعالى في عبادته، ومن لم يؤمن بالله ربًّا، ولا بالإسلام دينًا، أو لا يؤمن بعموم الرسالة الخاتمة، من اليهود والنصارى وسائر الملل والنحل إلى أن تقوم الساعة.

هؤلاء الكفرة والمشركون بدَلَ أن يحْمَدوا ربهم، ويشكروه على نعمة الإسلام، ويقوموا بواجباتها، كفروا بهذه النعمة؛ فقد دعاهم الإسلام إلى التوحيد والإيمان فتركوا ذلك تقليدًا لآبائهم، أو خوفًا على سلطانهم ومصالحهم، أو بسبب فكر ضال، أو تأثير منحرف، فكفروا به جلَّ شأنه، وبرسوله محمد ﷺ؛ فبدلوا نعمة الله بتوحيده، كفرًا وشركًا.

---

(١) لفظ (نعمت) رُسِم في المصحف بالتاء المفتوحة، ووقف عليها بالهاء: ابن كثير وأبو عمرو والكسائي، ووقف عليها الباقون بالتاء، وأمالها الكسائي عند الوقف وأمثالها (نعمت) في الآية (٣٤).

(٢) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (وبيس) ياء وصلًا ووقفًا ومعهم حمزة عند الوقف.

والذين يتزعمون حركات الكفر والشرك في العالم يتقدمون الشعوب التي أضلوها إلى جهنم يوم لقاء رب العالمين، ويأخذون بأيديهم إلى المصير الأليم، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

وقال تعالى عنه وعن جنوده: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤١]

ذلكم قول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ وأهمها: بعثة محمد ﷺ:

١- وهي نعمة الإسلام، فبدل أن يعبدوا الله ويطيعوه، ويتبعوا ما جاء به خاتم الرسل كفروا به، وبدل أن يشكروه سبحانه ويَحْمَدُوه على هذه النعمة بدَّلوا هذا الإيمان بالكفر، وهم بهذا قد تسببوا في هلاك أقوامهم ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ فأخذوا بأيديهم إلى دار الهلاك والخسران.

٢- والذين بدَّلوا نعمة الله كفرًا، هم الذين تلَّقوا الكلمة الخبيثة من الشيطان، وهي كلمة الشرك والكفر.

٣- وهم الذين ضرب الله لهم المثل في الآيات السابقة بالشجرة الخبيثة.

٤- وهم الذين استكبروا عن قبول الحق، فقابلوا دعوة الإسلام بالعناد والمكابرة، وهم من الذين قال لهم الضعفاء: إنا كنا لكم تبعًا، وذلك في كل زمان ومكان، وفي مقدمتهم مشركو مكة في وقت النبي ﷺ الذين بوَّأهم الله حَرَمه، وأمَّنهم في سفرهم وإقامتهم، وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم، وسلَّمهم مما أصاب غيرهم من عذاب الاستئصال، وأنعم عليهم برسالة محمد ﷺ أفضل أنبيائه، فدعاهم إلى الهدى، وهيأ لهم أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، ولكنهم كفروا بهذه النعم، فعبدوا الحجارة، وكفروا بالله وبرسوله، ولازموا الكفر حتى ماتوا عليه،

٥- وكذلك كل من لم يؤمن برسالة محمد ﷺ من جميع الخلق إلى يوم القيامة، فهو ممن بدل نعمة الله كفرًا[1].

هذا: ونعمة الإسلام تدخل في الآية دخولًا أوَّليًّا، ولفظ: ﴿نِعْمَتَ﴾ لفظ عام يشمل كل نعمة أنعم الله بها على الإنسان، وبدل أن يقوم العبد بواجب هذه النعمة استعملها في غير

(١) وما ورد في «تفسير ابن كثير» وغيره من أن المراد بالذين بدلوا نعمة الله كفرًا: هم بنو أمية وبنو المغيرة، منسوبًا إلى عمر وعلي ﷺ، فهو من وضع الضالين المضادين لبني أمية وكذلك ما ينسب إلى ابن عباس ﷺ أن المراد بهم: جبلة بن الأيهم، ومن تبعه من العرب ممن تنصروا في عهد عمر، لا أراه مناسبًا لمعنى الآية، وقد حدث هذا في خلافة عمر، بعد نزول الآيات بوقت طويل؟

موضعها، فمن أعطاه الله مالًا، أو صحة، أو علمًا، أو جاهًا، أو سلطانًا، ثم طغى وبغى، وأساء استخدام هذه النعمة في المعاصي بدل الطاعات، وبدَّدَ الطاقات في غير ما هو مشروع، فإنه بهذا يكون قد بدَّل شكر النعمة بكفرها.

والمعنى: ألم تنظر وتعْجب -أيها المخاطب- من أولئك الذين قابلوا نعمة الله بالجحود والطغيان، ووضْعها في غير موضعها، فغيَّروا الشكر بالكفر، وكانوا سببًا في إنزال قومهم دار الهلاك والخسران؟!

ودار البوار التي أعدها الله لمن بدلوا نعمة الله كفرًا فلم يؤمنوا بالرسالة الخاتمة، هذه الدار: هي جهنم يقاسون حرها يوم القيامة، وبئس المستقر مستقرهم في نار جهنم، وبئس المصير لهؤلاء الكفار المشركين. قال تعالى:

٣٠- ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا[1] عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

والسبب في هذا العذاب أنهم أشركوا مع الله غيره، وجعلوا له أشباهًا وأمثالًا، فقالوا: عيسى ابن الله، وقالوا: إن لله سبحانه زوْجة وولدًا، وقالوا: عزير ابن الله؛ ليُبعدوا الناس عن دين الله ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أصنامًا وأوثانًا - كما هو الحال في أماكن كثيرة من أرجاء العالم قديمًا وحديثًا - لِيَضِلُّوا بأنفسهم عن سبيل الله، كما في قراءة فتح الياء وكسر الضاد، أو ليُضلوا غيرهم عن سبيل الله كما في قراءة أخرى بضم الياء، ويصدونهم عن اعتناق الإسلام.

يقول سبحانه مخاطبًا هذه الفئة إلى يوم القيامة: قل تمتعوا في هذه الحياة بشهواتكم وملذاتكم؛ فإن متاع الدنيا قليل، وهي سريعة الزوال، وإن مردكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران].

وقال جل شأنه: ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس].

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء من (ليَضلوا) فعل مضارع لازم، أي: ليضلوهم في أنفسهم، والباقون بضم الياء فعل متعد، والمفعول محذوف، أي: ليضلوا غيرهم.

وقال: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

﴿قُلْ تَمَتَّعْ﴾ أيها الكافر ﴿بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]

تمتعوا - أيها الجاحدون لنعم الله - في هذه الحياة قليلًا؛ فإن مصيركم في الآخرة إلى النار.

يقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لو أن الكافر كان في الدنيا مريضًا لا ينام من شدة المرض، جائعًا لا يأكل، ولا يشرب مدة حياته، لكان هذا نعمة بالنسبة إلى عذابه يوم القيامة.

ولو أن المؤمن كان في أرغد عيش، وأهنأ حال في حياته الدنيا، لكان هذا بؤسًا بالنسبة إلى نعيم الآخرة.

وَاجِبُ المُسْلِمِ تِجَاهَ رَبِّهِ وَتِجَاهَ وَطَنِهِ

٣١- ﴿قُل لِّعِبَادِيَ[(١)] الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ[(٢)] ۝٣١﴾

ولما ذكر سبحانه أحوال أهل الكلمة الخبيثة ثنّى بالكلام على أهل الكلمة الطيبة؛ ليداوموا ويستمروا على ما هم عليه من الطاعة والعبادة، والخطاب في الآية لعموم المؤمنين؛ فبيَّن سبحانه أنه لا بد لهم من أمرين: أمر في هذه الآية، وأمر في الآية التي بعدها.

الأمر الأول: أنه يجب عليهم أفرادًا وجماعات أن ينشغلوا بعبادة الله سبحانه، فيُشغلوا أنفسهم بعبادة الواحد الديان، وفي مقدمة هذه الطاعة والعبادة: إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ بأن يكون هذا همهم شعوبًا وأفرادًا، وجماعات وحكومات، ينشغلون به كأمة وأفراد أكثر من

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر ورويس وخلف العاشر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (قل لعبادِيَ الذين)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف العاشر بالرفع والتنوين من (لا بيعٌ فيه ولا خلالٌ) على أن لا نافية للوحدة لا عمل لها، وبيع مبتدأ، والجار والمجرور خبر، وخلال مبتدأ خبره محذوف دل عليه الخبر الأول، وقرأ الباقون بالفتح وعدم التنوين، على أن لا نافية للجنس تعمل عمل إن، وبيع اسمها، والجار والمجرور خبرها، وخلال اسم لا، وخبرها محذوف دل عليه الأول، أي: فيه.

انشغالهم بواجبهم الوطني أو القومي، أو بما يتعلق باقتصادهم وسياستهم واجتماعياتهم؛ فإن الله سبحانه قد خلق الخلق لعبادته، وهذا هو الواجب الأول فيجب أن تقام الصلاة في المساجد، وفي دواوين العمل، ودور التعليم، وتتوقف الأعمال لأداء الصلاة.

وعلى جهاز الحكومة أن يجمع الزكاة قسرًا ممن منع إخراجها، ويصرفها في مصارفها المشروعة.

وعلى الدولة أن تُلزم غير المسلمين باحترام مشاعر الصائمين في شهر رمضان ما دامت الدولة، دولة إسلامية، وعليها أن تُطوع إعلامها ومظهرها الخارجي لأخلاق الإسلام، وفي مقدمة ذلك إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ فيؤدون الصلاة بحدودها، ويحافظون عليها، ويُتِمُّون ركوعها وسجودها والخشوع فيها، ويُتِمُّون وضوءها، وأقوالها، وأفعالها.

ويخرجون بعض ما أعطاهم الله من المال سرًّا في صدقة التطوع، وعلانية في الزكاة المفروضة، والمقصود: الإنفاق في السر والعلن؛ لئلا يظنوا أن إنفاق الأموال جهرًا يجر إلى الرياء، أو أن إخفاء الصدقة يُفضي إلى إخفاء الْغَنِيِّ نعمة الله عليه، فيجر هذا إلى كفران النعمة، فربما ظن الإنسان أحد الأمرين؛ فأفضى هذا إلى ترك الإنفاق في الحالة الأخرى.

ولعل تقديم السر على العلانية للتنبيه على أنه أولى، كما قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وقد أمرنا الله سبحانه على لسان رسوله ﷺ أن: نقيم الصلاة بحدودها، ونؤديها في أوقاتها مع جماعة المسلمين، وأن نعطي بعض ما أعطانا الله من مال للفقراء والمساكين مسرِّين ومعلنين، من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، وهو يوم القيامة؛ حيث لا ينفع فيه مال ولا بنون، ولا يقبل فيه صدقة ولا فداء، ولا سبيل إلى استدراك مافات الإنسان في حياته، لا بمعارضة بيع وشراء، ولا بشفاعة خليل أوصديق، فلكل امرىء يومئذ شأن يغنيه.

كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد].

وكما قال جلَّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٤] أي: أن الكافر لا يمكنه أن يشتري نفسه، أو يفديها بملء الأرض ذهبًا يوم القيامة -ولو امتلك ذلك- لأنه مستحقٌّ للعذاب.

كما لا ينفعه صداقة أحد وخُلَّته مهما كانت درجته في الدنيا من: الغنى، أو الجاه، والسلطان.

وأيضًا لا ينفعه شفاعة أحد إذا لقي الله كافرًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] والمراد بالعدل: الفداء بالمال.

واقتصرت الآية التي معنا، على نفي قبول الفدية وعدم نفع الصداقة في يوم ليس فيه بيع ولا شراء، فلا يمكن للكفار أن يفدوا أنفسهم بأموال الدنيا وخزائنها -لو أنهم امتلكوها- لتكون عوضًا عن ما قصَّروا في جنب الله، وعن الإيمان والعمل الصالح الذي تركوه في الحياة الدنيا؛ إذ لا تجزئ نفس عن نفس شيئًا.

وكما أنه ليس هناك شفاعة، ولا خُلَّة لأحد يمكن من خلالها أن يحمل، أو يدفع هذا العذاب عن غيره.

وهكذا أَمَر الله عباده في هذه الآية بالمبادرة إلى الطاعات والمداومة عليها؛ كالصلاة، والصدقات في وجوه الخير دون تردد، ولا إبطاء من قبل أن يفاجئهم يوم لا تقبل فيه المعاوضات، ولا الشفاعات، ولا تنفع فيه الصداقات؛ حيث ينظر العبد أمامه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر وراءه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر عن يمينه وعن شماله فلا يرى إلا ما قدم، فعليه أن يتزوَّد لهذا اليوم قبل أن تنتهي الأعمال، ولا يمكن استدراك ما فات، ولا تعويض ما مضى من طاعات واتقوا النار ولو بشق تمره.

تِسْعٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَى الإِنْسَانِ فِي الكَوْنِ

٣٢- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾﴾

هذه تسع نعم ذكرها الله تعالى في هاتين الآيتين؛ للدلالة على وحدانيته تعالى وعلمه وقدرته، وكل هذه النعم مذلَّلة لخدمة هذا المخلوق الصغير ونفعه وهي:

١ - السماء ينزل منها الماء.

٢ - الأرض تتلقى هذا الماء.

٣ - الثمرات تخرج من بينهما.

٤ - السفن تسير في البحر؛ لجلب الأرزاق، والتنقل بين البلاد، لنفع الإنسان.

٥ - الأنهار تجري بالمياه العذبة؛ لحياة الإنسان والحيوان والنبات.

٦ - الشمس تجري؛ لتمدنا بالطاقة والضياء، وينتج عنها فصول العام.

٧ - القمر يتعاقب مع الشمس؛ فيأتي الليل والنهار، والظلمة والضياء، ويُعرف به بداية الشهور ونهايتها.

٨ - الليل يخلف النهار؛ للسكينة والراحة.

٩ - النهار يعقب الليل؛ لتحصيل الأرزاق، وأداء العبادات.

والأمر الآخر الذي يجب على هذه الأمة القيام به[1]: هو أن يكون المسلمون في العالم بيدهم زمام الأمور في الأرض، وتسخير ما في الكون لصالحهم؛ فقد خلقه الله لهم، وسخَّر لهم ما في الأرض والسماء، وما في البحار والأنهار، ويسَّر لهم الاستفادة من الشمس والقمر في إمدادهم بالطاقات وبالحياة، وإذا كان الزمام بأيديهم فهم مُلَّاك، وليسوا عالة، إنهم سادة يملكون ما في الكون من كل ما سخره الله ﷻ لهم، وإلى غيرهم من البشر تبع لهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] هذا هو الأصل والأساس.

فإذا انعكست الآية، وكانت الصناعة والزراعة بيد غيرهم، سِيَّمَا التصنيع الحربي؛ فإن هذا يكون السبب في تحكُّم أعدائهم فيهم، ولا سبيل إلى الانتصار على عدوهم، ونشر دعوة ربهم، وامتلاك زمام الحرية والريادة في الأرض إلا بعدم الحاجة إلى غيرهم في جميع الصناعات الحربية والمدنية والإنتاج الزراعي، وقبل ذلك يكون التحاكم إلى كتاب الله وسُنة رسوله، وتطبيق الشرع الحكيم في جميع الأمور، والولاء والبراء في الله وحده.

ويستفاد هذا المعنى من الآيتين التاليتين اللتين ذكر الله سبحانه فيهما لفظ: ﴿لَكُمُ﴾ خمس مرات، وهي تفيد الملكية لله الذي خلق السموات والأرض، وأوجدهما من العدم، وهما أعظم المخلوقات المشاهدة، الدالة على وجود الخالق القادر سبحانه؛ فقد

---

(١) ذكر الأمر الأول في بداية تفسير الآية (٣١).

خلقهما، وأنشأهما، وابتدعهما سبحانه على غير مثال سابق؛ لنفع الإنسان، وإفادة المسلم على وجه الخصوص.

وأنزل الله سبحانه المطر من السحاب إلى الأرض لانتفاعكم؛ فأخرج به من الأرض أرزاقكم، وأنزل الماء من السماء، وأخرج من الأرض زرعًا ونباتًا وثمرًا وخلافه، وهو رزق سخره الله لكم.

وذلل لكم السفن لتسير في البحر؛ لتنقُّلكم، ولجلْب أرزاقكم وتجارتكم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ فالبحار سخرها الله لكم -أيها المؤمنون- لتنتفعوا بها في تجارتكم، واقتصادكم، وسفركم، وتقلبكم، والأنهار ذللها لكم؛ لشربكم أنتم، ودوابكم، وزروعكم، وثماركم، وسائر منافعكم، كما فجر لكم العيون؛ لأجل هذه المنافع، وكلها من نعم الله عليكم.

الْكَوْنُ كُلُّهُ مُسَخَّرُ لِلإِنْسَانِ

٣٣- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ[١] ﴿٣٣﴾﴾

أي وذلل الله لكم -أيها المؤمنون- الشمس والقمر في حركة دائبة في الطلوع، والغروب، يجريان دائمًا لا يفتران ولا يفترقان؛ لمصالحكم ومنافعكم إلى نهاية الدنيا.

ومن آثارهما: إزالة الظلمة، وإصلاح النبات والحيوان، ويُعرف بهما فصول السنة، وانتهاء الشهور بصفة متواصلة لا تتخلف ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠].

وتسخير الشمس والقمر ليس مباشرًا، وإنما ينتفع الإنسان بآثارهما: ينتفع بمنازل القمر وضوئه ونوره، وينتفع بضوء الشمس وشعاعها.

وذلَّل لكم - أيها الناس - الليل؛ كي تستريحوا وتناموا فيه، وذلَّل لكم النهار؛ كي تسعوا وتعملوا فيه، ولتعاقب النور والظلام، والزيادة والنقصان في كل منهما.

وقد ذُكرتْ ﴿لَكُمُ﴾ خمس مرات في هاتين الآيتين؛ إشارة إلى أن ما في هذا الكون

---

(١) لم يعدّ (والنهار) آية البصري، وعدها غيره.

خُلِقَ من أجل المؤمن، وسخره الله له، وأن المؤمنين يجب عليهم أن يتزعموا الريادة في العلوم التجريبية وغيرها، وأن يقودوا العالم، وينشروا فيه دعوة الله تعالى، وأن تكون الطاقات والابتكارات في حوذتهم، ولكِنَّ المسلمين انحرفوا عن منهج الله، وأخلدوا إلى شهواتهم وملذاتهم، وعطَّلوا أفكارهم ومواهبهم، وتركوا الأمر لغيرهم؛ فأصبحوا ليسوا أهلًا لنصر الله سبحانه، ولا أهلًا لقيادة العالم، وأخْذ المبادرة وزمام الأمور.

فبدل أن تُسخَّر لهم الأرض وما فيها، والكون وما فيه سُخِّروا هم لهذه الأرض وما فيها ومن فيها.

وبدل أن يَذلَّ لهم اليهود والنصارى صاروا هم مسخرين ومنقادين لهم.

إن الجهاد في سبيل الله يحتاج في عصرنا إلى سيادة وقوة عسكرية في البر والبحر والجو، وهذه القوة ليست في عدد المقاتلين، وإنما هي في عدتهم وعتادهم، فأين موقف المسلمين من صُنع الطائرة، ومن صُنع الصاروخ، ومن صُنع الدبابة، والسفينة، وغير ذلك؟ أين موقف المسلمين من مختلف الأسلحة ؟ والله تعالى قد سخر لهم جميع الطاقات وما في الكون كله، ولكنهم لما جمَّدوا مواهبهم، وأخلدوا إلى دنياهم تقدَّم أعداؤهم، وملكوا الزمام، وتحكموا فيهم، ومع الصحوة الإسلامية المعاصرة تأتي بشائر النصر والحرية إن شاء الله.

ومن الآيات التي ذكرت هذه النعم أو بعضها قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٢].

وقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩] فتارة يأخذ الليل من النهار، وتارة يأخذ النهار من الليل، ويترتب على ذلك طول أحدهما وقصر الآخر في بعض فصول السنة.

وقوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾ [الزمر: ٥].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [لقمان: ٣١] وغير ذلك.

نِعَمُ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى:

٣٤- ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

أي وأعطاكم - أيها الناس - من كل ما تحتاجونه وما لا تحتاجونه، مما تسألونه ومما لا تسألونه، فلم يقتصر سبحانه على تلك النعم السابق ذكرها، بل أعطاكم نعمًا لا تُعدُّ ولا تحصى، كثيرة ومتنوعة فيها كل متطلبات حياتكم، وهذا تعميم بعد تخصيص النعم التسع السابقة، وإن تعدوا نعم الله عليكم لا تطيقوا عدها، ولا إحصاءها؛ لكثرتها، وتنوعها.

وكان الإحصاء في حساب الحاسب، بعد كل عشرة (عَقْد) يرمي حصاة؛ كي يحفظ بها العدد، والله سبحانه يقول: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ جملة أو تفصيلًا، لا يمكنكم إحصاءها؛ فهي نعم عديدة: نعمة النفَس، ونعمة الحواس، والدورة الدموية، وهضم الطعام، والصحة، ودفع المضار، وما إلى ذلك.

ومن نعم الله التي لا تحصى: السموات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والبحار والأنهار، والأمطار والثمار، ولكن الناس لا ينظرون ولا يقرؤون، ولا يتدبرون ولا يشكرون، فيجعل بعضهم لله أندادًا، وهو الخالق الرازق الذي سخر هذا الكون الهائل لهذا الإنسان الصغير!

سأل داود ﷺ ربه تبارك وتعالى: ما أدنى نعمك عليَّ يارب؟ فقال الله سبحانه: يا داود تنفَّس، فتنفَّس، فقال: هذه أدنى نعمة أنعمتُ بها عليك[1].

وورد أن داود ﷺ قال: يارب، كيف أشكرك؟ وشكري لك نعمة منك عليَّ، فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم.

ويقول طلق بن حبيب: إن حق الله على العباد أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله تعالى أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين، وأمسوا توابين، إن الإنسان كثير الظلم لنفسه، جحود بنعمة الله وفضله عليه.

---

(١) ابن أبي الدنيا (١٤٩) والبيهقي (٤٦٢٣).

خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، الشَّاكِرُ لِأَنْعُمِ اللَّهِ، يَسْأَلُ رَبَّهُ سَبْعَةَ أُمُورٍ

٣٥- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ[1] رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾

والمثال الكامل للإنسان الذاكر الشاكر: هو أبو الأنبياء إبراهيم ﷺ، فهو مثال عظيم لمن شكر النعم، والذين لم يبدلوا نعمة الله كفرًا، وهو أيضًا مثال لأهل الكلمة الطيبة.

وإبراهيم خليل الرحمن: هو رمز التوحيد وحصنه، يدعو إلى الملة الحنيفية السمحة، وهو الذي حارب الشرك قديمًا، وإبراهيم هو أصل الشجرة الطيبة، وجذورها ممتدة في الأرض وفروعها في السماء، فمن ذرية إبراهيم كان إسماعيل ومحمد، ومن ذرية إبراهيم كان إسحاق ويعقوب، وسائر أنبياء بني إسرائيل، فهو أصل هذه الشجرة المباركة؛ شجرة الأنبياء والصالحين.

وإبراهيم ﷺ كان متزوِّجًا لسارة، وسارة كانت عقيمًا لم تنجب، ولما ذهب إلى مصر ورجع منها بهاجَر، وهبتْه إياها، - أي: إن سارة وهبت هاجَر لإبراهيم - لأنها لم تلد، فرزقه الله منها بإسماعيل، ولما رزقه الله بإسماعيل غارت سارة من هاجر، فأمره الله سبحانه أن يهاجر بإسماعيل الرضيع وأمه إلى مكة، برفقة جبريل ﷺ يدله على موطن النزول ومكان الهجرة.

وهناك دعا إبراهيم ربه قبل بناء البيت، دعا ربه بما يُذكِّر هذه الأمة، بأن البلد الحرام، بُني أول ما بُني على التوحيد، وعلى نعمة الأمن والرخاء.

وإبراهيم ﷺ قد دعا ربه في هذه الآيات بسبع دعوات متوالية ذُكِرت في هذه الآيات الست على لسان إبراهيم ﷺ:

الدُّعَاءُ الأَوَّلُ: طلب أمْن البلد الحرام:

طلب إبراهيم من ربه أن يجعل مكة بلدًا آمنًا، يؤمِّن الله فيها كل أهلها وساكنيها من الخوف، كما طلب ذلك أيضًا في سورة البقرة فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [آية: ١٢٦]

---

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان بألف بعد الهاء من لفظ (إبراهيم) في السورة كلها، وقرأ غيره بياء بعد الهاء ومعهم ابن ذكوان في الوجه الآخر، وهما لغتان.

أي: اجعلها من جملة البلاد الآمنة، وفي الآية التي معنا قال سبحانه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ أي: أَخْرِج أهله من الخوف إلى الأمن، إلى قرب قيام الساعة؛ حيث ثبت في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يُخرِّب الكعبة ذو السُّويقتيْن من الحبشة**»[1].

وهذا يكون من علامات الساعة، وتخريب المكان أعلى درجات الخوف.

فمعنى ذلك أن دعاء إبراهيم ﷺ متحقق إلى قرب قيام الساعة، أو أن الآية عامة مخصوصة بقصة ذي السويقتين.

وقد استجاب الله سبحانه دعاء إبراهيم؛ فأمَّن الحرم وجميع ساكنيه من الإنس وغيرهم؛ ويسّرَ أسباب حرمته، فالطائر يأمن على نفسه، وكذا الوحوش والحيوانات والإنسان والأشجار، كلها آمنة في حرم الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]

فالطير في مكة لا يُذبح ولا ينفَّر، ولا يُقْطع شجره، ولا تُلْتقط لُقطته، ولا يُخْتلى خلاه، ولا يُصطاد صيده، وإن أراده ظالم بسوء قصمه الله.

الدُّعَاءُ الثَّاني: تجنُّب عبادة الأصنام:

سأل إبراهيم ربه أن يجنِّبه عبادة الأصنام هو وذريته من صلبه -وهم يومئذ إسماعيل، وإسحاق- وقد بيَّن سبحانه في آيات أخرى أنه قد أجاب إبراهيم في بعض ذريته دون بعض.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

ومعلوم أن إبراهيم ﷺ معصوم من عبادة الأصنام، وإنما قال ذلك هضمًا لنفسه، وإظهارًا للحاجة إلى الله تعالى، وأنه لا يقدر على نفع نفسه، فدعا لنفسه وللأنبياء من ذريته؛ طلبًا لزيادة العصمة والتثبيت، كما دعا ربه قائلًا: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة:

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٥٩١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٠٩).

١٢٨] وهو أول المسلمين، قال إبراهيم: يارب إن الأصنام، مثل: وَدٌّ، وسواعَ، ويغوثَ، ويعوقَ، ونسرٍ، كانت سببًا في ضلال كثير من الناس، والصنم ذاته جماد لا يعقل، ولا يضر، ولا ينفع، وإنما كان السبب في الضلال ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

أي اجعلني - يا رب - في جانب بعيد عن عبادة الأصنام.

الدُّعَاءُ الثَّالِثُ: تَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِيمَنْ خَالَفَ دَعْوَتَهُ:

٣٦- ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

يارب إن الأصنام تسبَّبتْ في إبعاد كثير من الناس عن طريق الحق؛ فمن تبع ملَّتي وآمن بي، واقتدى بهديي في التوحيد، فهو على ديني وسنتي، ومَنْ خالفني فيما دون الشرك فأفوض أمره إليك، إن عذَّبته فذاك، وإن تغفر له فإنك غفور لما عدا الإشراك بالله تعالى ممن مات عليه، ومن شفقة إبراهيم عليه السلام أنه طلب المغفرة والرحمة للعصاة، والله تعالى رحيم بعباده لا يعذب إلا من تمرد عليه.

وهذا أدب في مقام الدعاء، ونفع للعصاة من الناس بقدر المستطاع؛ حيث فوض إبراهيم أمره إلى الله تعالى فيهم، ولم يدْعُ بالمغفرة لمن مات كافرًا أو مشركًا، وإنما فوض أمرهم إلى رحمة الله تعالى وغفرانه.

وقد طلب إبراهيم من ربِّه أن يجنِّب ذريته عبادة الأصنام؛ لأنه لما خرج من بلده (أور) بالعراق خرج منها مُنْكِرًا لعبادة الأصنام فيها، وكان أبوه يصنعُها ويصدِّرها فقال إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩] وقال لقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

ولما هاجر إلى مصر وجدَهم يعبدون الأصنام، ثم دخل فلسطين فوجدهم عبدة أصنام، ثم جاء مكة فوجدها خالية وفيها عرب تهامة، ووجد حولها قبيلة جُرْهم وهم قوم على الفطرة، فأسكن بها هاجر وابنه إسماعيل، ثم أقام هناك مَعْلَم التوحيد؛ فبنى الكعبة هو وابنه إسماعيل، وأراد أن يكون هذا المكان مأوى التوحيد، وأقام ابنه في مكة؛ ليكون داعية إلى التوحيد، وسأل ربه: أن يجعله بلدًا آمنا حتى يَسْلَم ساكنوه، ومَن يأوي إليهم من الأذى، وكان مَن يأوي إليهم لقَّنوه أصول التوحيد.

ورد أن النبي ﷺ قرأ ما قاله إبراهيم عن أمته: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقرأ ما قاله عيسى عن أمته: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة].

ثم رفع ﷺ يديه إلى السماء وهو يقول: «**اللهم أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي**» وهو يبكي ﷺ، فأرسل الله له جبريل عليه السلام يسأله وهو أعلم: ممَّ يبكي؟ فقال: إنه يسأل الله أن يرضيه في أمته، فأخبر الله سبحانه جبريل أن يُعلِّم محمدًا ﷺ ويقول له: إني سأسرك في أمتك، وسنرضيك ولن نسوءك[1].

الدُّعَاءُ الرَّابِعُ: طَلَبُ عُمْرَانِ مَكَّةَ وَجَلْبِ الْأَرْزَاقِ إِلَيْهَا:

٣٧- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ[2] أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً[3] مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ[4] وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

لما جاء إبراهيم بولده إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة برفقة جبريل وضعهما في مكان من الحِجْر عند دوْحة فوق بئر زمزم، وكان البيت ربوة حمراء في أعلى المسجد.

والقرآن يتكلم عن البيت الحرام من عهد إبراهيم عليه السلام حين رفع القواعد، وقبل ذلك يرجع الكلام فيه إلى التاريخ، وهي آثار لا تخلو من مقال، سواء أكان مَنْ بَنى البيت الملائكة، أم آدم، ولكن القرآن يتكلم عن رفع إبراهيم لقواعد البيت، وهل كانت هناك قواعد فرفعها إبراهيم، أم أن الله تعالى أرشده إلى مكان البيت فبناه؟

---

(١) «تفسير الطبري» (١٣/ ١٥١) من حديث عبد الله بن عمرو وهو في «صحيح مسلم» برقم (٢٠٢) و«المسند» (٥/ ١٤٩).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إنيَ أسكنت)، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ هشام بخلف عنه بياء ساكنة بعد الهمزة من (أفئدة) لغرض المبالغة؛ كالدراهيم، والصياريف وهي لغة المشبعين من العرب، والباقون بحذف الياء وهو الوجه الثاني لهشام.

(٤) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (إليهُم)، والباقون بكسرها.

هاجر وإسماعيل في جوار البيت: وقبل بناء إبراهيم للبيت كان قد وضع في هذا المكان هاجر وإسماعيل وهو طفل رضيع، وترك عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم انصرف فدعتْه هاجر: إلى أين يا إبراهيم؟ أتتركنا في هذا المكان حيث لا أنيس، ولا زرع ولا ضرع؟ فلم يجبها مرة ومرتين، ثم قالت له: آلله أمرك بهذا؟ وهي تعرف أنه نبي مُرسل، قال: نعم، قالت: إذن فلن يضيعنا! وأمرها أن تتخذ لها عريشًا يحميها من الشمس ومن الحر؛ كالخيمة تجلس تحتها هي وولدها.

ولما انصرف إبراهيم توجَّه نحو الكعبة، ودعا ربه وهو بجوار بيته: أنه جاء إلى هذا المكان، وأسكنهما مكة، وهي وادٍ في مكان منخفض بين جبلين: جبل أبي قُبيس، وجبل أَجْياد، ليس فيه زرع، ولا ضرع، ولا ماء، عند البيت الحرام، وكان إبراهيم لمَّا يبْنِ البيت بعدُ، ولكن هذا بإعلام الله له، أو كان للبيت أثر معروف، ودلَّه جبريل عليه.

والبيت الْمُحَرَّم، هو الممتنع من تناول الأيدي له بما يضره، وله في نفوس الناس توقير وتعظيم؛ بما شاهدوه من هَلاك مَن يُرِد فيه بإلحاد بظلم، كما حدث لأصحاب الفيل.

ربنا إني أسكنت زوجي وولدي في هذا المكان بجوار بيتك من أجل طاعتك وعبادتك، وفي مقدمة ذلك أداء الصلاة.

وقد أعلمه الله تعالى أنه سيكون له عَقِبٌ وذرية يعمرون المكان، ويؤدون الصلاة فيه، فدعا ربه أن يوفقهم لطاعته وعبادته، ربنا إني فعلت ذلك بأمرك؛ لكي يؤدوا الصلاة بحدودها متوجهين إليك، فاجعل يارب قلوب بعض الناس وأفئدتهم تَحِنُّ وتنزع وتأوي إلى هذا المكان؛ ليعمِّروه، ويطوفوا حوله، ويُصَلُّوا فيه، وارزقهم يارب بالمياه، وبعض الثمرات؛ ليشكروك على فضلك وإنعامك، فاستجاب الله له، وجعل ذلك عونًا على طاعته، وقال إبراهيم: فاجعل أفئدة من الناس، ولم يقل أفئدة الناس.

جاء في الأثر عن مجاهد أنه لو قال ذلك؛ لازدحم على البيت الفُرْس، والروم، والمسلمون في كل عام، ولكنها كانت دعوة رحيمة؛ حيث قال: اجعل يارب أفئدة بعض الناس تأوي إلى المكان الذي فيه هاجر وإسماعيل وتحنُّ إليه، وارزقهم من خيراتك وثمراتك؛ ولهذا فإن القلوب تحنُّ نحو بيت الله الحرام وتتشوق إليه، وكل من حَجَّ مرة يسأل الله أن لا يحرمه العودة إليه.

وارزقهم من الثمرات: وقد أجاب الله دعاء إبراهيم، فجعل بيته آمنًا، ورزق أهله من ثمرات الأرض كلها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، والطائف قريبة من مكة بما فيها من الخيرات والثمرات، قيل: إنها قطعة من الشام، ومن إجابة الله لإبراهيم، أن أخرجَ من ذرية إسماعيل محمدا حتى دعا ذريته إلى الإسلام ملة إبراهيم ، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة، وفرض عليهم الحج إلى بيته الذي أسكن عنده ذريته، وأودع فيه سرا تجعل أفئدة الناس تهوي إليه، ولا يتوقف الطواف حول البيت الذي بناه لحظة من ليل أو نهار، وكلما أكثر العبد من التردد عليه ازداد شوقًا إليه.

والمتأمل في حال مكة التي هي بين جبلين - في العصر الحاضر - يرى العجب العجاب، من حيث: جلْب التجارات، والأرزاق، والثمار إليها؛ ويرى كثرة القصور والمباني والحضارة الحديثة، تحقيقًا لدعوة خليل الرحمن؛ فالفواكه والخضراوات فيها تزيد أضعافًا بكمياتها وأنواعها على أخصب البلاد وأكثرها أنهارًا في الشرق والغرب؛ حيث يجتمع فيها البواكير من الفواكه مختلفة الأزمان في الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء، وأغنى الله أهلها بأن فجَّر لهم الأرض؛ لتخرج كنوزها، ونفْطها؛ تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨].

سبب إسكان إسماعيل وأمه في مكة: هذا: وقصة إسكان إبراهيم لإسماعيل وأمه في هذه الأرض المباركة كان لها سببٌ مرادٌ لله تعالى، وذلك أن هاجر أم إسماعيل، كانت أَمَة قد وُهِبت لسارة من مصر، وكانت سارة عقيمًا لا تلد، فوهبتْها لإبراهيم فتزوجها، وأنجب منها إسماعيل، فدبَّت الغيرة في قلب سارة، ولم تصبر على البقاء معها، فخرج بها إبراهيم، ووضعها هي وابنها بجوار البيت في مكة، ورجع إبراهيم إلى فلسطين، ولما كان عند الثنيَّة بحيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت -وكان مرتفعًا من الأرض كالرابية- ودعا ربه بهذه الآية رافعًا يديه إلى السماء: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾.

السعي وبئر زمزم: وأخذتْ هاجر تُرضع ولدها، وتشرب من السقاء الذي تركه لها إبراهيم، فلما نفد الماء الذي فيه عطِشتْ، وعطش ابنها، وأخذ يتلوَّى، ويتمرَّغ من شدة

العطش فأخذتْ تبحث عن الماء، وارتقت على الصفا وهو أقرب الجبال إليها، وأخذت تنظر فلم تجد أحدًا، وسعتْ في بطن الوادي حتى وصلت إلى المروة وهي الجبل المقابل للصفا، وصعدتْ فوقه ونظرتْ فلم تجد أحدًا، وفعلتْ ذلك بين الصفا والمروة سبع مرات، وكانت تجِدُّ في السعي في المنطقة المعروفة الآن بما يسمى بين العلمين الأخضرين، ثم سمعتْ صوتًا؛ فإذا بالملَك عند موضع زمزم، قد ضرب الأرض بعَقِبه فخرج الماء، فأخذت تُحَوِّضُه وتحوطُه، وتغرف منه في سقائها وهو يفور، فشربتْ وأرضعتْ ولدها، وقال لها الملَك: لا تخافي الضيْعة؛ فإن هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، إن الله لن يضيِّع أهله.

ثم مرَّ بهما جماعة من جُرْهم جاؤوا من كُداء في أسفل مكة، فرأَوْا طائرًا في الجو يحوم حول الماء، فقالوا: لا طير إلَّا على ماء، فبعثوا رسولًا فوجد الماء فاستأذنوا هاجر في مجاورتها، يشاركونها في الماء، وتشركهم في اللبن فقبلتْ، وتعلَّم إسماعيل منهم العربية، ولما كبر زوَّجوه امرأة منهم، وماتت هاجر بعد ما تزوج إسماعيل[1].

هذا: وقد رجا إبراهيم من إسكان ابنه وزوجه مكة أن يكونا حُرَّاسًا لبيته، وأن يقيما الصلاة، وأن يشكرا نعمة الله عليهم، وفي هذا تعليم للأمة؛ حتى يراقبوا الله تعالى في جميع الأحوال ويخلصوا له النية، ويشكروه على نعمه.

الدُّعَاءُ الخَامِسُ: دعْوناكَ يَا رَبِّ مِنْ بَابِ الْعِبَادَةِ لَكَ

٣٨- ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾

وبعد الدعاء السابق توجه إبراهيم إلى ربه بدعاء جامع لما في ضميره، شامل لما سبق ذكره في الآيات الثلاث السابقة قائلًا: ياربنا إنك وحدك تعلم ما نخفي في سرائرنا، وما نظهر في علانيتنا من الأقوال والأفعال، وتعلم ما يُصلح أحوالنا وما يفسدها، فنسألك - يا رب - أن تُيسر أمورنا التي نعلمها والتي لا نعلمها، وأنت أرحم بنا منا، ونحن ندعوك إظهارًا للعبودية لك، افتقارًا إليك، وتذلُّلًا لك، وتخشعًا لعظمتك؛ فأنت عالم الغيب والشهادة في كل زمان ومكان، ولا يغيب عنك عِلْم شيء من الكائنات في الأرض ولا في

(١) القصة بتمامها في «صحيح البخاري» وغيره.

السماء؛ فأنت ياربنا تعلم سرائرنا، ولست في حاجة إلى دعائنا، وإنما أدعوك عبادة لك؛ فالدعاء هو العبادة.

وأدعوك يارب؛ إظهارًا لفقري، وشدة حاجتي، تذلُّلًا وتخشعًا إليك، وأنت تعلم ما نسرُّ وما نعلن، وما نخفي وما نظهر، وتعلم أيضًا ما نخفي من محبتنا لإسماعيل وأمه.

وفي هذا تعليم للمؤمنين أن يراقبوا ربهم في السر والعلن، ويعلموا أن الله تعالى مطلع عليهم في جميع أحوالهم، وهذا من تتمة دعاء إبراهيم، وقيل: هو من قول الله تعالى تصديقًا لإبراهيم الذي فوض أمره إلى الله تعالى.

إِبْرَاهِيمُ يَحْمَدُ رَبَّهُ عَلَى نِعْمَةِ الْوَلَدِ:

٣٩- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾

ولما دعا إبراهيم ربه بإقامة التوحيد، وسأله أن يهب له من الصالحين فاستجاب له، حمد الله تعالى على نعمة الولد، وأثنى عليه؛ فقد وهبه الله ولَديْن على الكبر: أولهما إسماعيل، وثانيهما إسحاق.

ومبلغ سن إبراهيم آنذاك لم يصرح به القرآن، وإنما وردت به بعض الآثار:

١- قيل: رَزَق الله إبراهيم ولده إسماعيل، وهو ابن تسع وتسعين عامًا، ثم رزقه إسحاق، بعد ثلاثة عشر عامًا، وهذا قول ابن عباس.

٢- وقال سعيد بن جبير: بُشِّر إبراهيم بإسحاق وهو ابن مئة وسبع عشرة سنة.

٣- وقيل: وُلد إسماعيل، وإبراهيم في سن السادسة والثمانين، ووُلد إسحاق، وإبراهيم في سن مئة، وكان هذا الدعاء بعد أنْ بشر إبراهيم بإسحاق.

وإسماعيل هو الذبيح، أبو العرب، وكانت قبيلة جُرْهُم لمَّا وجدتْ طائرًا يحوم فوق الماء حين نبعتْ عين زمزم جاؤوا إلى هاجَر، وسألوها أن يقيموا معها، فأذنت لهم، ولما كبر إسماعيل تزوج من قبيلة جُرْهم، وتعلَّم منهم العربية.

وأما إسحاق، وهو الفرع الثاني من ذرية إبراهيم، فهو أبو يعقوب، ويعقوب هو إسرائيل الله، ومنه اليهود، وشتان ما بين الفرْعين.

ولما بُشِّر إبراهيم بإسحاق، بعد ثلاثة عشر عامًا من ولادة إسماعيل، حمد الله تعالى على ذلك، كما جاء في هذه الآية، وكان إبراهيم قد سأل ربه الولد في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠)﴾ [الصافات] فاستجاب الله دعاءه، ووهبه ما طلب، ولم يخيب رجاءه فحمد الله تعالى، وشكره على ذلك.

الدُّعَاءُ السَّادِسُ: طَلَبُ إِبْرَاهِيم الصَّلاحَ لَهُ وَلِذُرِّيَّتِهِ

٤٠- ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ[1] (٤٠)﴾

ثم سأل إبراهيم ربه أن يجعله وذريته صالحًا، مصلحًا، مقيمًا للصلاة، ومداومًا عليها على أتم وجه، وسأله أن يستجيب دعاءه، ويتقبل عبادته، وقد قال في دعائه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ لأن الله تعالى قد أعلمه أنه سيكون من ذريته جمع من الكفار لا يقيمون الصلاة، وقد قال الله سبحانه لإبراهيم وإسحاق: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣] منهم محسن مؤمن، ومنهم ظالم مشرك.

ولما سأل إبراهيم الإمامة لذريته قال سبحانه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وسأل إبراهيم ربه أن يجيب دعوته، فقبل الله دعاءه بفضله ومَنِّه.

الدُّعَاءُ السَّابِعُ: طَلَبُ غُفْرَانِ الذُّنُوبِ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَسَائِرَ الْمُؤْمِنِينَ

٤١- ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)﴾

ربنا اغفر لي ما وقع مني مما لا يَسْلَمُ منه البشر، واغفر لي ما كان مني قبل نبوتي، واغفر لوالديَّ، واغفر للمؤمنين جميعًا يوم يقوم الناس للحساب والجزاء، وقد قطَع إبراهيم طمَعه من كل شيء إلَّا من فضل الله تعالى وكرمه، والاعتراف له بعبوديته، فسأل الله المغفرة له تواضعًا وتذلُّلًا لا عن ذنب اقترفه؛ فالأنبياء معصومون من ارتكاب الذنوب، وقد طلب إبراهيم المغفرة لوالديه، ولجميع المؤمنين والمؤمنات من ذريته، وسأل ربه قبول الدعاء.

---

(١) قرأ ورش وأبو عمرو وحمزة وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (دعاء) وحذفها وقفًا، وقرأ البزي ويعقوب بخلف عنه بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

قيل: إن أمه كانت قد أسلمت، أو أنها ماتت قبل نبوَّته، أما أبوه فقد كان مشركًا، ومات على الشرك، وأنه حين دعا لأبيه لم يكن قد مُنع من استغفاره له وقت هذا الدعاء، أو أن دعاءه لأبيه كان قبل يأسِه من إيمان أبيه، وقبل نزول الآية التي تنهاه عن ذلك ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم كله إلا أن دعاءه لأبيه كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ مِنْ مَشَاهِدِ القِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا

٤٢- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ(١) ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ(٢) إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾

ونظرًا لأن سياق الآيات يتحدث عن المكذبين والمشركين، ففي هذه الآية تنبيه لهم ألا يغتروا بسلامتهم وأمنهم في الدنيا؛ فإن متاع الدنيا قليل زائل، وعقابهم آتٍ لا محالة، وإمهالهم لا يعني إهمالهم.

ومن هذا السياق يتبيَّن عقاب الأمم المُكذِّبة لرسلهم، وفي الآية تعزية للمظلوم ووعيد للظالم.

ويتبيَّن أيضًا جزاء الأقوام الذين خالفوا هَدْي رسل الله صلى الله عليهم وسلم من الذين بدَّلوا نعمة الله كفرًا، بدل أن يشكروه على نعمة الإسلام وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فبدَّلوا هذا الشكر إلى كفر، وأحلوا قومهم دار البوار.

وهم الذين قالوا لرسل الله في جميع الأزمنة: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣].

وفي سياق الآيات بيان موقف الرسل وصبْرهم على أذى الأقوام في قولهم لهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

وهم الذين توعدهم الله تعالى بقوله: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين من (ولا تحسَبن)، والباقون بكسرها، وهما لغتان، ومثلها (فلا تحسِبن) الآية: (٤٧).

(٢) عدّ (يعمل الظالمون) آية، الشامي، وتركها غيره.

وهم من الذين سأل إبراهيم ربه أن يجنِّبه وذريته طريقهم.

وحتى يصبر النبي ﷺ كما صبر قبله إبراهيم وسائر الرسل.

وبعد ذلك يبيِّن الله ﷻ أنه ﷻ ليس بغافل عن هؤلاء الظلمة، وليس بساهٍ، ولا لاهٍ عنهم جلَّ شأنه، إنما أخَّر عذابهم وفق سنته تعالى في إمهال العصاة، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقد يعجِّل الله لهم العقوبة في دار الدنيا، وقد يؤخر عقوبتهم ليوم شديد ترتفع فيه عيونهم، ولا تَغْمض من هول ما ترى.

والله سبحانه قد أمهلهم في هذه الحياة، ويعلم أنهم لن يؤمنوا، وسيأتيهم العذاب إن عاجلًا أو آجلًا، والله تعالى ليس بغافل عما يعملون من التكذيب بك، وبغيرك من الرسل، ومن إيذاء المؤمنين وارتكاب المعاصي.

وحقيقة **الغفلة**: سهوٌ يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ.

أو هي: ذهول يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور.

والغفلة بهذين المعنيين مستحيلة بالنسبة إلى الله تعالى، فتعيَّن أن يكون المقصود: هو ترك عقاب المجرمين الظالمين، بمعنى: أن الله تعالى لن يهملهم، وإنما ينتقم منهم ويعاقبهم، ولن يعاملهم معاملة الغافل اللاهي الساهي.

وفي هذا تهديد ووعيد لهم، وفيه أيضًا تسلية للنبي ﷺ وهي وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم، ووعد من الله تعالى بأنه سينصر نبيه، ويظهر دينه، وَوَعْد للمظلوم بالانتصار له من ظالمه.

والمراد بالظالمين في الآية: كل من انحرف عن طريق الحق، واتبع طريق الباطل من كل من أبى الدخول في الإسلام، ولم يتبع ما جاء به خاتم الرسل ﷺ.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ موجَّه للنبي ﷺ، ويصح أن يكون موجَّها لكل مخاطب بأن الله تعالى لا يخفى عليه خافية، وهو سبحانه رقيب وحفيظ لما يعمله الظالمون، وسوف يعاقبهم ويجازيهم على ظلمهم.

ثم بيَّن سبحانه خمسة من المواقف، أو المشاهد التي تحدُث لهؤلاء الظلمة عند بعثهم

وقيامهم من قبورهم، وعند حسابهم ووقوفهم بين يدي رب العالمين:

الوَصْفُ الأَوَّلُ: ذُهُولُ الأَبْصَارِ مِنْ هَوْلِ المَوْقِفِ:

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: أن أبصار الكفار المعاندين المخالفين لرسل الله تعالى تكون يوم القيامة شاخصة مبهوتة، لا يلتفتون إلى شيء، رافعين رؤوسهم مع إدامة النظر، فهو يوم لا ينظر فيه أحد إلى أحد وأبصارهم مفتوحة، من الهول والذهول، كما قال تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء: ٩٧] وهذه الأبصار لا تطرِف، ولا ينطبق لها جفن؛ فهي مشدودة، ممتدة أمامهم مد البصر، لا تدور، ولا تلتفت يمينًا أو يسارًا، كما قال تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه].

الوَصْفُ الثَّانِي: سُرْعَةُ الخُرُوجِ مِنْ القُبُورِ لِإِجَابَةِ الدَّاعِي

٤٣- ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

يصور الله تعالى حال الظالمين عند قيامهم من قبورهم، بأنهم يَخْرُجون منها مسرعين؛ لإجابة الداعي نحو أرض المحشر ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعين حين يدعوهم للحضور بين يدي الله تعالى للعرض والحساب، حيث يخرجون يوم البعث أذلاء، منكسرين من القبور، لا محيص لهم ولا مناص.

والإهطاع: مد العنق والإسراع في المشي على هيئة الخائف، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج].

وقال جلَّ شأنه: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق]

فهم يخرجون من قبورهم مسرعين ملبين للداعي الذي يدعوهم:

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨].

وهو الملَك الذي ينفخ في الصور حين يقوم الناس لرب العالمين ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦] ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر].

يلبون الداعي وهم مسرعون من الهول والفزع.

الوَصْفُ الثَّالِثُ: تَنْكِيسُ الرُّؤُوسِ فِي ذُلٍّ وَرَهْبَةٍ

﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: أن رؤوسهم منكسة، ذليلة، خاشعة لرب العالمين، أو أن رؤوسهم مشدودة في حيرة واضطراب، مرفوعة إلى أعلى، مشخوصة أمامهم لا يملكون خفضها؛ فهي مشدودة بغير إرادتهم لا يبصرون شيئًا لهول الموقف.

الوَصْفُ الرَّابِعُ: أَبْصَارُهُمْ مَشْدُودَةٌ وَجُفُونُهُمْ لَا تَنْطَوِي

﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ أي: أن بصرهم لا يعود إليهم من شدة الهول، فلا يستطيع تحويله؛ لأنه مشدود إلى ما يراه أمامه؛ فأعينهم مفتوحة، لا تطرف ولا تتحرك، وجفونهم لا تنطوي، وإنما هي مفتوحة من الذهول، وشدة الخوف والرعب من هول ذلك اليوم، كما قال رب العالمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [الحج].

الوَصْفُ الخَامِسُ: عُقُولُهُمْ لَا تَعِي وَلَا تُدْرِكُ

﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ أي: أن قلوبهم خالية ليس فيها شيء؛ لكثرة الخوف والوجل من هول ما ترى، قد صعدت إلى الحناجر، فهم لا يعقلون، وهم في خجل ووجل، وأفئدتهم خاوية وفارغة من الفهم، ومن العقل والإدراك، كما كانت خاوية من الخير في الدنيا، ومن العمل الصالح الذي يؤهلهم للقاء رب العالمين، لكنها مملوءة بالْهمِّ والحزن والغم والقلق.

وهكذا وصف الله الظالمين بخمسة أوصاف وهي:

أولًا: شخوص الأبصار في ذهول ورعب.

ثانيًا: الإسراع إلى الداعي يوم البعث والنشور في ذلة وانكسار.

ثالثًا: رفع رؤوسهم في حيرة واضطراب، أو خفضها في ذل وهوان.

رابعًا: انفتاح عيونهم دون أن تتحرك من شدة الوجل.

خامسًا: قلوبهم خاوية من إدراك أي شيء؛ لشدة الهول والفزع.

تَبْكِيتُ الظَّالِمِينَ فِي المَوْقِفِ العَظِيمِ

٤٤- ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ[1] ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

في يوم القيامة يخرج الظالمون من قبورهم وهم في حسرة وندامة، ويتمنون العودة إلى الدنيا مرة ثانية؛ ليتداركوا ما فاتهم من التفريط والتقصير في دنياهم؛ فقد ظلموا أنفسهم بالشرك والكفر.

والله سبحانه يأمر رسوله أن يخبرهم سلفًا عن هول ذلك اليوم، ويخوفهم عذاب الله يوم القيامة، وينذر هم بسوء العاقبة، يوم لقاء رب العالمين.

وأَنذِرْ -أيها الرسول- الناس الذين أرسلناك إليهم، أنذرهم عذابَ الله يوم القيامة، وخَوِّفْهُم أهوالها، ومُرْهُم أن يستعدوا لها بالإيمان والعمل الصالح من قبل أن يحل بهم العذاب فيقول الذين ظلموا أنفسهم بالكفر: ربنا أعدنا إلى الدنيا مرة ثانية، وأمهلنا إلى وقت قريب نؤمن بك، ونصدق رسولك وجميع الرسل قبله؛ لأن دعوتهم واحدة، ومن كذَّب رسولًا فقد كذب الرسل جميعًا.

والكفار يتمنون الرجعة إلى الدنيا حين يرون ابتداء نزول العذاب بهم يوم القيامة، كما جاء ذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وقوله: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) كَسَر الهاء والميم من (يأتيهم العذاب) أبو عمرو، وضمها حمزة والكسائي ويعقوب وخلف، والباقون بكسر الهاء وسكون الميم، والجميع يسكن الميم وقفًا ويكسر الهاء ما عدا يعقوب فإنه يضم الهاء ويسكن الميم.

﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام].

وقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر].

وهكذا الآيات الكثيرة التي تبيِّن حسرتهم وندامتهم في يوم الموقف العظيم؛ حيث يقول الله سبحانه موبِّخًا، ومبكِّتًا لهم: ألم تقسموا في حياتكم وأنتم في الدنيا: إنه لا زوال لكم عن هذه الحياة إلى الآخرة، ولم تصدقوا بالبعث، وكنتم تنكرونه في الدنيا، وتنكرون النشور والحساب والجزاء، وتحلفون على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].

هذا موقف الكفار في الدنيا؛ حيث كانوا يحلفون في دنياهم على: أنه لا انتقال من حياة إلى حياة، ولا زوال لهم ولا انتقال من الدنيا إلى الأخرى، وأنه لا بعث، ولا حساب، ولا ثواب، ولا عقاب.

عُقُوبةُ وَلَاءِ الظَّلَمَةِ:

٤٥- ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾

لقد حللتم، وأقمتم في مساكن الكافرين والمشركين ممن كان قبلكم من الأمم الظالمة، وقد رأيتم وعلمتم مصائر الظلمة والطغاة قبلكم، وما لحق بهم من عذاب الله في الأمم السابقة؛ كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وكيف أن الله سبحانه قد استأصل هؤلاء الأقوام وأبادهم، وأنتم تمرُّون على ديارهم في أسفاركم؟ وفي ذلك﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾ [القمر].

وهذا المشهد متجدد في حياتنا، وقائم على مستوى الأفراد والجماعات، فنحن نرى عقوبات إلهية تحل ببعض الأمم من حروب، وعدم أمن، أو كوارث طبيعية، أو انحدار في الأخلاق وتردٍّ إلى ما هو أكثر من الدرْك الحيواني، فكم من طغاة حلُّوا محل طغاة آخرين في الحكم وكانت نهاياتهم قاسية، وهم لا يعتبرون بمن سبقهم، ولا ينظرون إلى أن الكرسي الذي فرغ ممن كان قبلهم، سيفرغ منهم، ومع هذا فهم يحْذُون حَذْوهم،

ويفعلون أفعالهم.

والنبي ﷺ بيَّن لنا أن المسلم إذا مرَّ بمثل ديار قوم ثمود في مدائن صالح، أو بمثل وادي مُحسِّر المجاور لمزدلفة حيث كانت موقعة الفيل، إذا مرّ بنحو هؤلاء الأقوام الذين انتقم الله منهم وعذَّبهم، عليه أن يمر على أماكنهم سريعًا، وأن يسأل الله النجاة، وأن لا يسكن في مثل هذه الديار؛ حتى لا يصيبه ما أصابهم، وقد بعث الله إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وضرب لهم الأمثال من الأمم السابقة في القرآن الكريم، وبيَّن لهم مصائر هؤلاء الأقوام، وهي أمثلة متجددة في الحياة اليومية، ولكن الناس لا تعتبِرُ بما حدث لغيرهم ولا تتعظ، وكان الواجب عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم، ويدخلوا في الإسلام، ولكنهم ساروا على منهج أهل الكفر والفجور، ولم يعقلوا عن الله أمره ونهيه. قال تعالى في وصفهم:

٤٦- ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ[1] مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾

وهؤلاء الكفرة المشركون من اليهود من النصارى، والوثنيين، وغيرهم إلى يوم القيامة لا يزالون يمكرون بالإسلام وأهله، ولا يزالون يخططون، ويكيدون له ليلًا ونهارًا في السر والعلانية، والله ﷻ محيط بمكرهم، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

والآية عامة في كل من يكيد للإسلام، ويمكر به في كل زمان ومكان.

فالضمير في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ عائد على الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك من الأمم السابقة واللاحقة.

وهو عائد أيضًا على كفار قريش الذين مكروا برسول الله، ودبروا قتله ليلة الهجرة.

وعائد على كل من يكيدون للإسلام، ويمكرون بأهله، ويحاولون النَّيل منه في كل زمان ومكان؛ فالآية تشمل هؤلاء وأولئك، والمعنى قائم متجدد إلى يوم القيامة.

وأصل **المكر**: تبييت وتبرير فعل السوء وإضماره للآخرين، مع إظهار ما يخالف ذلك،

(١) قرأ الكسائي بفتح اللام الأولى ورفع الثانية من (لَتزولُ) على أن (إن) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والفعل مضارع مرفوع، والجملة خبر كان، وقرأ الباقون بكسر اللام الأولى ونصب الثانية، على أن (إن) نافية، والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود.

ومَكْرُهم ثابت في علم الله تعالى، ومعلوم عنده، وهو سبحانه سيعاقبهم ويجازيهم عليه، وسوف يعود مكرهم عليهم، فالمكر السيء لا يحيق إلا بأهله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي: وعند الله عقاب مكرهم، وأنه سبحانه محيط بهم، يعلم سرهم ونجواهم، ويعلم ما دبروه وأضمروه في نفوسهم، وسوف يجازيهم عليه، ومهما عظُم مكرهم واشتد فإنهم لن يضروا الله شيئًا، ولن يضروا إلا أنفسهم، وهو مكر واهٍ وضعيف عند الله تعالى، وإن كان هذا المكر من القوة والتأثير يؤدي إلى زوال الجبال عن أماكنها فإن الله تعالى يحفظ أولياءه، ويعصمهم، ويقيهم منه؛ فهم ليسوا بأشد من أمثالهم الذين دمرهم الله، وأبادهم، وأحبط مكرهم.

والمسلمون لا يزعزعهم كيد الكائدين؛ فهم كالجبال الرواسي، وأهل المكر لم يضروا الله شيئًا، ولكنهم أضروا أنفسهم، وهذه **أمثلة من مكر السابقين** برسل الله:

١- كفار قريش مكروا برسول الله ﷺ؛ كي يقتلوه، أو يحبسوه، أو ينفوه من مكة.

٢- قوم ثمود مكروا بنبي الله صالح، فعقروا الناقة، وأرادوا قتله.

٣- وهكذا الجبابرة والفراعنة يزعمون أن بإمكانهم الوصول إلى السماء، وهو لون من المكر العقائدي؛ حيث يبلغ بهم الفجور والكفر إلى هذه الدرجة.

هكذا صنع فرعون فطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحًا حتى ينفذ إلى السموات، ويزعم أنه يصل إلى إله موسى فقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر].

٤- وكذلك فعل النمروذ الذي حاجَّ إبراهيم في ربه، وكذلك فعل بُخْتنصر، ويقال: إن كلًّا منهما صنع تابوتًا، ووضع نفسه فيه، وعلَّق قوائمه في أربعة نسور يريد أن يصل إلى السماء بطيْره في الهواء؛ بحثًا عن حقيقة قول إبراهيم في وجود الله تعالى كما يزعم، وهكذا الجبابرة والطغاة في كل زمان ومكان مكروا بالضعفاء من الناس[1].

وكثير من أصحاب الثراء والجاه والسلطان، يزيدهم الله طغيانًا عن غيرهم:

---

(١) يُنظَر «تفسير الطبري» (١٣/٧١٨) وأخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري عن علي بن أبي طالب كما في «الدر المنثور» (٥٧٠).

عن أبي عبيدة أن جبارًا من الجبابرة قال: لا أنتهي حتى أنظر إلى مَنْ في السماء فسلَّط الله عليه أضعف خلقه، فدخلت بعوضة في أنفه فأخذه الموت، فقال: اضربوا رأسي، فضربوه حتى نثروا دماغه(١).

وَعْدُ اللهِ نَاجِزٌ لَا مَحَالَةَ:

٤٧- ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾

ثم خاطب الله رسوله، وكل من يتأتى منه الخطاب مؤكدًا إنجاز ما وعد به من النصر على الكفار، كما تحقق ذلك لمن سبقه من الرسل، وهو سبحانه ينتقم ممن عصاه ولا يعجزه شيء، ومكْر الأعداء لن يغير شيئًا من وعده تعالى لرسله؛ فوعده تعالى لأنبيائه ورسله، ولعباده المؤمنين بنصرهم، وتعذيب المكذبين، لا يتخلف.

لقد وعد الله بنصر رسله، وبنصر عباده المؤمنين، حين يكونون أهلًا لهذا النصر، ووعْد الله لا يتخلف، فهو جلَّ شأنه ذو عزة ومنَعة لا يعجزه شيء، وهو شديد الانتقام من أعدائه؛ فقد وعدناك -أيها الرسول- بعذاب الظالمين، وأخبرناك بجانب من العذاب الذي يحل بهم يوم القيامة، وما دام الأمر كذلك فاثبت على الحق أنت وأتباعك، وثِقْ بأن الله تعالى ناصرك على أعدائك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

وقال سبحانه ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة].

وخُلْف الوعد يكون نتيجة عجز عن الوفاء به، أو تعوُّد لخصال النفاق، وكلاهما مستحيل على الله تعالى.

تَبْدِيلُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

٤٨- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

وما يحدث من البعث والنشور، والحساب والجزاء، يكون يوم القيامة حين تبدل

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٤٢).

الأرض غير الأرض والسموات، فكيف يكون هذا التبديل؟

ذكر المفسرون، وأهل العلم أن تبديل الأرض والسموات يكون بأحد أمرين:

إما أن يكون بتبديل صفات الأرض وهيئتها، مع بقاء ذاتها، أو يكون بتبديل ذاتها:

فالأول بمعنى: أن الأرض تُدكُّ، والبحار تُفجُّر وتُسجَّر، وتُسيَّر الجبال، وتُسوَّى الأودية بالأرض، وتذهب الأشجار، وتذهب المعالم والمباني، والقصور والعمارات، ولا يبقى شيء على وجهها كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه].

وقال جلَّ شأنه: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ [الفجر].

وتُغيِّر صفة السماء وهيئتها مع بقاء ذاتها كذلك؛ فتكون كالدهان تارة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن] أي: حمراء كلون الورد.

وكالمهل تارة أخرى قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ [المعارج] أي: كالزيت المغلي.

والشمس تكور ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوير] فتُطمس، ويذهب شعاعها، وتلف كالعمامة.

والكواكب تتناثر وتتساقط، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار] وهكذا تُغيِّر صفات الأرض والسماء، فالأرض تُسوَّى وتُمدُّ كمدّ الأديم، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومَعْلَم، فتصير قاعًا صفصفًا، والسماء تكون كالمهل، من شدة أهوال هذا اليوم، ثم يطويها الله بيمينه ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا﴾ الأنبياء: ١٠٤]

ويبدو أن تبديل الأرض، وتبديل السماء على هذا النحو يكون قبل السؤال وقبل الحساب، أي: حينما ينفخ في الصور، تبدل الأرض غير الأرض والسموات.

وعند الحساب تسأل الأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾ [الزلزلة] فالأرض تتحدث وتشهد لكل إنسان، أوتشهد عليه بما فعل وعمل فيها، تقول: فلان ارتكب الذنب الفلاني في المكان الفلاني، وفلان أطاع الله تعالى، وصلَّى في المكان الفلاني وهكذا..

والنبي ﷺ كان إذا سافر، وانتقل من مكان إلى مكان يبدأ أول ما يبدأ بالمسجد فيصلي

فيه؛ لتشهد له هذه البقعة من الأرض.

ويتعجب الإنسان كيف تنطق الأرض؟ يقول رب العالمين: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة] الله الذي خلقها هو الذي أنطقها.

المعنى الآخر للتبديل، ثم يكون بعد ذلك تبديل ذات الأرض، أي: أنها تتغير، وتتبدل بأرض أخرى بيضاء نقية كالفضة، وتُبدل السموات بسموات أخرى.

ودليل هذا بالنسبة للأرض التي يُحشر الناس عليها ما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث سهل بن سعد ﷺ: «**يُحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عَفْراء كقُرصة النقى، ليس فيها عَلَم لأحد**»[1].

وعفراء: يعني بياض مشوب بحمرة، كقرص الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض الفاخر، **وليس فيها علم لأحد**، أي: ليس هناك حدود للأراضي بين دولة ودولة، ولا بين شخص وشخص، وليس فيها مِلْكِيَّة، ولا تخصيص لأحد، وليس فيها علَم، ولا أثر من عُمران لأحد من خلق الله تعالى.

وجاء عن علي، وابن عباس، وأنس، ومجاهد، وغيرهم، أن هذه الأرض تبدل بأرض من فضة يوم القيامة[2].

والأرض المبدلة لم يُسفك فيها دم حرام، ولم يُعمل عليها خطيئة، وهي أرض جديدة غير الأرض الملطخة بالمعاصي والذنوب.

فتُبدَّل صفة الأرض والسماء وهيئتهما أوَّلًا، ثم يُبدَّل ذواتهما ثانيًا؛ جمعًا بين الأدلة.

وفي حديث سهل بن سعد، وحديث عائشة، وثوبان، أن الناس عند التبديل يكونون على الصراط.

والتبديل الأول يكون قبل الحساب، والثاني يكون بعد الحساب:

---

(١) من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد، كما في «صحيح البخاري» برقم (٦٥٢١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٩٠) والطبري (١٣/ ٧٣٢).

(٢) يُنظَر: الآثار الواردة في ذلك في «تفسير الطبري» (١٣/ ١٦٤) وغيره.

أين يكون الناس عندما تُبدل الأرض والسموات:

١- في صحيح مسلم عن ثوبان ﷺ أن حَبْرًا من اليهود سأل رسول الله ﷺ على وجه التعجيز، والاختبار ضمن أسئلة أخرى فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال ﷺ: «**يكونون في الظلمة دون الجسر**»[١].

أي: عند الصراط المضروب على متن جهنم؛ حيث يكونون في ظلمة الجسر.

٢- وجاء من عدة طرق أن عائشة ﷺ سألت رسول الله ﷺ: أين يكون الناس يوم القيامة حين تُبدَّل الأرض غير الأرض، فقال ﷺ: «**على الصراط**»[٢].

٣- وفي رواية أخرى: «**على متن جهنم**»[٣].

وفي ثالثة: «**على جسر جهنم**»[٤] وكلها بمعنى واحد.

وهذا هو معنى الورود في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم]

وبرز الناس جميعًا وخرجوا من قبورهم إلى أرض المحشر من باب الزبانية، فهم ليسوا في بيوتهم، وليسوا في قبورهم، بل هم في العَراء والفضاء في ساحة العدل الإلهية لا يقيهم واقٍ، ولا يستُرهم ساتر، ولا يحجُبهم حجاب قد برزوا على وجه الأرض لله الواحد القهار.

ويحسُن بنا أن نذكُر حديث ثوبان بكامله لما فيه من الفوائد ودلائل النبوة:

أخرج الإمام مسلم بسنده عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، قال ثوبان: فدفَعْتُه

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٣١٥) والطبري (١٣/ ٧٣٨) والحاكم (٣/ ٤٨١) والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٦٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٩١) يُنظَر: و«المسند» (٦/ ٣٥) برقم (٢٤٠٦٩) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وانظر ٢٥٠٢٣، ٢٥٨٢٨) و«سنن الترمذي» برقم (٣١٢١) وابن ماجه برقم (٤٢٧٩) وابن حبان (٣٣١، ٧٣٨٠) (٢/ ٣٥٢)، والحميدي (٢٧٤).

(٣) «المسند» (٦/ ١١٧).

(٤) «تفسير الطبري» (١٣/ ١٦٦).

دَفعة كاد يُصرع منها، فقال: لِمَ تدفعُني؟ فقلتُ: ألا تقول: يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: **«إن اسمي محمدًا الذي سماني به أهلي»**.

فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: **«أينفعك شيء إن حدثتُك؟»** فقال: أسمعُ بأذني، فنكَت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: **«سل»** فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: **«هم في الظلمة دون الجسر»** قال: فَمَنْ أولى الناس إجازة؟ فقال: **«فقراء المهاجرين»** قال اليهودي: فما تُحْفَتُهم حين يدخلون الجنة؟ قال: **«زيادةُ كَبِد الحوت»** قال: فما غذاؤهم على إِثْرها؟ قال: **«يُنحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها»** قال: فما شرابهم عليه؟ قال: **«من عين فيها تسمى سلسبيلًا»** قال: صدقت.

قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض، إلا نبي، أو رجل أو رجلان! قال: **«ينفعك إن حدَّثتك؟»** قال: أسمعُ بأذني، قال: جئتُ أسألك عن الولد، قال: **«ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فَعَلا مَنيُّ الرجل مَنيَّ المرأة، أذْكَرا بإذن الله، وإذا عَلا مَنيُّ المرأة مَنيَّ الرجل أنثَا بإذن الله»** قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف.

فقال رسول الله ﷺ: **«لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه، حتى أتاني الله به»**[1].

وعن أبي أيوب الأنصاري ﷺ قال: أتى حبر من اليهود إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت إذ يقول الله في كتابه ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين الخلق عند ذلك؟ فقال: **«أضياف الله، فلن يعجزهم ما لديه»**[2].

ومعنى الآية: أن انتقام الله تعالى من أعدائه يكون يوم يتغير هذا العالم المعهود بعالَم

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٣١٥).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٣/ ١٦٤) وابن أبي حاتم وانظر: «فتح الباري» (١١/ ٣٧٥) وابن كثير (٤/ ٤٣٨).

آخر جديد، فتُبدَّل الأرض التي نعيش فوقها، بأرض أخرى بيضاء نقية كالفضة، وكذلك السموات تبدل بغيرها، وتخرج الخلائق من قبورها أحياء للقاء الواحد القهار، المتفرد بعظمته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وقهره لكل شيء فيحاسبهم ربهم، ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

هَيئَةُ الكَافِرِ وَهُوَ يُقَادُ إِلَى جَهَنَّمَ

٤٩، ٥٠- ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾

يصوِّر الله - سبحانه - حال المجرمين بأنهم يُؤتى بهم يوم القيامة مقيدين بالقيود، قد قُرنت أيديهم وأرجلهم بالسلاسل، وهم في حالة ذل وهوان.

قال ابن عباس: يُقْرَنُ كل كافر مع شيطان في سلسلة.

وقال أبو زيد: تُقْرن أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم **بالأصفاد**: وهي القيود، وهو مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسي المذل.

فكل كافر أو مشرك، أو ظالم أو مجرم يُحشر مع قرينه من شياطين الإنس والجن، فَيُقرَن به، ويُرْبَط معه في سلسلة واحدة، وهو مقيد، ومشدود في الأغلال والسلاسل، مضمومة رجله إلى عنقه، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصافات].

وقال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان].

وقال: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص].

وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [مريم: ٦٨].

وقال: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر].

أما الثياب التي يلبسونها في جهنم فهي من قطران، **والقطران**: مادة سوداء منتنة، تشتعل فيها النيران بسرعة كالزفْت الذي يُطلى به الإبل حين تصاب بالجرَب، وقد حذَّرهم القرآن بما يعرفون.

والقِطْر: هو النحاس المذاب.

والقَطِران: تركيب كيميائي قديم يُصنع من شجر العرعر؛ حيث تقطع أخشابه، وتوقد عليه النار فيتصاعد منه بخار، ويتجمع منه ماء أسود، يعلُوه زَبد، يعالَج به جَرَبُ الإبل.

والسرابيل: جمع سربال وهو القميص ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾.

كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج].

ويقال للعزيز الكريم في الدنيا: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان].

أي: قد كنت هكذا في الدنيا، يقال له ذلك من باب السخرية، والتهكم، والاستهزاء.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ إنهم يتقون النار بوجوههم!! ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] أي: أن النار تعلو وجوههم يوم القيامة، وتلفحها فتحرقها، وتغشاها، قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون]

وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

عن أبي أمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**النائحة إذا لم تَتُب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جَرَب**»[1]. قال تعالى:

٥١- ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾

أي وقد فعل الله بالمجرمين ذلك؛ جزاء لهم بما كسبوا من الآثام في الدنيا، والله تعالى يجازي كل إنسان بما عمل من خير أو شر، فيجزي العاصي بعصيانه، والكافر بكفره، والمؤمن بإيمانه، والمطيع بطاعته.

---

(١) مسلم (٩٣٤) وأحمد (٢٢٩١٢) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٩٠).

وحسابهم سهل يسير على رب العالمين قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، ولا يشغله حساب عن حساب.

وفي الأثر: أن جميع الخلائق تُحاسَب في مقدار نصف يوم من أيام الدنيا.

وفي بعضها: أنهم يحاسبون في ساعة واحدة، كما يرزقهم ويدبر أمورهم في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن شأن، وهذا الحساب ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

ويوم الحساب قد اقترب، وحساب الخلق فيه يكون سريعًا في وقت قليل جدًا.

عَالَمِيَّةُ الرِّسَالَةِ فِي بَدْءِ السُّورَةِ وَخِتَامِهَا

٥٢- ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾

وتُختم سورة إبراهيم، بالبلاغ الذي ابتدأت به، في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١] أي: أن هذا القرآن الذي أنزلناه عليك -يا محمد- فيه بلاغ، وإعلام للناس لنصحهم وتخويفهم؛ ليستيقظوا من غفلتهم، ولينتبهوا فيُخلصوا له العبادة، ويُفردوه بالطاعة، ويوقنوا أنه الإله الواحد، لا ربَّ غيره، ولا معبود بحقٍّ سواه، وليتعظ به أصحاب العقول السليمة، فيعتبروا وينتفعوا، فقد بُعث الرسل لتذكير أولي الألباب؛ فهم الذين يعقلون عن الله أمره ونهيه.

وقد اشتملت هذه الآية على أربعة أمور هي:

١- البلاغ والإعلام. ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ﴾

٢- الإنذار والتخويف. ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾

٣- العلم بوحدانية الله تعالى ليفردوه بالعبادة ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

٤- التذكير والاتعاظ لمن ينتفعون بالوعظ والتذكير، فيكون في هذا سعادتهم في الدنيا والآخرة. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

والآية تشير إلى أن هذا القرآن بلاغ لجميع الناس، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

ومن لم يؤمن به فهو في النار كائنًا من كان ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

تم تفسير (سورة إبراهيم) ولله الحمد والمنة.



تَفْسِيرُ سُورَةِ الحِجْرِ (١٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الحِجْر هي السورة الخامسة عشرة في ترتيب المصحف، والرابعة والخمسون في ترتيب النزول، وهي تسع وتسعون آية باتفاق، وست مئة وأربع وخمسون كلمة، وألفان وسبع مئة وستون حرفًا.

والحِجْر: هي ديار ثمود (مدائن صالح) بين المدينة والشام، وقد جاء ذكر لفظ الحِجْر في هذه السورة؛ فسُمِّيت باسمه، ولم يُعرف لها اسم آخر.

وسورة الحِجْر نزلت على رسول الله في مكة المكرمة بعد سورة يوسف، وقبل سورة الأنعام في الفترة بين عام الحزن، وعام الهجرة؛ حيث تعثَّر مسار الدعوة، واشتد إيذاء المشركين لرسول الله ﷺ بعد موت أبي طالب، وخديجة ﵂، فأنزل الله سبحانه هذه السورة؛ لتخفف عن رسول الله ﷺ، ولتنذر المشركين، وتبيِّن مصارع المكذِّبين لرسل الله، وقيل: إنها نزلت عند خروج النبي ﷺ من دار الأرقم في آخر السنة الرابعة من البعثة، وفيها آية الأمر بالجهر بالدعوة ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾.

وتكشف هذه السورة أن كُفْر من كَفَر، وتكْذِيب من كذَّب ليس قدحًا في القرآن، ولا في رسول الإسلام، ولكن العناد والكبرياء في نفوس القوم هو الذي منعهم من الإيمان بمحمد ﷺ.

وهذا الكلام لا يخص أهل الشرك في زمن الرسول ﷺ فقط، بل ينسحب على المشركين والمكذِّبين بخاتم المرسلين في كل زمان ومكان، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذه السورة تشبه سورة الأعراف؛ فهي تبدأ بالحديث عن القرآن، وفيها إنذار، ووعيد، وتهديد للمكذِّبين لرسول الله ﷺ، وفي كل منهما -الأعراف والحِجْر- قصة آدم وإبليس، وفي نهايتها في هذه السورة بيان مصير أهل الضلال والغواية ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ ومصير أهل الهدى والرشاد

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ عيون السلسبيل والكافور والتسنيم والرحيق المختوم بالمسك، ويقال لهم ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ وقد نزع الله من صدورهم الغل والحقد والحسد وجعلهم إخوة متحابين، وهم مخلدون في الجنة بلا تعب ولا مرض ولا كآبة ولا نصب.

وفي السورة لمحات من قصة كل من: إبراهيم، ولوط، وشعيب، وصالح عليهم السلام، وفيها عرض لمشاهد الكون، ودلائل الوحدانية، والقدرة الإلهية: مِنَ السموات، وما فيها من بروج، والأرض الممدودة، والرواسي الراسخة، والماء والسقيا، والحياة والموت، وحشر الخلائق أجمعين، والشمس والقمر، والرياح اللواقح.

وفي سورة الحِجْر خمس جولات:

١- سُنَّة الله مع المكذبين لرسل الله [١ - ١٥].

٢- استعراض بعض آيات الله في الكون [١٦ - ٢٥].

٣- قصة البشرية [٢٦ - ٤٨].

٤- مصارع الغابرين [٤٩ - ٨٤].

٥- لم يخلق الله هذا الكون عبثًا [٨٥ - آخر السورة].

أما عن **الجولة الأولى**: وهي سُنَّة الله تعالى مع المكذبين لرسله، فتبدأ مباشرة بعد التنويه بمكانة القرآن الكريم، وفضله، وهديه؛ حيث يعقُبه الإنذار والتهديد مُلفَّعًا بظل من التهويل، والوعيد لمن أضاعوا أعمارهم سُدًى، ولم يستعدوا للمستقبل الأبدي، لقد استغرقوا في عبادة الدنيا ومُتعها، وأفنوْا فيها أعمارهم، حتى لكأن الآخرة -في نظرهم- وهْمٌ، وضَرْبٌ من الخيال ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

لقد انغمسوا في شهواتهم وملذاتهم، فشغلهم هذا عن الهداية والعمل للدار الآخرة.

وتشير السورة في مطلعها إلى هلاك الأمم الذين كذَّبوا رسل الله، فاعترضوا طريقهم، وظنوا أن الدنيا باقية لهم ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

الجولة الثانية: أما عن استعراض بعض آيات الله تعالى في الكون، فيأتي هذا بعد أن أخبر سبحانه أنه قد تكفَّل بحفظ كتابه، وصيانته من أي تحريف، أو تبديل، وبيان أن

المكذبين لرسل الله إنما يكذبون عن عناد، وجحود:

حيث تستعرض السورة ألوانًا من الأدلة على وحدانية الله تعالى، وقدرته الباهرة، وسابغ نعمه على عباده، وهو حديث شائق عن الكون، وأسراره وقُواه الدالة على عظمة الخالق سبحانه.

وتبدأ هذه الأدلة بمشهد السماء، فمشهد الأرض، فمشهد الرياح اللواقح، فمشهد الحياة والموت، فمشهد الحشر والنشر، وكلها مشاهد ناطقة بعظمة الله تعالى، شاهدة بوحدانيته وقدرته، ينظر المرء إلى أعلى، فيرى شروق الأفلاك وغروبها في فضاء لا نهاية له ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾.

وينظر إلى الأرض، وما أودع الله فيها من: الجبال، والبحار، والأنهار، والأشجار، والنبات فيرى ألوانًا من نعم الله لا حصر لها ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾.

والرياح من نعم الله تعالى، تنتقل من مكان إلى مكان، فتلقح السحاب بالماء وتلقح النخيل والثمار ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ والحياة والموت من آثار قدرة الله تعالى ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

أما عن **الجولة الثالثة**: وهي قصة خلق آدم، وتكليف الملائكة بالسجود له، وامتثالهم جميعًا لأمر الله تعالى، وامتناع إبليس وحده عن الطاعة، وما ترتب على ذلك من لعْنه وطرْده من الجنة، فإن هذه القصة، تشير إلى قصة الإيمان والكفر، والهدى والضلال، وعداوة إبليس لبني آدم إلى يوم القيامة.

لقد خلق الله الإنسان من طينة مُنْتنة ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [٢٦] وعند ما يعود إلى التراب بعد رحلة العمر، يُدفَن تحت التراب، لأن رائحته تكون أشد إزعاجًا، وكأن الناس يتدافنون؛ حتى لا يشمئز بعضهم من بعض.

وفترة البرزخ مسكن مؤقت، أو جسْر يعبُر عليه الإنسان إلى مصيره الدائم!

والمخدوع: من نسي ربه، ونسي مبدأه ومعاده.

إن عناصر الجسم البشري هي عناصر التربة الأرضية، فكيف يتحول اللحم، والعظم

إلى تراب؟! ثم كيف يتحول التراب مرة أخرى إلى لحم، وعظم؟!

إن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، وقدرة الله في ذلك فوق مستوى العقل البشري!

الجولة الرابعة: أما مصارع الغابرين في السورة، فهي تقصُّ علينا كيف أهلك الله قوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحِجْر، فتذكُر الأسباب والنتائج؛ فقوم لوط لمَّا فسقوا بالضيوف، وأرادوا فعل فاحشة اللواط بهم كانت النتيجة أن قلب الله قُراهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطرهم بحجارة من سجيل.

وقوم ثمود عقروا الناقة، وكذبوا رسولهم، فأخذتهم الصيحة بدءًا من الفجر إلى الإشراق.

وأصحاب الأيكة كذَّبوا نبيهم شعيبًا، فانتقم الله منهم بأن أخذتهم الصيحة، فأصبحوا في ديارهم ميِّتين كأنهم لم يكونوا فيها.

وهذه الأماكن في طُرُق الناس يمرُّون عليها في أسفارهم صباح مساء، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الصافات] وهذا تفصيل لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١﴾.

الجولة الخامسة: والله تعالى لم يخلق هذا الكون عبثًا، وإنما خلقه؛ كي يتعرف الخلق على ربهم، فيعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، ويوم القيامة يحاسب الله سبحانه الخلائق، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي.

وعليه: فإن الكافر إذا عاش لحياته يأكل، ويتمتع، ويلهيه الأمل وطُول البقاء في الدنيا، فإنه يتمنى يوم لقاء الله أن يكون قد سلك طريق الهداية في دنياه كي ينجو من العذاب الشديد في أخراه، كما جاء في الآية الثانية من السورة، ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾.

وعلى هذا فإن على المؤمن ألا يتطلع إلى هذا المتاع الزائل، فإن الله تعالى قد أعد له من النعيم الأخروي مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقد شرَّفه بالوحي المنزل على رسوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [٨٨]. لقد خص

الله المسلمين بالوحي الأخير المهيمن على الوحي السابق، ونعيمهم يوم القيامة بلا حدود، والسؤال يوم القيامة سيعم الجميع ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وفي نهاية السورة يأمر الله رسوله ألَّا يحزن لتكذيب المكذبين له، ولا يضيق صدره لجحودهم، ويستعين على ذلك بالتسبيح وكثرة السجود، والثبات على توحيد الخالق، وعبادته إلى الممات ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقُرْآنُ مُكَوَّنٌ مِنْ حُرُوفِ الْهِجَاءِ

١ - ﴿الٓر[١] تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ[٢] مُّبِينٍ ۝١﴾

تبدأ سورة الحِجْر بحروف الهجاء الثلاثة: الألف، واللام، والراء، وهذا كلام جديد وقت نزوله، ونحن قد ألفناه، وعند قراءته لأول وهلة يشد القارئ والمستمع، ويلفت انتباهه إلى كلام غريب، ما معنى ألف، لام، راء؟ كما قال الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا لَا يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن].

لقد كان الكفار يخافون من تأثير القرآن في نفوسهم، وكان بعضهم يمنع الآخر أن يستمع إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآن؛ حتى لا يتأثر به فيؤمن، ولذلك فإن بعض المشركين كان يختفي؛ حتى لا يراه أحد وهو يستمع إلى قراءة القرآن، ثم يلتقي بعضهم ببعض، ويؤنِّب كُلٌّ منهم الآخر، ثم يتعاهدون على أن لا يأتوا مرة ثانية، فيأتون مرة ثانية وثالثة، ويستمعون للقرآن كلٌّ دون علم الآخرين، ويعترفون به فيما بينهم، ولكن الذي يمنعهم من الإسلام هو الكبر، والعناد، والخوف على جاههم، ولعل ذلك من فوائد افتتاح السور بحروف الهجاء، وهي في متناول الجميع: فما الذي يمنعهم من محاكاته؟

وهذا القرآن المعجز الذي عجز أرباب الفصاحة، والبلاغة عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه، مكون من هذه الحروف التي تستعملونها، ومع هذا فقد عجزتم عن الإتيان بمثله، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل أقصر سورة فيه، والتحدي قائم إلى يوم الساعة.

---

(١) سكت أبو جعفر على حروف الهجاء الثلاثة (الر) سكتة يسيرة بدون تنفس على أن كل حرف منها مستقل عن الآخر.

(٢) قرأ ابن كثير بنقل حركة الهمزة من (قرآن) إلى الراء، ومثله حمزة عند الوقف.

والوحي المنزل من عند الله تعالى باعتباره وحيًا يُتلَى، وكلامًا يُقرَأ يُسمَّى قرآنًا متلوًّا، وباعتباره كلامًا مسطورًا ومكتوبًا فهو كتاب.

وهذا القرآن مُوَضِّح للحقائق بأحسن لفظ، وأوضح عبارة تدل على المقصود.

والكتاب، والقرآن علَمان على هذا المصحف، جمع الله له بين الاسمين.

وهو الكتاب الكامل في الفصاحة والبيان، المتعالي عن طاقة البشر، الذي لا خلل فيه، ولا اضطراب.

ولفظ القرآن أرسخ في التعريف به من الكتاب؛ لأنه العلَم الأصلي، سواء أكان نكرة، أم معرفة؛ وقُدِّم الكتاب على القرآن؛ لأن سياق الآيات في توبيخ الكافرين، وتهديدهم بأنه سيأتي وقت يتمنون فيه لو كانوا مؤمنين، وهو مناسب لقولهم: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

وهذا الكتاب يشتمل على الآيات الدالة على أحسن المعاني وأفضل المطالب، وهو قرآن يُبيِّن الحقائق بأحسن لفظ وأوضحه، وهذا يوجب الإيمان به والانقياد له، والتسليم لِحُكْمه، وتلقّيه بالقبول والفرح والسرور، أما من قابل هذه النعمة بالكفر والتكذيب، فإنه سيأتي عليه يوم يتمنى أنْ لو كان مسلمًا منقادًا لحكم الله وأمره.

الْوَقْتُ الَّذِي يَتَمَنَّى فِيهِ الْكَافِرُ لَوْ كَانَ مُسْلِمًا

٢- ﴿رُّبَمَا[1] يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾

ثم يبيِّن الله سبحانه أنه بوسْع الجميع أن يؤمنوا بهذا القرآن، ويدخلوا في الإسلام قبل أن يأتي وقت يندمون فيه على عدم الإيمان بخاتم الرسل ﷺ، ويتمنون أن لو كانوا قد أسلموا وآمنوا به وهم في الدنيا، فيبيِّن سبحانه أن الكفار حين يروْن عُصاة المؤمنين يخرجون من النار، يتمنوْن لو كانوا موحدين مؤمنين بآخر رسالة، ولم يكونوا كافرين بالله ورسوله، وذلك بعد فوات الأوان وانتهاء وقت العمل.

و (رُبَّ) للتحقيق، ولم تُذكَر في القرآن إلا في هذا الموضع، وهي في اللغة تعطي معنى

(١) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بتخفيف الباء من (ربَما)، والباقون بتشديدها، وهما لغتان.

القلة، وقد تكون للتكثير، والقرآن الكريم يبيِّن أن الكفار سيأتي عليهم وقت قريب يندمون فيه على كفرهم، ويتمنون أن لو كانوا في دنياهم مسلمين، ولم يكونوا كفارًا.

وهذا التمني يكون في كل موطن يرى فيه الكافر أنه على باطل، فيتمنى أن يكون مسلمًا، وهذا يحدث في الدنيا والآخرة:

وذلك وقت خروج الروح عند الموت؛ فسكرات الموت تختلف بين المؤمن والكافر، ويظهر حُسْن الخاتمة وسوء الخاتمة عند النزع؛ لخروج الروح.

حينئذ يتمنى الكافر لو كان مسلمًا، وذلك في وقت لا يُسْمِن فيه الندم، ولا يغني من جوع، بل يكون حسرة وألمًا على صاحبه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ بالعذاب، يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ مما أنتم فيه ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [محمد].

وحينئذ يتمنى الكافر أن لو كان مسلمًا، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، فيقول تعالى: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون]

قال ابن مسعود ﷺ: ودَّ كفار قريش لو كانوا مسلمين يوم بدر، حين رأوْا نصر الله للمسلمين.

فهذه المواطن وأشباهها يتمنى فيها الكافر العودة إلى الدنيا؛ ليتدارك ما فاته.

ففي يوم القيامة يتمنى الكافر لو كان مسلمًا، وذلك في أربعة مواطن:

(أ) الموطن الأول في يوم القيامة حين يقف الكافر على النار ويراها، فيتمنى لو كان مسلمًا، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام] أي: ليتنا نعود مرة ثانية إلى الدنيا، ونتدارك ما فاتنا.

وحين يعرض على ربه قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام] حينئذ يتمنى الكافر أن لو كان مسلمًا.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان].

وقال أيضًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

(ب) ويكون الموطن الثاني الذي يتمنى فيه الكافر لو كان مسلما: حين يأمر الله تعالى بإخراج الموحدين -الذين ماتوا على غير الشرك- من النار إلى الجنة بعد أن يأخذوا جزاءهم على معاصيهم، حينئذ يندم الكافر، ويتمنى أن لو كان مسلمًا، ويخرج من النار كعصاة المؤمنين.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام، فقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخِذْنا بها، فسمع الله ما قالوا: فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأُخرجوا، فلما رأى ذلك مَنْ بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما خرجوا**»، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾[1].

---

(١) رواه الطبراني (٢/١٤) كما قال الهيثمي أيضًا في «مجمع الزوائد» (٧/٤٥) ورواه ابن أبي عاصم في «السنة» برقم (٨٤٣) والحاكم في «المستدرك» (٢/٢٤٢) عن أبي الشعثاء، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ورواه ابن أبي حاتم، وزاد فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) عوضًا عن الاستعاذة، قلت: وهو أصح؛ لأن البسملة لا بد منها في أول السورة وفيه خالد بن نافع الأشعري متكلم فيه، وبقية رجاله ثقات، وقال الألباني في «ظلال الجنة» عقب حديث (٨٤٤): حديث صحيح رجاله ثقات، رجال مسلم، غير خالد بن نافع وفيه ضعف، وأخرجه البيهقي في البعث والنشور (٨٥).

(ج) والموطن الثالث الذي يندم الكافر فيه يوم القيامة، حين يرى أن قومًا من المسلمين قد خرجوا من النار بعد أن عوقبوا فيها بمقدار ذنوبهم بمقتضى الشفاعة لهم، فيتمنَّونَ في هذا الموقف أيضًا لو كانوا مسلمين.

أخرج الطبراني وغيره بسنده أن أبا سعيد الخدري ﷺ سمع رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾: **«يُخرِجُ الله أناسًا من المؤمنين من النار، بعدما يأخذ نقمته منهم قال: لما أدخلهم الله النار مع المشركين، قال لهم المشركون: أليس كنتم تزعمون أنكم أولياء الله في الدنيا، فما بالكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم أذن في الشفاعة لهم، فتشفع الملائكة والنبيون، ويشفع المؤمنون، حتى يُخرَجوا بإذن الله، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة، فنُخْرَجُ معهم، قال: فذلك قول الله تعالى:** ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ فيُسمَّون في الجنة الجُهنَّميِّين؛ من أجل سواد في وجوههم، فيقولون: يا رب، أذهِبْ عنا هذا الاسم، فيأمرهم فيغتسلون في نهر الجنة، فيذهب ذلك الاسم عنهم»[1].

وفي الآية تثبيت المؤمنين، وتبشير لهم أنهم على حق، وفيها حث للكافرين على الدخول في الإسلام قبل فوات الأوان، وتحذير لهم من سوء عاقبة الكفر.

(د) والموطن الرابع من مواطن يوم القيامة الذي يتمنى فيه الكافر لو كان مسلمًا، أنه لا يزال الله تعالى يشفع، ويرحم حتى يدخل الجنة كل من كان مسلمًا، وعندئذ يتمنى الكافر لو كان مسلمًا. قال تعالى:

وأقوال العلماء في هذه الآية راجعة إلى شيء واحد؛ لأن منهم من يقول: إن الكافر إذا احْتُضِر تمنىَّ أن لو كان مسلمًا، ومنهم من يقول: إنه إذا عاين النار تمنَّى أن لو كان

---

(١) ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٢٥٩٩) «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان» من طريق عمر بن محمد بن أباد عن أبي أسامة نحوه وهو في «الإحسان» برقم (٧٤٣٢) قال محققه: حديث صحيح، وله شواهد عدة، منها حديث جابر في النسائي برقم (٢٩١) كتاب التفسير، وصحح السيوطي إسناده في «الدر المنثور» (٤/ ٩٢) وحسَّن إسناده محقق النسائي، وعزاه الهيثمي للطبراني في «الأوسط» وقال: رجاله رجال الصحيح غير بسَّام الصيرفي وهو ثقة «مجمع البحرين» (٤٨٢٠) ورقمه في الطبراني (٨١١٠) وصحح إسناده الألباني في «ظلال الجنة» برقم (٨٨٤).

مسلمًا، وغير ذلك من المواقف كلها راجعة إلى أن الكفار إذا عاينوا الحقيقة، وانكشف لهم أنهم على باطل ندموا على كفرهم، وتمنَّوْا لو كانوا مسلمين. قال تعالى:

٣- ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ[1] الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أن حياة الكفار: أكْل، وشُرب، وانغماس في الشهوات والملذات، واشتغال بالدنيا، وانصراف عن طاعة الله ﷻ، ولا جدوى من الحرص على هدايتهم.

فلا لوم عليك -يا محمد- في تركهم بعد أن حذَّرتهم، وأنذرتهم، وليس عليك شيء من أمرهم يا رسول الله، فلا تهتم بهم، وسوف يروْن عاقبة أمرهم خسرانًا في الدنيا والآخرة، وهذه جملة من الآيات توضح هذا المعنى:

١- قال تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠].

٢- وقال سبحانه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [المعارج].

٣- وقال جلَّ شأنه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

٤- وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

٥- وقال أيضًا: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران].

٦- وقال سبحانه: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [المرسلات].

٧- وقال أيضًا: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الطور: ٤٥].

والأمل هو حب الدنيا، والركون إليها، والحرص عليها كثيرًا.

يقول عليُّ بن أبي طالب ﷺ: إنما أخشى عليكم اثنين: طول الأمل، واتِّباع الهوى.

فإن طول الأمل يُنسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق، ويجعل الإنسان حريصًا على الدنيا وحبها، والعمل من أجلها مع الركون إليها، وعدم الرغبة فيما عند الله تعالى.

---

(١) قرأ أبو عمرو وروح ورويس بخلف عنه بكسر الهاء والميم وصلًا من (يلههِمِ الأمل)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس في وجهه الثاني بضم الهاء والميم، وقرأ الباقون بكسر الهاء وضم الميم، وعند الوقف لجميع القراء يكسرون الهاء ويسكنون الميم، إلا رويسًا فإنه يضم الهاء ويسكن الميم بخلف عنه، والوجه الثاني كبقية القراء.

وقد ذمَّ الله سبحانه الذين أخلدوا إلى الدنيا، وانغمسوا فيها، واستمتعوا بكل طيباتها في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف].

فالدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر.

وفي هذه الآية تهديد لمن لم يؤمن برسالة محمد ﷺ؛ حيث يأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يترك الكفار يأكلون، ويتمتعون فسوف يعلمون حقيقة ما يؤول إليه الأمر من شدة تعذيبهم، وإهانتهم، كما جاء في الآيات سالفة الذكر.

أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: خطَّ النبي ﷺ خطًّا مُرَبَّعًا، وخطَّ خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخطَّ خُطَطًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط، وقال: «**هذا الإنسان، وهذا أجلُه محيط به، وهذا الذي هو خارج أملُه، وهذه الخُطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا**»[1].

إِشَارَةٌ مُجْمَلَةٌ إِلَى هَلَاكِ الْأُمَمِ الَّتِي كَذَّبَتْ رُسُلَ اللهِ

٤، ٥- ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾

تشير هذه الآية إلى ما فصَّلته السورة من إبادة قوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحِجْر، وتشير أيضًا إلى أن الله تعالى لا يهلك قومًا إلَّا بعد أن ينذرهم، ويحذرهم، ويقيم الحجة عليهم، ويأتي أجلهم المحدد لإبادتهم؛ فهلاك الأمم الظالمة موقوت بوقت محدد في علم الله تعالى، وسُنَّة الله فيهم ماضية لا تتخلف.

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤].

والأمة التي أهلكها الله تعالى لا تعود إلى الدنيا مرة ثانية أبدًا كما قال تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٤١٧) وقد رسم ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٢٣٧) هذا المربع، وفيه نقطة بداخله يخرج منها خط وفيه بضع خطوط، إشارة إلى الأمل والأعراض التي تعرض للإنسان.

وهكذا ذكَّرهم الله سبحانه بسنته في خلقه من إمهال الظالمين؛ لئلا يغتروا بما هم فيه من التمتع بالدنيا، فيظنوا أنهم على شيء، أو يظنوا أنهم في منجى من عذاب الله تعالى، أو أن لهم أجلًا محددًا بعذابهم كالأمم السابقة التي حق عليها الهلاك.

وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ؛ حتى يصبر على تكذيب قومه له، وفيه بيان أن سُنَّة الله تعالى ماضية في جميع الأمم، على القرى التي أهلكها وأبادها بعد أن أقام عليها الحجة، وأن ذلك كان في أجل محدد.

فطلبُ الآيات الخارقة من رسول الله ﷺ، واستعجالُ نزول العذاب لا يفيد شيئًا.

والله سبحانه يهلك الأمم التي كذَّبت رسل الله ممن علم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا، وليس في أصلابهم من يوحد الله ﷻ، وليس فيهم خير، ولا يرجى منهم إيمان؛ كقوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب.

ولا تتجاوز أمة من الأمم أجلها، بالموت أو بنزول العذاب، فتزيد عليه، أو تنقص منه، فإذا حان أجلها، وجاء وقت هلاكها، فلا تُعدم قبل حلول الأجل، ولا تزيد عليه.

وإمهال الظالمين لا يعني ترك عقابهم، إنما هو رحمة من الله لهم؛ لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ويسلكون الطريق القويم، فإذا لَجُّوا في طغيانهم حق عليهم عقاب الله، إن الإناء يستقبل الأخطاء، فإذا طفح بدأ العقاب.

العُنْصُرُ الأَوَّلُ: مِنْ عَنَاصِرِ الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ فِي السُّورَةِ

عُنْصُرُ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ

٦، ٧- ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝٧﴾

قال المكذبون على وجه الاستهزاء، والتهكم برسول الله ﷺ: يأيها الذي نزل عليه القرآن بزعمه ودعواه، إنك حقًّا لمجنون تتكلم بكلام المجانين، إن كنت تظن أنا سنتبعك ونترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك.

وكان النبي ﷺ عندما ينزل عليه الوحي تصيبه رعدة أو رعشة، من شدة الوحي، فظنوا

ذلك جنونًا، فوصفوه بالجنون؛ وقالوا هذا كلام لا يصدر عن عاقل؛ لأنه مخالف للواقع في زعمهم.

والذكر هو الاسم الثالث للقرآن، وفي الآية الأولى من السورة اسم الكتاب والقرآن، وسُمِّي ذكرًا؛ لأنه يُتلى، ويكرر، ويعاد، وفيه التذكير بالله واليوم الآخر، ولأنه شرف هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنبياء].

وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وقد أراد المشركون التهكم بالنبي ﷺ، فأنطقهم الله بالحق صَرْفًا لألسنتهم عن شتْمه ﷺ، فقالوا الحقيقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ وفي هذا تعظيم له ﷺ بلفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾، وقد أنزل الله عليه الذكر في الواقع، ولكنهم لم يقصدوا هذا المعنى في الحقيقة، إنما أرادوا الاستهزاء؛ بقرينة ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ كما كانت أم جميل حمّالة الحطب حين تريد هجاء النبي ﷺ فلا تقول محمدًا، وإنما تقول: (مذمَّما).

ولذا فإن النبي ﷺ قال لعائشة ﵂: **«ألم تَرَيْ كيف صرف الله عني أذى المشركين وسبَّهم؟! يسبون مذمَّمًا، وأنا محمد»**.

ثم استمروا في تكذيبهم للرسول ﷺ بعد وصْفهم له بذهاب العقل والهذَيان، فطلبوا منه إن كان صادقًا في دعواه النبوة فليأتِ بعدد من الملائكة يشهدون له أنه مرسل من عند الله، فقالوا: هلَّا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك؟

قال مقاتل: نزلت الآيتان في عبد الله بن أمية، والنضر بن الحارث، ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة، وقد جاء طلبهم هذا في مناسبات عدة ذكرها القرآن الكريم، منها:

قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٥] فطلبوا منه ﷺ عدة آيات خارقة، منها نزول الملائكة.

وفي آيات أُخر

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وقوله أيضًا: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف].

ويصح أن يكون معنى الآية: هلَّا أنزلْتَ علينا الملائكة؛ لتنزل علينا بالعقاب من الله الذي وعدنا به، فإذا لم تأت بهم فلست من الصادقين. قال تعالى:

٨- ﴿مَا نُنَزِّلُ[1] ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾

قال سبحانه مجيبًا لهم: إن الملائكة لا تنزل لمجرد اقتراح الناس، ولكنها تنزل بالوحي وبالرسالة،

وتنزل بالعذاب؛ لإهلاك الذين ظلموا أنفسهم ولم يمهَلوا لعدم إيمانهم.

وتنزل بالحكمة، والشرائع، والوحي بمقتضى مشيئة الله ﷻ.

ولو أن الله سبحانه استجاب لطلب المشركين، وأنزل عليهم الملائكة ولم يؤمنوا لأبادهم واستأصلهم، كما فعل بالأمم السابقة، ولم يُمهلوا، أو يُنظروا، فيكون نزول العذاب تعجيلاً لأنفسهم بالهلاك.

ولكن الله تعالى لم يُرد هذا المصير لهذه الأمة؛ لأن في أصلاب الرجال منهم: الكافرَ والمؤمنَ، ورسولها آخر الرسل، وكتابها آخر الكتب، وقد أراد الله لهذه الأمة البقاء، ولو أنزل الله ملائكة إلى البشر لَرُفعت الملائكة إلى السماء؛ لأن البشر لا يمكنهم التعامل مع الملائكة.

ولذا: فإن جبريل عليه السلام كان ينزل على النبي ﷺ في صورة رجل، ولما نزل جبريل عليه في صورته الحقيقية رجع إلى زوجته خديجة رضي الله عنها يرجف فؤاده كأن به حُمَّى، وهو يقول: «زملوني»، أو «دثروني»، ولم يره على صورته الحقيقية إلا مرة ثانية ليلة الإسراء والمعراج، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٩]. فالطبيعة مختلفة، والبشر لا يقوى على رؤية الملك.

---

(١) قرأ شعبة بضم التاء وفتح النون والزاي من (ما تنزل) مبنيًّا للمفعول، وقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بنونين، الأولى مضمومة، والثانية مفتوحة وكسر الزاي، مبنيًّا للفاعل، وقرأ الباقون بفتح التاء والنون والزاي مشددة، على أن الأصل تتنزل، فحذفتْ إحدى التاءين تخفيفًا، مبنيًّا للفاعل، مسندًا إلى الملائكة.

تَعَهُّدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِحِفْظِ كِتَابِهِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ

٩- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾

وفي ظلال استهزاء المشركين برسول الله ﷺ، واتهامه بالجنون، وتكذيبهم للوحي المنزل عليه يبيِّن الله سبحانه أن أمر هذا الدين سيتم، وأن هذا القرآن سينتشر، ويبقى على مرِّ الأزمان، ولن يتطرق إليه شيء من الزيادة أو النقصان، أو التحريف، أو التغيير، أو التبديل، كما جرى لغيره من الكتب؛ لأن الذي أنزله هو الذي تولى حفظه بنفسه، وقد حفظ الله كتابه من التحريف حال نزوله، فلم يصل إليه مسترقوا السمع من شياطين الجن، وقد حفظه بعد نزوله،فأودعه في صدور ملايين البشر،وكتبوه في ملايين المصاحف،وكما حفظ الله ألفاظه فسلم من التغيير حفظ معانيه من التحريف فقيض له من يبين الحق من الباطل.

وهو معجزة دالة على صدق محمد ﷺ، ولو كان من قول البشر لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾[النساء].

وقد تكفَّل الله تعالى بجمعه في صدر الرسول ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧﴾ [القيامة].

وليس في مقدور البشر معارضته ولا تحريفه ولا تصحيفه ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت].

وقد كان جبريل عليه السلام ينزل بالوحي على محمد ﷺ، فيحيط بهذا الوحي المنزل، حَفَظَةٌ له، من بين يديه ومن خلفه، يرصدونه؛ حتى لا تقربه الشياطين، فتزيد فيه أو تنقص.

قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝٢٧ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝٢٨﴾ [الجن].

لقد حفظ الله كتابه، وصانه من أي تحريف وتغيير في مختلف الأزمنة والأمكنة، حتى في لحظات الضعف، عندما عجز المسلمون عن حفظ أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم.

ومن أسباب هذا الحفظ، أن قيَّض الله له، عبر القرون الطويلة، من أبناء هذه الأمة، مَنْ حَفِظَه عن ظهر قلب، بما يزيد عن عدد التواتر في كل عصر ومصر.

قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة].

ومن أسباب حفظ القرآن، أن قيَّض الله له من يجمعه من القطع الصغيرة المتناثرة؛ كالعُسُب، واللِّخَاف، والجلد، وجريد النخل، والحجارة، فجُمع القرآن بين دفتي المصحف، في أحجام مختلفة، وصار بأيدي المسلمين في المشارق، والمغارب.

فصار القرآن محفوظًا في الصدور من ملايين البشر، ومكتوبًا في السطور في ملايين المصاحف.

وفي هذا دليل قاطع على أن هناك قوة خارقة فوق طاقة البشر تولَّت حفظ القرآن، ولا يماري في ذلك إلا جاحد جهول.

سئل القاضي إسماعيل البصري قاضي بغداد (٣٠٠ - ٣٨٢ هـ) عن السر في تطرق التغيير للكتب السابقة، وسلامة القرآن من ذلك، فأجاب: إن الله تعالى أوكَلَ للأحبار حفظ كتُبهم، فقال: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وتولى حفظ القرآن بذاته، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾[1].

وذكر يحيى بن أكثم أن رجلًا يهوديًّا أسلم في زمن المأمون، وحكى قصته إلى سفيان بن عيينة، فقال سفيان: قال الله في التوراة والإنجيل: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فجعل حفظه إليهم فضاع.

وقال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ فحفِظَه الله تعالى علينا فلم يضع[2].

فالتوراة والإنجيل وكَلَ الله حفظهما إلى الأحبار والرهبان، ولم يتولَّ بنفسه حفظهما، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]

أي: أن الله تعالى استحفظ الربانيين، والأحبار على التوراة، والإنجيل.

والسبب في ذلك أن التوراة لها وقت معين تنتهي فيه بانتهاء رسالة سيدنا موسى ﷺ،

---

(١) ، (٢) «تفسير التحرير والتنوير» (١٤/ ٢١).

والإنجيل ينتهي بانتهاء رسالة سيدنا عيسى عليه السلام، والقرآن يبقى إلى يوم القيامة، ورسوله آخر الرسل، والقرآن حجة على الخلق أجمعين إلى يوم القيامة، وهو معجز في ألفاظه ومعانيه، وقد تعبَّدنا الله سبحانه بهما معًا، وصانه جلَّ شأنه من التبديل، والتحريف، والنقص، والزيادة.

وحفظه أيضًا من المعارضة؛ فليس في إمكان أحد من البشر أن يعارض القرآن، فيأتي بمثل أقصر سورة منه.

وليس في إمكان أحد من البشر أن يُفسد أو يبطل، ما في القرآن من إعجاز وحقائق ماضية أو قادمة، فالله سبحانه أودعه هذا السر، وصانه من التحريف.

وحينما يحدُث خطأ إعرابي أو ترقيق مفخم أو قصر ممدود أو إظهار مدغم -ولو لم يغير المعنى- من قارئ يبدل حرفًا بحرف، أو حركة بحركة، ونحو ذلك، فإن حُفاظ كتاب الله بالملايين في أرجاء المعمورة يصححونه، ويصوِّبونه.

ولو أن مصحفًا وقع فيه تغيير حرف واحد، أو حركة واحدة: بزيادة، أو نقص، أو في علامات الضبط في المصحف، أو من أخطاء الطباعة، فإن آلاف الحفَّاظ يهرعون لتصويبه.

وأذكر أن من طلابي من سألني عن: السبب في زيادة مساحة حرف النون في ختام آية من آيات الصفحة الثانية من سورة البقرة، عنه في ختام آية أخرى في الصفحة نفسها، فهو مرسوم هكذا في بعض الآيات (ن)، وهكذا في بعضها (ـــن) وهو يظن أن هناك حكمًا تجويديًّا مغايرًا، ولم يدْرُ بخلَده أن الخطاط أراد أن يكمل السطر فزاد شيئًا مَّا في الحرف في هذا السطر عن غيره.

وسألني آخر عن: السبب في وضع علامة الوقف قبل آخر حرف في الكلمة الموقوف عليها، فلماذا لا تساوي الحرف الأخير تمامًا؟ وهكذا من الحرص الشديد على كتاب الله عز وجل.

واليهود في عهود كثيرة يعملون على تقويض الإسلام، وتحريف القرآن، والقضاء على الأمة الإسلامية، وقد استطاع اليهود أن يدسوا في كتب المسلمين، ويضعوا فيها الإسرائيليات، ونحوها، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا من ذلك في كتاب الله تعالى، لم يغيروا فيه حرفًا ولا حركة، وقد حاول اليهود ذلك كثيرًا، وما هي إلا لحظات حتى ينكشف الأمر ويفتضح، ويتم علاجه فورا بالتنبيه عليه، وإعدام هذه النسخ.

فالقرآن مكتوب في المصاحف بالملايين، ومحفوظ في صدور الملايين من البشر، ولا يوجد فيه أي تحريف، ولا زيادة، ولا نقص، ومن يعتقد أن في القرآن تحريفًا، أو زيادة، أو نقصًا، فإنه يكفر كفرًا مخرجًا من الملة.

وعلى مدى التاريخ لم يحدث شيء من هذا التحريف واستمر بعض الوقت، مع ما أصاب المسلمين من ضعف، وفتن، وهزائم، ومع ظهور كثرة من الفرق، والطوائف الضالة المنتسبة للإسلام على كثرة مشاربها، وهذا دليل على أن القرآن من عند الله، ولو كان من كلام البشر لتطرق إليه الزيادة، والنقصان، واشتمل على الاختلاف، وحاشاه من ذلك.

تَتِمَّةُ عُنْصُرِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ

١٠، ١١- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

والله ﷻ يبيِّن لرسوله ﷺ أنه قد أرسل من قبله رسلًا كثيرين أصابهم ما أصابه من التكذيب والاستهزاء، فليس بدعًا من الرسل في هذا، وعليه أن يصبر ويحتسب، وكذا الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان.

ومعنى ﴿شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: فرق وطوائف الأمم السابقة.

ومن عادة الكفار: الاستهزاء برسل الله، والدعاة إلى الله، عندما يدْعُونهم إلى التوحيد ومكارم الأخلاق.

والشيع: جمع شيعة، وهي الطائفة، أو الفرقة من الناس، ذات الطريقة الواحدة، أو المذهب الواحد.

وتشير الآية إلى أن عادة الجهال في كل زمان ومكان مع جميع الرسل والدعاة إلى الله تعالى أن يؤذوهم، ويضايقوهم، ويقفوا في وجه الدعوة يصدون الناس عنها، ويكذبون دعوتهم.

والمعنى: ولقد أرسلنا من قبلك -يا محمد- رسلًا كثيرين في طوائف الأمم السابقة، فدعا هؤلاء الرسل أقوامهم إلى ما دعوْتهم إليه من وجوب إخلاص العبادة لله تعالى، فما كان منهم إلا أن قابلتْ كل فرقة رسولها بالسخرية، والاستهزاء كما فعل بك قومك، وكما يفعل المكذِّبون بالدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان؛ وذلك لأن

المكذبين لرسل الله يتشابهون في الطباع الذميمة، والأخلاق القبيحة، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات].

وهكذا فإن الدعوة إلى الله تعالى تزيد قومًا هُدًى إلى هداهم، وتزيد قومًا ضلالًا إلى ضلالهم.

وهذا شأن المتكبرين والمترفين، وهم الملأ والأشراف من الأقوام في كل زمان ومكان؛ لأنهم يخافون على مناصبهم، وعلى منزلتهم بين الناس؛ والاستهزاء برسل الله، طبيعة متكررة فيهم.

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ؛ فإن ما فعله المشركون به قد فُعل بغيره، ويُفعَل بالدعاة إلى الله على مرِّ العصور.

الْقُرْآنُ يَنْفُذُ إِلَى الْقُلُوبِ

١٢، ١٣- ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ[1] سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

ثم إن المكذبين لرسل الله أمة واحدة، فقد تلَقَّوْا ما أُنزل على الرسل السابقين واللاحقين بالتكذيب وعدم الإيمان، ولم يستقر الإيمان في قلوبهم، لاستيلاء العناد والجحود عليهم، وتمكُّن الحسد منهم.

وكما أدخلنا الكفر في قلوب المجرمين السابقين، ندخله في قلوب المجرمين من أمتك يا محمد؛ لسوء تلقيهم للقرآن الكريم؛ فهم يسمعونه ولكنه لا ينفذ إلى قلوبهم، ولا يتأثرون به، وهذه عقوبة لهم على إجرامهم، وتلقيهم للوحي المنزل عليك بالسخرية وعدم التدبر.

فهذا القرآن ينزل على أقوام فيزيدهم هدًى، وينزل على آخرين فيزيدهم طغيانًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ

(١) أدغم التاء في السين من (خلت سنة) أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف، وأظهرها الباقون.

﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [التوبة].

وقد وصفهم الله تعالى بالإجرام؛ لأنه تعليل لعدم إيمانهم، بخلاف الكفر فإنه صار علمًا عليهم، وهو لا يُشعر بالتعليل، والمعنيُّ بذلك كل من لم يؤمن برسالة محمد ﷺ من السابقين واللاحقين، من جميع الملل والنحل.

ثم يخبر سبحانه بأن هؤلاء المجرمين لن يصدقوا بهذا القرآن، ولا بالرسالة الخاتمة، فهم لا يؤمنون به و لا في أي وقت، وهذا خبر عام في كل من يموت على الكفر من هذه الأمة.

ثم توعَّدهم الله تعالى، بأن يحل بهم ما حل بغيرهم من الأمم الماضية من العذاب، فقد مضت سُنَّة الله تعالى بإهلاك من كذَّب الرسل جميعًا، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم؛ فإن سُنَّة الله لا تتخلف ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ [آل عمران].

فالضمير في ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ يعود على الكفر، والضمير في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعود على القرآن، وهو حال مبيِّنة لمسلك المجرمين، من أن القرآن لا يدخل في قلوبهم، و لا يؤمنون به عنادًا وتكبرًا.

الْكَافِرُ لَا يُؤْمِنُ وَلَوْ رَأَى الْعَجَبَ الْعُجَابَ

١٤، ١٥ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ[(١)] أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ١٥﴾

ثم يكشف الله سبحانه عن العلة، والسبب في كُفْر مَنْ كَفَر، وأنه ليس نقصًا في توافر أدلة الإيمان، وإنما هو العناد، وهذا إبطال لمعاذيرهم، وبيان أن السبب في عدم إيمانهم هو الجحود، فلو فتح الله على الكفار بابًا من السماء فاستمروا صاعدين فيه، حتى رأوا الملائكة، وهم يطلبون آية دالة على صدق الرسول ﷺ لَمَا صدَّقوا، ولو رأوا العجب

(١) قرأ ابن كثير بتخفيف الكاف من (سُكِرت) أي: حُبست عن المجرى، وقرأ الباقون بتشديدها من السُّكْر بمعنى حُيِّرت أو المراد: الكثرة.

العجاب في ملكوت السموات والأرض ما آمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

والمعنى: ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء، ثم يسَّرنا لهم العروج إلى السماء بابًا بابًا، وسماءً بعد سماء، فشاهدوا الملائكة والملكوت بأعينهم، لو حدث هذا، وقام المشركون بهذه الرحلة فإن هذا لن يجدي معهم شيئًا، ولن يؤمنوا.

ويصح أن يكون **المعنى**: لو كُشِف عن أبصار الكفار، فرأوْا بابًا من السماء مفتوحًا، والملائكة تصعد فيه لما آمنوا؛ لعنادهم وكفرهم، ولقالوا: إنا سُحِرْنا، وهذا بناء على أن المشار إليه في قوله تعالى: ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ هم: الملائكة، والمعنى الأول على أن المشار إليه هم الكفار، ولعله الأرجح.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

ولو حدث أنْ رأى المشركون الملائكة بأعينهم لقالوا: إنما سُحرت أعيننا، وغشيها ما يشبه السُّكْر، وأبصارنا عميت، فتخيَّلْنا أننا رأينا الملائكة، بل إن محمدًا سحرنا، ولم نرَ شيئًا.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام].

وحاصل الآية: أن الكفار لما طلبوا من النبي ﷺ أن يُنَزِّل عليهم الملائكة؛ حتى يروهم عيانًا؛ ليشهدوا بصدقه ﷺ، يخبر سبحانه وتعالى أن هذا لو حدث ما آمنوا، وَفْق علم الله تعالى عنهم في الأزل، ولقالوا: هذا ليس بحقيقة، بل هو سحر.

وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، لا مطمع في إيمانهم ولا رجاء في تغيير حالهم.

فالمعنى: أن الله تعالى لو فتح بابًا من السماء على من كذَّب محمدًا ﷺ، فاتصلوا من خلال هذا الباب بالعالم الأعلى، ورأوْا الملائكة رأي العين لاعتذروا بأن ذلك تخيلات، وأنهم سُحِروا، ولم يروْا شيئًا، ومن بلغ هذا المبلغ في التَّعَنُّت والجحود، لا تنفع فيه موعظة، ولا يهتدي بآية، ولا يفيد فيه إجابته إلى ما طلب من آيات دالة على صدق النبي ﷺ.

الْعُنْصُرُ الثَّانِي مِنْ عَنَاصِرِ الْقُرْآنِ الْمَكِّيِّ فِي السُّورَةِ: عُنْصُرُ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ والْقُدْرَةِ

أَوَّلًا: آيَاتُ اللهِ تَعَالَى فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ

١٦- ﴿وَلَقَدْ[1] جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا[2] وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾

في هذه الآيات بيان لبعض ما جاءت به الرسل من عند الله تبارك وتعالى:

فبعد الحديث عن القرآن الكريم من أول السورة إلى هنا، يبدأ الحديث عن آثار قدرة الله تعالى؛ للاستدلال بها على وحدانيته سبحانه، وأعقب ذلك بالحديث عن البعث، والنشور من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

فتكون السورة بذلك قد استكملت **عناصر القرآن المكي الثلاثة**، وهي: جانب الوحي والرسالة، وجانب العقيدة والتوحيد، وجانب اليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء.

وفي هذه الآية يلفت الله ﷻ انتباهنا إلى دلائل القدرة الإلهية في العالم العلوي من الكواكب، والنجوم، أو منازل الشمس والقمر التي تسير فيها الأفلاك، وهي المنازل الاثنا عشر المشهورة التي هي برج: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت.

وهذه البروج مقسومة ثمانية وعشرين منزلًا، لكل برج منزلان وثلث المنزل، وهي منازل القمر.

أما منازل الشمس فإن البروج الاثني عشر مقسومة على ثلاث مئة وستين درجة، كل برج منها ثلاثون درجة، تقطَعُها الشمس في كل سنة مرة، تتم بها دورة الفلك.

والبرج: يطلق على طائفة من النجوم الثوابت غير السيارة، يتجمع بعضها بقرب بعض على أبعاد بينها، وهي اثنا عشر مكانًا بعدد شهور السنة الشمسية، وهي مرتبة ابتداءً ببرج الحمل أول فصل الربيع، وانتهاءً ببرج الحوت، وينتج عنها الفصول الأربعة.

---

(١) أدغم الدال في الجيم من (ولقد جعلنا) أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف.

(٢) أدغم التنوين من (بروجًا) في واو (وزيناها) بغير غنة خلف عن حمزة.

ويُستدَلُّ بها أيضا على الطرقات، والأوقات، والخصب، والجدب، ومعرفة عدد السنين والحساب، فهي أبراج وأعلام عِظام، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

وقد سمَّى الأقدمون الأبراج، بمعنى الدار أو المكان، وسماها العرب بروجًا ودارات، ويُستدَلّ بها على عظيم قدرة الله تعالى، وانفراده بالخلق.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾ [الفرقان].

وقد زيَّن الله سبحانه السماء الدنيا بالنجوم لمن ينظر إليها، ويتأملها فيعتبر، كما قال تعالى في تتمة الآية: ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ وزيَّنَّاها، أي: زينا السماء الأولى للناظرين.

ومجمل معنى الآية: ومن أدلة قدرة الله تعالى أنه خلق السموات وأبدعها، وجعل في السماء الدنيا منازل وطُرقًا للكواكب تنزل فيها، وتسير بقدرة الله تعالى وحكمته دون خلل ولا اضطراب، وقد جعل الله لهذه الكواكب **ثلاث فوائد**:

الأولى: أنه يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، كما قال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

الثانية: أنه تعالى جعلها زينة وجمالًا للسماء الأولى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات].

الثالثة: أنها جُعلت لرجم الشياطين التي تسترق السمع، كما قال تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ [الصافات].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] وزيناها، أي: زينا السماء الأولى للناظرين، ولولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر الجميل، وهو يدعو إلى التأمل في ملكوت الله والاستدلال به على عظمة الخالق سبحانه، قال تعالى:

١٧، ١٨- ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾

وحفظنا السماء من كل شيطان مرجوم مطرود من رحمة الله تعالى، فإذا استرق السمع، أتبعتْه الشهب الثواقب، وبقيت السماء محفوظة، أي: حفظناها من استقرار الشياطين

فيها، ومن أن ينفث الشيطان فيها شروره ومفاسده؛ لأنها موطن الملائكة الأطهار، وفيها اللوح المحفوظ، ومقادير العباد، فمنعوا من الوصول إليها، وقد كانت الشياطين قبل مبعث النبي ﷺ يرقى بعضهم فوق بعض، حتى يصعدوا إلى السموات، ويستمعوا إلى الخبر من الملأ الأعلى؛ حيث يُلْقيه الشيطان إلى الكهنة، بعد أن يضع على الخبر الواحد مئة خبر كذبًا، ويأتوا بخبر السماء إلى الأرض على هذا النحو، فلَمَّا بُعث النبي ﷺ مُنِعوا من ذلك.

يقول ﷻ على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا﴾ أي: بعد مجيء النبي ﷺ ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا﴾ أي: قبل بعثة محمد ﷺ ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾، ونأتي بالأخبار منها إلى أهل الأرض ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩، ١٠] أي: يجد شهابًا يرصده، ويقتله قبل أن ينقل الخبر إلى الكهنة، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ١٠]

فالمعنى: أنا حفظنا السماء من الشياطين، إلا من اختلس منهم شيئًا من كلام الملأ الأعلى في بعض الأوقات، فاستمَع إلى شيء من خبر السماء، فأدركه ولحقه كوكب مضيء يحرقه، قبل أن يصل بالخبر إلى الأرض، ويَحُول بينه وبين استراق السمع.

وقد يُلْقي الشيطان إلى من يستخدمه ويواليه من الكهنة، بعض ما اسْترقه قبل أن يحرقه الشهاب.

والمقصود: منع الشياطين من الاطلاع على ما أراد الله عدم إطلاعهم عليه من أمور القضاء والقدر، ومن وحي الله تعالى إلى رسله مما لو ألقتْه الشياطين إلى الكهنة لكان في ذلك فساد في الأرض.

وقبل بعثة النبي ﷺ كانت الشياطين تسترق شيئًا قليلًا من أخبار السماء، فيضيفون إليه الكثير من الكذب، ويلقونه إلى الكهان، ولما بُعث محمد ﷺ منعهم الله من ذلك منعًا باتًّا؛ عصمةً للوحي منهم، وإحكامًا لحفْظه من أن يتلبس به شيء من الكهانة[1].

فقد حال الله بينهم وبين سماع الوحي مطلقًا، فلم يستمعوا إلى شيء منه وقت نزوله، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشعراء].

وهو معنى أن الملائكة ترصد الوحي، وتحوطه من كل جانب؛ حتى يصل إلى النبي

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٤/ ٣١).

ﷺ، كما جاء في قوله تعالى ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن]

أي: أن الله تعالى يرسل من أمام الرسول، ومن خلفه ملائكة يحفظونه من الجن؛ لئلا يسترقُوه، ويهْمسُوا به إلى الكهنة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ﴾ أي: بعد بعثة النبي ﷺ ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩].

ومن يزعم أن الجن قد استمعوا إلى شيء من الوحي فعليه أن يأتي بحجة بيِّنة تُصدِّق دعواه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الطور].

أما بالنسبة إلى أخبار السماء مما ليس بوحي فإن الشياطين إذا استمعت إلى شيء منها فإنها تلقيها إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب، فتقتلهم، أو تخبلهم[1]، وهذا معنى ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات].

فالخلاصة: أن الشياطين لا تستمع إلى الوحي مطلقًا وهو ينزل، وكذا الأمور الغيبية التي لا وجود لها في جنبات الأرض، ولا في بطن المرأة، ونحو ذلك، وما عدا ذلك من الأخبار، فقد يحدث شيئًا من الاستراق، يتبعه شهاب يرجم مسترق السمع.

وهذه جملة من الأحاديث في هذا المعنى:

١- عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها، خُضْعانًا لقوله كأنه سلسلة على صَفْوان، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟! قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا، بعضُه فوق بعض**».

- ووصَف سفيان بكفّه فحَرَّفَها، وبدَّد بين أصابعه - «**فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَنْ تَحته، ثم يلقيها الآخر إلى مَنْ تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشِّهاب قبل أن يُلْقيها، وربما ألقاها قبل أن يُدْرِكَه، فيكذب معها مئة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا: كذاو كذا، فيُصدَّقُ بتلك الكلمة التي سمع من السماء**»[2].

---

(١) يُنظَر: «تفسير القرطبي» (١٠/ ١١).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٠٠) وهذا لفظه وانظر: برقم (٤٧٠١) وبرقم (٧٤٨٩).

٢- وعن عائشة ﵂ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب- فتذكُر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مئة كذْبة من عند أنفسهم**»[١].

٣- وصح عن ابن عباس ﵁ أن النبي ﷺ كان جالسًا بين أصحابه، فرأوا شهابًا قد سقط فاستنار، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رُمي بمثل هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، حينما يحدُث مثل ذلك كنا نقول: وُلد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: «**فإنها لا يُرمى بها لموت أحد، ولا لحياته، ولكن ربُّنا تبارك وتعالى اسمه إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال، قال: فيستخبر بعض أهل السموات بعضًا، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع، فيقذفون إلى أوليائهم، ويَرْمُون به، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يَقْرفون فيه ويزيدون**»[٢].

٤- وعن عائشة ﵂ أن ناسًا سألوا رسول الله ﷺ عن الكهان فقال: «**ليسوا بشيء**»، قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدِّثون أحيانًا بالشيء يكون حقًّا، قال رسول الله ﷺ: «**تلك الكلمة من الجن يخطفُها الجِنِّي، فيقرها في أذن وليه قَرَّ الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مئة كذبة**»[٣].

ومعنى ليس بشيء: أي أنه لا وجود لما يزعمه الكهنة، ولا يعرفون شيئًا.

ومعنى قَرِّ الدجاجة، يقال: **قرَّت الدجاجة**، أي: أخفت صوتها.

والمقصود: أن الجِنِّي يُسِرُّ بالكلمة، ويخفض صوته بها حين يلقيها إلى وليِّه الذي يستعمله من الكهنة.

ورمْي الشياطين بالشهب، كان موجودًا قبل مبعث النبي ﷺ، كما يشير إليه حديث ابن عباس

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٢١٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٢٨).

(٢) يُنظر «صحيح مسلم» (٤/ ١٧٥٠) برقم (٢٢٢٩) وفي «المسند» برقم (١٨٨٢)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه عبد بن حميد (٦٨٣) والترمذي (٣٢٢٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٢٨).

السابق في صحيح مسلم، فلما بُعث ﷺ شُدِّد في ذلك، وزيد في حفظ السماء وحراستها صونًا لأخبار الغيب، كما يؤخذ هذا من الأحاديث الأخرى في الصحيحين، وغيرهما.

وجاء عن ابن عباس ﷺ أن الشياطين كانوا لا يُحْجَبُون عن السموات، وكانوا يدخلونها، ويأتون بأخبارها إلى الكهان، فيلقونها إليهم، فلما ولد عيسى ﷺ مُنعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد ﷺ منعوا من السموات السبع، فما منهم من أحد يريد أن يسترق السمع إلا رُمي بشهاب، فلما مُنعوا من تلك المقاعد ذَكَرُوا ذلك لإبليس، فقال: لقد حدث، في الأرض حدث فبعثهم ينظرون، فوجدوا رسول الله ﷺ يتلو القرآن، فقال: هذا واللهِ حدث[1].

ثَانِيًا: دَلَائِلُ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي الأَرْضِ

١٩- ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾

أي: أن الأرض قد دُحِيتْ من تحت الكعبة، وأن الله تعالى قد أمدَّها ووسَّعها، وبسَطها حتى يتمكن الناس والدواب من سكناها والتنقل في أرجائها والانتفاع بأرزاقها وخيراتها كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات]

وقد مهَّدها الله للإنسان للسعي فيها، والبحث عن الرزق، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك]

وهي ممدودة، ومبسوطة على وجه الماء، فمادت الأرض وتحركت، فثبَّتها الله تعالى بالجبال، وجعلها رواسي؛ لئلَّا تميد بالخلق، وهي كالكرة العظيمة، كل جزء منها ممتد كالسطح المستوي، ومنها اليابس، ومنها البحار والمحيطات.

وهذه الجبال أوتاد مثبتة للأرض، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ].

وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠] أي: لئلَّا تميد، فتتحرك بكم وتضطرب، فهي تحفظها وتمسكها بإذن الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١].

---

(١) «تفسير الخازن» (٣/ ٩١).

وقد أنبت الله في الأرض مختلف أنواع النبات، والزروع، والثمار، بقدَرٍ معلوم، هو ما يحتاجه الناس في معاشهم، وقد خلقه الله بدقة، وإحكام، وتقدير؛ لنفع الإنسان والحيوان.

وقد اشتملت هذه الآية على **ثلاثة أشياء** هي:

١- بسط الأرض، وتثبيتها بالجبال.

٢- وخلق الرزق فيها من النبات، وغيره.

٣- وبعض ما ينبت من الأرض يكون موزونًا، وبعضه يكون مكيلًا.

والوزن قد يكون حقيقة، أو بالتقدير، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].

وقد خلق الله في الأرض كل ما يحتاج إليه العباد والبلاد من نخيل وأعناب وزروع وثمار ونبات وأشجار وما إلى ذلك، قال تعالى:

٢٠- ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾

وجعلنا لكم في الأرض ما تعيشون به من معادن، وحجارة، وحرث، وماشية، ومن أنواع المكاسب والحرف والتجارات والصناعات والزراعات، وغيرها، وخلقنا من المطعومات، والمشروبات، والملبوسات لكم ولغيركم من أبنائكم، وخدمكم، والعجزة، والمرضى، والوحوش، والطير، والدواب، مما تنتفعون به.

وليس رزقهم عليكم؛ لأن رزق جميع الخلق بيد رب العالمين تفضُّلًا منه وتكرُّمًا، فهو الذي خلق الطعام والشراب، وأوجده من العدم.

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦].

وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وفي الآية امتنان من الله تعالى على خلقه، بأنه قد خلق لهم وسائل، وأسباب العيش، وخلق لهم أيضًا من ليسوا برازقين له من العيال، والخدم، والدواب؛ فإنهم ينتفعون بهم، ورزقهم على الله وليس عليهم. قال تعالى:

٢١- ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

وما من شيء في هذا الكون ينتفع به الإنسان والحيوان وغيرهما، إلا وهو خاضع لإرادة الله تعالى وقدرته، يصرِّفه كيف يشاء، وينزله بقدر معلوم، فهو سبحانه بيده الخزائن لأرزاق العباد، والبلاد، يوجدها، ويخلقها، ويُعِدُّها لنفع خلقه، ويُنَزِّلُها بقدر حاجتهم، وما يتفق مع إصلاح شؤونهم، والله تعالى يُصرِّف المطر حيث يشاء في البلاد، وما نزلت قطرة من السماء، ولا خرجت من ريح إلا بمكيال أو ميزان.

قال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى].

وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق].

والله جلَّ شأنه يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء حسب اقتضاء حكمته البالغة.

والمراد **بالخزائن**: نعم الله تعالى على الإنسان، وكل شيء ينفعه من: الأرزاق، والأمطار، والانتصار، والصحة، ورحمة الله بالعباد، وما شابه ذلك من كل ما يتطلع إليه الناس، ولا يقدر عليه إلا الله؛ فإن مفاتحه، وخزائنه عند رب العالمين، وهو سبحانه قد خلقه لنفع الإنسان، والحيوان، وغيرهما، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

ولكنه جلَّ شأنه يُوجِد هذه الأشياء دون تكلُّف ولا إبطاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

ويمكِّن سبحانه الناس من الانتفاع بها بمقدار معين، وفي وقت محدد تقتضيه حكمة الله تبارك وتعالى بما يتناسب مع حاجات العباد وأحوالهم.

وكثيرًا ما يعبِّر القرآن الكريم عن تمكين الناس من الانتفاع بالأرزاق ونحوها، بالإنزال، كما في هذه الآية ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الرعد: ١٧].

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

ثَالِثًا: دَلَائِلُ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي الرِّيَاحِ وَالأَمْطَارِ

٢٢- ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ[1] لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

وبعد الاستدلال على عظيم قدرة الله تعالى في السماء والأرض وظواهرهما، ثَلَّثَ بالاستدلال على وحدانيته تعالى بالرياح، والأمطار، وما ينتج عنهما؛ حيث إن الرياح منها ما فيه عذاب، أو تراب، أو نار، أو حَر، ومنها ما فيه رحمة ومطر، أو نصر، أو غير ذلك، فهي تحمل ما يكون سببًا في المطر، كما تحمل النوق الأجنة في بطونها، والرياح تنتقل من مكان إلى مكان مسخَّرة مذلَّلة بقدرة الله تعالى بما تحمله من هواء، أو ماء، أو تراب، يرسل الله الرياح؛ لتلقِّح السحاب بالماء كما يلقح الذكر الأنثى، فينشأ عنه البخار الذي يصير ماء في الجو، ثم ينزل مطرًا على الأرض، كما قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ومعنى ﴿أَقَلَّتْ﴾: حملت الريح السحاب ملقِّحة له، ويشهد لهذا المعنى تتمة الآية ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: سخرنا الرياح تُلَقِّح السحاب، وتحمل المطر، والتراب، والخير، والنفع، فأنزلنا من السحاب ماء أعددناه للشراب لكم، ولأرضكم، ومواشيكم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨].

أخرج البخاري في الأدب المفرد عن يزيد عن سلمة قال: كان النبي ﷺ إذا اشتدت الريح يقول: **«اللهم لاقحًا، لا عقيمًا»**[2].

---

(١) قرأ حمزة وخلف العاشر (الريح) بالإفراد، والباقون (الرياح) بالجمع.

(٢) «الأدب المفرد» برقم (٧٦٨) وأبو يعلى كما في «المطالب العالية» ق(١٢٢)أ وابن حبان في صحيحه برقم (١٠٠٨) «الإحسان» والطبراني في «الكبير» برقم (٦٢٩٦) و«المستدرك» (٤/ ٢٨٥) بتصحيح الحاكم وموافقة الذهبي، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» برقم (٣٠٠) وحسنه الألباني برقم (٢٠٥٨) في «السلسلة الصحيحة»، وصححه في «صحيح الأدب المفرد» (٧١٨/٥٥٣) وقال محقق «المطالب العالية» (٣/ ٢٣٩) عن البوصيري: رجاله ثقات، وقال محقق ابن حبان: إسناده قوي على شرط البخاري.

وما أنتم بحافظين له في خزائنكم، فنحن الخازنون الحافظون له، وننزله متى شئنا، كما قال تعالى في الآية السابقة: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧].

ويصح أن يكون المعنى ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ بعد أن أنزلناه عليكم، أي: أنكم لا تقدرون على حفظه في الآبار، والعيون، والغُدْران، بل نحن الحافظون له فيها؛ ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة.

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ [الزمر: ٢١]، وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف].

وكما أن الرياح تلقح السحاب فيمتلئ بالماء، فإنها تلقح الشجر المثمر فتحمل اللقاح من الذكر إلى الأنثى، فتتفتح أكمامه ويُثمر، ويُخرج نباته وحبوبه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

فالله وحده هو القادر على حفظه في الآبار، والأنهار، والعيون، وغيرها، وهو القادر على حرمانكم منه ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك]، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة].

وعن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ كان إذا عصفت الريح قال: **«اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أُرسلتْ به»**[1].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٩٩).

وكان ﷺ إذا هبت الريح جَثَا على ركبتيه وقال: **«اللهم اجعلها رحمة، ولا تجعلها عذابًا، اللهم اجعلها رياحًا، ولا تجعلها ريحًا»**[1].

فالريح تكون منذِرة، كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات].

وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ [القمر].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة].

وقال جلَّ شأنه: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

أما الرياح فإنها تأتي مبشرات، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان: ٤٨]، وقرئت، (نُشرًا) بالنون.

الْعُنْصُرُ الثَّالِثُ مِنْ عَنَاصِرِ الْقُرآنِ الْمَكِّيِّ فِي السُّورَةِ

عُنْصُرُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

٢٣- ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾

وقد جاء هذا العنصر في ثلاث آيات متوالية هنا، وفي الآية الخامسة والثمانين، وما بعدها من آخر السورة، وبعد أن بيَّن سبحانه قدرته في إحياء الأرض بالمطر، أعقب ذلك بذكر قدرته سبحانه في إحياء الخلائق جميعًا وإماتتهم، وبيَّن جلَّ شأنه أنه الباقي بعد فناء جميع الموجودات ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم] ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [ق].

فهو سبحانه يحيي الميت بخلقه من العدم إلى الوجود، ويميت الحيَّ بعد انقضاء أجله، فيسلب الحياة عنه، ثم يبعثه يوم القيامة، وهو سبحانه الوارث لهذا الكون، وما فيه بعد فناء خلقه؛ فكل شيء هالك إلا وجهه. قال تعالى:

---

(١) ابن مردويه عن أبي هريرة وعن ابن عباس عند البيهقي في «المعرفة» (٢٠٢٩) والشافعي في «شفاء العي» (٨٧٢). وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم (٤٤٦١).

٢٤- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ومن لوازم قدرة الله تعالى في إحياء الخلائق وإماتتهم، عِلْمُه تعالى بمن تقدم، أو تأخر من الأحياء والأموات، وعِلْمُه بمن هلك من الأمم البائدة، ومن بقي منهم، وعِلْمُه بالقرون السابقة واللاحقة، وعِلْمُه بما تنقص الأرض منهم، وما تفرق من أجزائهم.

والمستقدمون: هم الذين سبقوا الأحياء إلى الموت أو الهلاك.

والمستأخرون: هم الذين تأخروا، وبقوا بعد انقراض غيرهم إلى أجلٍ يأتي.

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير صفوف الرجال مُقدَّمُها، وشرها مؤخَّرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها مقدَّمُهَا**»[1].

وعن البراء بن عازب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول**»[2]، وفي لفظ: «**على الصفوف الأولى**».

وفي حديث عامر بن مسعود القرشي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو يعلم الناس ما في الصف الأول، ما صفّوا فيه إلا بقُرعة**»[3].

المعنى: أي قد علمنا من مات منكم أو هلَك، من الأفراد والأمم، من ذرية آدم، ويعلم مَنْ هو حيٌّ، ومَنْ سيأتي إلى يوم القيامة.

ويرشح هذا المعنى الآية التي قبلها؛ فهي تتحدث عن الحياة والموت، وكذا الآية التي بعدها؛ وهي تتحدث عن الحشر بعد الموت.

ومن لوازم هذا المعنى إحاطة علم الله تعالى بكل شيء في هذا الكون: السابق منه،

---

(١) صحيح «سنن ابن ماجه» (٨٢٠) وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٩) و«المسند» (١٤١٢٣، ١٤٥٥١)، صحيح لغيره وهو حديث صحيح عن أبي هريرة كما في المسند (٧٣٦٢) وصحيح أبي داود (٤٨١) وصحيح ابن ماجه (٨١٩) وصحيح الترغيب (٤٨٨).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٦١٨) والحاكم (١/ ٥٧٢) وابن خزيمة (١٥٥١) وابن ماجه (٩٩٧) وصحيح ابن ماجه (٨١٦، وانظر (٨١٨) وابن أبي شيبة (١/ ٣٧٨) والدارمي (١/ ٢٨٩) و«المسند» (١٨٥١٨). والمشكاة (١١٠١).

(٣) ابن أبي شيبة (١/ ٣٧٨)، وعن أبي هريرة في صحيح ابن ماجه (٨١٧) وصحيح الترغيب (٤٨٧).

واللاحق؛ فهو سبحانه يعلم الصفوف الأولى ممن تقدم إلى الصلاة، ويعلم من تأخر عنها من أهل الصفوف الأخرى، ويعلم أيضًا من تقدم في ساحة القتال، ومن تأخر، ويعلم من يتقدم في فعل الخيرات والمبرَّات ومن يتأخر، ويعلم من تقدم على غيره في الولادة والموت، ومن تأخر، فعلمه تعالى محيط شامل بكل شيء. قال تعالى:

٢٥- ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

والله تعالى لم يخلق الخلق عبثًا، ولم يجعل الموت والحياة عبثًا، فلا يستوي الكافر والمؤمن، ولا الطائع والعاصي، بل لا بد من الحشر والنشر، والحساب والجزاء.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للحساب والجزاء، يحشر الطائعين والعاصين، ويحشر الأولين والآخرين، كل منهم يُحشر على ما مات عليه.

في صحيح مسلم عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**»[1]

﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في تدبيره يضع الأشياء في موضعها ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال خلقه لا يخفى عليه منها شيء.

المَادَةُ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا آدَمُ عليه السلام

٢٦- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾

وتمضي الآيات في الاستدلال على توحيد الله تعالى، وعظيم قدرته، فتتناول خلْق الإنسان، وخلْق الجن، وقصة البشرية الكبرى: قصة خلق آدم، وعوامل الهدى والضلال في الإنسان، واستخلافه في الأرض، وتمكينه منها، وقد سبق ذكر هذه القصة في سورتي: البقرة، والأعراف، مع الاختلاف بينها في أسلوب العرض، والأداء والهدف:

ففي سورة البقرة تركز القصة على استخلاف آدم في الأرض، والتمكين له فيها.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٧٨).

وفي سورة الأعراف تركِّز على عداوة الشيطان لآدم.

وفي هذه السورة تركِّز على تكوين آدم من التراب والروح، وعلى سر وجود الهدى والضلال فيه؛ فالطاعة تنتج عن نفخة الروح في الإنسان، والمعصية تنتج من تكوين جَسده من تربة الأرض المختلفة، فالنفخة فيه من روح الله تجعله أهلًا للاتصال بالله تعالى، وللتلقي عنه سبحانه.

والطين، والحمأ المسنون، يخلِّد بالإنسان إلى الأرض، ويجعله يتردى إلى أسفل سافلين.

والروح والجسد، أو العقل والشهوة يتنازعان الإنسان إلى الخير أو الشر، فإما أن يلتحق بأُفق الملائكة، وإما أن يلتحق بأفق البهائم.

وتمضي الآية الأولى من هذه القصة، في بيان المادة التي خُلِق منها جسد الإنسان، أي: خلقنا الإنسان من طين يابس، إذا نُقر عليه سُمع له صوت، وهذا الطين اليابس هو طين أسود قد تغيَّر لونه وريحه من طول مكثه، فصار كالفخار، أو الخزف دون أن تمسه النار، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾ [الرحمن]

وقد ميَّز الله آدم وكرَّمه على سائر خلقه بأن خلقه بيده سبحانه، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥].

قال المفسرون: إن الله تعالى لما أراد خلق آدم قبض قبضة من تراب الأرض، وكانت هذه القبضة من شتى البقاع، من الأرض الخصبة، والأرض الجدْبة، والأرض المثمرة، والأرض التي لا تثمر، فجاءت طباع الناس وفق اختلاف التربة، ونوازع الشرِّ في الإنسان، ترجع إلى نوع التربة التي خُلق منها، ونوازع الخير فيه، ترجع إلى هذه الروح العُلْوية التي نُفخت في آدم، فصار بشرًا سويًّا.

وقد بيَّن الله سبحانه المادة التي خُلق منها البشر؛ ليُعلَم أن شرف الموجودات بمزاياها، وليس بمادة تركيبها، والقرآن الكريم يبيِّن أن آدم عليه السلام قد مرَّ بأربع مراحل في خلقه:

١- فقد خلقه الله سبحانه من تراب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الروم].

وفي الأثر: «**إن الله خلق آدم من جميع أنواع التراب: الطيب والخبيث، والأسود والأحمر، والسهل والحزْن، فجاء بنو آدم على قدر ذلك**».

٢- ثم بُلَّ هذا التراب بالماء، فصار طينًا لَزِجًا متماسكًا ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة].

٣- ثم ترك هذا الطين حتى تغيرت رائحته واسودَّ، فصار حمأً مسنونًا.

فالحمأ: هو الطين إذا اسودَّ، وتغيَّرت رائحته.

والمسنون: هو الذي طالت مدة مكثه.

٤- ثم تُرِك هذا الحمأ المسنون، حتى جفَّ ويبس، وصار صلصالًا أجوف كالفخار، إذا نقرْته بيدك تسمع له صوتًا، كما جاء في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾.

فهذه **أربع مراحل** لخلق آدم: تراب، ثم طين، ثم حمأ، ثم صلصال، ثم نفخ الله فيه من روحه، أي: أوجد فيه الروح التي جعلته بشرًا سويًّا في أحسن تقويم، فجعلتْ هذا التراب، أو هذا الطين يتكلم ويتحرك، وصار لحمًا وعظمًا، ثم إنسانًا كرَّمه الله وفضَّله.

قال ابن عباس ﷺ: خُلق آدم من أديم الأرض، فأُلقِيَ على الأرض حتى صار طينًا لازبًا، وهو الطين الملتزق، ثم تُرِك حتى صار حمأً مسنونًا، وهو الْمُنْتِن، ثم خلقه الله بيده، فكان أربعين يومًا مصوَّرًا حتى يبس، فصار صلصالًا كالفخار إذا ضُرب عليه صَلْصَل، فذلك الصلصال، والفخار مثل ذلك[1].

أما خلْقُ ذرية آدم: فكانت من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظْم، ثم لحم، ثم أرسل الله إليه الملك فنفخ فيه من روحه، ثم صار بشرًا سويًّا ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ هي المراحل التي سبق ذكرها ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون]

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٧/ ٣٨٣).

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة].

المَادَّةُ الَّتِي خُلِقَ مِنهَا الجِنُّ وَالمَادَّةُ الَّتِي خُلِقَتْ مِنهَا المَلَائِكَةُ

٢٧- ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ۝﴾

وخلق الله سبحانه قبل آدم، الجان؛ لأنه مخلوق من عنصر الحرارة، والحرارة أسبق في الخلق من الرطوبة، والجان أبو الجن، كآدم أبو البشر، والجن منهم: المؤمن والكافر، ومنهم الصالح والطالح، يأكلون ويشربون، ويتناكحون ويتناسلون، ويَحْيَوْن ويموتون، وسُمُّوا جنًّا؛ لاستتارهم عن الأعين.

والكفَرة من الجن هم المردة العتاة، أي: الشيطان المارد، وأبوهم إبليس، وهم من نوع الجن على الصحيح، والشياطين لا يموتون إلا إذا مات إبليس.

والوقت أو المدة التي يموت فيها إبليس، هي خلال أربعين عامًا بين النفختين، فقد طلب إبليس من ربه الإمهال إلى يوم البعث، فأمده الله إلى أن تفنى الخلائق، ثم يموت معهم، ويكون هذا عند النفخة الأولى، ثم يحيا مع جميع الخلق عند النفخة الثانية، وبين النفختين أربعون عامًا.

وهكذا خلق الله الجان من مارج من نار، هو نار السموم، أي: النار الحارة الملتهبة التي لا دخان لها، وهي نار قوية تَنفُذ في المسام.

أخرج الطبري بسنده عن قتادة أن إبليس خُلِق قبل آدم، آخر الخلق، فحسده عدو الله إبليس على ما أعطاه الله من كرامة، فقال: أنا ناريٌّ، وهذا طينيٌّ، فكانت السجدة لآدم، والطاعة لله تعالى.

أما الملائكة فقد بيَّن النبي ﷺ أنهم خُلقوا من مادة أخرى، خلقوا من النور، جاء في الحديث عن عائشة ؓ أن النبي ﷺ قال: «**خُلِقت الملائكة من نور، وخُلِقت الجان من مارج من نار، وخُلِق آدم مما وُصف لكم**»[1] وهم لا يتناسلون، ولا يأكلون كالجن.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٦) عن عائشة ؓ.

قِصَّةُ امْتِنَاعِ إِبْلِيسَ مِنَ السُّجُودِ لِآدَمَ عليه السلام

٢٨- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾

ولما خلق الله - سبحانه - آدم وجَّه الأمر إلى من في السموات، وهم الملائكة، وكان معهم إبليس، فأمرهم بالسجود تكريمًا لآدم ، فسجد الملائكة كلهم، وامتنع إبليس، وكان قبل ذلك معروفًا بكثرة العبادة، حتى كان يقال عنه: طاووس الملائكة.

والقرآن قد صرح بأن إبليس لم يكن من الملائكة كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] فهو مخلوق من مادة أخرى تختلف عن المادة التي خلقت منها الملائكة، وهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ولما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، سجدوا جميعًا إلا إبليس فقد أبى، وامتنع عن أمر ربه، وخرج عن طاعة الله سبحانه، ولو كان ملَكًا من الملائكة، ما كان في وُسعه أن يعصي الله ﷻ.

فاذكر -يا محمد- وقت أن وجه ربك الخطاب إلى الملائكة، وكان معهم إبليس، فقال لهم: إني خالقٌ إنسانًا من طين يابس، طين أسود متغير اللون، وقد ذكر الله لهم المادة التي سيخلَق منها هذا الإنسان؛ ليعلموا أن شرف المخلوق ليس في المادة التي خُلِق منها، وإنما بما حباه الله من مزايا وتكريم، وأدلُّ شيء على ذلك أن هذا المخلوق تفرَّد بخلق الله له بيديه دون سائر المخلوقات. قال تعالى:

٢٩- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾

فإذا سويته، وأكملت صورته، وأتممت خلقه، وجعلت فيه الروح فاسجدوا له، ولفظ: ﴿فَقَعُوا۟﴾ وصف لحالة السجود، وهو الوقوع على الأرض دون تعظيم، فهو سجود تحية، لا سجود عبادة، وقد حرَّم الإسلام السجود لغير الله تعالى؛ لمنع ذريعة الشرك بالله تعالى، والملائكة معصومون من أن يتطرق إليهم الشرك، وهم عالَم علوي؛ فلا تقاس أحكامهم على تكاليف عالَم الأرض، ولم يكن السجود قبل الإسلام محظورًا، فقد سجد يعقوب وأبناؤه ليوسف وهم أهل إيمان، والسجود لآدم بأمر الله سبحانه هو سجود لله في الحقيقة. قال تعالى:

٣٠، ٣١- ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

أي فسجد الملائكة كلهم كما أمرهم ربهم، ولم يتخلف منهم أحد.

وأجمعون يعني: أنهم سجدوا دفعة واحدة في وقت واحد، ولم يتأخر منهم أحد.

ومجيء لفظ: ﴿كُلُّهُمْ﴾ للدلالة على سجودهم جميعًا مرة واحدة.

ولفظ: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ للدلالة على أنه لم يتخلف منهم أحد، إلا إبليس فقد استكبر، وامتنع عن السجود لآدم مع الملائكة الساجدين؛ حسدًا، وكفرًا، وعنادًا، وافتخارًا بالباطل؛ بسبب الغرور، والتعاظم، ودعوى أنه أفضل من آدم.

وفي قوله سبحانه: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]

وقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص].

وقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦]

وهنا ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾. ثم يأتي استجواب الله تعالى إلى إبليس:

٣٢- ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قال الله سبحانه له موبِّخًا، ومؤنِّبًا: يا إبليس ما لك؟! ما الذي منعك من السجود مع الملائكة؟ وهو سبحانه أعلم، وجاء التوبيخ بهذه الصورة في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]

ولم يأتِ النداء باسمه إلا في هذه السورة، وهنا يرد إبليس على الاستجواب السابق:

٣٣- ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾

أجاب إبليس مُظهِرًا كِبْرَه، وحسدَه لآدم، بأنه لا يليق بي أن أسجد لمن هو أدنى مني منزلة، وقد خلقتَه من طين أسود يابس متغيِّر اللون والرائحة، والمخلوق من الطين حقير ذميم، لا يستحق أن يسجد له من هو أفضل منه.

قالوا: إن إبليس هو أول من قاس، وقياسه فاسد؛ فقد عقَد موازنة، أو مقارنة بين المادة التي خُلق منها وهي النار، والمادة التي خُلق منها آدم وهي الطين، وزعم بجهله أن

النار أفضل من الطين، وليس هذا بصحيح؛ فالطين متواضع، يمشي فيه الماء الذي تحيا به النفوس، ويحيا به النبات والدواب، وينبت من الطين الزرع والشجر والثمر، وعليه يحيا الخلْق والبهائم، وفيه منافع لا حصر لها ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، والنار لها شرَر، ودُخَان يتصاعد، ويتعالى في شكل الكبرياء، وللدخان مضاره، وللشرر والنار مضارهما، فليست النار خيرًا من الطين، كما زعم إبليس، وفي قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

وامتناع إبليس من السجود ليس كفرًا في حد ذاته، وإنما هو معصية، أما تعليله بأنه أفضل، وآدم مفضول، وكون الله تعالى قد كلفه أن يسجد لمن هو دونه، فإن في هذا نسبة الجور والخطأ إلى الله تعالى، ولهذا كان كافرًا، فاستحق اللعن والطرد من رحمة الله تعالى، وإخراجه من الجنة، ومقصود إبليس بهذا الرد: إثبات أنه خير من آدم، وفيه عصيان لأمر الله تعالى، وعدم الرضا بحكمه، ولهذا كانت العقوبة هي طرده من الجنة وإبعاده من رحمة الله تعالى:

٣٤، ٣٥- ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾

أمر الله سبحانه إبليس أن يهبط، ويخرج من الجنة مطرودًا من كل خير، موصوفًا بالصَّغَار، والذل، والهوان؛ فهو مرجوم، ومطرود، ومبعد من رحمة الله سبحانه، وقد حقَّت عليه اللعنة في السماء والأرض إلى يوم القيامة، وبعد يوم القيامة يُعذب عذابًا شديدًا، وقد بيَّن جلَّ شأنه أن المراد بالخروج: الهبوط في قوله: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف].

واللعنة تُصبِّحك وتمسيك -يا إبليس- في الدنيا والآخرة، حتى يوم البعث والجزاء ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص].

وبعد البعث والنشور يكون العذاب الشديد في النار مصاحبًا لهذه اللعنة.

حِوَارُ الشَّيطَانِ فِي إغْوَاءِ الإِنْسَانِ

٣٦- ٣٨- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾

قال إبليس: ربِّ أخرني في الدنيا إلى يوم القيامة حين تبعث عبادك .

وإبليس يُقِرُّ ويعترف بوجود الله سبحانه، ولا يُنْكر أن الله جلَّ شأنه هو خالق هذا الكون، فهو يقول: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ يعترف بأن له ربا.

والإنسان الذي يعترف بأن له ربا، ثم لا يمتثل أمره، ولا يجتنب نهيه كإبليس، لا يفيده هذا الاعتراف، ولا هذا الإقرار، ما دام يتوجه بالعبادة لغير الله تعالى، أو يتحاكم إلى غير شرع الله، أو يتخذ له منهجًا غير منهج الله سبحانه.

لم يطلب إبليس من ربه أن يمهله؛ ليتوب، أو يندم، وإنما طلب المُهلة؛ كي يكيد للإنسان ويضله.

وإبليس مقرٌّ بالربوبية، ومقرٌّ باليوم الآخر، ومعترف بالبعث والنشور، وهو يطلب الإمهال والتأخير إلى يوم البعث

أجابه الله تعالى بأنه قد أخَّر موته وهلاكه لا إلى يوم البعث كما طلب، بل إلى الوقت الذي يموت فيه سائر الخلائق عند النفخة الأولى، وليس هذا الإمهال إكرامًا لإبليس، وإنما هو استدراج له وزيادة في بلائه وشقائه، وفتنة للثقلين.

لقد أجاب الله سبحانه سؤال إبليس حين دعا ربه، وهو أشقى الخليقة، وفي هذا رد على من زعم أنه ملوَّث بالذنوب، وأن (فُلانًا) من الناس أصلح منه، وأقرب إلى الله تعالى، ولهذا فهو يتوسَّل به، ويطلب منه رفع دعائه إلى الله سبحانه، وهذا هو عين ما قاله مشركو الجاهلية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

فالله تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده، وقد أمرنا سبحانه أن ندعوه مباشرة دون واسطة.

وهذا يختلف عن طلب الإنسان من أخيه أن يدعو له بظهر الغيب؛ فإن هذا أمر مشروع، مع اعتقاد أن الله تعالى يجيب الجميع، ولا واسطة بينه وبين أحد من خلقه.

لقد سأل إبليس ربه أن يمد له في أجله؛ لإغواء الخلق إلى يوم البعث؛ كي ينجو من

الموت، فأجابه الله تعالى بأنه قد أخره إلى يوم موته، وفوَّت عليه الفرصة التي توخاها في سؤاله، فأجَلُه ممدود، ولكن إلى وقت النفخة الأولى، وهذا اليوم معلوم عند الله تعالى، ولا يعلمه أحد إلا هو، فلم ينْظِره الله إلى يوم البعث، ولكن أنظره إلى الوقت الذي ينتهي فيه عمر الدنيا.

ويقال: إن بين النفختين أربعين سنة، وهي المدة التي يموت فيها إبليس، ويوم البعث لا يموت فيه أحد، وفي هذا اليوم ينتهي القيام بالتكاليف الشرعية؛ فالأعمال والأقوال تنتهي، ويبقى الحساب والجزاء.

إِبْلِيسُ يَتَعَهَّدُ بِإِغْوَاءِ أَكْثَرِ بَنِي آدَمَ

٣٩، ٤٠- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ(١)﴾

قال إبليس: ربِّ بسبب بُعدي عن الخير، وبسبب قدرتك على إغوائي وإضلالي بما أوْدعْتَه في جِبِلَّتي من الاستعداد للخير والشر، لأقعدنَّ لبني آدم بكل طريق، فأُبعدهم عن الخير، وأقرِّبهم من الشر.

لقد حقد إبليس على آدم، وحسده على أمر الله له بالسجود تكريمًا لآدم.

والحسد هو أول معصية، عصى بها إبليس ربه، فتكبر عن السجود لآدم.

والحسد والكبر، صفتان من صفات إبليس، وهما أول مَعْصِيتين وقعتا في الأرض، وذلك أنه لمَّا وجد إبليس أنه قد حقت عليه اللعنة، وأنه طُرِد وأُبعد من رحمة الله إلى يوم القيامة، وأنه سيعذب في جهنم أخذ على عاتقه أن يكيد لآدم وذريته، بغوايتهم وإضلالهم، وتزيين المعاصي والشهوات والشبهات إليهم، قال: ربِّ بسبب إغوائي وإضلالي لأزينن لذرية آدم، وأحسِّن المعاصي والسيئات في أعينهم، وأُحبِّبهم فيها، وهو عهد قَطَعه إبليس على نفسه قائلًا: ولأغوينهم ولأضلنهم أجمعين، فأُحسِّن لهم القبيح، وأُزيِّن لهم المنكر، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بكسر اللام من (المخلِصين) اسم فاعل، والباقون بفتحها اسم مفعول.

وقوله: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف]

وقوله: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٨].

ثم استثنى إبليس من الغواية من لا يملك إضلالهم، فقال: إلا عبادك الذين هديتهم، فأخلَصوا لك العبادة وحدك دون سواك، أو أخلصْتهم لعبادتك، فإبليس ليس له سلطان بالوسوسة والتسلط عليهم، فهو لا يملك أن يجبرهم، أو يكرههم على فعل المعاصي؛ إذ ليس في وسعه ذلك، وذلك أن الشيطان لما أوْعد أنه سيضل أكثربني آدم في قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧] وقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]

استثنى من ذلك عباد الله المخلصين معترفًا بأنه لا قدرة له على إضلالهم، كما جاء في قوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص].

ونظير ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ].

وقد بيَّن ﷻ أن الشيطان ليس له سبيل على إغواء عباده الذين استخلصهم الله لطاعته، وصانهم عن اقتراف ما نهى عنه، وفي هذا اعتراف من الشيطان بأن لله تعالى عبادًا أقوياء في إيمانهم لا يستطيع أن يغويهم، ولا يقدر على إضلالهم، كما قال ﷺ عن عمر ﷺ: **«ما سلك عمر فجًّا إلا وسلك الشيطان فجًّا غيره»**.

هذا: وكيد الشيطان ضعيف، وسلطانه مجرد وسوسة، فأنت لا تراه حين يكيد لك،

وسلطانه مجرد إغواء وتزيين، ولذلك فهو يتنصل من الإنسان يوم القيامة، ويخطب في الملأ الأعلى متبرئًا ممن أغواهم، يقول: أنا أشرت إليكم فحسب، فاتبعتموني، وما فعلت لكم شيئًا أكثر من مجرد الإشارة ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

٤١- ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ[١] مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

أي: أن إغواء الشيطان لما عدا المخلصين لله في طاعتهم هو طريق الله المستقيم، وهو سُنَّة الله في خلقه، ولما ذكر الشيطان أنه لا طريق له لإغواء أهل الإخلاص أقوياء الإيمان، بيَّن سبحانه أن الشيطان لا يتسلط إلا على من كان غاويًا، مائلًا للغواية مكتسبًا لها، دون مَنْ كَبَح جِماح نفسه، ونهاها عن الهوى.

والمعنى: أن الله تعالى يخبر أن طريق الله مستقيم، موصِّل إليه وإلى دار كرامته، وهذا الطريق هو سُنَّة الله في خلقه، بمعنى: أن الشيطان لا يُغوي إلا أولياءه وأتباعه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩] كأن الله تعالى يقول في الرد على إبليس - الذي قسّم الناس إلى غاو، ومخلصٍ، واعترف بعجزه عن إغواء المخلصين من عباد الله:

يا إبليس، إن عدم قدرتك على إغواء عبادي المخلصين منهج قديم من مناهجي التي اقتضتْها حكمتي، وعدالتي، ورحمتي، وهو سُنَّة من سنني التي آليتُ على نفسي أن ألتزم بها مع خلقي، فلا قوة، ولا قدرة لك على إغوائهم؛ لأنهم إذا مسهم طائف من الشيطان أسرعوا بالتوبة الصادقة، فقبلتُها منهم، وغفرت لهم زلَّتهم. قال تعالى:

٤٢- ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾

أي: إن عبادي الذين أخلصوا لي قد قضيت ألَّا أجعل للشيطان منفذًا إلى قلوبهم، لكنه يهيمن على أتباعه الذين اختاروا طريق الغواية، فأطاعوا الشيطان، ورضوا بولايته، فإنه له عليهم سلطان الغواية، وهو سلطان وسوسة وتزيين، وليس سلطان قهر وقوة، والغاوي، هو الذي عرف الحق وتركه، والضال، هو الذي ترك الحق من غير علم به، والراشد، هو الذي عرف الحق وعمل به.

---

(١) قرأ يعقوب بكسر اللام وضم الياء منونة من لفظ (علِيٌّ) من عُلوّ الشرف، وقرأ الباقون بفتح اللام والياء من غير تنوين، أي: أنَّ من مَرَّ على الصراط فقد مرَّ علَيَّ؛ لأنه طريق يؤدي إليَّ.

مَصِيرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٤٣، ٤٤- ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ[1] مَقْسُومٌ﴾

ثم بيَّن سبحانه أن الغاوين المتبعين لوسوسة الشيطان، مع إبليس وجنده في جهنم.

وبيَّن جلَّ شأنه أن جهنم دركات بعضها دون بعض؛ لأن الكفر درجات، والنفاق مراتب كذلك.

أي: وإن النار الشديدة هي موعد إبليس، وموعد الغاوين الذين اتبعوه أجمعين، وهم الذين يسلكون طريق الضلال والغواية، وطريق الهوى والشيطان.

قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء]

وقال ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات]

ولجهنم سبعة أبواب، كل باب أسفل من الآخر؛ فهي طبقات، أو دركات، لكل باب من أتباع إبليس جزء مقسوم، أي: نصيب معين من العذاب بحسب أعمالهم.

وأسماء أبواب النار سبعة: جهنم، والحطمة، ولظى، وسعير، وسقر، والهاوية، والجحيم؛ وأولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، والنار جماع ذلك كله.

قال ابن جريج: النار دركات بعضها دون بعض: جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، لكل دركة قوم يسكنونها، حسب مراتب كفرهم، فالهاوية أسفلها، وجهنم أعلاها؛ نعوذ بالله من النار، ومن عذاب النار .

وقال الضحاك: إن جهنم هي الدركة الأولى للعصاة من المؤمنين الموحدين الذين يُعذَّبون في جهنم بمقدار معاصيهم، وهم الذين لم يتوبوا منها، ولم يموتوا على الشرك، ثم يخرجون منها إلى الجنة، ويَليهم في الدركة النصارى، وفي الدركة الثالثة اليهود، ثم الصابئون، ثم المجوس، ثم غيرهم من أهل الشرك والكفر، ثم أهل النفاق كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي

---

(١) قرأ شعبة بضم الزاي من (جزُء)، والباقون بإسكانها إلا أن أبا جعفر حذف الهمزة وشدد الزاي، ويقف عليها حمزة وهشام بخلف عنه بنقل حركة الهمزة إلى ما قبلها مع السكون المحض والرَّوْم والإشمام.

﴿ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] أي: في الهاوية، وهي آخر الدركات.

وقيل: إن العدد الذي في الآية غير مقصود، وإن المراد بالأبواب السبعة: كثرة الأبواب من غير عدد معين، أي: أن لكل باب فريقًا يدخل منه، أو لكل طبقة من النار قسمًا خاصًّا بها، وهي منازل لأهل النار بحسب أعمالهم.

وعن سَمُرة بن جندب ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن مِن أهل النار مَن تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى حُجْزَتِه، ومنهم من تأخذه إلى عنقه**»، وفي لفظ: «**إلى تَرْقُوته**»[1].

نَعِيمُ الْمُتَّقِينَ فِي دَارِ الْقَرَارِ

٤٥، ٤٦- ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ[2] ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾

ثم ذكر الله سبحانه ما يقابل أهل الغواية أتباع إبليس، وهم عباد الله الذين أخلصوا نفوسهم لله، وأطاعوه في السر والعلن، والذين اتقوا الفواحش والشرك، واتقوْا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من الشرك، والذنوب والمعاصي، فإنهم في بساتين، وأنهار جارية، وهم في حدائق الجنة، وأنهار الخمر، واللبن، والعسل، والماء، وعيون السلسبيل، وعيون التسنيم، وعيون الكافور ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان] وهذه العيون غير الأنهار الكبار التي في الجنة.

ويقال لهم: ادخلوا الجنة سالمين من كل سوء، سالمين من الآفات، ومن النَّصَب ومن اللغوب، ومن المرض والحزن والهم، وسائر المكدرات، مع سلام الملائكة عليكم، آمنين من الخوف، ومن الموت، ومن العذاب، ومن زوال هذا النعيم.

وقد جاءت آيات أخرى تصف ثواب المتقين، وتبيِّن بعض أعمالهم الصالحة التي نالوا بها هذا الثواب الجزيل:

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٥).

(٢) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (وعِيون)، والباقون بضمها، وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة وروح وقنبل وابن ذكوان بخلف عنهما بكسر التنوين من (عيونٍ) حال وصلها بـ (ادخلوها)، والباقون بالضم، وقرأ رويس بخلف عنه بضم تنوين (عيونٌ أُدخِلوها) مع كسر الخاء على أنه فعل ماض مبني للمفعول، وعند البدء بـ (ادخلوها) تضم همزة الوصل تبعًا لضم ثالث الفعل.

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ [الدخان].

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه، فجئت لأنظر في وجهه، فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته منه أن قال: «**يأيها الناس: أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصِلُوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[1].

وهذه جملة من الآيات في معنى الآية:

١- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات].

٢- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الطور].

٣- وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر].

٤- وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ [القلم].

٥- وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [المرسلات].

وأهل الجنة آمنون من الموت لا يكبَرون، ولا يَسْقَمون، ولا يعْرَوْن، ولا يجوعون، ولا يتغوطون، ولا يبولون. قال تعالى:

---

(١) الترمذي (٢٤٨٥) و«صحيح سنن ابن ماجه» (١٠٩٧، ٢٦٣٠) والحاكم (٣/ ٦٣) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥٣١). وهو في إرواء الغليل (٣/ ٢٣٩) والتعليق الرغيب (١/ ٢١٤) وصحيح الترغيب (٦١٢) والسلسلة الصحيحة (٥٦٩).

٤٧- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾

وقد طهَّر الله قلوب المؤمنين من الحسد، والغل، والحقد، والشحناء، والبغضاء، والعداوة، فتبقى قلوبهم سالمة من كل غل وحسد.

جاء في الصحيح عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يَخْلُصُ المؤمنون من النار، فَيُحْبَسُون على قَنطرة بين الجنة والنار، فيُقَصُّ لبعضهم من بعض، مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدُهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**»[1].

وقبل أن يدخلوا الجنة يقتص الله سبحانه من بعضهم لبعض، ثم تُنقَّى قلوبهم، وتُصفَّى من جميع عداوات الدنيا، ومما فيها من البغضاء والشحناء، ثم يؤذن لهم بدخول الجنة، وهم في صفاء نفسي، ونقاء قلبي، يعيشون في الجنة إخوة متحابين في الله، متزاورين متصافحين، يجلسون على أسرَّة عظيمة في مواجهة بعضهم بعضًا، تواصُلًا وتحابُبًا، ينظر بعضهم إلى بعض، ليس منهم أحد يدير قفاه ولا جنبه إلى الآخر، بل تتقابل وجوههم ينظر بعضهم إلى بعض.

قال علي بن أبي طالب ﷺ: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾[2] فقال الحارث بن الأعور الهمذاني، وهو شيعي جاهل: كلَّا، الله أعدل من أن يجعلك وطلحة في مكان واحد، فقال عليٌّ: فلمن هذه الآية؟ لا أمَّ لك، بفيك التراب.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر].

وقد جاء وصف السرر التي يجلسون عليها بأنها موضونة، أي: منسوجة بقضبان من الذهب.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٤٠، ٦٥٣٥) وهو عند البيهقي في «الشعب» (٣٤٥) والطبري (١٤/ ٧٩).
(٢) ابن أبي شيبة (٢/ ٢٨٢).

قال تعالى في وصف السابقين: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الواقعة].

وجاء وصف هذه السُّرُر بأنها مصفوفة، في قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].

ووُصفت هذه السُّرُر بأنها مرفوعة، في قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ [الغاشية].

وقوله: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الواقعة]

كما وُصفت هذه السُّرُر بأنها ذات أغطية خضْر، وفرش حسان، وذلك في قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الرحمن]. قال تعالى عن أهل الجنة:

٤٨- ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: أن أهل الجنة لا يمسهم فيها تعب، ولا مشقة، ولا عبادة، ولا عمل، ولا إعياء، وهم فيها باقون أبدًا، يقال لهم: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت، كما في الحديث الصحيح.

عن أبي سعيد، وأبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ينادي منادٍ: إن لكم أن تصِحُّوا فلا تسقَموا أبدًا، وإن لكم أن تحيَوْا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا»**[1].

وهم يدخلون الجنة، ولا يخرجون منها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر].

وقال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف].

عن أبي هريرة ﷺ قال: أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام، أو طعام، أو شراب، فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشِّرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب[2].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٨٢٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٣٢).

التَّعْقِيبُ عَلَى جَزَاءِ الْمُجْرِمِينَ وَنَعِيمِ الْمُتَّقِينَ

٤٩، ٥٠- ﴿نَبِّئْ[1] عِبَادِيٓ[2] أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾

بعد أن ذكر ﷻ في الآيات السابقة: النار وأهلها، والجنة وأهلها، جمع في هاتين الآيتين بين المغفرة والعذاب، والرحمة والانتقام، والوعد والوعيد؛ كي يظل العبد بين الخوف والرجاء، فلا يقنط من رحمة الله، ولا يقصِّر في أداء ما كُلِّف به، وقَدَّم جلَّ شأنه المغفرة والرحمة على العذاب والانتقام؛ لأن الله تعالى قد سبقت رحمته غضبه، وسبق عفوه عقابه.

يقول الله تعالى لنبيه: أخبر عبادي أني أنا الغفور للتائبين، الرحيم بمن رجع وأناب إليَّ.

ولفظ: ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ جاء معرَّفًا بالألف واللام، ولفظ: العذاب جاء دونها ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ فلم يقل الله سبحانه: وأنا المعذِّب؛ ليتبين تغليب جانب الرحمة والمغفرة على جانب العذاب، وقد بالغ سبحانه في ذلك، فأكَّد المغفرة بلفظ أني، ولفظ أنا، ولم يقل مثل ذلك في العذاب، فأكد العذاب بثلاثة أشياء.

أي: وأن عذابي هو العذاب المؤلم الموجع لمن عصاني، وخالف أمري ونهيي.

قال تعالى ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥] وعلى العبد ألا يتمادى في الرجاء، وأن يَحْذَر كل سبب يوجب له العقاب، بل ينبغي أن يكون قلبه دائما بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة الله تعالى ومغفرته أحدث ذلك عنده رغبة ورجاء، وإذا نظر إلى ذنوبه ومعاصيه أحدث ذلك له خوفًا ورهبة وإقلاعًا عن الذنب.

في صحيح البخاري وغيره، عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله خلق الرحمة يوم خلَقها مئة رحمة، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة، لم ييأس من**

---

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (نبئ) حرف مد وصلًا ووقفًا، ومثله حمزة وهشام عند الوقف، والباقون بهمزة ساكنة.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (عباديَ) و (إنيَ أنا)، والباقون بإسكانها.

الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب، لم يأمن النار»[١].

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ خرج على رهط من أصحابه وهم يتحدثون، فقال: **«والذي نفسي بيده، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا»** فلما انصرفنا أوحى الله إليه: يا محمد، لِمَ تُقنِّطُ عبادي؟ فرجع إليهم فقال: **«أبشروا، وقاربوا، وسددوا»**[٢].

وفي إضافة العباد إلى نفسه سبحانه بقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ تشريف وتعظيم لهم؛ فكل من اعترف أنه عبد لله دخل في هذا التشريف.

ولما أراد سبحانه أن يُشرِّف محمدًا ﷺ برحلة الإسراء، أضافه تعالى إلى نفسه في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] كما أضافَهُ إلى نفسه في آيات المعراج؛ حيث قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١٠].

وقد جمع الله في الآية بين الرحمة والعذاب، والوعد والوعيد.

مُجْمَلُ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَلُوطٍ

٥١- ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١﴾

أي أخبر أمتك - أيها الرسول - بهذه القصة العجيبة، فإن في قصص الأنبياء ما يوجب العبرة والاقتداء، سيما قصة خليل الرحمن، وقد أمرنا أن نتبع ملته، وقصة ضيفه من ملائكة الله الكرام.

وفي مطلع السورة بيان أن الله سبحانه لا يُهلك أهل قرية من القرى إلا في زمن محدد، لا يستقدمون عنه ولا يستأخرون، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾ وفي أول السورة بيان أن الملائكة لا تنزل على الرسل إلا بالوحي والرسالة، وتنزل لإهلاك قوم تمرَّدوا على رُسُل الله، وخرجوا عن طاعة ربهم، وامتثال أوامره؛ لتهلكهم وتعذبهم.

وفي سورة الحِجْر ثلاثة أمثلة للأقوام الذين عصوْا رسل الله، فأهلكهم الله، واستأصلهم عن آخرهم؛ ليكونوا عبرة لغيرهم على مر السنين والأيام، وهي قصة هلاك

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٦٩، ٦٠٠٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٥٢، ٢٧٥٥) والبيهقي (١٠٣٦).
(٢) البيهقي في «شعب الإيمان» و«صحيح الأدب المفرد» (١٩١).

قوم لوط، وقصة هلاك أصحاب الأيكة، وقصة هلاك قوم ثمود، وقد سبق ذِكْرُ ذلك في سورة الأعراف، وسورة هود ﷺ.

وفي هذه السورة قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١﴾ أي: أخبر أمتك يا محمد عن قصة ضيوف إبراهيم خليل الرحمن، وهم الملائكة الذين نزلوا لهلاك قوم لوط ﷺ.

ونظرًا لمنزلة إبراهيم ﷺ بين الرسل، فإنه لا ينبغي أن تَنْزِل الملائكة في مكان، أو دائرة، قبل أن تبدأ بالنزول على كبير القوم، وسيد الدائرة.

الملائكة يبشرون خليل الرحمن وينذرون قوم لوط:

وكان إبراهيم ﷺ في فلسطين، ولوط ﷺ في الأردن، على مقربة منه، فنزلت الملائكة وهم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وقيل: إنهم كانوا أحد عشر ملَكًا، نزلوا في صورة ضيوف من البشر، حيث بشروا إبراهيم بالولد أوَّلًا، وكان قد بلغ من الكبر عتيًّا، فتجاوز المئة من عمره، وكانت زوجه سارة عقيمًا لا تلد، وقد أوشكت على المئة من عمرها، فبشروهما بغلام عليم هو إسحاق، ومن ذريته يعقوب.

ثم خرجوا من عند إبراهيم إلى قرى سدوم والمؤتفكة في شرق الأردن، وكان أهلها يأتون الذكران من العالمين، أي: يفعلون جريمة اللواط، وهي فاحشة منكرة، ومن شأنها القضاء على النوع البشري.

وبعض المجتمعات الغربية في العصر الحديث تُقرُّها بتشريع برلماني، وتعتبرها حقًّا من حقوق الإنسان الشخصية!.

والله سبحانه بيَّن عقوبة من يفعل هذه الفعلة الشنيعة؛ لبيان العبرة بعقابهم، ولفت الأنظار إلى مكان هلاكهم فقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ﴾[الصافات: ١٣٧، ١٣٨] وذلك أن بحيرة لوط في الأردن - وهي موضع القرى الخمس التي خسف الله بها - قد رفعها جبريل إلى عنان السماء، وقلَبها.

وأهل الآثار في العصر الحديث وجدوا تحت هذه البحيرة، المسماة بـ (البحر الميت) هذه القرى، منقلبة، ومنكسة في أعماق الأرض!

إنها عبرة وآية قائمة إلى يوم الساعة، ولكن الناس في غفلة عن الاعتبار والاتعاظ.

والله ﷻ يُقسِم بحياة نبيه ﷺ أن الناس في سَكْرة وغفلة عن مثل هذا القصص.

يقول ابن عباس ﷺ: ما خلق الله، ولا ذرأ، ولا برأ، نفسًا أقرب على الله من محمد ﷺ، وما أقسم الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد ﷺ، فقال سبحانه: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

ومن المبادئ المقررة أن الله سبحانه يُقْسم بما شاء من خلقه، كما أقسم بالليل والنهار، والشمس والقمر، والضحى، وغير ذلك، وأنه لا يجوز للخلق أن يُقْسِموا إلا بالله وحده، وتمضي الآيات في شرح قصة نزول الملائكة على إبراهيم.

١- الْمَلَائِكَةُ تُبَشِّرُ إِبْرَاهِيمَ بِإِسْحَاقَ

٥٢، ٥٣- ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ[1] بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾

أَعْلِمْ -يا محمد- أمتك بخبر ضيوف إبراهيم من الملائكة حين دخلوا عنده، وسلَّموا عليه، فردَّ عليهم السلام، وقدَّم لهم الطعام، ولمَّا لم يأكلوا منه خاف منهم؛ لأن أكل الطعام دلالة على الأمن والأمان.

وجاء في سورة الذاريات قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ [الذاريات: ٢٥] أي: أن إبراهيم عليه السلام رد عليهم التحية بمثلها، ثم قرَّب منهم عِجْلاً كما جاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الذاريات] أي: عجل حنيذ كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩] فوجل، أي: خاف منهم وفزع، لما امتنعوا عن الأكل،قال سبحانه: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود:٧٠] أي: شعربخوف منهم عندئذ طَمْأنوه، وقالوا له: لا تفزع، ولا تخف، إنا جئنا نبشرك بقدوم غلام صغير، يرزقك الله إياه من زوجتك العقيم، يكون كثير العلم بالدين، وأحكام الشرائع حين يكبر. ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

والغلام العليم هو إسحاق، والغلام الحليم الذي صبر على أمر الذبح، هو أخوه الأكبر

(١) قرأ حمزة (نَبْشُرُك) بفتح النون وسكون الباء وضم الشين مخففة مضارع أبشر، وقرأ الباقون (نُبَشِّرك) بضم النون وفتح الباء وكسر الشين مشددة، مضارع بشَّر.

إسماعيل من هاجر، فلما بشَّروه هذه البشرى عجبتْ سارة من ذلك؛ نظرًا لِكبَرِها، وعُقْمها، وكِبَرِ زوجها، وقالت: عجوز عقيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صيحة وضجة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ لطمته ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات].

هذه البشرى كانت لامرأة إبراهيم، كما قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود]

أما بشرى الغلام الحليم -وهو إسماعيل- فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات] وكان ذلك قبل بشارة إسحاق بثلاثة عشر عامًا، فماذا كان ردّ فعل إبراهيم ببشرى الملائكة.

٥٤- ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ[1] ﴿٥٤﴾﴾

قال إبراهيم متعجبًا: أبشَّرتموني بالولد وأنا كبير، وزوجتي كذلك، فبأي شيء، وبأي أعجوبة تبشرونني؟

وقد أخبر إبراهيم عن كبره في السن وقت أن وهبه الله إسماعيل، وإسحاق.

كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم].

كما أخبرت سارة أن إبراهيم ﷺ كان كبير السن وقت أن بشرته الملائكة بإسحاق فقالت: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾.

وأخبرت عن كبر سنها كذلك في قولها: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢]

وفيما حكى القرآن عنها في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]

---

(١) قرأ نافع بكسر النون مخففة من (تبشرونِ)، وقرأ ابن كثير بكسرها مشددة مع إشباع المد وصلًا ووقفًا، والباقون بفتحها مخففة.

ومجيء الولد للمرأة في حدود سن المئة، لأول مرة، أمر غير عادي، وهو موضع عجب.

أجابت الملائكة إبراهيم بأن ما بشرته به حق لا شك فيه، لأن الله تعالى قادر على كل شيء:

٥٥- ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾

في هذه الآية تأكيد، وزيادة اطمئنان لإبراهيم ببشارته بالغلام العليم، فهو أمر يقيني محقق.

وفيها نهي لإبراهيم عن استبعاد ذلك، ومن شأن هذا الاستبعاد أن يؤدي إلى القنوط واليأس، وإبراهيم عليه السلام منزهٌ عن القنوط من رحمة الله، ولذا فإن الملائكة جاؤوا في موعظتهم له بأدب مناسب، فنهوه أن يكون من زمرة القانطين، تحذيرًا له من ذلك، كما قال تعالى لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

قالت الملائكة لإبراهيم: بشرناك بالصدق الذي قضاه الله، وأعلَمنا به، وهو حق لا لَبس فيه، فلا تكن من اليائسين من أن يولد لك ولد على كبر سنك، أنت وزوجتك؛ فإن قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، وسيهبك الولد مع تقدم سنك وسن زوجتك. فأجابهم إبراهيم:

٥٦- ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ[1] مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

قال إبراهيم: لم أستنكر ذلك يأسًا من رحمة الله، ولكني أستبعد ذلك؛ لِمَا جرت به العادة؛ فإنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون.

وقد ذكَّرت الملائكة إبراهيم مقامًا نسيه، فقد تعجب إبراهيم من حصول الولد له ولزوجه في هذه السن، فنفى عن نفسه رذيلة اليأس من فرج الله، وبيَّن أن الذي يقنط من رحمة الله ضال، قد أخطأ طريق الصواب، كما قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] فالأمن من مكر الله، واليأس من رحمة الله، جهل بكون الله تعالى فعَّالًا لما يريد، قادرًا على كل شيء، يقول للشيء: كن فيكون.

---

(١) قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بكسر النون من (يقنِط)، والباقون بفتحها، وهما لغتان.

حِوَارُ إِبْرَاهِيمَ وَالْمَلَائِكَة فِي شَأْنِ قَوْمِ لُوط:

٥٧-٦٠- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ[1] أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾

قال إبراهيم: فما الأمر الخطير الذي جئتم من أجله أيها المرسلون، سوى هذه البشرى؟ فقد فهم إبراهيم أن من وراء البشرى أمرًا آخر، فاستفسر عنه ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧﴾ فما شأنكم إذًا؟ ولماذا أُرسلتم؟

قالت الملائكة: إن الله تعالى قد أرسلَنا لإهلاك قوم لوط المشركين الضالين، الذين يأتون الذكران من العالمين، فقد جئنا إلى هؤلاء المجرمين لإهلاكهم؛ لأنا لا نتنزل إلا بأمر ربك، ولا نتنزل إلا لأمر عظيم، فقد كثُر فسادهم وعظُم شرهم.

- وهنا استفهم إبراهيم عن مصير أتباع لوط المؤمنين به، فأجابوه: أما أتباع لوط وأهل دينه فإن الله سينجيهم، ولن يهلكهم.

وعلى هذا فإن الملائكة جاؤوا لإهلاك المجرمين مرتكبي المحظورات، أما من آمن بلوط فقد قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وهؤلاء المؤمنون أشار إليهم القرآن في قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾[الذاريات].

أما امرأة لوط فقد كانت كافرة، وقد قضى الله بإهلاكها وتعذيبها مع القوم الباقين في العذاب.

وجاء إسناد القدَرِ في الآية إلى الملائكة، في قوله تعالى على لسانهم: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ﴾؛ لأنهم الذين يباشرون إنزال العقاب بقوم لوط، والمقدِّر في الحقيقة هو الله تعالى.

وهنا أخذ إبراهيم يجادل الرسل في إهلاك قوم لوط ويراجعهم، فقال تعالى له: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦]

---

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بإسكان النون من (لمنْجُوهم) مع تخفيف الجيم، والباقون بفتح النون وتشديد الجيم، والأول من أنجى والثاني من نجَّى.

الْمَلَائِكَةُ فِي بَيْتِ لُوطٍ

٦١، ٦٢- ﴿فَلَمَّا جَآءَ[1] ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢﴾

هذا شروع في إهلاك المجرمين، ونجاة المؤمنين؛ حيث خرجت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام بعد أن بشروه بالغلام، وأخبروه بتوجههم إلى لوط عليه السلام، فلما فارقوا إبراهيم، ووصلوا إلى لوط وجدهم في شكل غير معروف في القبائل التي تمرُّ بهم؛ حيث وجدهم في صورة شباب مُرْد حسان، فضاقت نفسه، وساوره الخوف عليهم من القوم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾ [هود: ٧٧] وفي قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ۝٣١﴾ [هود].

قال لوط للملائكة إنكم قوم غير معروفين لي، فليس عليكم زيُّ السفر، ولا أنتم من أهل الحضر، ولا أعرف لأي شيء جئتم؟ وجاء ذلك أيضًا على لسان إبراهيم في قوله سبحانه: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]. ردت الملائكة على لوط:

٦٣، ٦٤- ﴿قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾

قالت الملائكة للوط؛ لإدخال الطمأنينة على نفسه: لا تخف، ولا تفزع؛ فإنا قد جئنا بالعذاب الذي كان يشك فيه قومك، ولا يصدقون به، فنحن ما جئنا لإزعاجك، وما جئنا لشر، وإنما جئناك بما يسرُّك، ويشفي صدرك من أعدائك.

وأتيناك باليقين الذي لا شك فيه، فيما أخبرناك به من إهلاكهم، وقد كان لوط في غاية الكرب والهمِّ؛ لأنه لا يملك وسائل لحماية ضيوفه من اعتداء قومه عليهم، قبل أن يعرف أنهم رسل الله، فكان رد الملائكة مشتملًا على تأكيدات كثيرة؛ ليزداد طمأنينة، ويزول عنه هذا الخوف.

وهنا أمر الله لوطًا أن يخرج بأهله من القرية إذا نامت العيون، حتى لا يعلم أحد بخروجه.

---

(١) في(جاء آل) قراءات تدور حول إسقاط الهمزة الأولى والثانية، وتسهيل الثانية أو إبدالها حرف مد.

٦٥- ﴿فَأَسْرِ(١) بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ(٢) وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾

أي قالت الملائكة للوط: فإذا جاء وقت السحر من آخر الليل، فاخرج أنت ومن آمن بك وبدعوتك، وانتهَى عما نهاه الله عنه من فعل فاحشة اللواط، وهم أهلك المؤمنون بأنك رسول الله، اخرُج بقومك من القرية وسِرْ بهم بعد مرور جزء كبير من الليل، وكن خلْفهم لتتفقدهم؛ حتى لا يتخلف منهم أحد فيناله العذاب، وهكذا (كان النبي محمد ﷺ يتخلف في المسير، فيزْجي الضعيف، ويُرْدف، ويدعو لهم)(٣) وذلك حين يكون في غزواته.

وهكذا أمر الله لوطًا أن يواصل السير هو والمؤمنون معه، ولا يتوانى في ذلك، وقال له: احذر أن يتوقف منكم أحد أدنى توقف، حين يسمع الصيحة تنزل بالقوم فيلتفت خلفه؛ حتى لا يرى ما نزل بقومه من العذاب فيرتاع.

وكان جبريل قد أمر لوطًا أن يسير إلى قرية معينة، قيل: هي مدينة عمورية؛ حيث لم يعمل أهلها عمل قوم لوط، وقد أمره ربه أن يسرع الخطا هو والمؤمنون معه نحوها؛ ليكونوا في منجى من العذاب، ويتوجهوا في سيرهم إلى حيث أمرهم الله تعالى؛ ليكونوا في مكان آمن، ولم يرد نص صريح يحدد هذه الجهة.

وهكذا أمر الله تعالى لوطًا عليه السلام أن يتَّبع أدبار المؤمنين من قومه، بأن يمشي خلفهم، ونهاه عن الالتفات؛ لأنه كالمهاجر الذي فرَّ من العذاب، وهرب من موطنه فلا ينبغي له أن يلتفت خلفه؛ لأن من يلتفت خلفه يكون متحسّرًا على فراق قومه ووطنه، وعليه أن يمضي قدُمًا إلى حيث أمره الله.

وقد استثنى القرآن الكريم امرأة لوط، فبيَّن أنها قد التفتت فأصابها حجر فقتلها، وجاء ذلك مصرحًا به في قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨١]. قال تعالى:

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بهمزة وصل في (فأسر)، والباقون بهمزة قطع.

(٢) قرأ خلف عن حمزة بترك الغنة في (أحد وامضوا).

(٣) من حديث جابر في «سنن أبي داود» برقم (٢٦٣٩). وقد صححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٢٩٨).

٦٦- ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

أوحى الله إلى لوط بأمرِ قضاهُ وقدَّره، وهو استئصال القوم عن آخرهم، وإبادتهم في الصباح الباكر ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾، ثم فسَّره بقوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ فعذاب قوم لوط أمر قد حكمْنا به، وفرغْنا منه.

والقطع: هو الإزالة والاستئصال، وفي هذا بيان أن العذاب سيمحقهم، ولا يبقي منهم أحدًا؛ **فدابر القوم**: هو آخرهم، وإذا قُطِع الدابر فإن العذاب يكون قد أتى على أولهم وآخرهم، ويقال: قطع الله دابره، أي: استأصل شأفته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام]

وكان قطع دابرهم في الصباح الباكر ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

قَوْمُ لُوطٍ يُرَاوِدُونَهُ عَنْ ضَيْفِهِ:

٦٧ ، ٦٩- ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ[1] ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾

المراد بالمدينة ؟ المدينة التي فيها لوط، حيث إن أهلها أخذ بعضهم يبشر بعضًا بوجود شباب حسان في بيت لوط، فذهبوا إليه يريدون فعل الفاحشة بهم.

وفي هذه الآية بيان ما حدث من قوم لوط حين سمعوا بوجود شباب في بيت لوط؛ حيث إنه لمَّا نزلت الملائكة على لوط، انتشر خبرهم في مدينة سدوم، فجاء أهل المدينة فرحين مستبشرين يبشر بعضهم بعضًا بضيوف لوط؛ ليأخذوهم، ويفعلوا بهم الفاحشة كما حدَّثتْهم أنفسهم بذلك، قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود: ٧٨].

وكانت الملائكة قد طمأنت لوطًا بأن قومه لن يصلوا إليهم بسوء؛ لأنهم رسل الله ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ﴾ [هود: ٨١] ولما هجموا على دار لوط، وأرادوا أن يقتحموها؛ ليدخلوا على ضيوفه خرج إليهم جبريل، وضربهم بجناحه، فطمس الله أعينهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٢٧].

---

(١) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا من (تفضحوني)، والباقون بحذفها، ومثلها (تخزوني) في الآية التالية.

قال لوط لقومه: هؤلاء ضيوفي في حمايتي، وحق على الرجل أن يكرم ضيفه، فلا تتعرضوا لهم بالأذى، فتلحقوا بي الذل، والعار، والفضيحة.

وخافوا الله، واخشوا عقابه، ولا تخجِّلوني، وتتسببوا في إذلالي، وخزيي، وهواني؛ بالإساءة إلى ضيوفي، فصونوا أنفسكم من عذاب الله وسخطه، وإن لم يكن فيكم خوف من الله، فلا تفضحوني في أضياف، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه. فردّ عليه القوم:

٧٠- ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠﴾

قال قوم لوط له: أوَلم ننهك أن تُدخل الغرباء من الناس إلى بيتك وتضيفهم؟ فنحن قد أنذرناك، ونهيناك أن تحمي أحدًا، أو تدافع عن أحد، أو تكلمنا في شأن أي أحد من العالمين إذا نحن قصدنا منه الفاحشة؟ وكانوا يقطعون الطريق على المارة، والمسافرين؛ ليفعلوا بهم الفاحشة، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وكان القوم يتعرضون بالسوء لكل أحد ينهاهم عن المنكر، وعن فعل الفاحشة، ويحجز بينهم وبين فعلها، فتوعدوه قائلين له: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧] فهددوه بالخروج من بينهم؛ لأنه لم يكن منهم، وإنما قَدِمَ إليهم مهاجرًا مع عمه إبراهيم ﷺ من العراق. ردّ عليهم لوط:

٧١- ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ[1] إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝٧١﴾

لم ييأس لوط ﷺ من إصلاح قومه، ومحاولة منعهم من الفاحشة، فأرشدهم إلى ما تدعو إليه الفطرة السليمة بقضاء الوطر في طريقه المشروع، قال لوط لقومه الذين أرادوا ضيوفه بسوء: هؤلاء أزواجكم لمن هو متزوج منكم فأتوهن، وهؤلاء بنات المؤمنين من أمتي لمن لم يتزوج منكم فتزوجوهن، واتركوا الحرام إلى الحلال، واقضوا وطركم في نسائكم واكتفوا بهن، ولا تفعلوا ما حرم الله عليكم من إتيان الرجال.

وبنات الأمة بنات الرسول؛ فالرسول أب لأُمَّته، وكان زواج المؤمنين من غير المؤمنين

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (بناتيَ إن)، والباقون بإسكانها.

جائزًا في شريعتهم.

ويُستدَل على أن المراد بقول لوط: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ أن المراد بناته: نساء القوم، وبنات المؤمنين، بقوله تعالى على لسان لوط ﷺ: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء]

ولم يكن للوط من صلبه سوى بنتين، ويبعد أن تكونا مقصودتين بكلام لوط في عَرْضه لهما على القوم؛ لأن المتدافعين إلى بيته كانوا أعدادًا كثيرة، فلا يصلح مواجهتهم باثنتين، وقد قال لهم لوط ذلك لما رأى هيجان القوم، وإصرارهم على فعل الفاحشة بهم.

فلما لم يبالوا بقوله: أقسم الله له أنهم سكارى من حب الفاحشة، فقال تعالى:

٧٢ -﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾

ثم خاطب الله سبحانه رسوله ﷺ مُقْسِمًا بحياته تعظيمًا لشأنه، على أن قوم لوط في غفلة شديدة، وفي إغواء، وضلال أذهبَ عقولهم وتمْييزهم، فجعلهم يتركون البنات إلى البنين، وظلُّوا يترددون، ويتمادوْن في غيِّهم حتى حلّت بهم صاعقة العذاب، فقلّبت قُراهم رأسًا على عقب.

وهذه آية معترضة؛ لبيان أن الموعظة لا تجدي مع الغاوين.

والعمر: بفتح العين وضمها لغتان، إلا أن الفتح يختص بالقسم، ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما المخلوق فلا يجوز له القسم إلا بالله تعالى، وقيل: إن هذا القسم من الملائكة بحياة لوط ﷺ.

ولما عرف لوط أن ضيوفه ملائكة، وليسوا بشرًا، زال عنه الضيق الذي يجده، فامتثل أمر ربه، وخرج بأهله ليلًا، فنجوْا وهلك أهل القرية:

٢- عُقُوبَةُ قَوْمِ لُوطٍ

٧٣، ٧٤- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾

واستمر بقوم لوط هذا الطغيان، حتى حلت بهم صاعقة العذاب التي ابتدأ نزولها وقت الصبح وتمامه، كما جاء في الآية السابقة ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ

مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ [آية] وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود].

وانتهى عذابهم باستئصال شأفتهم حين أشرقت الشمس، وفي الآيتين تحديد لبدء العذاب وانتهائه.

لقد أمر الله سبحانه لوطًا ﷺ أن يخرُج من القرية في الليل قبل الصبح، ويأخذ معه أهل بيته، وأن يكون هو في المؤخرة؛ حتى يتفقَّد من يتخلَّف من المؤمنين، ولا يلتفت منهم أحد خلْفه حين يسمع صوت الصيحة، أو الصاعقة التي تنزل بالقوم، فيهلك معهم، وحتى لا يحنَّ إلى وطنه ويعود، فيصيبه ما أصاب القوم، باستثناء امرأة لوط فإنه مصيبها ما أصابهم؛ لأنها كانت تدلُّ القوم، وترشُدهم على وجود الضيوف عند لوط ﷺ، ولم تكن على دينه، وقد جاءهم عذاب الله من الفجر إلى وقت الإشراق؛ حيث قُلبت القرى الخمس على يد جبريل ﷺ، وأُتبعوا بحجارة صلبة متينة؛ لتكون هذه القرى عبرة لغيرهم من أهل النظر والاعتبار.

وبحيرة لوط يمر عليها الناس في مكان معروف، وطريق واضح، لم تنْدثر معالِمُها أو تختفي، فاعتبروا يا أولي الألباب.

فكانت العقوبة أن أمر الله تعالى جبريل ﷺ، فرفع قُرى سدوم إلى السماء، ثم قلَبها، وجعل عاليها سافلها، وأُتبعوا بحجارة من طين قَوِيٍّ متين متصلِّب، ومعلَّم من عند الله تعالى بعلامة خاصة لكل من يُرمى بحجر منها ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٣]

وجاء وصف الحجارة في الآية الأخرى من قوله تعالى: ﴿سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢] أي: كالمطر المتتابع.

وعاد الضمير في آية سورة هود على القرية في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ وعاد الضمير في الآية التي معنا على القوم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾.

وهكذا أخذ الله المجرمين أخذ عزيز مقتدر، فأهلكهم الله بعقوبة تناسب جريمتهم، وكما قلبوا الأوضاع في قضاء الوطر، قلب الله قراهم ونكسها، وهو عقاب لم يسبق له نظير؛ لأن فاحشتهم لم يسبقهم أحد إليها.

الاعْتِبَارُ بِمَا فِي قِصَّةِ لُوطٍ مِنَ الْعِبَرِ وَالْعِظَاتِ

٧٥- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

أشارت هذه الآية إلى ما تضمنته قصة لوط من العبر والعظات؛ ففي هذا العذاب الذي نزل بقوم لوط عبرة وعظة لمن ينظرون في عواقب الأمور من أهل الفراسة، وأصحاب الفكر السليم، والبصيرة النافذة من أولي البصر والبصيرة، وهم المؤمنون المتأملون في الأسباب والعواقب، فيدركون أن من تجرأ على معاصي الله، فإن الله تعالى يعاقبه بأشد العقوبات، سيما أهل هذه الفاحشة الشنيعة.

والمتوسمون: هم المتفرسون المتثبتون الذين ينظرون في الدلائل، والتجارب السابقة فيعتبرون بها.

جاء في الأثر: «**اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله**»[1].

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن لله عبادًا يعرفون الناس بالتوسم**»[2].

والفراسة على نوعين:

النوع الأول: ما دلَّ عليه ظاهر الحديث، وهو: ما يوقعه الله في قلوب أوليائه، فيعْلَمُون به أحوال الناس بنوع من الكرامات، وإصابة الحدس، والظن، والتثبت.

والنوع الثاني: ما يحصل بدلائل التجارب والأخلاق من معرفة أحوال الناس.

قال تعالى في وصف الفقراء المتعففين: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وقال تعالى في المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [محمد: ٣٠]. قال تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حديث غريب، «سنن الترمذي» برقم (٣١٢٧) عن أبي سعيد الخدري و«تفسير الطبري» (١٤/ ٣١) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٤) وقد رُوي عن أبي سعيد وابن عمر وثوبان وعمرو بن قيس الملائي، وهو حديث ضعيف كما في «ضعيف سنن الترمذي» (٦٠٧).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» برقم (٥٠٠٤) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: إسناده حسن (١٠/ ٢٦٨) ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» برقم (١٠٠٥) وهو في «تفسير الطبري» (١٤/ ٣٢) وفي «مسند البزار» برقم (٣٦٣٢) «كشف الأستار».

٧٦، ٧٧- ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

وقرى قوم لوط التي نزل بها العذاب لم تندثر، ولم تَخْفَ معالمها على أحد، إنما هي موجودة في مكان ظاهر معلوم، وآثارها باقية، تمرون عليها في أسفاركم، قال تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

والضمير في ﴿مِّنكُم﴾ من سورة هود يعود على قوم شعيب؛ فإن المساكن غير بعيدة بين قوم لوط، وقوم مدين، وقال تعالى هنا: ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: قرى المؤتفكة المُهلَكة ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: في طريق واضح ثابت، يراه المسافرون في مرورهم عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨] وآثار تدميرهم باقية في بحيرة لوط بوادي الأردن، فيجب الحذر من فعلهم ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد].

وتُختم قصة لوط ببيان العبرة منها، وأن في إهلاك هؤلاء القوم دلالة بيِّنة للمصدقين الموقنين بالله، الذين ينتفعون بالأدلة والمواعظ، فيعتبرون بسوء عاقبة الظالمين.

واسم الإشارة في الآية يتناول قصتي إبراهيم، ولوط، وما فيهما من العبر.

ولفظ: (آية) اسم جنس يصدُق على الآيات المتعددة، ولذا أُفردت هنا، وجُمعت قبل ذلك في الآية الخامسة والسبعين.

ويصح أن يكون الإفراد في هذه الآية؛ نظرًا لكون قرية لوط في سبيل مقيم؛ فإن هذا في حد ذاته آية، والجمع في الآية السابقة نظرًا لقصة لوط، وإبراهيم، وعاقبة قوم لوط؛ فكلٌّ منها آية.

٣- الاعْتِبَارُ بِإِهْلَاكِ أَصْحَابِ الأَيْكَةِ

٧٨، ٧٩- ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

وتأتي العبرة الثانية من إهلاك قوم شعيب، أصحاب البساتين الملتفة بالشجر، وفي هذا تذكير لهم بنعم الله عليهم، وبيان أنهم لم يشكروها ولم يقيموا بواجبها عليهم.

وكانوا قومًا كافرين، يشتهرون بتطفيف الكيل والميزان، فأرسل الله لهم شعيبًا يدعوهم

إلى توحيد الله تعالى، ثم الوفاء بالكيل والميزان، فكذَّبوه فأهلكهم الله.

والأيكة: هي الغيضة ذات الشجر الملتف بعضه حول بعض، وكانوا قومًا ظالمين لأنفسهم بالكفر، وتكذيب الرسل، وتطفيف الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم.

وقد ذُكرت قصة أصحاب الأيكة في سورة الشعراء من قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الشعراء] إلى قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء].

وأصحاب الأيكة فريق من قوم شعيب غير أهل مدين، فأهل مدين هم سكان الحاضرة، وأصحاب الأيكة هم أهل البادية، وكان شعيب رسولًا إليهم جميعًا، وكانوا جميعًا يسكنون المنطقة التي تُسمَّى (معان) على حدود الحجاز والشام؛ فقوم شعيب كانوا قبيلتين: أهل مدين، وسكان الغيضة الأصْليين الذين نزل عليهم شعيب عليه السلام، وهم أصحاب الأيكة.

ومدين في الأصل اسم لرجل، هو ابن إبراهيم ﷺ، وكان إبراهيم قد نزل في مدينة الخليل، وأسكن ابنه مدين في شرق الأردن، في مكان مأهول بالسكان، فسُمِّي المكان باسمه.

ثم بيَّن سبحانه عقوبتهم؛ بسبب كفرهم، وعدم تصديقهم لنبي الله شعيب ﷺ؛ فقد انتقم الله منهم بالرجفة، وعذاب الظلة، حيث سلط الله الحر على أصحاب الأيكة، سبعة أيام؛ حتى أخذ بأنفاسهم، ثم فروا من الهلاك، وتجمَّعوا تحت سحابة أرسلها الله عليهم كالظُّلَّة، فبعث الله عليهم نارًا أحرقتهم جميعًا، وقد وضَّح الله تعالى هذا الانتقام في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء].

ثم بيَّن سبحانه أن مساكن قوم لوط، وقوم شعيب من أصحاب الأيكة، وقوم مدين.

كلها في طريق واضح للناس معروف لديهم، يمرون عليه في أسفارهم فيعتبرون.

وسُمِّي الطريق إمامًا؛ لأن الناس تؤمه وتقصده.

ولفظ **إمام**: يطلق على الطريق، وعلى الكتاب ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]، ويطلق على الرجل الذي يُقتدى به.

٤- الاعْتِبَارُ بِإِهْلَاكِ قَوْمِ ثَمُودَ

٨٠، ٨١- ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

ثم تأتي العبرة الثالثة والأخيرة في هذه السورة من إهلاك أصحاب الحِجْر، وهم قوم ثمود.

والحِجْر: هو المكان المحاط بالحجارة، الممنوع من الناس، والمراد هنا: وادي القرى في مدائن صالح على الطريق من خيبر إلى تبوك في طريق الشام، وآثارهم موجودة وقائمة إلى يومنا هذا، وقد كان يسكنها قوم ثمود الذين عقروا الناقة، وكذّبوا نبيهم صالحًا، وتكذيبهم له تكذيبًا للرسل جميعًا؛ لأن من كذب رسولا فقدّ كذب الرسل؛ لأن دعوتهم واحدة، وليس تكذيب بعضهم له تكذيب لشخصه، وإنما هو تكذيب لماجاءهم به من الحق.

طلب قوم ثمود من نبيهم صالح أن يأتي لهم بمعجزة دالة على صدقه، وعلى صحة ما جاء به من الحق، فأيده الله بالمعجزات، ومن بينها الناقة وفصيلها؛ حيث طلبوا منه أن يُخرج لهم ناقة عشراء من صخرة صماء، فأيّده الله بذلك، وأخرجها لهم من الصخرة بالمواصفات المطلوبة أمام أعينهم، ومع ذلك فقد أعرضوا عنها، ولم يؤمنوا بها، ونهاهم الله أن يقربوها، أو يمسوها بسوء، وكانت هذه الناقة تسرح في بلادهم، ولها شِرْبٌ، ولهم شِرْبُ يوم معلوم.

قال ابن عباس: كان في الناقة آيات: خروجها من الصخرة، ودُنوّ ولادتها عند خروجها، وعِظم خَلْقها، فلم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها؛ حيث كان يكفيهم جميعًا، ولكنهم لم يؤمنوا بها، فعقروها، وخالفوا أمر الله تعالى، ونزل بهم العذاب بعد أن أمهلهم الله تعالى ثلاثة أيام، وقال: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وكان السبب في عذابهم أنهم اختاروا طريق الضلال على طريق الهدى فكذبوا صالحًا وعقروا الناقة، وعتَوْا عن أمر ربهم، فعاجلهم الله بالعقوبة ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت].

وكانوا قد طلبوا العذاب من نبيهم صالح تكذيبًا له: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف].

وفي حديث ابن عمر ﵄ أن رسول الله ﷺ قال عن أصحاب الحِجْر: **«لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم ما أصابهم»**[1]. قال تعالى في وصفهم:

٨٢-٨٤- ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا[2] ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

أي وكان قوم ثمود يخافون من الخراب، ومن وقوع السقف أو الجبل عليهم، فينحتون الجبال وينقِّبونها، ويبنُون فيها بيوتًا من الحجارة محكمة؛ ليأمنوا على أنفسهم من الكوارث، والهدم، ومن نقب اللصوص، أو الأعداء، وهذا معنى ﴿بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ أي: تأمينًا لأنفسهم فيها، وكانوا ينحتون الجبال أيضًا من باب الرفاهية، والترف، والزينة، ويجعلون البيوت فارهة، عالية، مرتفعة كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء].

وكان قوم ثمود أهل حضارة زراعية، وصناعية، وعمرانية، كما قال تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشعراء]

وقال سبحانه: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾﴾ [الفجر] أي: قطعوا الصخر بنحته بيوتًا.

وهذه الحصون التي نحتوها في الجبال، لم تمنع نزول عذاب الله بهم، فما حمتْهم، ولا وقتْهم؛ ففي صباح اليوم الرابع بعد انتهاء الأيام الثلاثة التي أمهلهم الله إياها، وتوعَّدهم بها نبي الله صالح ﵇، وحدَّدها لهم؛ كي ينزل بهم عذاب الله بعدها، صاح بهم جبريل ﵇،

(١) البخاري (٤٣٣، وهذا لفظه ٣٣٨٠، ٣٣٨١، ٤٧٠٢) ومسلم (٢٩٨٠) والطبري (١٤/ ١٠٣).

(٢) قرأ ورش وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب بضم الباء من (بُيوتًا)، والباقون بكسرها وهما لغتان.

فارتجفت الأرض تحت أقدامهم، ونزلت بهم الصاعقة من فوقهم في الصباح الباكر، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧] وهي الطاغية التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحاقة].

- ثم إن هذه البيوت التي نحتوها في الصخور لم تدفع عنهم عذاب الله تعالى، ولم يمنعهم من هذا العذاب، ما أُوتوه من جاه وقوة، ومن بناء البيوت الواقية الحصينة، ومن الأموال النفيسة؛ بسبب ما اكتسبوه من الشرك، وخبائث الأعمال:

١- عن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ لما مرَّ بالحِجْر قال: **«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين، ثم قَنَّع رأسه، وأسرع السير، حتى أجاز الوادي»**[1].

٢- وعن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ لما نزل بالحِجْر في غزوة تبوك، أمرهم ألا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجنَّا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين، ويهريقوا ذلك الماء[2].

٣- وعن نافع عن ابن عمر أيضًا أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود (الحِجْر) فاسْتقوا من بئرها، واعتَجنُوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يَعْلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستسقوا من البئر التي كانت تردها الناقة[3].

٤- وروى البزار من طريق عبد الله بن قدامة عن أبي ذر ﷺ أنهم كانوا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، فأتوا على واد، فقال لهم النبي ﷺ: **«إنكم بواد ملعون، فأسرعوا، وقال: من اعتجن عجينة، أو طبخ قِدرًا فليكُبَّها»**. **ويؤخذ من هذا**:

(أ) البكاء عند دخول الديار التي أهلك الله أهلها.

(ب) الإسراع عند المرور بها حتى يتم تجاوزها.

(ج) عدم الشرب من مياهها، ولا استعمال مائها للأكل أو الشرب.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٤١٩) وهذا لفظه وانظر: حديث برقم (٤٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٠).
(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٧٨) و«صحيح مسلم» (٢٩٨١).
(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٧٩).

(د) عدم استعمال مائها في الطهارة ولا الوضوء؛ لأنه لا يصلح للأكل والشرب.

الْغَايَةُ الَّتِي خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ لِأَجْلِهَا

٨٥- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾

خلق الله ﷻ الخلق؛ ليعرفوه، فإذا عرفوه ﷻ أطاعوه، وعبدوه، وذكروه، وشكروه على نعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، وعلى آلائه العظيمة في هذا الكون الكبير، وقد أعد ﷻ الجنة لمن أطاعه، والنار لمن عصاه.

والله ﷻ لم يخلق الجن والإنس عبثًا، ولا لهوًا، ولا باطلًا، إنما خلقهما لهدف كبير، وغاية عظمى؛ هي عبادة الله تعالى في الدنيا، ثم يثيب الطائعين منهم، ويعاقب العاصين في الدار الآخرة؛ لإظهار الحق بين الناس، وقيام العدل والميزان بينهم يوم القيامة ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] ذلك ما يشير إليه قول الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ﴾

وفي آية ثانية: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ [ص: ٢٧]

وفي آية ثالثة: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨] بل فيهما دلالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه لا تنبغي العبادة إلا لله وحده، ويوم القيامة تُوَفَّى كل نفس بما عملت.

فقد خلق الله السموات والأرض وما فيهما، وما بينهما، من الكائنات والمخلوقات؛ لإظهار الحق، بإثابة المؤمن، وعقاب الكافر يوم القيامة، ولإقامة العدل والإنصاف بين المخلوقين.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌۖ﴾ حتى يظهر فيها للناس الحق الذي من أجله خلقهم الله تعالى في الدنيا، أي: وإن ساعة إعطاء كل ذي حق حقه، ومعاقبة كل ذي باطل على باطله، آتية لا ريب فيها، فمن فاته أخْذُ حقه في الدنيا، فسيأخذه في الآخرة وافيًا غير منقوص ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون].

وما دام هناك عدل وإنصاف، وقصاص من الظالم للمظلوم. ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ اصفح عمّنْ أساء إليك، واصفح عمّن آذاك صفحًا لا جزع ولا أذية فيه، ولا سخط.

والصفح الجميل: هو الذي يكون فيه عفو، وإحسان، وإعراض عن المسيئين، بل

ومقابلة الإساءة بالإحسان في القول والفعل.

وفي الآية تذييل لقصص الأمم المكذبة: بأن ما أصابهم من العذاب في الدنيا هو من الجزاء العادل،ومن فاته العذاب في الدنيا بإمهال الله تعالى له؛ فإنه لن يفلت من عقاب الله له في الآخرة، وهذا من الحق الذي خلق الله الكون لأجله.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: ٤٩].

وذكر السموات والأرض يشمل جميع الأمم التي على وجه الأرض، ويشمل الملائكة الموكَّلة بإنزال العذاب، ويشمل الكوارث والحوادث الكونية التي حلَّت بالأمم من الزلازل، والصواعق، وغيرهما.

وقد يتأخرظهور الحق بعض الوقت، ولكنه في النهاية يأتي لا محالة، فهو لا يتخلف، ولو غاب وتأخر، ولهذا أعقب الله سبحانه خلق السموات والأرض بمجيء الساعة، والساعة هي القيامة التي افتتحت بها السورة.

وجاء ذكر الصفح الجميل بعد الساعة؛ لأنه في معنى الجزاء على العمل.

قال تعالى: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩]

وقال: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ [الزخرف: ٨٩]. قال تعالى:

٨٦- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

والله ﷻ خلق الخلق وهو أعلم بهم، وأعلم بشؤونهم وما يصلحهم ،ويقيم أحوالهم؛ فهو الخلاق لكل شيء، العليم بأحوال عباده، وقد علم الله سبحانه أن الصفح عمن أساء أفضل الأمور لإصلاح الخلق.

وهو سبحانه لا يعجزه شيء، ولا يخفى عليه أمر في الأرض ولا في السماء، ومن علم الله تعالى بشؤون خلقه أنه يعلم ما في الصفح والإعراض عن الجاهلين، وما يترتب عليه من انتشار الدعوة، ونصْرِ الله تعالى لأوليائه، وخُذلان أعدائه، وهداية أصحاب القلوب القاسية، ودخول الناس في دين الله.

ولذا: فإن النبي ﷺ كان كثيرًا ما يقول عن الكفار: «**بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد وحده، لا يشرك به شيئًا**»[١].

وقد تحقق هذا في ذرية ثقيف، وغيرهم، وكان الرجل يأتي حربًا على الإسلام، فيقابل بالعفو والصفح الجميل، فيأتي غدا يقدِّم نفسه وماله فداء للإسلام.

السَّبْعُ الْمَثَانِي

٨٧- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

والله ﷻ يمنُّ على رسوله ﷺ بأنه أعطاه سورة الفاتحة، سبع آيات تتكرر في كل صلاة، وأعطاه القرآن العظيم كله، وأعطاه السبع الطوال في أول القرآن الكريم.

والسبع المثاني في أرجح الأقوال هي سورة الفاتحة، وسُمِّيت كذلك؛ لأنها تثنَّى وتُقرأ في كل ركعة من الصلاة، بخلاف التشهد، فإنه يقرأ في كل ركعتين، ويؤيد صحة هذا القول:

١- ما ثبت عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «**أم القرآن هي السبعُ المثاني، والقرآنُ العظيم**»[٢].

٢- وفي حديث أبي سعيد بن المعلى أيضًا قال: مرَّ بي النبي ﷺ وأنا أُصلِّي فدعاني، فلم آته حتى صليت، ثم أتيت، فقال: «**ما منعك أن تأتيني؟**» فقلت: كنت أصلي، فقال: «**ألم يقل الله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد» فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكَّرته فقال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[٣].

---

(١) من حديث طويل عن عائشة في البخاري برقم (٣٢٣١) وفي صحيح مسلم برقم (١٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٧٠٤) وانظر أبي داود والترمذي عن أبي هريرة في «صحيح سنن أبي داود» (١٣١) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٤٩٨).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٠٣)، والحديث في أبي داود (١٤٥٨) والنسائي (٩١٢) وفي الكبرى (٨٠١٠) والمسند (١٥٧٣٠) وابن ماجه (٣٧٨٥). و«أسباب النزول» للواحدي ص (١٨٩) و«زاد المسير» (٤/ ٤١٢) وغيرهم.

٣- وسورة الفاتحة: نصفها ثناء، ونصفها دعاء، عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: **«يقول الله تبارك وتعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل»**[١].

والفاتحة أعظم سورة في كتاب الله ﷻ، وقد نزلت مرة بمكة ومرة بالمدينة، وعلى هذا فلا يمنع أن يقال عنها مكية، أو مدنية.

ومما ورد في سبب نزول سورة الفاتحة في المرة الثانية بالمدينة: أن سبع قوافل وافتْ من بُصرى وأذرعات إلى يهود قريظة والنضير في يوم واحد، فيها أنواع من البزّ، والطِّيب، والجواهر، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوَّينا بها، وأنفقناها في سبيل الله، فأنزل الله هذه الآية وقال: أعطيتكم سبع آيات هي خير من القوافل السبع.[٢]

ويدل على صحة ذلك قوله تعالى بعدها: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١].

كما أن القرآن كله يقال له مثاني، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] حيث يثنِّي الله فيه الوعد والوعيد، ويثنِّي فيه الترغيب والترهيب، والبشرى والإنذار، ويعاد ذِكْرُ القصة فيه، وكذا ذكر الحُكْم، وذِكْرُ التشريع والنعم والأمثال؛ لأنه كتاب هداية وإرشاد للبشر.

فالمراد: آتيناك سورة الفاتحة، وسائر القرآن، وهو تعميم بعد تخصيص، أي: ولقد آتيناك أمرًا عظيمًا وفضلًا كبيرًا جامعًا لكمالات الكتب السماوية، ويهدي للتي هي أقوم، فلا تنظر - أيها المخاطب - إلى غيره من أمور الدنيا وزينتها التي متعنا بها أنواعًا من الناس.

ومما ورد في تفسير السبع المثاني أن المراد بها: السبع سور الطوال بعد سورة الفاتحة من أول القرآن، والسورة السابعة هي سورة الأنفال مع براءة، باعتبار أنه لا بسملة بينهما، وقال ابن جبير: بل السابعة يونس.

وقال ابن عباس ﷺ في السبع المثاني: هي السبع الطوال، ولم يعطهن أحد إلا النبي

(١) صحيح مسلم (٣٩٥) وأبي داود (٨٢١) والترمذي (٢٩٥٣) وابن ماجه (٨٣٨) والمسند (٧٨٣٦) وغيرهم.
(٢) البيهقي في «الشعب» (٢٤١٨) والطبري (١٤/ ١٠٩).

ﷺ وأعطى موسى منهن اثنتين[١]، وهذا قول مرجوح؛

لأن السبع الطوال نزلت بالمدينة ما عدا الأنعام، والأعراف، وسورة الفاتحة مكية، وقيل غير ذلك، والصحيح الأول، لدلالة صحيح السُنَّة عليه.

قال سفيان: المثاني: المئين؛ البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، وبراءة والأنفال سورة واحدة[٢].

أَرْبَعُ تَوْجِيهَاتٍ لِلدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

التوجيه الأول: عدم التطلع لما عند الآخرين

٨٨- ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

أي ولا تعجب وتتطلع إلى ما متعنا به أصنافًا من الناس، فيحملك هذا على إشغال فكرك بشهوات الدنيا والانصراف عن العمل للدار الآخرة، وعدم الاستغناء برزق الله تعالى عما متَّع به الآخرين؛ لأن من أوتي القرآن، والسبع المثاني لا ينبغي له أن يمتد بصره، أو يتطلع إلى ما أعطاه الله بعض خلقه من الأموال، والمتاع من أهل الثراء.

فلا تنظر بعينيك -أيها الرسول، وأيها الداعي إلى الله- إلى ما متعنا به أصنافًا من الخلق من مُتَع الدنيا من الأثرياء؛ فإن ما أعطيناك أشرف وأعظم مما متعنا به أصنافًا من الناس، ولا تحزن على كُفْرِ مَن كَفَرَ، وتواضع للمؤمنين بالله ورسله.

وهكذا، فالله ﷻ ينهى رسوله ﷺ، وينهى كل من أوتي القرآن، أو شيئًا منه، أن يعتقد أن الله ﷻ قد أعطى غيره خيرًا منه.

وفي حديث أبي بكر ﷺ أن من أُوتي القرآن، فرأى أن أحدًا أُوتي أفضل منه، فقد صغَّر عظيمًا، وعظَّم صغيرًا؛ أي: أنه استصغر ما عظَّمه الله ﷻ؛ فكل مال، وكل متاع أعطاه الله الإنسان هو شيء صغير بالنسبة إلى القرآن العظيم.

---

(١)، (٢) ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٤٦).

والله ﷻ يقول لرسوله ﷺ ليتأسّى به الخلق: لا تنظر إلى غيرك من أهل الثراء، ولا تشغل قلبك بالالتفات إليهم كما في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**انظروا إلى من هو أسفل منكم**» أي: في الغنى، والمال، والرزق، «**ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»[1].

وفي لفظ آخر عن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخَلْق، فلينظر إلى من هو أسفل منه، ممن فُضِّل عليه**»[2].

فعليك -أيها المسلم- أن تنظر إلى من هو أعلى منك في الطاعة والخُلُق؛ حتى تتأسى به وتقتدي.

وأن تنظر إلى من هو أقل منك في الرزق؛ لتستريح، وتحمد الله على رزقه، وتقنع بما آتاك.

قال عوف بن عبد الله بن عتبة: كنت أصحب الأغنياء، فما كان أحد أكثر منِّي هَمًّا، كنت أرى دابته خيرًا من دابتي، وثوبه خيرًا من ثوبي، فلما سمعت هذا الحديث، صحبتُ الفقراء، فاسترحت.

وجاء في أسباب النزول أن النبي ﷺ استضاف ضيفًا، ولم يكن عنده شيء، فأرسل إلى يهودي يقترض منه شيئًا من الدقيق، فامتنع اليهودي إلا برهْن، فعاد الرجل، وأخبر النبي ﷺ، فقال ﷺ: «**والله إني لأمين من في الأرض، وأمين من في السماء، ولئن أسلفني، أو باعني لأؤدينّ إليه**» فلما خرج أبو رافع من عند النبي ﷺ أنزل الله سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه][3]؛ يعزِّي رسوله ﷺ، ويبين له أن ما فيه هذا اليهودي من سعة في المال، هو فتنة، واستدراج له.

والله ﷻ يُعلِّم الإنسان أن لا يتطلع إلى غيره، وعليه أن يقْنع بما رزقه الله؛ ففيه الخير، وفيه المصلحة والفائدة التي يعلَمُها علام الغيوب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ [الشورى: ٢٧]

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٩٦٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٣) و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٩٠).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١/ ٣٣١) بإسناد ضعيف؛ لأن فيه موسى بن عبيدة.

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه].

ولا تغبطنَّ فاجرًا بنعمته؛ فإنك لا تدري ما هو لاقٍ بعد موته.

التوجيه الثاني: تبليغ الدعوة والنتائج على الله

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، ثم نهى الله نبيه عن الحزن على الكفار إذا امتنعوا عن قبول الإسلام، ويدل على ذلك كثير من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [النمل]، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨].

وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء]

فلا تهتم بعدم إيمانهم، ولا تحزن لكفرهم، ولا تُتعب نفسك في هذا.

التوجيه الثالث: الرفق في تبليغ الدعوة:

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يكون ليِّنًا مع أصحابه، رحيمًا بهم، ورؤوفًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

وهكذا: فإن الله ﷻ يوجه رسوله ﷺ أن يخفض جناحه للمؤمنين بالله ورسوله عن طريق المودة، والتراحم، والصداقة، والتعاطف، والأخوة، ولا ينبغي أن يكون هذا إلَّا بين المؤمنين.

وقد وصف الله سبحانه أصحاب محمد ﷺ بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩] فالذي يميل إلى الكافر، ويركن إليه، ويتخذه صديقًا، يفضي إليه بأسراره، ويتودد إليه ويتحبب، ويكون شديدًا في معاملته بالنسبة إلى المؤمنين فإن في إيمانه دَخَنًا ونقصًا، وعليه أن يصحح عقيدته، فيحب في الله، ويبغض في الله.

التَّوْجِيهُ الرَّابِعُ: تَبْلِيغُ الدَّعْوَةِ لِلْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ:

٨٩- ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ[1] أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾

ولمَّا أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالزهد في الدنيا، والتواضع للمؤمنين أمره بتبليغ الرسالة، والتمسك بالقدْر العظيم الذي وهبه الله له؛ ففيه هداية الناس إلى الإيمان بالله تعالى، وفيه تخويف العصاة بالعقاب الذي ينزل بهم إن لم يؤمنوا، فقل لهم يا محمد أنا النذير المبين الذي أرسله الله إليكم معلمًا وهاديًا للناس، ومخوِّفًا من لم يؤمن بالله سبحانه أن يصيبهم مثل ما أصاب مَنْ قبلهم من الشر والعذاب.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه، فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا، فانطلقوا على مُهْلَتهم، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئتُ به، ومثل من عصاني وكذَّب ما جئتُ به من الحق»**[2].

وهكذا: أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول للناس: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي ينذر الناس بعذاب الله إن لم يؤمنوا، ويبشرهم برضوانه وجنته إن أطاعوه.

يستوي في هذه الدعوة: الصغير والكبير، والقريب والبعيد، والغني والفقير، والحاكم والمحكوم، والعدوّ والصديق.

ففي حديث جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا، فجعل الجنادِبُ والفراش يقعْن فيها، وهو يذُبُّهنَّ عنها، وأنا آخذ بِحُجَزِكُم عن النار، وأنتم تفلَّتُون من يدي»**[3].

وفي هذه الآية يأمر الله تعالى نبيه أن يقول للناس: أنا النذير المبين، كما قال رسل الله قبله، وهكذا أنزل الله عليهم كما أنزل على المختلفين في حكمهم على القرآن، قال تعالى:

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إنيَ أنا)، والباقون بإسكانها.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٤٨٢) و (٧٢٨٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٨٣) وهذا لفظه.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٨٥).

المُقْتَسِمُونَ

٩٠، ٩١- ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾

أي مثلما أنزلنا على الذين تفرقوا في حكمهم على القرآن، فمنهم من قال سحر، ومنهم من قال شعر، ومنهم من قال كهانة، ليصدّوا الناس عن دين الله، فقد أنزلنا على اليهود والنصارى وغيرهم كتبًا فآمنوا ببعض ما فيها وكفروا ببعض.

أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس ﷺ: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، اليهود والنصارى[(١)].

روى ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس ﷺ: أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستَقْدُمُ عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجْمِعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا، فيكذِّب بعضكم بعضا، ويردَّ قولكم بعضه بعضًا.

فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس، فقل، وأقم لنا رأيًا نقول به، قال: بل أنتم قولوا لأسمع.

قالوا: نقول: كاهن، قال: ما هو بكاهن.

قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون.

قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر.

قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر.

قالوا: فماذا نقول: قال: والله إن لقوله حلاوة، فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر، فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيه: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾[(٢)].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٠٦) وعن أبي سعيد برقم (٤٧٠٥).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/٥٤٩) و«سيرة ابن هشام» (١/ ٢٧٠) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (١٨٣) والبيهقي في «الدلائل» أيضًا (٢/١٩٩).

وهم الذين قسَّموا القرآن، وجعلوه أقسامًا وأجزاء، فقال بعضهم: سحر، وقال بعضهم: كهانة وهكذا؛ ليصدوا الناس، ويصرفوهم عن سبيل الله.

فالمقتسمون: هم الذين قسَّموا القرآن فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه الآخر، وهم اليهود والنصارى وغيرهم من كل من تحالف على مخالفة الأنبياء، فكذَّبهم، وتآمر عليهم.

ومن أمة محمد ﷺ الذين اختلفوا في شأنه أيضًا، فوصفو النبي ﷺ بأنه ساحر أو شاعر أو كاهن، وتفرقوا في شأن القرآن، فقالوا عنه مثل ذلك.

وهؤلاء هم الذين اقتسموا الطرق المؤدية إلى مكة ومنافذها في موسم الحج ليمنعو القادمين إليها من الإيمان بمحمد ﷺ وينفروا الناس من سماع القرآن.

وهؤلاء هم الذين اقتسموا أوصاف القرآن أيضًا وتفننوا في تكذيبه.

فقد هدد ﷻ في هذه الآيات ونظائرها كل من حارب دعوة الإسلام، ووصف القرآن بأوصاف لا تليق به، فآمن ببعضه وكفر ببعض، أو أظهر بعضه وكتم بعض، كما فعل أهل الكتاب، أو صدَّ الناس عن الإيمان به واتباع هديه، أو شكَّك في الإسلام ورسول الإسلام، أو وصف القرآن بالأساطير، أو السحر، أو الكهانة، أو بأنه لا يصلح لعالم اليوم، أو أن محمدًا ﷺ أُرسل إلى العرب خاصة، أو استهزأ بالقرآن وصاحب الرسالة، وسخر من دعوته، فأنذَر ﷻ كل من اتصف بشيء من ذلك بعذاب شديد:

والمعنى: أُنذركم -أيها الناس- إن خرجتم عن منهج الله عذابًا، كعذاب أنزلناه بالمقتسمين.

وقد ذمَّ الله سبحانه المشبَّه بهم، وهم المقتسمون، وهذا يقتضي ذم المشبَّهين، وهم مَنْ أُنذروا بالقرآن مِنَ العصاة المخالفين المذكورين في الآية قبلها ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾، أو هم من نزل عليهم القرآن، فتلقوه بالرد والتكذيب.

أي: أنزلنا عليك - يا محمد - القرآن، كما أنزلنا التوراة والإنجيل على المقتسمين، وهم الذين قسَّموا القرآن، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعض من اليهود والنصارى، أو قسَّموا كتاب التوراة، وكتاب الإنجيل؛ فأظهروا بعضه، وكتموا بعضه.

ويدخل في معنى الآية أيضًا الذين تقاسموا، وتآمروا على قتل نبي الله صالح ﷺ، وأقسموا بالله لنبيِّتنَّه وأهله، أي: يقتلون صالحًا، ويعقرون ناقته، وكل ما ماثل ذلك من كل من تآمر، وتحالف على رسل الله.

فالمراد بالمقتسمين في قول ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة: هم اليهود، والنصارى، وقال عكرمة: هم كفار قريش، وأمثالهم من كل مكذِّب للقرآن.

وعلى هذا فإن للمقتسمين معنيان:

المعنى الأول على قول عكرمة: أنّ الذين جعلوا القرآن عضين، هم الذين تقاسموا القول فيه، فوصفوه بأنه سحر، أو شعر، أو كهانة، أو أساطير الأولين.

ووصفوا النبي ﷺ بأنه ساحر، أو شاعر، أو كاهن؛ ليصدوا الناس، ويصرفوهم عن الإيمان به.

سبب التسمية: ورد أن الوليد بن المغيرة اختار ستة عشر رجلًا من كفار قريش، وأمرهم أن يقفوا في مداخل مكة، ويقتسموا الطرق المؤدية إليها في موسم الحج؛ ليمنعوا القادمين إلى مكة من الإيمان بمحمد ﷺ، وينفِّروا الناس منه، ويصدوهم عن سبيل الله.

وسُمُّوا مقتسمين؛ لأنهم قسَّموا طُرق ومنافذ مكة، واقتسموا أوصاف النبي ﷺ، وأوصاف القرآن، فقال بعضهم: إنه سحر، وقال بعضهم: إنه شعر وهكذا يقولون للناس: لا تغتروا بهذا الخارج علينا، أي: لا تغتروا بمحمد، وبما يقول، ولا تصدقوه؛ فإنه ساحر كذَّاب، يقول أساطير الأولين.

وهؤلاء المقتسمون يعذبهم الله يوم لقائه بعد أن انتقم منهم، وأهلكهم في الدنيا، وهكذا يفعل الله بكل من كذَّب بالقرآن، ورسول الإسلام فيعذبهم يوم لقاء ربهم.

وهؤلاء الستة عشر رجلًا هم:

١- حنظلة بن أبي سفيان.
٢- وعتبة بن ربيعة.
٣- وأخوه شيبة.
٤- والوليد بن المغيرة.
٥- وأبو جهل بن هشام.
٦- وأخوه العاص.
٧- وأبو قيس بن الوليد.
٨- وقيس بن الفاكهة.
٩- وزهير بن أمية.
١٠- وهلال بن عبد الأسود.

١١- والسائب بن صيفي.	١٢- والنضر بن الحارث.
١٣- وأبو البختري بن هشام.	١٤- وزمعة بن الحجاج.
١٥- وأمية بن خلف.	١٦- وأوس بن المغيرة[1].

هؤلاء جميعًا أهلكهم الله ﷻ في وقت سريع.

المعنى الآخر للمقتسمين: على قول ابن عباس ومن معه، أنّ الذين جعلوا القرآن عضين، هم اليهود والنصارى، الذين آمنوا ببعض القرآن فصدقوه، وقالوا: هذا حق؛ لأنه موافق للتوراة، والإنجيل، وكفروا بما هو مخالف للتوراة والإنجيل، فآمنوا ببعض، وكفروا ببعض؛ بدليل الفِرَق الكثيرة من النصارى، ومن اليهود، ومنهم من آمن ببعض كتبهم، ومنهم من كفر، ومنهم من آمن ببعض القرآن، وكفر بما يُبشر بمجيء محمد ﷺ، وبعْثه إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]. قال تعالى:

٩٢، ٩٣- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

ثم أقسم سبحانه بذاته العلية أنه سيحاسبهم يوم القيامة، ويَجزيهم على افترائهم على القرآن، وتكذيبهم خاتم المرسلين، ويجزيهم على ما كانوا يعملونه من عبادة غير الله تعالى، ومن فعل المعاصي والآثام، سيحاسبهم ويجازيهم واحدًا واحدًا. ويحاسب اليهود، والنصارى، ويجازيهم على تحريفهم لكتبهم، وعلى تكذيبهم للقرآن؛ فلنسألنَّ الكافر، والعاصي، والمشرك، وغيرهم، وفي هذا ترهيب وزجر لهم عن إقامتهم على الكفر بمحمد ﷺ، وعلى ارتكاب الذنوب، والموبقات.

ويوم القيامة يوم طويل، تختلف فيه الأحوال، فهناك من يُسأل، وهناك من لا يُسأل، ويكون السؤال في مواطن دون مواطن، وعن أمور دون أمور، وتختلف نوعية السؤال، فمنه ما يكون عن شكر النعم، ومنه ما يكون للتقريع والتوبيخ، ومن المخلوقات من يُلْقى به في جهنم دون سؤال، فذنبه عظيم، وحِملُه ثقيل، قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٤/ ٨٦).

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر].

وقال أيضًا: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف]

وهو سؤال توبيخ، وتبكيت عما ارتكبوه من أقوال فاسدة، وأعمال قبيحة.

وهناك من يُحاسَب حسابًا يسيرًا، ومن يُحاسَب حسابًا عسيرًا، ومن يُفضَح على رءوس الأشهاد.

فالمواقف تختلف يوم القيامة، من السؤال وعدم السؤال، ويُسْر الحساب وعسره.

الْأَمْرُ بِالْجَهْرِ بِالدَّعْوَةِ وَعَدَمِ الْخَوْفِ مِنَ الْمُسْتَهْزِئِينَ

٩٤- ﴿فَٱصْدَعْ[1] بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾

في هذا أمر لرسول الله ﷺ أن يجهر بالدعوة، ولا يبالي بمن يعرقلون دعوته، أمثال المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين.

وفي بدء الدعوة ظل النبي ﷺ متخفِّيًا من الكفار والمشركين مدة ثلاث سنوات، يصلي سرًّا، ويدعو الناس إلى ربه سرًّا، حتى أمره الله ﷻ أن يجهر بالدعوة، ويجهر بصلاته، وأن لا يبالي بالمشركين والمستهزئين، فإن الله تعالى قد كفاه إياهم، وقال له: اجهر بدعوة الحق التي أمرك الله بها؛ فإن في صدْعك بالدعوة تصديعًا لبنيان المشركين، وهدمًا لعقيدتهم، وتفريقًا بين الحق والباطل، وبلِّغ ما أمرناك بتبليغه علانية، ولا تهتم بالمشركين، ولا تبالِ بهم؛ فإن الله قد برأك مما يقولون، ولا تخف أحدًا غير الله؛ فإنه كافيك وحافظك.

وقد نزلت هذه الآية في السنة الرابعة من البعثة، والنبي ﷺ مختفٍ في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: ما زال النبي ﷺ مستخفيًا حتى نزلت ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس بخلف عنه بإشمام الصاد صوت الزاي من (فاصدع)، والباقون بالصاد الخالصة وهما لغتان.

﴿وَأَعْرِضْ﴾ فخرج هو وأصحابه[١].

وكانت فترة الدعوة السرية قد بدأت بعد نزول سورة المدثر، وكان من أسلم من الناس إذا أراد أن يصلي، يذهب إلى شِعْب من الشعاب، يستخفي بصلاته من المشركين.

وكان المشركون يستهزئون بهم، ويعيبون عليهم، فحدث تضارب بينهم وبين سعد بن أبي وقاص؛ حيث أدمى فيه (سعد) رجلًا من المشركين، وبعدها دخل النبي ﷺ وأصحابه دار الأرقم، وكانت عند الصفا، واستمروا على ذلك نحو ثلاث سنوات، ثم نزلت هذه الآية، فخرج ﷺ من دار الأرقم بن أبي الأرقم، وأعلن الجهر بالدعوة.

ولما أسلم حمزة بن عبد المطلب، اعتزَّ به المسلمون، ولم يبقَ من أذى المشركين إلا الاستهزاء.

ثم أسلم عمر بن الخطاب فخشيه سفهاء المشركين، وكان إسلامه سنة خمس من البعثة.

انْتِقَامُ اللهِ تَعَالَى مِمَّنْ يَسْتَهْزِئُ بِرَسُولِهِ ﷺ:

٩٥، ٩٦- ﴿إِنَّا كَفَيْنَكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ[٢] ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

هذا وعد من الله تعالى لرسوله أن يكفيه شر المستهزئين وألا يناله منهم أذى، فقد بشر الله سبحانه نبيه ﷺ بأنه سيهلك المستهزئين الساخرين به في عصره، وفي سائر العصور بعده.

أما في عصره ﷺ فقد ورد عن عليٍّ، وعكرمة، وقتادة: أن هؤلاء المستهزئين كانوا خمسة من زعماء قريش، وصناديد الكفر: هم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس[٣].

وهؤلاء الخمسة كانوا يغالون، ويبالغون في الإيذاء لرسول الله ﷺ.

وزاد في رواية ابن عباس ثلاثة هم: الحارث بن عدي، وعبد العزى بن قصيٍّ، وأبو زمعة[٤].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٤/ ٤٧).

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (المستهزئين) وصلًا ووقفًا، ولحمزة وقفًا التسهيل والحذف.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٣٧٥) و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٥٢) وابن مردويه كما في تخريج «الكشاف» (٢/ ٢٢١).

(٤) كما في «تفسير الطبري» (١٤/ ١٥٣).

وقد بشر الله تعالى رسوله ﷺ حين أمره بالجهر بالدعوة، أنه سيكفيه أمر هؤلاء المستهزئين به ويحفظه من شرهم، وقد حقق الله وعده وأهلكهم، فماتوا كلهم متأثرين بعلَّة في كل واحد منهم، كما جاء عن قتادة، ومِقْسَم مولى ابن عباس قالا:

١- إن الوليد مرَّ برجل نبَّال من خزاعة، يرمي سهامًا، فعَلِق بثوبه سهم، فقطع عِرْقًا من رجله، فمات بسببه.

٢- والعاص بن وائل جاءته شوكة في أخمص قدمه، فانتفخت قدمه وورمت، حتى صارت كعنُق البعير، فمات بأثرها.

٣- وعَمِي الأسود بن المطلب، قام من الليل وهو ظمآن فلم يزل يشرب من جرَّة حتى انفتق بطنه فمات، وكان يقول بعد أن عَمِي: دعا عليَّ محمد فاستُجيب له.

٤- أما الأسود بن يغوث، فأخذ ينطح رأسه في الشجرة، ويضرب وجهه بالسوط من وجع عينيه حتى مات.

٥- والحارث بن قيس امتخط قيحًا، وامتلأ بطنه ماء فمات منه.

٦- وأما عدي بن قيس فقد لدغته حية فمات.

وكانت هذه الآفات تحدُث بكل واحد فيهم، بعد أن يسأل جبريلُ النبيَّ ﷺ عن حاله، فيقول: «بئس فلان»، فيقول جبريل: قد كُفِيْته، ويشير إلى الموضع الذي كان سببًا في موته من جسده، فأشار جبريل إلى ساق الوليد، وإلى أخمص العاص، وإلى عيْن الأسود، وإلى رأس ابن يغوث، وإلى بطن الحارث، وذلك بعد أن مرَّ كل واحد من هؤلاء الخمسة، والرسول يشير إليه، فيشير إليه جبريل، معيِّنًا الموضع الذي سيموت به[1].

أخرج البزار والطبراني عن أنس بن مالك ﷺ قال: مرَّ النبي ﷺ على أناس بمكة فجعلوا يغمزون في قفاه ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي، ومعه جبريل، فغمزهم جبريل بأصبعه، فوقع مثل الظفر في أجسادهم، فصارت قروحًا، حتى نتنوا، فلم يستطع أحد أن

---

(١) يُنظَر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٠٩) و«تفسير الطبري» (١٤/ ٨٤) و«تفسير ابن عطية» (٣/ ٣٧٥) وعبد الرزاق (١/ ٣٥١) والطبري (١٤/ ١٥٠).

يدنو منهم، فأنزل الله ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾[1].

وكفاية المستهزئين أمر قائم إلى يوم الساعة، فكل من يستهزئ بالإسلام، أو يستخف بالقرآن، أو برسول الإسلام، فإن الله سبحانه كافٍ رسوله، وكافٍ المسلمين، والدعاةُ إلى الله من شره، دون تكلف ولا مشقة من النبي ﷺ، ولا ممن يحمل لواء الدعوة إلى الله في كل زمان ومكان، وهكذا يفعل الله بمن استهزأ برسوله ﷺ من أهل الدنمارك والكيان الصهيوني وأمثالهم وقت كتابة هذه السطورفي العام التاسع والعشرين بعد الأربع مئة والألف من تاريخ هجرة النبي ﷺ.

أي: فلا تلتفت - أيها الرسول - إلى الذين يصدونك عن سبيلك، وبلِّغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تخف من شيء؛ فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وبالنسبة لأهل الكتاب فقد قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

ومن كان الله كافيه فلا عليه من البشر؛ فإن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك.

والآيات تَصْدُقُ على الدعاةِ إلى الله تعالى في كل زمان ومكان بعد موت النبي ﷺ.

ثم وصف الله المستهزئين فبيَّن أنهم لا يستهزئون بك فقط يا رسول الله، إنهم قد فعلوا أكبر من ذلك مع ربهم وخالقهم، فلم يوحِّدوه، ولم يقدِّروه حق قدره، إنهم يجعلون مع الله إلهًا آخر، فأشركوا معه الأوثان وغيرها ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ آيه: ٩٦ وسوف يعلمون عاقبة عملهم في الدنيا والآخرة، فالله سبحانه يتوعدهم ويتهددهم بالعذاب على شركهم وكفرهم به سبحانه ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧].

---

(١) يُنظَر: «مسند البزار» برقم (٢٢٢٢) «كشف الأستار»، قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤٦) فيه يزيد بن درهم ضعَّفه ابن معين، ووثَّقه الفلاس، ويُنظَر: «أسباب النزول» للنيسابوري (٢٣٣) و«تفسير ابن الجوزي» (٤/ ٤١٢).

عِلاجُ الضِّيقِ وَالاكْتِئَابِ

٩٧، ٩٨- ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

ولا شك أن النبي ﷺ، وكل داعية إلى الله تعالى يتأثر، وينقبض صدره مما يقوله المكذبون، والله سبحانه يعلم ذلك، فلا يثنيك ذلك - أيها الرسول - عن تبليغ الرسالة؛ فإن الله كافيك وناصرك، والرسول بشر يَضيق صدره من أقوالهم، ومن استهزائهم، و كُفرهم وطعنهم في القرآن.

وقد جاء هذا المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

وقد أمر الله رسوله بالثبات والتفويض إلى ربه؛ لأن حكمة الله تعالى تقتضي إمهالهم، قال تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [المزمل].

وقد أمر الله رسوله أن يفزع إلى ربه إذا ضاق صدره، ويسبح بحمده شاكرًا له، مثنيًا عليه، وأن يكون من المصلين لله، العابدين له؛ فإن ذلك يكفيه ما همَّه وغمه، ففي ذلك العلاج النافع لضيق الصدر.

وهو علاج لكل مسلم، إذا ضاق صدره وحزن، أو اهتم، أو اغتم، أوأصابته كآبة، فعليه أن يتجه إلى الله ﷻ، ويفزع إليه بالصلاة والإكثار من التسبيح والتحميد، وأن يكون من الساجدين، والسجود لا يكون إلا في الصلاة وتلاوة القرآن.

والله سبحانه لم يأمر رسوله ﷺ بجمع الأموال، ولا بالتجارة، وإنما أمرَه بالتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، والعبادة.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، ولنا فيه ﷺ أسوة حسنة، فإذاضاق الإنسان لسبب من الأسباب، فعليه أن يستغرق في التسبيح، والتحميد، والتهليل،

والتكبير؛ ففي ذلك تفريج الكروب، وإزالة الهموم.

وفي الصلاة تخفيف الأحزان، وخشوع القلب، وطمأنينة النفس، بحيث يذهب عن العبد ما به من الهم والغم، وفي هذا علاج نفسي يفوق الأدوية والعقاقير التي يصفها الأطباء النفسيّون لمرضاهم، وليس فيها مضار ولا إدمان، ولا محاذير ولا تكاليف مادية.

وقد اشتملت هذه الآية على **أمرين**:

أحدهما: التخلي عن الرذائل، والتنزه عن كل ما لا يليق، وهذا معنى التسبيح.

وثانيهما: التحلي بالفضائل، والاتصاف بكل صفات الكمال، وهذا هو معنى الحمد.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[1].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**»[2].

فينبغي على المسلم إذا أصابه مكروه أن يفزع إلى الله تعالى بأنواع الطاعات من صلاة، وتسبيح، وتحميد، وغير ذلك من ألوان العبادة؛ حتى يفرج الله كربه، وهمّه وغمه، ويسدد دينه، ويوسع عليه رزقه، ففي هذا أفضل عيادة نفسية.

وفي الحديث القدسي عن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى يقول: يابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره**»[3].

ولذلك فإن النبي ﷺ لما فتح الله عليه الفتوحات، والغزوات، وكان عنده الإماء، والعبيد، والأموال، جاءته ابنته، وحبيبته، وقرة عينه، فاطمة ﷺ، تطلب منه أن يعطيها خادمًا يخفف عنها تعب الرَّحَى التي تديرها وهي تطحن الحبوب، والماء الذي تنقله إلى بيتها هي وزوجها عليٌّ ﷺ، فقد مجلت يداه، وهو يعمل عند يهودي يومًا كاملًا مقابل تمرة، ونحوها.

(١) عن أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٦٤٠٦، ٦٦٨٢، ٧٥٦٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٤٨٢).

(٣) «المسند» (٥/ ٢٨٦) برقم (٢٧٤٨٠) قال محققوه: صحيح لغيره وله شاهد صحيح من حديث عقبة بن عامر برقم (١٧٣٩٠) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ٢٣٦) أخرجه أحمد ورجاله ثقات، وهو في «سنن أبي داود» برقم (١٢٨٩) و«فتح الباري» (٨/ ٣٨٣).

فكان من الرسول ﷺ أنه لم يواسِ ابنته ﵂، ولم يجاملها، ولم يقل لها: خذي هذا الخادم، وإنما أرشدها هي وعليًّا ﵁، إلى كثرة التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير، وأرشدهما إلى الاستغراق في الطاعة والعبادة، وذِكْر الله تعالى وشكره، ففي هذا غِنًى عما طلباه، وفيه تفريج لما هُما فيه، وتعليم وتربية، ودرس مستفاد للحكام والمسؤولين؛ فالقرآن الكريم يربي أبناءه على أن يسبحوا بحمد ربهم، ويكونوا من الساجدين.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

حُسْنُ الْخَاتِمَةِ

٩٩- ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

وداوِمْ -أيها المخاطب- على العبادة طول حياتك حتى يأتيك الموت، واليقين هو الموت، ولا يشك أحد في الموت: الكافر، والمسلم، والمنافق، وجميع الخلق، من كان منهم يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن كان لا يؤمن؛ إذ ليس في إمكانه أن ينكر الموت؛ أو يهرب منه فإنه حقيقة واقعية، ويقين قائم بين أعين الناس، ولذا سماه القرآن: اليقين.

قال تعالى آمرًا كل مسلم بتقوى الله تعالى، والاستمرار عليها حتى الموت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران]

أي: استمروا أيها المسلمون على الطاعة، والعبادة حتى تموتوا.

دخل النبي ﷺ على عثمان بن مظعون ﵁، وقد مات، فقال: **«أما هو فقد جاءه اليقين، وإني لأرجو له الخير»**[1] أي: عند رب العالمين.

فسمَّى النبي ﷺ الموتَ يقينًا؛ لأن العلم به أمر يقيني لا يمتري فيه عاقل.

وأخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة قال: ﴿ٱلْيَقِينُ﴾ الموت.

وأحوال الناس مختلفة فكم من أناس قد ماتوا فجأة في حوادث المواصلات، وتحت الأنقاض، ومنهم من يموت على فراشه، وفي حروب وقتال، وفي زلازل وحرائق، ونحوها.

(١) يُنظَر: البخاري برقم (١٢٤٣، ٢٦٨٧، ٧٠١٨) والطبري (١٤/١٥٦).

وأعظم ما يفعله المسلم ، أن يتوب إلى الله ﷻ،قبل أن يفاجئه الموت، وما منا من أحد إلا وفيه جانب تقصير:

فمن الناس من يأتي المسجد يوم الجمعة فقط، ويصلي الأوقات في بيته.

ومنهم من لا يصلي أبدًا، ومنهم من يأتي إلى المسجد أحيانًا.

ومن الناس من يصلي في رمضان، فإذا ذهب رمضان أخذ إجازة من المسجد.

ومن الناس من يرتكب المعاصي والمآثم صباح مساء كأنه فاقد الإحساس والضمير.

وهكذا: فالذنوب كثيرة، وحياة الإنسان فرصة عظيمة؛ لتحصيل المغفرة، والرحمة، والرضوان.

والشقيُّ من حُرم الخير، فأبعده الله من رحمته، والسعيد من يغتنم أوقات النفحات والأيام المباركة، فيُقبل على الله ﷻ ويتوب، ويجدد علاقته بربه، فيقلع عَمَّا هو فيه من الخطايا.

فكم من أناس كانوا لا يعتادون الصلاة مع الجماعة في المسجد، وكان شهر رمضان هو السبب في بداية الطريق إلى الله، صلوا في المسجد يومًا، ثم استمَعوا إلى حديث أو آية، وقعتْ في قلوبهم، وتأثروا بها، ثم حافظوا طول عمرهم على صلاة الجماعة، فكان ذلك فاتحة خير وتوبة.

وكم من أناس أقلعوا عن المعاصي بسبب نصيحة، أو صُحبة لصديق صالح.

عرفتُ كثيرًا ممن أقلع عن التدخين بمجرد انتهاء شهر رمضان، وكان إيمانهم أقوى من أن تتحكم فيهم هذه العادة، فهم يحْرقون دينهم، وأموالهم، وصحتهم؛ بسبب التدخين، فكان شهر رمضان فاتحة خير لهم.

ومن مرتكبي الكبائر من يتوب إلى الله تعالى، ويقلع عن الذنوب، ولا يعود إليها؛ بسبب موعظة أثَّرت في نفسه وهكذا.

ولذا: فإنه يجب عليك -أيها المسلم- أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؛ فإنك لن تُحرم الأجر من جهة، ولن تَعدِم من ينتفع بأمرك ونهيك من جهة أخرى.

هناك أقوام لا يعرفون المسجد حتى يوم الجمعة، وقلوبهم لا تتسع إلى خمس دقائق للجلوس في بيت الله، أو الاستماع إلى آيات من القرآن، أو إلى موعظة حسنة، مع أن

بعضهم يجلس الساعات الطوال مشاهدًا للمنكرات والمعاصي، أو متابعًا لكرة القدم، أو لفيلم، أو مسلسل، أو مسرحية، أو سهرة غنائية .

ومنهم من يقطع الساعات الطوال في قراءة روايات، أو قصص بوليسية خرافية، أو غرامية، كتبها منحرفون علمانيون، أو يقطع الساعات في قراءة كتب مترجمة لكتَّاب غربيين، أو متأثرين بما يكتبه الغربيون، ولكنه لا يقضي بضع دقائق مع كتاب الله تعالى، ولا سنة رسول الله ﷺ.

فهو يعرف من تراجم الرياضيين، والمطربات، والممثلات ما لا يعرفه عن الصحابة والصحابيات.

فهل مِثْل هؤلاء قضوا أعمارهم في طاعة الله ﷻ حتى جاءهم اليقين؟ أو أنهم قضوه مع الشيطان في الغواية والضلال، واستمروه في اللهو، واللعب، والمجون.

وعمر الإنسان هو رأس ماله، فإما أن يستثمر رأس المال هذا في الربح مع الله تعالى، أو يخسر حياته مع الشيطان والهوى.

لقد امتثل الرسول ﷺ أمر ربه ﷻ، فلم يزل دائبًا في عبادته حتى جاءه الموت، وهكذا كل مسلم يجب عليه أن يستمر على طاعته تعالى فهو لا يدري متى يأتيه الموت؟

وحُسن الخاتمة من علامات السعادة، والصلاة جواز السفر إلى دار النعيم، ولذا فإنه إذا كان يوم القيامة يُسأل المجرمون عن سبب عذابهم في النار، فيكون الجواب الأول ترك الصلاة في الدنيا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر].

ولأهمية الصلاة في الإسلام فإنها لا تسقط عن العبد في حال الصحة والمرض، والأمن والخوف، والسلم والحرب، والسفر والحضر، وفي سائر الأحوال، ما لم يفقد الإنسان وعْيه وعقله، ففي حديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب»**[1].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١١١٧).

تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّحْلِ (١٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة النحل هي السورة السادسة عشرة في ترتيب المصحف، والثانية والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة، وهي ألفان وثمان مئة وأربعون كلمة، وسبعة آلاف وسبع مئة وسبعة حروف.

وآيات السورة ثمان وعشرون ومئة آية بلا خلاف.

وهي مشهورة باسم سورة النحل، ويقال لها: سورة النِّعَم.

وسورة النحل من آخر ما نزل على رسول الله ﷺ في مكة بعد الهجرة إلى الحبشة، أي: في آخر العهد المكي، بعدما احتدم العراك بين المؤمنين والمشركين، وطال الأمد، ولم يظفر المؤمنون بنصر، ولم ينزل بالمشركين قاصمةُ الظهر، وكان المشركون يقولون للمؤمنين: أين ما تعدوننا به؟ فيقولون لهم: إن غدًا لناظره قريب.

والآيات الثلاث الأخيرة من السورة قيل: إنها نزلت في المدينة بعدما انصرف النبي ﷺ من غزوة أُحُد بعد مقتل حمزة عم رسول الله ﷺ وهي قوله تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [١٢٦] وما بعدها، والأصح أنها مكية.

وقال قتادة، وجابر بن زيد: إن الآيات من ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إلى آخر السورة، مدنية.

وقد ورد في أسباب النزول: أنه لما نزل قول الله سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر] قال المشركون لبعضهم: أمسكوا وكفوا عما أنتم عليه حتى ننظر، فإن محمدًا يخبر أن الساعة قد اقتربت، فلما لم يروا شيئًا قالوا: يا محمد، ما نرى شيئًا، فأنزل الله سبحانه ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء] فأشفقوا وانتظروا، وامتدت بهم الأيام، ولم يروا شيئًا ينزل بهم، ولم تقم الساعة، فقالوا: يا محمد، لم نر شيئًا مما تخوفنا به، فأنزل الله سبحانه ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فوثب رسول الله ﷺ، ورفع الناس رؤوسهم، فنزل ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنوا فقال ﷺ: **«بعثت أنا والساعة**

كهاتين» وأشار بالسبابة والتي تليها[١].

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب، مثل الترس، فما تزال ترفع في السماء، ثم ينادي منادٍ فيها: ياأيها الناس، فيُقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية ويقول مثل الأولى، ثم ينادي الثالثة: ياأيها الناس** ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ قال رسول الله ﷺ: فوالذي نفسي بيده، إن الرجلين لَينشُران الثوب فما يطويانه أبدًا، وإن الرجل ليمدنَّ حوضه فما يسقى فيه شيئًا أبدًا، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبدًا»[٢].

وسورة النحل كسائر السور المكية تعالج قضية العقيدة والوحدانية، والرسالة واليوم الآخر

أ- فتقيم العديد من دلائل القدرة على وحدانية الله تعالى في هذا الكون الفسيح من السموات والأرض، والبحار والجبال، والسهول والوديان، والماء النازل من السماء، والنبات الخارج من الأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنُجوم والكواكب، والفلك التي تجري في البحر بأمر الله.

وتبدأ السورة هذا الحشد الهائل من الكائنات بخلق الإنسان، النموذج المصغر لهذا الكون، وتُقْرِن بدايته بمصيره ونهايته.

وتثنِّي بخلق الأنعام من: الإبل، والبقر، والغنم، ومن الخيل والبغال والحمير، وتذكر بعض منافعها، وكيف أن الله تعالى سخرها للإنسان.

وهذه الوسائل للتنقل والمواصلات مشاهد حية ماثلة أمام أعين مَن نزل عليهم القرآن.

ثم تُقرن إلى جوار ذلك ما يجدُّ في العالم من وسائل المواصلات المختلفة مما يظهر في حينه.

---

(١) كما في «أسباب النزول» للواحدي (١٥٩) بدون سند، ورواه ابن جرير عن ابن جريج (١٤/ ٧٥) و«زاد المسير» (٤/ ٤٢٦). والحديث في البخاري (٦٥٠٣) ومسلم (٢٩٥٠)

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٣٩) وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ٣٢٥) برقم (٨٩٩) وقال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٨٢): رواه الطبراني بإسناد جيد ورواته ثقات مشهورون، وكلاهما عن يحيى بن آدم قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٣١): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله مولى المغيرة، وهو ثقة.

وتُعرِّج السورة على خلق العقل في الإنسان، واستعداده -للخير والشر، والهدى والضلال، وأن الله تعالى قد ترك الإنسان لإرادته واختياره، ولو شاء لقصره على الطاعة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الآية ٩].

ولم تهمل السورة خلق المعادن والجواهر من الأرض، والأسماك واللؤلؤ والمرجان من البحار.

وبعد استعراض آيات الخلق، وآثار القدرة التي في أوائل السورة يقول سبحانه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [١٧].

وكلها ألوان متعددة من النعم يألفها الإنسان، ولا يشعر بها إلا إذا افتقدها ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [الآية ١٨]

ثم يعقِّب سبحانه على ذلك بقوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [٢٢].

ولذا: فإن هذه السورة تُسَمَّى سورة النِّعَم؛ لكثرة ما فيها من تعداد نِعَم الله تعالى على خلقه، كما قال قتادة، فقد ذكرتْ في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها.

ومع كثرة الأدلة على تفرد الله تعالى بالإلهية، تُظهر السورة شناعة الشرك وفساده، وتُبيِّن مصير أهله المحتوم، وتضرب لهم كثيرًا من الأمثلة في السورة ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [٧٥].

ب- وتتناول السورة القضية الثانية من قضايا القرآن المكي، فتقيم الأدلة على إثبات رسالة محمد ﷺ وصدق القرآن، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [١١٣].

وقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [٢].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ [٣].

وتبيِّن السورة وظيفة الرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [٣٦].

وتبيِّن أن رسالة محمد ﷺ قامت على أصول ملة إبراهيم ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ

إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [١٢].

جـ- وتُثبت السورة البعث، والحساب، والجزاء في بدايتها ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [١] وفي أثنائها ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [٨٤] وفي الآية الأخرى ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [٨٩] وتثبتها أيضًا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [١١]

وهذا الأخير هو القضية الثالثة من قضايا القرآن المكي في السورة، وهي الإيمان باليوم الآخر.

وأغلب آيات السورة تتحدث عن أمرين:

الأمر الأول: الحديث عن الوحي الذي تنزلت به الملائكة، وبيان موقف الناس منه، وأن منهم من أقرَّ به، ومنهم من أنكره، فهم فريقان:

١ - فريق ضال في نفسه مضل لغيره، وهؤلاء وِزْرهم مضاعف، فهم يحملون أوزارهم يوم القيامة، ويحملون أوزار من أضلوهم بغير علم؛ فإن من دعا إلى ضلالة كان عليه من الآثام مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا.

ومثَلُهم في ذلك مثَلُ إنسان ألَّف كتابًا في الإلحاد والكفر، وهو يظن أن جريمته قد انتهت بصدور الكتاب، ولكنه لا يدري أن له رصيدًا مفتوحًا إلى قيام الساعة، يضيف إلى جريمته كل من انخدع بقوله، واتبع إلحاده وكفره ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [٢٥] أما أتباعه الذين قلَّدوه فهم مجزيُّون على غفلتهم، وكان عليهم ألا يُساقوا كالأنعام.

وهؤلاء هم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الآية ٢٨]

وهذا الفريق من الناس هم الذين يُسوُّون بين من يخلق ومن لا يخلق، ويصفُون القرآن بأنه أساطير الأولين.

وهم الذين يقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [الآية ٣٥].

وهم الذين مكروا السيئات، وقالوا بتعدُّد الآلهة، ونسبوا الولد لله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الآية] ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [الآية ٦٢].

وهم الذين يثيرون الشبهات حول رسول الإسلام، فيقولون عنه: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [الآية ١٠٣].

وهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٨٨]

وهم الذين جحدوا نعم الله عليهم ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

وقد هددهم الله سبحانه بما يبعث الرعب في القلوب، ويدعو إلى التأمل في الملكوت، فلعل هذا التأمل يكون سببًا في هدايتهم.

٢- **والفريق الثاني** هم الذين يُحسِنون الإجابة عندما يقال لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ فيقولون: ﴿خَيْرًا﴾ [الآية ٣].

وهم يعلمون أن العاقبة الحسنة للمتقين في الدنيا والآخرة، فهم ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الآية].

وهؤلاء قد قضَوْا أعمارهم في الإيمان والعمل الصالح، وثابروا على فعل الخيرات وترك المنكرات، فطابت أرواحهم عند الممات، وفي درجات الجنات.

أما **الأمر الثاني** الذي تتحدث عنه السورة فهو عن آيات الله تعالى في الكون، وآلائه على عباده. ومنها قوله تعالى:

١-﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الآية ٣].

٢-﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الآية ٥].

٣-﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ﴾ [الآية ١٢].

٤-﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الآية ٦٥].

٥-﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ [الآية ٦٦].

٦-﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [الآية ٦٨].

٧-﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [الآية ٧].

٨-﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الآية ٧٢].

٩-﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [الآية ٧٨].

١٠-﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [الآية ٨٠].

١١-﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [الآية ٨١].

وقد بدأت هذه النِّعَم بنعمة القرآن، وبيَّنت أن نِعَم الله تعالى لا تُعَدُّ ولا تُحصى، وقرب نهاية السورة بيَّنت عقوبة الذين كفروا بأَنْعُم الله، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

وهكذا أقامت السورة ثلاثة وعشرين دليلًا من البراهين القاطعة الدالة على توحيد الله سبحانه، وعلى مظاهر القدرة الإلهية؛ لبيان أن خالق هذا الكون وما فيه من النِّعَم هو المستحق للعبادة دون سواه.

وهذه الأدلة جاءت في ثلاث مجموعات من السورة متفرقة، في كل مجموعة منها عدد من نِعَم الله علينا.

في أول السورة اثنا عشر دليلًا، وفي وسطها سبعة أدلة، وبعدها أربعة أدلة، وكلها نعم لله تعالى على خلقه.

وبقية آيات السورة تحاور المشركين بالله تعالى، فهي سورة النِّعَم، وسورة التوحيد، وهذه النِّعَم هي:

١ - نعمة نزول الوحي ونزول القرآن؛ لإحياء القلوب التي أماتها الكفر والضلال [٢].

٢ - نعمة خلق السموات والأرض، وما فيهما، ومابينهما لغاية عظمى، هي معرفة الخلق لربهم وعودتهم إليه في الدار الآخرة؛ ليجازي كل إنسان بما عمل، كما في الآية [٣].

٣ - نعمة خلق الإنسان من نطفة، ومع ذلك فإن بعض الناس ينكر البعث والنشور كما في الآية [٤].

٤ - نعمة خلق الإبل، والبقر، والغنم؛ للانتفاع بلحومها، وألبانها، وجلودها، وصوفها، ووبرها، وللتنقل بها، والزينة الآيتان [٥، ٧].

٥- نعمة خلق الخيل، والبغال، والحمير؛ للركوب والزينة، وفتح الباب أمام كل جديد يؤدي دورها كما في الآية [٨].

٦ - خلق نعمة العقل للإنسان؛ لمعرفة الخير من الشر، والاهتداء به عن طريق النظر، والتأمل للوصول إلى الطريق القويم كما في الآية [٩].

٧ - نعمة إنزال الماء من السحاب؛ لحياة الإنسان، والحيوان، والنبات، والأشجار، والطيور، والأسماك الآيتان [١٠، ١١].

٨ - نعمة تذليل الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم؛ لمصلحة الإنسان ونفعه الآية [١٢].

٩ - خلق جميع ما في الأرض من خيرات، ونعم؛ لصالح الإنسان وخدمته، كما في الآية [١٣].

١٠ - تسخير البحر وتذليله للإنسان؛ لينتفع به وبخيراته، كما في الآية [١٤].

١١ - تثبيت الأرض بالجبال، وإيجاد المياه العذبة فيها، وشقُّ الطُّرق؛ للسير فيها، والسعي على الرزق وغيره، كما في الآية [١٥].

١٢ - خلق معالم من جبال ونجوم في العالم العلوي والسفلي؛ لهداية الإنسان في أسفاره ومعيشته، كما في الآية [١٦].

١٣ - نعمة الماء، كما في الآية [٦٥].

١٤- نعمة خروج اللبن من بين الفرث والدم، كما في الآية [٦٦].

١٥ - نعمة الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأنعام، كما في الآية [٦٧].

١٦ - نعمة العسل يخرج من النحل، كما في الآية [٦٨].

١٧ - نعمة الحياة والموت، كما في الآية [٦٩].

١٨ - نعمة الرزق، كما في الآية [٧١].

١٩- نعمة الزواج والتناسل، كما في الآية [٧٢].

٢٠ - نعمة الحواس والإدرك، كما في الآية [٧٨].

٢١- نعمة تسخير الفضاء للإنسان، كما في الآية [٧٩].

٢٢ - نعمة السكن والأثاث، كما في الآية [٨٠].

٢٣ - نعمة الظلال والجبال واللباس، كما في الآية [٨١].

فسورة النحل هي سورة النِّعَم بحق؛ لأن الله سبحانه قد ذكر في أولها قواعد النعم وأصولها، وذكر في آخرها كمال النعم وتمامها؛ فهي تُسَمَّى آيات وتُسَمَّى نِعَمًا، وهي نِعَم من الله تعالى، وآيات دالة على وجوده سبحانه.

وقد أمرنا سبحانه أن نتأمل في عظيم قدرته تعالى في خلق الكون، ونقلب النظر فيه، فقال سبحانه: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ [الأعراف: ١٨٤]

وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات].

ومن أجلِّ ما يتعبَّد به العبد إلى ربه ﷻ أن ينظر ويتأمل، ويتدبر ويفكر في هذا الكون وما فيه؛ ليستدل بفكره على وحدانية الله سبحانه، فيقْوى إيمانه ويثبت، ويصله بالواحد القهار.

وسورة النحل فيها ميدان رحب فسيح، للنظر في ملكوت الله ﷻ في سمائه وأرضه، وليله ونهاره، وشمسه وقمره ونجومه، وبرِّه وبحره وجوِّه، وغير ذلك.

والنبي ﷺ حينما نزل عليه قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران] وما بعدها، قال ﷺ: **«ويل لمن قرأها ولم يتفكر»**[(١)].

قال الحسن البصري: تَفَكُّرُ ساعة خير من قيام ليلة[(٢)].

أي: خير من النوافل المستحبة؛ لأن هذا التفكر يُقَوِّي الإيمان، ويصل العبد بربه.

وقد أمرنا الله ﷻ على وجه الخصوص أن نُمعن النظر في أمرين مهمين:

الأمر الأول: أن ننظر في الأصل الذي خُلِقنا منه، قال سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق] ينظر الإنسان إلى أصله، إلى النطفة التي خُلِق منها ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق] هذا هو أصله، وليست القبيلة، ولا العشيرة، ولا المال، ولا الجاه، بل الماء الدافق هو نسب الإنسان وما ينتمي إليه.

---

(١) رواه الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» برقم (٦٦٦) وفي إسناده أبو جناب الكلبي وهو ضعيف.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٨٤).

الأمر الآخر: أن ننظر إلى الطعام الذي نأكله صباحًا ومساءً، ممَّ يتكون هذا الطعام؟ وكيف خلقه الله سبحانه؟

قال جلَّ شأنه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس].

هذا النظر، وهذا التفكر أو التأمل تدعو إليه سورة النحل أكثر من غيرها؛ لاستشعار فضل الله تعالى، فيكون هذا حافزًا على إفراد الله تعالى بالعبادة، إلى جوار امتنان الله تعالى على خلقه بهذه النعم.

وقد ضربت السورة الأمثال للمؤمن والكافر، والحق والباطل، ولمن قابلوا نعم الله عليهم بالشكر والعرفان، أو بالجحود والكفر.

واعتنت السورة بمكارم الأخلاق وأمهات الفضائل: كالعدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، والوفاء، والصبر، والشكر.

ونهت عن الرذائل، والمنكرات؛ كالغدر، والجحود، ونقض العهود، والاستكبار، والظلم.

وحفلت السورة بالترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار، والوعد والوعيد.

وقد خُتِمت السورة ببيان أن الدعوة إلى الله تعالى تقوم على الحوار والإقناع، والأخذ والرد، ولا تتخذ من الإكراه طريقًا لانتشارها.

ولا يستطيع القيام بذلك إلا فقيه في الكتاب والسنة، عارف بالداء والدواء، يفرق بين حوار الكافر والمسلم والعاصي، قدوة في نفسه، عامل بالكتاب والسنة، على اطلاع بأحوال الناس وسياسة الأمور وعلوم الكون.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

قُرْبُ قِيَامِ السَّاعَةِ

١ -﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ[1] ①﴾

قبل نزول سورة النحل، جاءت آيات كثيرة تتوعد المكذبين بيوم يكون الفارق فيه بين الحق والضلال، فتزول فيه شوكتهم، وتذهب قوتهم، ويحل بهم عقاب الله، فقد استبطؤوا هذا اليوم، وظنوا أنه غير واقع بهم، وصاروا يهزؤون به، ويستبعدون وقوعه، فأنزل الله تعالى يبيِّن أن ما توعَّدهم به النبي ﷺ سيحلُّ بهم في وقت قريب؛ فإن مجيئه شيء محقق.

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ﴾ أي: قَرُب قيام الساعة، ودنا قضاء الله بعذابكم -أيها الكفار- فلا تستعجلوا العذاب استهزاءً بوعيد الرسول ﷺ لكم؛ فإن القيامة آتية ولا بد، وإن أشراطها قد وقعت، وإن عذاب الله كائن فيها، فوقوعها محقق، وفي هذه الآية تقريب ما وعدا الله به، و بعثة النبي ﷺ من أشراط قيام الساعة.

قال تعالى مشيرًا إلى استعجال المكذبين نزول العذاب بهم: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ④⑦﴾ [الحج].

وقال جلَّ وعلا: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ﴾ [الشورى: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑤③ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ⑤④﴾ [العنكبوت].

وقال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ⑧﴾ [هود].

وقال جلَّ شأنه حكاية عن المكذبين للرسل: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بتاء الخطاب في (تشركون)، والباقون بياء الغيب على الالتفات.

أي: عجّل لنا نصيبنا من العذاب في الدنيا ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

والقرآن يرد على طلبهم تعجيل العذاب قبل يوم القيامة، بمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ وعندئذ يقال لهم: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تؤمنون بعد أن نزل بكم العذاب ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥٠، ٥١]

والكفار يستعجلون قيام الساعة، ويستعجلون وقوع العذاب بهم.

وقد بيَّن الله سبحانه قرب قيام الساعة بما فيها من الثواب والعقاب في مثل قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء]

وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر].

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]

وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]

وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [٧٧].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ موجَّه لكل مكذب بالبعث والنشور، وهو يشمل عصاة المؤمنين الذي يُسوِّفون في التوبة، وقد غاب عنهم أن الموت يأتي فجأة، وأن كل من مات قامت قيامته.

فأمر الله في الآية هو قيام الساعة، وأشراطها، وما فيها من العذاب.

أما المؤمنون فإنهم يستعجلون نصر الله تعالى لهم على عدوهم.

وأتى بمعنى يأتي، وعبَّر بالماضي عن المضارع؛ لتحقق قيام الساعة، أي: أن الساعة آتية لا ريب فيها وقد اقترب مجيئها.

ولما نزلت هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه أنس وأبو هريرة وسهل ﷺ:

«بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين وأشار بأصبعيه» الحديث[١].

أي: أن بعثة النبي ﷺ من علامات الساعة الصغرى.

ولما نزل جبريل من السماء مبعوثًا إلى رسول الله ﷺ بالوحي لأول مرة، قال أهل السموات: الله أكبر، قد اقتربت الساعة، قاله ابن عباس.

أي: أن الساعة قد اقتربت، والعذاب الذي يستعجله المكذبون قد اقترب.

ويدل على ذلك قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فإنه لما نزل ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ امتدت أعناقهم وأبصارهم ينظرون إلى قيام الساعة التي أتت، فنزل بعدها ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: لا تستعجلوا هذا اليوم؛ فإنه آتٍ -لا محالة- في الوقت الذي أراده رب العالمين، وسوف يأتيكم بغتة في وقت حدده الله تعالى وقضاه.

قال ابن عطية: رُوِيَ أن رسول الله ﷺ لما قال جبريل في سرد الوحي: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وثب رسول الله ﷺ قائمًا، فلما قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ سكن[٢].

وفي الحديث: أن الساعة تقوم والرجل ينشر ثيابه للبيع بينه وبين المشتري، فتقوم الساعة، فلا يطويه، والرجل يحلب ناقته فلا يشرب حليبها.

قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يس].

أي: وهم في الأسواق يتساومون في ثمن السلعة، فلا يتم البيع ولا الشراء بين المتبايعين، ولا يعودون إلى أهليهم ببضاعتهم التي اشتروها، ولا يتمكنون من كتابة وصيتهم؛ لأن الساعة قد أتتهم فجأة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أي: كتابة وصيتهم ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس:٥٠] ولا يعودون من السوق إلى ذويهم.

ولما كان تكذيب الساعة، وتكذيب ما فيها من البعث والجزاء لونًا من الكفر ولونًا من الشرك، ولما كان القرآن الكريم كتاب هداية فهو يخاطب المؤمنين؛ ليثبتوا في إيمانهم، وليتزودوا بالعمل الصالح.

---

(١) رواه سهل وأنس وأبو هريرة في البخاري بأرقام: (٦٥٠٣، ٦٥٠٤، ٦٥٠٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٠، ٢٩٥١).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٣٧٧).

ويخاطب غير المسلمين في كل زمان ومكان فيطلب منهم الدخول في الإسلام، وتوحيد الخالق سبحانه،ويقيم لهم الأدلة الناطقة بوحدانية الله تعالى،الموجبة لإفراده تعالى بالعبادة .

لما كان الأمر كذلك، كان التكذيب بالبعث والثواب والعقاب لونًا من الكفر والشرك، ولذا فإن الله سبحانه ختم الآية التي أخبرت بقرب مجيء الساعة بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه الله عن الشرك والشركاء، وعن كل ما لا يليق بجلاله، أو ينافي كمال التوحيد.

ومعنى الآية: قرُب قيام الساعة، ودنا وقت عذابكم -أيها الكفار- فلا تستعجلوا وقوع العذاب استهزاء بوعيد الرسول لكم، تنزه الله سبحانه عن الشرك والشركاء الذي تشركونه مع الله تعالى.

وقد بدأ الله سبحانه سورة النحل بآيتين:

الآية الأولى تتحدث عن القيامة وما فيها، وأن الإيمان بها ركن من أركان من الإيمان ، ولا يستقيم إيمان المرء إلا إذا آمن بأن هناك يوما آخر يبعث الله فيه العباد، ويحاسبهم على ما قدمت أيديهم، ويجازيهم على ما فعلوه وقالوه في الحياة الدنيا، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

والآية الثانية تتحدث عن الوحي الذي نزله الله على رسله، مما يجب اتباعه في كل ما يأتي به من عند الله، من واجبات وسنن وأركان ومستحبات.

دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ فِي السُّورَةِ: الْمَجْمُوعَةُ الأُولَى اثْنَتَا عَشْرَةَ نِعْمَةً

النِّعْمَةُ الأُولَى: فِي وَحْيِ السَّمَاءِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَالنُّفُوسِ

٢-﴿يُنَزِّلُ(١) ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ(٢)﴾

وهذه الآية تتحدث عن الوحي، وعن النبوة والرسالة، أي: أن الله سبحانه لم يترك خلقه للشيطان والأهواء، ولم يتركهم لعقولهم، وإنما بيَّن لهم الهدى والضلال، وبيَّن لهم الخير والشر، على ألسنة رسل الله، وفي كتب الله التي نزلت عليهم.

فالآية الأولى كانت عن العقيدة، وهذه الآية عن النبوة، وهي من رحمة الله تعالى بعباده؛ حيث أرسل إليهم رسلًا مبشرين ومنذرين، وقد سمَّى الله سبحانه الوحي روحًا، فقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ أي: بالوحي، وهو جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن على رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فسمَّى القرآن روحًا؛ لأن القلوب بهذه الروح تَحْىٰ، ويُحيي الله بها الجاهل والكافر، فيجعله يحيىٰ بالإيمان، ويموت بالكفر والإيمان بمنزلة الروح من الجسد.

فالجسد يحىٰ بالروح، وهو بدون الروح، يساوي قطعة من الأرض، كالجماد لا قيمة له، والروح إذا حلَّ بالجسم حلَّت به الحياة، وكذلك الإيمان إذا حلَّ في القلب حلَّت به الحياة، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]

فالجاهل والكافر كالميت؛ لأنه لا ينتفع بحياته.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بياء مضمومة، وتخفيف الزاي المكسورة، وإسكان النون من (ينزل) مضارع أنزل، والملائكة بالنصب مفعول به.

وقرأ روح بتاء مفتوحة بعدها نون مفتوحة ثم زاي مفتوحة مشددة، مضارع تنزل حذفت منه التاء، والملائكة فاعل مرفوع.

والباقون بنون مفتوحة بعد ياء مضمومة، وبعد النون زاي مشددة مكسورة، مضارع نزل، والملائكة مفعول به، فالقراءة الأولى هكذا (يُنْزِلُ الملائكةَ)، والثانية هكذا (تَنَزَّلُ الملائكةُ)، والثالثة هكذا (يُنَزِّلُ الملائكةَ).

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف من (فاتقون)، والباقون بحذفها.

ومعنى ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: أن نزول الملائكة من عند الله إنما يكون بأمر من أموره تعالى، وشأن من شؤونه ومقدراته المتعلقة بخلقه التي استأثر الله تعالى بها، ولذا فقد أضاف الأمر إليه سبحانه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله عن الملائكة: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]

وقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

والله تعالى ينزل الملائكة بالوحي والنبوة بأمره على من يشاء من عباده المرسلين؛ فنزول الملائكة بالوحي لا يكون إلا بأمر الله، كما قال تعالى على لسانهم: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] ونزولهم لا يكون إلا على من يختاره الله من خلقه للنبوة والرسالة.

ومن أصول العقيدة عند المشركين، ألاّ يكون الرسول من البشر، فنفَى الله سبحانه الشرك عن نفسه في الآية السابقة، ثم أتبع ذلك ببشرية الرسول، وبراءته من الكذب، وقد كانت الرسالة سببًا في حسد المشركين للنبي ﷺ؛ حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

فكان الرد من الله تعالى عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢]

وقد حسده أهل الكتاب على الرسالة أيضًا، كما قال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤]

وعن اختيار الله تعالى لرسله من البشر يقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ويقول أيضًا: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]

ويقول: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥].

ثم بيَّن جلَّ شأنه المهمة التي من أجلها أرسل الله الرسل جميعًا فقال: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا﴾ أي: خوِّفوا الناس من الشرك وعلِّموهم التوحيد، و﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ فلا معبود بحق إلا الله ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ بأداء فرائضي، وترك محرماتي، وإخلاص العبادة لي، فالله تعالى أرسل الرسل؛ ليعلّموا الناس أن يعبدوا الله، ويفردوه بالعبادة، ولا يشركوا معه غيره، وأن يخافوا من الشرك والكفر، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

وهذا التوحيد هو خلاصة دعوة المرسلين كلهم، فعبادة الله وحده هي التي أرسل الله بها رسله، وأنزل بها كتبه، وشرع الجهاد والولاء والبراء من أجلها.

النِّعْمَةُ الثَّانِيَةُ: نِعْمَةُ خَلْقِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالْعَالَمِ السُّفْلِيِّ

٣-﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾

وهذه جملة من الأدلة والبراهين على وحدانية الله سبحانه، فقد خلق السموات والأرض بالحق الثابت والحكمة الفائقة، ولم يخلقهما عبثًا ولا جُزافًا، بل خلقهما؛ ليستدل بهما العباد على وحدانية الخالق سبحانه، واستحقاقه للعبادة دون سواه.

خلقهما وما فيهما وما بينهما؛ لنفع الإنسان وغيره من مخلوقات الله سبحانه، فهو جلَّ شأنه لم يخلق السماوات والأرض وما فيهما عبثًا، ولا لهوًا، ولا باطلًا، وإنما خلقهما لغاية عظمى، ولهدف كبير؛ كي يجزي في الآخرة الذين أساؤوا بما عملوا في الدنيا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

خلقهما؛ ليتعرف العباد على خالقهم فيعبدوه، ويذكروه، ويشكروه وحده دون سواه؛ فقد تنزه سبحانه وتعاظم عن الشرك والشركاء.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

والسموات والأرض أعظم المخلوقات: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر]

والحق في الآية ضد العبث بمعنى: الحكمة والجدُّ وعدم الباطل وعدم اللهو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان]

وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ [ص: ٢٧].

ولما ذكر الله خلق السموات والأرض، ذكَر خلْق ما فيهما، وبدأ بأشرف المخلوقات وهو الإنسان:

النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: نِعْمَةُ وُجُودِ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ

٤-﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾

وبعد ذكر العالم العلوي من الملائكة والسموات، وذكر العالم السفلي من خلق الأرض؛ لأنه ملازم لخلق السماوات، بعد ذلك، قدّم الله سبحانه خلْق الإنسان، من العالم الأرضي، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مكونة من ماء الرجل وماء المرأة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] أي: أخلاط من ماء الرجل والمرأة، وهو ماء مهين حقير،هذا هو أصل الإنسان،وقد تعهد الله هذه النطفة فنمّاهاوطوّرها حتى صارت بشرًا سويا كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة.

ثم إن الله سبحانه رباه بنعمه، وجعل له عقلًا، فشب وصار رجلًا، واشتد ساعده حتى صار عاقلًا متكلّمًا له رأى وفكر، فإذا هو يبارز الله تعالى بالمعاصي ويجادل ويخاصم، ويعاند، فيكذب رسل الله، ويُنْكر البعث، والنشور، والحساب، والجزاء على الأعمال، ويكفُر بالله سبحانه، وهذا معنى ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: معاند، مجادل، مكابر، يكفر،ويتعالى،ويشرك بالله سبحانه،ولم ينظر إلى أصل خلقه من نطفة،وإنما اغتر بنفسه، ولم يفكر، ونسى خلقه الأول، وما أنعم الله عليه به من نعم فاستعان بهذه النعم على معصية الله تعالى.

ومن هذا الصنف من الناس (العاص بن وائل) جاء إلى رسول الله ﷺ بعظْم بيْن أصابعه قد بَلِيَ، وأصبح رميمًا يفتّته بيده، ويقول: يا محمد، أترى أن الله يُحيي هذا بعد ما بَلِيَ ورمّ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**نعم ويبعثُك ويدخلك النار**»، وأنزل الله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس] إلى آخر الآيات[1].

(١) يُنْظَر: النيسابوري (٢٣٤) والسيوطي (١٦٢) كلاهما في «أسباب النزول» وتفسير «زاد المسير» (٤/ ٤٢٩) وفيها أن القائل أُبَيُّ بن خلف، وقد أنكر ذلك ابن كثير في تفسيره؛ لأن أُبَيّ بن خلف كان في المدينة والآية مكية.

لقد خلق الله الإنسان؛ ليعبد ربه، فإذا هو يعبد الأصنام بدلًا من عبادته لربه.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان].

عن بُسر بن جحَّاش القرشي قال: بصق رسول الله ﷺ في كفِّه، ثم قال: **«يقول الله: ابن آدم، أنَّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سوَّيتُك فعدَّلتك، مشيتَ بين بُردَيْك وللأرض منك وئيد، فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: أتصدق، وأنَّى أوان الصدقة؟»**[1].

وإلى مهانة النطفة يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات].

ويترفع القرآن عن ذكر هذه النطفة فيقول: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [المعارج].

ومع هذا فإن الإنسان يقْوَى ويغترُّ، فيصبح شديد الخصومة لربه مجادلًا، منكرًا للبعث، وقد نسي أن الله تعالى خلقه من العدم ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة].

والنطفة في الأصل: هي الماء الصافي القليل الذي يبقى في الدَّلْو، أو القِرْبة كالقطرة المتبقية، ويراد بها في القرآن: المنيُّ، وهو مادة التلقيح من الذكر للأنثى، والآية التي نحن بصددها تحمل **عِبَرًا ثلاثًا**:

العبرة الأولى: خلق جنس الإنسان في أكمل صورة، وأحسن قوام، وهو حيوان ناطق ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: الإنسان المعروف بماهيته، وخواصه المعلومة.

العبرة الثانية: أن هذا الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات، خلقه الله من أحقر شيء هو النطفة ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢١٠) برقم (١٧٨٤٢، ١٧٨٤٤) بإسناد حسن، وابن ماجه في سننه برقم (٢٧٠٧) وقال البوصيري في «الزوائد» (٣/ ٣٦٥): وإسناده صحيح ورواته ثقات، وأصله في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، «المستدرك» (٢/ ٢/ ٥٠٢) وهو في صحيح «سنن ابن ماجه» (٢١٨٨) ويُنْظَر: «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٩٩، ١١٤٣) وأخرجه ابن سعد (٧/ ٤٢٧)، والطبراني في الكبير (١١٩٣).

العبرة الثالثة: أن منتهى شرف الإنسان، في عقله الذي يحاور به، ويفكر ويجادل، فيصل عن طريقه إلى توحيد الخالق سبحانه، أو يصل إلى إثبات الشرك والشركاء ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ والمراد بالخصيم: إثبات الشرك، وتكذيب البعث، ونفي التوحيد.

النِّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: نِعْمَةُ خَلْقِ الْأَنْعَامِ لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ

٥-﴿وَالْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾

وبعد أن ذكر سبحانه ما يدل على وحدانيته وقدرته، عن طريق خلق السموات والأرض والإنسان، أتبع ذلك بما يدل على قدرته في خلق الحيوان، فذكر سبحانه خلْق الأنعام، امتنانًا على خلقه، وتعريضًا بمن كفر بها منهم، فجعل من نَتاج هذه الأنعام لله نصيبًا، ولشركائهم نصيبًا، وهي من أجلِّ النِّعم وأعظمها، ومن أول ما يعود به النفع على الإنسان عمومًا: الكافر والمؤمن، الحضري والبدوي، في كل مكان من العالم، فلا غنى لأحد عن الأنعام وما فيها من خيرات ومنافع.

﴿وَالْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ﴾ لكم، لأجل منافعكم ومصالحكم الكثيرة التي لا تتحقق إلا بها، وهي الأزواج الثمانية ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ من الإبل اثنين: ذكر وأنثى، ومن البقر اثنين: ذكر وأنثى، ومن الضأن اثنين كذلك، ومن المعز اثنين كذلك، فهي أربعة أصناف، لكم فيها **ثلاث فوائد** هي: الدفء، والمنافع والأكل، فهذه ثلاث منافع، أو فوائد ضرورية لحياة الإنسان، ذكرتْها هذه الآية، فضلًا عن المنفعة الرابعة في الآية التالية، وهي الجمال والزينة، والمنفعة الخامسة في الآية السابعة، وهي حمل الأثقال.

وهكذا فإن من فوائد الأنعام خمس منافع:

المنفعة الأولى: هي الدفء بالفُرُش المصنوعة من أصواف الأنعام، وأوبارها، وأشعارها، وكذا الأغطية، والخيام، والملابس، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [٨٠]

أي: جعل لكم ما تستدفئون به، وتنسجونه في ملابسكم، وفُرُشكم، وأغطيتكم.

والمنفعة الثانية: منافع كثيرة من النسل، والألبان، والجلود، والركوب، والحمل

عليها، وما إلى ذلك، كما جاء في آيات أخر ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس].

والمنفعة الثالثة: هي الطعام والشراب المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ولا غنى لأي مخلوق عن الأكل من لحوم الأنعام، وسمنها، ولبنها: المسلم وغير المسلم، أهل الحضر وأهل البدو، وغيرهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون].

وقال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

المَنْفَعَةُ الرَّابِعَةُ: الجَمَالُ وَالزِّينَةُ

٦- ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾

وفي الأنعام زينة وجمال يُدخِل السرور على ذويها عندما تخرج للمرعى، وعندما تعود إلى منازلها في المساء، أي: لكم في الأنعام زينة، ومنظرٌ، وبهجة تسرُّ النفوس، في وقت حركتها ووقت سكونها.

ولا يشعر بهذا الجمال إلا المزارع الذي يقتني الإبل، والبقر، والضأن، والمعز، وأكثر ما يكون هذا الإحساس وهذا الشعور في فصل الربيع إذا سقط المطر، ونبتَ العُشب والكلأ، وظهرت خضرة الأرض، مع ملء بطونها بالأكل، والضروع بالحليب.

فالله سبحانه جعل في الأنعام حاجات الإنسان الضرورية التي أشارت إليها الآية السابقة، وجعل فيها حاجاته الكمالية، كما في هذه الآية بالزينة، وجمال المظهر وقت إراحتها، أي: عودتها إلى بيوتها من المرعى؛ حيث تكون ممتدة السنم، ممتلئة البطون، حافلة الضروع باللبن، ولذلك قدَّم القرآن وقت الإراحة على وقت السراح؛ لأنها تذهب وهي جائعة، ومنظرها لا يكون حسنًا حين تخرج صباحًا وتذهب إلى المرعى، ويكون أفضل عند عودتها.

المَنْفَعَةُ الخَامِسَةُ: حَمْلُ الأَثْقَالِ

٧-﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ[1] الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ[2] رَّحِيمٌ﴾

وتحمل الأنعام لكم متاع السفر، وما يلزم لكم من أغراض التنقل والتجارة، وكل ما ثقل من أمتعتكم إلى بلد بعيد، كما أنها تحملكم أنتم إلى بلد لا تستطيعون الوصول إليه إلَّا بجهد شديد، ومشقة عظيمة، لولا هذه الأنعام، فقد ذللها الله لكم وهذا من رحمة الله تعالى بكم؛ حيث سخر لكم ما تحتاجون إليه، فله الحمد والشكر، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر؛ فإن الله تعالى إنما سخرها لكم؛ لتبلغوا إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجاتكم**»[3].

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [غافر].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف].

---

(١) قرأ أبو جعفر بفتح الشين من (بشَق)، والباقون بكسرها، وهما مصدران بمعنى واحد.

(٢) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بقصر همزة (لرؤوف) وحذف المد على وزن فعُل، والباقون بالمد على وزن فعول.

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (٢٢٣٨) والبيهقي في «الشعب» (١١٠٨٣) ويُنْظَر: «السلسلة الصحيحة» (٢٢).

النِّعْمَةُ الْخَامِسَةُ: نِعْمَةُ وَسَائِلِ الْمُوَاصَلَاتِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا

٨-﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

وكما امتنَّ سبحانه على عباده بخلق الأنعام امتنَّ عليهم بخلق الخيل، والبغال، والحمير؛ للركوب، والزينة، فقد تستعمل للضرورة في الركوب، وقد تستعمل لأجل الزينة والجمال، ولم يذكر الأكل، لأن البغال والحمير يحرم أكلهما، والخيل لا تستعمل في الأكل غالبًا.

جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ ذكر ضمن حديث فيه أشراط الساعة: **«لتتركُنَّ القُلُص فلا تركبونها»**[1].

والقُلُص: هي الجِمال، فأخبر ﷺ أن من علامات الساعة، أنه يأتي وقت على الناس يستغْنون فيه عن ركوب الإبل، والخيل، والبغال، والحمير، وغير ذلك؛ حيث يستغْنون عن هذه المواصلات، وسبل النقل القديمة، بما يجدُّ من أنواع المراكب المختلفة في البر والبحر والجو، وهذه معجزة لرسول الله ﷺ؛ حيث أخبر بأن الإنسان يأتي عليه وقت يستغني فيه عن ركوب الحيوانات، فلا يركبها إلا القليل منهم في المسافات القصيرة، ويركب الناس غيرها مما خلق الله سبحانه، وهَدَى البشر لصناعته.

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ نعمة من نعم الله تعالى، ومن آياته العظيمة أن القرآن ذكر لها فائدتين: الركوب، والزينة.

جاء في الحديث عن عروة البارقي أن النبي ﷺ قال: **«الإبل عزٌّ لأهلها، والغنَم بركة»**[2] **«والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»**[3].

---

(١) «المسند» (١٠٤٠٤) بنحوه وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو في «صحيح مسلم»، برقم (١٥٥، ٢٤٣) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٠٥) وابن حبان (٦٨١٦) والبغوي (٤٢٧٦)].

(٢) صحيح «سنن ابن ماجه» (١٨٦٦) و«السلسلة الصحيحة» (١٧٦٣).

(٣) من حديث سلمة بن نُفَيْل الكندي في «سنن النسائي الكبرى» (٤٣٨٦) والطبراني الكبير (٦٣٥٧- ٦٣٦٠) وابن سعد (٧/ ٤٢٧) وفي «المسند» (١٦٩٦٥) بإسناد حسن، وله شاهد من حديث ابن عمر (١٥٥٩٦) وأخرجه ابن حبان من حديث النواس بن سمعان.

وكان من عادة العرب ركوب الخيل للغزو والصيد، وركوب البغال للمشي والغزو، وركوب الحمير؛ للتنقل في القرى ونحو ذلك، ولا يزال أكبر البلاد حضارة يتخذون من الخيل والبغال زينة، حتى في المواكب الملَكية، والسباق والتنقل، وغير ذلك.

لحوم الخيل والبغال والحمير:

ولم يذكر القرآن الأكل من الخيل والبغال والحمير، كما ذكر في الأنعام، وإنما قال: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾.

عن جابر ﷺ قال: كنا نأكل لحم الخيل على عهد رسول الله ﷺ قلت: فالبغال؟ قال: أما البغال فلا[٢].

ويرى جمهور الفقهاء، ومنهم: الشافعي، وأحمد، والمحدثون، وأهل السلف، أنه يجوز الأكل من لحوم الخيل خاصة، وذلك أن السُّنَّة النبوية بيَّنت القرآن ووضحته.

جاء في الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر ﷺ قالت: نحرنا فرسًا على عهد رسول الله ﷺ، فأكلناه[٣].

قال أبو حنيفة: إن منفعة الأكل أعظم، فلو كانت مقصودة لذكرها الله سبحانه، فإن أبا حنيفة ومالك لا يريان جواز الأكل من لحوم الخيل والبغال والحمير.

قال ابن جبير: سئل ابن عباس عن لحوم الخيل والبغال والحمير فكرهها محتجًا بهذه الآية[١].

وقد جاءت السنة مبيِّنة أن الخيل يجوز أكل لحومها، وقاس بعضهم البغال عليها.

١- وقد أذن رسول الله ﷺ في لحوم الخيل، ونهى عن لحوم الحُمُر بعد أن قيل له مرتين في يوم خيبر: أُكِلَتِ الحُمُر فسكت، ثم قيل له: أُفْنِيَتِ الحمُر، فأمر ﷺ مناديه أن ينهى عن أكل لحوم الحُمُر، فأُهرقت القدور[٤].

٢- جاء في الصحيحين وغيرهما عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ نهى عن أكل لحوم الحُمُر

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٣٨٠).

(٢) صحيح «سنن النسائي» (٤٠٤١) وابن أبي شيبة (٨/ ٧١) والطبري (١٤/ ١٧٦).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٩٤٢) و«صحيح البخاري» برقم (٥٥١٠) وما بعده والنسائي (٤٣٤١، ٤٣٤٤) وصحيح «سنن النسائي» (٤٠٤١).

(٤) يُنظَر حديث أنس بن مالك في «صحيح مسلم» (١٩٤٠).

الأهلية، وأذن في لحوم الخيل[١].

وقاس بعضهم البغال والحمير على الخيل، واختلفت عن الأنعام في أنها لا تجْترُّ، وأنها ذات حوافر، وأنها لا أكْراش لها، وأنها متداخلة في النسل، ومن جهة الشرع فقد قرنت مع الخيل، ولم تجب فيها الزكاة كالخيل، ففي أكل لحوم الخيل والبغال خلاف قوي بين أهل العلم.

أما لحوم الحمر الأهلية فقد أكلها المسلمون يوم خيبر؛ للضرورة، ثم حرمت.

أما الحمر الوحشية فلحومها مباحة على الأصل.

٣- عن جابر ﷺ قال: أكلنا -زمن خيبر- الخيل، وحُمُر الوحش، ونهانا النبي ﷺ عن الحمار الأهلي[٢].

وبعد أن ذكر الله سبحانه هذه الحيوانات قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي مما يكون بعد نزول القرآن، مما يركبه الناس في البر والبحر والجو، ويستعملونه في مصالحهم ومنافعهم، ولم يذكر الله أعيان هذه الوسائل، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه الناس، أو يعرفون له نظير، أما ما لا يعرفونه فيذكر له أصلًا جامعًا يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر الله تعالى نعيم الجنة، وسمي منه ما له نظير، كالنخيل والأعناب والرمان، ثم أجمل ما لا نعرف له نظير في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] وذكر هنا ما نعرفه من الخيل والبغال وأجمل الباقي في قوله ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: من وسائل المواصلات وغيرها مما لا علم لكم به؛ لتزدادوا إيمانا بالله وشكرًا له.

فالقرآن يخاطب الناس على قدر عقولهم في وقت التنزيل، كما قال عليٌّ ﷺ: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُه؟[٣].

وإذا خاطبهم بما هو فوق عقولهم فإنهم يُكَذِّبون، ولا يصدقون.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٢١٩، ٥٥٢٠) وصحيح مسلم برقم (١٩٤١) وابن أبي شيبة (٨/٦٨) والترمذي (١٧٩٣) والنسائي (٤٣٤٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١٩٤١).

(٣) من كلام عليٍّ ﷺ كما في البخاري برقم (١٢٧).

والقرآن نزل على أهل بادية في مكة، ولذا لفت أنظارهم إلى قدرة الخالق سبحانه ووحدانيته، بما يتقلبون فيه صباحًا ومساء، وما يرونه ويشاهدونه بأعينهم في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية]

وهذه هي المخلوقات المحيطة بهم، والتي يعيشون بينها، ويتقلبون فيها.

فالبدوي يفترش الأرض، ويلتحف السماء، وينظر أمامه فيرى الإبل، ويلتفت حوله فيرى الجبال محيطة به، ولو خاطبهم القرآن بغير ذلك لكذبوه.

ولذا: فإن الله سبحانه يضع في هذه الآية قاعدة عامة لكل ما يجدُّ في عالم المواصلات، وهذا يشمل الدواب التي لم تكن معروفة لدى المخاطبين وقتها؛ كالْفِيَلة عند أهل الحبشة والهنود، ودواب الجهات القطبية: كالفقمة، والدب الأبيض، ودواب القارة الأمريكية التي كانت مجهولة عند الناس وقت نزول القرآن، كما يشمل: الدرَّاجة، والسكك الحديدية، والسيارات، والطائرات، والبواخر، ومركبات الفضاء ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مما لا تعرفونه، ولا تطّلعون عليه، ولا يظهر في هذا الزمن، من مخلوقاته العجيبة في سمواته وأرضه، وبره وبحره وجوه، سواء في مجال المواصلات، أو المعلومات، أو الفضائيات، أو غير ذلك.

والقرآن يهيئ العقول لكل ما يحدث مستقبلًا، ويفتح المجال لاستخدام كل ما لم تذكره الآية؛ حتى لا يحتجَّ أحد بما جاء فيها فحسب.

النِّعْمَةُ السَّادِسَةُ: نِعْمَةُ الْهِدَايَةِ وَالْبَيَانِ

٩-﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ[(١)] ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾

قَصْدُ السبيل، هو الطريق الموصل إلى مرضاة الله تعالى، وهو الصراط المستقيم.

والجائر، هو الطريق الباطل في العقائد والأعمال، وكل ما خالف طريق

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف ورويس بخلف عنه بإشمام الصاد صوت الزاء من (قصد)، والباقون بالصاد الخالصة وهو الوجه الثاني لرويس.

الاستقامة، فهو الطريق الذي يقطع العبد عن ربه، ويوصِّلُه إلى دار الشقاء، والمهتدون سلكوا طريق الاستقامة بإذن ربهم، والضالّون سلكوا الطرق الجائرة، ولو شاء الله لهدى البشر جميعًا، ولكنه جعل للجنة أهلًا وللنار أهلًا وفق اختيارهم وميولهم:

ومن بين النِّعم التي ذكرتْها هذه الآيات: نعمة معنوية ذكرها الله سبحانه وسط هذه النِّعم الحسِّية الجليلة، وهي نعمة الهداية والبيان.

بمعنى: أن الله سبحانه خلق لنا عقولًا؛ لنميِّز بها بين الخير والشر، والحق والباطل، ولم يتركنا لهذه العقول التي قد تضل، وإنما هدانا سبحانه، وجعل فينا الفطرة لقبول التوحيد، وأرسل الرسل؛ ليبينوا لنا الهدى من الضلال، وأنزل الكتب، وآخرها هذا القرآن الذي هو بين أيدينا إلى قيام الساعة، وهذا معنى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾.

والسبيل: هو الطريق، **والطريق القاصد**: هو الطريق المستقيم غير المعوج.

ومن السبيل بيان الحلال والحرام، والطاعة والمعصية، أي: أن الله سبحانه بيَّن لنا طريق الاستقامة، تفضلًا منه لا وجوبًا عليه، فالله تعالى لا يجب عليه شيء، ولا يُلزَم بشيء، إنما تفضَّل علينا بمنِّه وكرمه، فألزم نفسه أن يهدينا إلى الإسلام، طريق الحق، ويبيِّن لنا الطريق المستقيم الذي يوصِّل إلى الفوز بالجنة، والنجاة من النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الليل].

ومن السبيل: سبُل جائرة، مائلة لا تهدي إلى الحق، ولا توصِّل إليه، وهي سبُل تصُدُّ عن طريق الحق، وتؤدي إلى طريق الغواية والضلال، وهذا معنى ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي: ومن بين الطرق التي يسلكها الناس طريق ضلال وجور.

وهذه السبل بيَّنها النبي ﷺ لأصحابه في درس عملي حين خطَّ خطًّا مستقيمًا، وقال: «**هذا صراط الله المستقيم**»، هذا هو طريق الحق المعتدل، ثم خطَّ خطوطًا معوجَّة كثيرة عن يمين هذا الخط، وعن يساره، وقال: «**وهذه السبل المعوجة، ما من سبيل منها إلا وله شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام][1].

---

(١) سبق تخريج الحديث عند هذه الآية من سورة الأنعام.

ولو شاء الله لهدى الناس أجمعين.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يخلق الناس مستعدين للهدى والضلال، وترك لهم حرية الاختيار، فمنهم من سلك طريق الاستقامة، ومنهم من سلك الطريق المعوج.
﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان] أي: بيَّنَّا له طريق الخير وطريق الشر، وأمرناه بالخير، ونهيناه عن الشر.

ثم بيَّن سبحانه أن الهدى هدى الله، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]

ولكنه سبحانه لم يشأ أن يجعل الإنسان نسخة مكررة من الملائكة الكرام الذين.
﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]

ولو شاء لهداكم كما هدى الملائكة؛ فكلهم مطيعون لله ﷻ، وكلهم مهتدون، وكلهم لا يعصون الله في شيء، ولا يخالفون أمره ونهيه.

فلا يتحقق الهدف من خلق الإنسان إذا كان نسخة مكررة من الملائكة.

ولكن الله سبحانه خلق الإنسان، وركَّب فيه العقل والشهوة معًا، وجعله مكلفًا، فأمره ونهاه، وخلق له الجنة والنار، وجعل الإنسان يجاهد الهوى والشيطان، تارة يغلبه هواه، وتارة يتغلب عليه، وخلق له عقلا وحرية واختيارًا، وبيَّن له طريق الحق والضلال، وجعله مسؤولًا عن تصرفاته، وعن اختياره ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]؛ ليترتب عليه الثواب والعقاب، فإن هو اختار طريق الهدى نجا ورشد، وإن هو اختار طريق الضلال ضل وغوى.

وهذا الخلق يختلف عن خلق الملائكة؛ حيث جعل الله لهم عقولًا، ولم يجعل فيهم شهوة تنازع العقل، ولذا جُبلوا على الطاعة.

ويختلف خلْق الحيوان أيضًا عن خلق الإنسان، فقد جعل الله فيهم الشهوة، ولم يجعل لهم عقولًا، ولذا كانوا غير مكلفين فلا يُثابون، ولا يُعاقبون.

وقد أضاف الله سبحانه سبيل الهداية إليه في الآية، ووصف هذا الطريق بالاستقامة،

ولم يُضِفْ سبيل الضلال إليه سبحانه؛ لأن الإنسان هو الذي اختاره مخالفًا به الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

ونهى سبحانه الناس عن طريق الضلال، ووصفها بالسبيل الجائر، وهي سبل: النصرانية، واليهودية، والبوذية، والهندوكية، والسيخ، وسائر ملل الكفر والضلال، ويدخل فيها أيضًا سبل أهل البدع والأهواء، ومَنْ يطلبون المَدد من غير الله تعالى، ومن يذبحون أو ينذرون لغير الله سبحانه، ومن يلتمسون جلب الخير، ودفع الضر ممن سواه... إلخ. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود].

والمعنى: وعلى الله بيان الطريق المستقيم لهدايتكم، وهو الإسلام وما اشتمل عليه من: عقائد، وعبادات، وأخلاق، ومن الطرق ما هو مائل لا يُوصِّل إلى الهداية، وهو كل ما خالف الإسلام من الملل والنحل، ولو شاء الله لهداكم جميعًا للإيمان.

النِّعْمَةُ السَّابِعَةُ: نِعْمَةُ إِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّحَابِ لِيَحْيَا بِهِ كُلُّ كَائِنٍ حَيٍّ

١٠-﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾

ومن أعظم النِّعَم نِعْمَة الماء الذي يحيا به الإنسان، والحيوان، والطير، والنبات، والشجر، والزرع، ومنه الطعام والشراب الذي لا بد لنا منه صباحًا ومساء؛ لإقامة حياتنا.

ومن هذا الماء الواحد يُخرج الله أنواع الزروع، والثمار، والأشجار على اختلاف أصنافها، وطعومها، وألوانها، وروائحها، وأشكالها.

وأهم وظيفة للماء: كونه شرابًا للإنسان، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ فأنتم تشربون منه، وتتنظفون به، وتتطهرون، وهو شراب لدوابِّكم ومواشيكم.

والوظيفة الثانية: خلق الشجر منه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي: وخلق الله

منه الشجر أصنافًا: منه ما له ساق، ومنه ما ليس له ساق، ومنه الكبير والصغير، ومنه الدقيق والعظيم، ومنه سائر النبات الذي يخرج من الأرض؛ كالعشب والكلأ، وفي هذا الشجر ترعى أنعامكم، وتأكل منه ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: ترعون مواشيكم.

والمعنى: هو الذي أنزل لكم من السحاب مطرًا، فجعل لكم منه ماء تشربونه، وأخرج لكم به شجرًا ترعون فيه دوابكم، ويعود عليكم درُّها ونفعها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فهو الذي أنزل من السحب الكثيفة ما يسوق الرياح إليها؛ لتلقحه بالمياه، فأحيا بسببه الأرض الميتة، وأنبت به الزرع والكلأ، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة]

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة]

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل].

وفي الآية دليل آخر على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته، وبديع خلقه؛ حيث أنزل المطر من السماء، ولو شاء لأمسكه، أو جعله أجاجًا ملحًا غير صالح للشراب، وأخرج بسببه هذا الشجر والثمر، قال سبحانه ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]. قال تعالى:

١١-﴿يُنْبِتُ[١] لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾

ثم فصَّل سبحانه أهم منافع الماء، ومنها وجود هذه الأشجار، والنبات، والكلأ والمرعى؛ حيث يُخرج الله، بهذا الماء الواحد، الزروع المختلفة، وقد ذكر الله في هذه الآية أربعة منها، ثـ ذكر عامة الثمار:

١- فبدأ سبحانه بالزرع، ومنه الحبوب التي يقتات بها الإنسان: كالقمح، والذرة، والعدس، والأرز، والفول، والشعير، ونحو ذلك مما لا غنى للإنسان والحيوان عنه، مع اختلاف الطعم، واللون، والصنف.

(١) قرأ شعبة بنون العظمة من (ينبت)، والباقون بالياء؛ لمناسبة (هو الذي أنزل).

٢- ثم ثنَّى ﷺ بالزيتون؛ لأنه شجرة مباركة فيها دهن، وفيها إدام.

٣- وثلَّث بالنخيل؛ لأن ثمر النخيل فيه غذاء، وفاكهة.

٤- ورابعها العنب، وهو مختلف في شكله ومذاقه، متعدد الفوائد والمنافع، وشجر العنب مثل النخيل في فائدته، فيه فاكهة، وغذاء.

وفي هذا الإخراج من الأرض دلالات واضحة لمن يتأمل ويعتبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الواقعة]

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

وفي هذا دلالة وحجة واضحة، لقوم يتأملون ويعتبرون، فيتوصلون إلى أن خالق هذا الكون واحد أحد، لا شريك له ولا ولد، فهو الذي يُعبَد دون سواه.

النِّعْمَةُ الثَّامِنَةُ: نِعْمَةُ تَذْلِيلِ الْكَوْنِ لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ

١٢-﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ(١) بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾

ثم ساق الله سبحانه فوجًا آخر من نعمه، فذكر خمسًا منها في هذه الآية، وهي: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم؛ فالليل وقت للراحة والنوم، وليس وقتًا للسهر والترفيه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ [النبأ]

ووقت النهار هو وقت العمل، والسعي، والعبادة، والحركة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ] وكلٌّ من الليل والنهار يعقب الآخر.

---

(١) قرأ ابن عامر برفع الأسماء الأربعة وهي: (الشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ)، وقرأ حفص بنصب الأولَيْن ورفع الأخيرَيْن، والباقون بنصب الأسماء الأربعة.

ولا ينبغي للمسلم أن يعكس مراد الله سبحانه في هذا الكون، لا ينبغي له أن يسهر حيث أراد الله أن ينام، وأن ينام حيث أراد الله منه أن يسعى ويعمل.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فصرتم في ليل دائم طويل لا ينتهي ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: دائمًا متصلًا ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص]

حيث تسكنون في الليل، وتبتغون من فضل الله، وتسعون على أرزاقكم في النهار، ولعلكم تشكرون الله على نعمه.

وكما ذلل لكم الليل والنهار ذلل لكم الشمس والقمر، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [يونس: ٥].

وتسخير الشمس والقمر يتجلَّى في إمدادهما لنا بالطاقة، والحرارة، والضوء، والإشراق ولنضج الثمار والزروع، ولمعرفة السنين والحساب، والاهتداء بها في الظلمات، وتجفيف الرطوبات وإزالة البرودة الضارة بالأرض والأبدان، وغير ذلك مما سخر الله له هذه الكواكب؛ لنفع البشرية بأمر الله تعالى وقَهْره لها، وتصرفه فيها كيف يشاء، وهذا كقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ثم ذكر الله سبحانه النعمة الخامسة في الآية، فقال: ﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ﴾ حيث جعلها الله سبحانه زينة للسماء الدنيا، وجعلها رجومًا للشياطين، وجعلها مصابيح يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ومعرفة الأوقات، وحساب الأزمنة، وفي هذا دلائل واضحة لمن يعقل حجج الله وبراهينه.

ولأن في هذه الآية خمسًا من دلائل قدرته تعالى لم يقل سبحانه: لآيات لقوم يتفكرون، وإنما قال: ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيدركون أن هذه المخلوقات مسخرات؛ لانتفاع البشر من السكون بالليل، والسعي بالنهار، والمنافع التي لا تُحصى من الشمس والقمر،

والنجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]

وقال: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [١٦].

وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس]

وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم]

وفي هذه المخلوقات الخمس: الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم أعظم دليل على وحدانية الله تعالى، واستحقاقه للعبادة دون سواه.

النِّعْمَةُ التَّاسِعَةُ: نِعْمَةُ إِخْرَاجِ مَا فِي جَوْفِ الْأَرْضِ وَتَذْلِيلِ مَا عَلَى ظَهْرِهَا لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ

١٣- ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾

ولما ذكر سبحانه نعمه في السموات، أتبعها بذكر نعمه في الأرض من: الدواب، والثمار، والشجر وغيرها، متعددة المنافع، والألوان، والطعم.

أي: ذلل الله سبحانه لكم ما هو مكنون في جوف الأرض من: الذهب، والمعادن، والبترول، والركاز، والكنوز، وغير ذلك.

وذلّل لكم ما هو على ظهر الأرض من: الحيوان، والحشرات، والجبال، والنبات، والثمار، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٨﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ [فاطر].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وفي هذه الدلائل عبر وعظات، لمن يعلم أن في تسخير هذه الأشياء علاماتٍ دالةً على توحيد الله تعالى، ووجوب إفراده بالعبادة، ففي اختلاف الألوان، والمناظر، والهيئات، والأجناس، والخواص، دلائل واضحة على قدرة الله تعالى، وعلى أنه المتفرد بالخلق والمستحق للعبادة.

هذا: والآيات الثلاث الأخيرة خُتِمتْ على التوالي: بقوم ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿يَعْقِلُونَ﴾، ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾.

١- أما الآية الأولى فهي تتحدث عن إخراج النبات والثمار من الأرض، وهذا يحتاج

إلى تأمل، وإعمال فكر.

قال أبوحيان: ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وُضعت في الأرض، ومرَّ عليها زمن معين لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به، فيُشق أعلاها، فتصعد منه شجرة إلى الهواء، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى، وهي العروق، ثم ينمو الأعلى ويقْوى، فتخرج الأوراق والأزهار، والأكمام والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع، والألوان، والأشكال، والمنافع، وذلك بتقدير قادر مختار، هو الله تعالى[(١)].

ونعم الله تعالى في هذه الآية، نِعَمٌ أرضية يشاهدها الإنسان، وما عليه إلا أن يتأمل فيها، فيصل بفكره إلى وحدانية الخالق سبحانه.

٢- أما الآية التي بعدها فالنعم فيها نعم عُلْوية من: الشمس والقمر، وينشأ عنهما الليل والنهار، وهذه الدلائل لا يدرك منفعتها ومصلحتها للعباد إلا أصحاب العقول السليمة والعلم الصحيح من أولي الألباب، فيتوصلون عن طريق ذلك إلى وحدانية الخالق سبحانه.

٣- أما الآية الثالثة فإن المقام فيها مقام عظة واعتبار، وتذكير، واهتداء؛ ليشكروا الله تعالى على نعمه، ويُخلِصوا له العبادة.

كما أن الآية الأولى والثالثة أُفْرِدَ فيها لفظ (آية)؛ لأن ما ذُكِر في الآيتين يرجع إلى ما يخرج من الأرض، فكأنه آية واحدة تابعة لخلق الأرض وما تحتويه سواء في النبات، أو التناسل في الحيوان.

٤- أما الآية الثانية فإن اختلاف الأحوال في الشمس والقمر والكواكب، يجعل لكل منها نظامًا يخصُّه، ودلائل تخالف الآخر، فكانت مجموعة من الآيات[(٢)].

---

(١) «تفسير البحر المحيط» (٥/ ٤٧٩).

(٢) يُنْظَر في تعليل إفراد الآية وجمعها: «تفسير التحرير والتنوير» (٢/ ١١٧) نقلًا عن الفخر الرازي.

النِّعْمَةُ الْعَاشِرَةُ: نِعْمَةُ تَسْخِيرِ الْبَحْرِ وَاسْتِخْرَاجِ مَا فِيهِ لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ

١٤-﴿وَهُوَ[1] ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

وبعد أن ذكر سبحانه بعض نعمه في خلق الإنسان، والدواب، والسموات، والأرض أتبع ذلك بذكر بعض نعمه في البحار، فإن من أجلِّ نعم الله سبحانه على الإنسان أن سخر له هذا البحر العظيم، متلاطم الأمواج، الذي لا يستطيع الإنسان أن يجابهه بذاته دون تطويع الله له، فقد سخره سبحانه وذلَّله لنفع الإنسان ليركب عليه، وليغُوص فيه، وليصطاد منه.

وتسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله للإركاب، والاصطياد، والنقل، والسباحة، وبلوغ الأقطار التي تحول دونها البحار.

وكان ابن عمر ﷺ يكره ركوب البحر إلا لثلاث: غاز، أو حاج، أو معتمر[2] ويلحق بذلك التجارات، والسفر المباح، ونحو ذلك، وذكرت الآية **خمس فوائد** من فوائد البحر:

الفائدة الأولى: ﴿لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي: لتأكلوا مما تصطادون منه لحمًا طريًّا طازجًا، هو السمك والحوت.

وفي علم التغذية أن سمك البحار له من الفوائد ما ليس لغيره من الأسماك التي تعيش في الأنهار، أو المزارع، ونحوها، ولا يؤكل ما طفا منه على وجه الماء؛ لما فيه من الضرر، والله ﷻ جعل الأسماك والحيتان في الأنهار، وفي البحار معًا، وعبَّر الله تعالى عنهما بالبحرين فقال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ أي: النهر والبحر، المِلْح والعذب ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ وهو ماء النهر ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ وهو ماء البحر ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي: من البحار والأنهار ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [آية: ١٢]

---

(١) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من (وهْو)، والباقون بضمها.
(٢) عبد الرزاق (٩٦٢٨).

واللحم الطري: هو السمك يخرج حيًّا، وبعد فترة وجيزة يموت ويفسد.

والله ﷻ أحل لنا ميتتين: هما السمك والجراد، وأحل لنا دَمَيْن: هما الكبد والطحال.

وفي سورة الفرقان قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ وفي وصف الطراوة تنبيه على المسارعة إلى أكله وهو حيٌّ طري.

سئل قتادة عن رجل قال لامرأته: إن أكلت لحمًا فأنت طالق، فأكلت سمكًا، فقال: هي طالق، قال تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[1].

الفائدة الثانية: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أي: تُخرجون من البحر زينة تلبسونها، وتتحلون بها من اللؤلؤ، والياقوت، والصدف، والصوف، والمرجان، والجواهر النفيسة.

واللؤلؤ يوجد في الخليج العربي، والمرجان البحري، يوجد في جميع البحار، ويختلف في قلته وكثرته بين بحر وآخر، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن] أي: حلية تتحلَّون بها، والمراد: يتزيَّن بها النساء لأجل الرجال، فكأنه زينة للجنسين معًا؛ لاشتراك المنفعة بينهما، ولا يوجد ما ينص على منع تحلي الرجُل باللؤلؤ والمرجان، كما في الذهب، وإنما يُمنع أن يتشبه الرجال بالنساء.

الفائدة الثالثة: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ وفي آية أخرى: ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢] أي: وترى السفن والبواخر تشق الأمواج، وتجري فوق الماء، وتمخر عباب البحر فتحمل البضائع وتنقلُها، وتحمل العتاد، والعدد الثقيلة التي لا سبيل لنقلها من إقليم إلى إقليم، ومن بلد إلى بلد، إلا بواسطة هذا البحر ذهابًا وإيابًا، مقبلة ومدبرة، ثقيلة وخفيفة، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [لقمان: ٣١].

وقال أيضًا: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

---

(١) ابن أبي شيبة ص ٥٣ من الجزء الرابع.

الفائدة الرابعة: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لتطلبوا رزق الله بالتجارة، والربح فيها، والركوب عليها، ونقل البضائع.

الفائدة الخامسة: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه عليكم، فلا تعبدوا غيره.

فلله الحمد حيث أعطى عباده فوق يحتاجون إليه في مصالحهم ومنافعهم.

وأول من صنع السفينة نوح ﷺ بأمر الله تعالى، وتعليمه إياه، وهو أيضًا أول من ركبها، ثم أخذها الناس عنه جيلًا بعد جيل، وعلمنا سبحانه أن ندعو الله تعالى عند ركوبها بهذا الدعاء: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١].

النِّعْمَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: نِعْمَةُ تَثْبِيتِ الْأَرْضِ بِالْجِبَالِ وَإِيجَادِ الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ فِيهَا

١٥- ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾

ومن نِعَم الله سبحانه على الإنسان وغيره أن جعل هذه الأرض ثابتة لا تتحرك في نظر الرائي لها رأي العين، فنحن نعيش فوقها بأمن وأمان.

وقد ورد أن الله تعالى لمَّا خلق الأرض جعلت تميد؛ لأنه سبحانه وضَعها فوق الماء، فثبَّتها الله سبحانه بالجبال، وجعلها رواسي وثوابت للأرض؛ لئلَّا تميل وتضطرب بمن على ظهرها، ولئلَّا تزول من مكانها.

فالرواسي هي الجبال الثوابت، جعلها الله أوتادًا للأرض؛ لئلَّا تميد بالناس، فتتحرك وتضطرب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١] أي: ليس في مقدور أحد من البشر أن يمسك بزمام السموات والأرض، ويثبتهما إن زالتا عن أماكنهما، وقد كانت الأرض قبل أن تُخلق فيها الجبال، كُرَة خفيفة تتحرك لأدنى سبب كسائر الأفلاك، فلما ثبَّتها الله تعالى بالجبال توجهت بثقلها نحو المركز، فصارت الجبال كالأوتاد بالنسبة للأرض، وقد امتنَّ الله على عباده بهذا الاستقرار والثبوت في مواطن كثيرة من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾

[ق: ٦- ٨]. وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]. وجاءت آثار كثيرة مرفوعة، وموقوفة تشرح هذا المعنى[1].

ومن ذلك ما قاله وهب بن منبه: لما خلق الله ﷻ الأرض جعلت تمور وتتحرك، فقالت الملائكة: إن هذه غير مقرة أحدًا على ظهرها، فأصبحوا وقد أُرْسِيَتْ بالجبال، فلم تدْرِ الملائكة مم خُلقت الجبال؟[2].

ومفهوم الآيات يشير إلى أن خلق الجبال كان متأخرًا عن خلق الأرض.

ولفظ: ﴿تَمِيدَ﴾ يشبه إلقاء شيء في شيء بعد تمامه، فالجبال ليست من الأرض، ولكنها من قدرة الله تعالى وخلقه، وكأن نتوء الجبال على سطح الأرض معدِّلًا لكرويَّتها، ولتخفيف حركتها واضطرابها في الفضاء، ولحفظ توازن الأرض.

والعلم الحديث يعلِّل وجود الجبال بأنها نشأت بعوامل الحرارة والبرودة، ولا تشير إلى كونها تُمكن الأرض من القرار وعدم الاضطراب.

وخلْق ما في الكون أعظم من أن يدركه المخلوق، أو يحيط بعلمه.

والآية التي نحن بصددها أشارت إلى نعم ثلاث هي:

١- إرساء الجبال في الأرض؛ لتثبيتها، ولئلَّا تميل بالناس.

٢- وفي مقابل الجبال تأتي نعمة المياه العذبة التي تجري في الأنهار في قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ ولا حياة للإنسان، ولا للحيوان، ولا للنبات إلا بالماء.

٣- جعل الله في الجبال مسالك وطرقا لربط الأرض ببعضها، ولنفع الإنسان والحيوان، والعقلاء هم الذين يتمكنون من حرث الأرض وزرعها، والسير فوقها، والبناء عليها، واستخراج كنوزها، والانتفاع بأنهارها، وجبالها ووديانها وشعابها.

---

(١) يُنْظَر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٦٢) و«تفسير عبد الرزاق» (١/ ٣٠٦) وما رواه الترمذي (٣٣٦٩) بسنده عن أنس وفي مسند أحمد (١٢٢٥٣) والضياء في المختارة (٢١٤٨) وعبد بن حميد (١٢١٥) وأبو يعلى (٤٣١٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٣٤٤١) وفي «تفسير القرطبي» (١٠/ ٩٠) وما جاء في «تفسير ابن كثير» للآية وغيرهم، وسنده ضعيف في الجميع.

(٢) «تفسير الخازن» (٣/ ١٠٨) ويُنْظَر: «تفسير البغوي» للآية.

النِّعْمَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: خَلْقُ الْجِبَالِ وَالنُّجُومِ لِهِدَايَةِ الْإِنْسَانِ فِي أَسْفَارِهِ

١٦-﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾

والنعمة الثانية عشرة في هذه السورة أن هذه الجبال جعلها الله معالم للطرق في السفر: برًّا، وبحرًا، وجوًّا، ليلًا ونهارًا، وكلها سبل وطرق للسفر، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر إلى مقاصدكم في أسفاركم.

أي: ومن نعمة الله سبحانه أن جعل لنا في الأرض متسعًا، هي سبل وطرق تربط بين البلاد وجميع الأماكن، ولولا هذا الاتساع في رقعة الأرض لما استطاع الإنسان أن يتجوَّل في أرجاء المعمورة؛ إذ كيف يسلك الإنسان الطرق؟ وكيف يعبر وينتقل من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد، لولا هذه الطرق والمنافذ المتعددة.

والإنسان يألف هذه النعم المذكورة في الآيات، يتقلب فيها صباحًا ومساءً، ولكنه لا يتأمل ولا يفكر فيها؛ لأنه يراها في غدوِّه ورواحه، وكأنها شيء عاديٌّ، وإنما يهتم بالشيء ويعرف قيمته، من يفقده ولا يجده.

والذي يفقد الشيء هو الذي يعرف قدره؛ فالصحيح لا يشعر بالمرض إلا إذا رآه، والذي يتوفر له الماء لا يشعر بقيمته إلا إذا فقده ولو يومًا واحدًا، أو ساعة من نهار حين لا يجد ما يروي ظمأه.

- ونعم الله تعالى يتقلب فيها الإنسان دائمًا، ولكنه في غفلة عنها، وهو بحاجة إلى تيقُّظ الضمير؛ ليجعله يفكر في آلاء الله ونعمه، في غدوه ورواحه، وصباحه ومسائه، ومن هذه النعم ما جاء في هذه الآية في قوله سبحانه:

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ أي: أن هذه الطرق علامات يهتدي بها الناس في أسفارهم، وهذه العلامات مثل: الجبال، والأودية، والهضاب، والنجوم، والأنهار، والبحار، فكلُّ ما دل على شيء وأعلم به، فهو علامة.

قال ابن عباس ﷺ: **العلامات**: معالم الطرق.

وأشار ابن عطية إلى أن في بحر الهند حيتانًا طوالًا رقاقًا كالحيَّات، تُسمَّى علامات؛

لأنها علامة الوصول إلى بلاد الهند، وأمارة على النجاة في هذا البحر الطويل الذي يجري من اليمن إلى الهند، وكلها علامات للمسافرين وللسائرين في أرض الله.

ومن العلامات: الأمارات التي يضعها الناس؛ للتعرف على حدود الأرض، أو البلد أو المدينة، أو المسافات والمسالك في البر والبحر والجو.

ثم خص النجم بالذِّكْر؛ لأنه يختلف عن علامات الأرض، فقال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فالنجم علامات بالليل، والجبال والأودية علامات بالنهار.

قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاثة أشياء: لتكون زينة السماء، ومعالم للطريق، ورجومًا للشياطين، فمن قال غير ذلك، فقد تكلَّف ما لا علم له به[1].

والنجم: اسم جنس يشمل كل نجم، وليس هناك من دليل على تخصيص بعض النجوم دون بعض، ولكل من الثلاثة التي ذكرها قتادة دليل من كتاب الله تعالى.

فدليل الزينة قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات].

ودليل كونها رجومًا للشياطين قوله تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾ [الصافات].

ويجمعهما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

ومن أدلة هداية النجوم للمسافرين، وغيرهم، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وأخص من يهتدي بالنجوم، البحَّارة؛ لأنهم يضطرون إلى السير ليلًا حيث لا ضوء ولا كهرباء، وكذا أهل البوادي، والقرى، والصحارى في معيشتهم، وزراعتهم، وأهل القُطْبيْن؛ حيث لا توجد الحضارة المادية في قارات الدنيا على حدٍّ سواء.

فقارة آسيا، وأوروبا، والأمريكتيْن لا تستوي مع بلاد الأدغال، وكثير من أفريقيا، وأهل القطب الشمالي والجنوبي، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن.

هَلْ يَسْتَوِي الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ؟

١٧ -﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[١] ﴿١٧﴾﴾

وبعد أن سرد سبحانه هذه النعم الكبرى لصالح الإنسان، وأقام الأدلة على انفراده تعالى بالخلق والتدبير، أنكر على المشركين شركهم بالله تعالى، وعبادتهم غيره معه، فوبخهم قائلًا: أبلَغ بكم السفه والجهل أن سويتم في استحقاق العبادة بين آلهتكم التي تزعمونها، وهي لا تخلق شيئًا، وبين مَن يخلق كل شيء؟ لا يقول بهذا من له أدنى بصيرة، فيُسَوِّي بين الخالق والمخلوق ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ هذه الآيات العظام وهذه النعم الكثيرة ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ﴾ شيئًا؟ كيف وهو نفسه مخلوق؟ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ فتتعظوا، وتعتبروا، وتفردوه سبحانه بالعبادة، وتدركوا أن آلهتكم المزعومة جماد لا تعقل، ولا تضر، ولا تنفع، فإذا انتفت هذه التسوية فقد قامت عليكم الحجة، وألزمتْكم بعبادة الله وحده.

والقرآن بهذا يخاطب المكذبين به في كل زمان ومكان؛ ليتداركوا أنفسهم قبل أن ينتهي عمر كل منهم، ويخاطب المؤمنين؛ ليقوي إيمانهم، ويزدادوا إيمانًا.

نِعَمُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى

١٨ -﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَاۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

وبعد أن فصَّل سبحانه ألوانًا من نعم الله تعالى على خلقه، نبَّه جلَّ شأنه على وفرة هذه النعم وكثْرتها، فذكر على وجه الإجمال أن نعم الله تعالى لا تُعدُّ ولا تُحْصَى، فمهما حاول الإنسان حصر هذه النعم فإنه لا يفي بحصرها؛ لكثرتها وتنوعها.

ولفظ: ﴿نِعْمَةَ﴾ اسم جنس يشمل جميع النعم، وفي الإنسان وحده من النعم التي لا حصر لها: السمع، والبصر، والعقل، واليد، والرجل، وما في الجهاز الهضمي من تحوُّل لذيذ الطعام والشراب إلى فضَلات مستقذرة، وما يُحوِّل الطعام إلى دم، وما في الجهاز التناسلي من خلايا وكائنات، وما يفرزه الجسم من نطفة، يخلق الله منها هذا

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف (أفلا تذَكرون) بتخفيف الذال، والباقون بتشديدها.

الإنسان على جليل قدْره وعظم شأنه من بين الكائنات الحية جميعًا، وغير ذلك مما خلقه الله في الإنسان من النِّعَم، وإن بذلتم أقصى الجهد لحصر هذه النعم، وحاولتم تعدادها، فلن تستطيعوا ذلك، فضلًا عن أن تُطيقُوا أداء حقها وشكرها.

ولكن الله سبحانه لا يؤاخذكم على التقصير، ولا يؤاخذكم على قلة شكرها، ولذا فقد ختم الله الآية ببيان أنه تعالى غفور رحيم، فيتجاوز عن تقصيركم وعجزكم، ولا يقطع هذه النعم عنكم، ولا يعاجلكم في الدنيا بالعقوبة.

وحين تكون هذه النعم سببًا لكفر الإنسان وظلمه نفسه، فإن ختام الآية يأتي مختلفًا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛ لأن سياق الآية هناك مسبوق بقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم].

وحينما تكون هذه النعم سببًا في زيادة الإيمان وشكر المنعم، فإن ختامها يكون بمثل ما في الآية التي معنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أَرْبَعٌ مِنْ خَصَائِصِ الْأُلُوهِيَّةِ الْحَقَّةِ

الْخَاصِّيَّةُ الْأُولَى: عِلْمُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ

١٩- ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾

ثم ذكرت السورة أربعًا من خصائص الإله الحق سبحانه، أولها علم الظاهر والباطن؛ فالله جلَّ شأنه هو الذي يعلم السر والعلن، ويعلم ما تخفيه في صدرك وما تسرُّ به إلى غيرك، وما تجهر به أمام الجميع، ويعلم جميع أحوالك، ما ظهر منها وما بطن، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

الْخَاصِّيَّةُ الثَّانِيةُ: خَاصِّيَّةُ الْخَلْقِ

٢٠- ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ[1] مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

---

(١) قرأ عاصم ويعقوب بياء الغيب في (يدعون) على الالتفات، والباقون بتاء الخطاب.

والإله الحق من خصائصه أنه يَخلُق ولا يُخلَق، فالإله يكون خالقًا، وأصنامكم هذه تنحتونها بأيديكم، وهي مخلوقة، فكيف يستقيم أن تكون آلهة؟ ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات] فهي مخلوقة، نحتها البشر بأيديهم، وهي لا تخلُق ولو ذبابة، ليس هذا فحسب، بل إن الذباب لو سلب شيئًا من الإنسان فلا يمكنه إعادته، ولا استخلاصه منه بعد أخذه.

الْخَاصِّيَّةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ

٢١-﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾

ومن خصائص الإله الحق، أن يكون حيًّا دائمًا، لا يموت أبدًا، ولا يغفل لحظة عن خلقه، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولو كانت الأوثان آلهة لاستحال عليها الموت؛ وهذه الآلهة أموات لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنطق، ولا تعقل، فهي أموات غير أحياء، وهي جماد، وليس فيها شائبة ولا شبهة من حياة، فكيف يستقيم أن تكون آلهة؟! فتبًّا لعقول ضلّت عن أوضح الأمور، فسوت بين الناقص من جميع الوجوه، والكامل من جميع الوجوه.

الْخَاصِّيَّةُ الرَّابِعَةُ: عِلْمُ قِيَامِ السَّاعَةِ

ومن خصائص الإله الحق، أنه سبحانه يعلم موعد قيام الساعة، ويعلم الغيب، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وهذه الآلهة لا تعلم شيئًا عن ذاتها ولا عن غيرها، وهي أصنام لا تشعر متى تُبعث؟ لأن علم يوم البعث من خصائص الله سبحانه، وسوف يُلقى بالأوثان، ومن عبدها في النار يوم القيامة، فكيف يُرجى منها نفع، أو ثواب، أو جزاء، وهي لا تعلم شيئًا؟

وقد أبطلت هذه الآية أصل عقيدة المشركين؛ لأنها تقوم على إنكار التوحيد، وإنكار البعث، وقد جاء إثبات التوحيد في الآية، بأنه تعالى حيٌّ لا يموت، وجاء إثبات البعث، في عدم شعور آلهة المشركين ببعثهم، كما جاء وصف آلهة المشركين بثلاثة أوصاف هي:

أولًا: العجز التام؛ إذ إنها مخلوقة وليست خالقة، فهي مفتقرة في وجودها إلى غيرها، فكيف يعبدون شيئًا صنعته أيديهم؟ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾.

ثانيا: إنها تفقد الحياة فُقْدانًا تامًّا، فكيف يعبدون ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني

عنهم من الله شيئًا؟ ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾.

ثالثًا: إنها تفقد الإحساس تمامًا؛ لأنها جماد، وشعور الجماد مستحيل، وستكون هذه الجمادات وقودًا للنار يوم القيامة، فكيف تصلح للعبادة؟! ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

النَّتِيجَةُ الْحَتْمِيَّةُ لِهَذِهِ الْخَصَائِصِ

٢٢-﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

والنتيجة الحتمية المنطقية هي: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هذا خطاب لجميع الناس بعد وصف المشركين بالعجز التام؛ وذلك لإعلان أن واجب الوجود سبحانه، واحد أحد، فهو الذي يجب صرف العبادة إليه وحده.

والمعنى: إلهكم المستحق للعبادة وحده دون سواه، هو الله الذي لا إله إلا هو، وهذا أمر مسلَّم به بداهة،بما لا يدع مجالاً للشك ولا للتردد،ولذلك فقد جاء الكلام مستأنفًا

مبتدأ به، لم يسبقه قسم ولا تأكيد، وهو خطاب مَنْ ليس عنده أدنى إنكار لقضية التوحيد.

ومن أصول العقيدة، وأركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من: بعث، وحساب، وجزاء على الأعمال، والذي ينكر وحدانية الله تعالى ينكر من باب أولى أن هناك يومًا آخر يجازَى فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وأقوى رُتَب الكفر: الجمع بين التكذيب بالله تعالى وبالبعث؛ لأن من يجحد الآخرة قلوبهم تكذب بواحدانية الله ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ من المستكبرين المنكرين للوحي، المكذبين لرسل الله، المكذبين ليوم القيامة، هؤلاء ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ جاحدة للتوحيد، جاحدة لنعم الله عليهم، جاحدة للبعث، والحشر، والنشور، وقد حُذف متعلق الإنكار؛ لدلالة المقام عليه،

وعبَّر بالجملة الاسمية؛ ليفيد أن إنكارهم للتوحيد واليوم الآخر مستمر، وأنه سجية لهم، ولم تشتمل جملة ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ على تأكيدات، تنزيلًا للمشركين منزلة من لا يتردد في التوحيد، بعد ما سمعوا الأدلة السابقة بخلاف ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾ [الصافات] فلم يسبقها دليل.

ثم وصفهم الله سبحانه بالكِبْر، وبيَّن أن هذا الكبر هو المانع لهم من الإيمان ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباع الحق، رافضون قبوله؛ لعدم خوفهم من الله تعالى، فهذا الإنكار لليوم الآخر بسبب المكابرة والمعاندة.

والكبر هو الذي منع إبليس من السجود لآدم ﷺ، وصرفه عن امتثال أمره سبحانه.
والكبر هو أول معصية عُصي بها الله سبحانه، والكبر هو رفض قبول الحق، وعدم الإذعان له.

١- وقد حدد النبي ﷺ معنى الكبر في كلمتين اثنتين فقال: **«الكبر بطر الحق»** أي: عدم قبوله، ورفضه، وعدم التسليم به، **«وغمط الناس»** أي: ازدراؤهم واحتقارهم، والتنقيص من شأنهم، كما جاء ذلك في الحديث، وقد سأل رجلٌ رسول الله ﷺ قائلًا: الرجل منَّا يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنًا، فقال ﷺ: **«إن الله جميل يحب الجمال»** وكان الرجل قد سمع قول النبي ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»** فظن الرجل أن التجمُّل، وحسن المظهر بما هو مشروع من باب الكبر، فبيَّن له النبي ﷺ معنى الكبر، بأنه: **«بطر الحق وغمط الناس»**[(١)] أي: رفض الحق، واحتقار الناس، والتنقيص من شأنهم، سيَّمَا أهل العلم والصلاح، المعروفون بين الناس بالتقى، والاستقامة، وغزارة العلم، أو علو المنصب، فيعمد بعض الناس إلى التنقيص من أقدارهم، ومن شأنهم في أعين الناس. **وهذه جملة من الأحاديث في هذا المعنى:**

٢- وعن عياض بن حمار ﷺ أن النبي ﷺ قال في خطبته: **«إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا؛ حتى لا يفخر أحد على أحد»**[(٢)].

٣- وعن ابن عمر أن أبا ريحانة قال: يا رسول الله، إني لأحب الجمال حتى في نعلي، وعِلاَقةِ سوطي، أفمن الكبر ذلك؟ قال: **«إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، الكبر من سَفِه الحقَّ، وغمَصَ الناسَ أعمالَهم»**[(٣)].

---

(١) الحديث في «صحيح مسلم» برقم (٩١) عن عبد الله بن مسعود ﷺ وفي «سنن أبي داود» (٤٠٩١) والترمذي (١٩٩٨، ١٩٩٩) وابن ماجه (٥٩، ٤١٧٣) والبيهقي (٨١٥٢) وابن أبي شيبة (٩/ ٨٩).

(٢) مسلم (٦٤/ ٢٨٦٥) والبيهقي في «الشعب» (٦٦٧٢، ٨١٢٣).

(٣) أخرجه ابن عساكر (٤٣/ ٨٤، ٦١/ ١٩٤) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، وفي مسند أحمد بنحوه (١٧٢٠٦، ١٧٢٠٧) عن كُرَيب عن أبي ريحانة، وهو حديث صحيح لغيره. (محققوه).

٤- وعن ثوبان ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من فارق الروح جسدَه وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: الكبر، والدَّيْن، والغُلُول**»(١).

٥- وعن ابن عمر ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كِبْر كبَّه الله على وجهه في النار**»(٢).

واستكبار الكافرين عن قبول التوحيد جاء في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص]

وقوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]

فالكافرون متكبرون عن قبول الحق وعن عبادة الله وحده.

إِحَاطَةُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَنْ يُنْكِرُونَ التَّوْحِيدَ وَالرِّسَالَةَ وَبَيَانُ عُقُوبَتِهِمْ فِي الآخِرَةِ

٢٣- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

أى أن الله تعالى يعلم حقيقة النفاق والإشراك بالله تعالى، وتكذيب الرسول الخاتم، وعدم الإيمان باليوم الآخر، وما تخفيه نفوسهم لا يخفى عليه منه شيء، لا شكَّ في ذلك أبدًا، وهم سيندمون على أقوالهم وأفعالهم الذميمة، وسوف يجازيهم الله على سوء صنيعهم ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا لابد، ولا محالة، ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ إنه سبحانه

---

(١) «المسند» (٢٢٣٦٩، ٢٢٤٢٨) وإسناده صحيح على شرط مسلم (محققوه) والترمذي (١٥٧٢، ١٥٧٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧٦٤) وابن حبان (١٩٨) والحاكم (٢/ ٦٢) وصحيح «سنن ابن ماجه» (١٩٥٦).

(٢) «المسند» (٧٠١٥) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي (٨١٥٤) وابن أبي شيبة (٩/ ٨٩).

يعلم ما يخفونه من عقائد وأقوال وأفعال، وما يظهرونه منها، وسيجازيهم على ذلك ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ عن عبادته، وعن الانقياد له سبحانه. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]

وقد وردت كلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ في خمسة مواضع من القرآن الكريم، ثلاثة منها في هذه السورة، في الآيات: ٢٣، ٦٢، ١٠٩، والآية الثانية والعشرون من سورة هود، والثالثة والأربعون من سورة غافر.

وقد جاء في الحديث: «**إن المتكبرين يُحشرون أمثال الذر يوم القيامة، يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم**»(١) وهو جزاء موافق لكِبْرِهم في الدنيا، وهذه الآية جملة معترضة بين الآية السابقة واللاحقة. قال تعالى:

٢٤-﴿وَإِذَا قِيلَ(٢) لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾

ثم بيَّن ﷻ حال القلوب المنكرة لتوحيد الله تعالى، المستكبرة عن اتباع الحق الذي جاء به محمد ﷺ، فبيَّن ﷻ أن من شأن المتكبرين أنهم لا يعترفون بنبوة محمد ﷺ، ولا يتركون الناس تؤمن به، فإذا سئلوا عن القرآن والوحي، قالوا: كذب اختلقه محمد، وما هو إلا قصص الأولين يتناولها جيل بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فهم ضالون في أنفسهم، مضلون لغيرهم، وهذا هو شأن أعداء الإسلام في كل زمان ومكان، لا يصدقون بالإسلام، ويحولون بين الناس وبين الإيمان به، وفي قارات الدنيا من لم يصل إليهم دعوة الإسلام، ومنهم من وصلت إليه صورة مشوهة عنها.

وإذا سئل غير المسلمين عن نبي الإسلام، فلا شكَّ أنهم سيقدحون فيه، ويحولون بين الناس وبين دخولهم في الإسلام، وهكذا كان تعمد أهل الكفر والضلال إلى صد الناس عن سبيل الله، وتنفيرهم من القرآن، ومِنْ صاحب الرسالة ﷺ.

---

(١) ينظر حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بنحوه في مسند أحمد (٦٦٧٧) بإسناد حسن، والحميدي (٥٩٨) والترمذي (٢٤٩٢) وحسّنه.

(٢) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام الكسر حركة الضم في (قيل)، والباقون بالكسرة الخالصة.

فإذا سئل الجاحدون عن القرآن أجابوا كذبًا وزورًا: ما جاء محمد إلا بقصص السابقين وأباطيلهم، فهي خرافات وحكايات وهمية.

وهذا شأن المستكبر المنكر، يختلق المعاذير الباطلة لإنكار الحق، ويصد الناس بشتى الطرق عن الإيمان، فيضللهم، ويحول بينهم وبين طريق الهداية.

وقد رأى المنكرون لرسالة سيد المرسلين ﷺ تأثير القرآن على نفوس الناس وكثرة الداخلين فيه، فدبَّروا المؤامرات واختلقوا الأكاذيب، وقالوا للناس: لا تغتروا بهذا الذي يدعي النبوة، إنه مجنون، أو ساحر.

وذلك أن الوحي الذي نزل على رسول الله ﷺ في ليلة القدر من شهر رمضان؛ كان الناس حياله صنفين: فمنهم مَنْ هو مؤمن مصدق به، ومنهم من هو منكر وجاحد له.

وعلى رأس المشركين الذين عارضوا القرآن الكريم: النضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة.

فقد جمع الوليد بن المغيرة عددًا من الكفار، وطلب منهم أن يصدوا القادمين إلى مكة، والوافدين إلى الحج، فيمنعوهم من الدخول في الإسلام، وينفروهم من رسالة محمد ﷺ.

فاختاروا ستة عشر رجلًا، هم الذين سمَّاهم القرآن (المقتسمين) في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر] ووضعوهم في فجاج مكة، وعلى مداخلها وطرقها الرئيسة، وجعلوا في كل مدخل منها أربعة من هؤلاء الرجال، يقابلون الوفود التي كانت تأتي من خارج مكة، ومن أطراف الجزيرة؛ لتتعرف على آخر أخبار الرسول الجديد ﷺ فكانوا يأتون إلى أسواق مكة المعروفة؛ كسوق عكاظ، ومجنة، وذي المجاز، كل أسبوع؛ بقصد التجارة في رحلتي الشتاء والصيف في موسم الحج، والعمرة.

فإذا جاء الوافد إلى مكة يقابله عند الطريق هؤلاء النفرُ من المشركين فيسألهم: ماذا أنزل ربكم؟ أي شيء أنزله على محمد ﷺ؟ فيقولون: أساطير الأولين، لم ينزل عليه شيء، وما يقوله ما هو إلا خرافات، وأباطيل، وأكاذيب افتراها، واختلقها من عند نفسه،

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان]

قال سبحانه في الرد عليهم: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان].

وروى ابن أبي حاتم عن السُّدِّي: أن قريشًا اجتمعت فقالوا: إن محمدًا رجل حُلْو اللسان، إذا كلّمه رجل ذهب بعقله، فاختاروا أشرف قومكم وابعثوهم في كل طريق من طرق مكة، فمن جاء إليها يريد محمدًا فردُّوه، فخرج ناس في كل طريق يستقبلون الوافدين، فيذكُرُ أحدهم نسبه إلى الوافد، ثم يقول له: أنا خير من محمد، إنه رجل كذَّاب، لم يتَّبِعْه إلا السفهاء والعبيد، أما شيوخ القوم وخيارهم فقد فارقوه، فيرجع الوافد إلى قومه، وهذا ما يشير إليه ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾ الأولى، ومنهم من يصرُّ على دخول مكة فيلْقَىٰ أصحاب محمد ﷺ فيقولون له خيرًا، وهذا ما يُشير إليه ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾ الثانية.

ومن المعنى الأول قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام].

والذي تولى كبره في ذلك، هو الوليد بن المغيرة، فقد أخذ يتخير وصفًا منفرًا يصف به رسول الله ﷺ، ويصف به القرآن، ففكَّر وقدَّر، ونظر، وعبس وبسر، وأدبر واستكبر، وقال في نهاية تفكيره، كما في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر].

فكان هؤلاء الوفود إذا تجاوزوا الذين يصدونهم عن سبيل الله، وينفِّرونهم من الإسلام، ودخلوا مكة، يلْتقُون بنفر من أصحاب رسول الله ﷺ فيسألونهم: ماذا قال ربكم؟ أي شيء أنزل الله على محمد ﷺ؟ فيجيبونهم: خيرًا، ويقولون لهم: أتانا بالتوحيد بعد الشرك، وأخرجنا من الضلالة إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، وغير ذلك من كلمات الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وأصرح ما ورد في ذلك ما رواه البخاري في قصة إسلام أبي ذر ﷺ أنه قال: كنت رجلًا من غفار، فبلَغَنا أن رجلًا قد خرج بمكة يزعم أنه نبيٌّ، فقلت لأخي: انطلق إلى

هذا الرجل كلِّمه وأْتِني بخبره، فانطلق فلقيه ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيت رجلًا يأمر بالخير، وينهى عن الشر، فقلت له: لَمْ تُشْفِني من الخبر، فأخذتُ جرابًا وعصا، ثم أقبلت إلى مكة، فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشْربُ من ماء زمزم، وأكون في المسجد. . . إلى آخر الحديث.

وفيه أن أبا ذر لقي عليًّا، فدخل به على رسول الله ﷺ، فعرض عليه الإسلام، فأسلم من مكانه في لحظته، فقال له النبي ﷺ: **«اكتُم هذا الأمر، وارجع إلى قومك، فإذا بلغك ظهور الإسلام فأقبل»**، والذي بعثك بالحق، لأصْرُخنَّ بها بين أظهرهم، فجاء إلى المسجد وفيه قريش، فقال: يا معشر قريش: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ فاضربوه ليموت، فأكبَّ عليه العباس، وقال: ويلكم تقتلون رجلًا من غفار، ومتْجركم وممرُّكم على غفار، وفعلوا ذلك مرتين، ثم تركوه، فكان هذا أول إسلام أبي ذر ﷺ، رحمه الله رحمة واسعة ورضى الله عنه وأرضاه[1].

فهذا مثال مِنْ تساؤُلِ العرب عن بعثة النبي ﷺ لتصديقهم به، أو تكذيبهم.

وكان الكفار يقعدون في طرقات مكة؛ ليشوِّهوا سمعته قبل الوصول إليه.

كما كان النضر بن الحارث يعارض القرآن، فقد سافر إلى الحيرة وغيرها، وأتى بكتب التاريخ والأمثال، مثل: كليلة ودمنة، وأخبار السندباد وغيرها، وأخذ يُلْهي الناس عن الاستماع إلى القرآن بأخبار رُسْتم، وفارس، وغيرهما، ويقول لهم: هذا خير مما يأتيكم به محمد.

ذلكم ما يشير إليه قول الله سبحانه عن الجاحدين المنكرين المكذِّبين بالوحي: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: أُنزل عليه أساطير الأولين، وأباطيلهم، يقولون ذلك كذبًا وزورًا، قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان]. فكان عاقبة المكذبين بالقرآن، القائلين: إنه أساطير الأولين، أنْ حملوا أوزارهم، وأوزار من انقاد لهم وقلّدهم، إلى يوم الدين، قال تعالى:

٢٥- ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾

قال سبحانه مبيِّنًا عاقبتهم وعقوبتهم في الآخرة: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ﴾

---

(١) يُنظر: نص الحديث في «صحيح البخاري» برقم (٣٥٢٢، ٣٨٦١) وفي «صحيح مسلم» برقم (٢٤٧٤).

فلا يُغفَر لهم منها شيء، فهم كفرة في أنفسهم يتحملون تبعة كفرهم، ويُعذَّبون على ذلك يوم القيامة.

ثم يحملون بالإضافة إلى هذا، وزرًا آخر، هو وزر الذين أضلوهم كذبا بغير علم، فهم يحملون أوزارهم وأوزار غيرهم ممن أضلوهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] أي: يحملون تبعة أوزارهم وذنوبهم التي ارتكبوها في الدنيا، ويحملون ذنوبًا أخرى هي ذنوب من أضلوهم وكذبوا عليهم.

ألا ترون إلى حديث المصطفى ﷺ: **«ومن سن سُنَّةً سيئة»** علِمَ أنها خصلة قبيحة، وذنب من الذنوب، وكان سببًا في عمل الناس بها، بسبب مجاهرته بالمعصية، أو تعليمها لغيره **«فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»** إنه يموت ويُدفن في قبره، ووزرُه باقٍ، يجري عليه كلما ارتكب أحد هذا الذنب الذي علَّمه غيره، أو تأسَّى به فيه، فإنه يتحمل من أوزاره يوم القيامة.

وفي لفظ آخر للحديث: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيء، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»**(١).

وبالمقابل فإن: **«من سن في الإسلام سُنَّةً حسنة فعُمِل بها بعده، كُتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء»**(٢)؛ لأنه كان قدوة صالحة، أو قال كلمة معروف، أو نهى عن منكر، أو علَّم شخصًا خصلة من الخير، أو وجَّهًا من وجوه النفع والفائدة، والعمل الصالح، فإن هذا العمل يجري له بعد موته؛ لأنه كان السبب في ذلك، والدال على الخير كفاعله، والسنة الحسنة ليست إحداثًا في الدين، أو إتيانًا بشيء جديد، وإنما سنَّ سنَّةً لها أساس وأصل في الإسلام.

فالصدقة -مثلًا- مشروعة، فلو دعا شخص الناسَ إلى التبرع لبناء مسجد، أو لمساعدة المجاهدين في فلسطين، أو غيرها، فبدأ شخص بالتبرع علانية، واقتدى به الآخرون، فإنه يكون قد سنَّ سنة حسنة؛ لأنه كان البادئ فاقتدى به غيره.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٧٤).

(٢) من حديث جرير بن عبد الله في «صحيح مسلم» (١٠١٧).

وهذا الحديث يوضحه أوله كما جاء في صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله ﷺ قال: جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله ﷺ عليهم الصوف: فرأى سوء حالهم، قد أصابتهم حاجة، فحث الناس على الصدقة، فأبطؤوا عنه حتى رؤي ذلك في وجهه، قال: ثم إن رجلًا من الأنصار جاء بِصُرَّة من ورِق، ثم جاء آخر، ثم تتابعوا، حتى عُرِف السرور في وجهه، فقال رسول الله ﷺ: **«من سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة، فعُمل بها بعده، كُتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئة فعُمل بها بعده، كُتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء»**[1].

والعمل السيئ الذي يفعله الإنسان ويُضل به غيره، قد يكون كلمة مكتوبة في صحيفة نشَرها، أو في كتاب ضال يضل به الناس، ويغيِّر مفاهيمهم، ويحوِّل أفكارهم.

وقد يكون العمل السيء في تمثيلية، أو فيلم، أو أي وسيلة من وسائل الإعلام المقروءة، أو المسموعة، أو المرئية يضل بها غيره.

إن مهمة الكاتب لم تنته عند كتابته لهذا الكلام الضال الذي أفسد به الناس، وإنما يمتد أثره إلى ما بعد موته، فكلما حدث للناس مفاسد، أو شرور، أو أضرار، وتفشت المنكرات، أو الجرائم، بسبب مقولته، أو كلمته، أو أسطُره، أو قيامه بأدوار الممثل الماجن الذي يرسم للناس ألوان الضلال والمفاسد، فإنه يموت، وتبقى آثار ضلالته بعد موته، فيأخذ الناس منه، ويتأسى به الصبيان والشباب، وكل هذا لعنة تلحقه في قبره إلى يوم يلقى الله.

فالمعنى: ليحملوا آثامهم كاملة يوم القيامة، فلا يُغفَر منها شيء، ويحملوا كذلك آثام من كذبوا عليهم.

ذكر ابن جرير، عن زيد بن أسلم، أن العمل السيئ يتمثل للكافر حين يبعث من قبره، فيقابله في صورة قبيحة، ورائحة منتنة، فيسأله: من أنت؟ فيقول له: أنا عملك الخبيث الذي فعلْته في الدنيا، طالما ركبْتني في الدنيا، واستفدتَ من ورائي، واليوم أركبك، فيركبه عمله يوم القيامة[1].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٠١٧).

ثم أخبر سبحانه عن سوء ما يحمله هؤلاء من الآثام والأوزار إلى الدار الآخرة، فما أقبحه مِنْ حِمْل، فقد كانوا رؤساء يُقتدَى بهم في الضلال!

الاعْتِبَارُ بِمَا حَدَثَ لِجَبَابِرَةِ الأَرْضِ فِي الدُّنْيَا وَمَا يَحْدُثُ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ

٢٦-﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ[٢] ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

أي وقبل هؤلاء الذين يكذّبون الوحي المنزل، قوم آخرون، قد احتالوا بأنواع الحيل على ردّ ماجاءتهم به الرسل، وكانت لهم قواعد وأصول من الباطل، يرجعون إليها في تكذيب الرسل، وإلحاق الضرر بهم، فأبطل الله قواعدهم، وأتى عليها من الأساس، فصار تدميرهم في تدبيرهم، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] وكان هذا في الدنيا، ويوم القيامة يفضحهم الله على رؤوس الأشهاد، ويبيِّن لهم كذبهم وافتراءهم.

والله سبحانه يقول لرسوله ﷺ: هؤلاء المكذبون ليسوا أول من مكَر برسل الله، وليسوا أول من كذَّب وحْيَ الله، وليسوا أول من خطَّط للقضاء على الإسلام وأهله، بل إن قبلهم كثيرين، قبلهم طغاة وجبابرة على مدى التاريخ، وأممًا وشعوبًا أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبطل الله مكرهم، وأبطل كيدهم، وأتى عليه من أوله إلى آخره، وذلك مثل أقوام: نوح، وعاد، وثمود، ولوط، ومدين، وأصحاب الأيكة، وكفار قريش، وأهل الكتاب، وغيرهم، وكلهم قد دبروا المكايد لرسل الله، ووقفوا في وجه دعوة الحق، فقوَّض الله بنيانهم من أساسه، ودمَّر البُنية التحتيّة لهم، وأسقط سقف بُنْيانهم من أعلى، وأتاهم الهلاك من مأمنهم، ومن حيث لا يتوقعون.

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران]

وقال سبحانه ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ

---

(١) يُنْظَر: «تفسير الفخر الرازي» (٢٠/١٨).

(٢) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم من (عليهِمِ السقف) في حالة الوصل، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضمهما، والباقون بكسر الهاء وضم الميم.

عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل]

وقال جل شأنه: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح]

وكان عاقبة هؤلاء جميعًا كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]

والمكر هو إلحاق الضرر بالآخرين في صورة مموهة، كأنه ينصحه وينفعه، فإن كان الماكر يتحرى الشر والباطل فهو مكر مذموم وهو المراد في الآية.

وإن كان المكر بتدبير محكم لصرف الآخر عن فعل أو قول مذموم، فهو مكر محمود.

والمعنى: لا تهتم -يا محمد- بما يقوله المستكبرون من المكذبين لدعوتك؛ كي يصرفوا الناس عن الإسلام؛ فقد سبق للذين قبلهم أن مكروا بأنبيائهم، فعاقبهم الله على ذلك بأن أفسد حيلهم ومكرهم، وأتى عليه من أساسه، فقوَّض دعائمهم، وهدم بنيانهم، وأتاهم الهلاك من حيث لا يحتسبون، فكما احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة، وحاولوا إطفاء نور الله بأعمالهم وأقوالهم، أتاهم أمر الله فأهلكهم ودمرهم.

ومن أمثلة هؤلاء الذين وقفوا في وجه الدعوة، ودبروا المكايد لرسل الله، فرعون الطاغية الذي ادَّعى الربوبية والألوهية، وهو الذي قال عن نبي الله موسى عليه السلام: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]

وفرعون هو الذي قال لوزيره هامان: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

ومن أوائل الجبابرة، وأكبر طغاة ملوك الأرض: النمروذ بن كنعان، كان ملِكًا على بابل من أرض العراق، في عهد إبراهيم خليل الرحمن، فهو الذي كاد لرسول الله وخليله إبراهيم عليه السلام، فجمع النيران، وأوقدها، وألقاه فيها، وكانت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم؛ حيث سلب الله منها خاصية الإحراق.

قالوا: إن النمروذ بنى صرحًا عاليًا شامخًا، بلغ خمسة آلاف ذراع، أو فرسخين من

الطول، وأنه أراد أن يصعد فوق هذا الصرح الشامخ؛ ليصل إلى من في السموات، ويقاتل من فيها، قالوا: فأرسل الله ريحًا عاتية على الصرح الشامخ الذي بناه النمروذ، فأتت عليه من قواعده، وقد قوَّض الله تعالى هذا الصرح الشامخ، وأتى عليه من أساسه، وأسقطه على رأس من صنعه، ومن أمر به.

عن زيد بن أسلم: أن الله تعالى سلط على النمروذ بعوضة فدخلت في منخره، فمكث أربع مئة سنة، يُضْرَب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، وكان جبارًا مدة أربع مئة سنة، فعذَّبه الله أربع مئة سنة كمدة ملكه، ثم أماته، وهو الذي بنى صرحًا إلى السماء[1].

ويحدث المكر بالإسلام وأهله من اليهود والنصارى ومن غيرهم، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، كي يخمدوا دعوة الرسالة الإسلامية ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وكان مكر الله دائمًا أقوى من مكر الماكرين ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦] ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢] كان هذا في الدنيا، فماذا في الآخرة؟

ما مصير، وما عاقبة المستكبرين، الذين يدبرون المكايد للإسلام وأهله؟ قال تعالى:

٢٧-﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ[2] وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ[3] فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

ثم يوم القيامة يذلهم ويوبخهم بسؤالهم عن الشركاء الذين عبدوهم في الدنيا، أي: أن الله تعالى يفضحهم على رؤوس الخلائق والأشهاد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق] ففي يوم القيامة يظهر الله تعالى فضائح المكذبين بخاتم الرسل، فيظهر كذبهم وافتراءهم،

---

(١) من «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٦٦) وقد أخرجه عبد الرزاق (١/ ١٠٥) والطبري (١٤/ ٢٠٤).

(٢) قرأ يعقوب بضم الهاء من (يخزيهُم) و (فيهُم)، والباقون بكسرهما.

(٣) قرأ نافع بكسر النون من (تشاقونِ) على حذف إحدى النونين، والراجح أنها نون الوقاية، ثم كسرت نون الرفع، ثم حذفت الياء لدلالة الكسرة عليها، والباقون بفتح نون الرفع والمفعول محذوف، أي المؤمنين، أو: الله.

ويُظهِر ما أضمرته صدورهم من المكر، على رؤوس الخلائق، ومن ذلك ما كانوا يتآمرون عليه سرًّا للنيل من الإسلام وأهله، ففي يوم القيامة تظهر الفضائح، ومن نوقش الحساب فقد عذب، وخزي الكافر: دخوله النار؛ فإنه الخزي الأكبر كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢] ففي هذا منتهى الذل والخزي والهوان.

وأخبر النبي ﷺ أن لكل غادر في الدنيا لواء يُعرف به يوم القيامة؛ حيث يُنصب له هذا اللواء، علامة له في المشهد العظيم، فيقال: هذه غدرة فلان، وهذه العلامة مميزة للغادر في ساحة الحشر.

صح في الحديث عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«يُنصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه، بقدر غَدْرته، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان»**[1].

وهذا اللواء يعرف به الغادرون في المشهد، فيفضحهم الله على رؤوس الخلائق والأشهاد، ويُظهر ما كان مستكنًّا في صدورهم، ولا يطلع عليه إلا رب العالمين.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات] وعندئذ يقول الله لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ في الطاعة والعبادة؟ أين معبوداتكم التي عبدتموها من دون الله، وخالفتم بها عباد الله المؤمنين؟ أين هؤلاء الشركاء ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾؟ أي: كنتم تُخاصمون فيهم، فتعادون الله وحزبه، وتحاربون المؤمنين من أجلهم، وتقولون: لا بد لكم من إشراكهم معي في العبادة، ما لهم لا يحضرون معكم؛ ليدفعوا عنكم ما ينزل بكم من العذاب، والذل، والهوان؟ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢﴾ [القصص].

يقال لهم ذلك على سبيل التأنيب والتبكيت، فيسكت المكذبون؛ بسبب الخزي والذل الذي يلحق بهم، وتنطلق ألسنة الذين أوتوا العلم الربانيين من الملائكة، والأنبياء، والعلماء، والصالحين، والدعاة، ممن هداهم الله، وعرفوا طريق الحق، فيجيبون عنهم، ويقولون: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فهم أهل الخزي، والفضيحة الشاملة،

---

(١) أخرجه الشيخان عن ابن عمر، البخاري برقم (٣١٨٨) ومسلم برقم (١٧٣٥).

والعذاب الكبير في الموقف العظيم.

ولم يكن للمشركين جواب على السؤال إلا الإقرار بضلالهم والاعتراف بعنادهم، فيقولون: ﴿ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧]

ثم ذكر سبحانه ما يُفعل بالذين ردّوا دعوة الرسل عند الوفاة وفي يوم القيامة:

حَالُ الْكُفَّارِ عِنْدَ انْتِزَاعِ أَرْوَاحِهِمْ وَعِنْدَ وُقُوفِهِمْ لِلْحِسَابِ

٢٨-﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ(١) الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

وهؤلاء الكافرون هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، أي: إن الذل في هذا اليوم، والعذاب للكافرين الذين تقبض الملائكة أرواحهم حال كونهم ظالمين لأنفسهم بالكفر والشرك، فاستسلموا وانقادوا لأمر الله تعالى حين رأوا الموت، وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون الله من شدة الخوف، وقالوا: ما أشركنا بالله، وما عملنا شيئًا من المعاصي، ذلكم قوله تعالى:

﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي: أنهم خضعوا، واستكانوا، واستسلموا عند ما رأوا العذاب بأعينهم، وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ فيقال لهم: كذبتم، قد أشركتم بالله، وارتكبتم المعاصي، والله تعالى يعلم حقيقة أمركم، ويطلع على أعمالكم، وسوف يجازيكم عليها، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿بَلَىٰ﴾ جواب لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا فائدة في إنكاركم وجحودكم، وهم يظنون أن هذا الإنكار ينفعهم، ولكن الله تعالى ينطق جوارحهم، فتشهد عليهم، وعندئذ يقرون ويعترفون، فيدخلون النار بذنوبهم.

والقرآن في هذه الآية يرسم مشهدًا لاحتضار الكافر عند الموت، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ [محمد].

---

(١) قرأ حمزة وخلف بالياء في (تتوفاهم) على التذكير، والباقون بالتاء على التأنيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي، وكذلك في الآية برقم (٢٣).

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠﴾ [الأنفال].

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾.

وحينئذ يقال لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وإذن فهذه الآية تقرر أن هؤلاء الظالمين لأنفسهم، بالكفر والشرك، يستسلمون عندما يعاينون الحقيقة، ويعاينون الموت والعذاب بأعينهم ماثلًا أمامهم، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦﴾ [النازعات] حينئذ يحلفون ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] يحلفون بالله كذبًا وهم بين يدي رب العالمين، ولذلك فإن الله سبحانه يقول: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ﴾ إنهم كذبوا على أنفسهم، ولم يكذبوا على الله؛ لأن الله تعالى يعلم حقيقتهم، فغاب ذلك عنهم، ونسوا ما كانوا يعبدونه في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤] يحلفون بالله وهم يعلمون أنهم كاذبون كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ﴾ [المجادلة: ١٨]

يحلفون بالله أنهم لم يشركوا قائلين: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]

وهم معترفون أن لهم ربًّا: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ﴾ [المجادلة: ١٨].

والآيات تفيد أن الكفار في يوم القيامة لهم حالتان:

١- فتارة يقرون، ويعترفون على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا كافرين، كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

٢- وتارة يجحدون ويكذبون قصدًا، فيقولون: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ﴾.

ويقولون ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

والآية عامة في جميع الكفار بالله واليوم الآخر، وفي كل من لم يؤمن برسالة خاتم المرسلين ﷺ إلى يوم القيامة، وإن كان سبب النزول خاصًا، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإنما يُذكر سبب النزول؛ ليُستعان به على فهم الآية:

وهذه الآية تصدق على من يكون في ديار الكفر مهاجرًا، أو مقيمًا ولا يتمكن من عبادة الله فيها، ويُصد عن سبيل الله، ويُمنع من إظهار شعائر الإسلام.

كما تَصْدق على من كان في بلاد المسلمين وهو لا يستطيع أن يصلي في المسجد مثلًا، أو ينضم إلى حلقة علم أو قرآن؛ كي لا يلحق به ضرر محقق، وليس متوقعًا.

وتَصْدق أيضًا على من يريد الدخول في الإسلام وهو في بلاد الكفر لا يستطيع ذلك، ثم لا يعلن إسلامه، ولا يهاجر من هذه الديار، فهو يكون قد ظلم نفسه ببقائه بين ظهراني المشركين الكافرين، مع عدم التمكن من إظهار شعائره، وإظهار دينه.

ومن هذا القبيل ما تنص عليه الآية من سورة النساء: أن قومًا من ضعفاء المسلمين في مكة أسلموا باطنًا، وخافوا أن يُظهروا إسلامهم، وظلوا مدة على هذه الحال لا يعلم بهم أحد، فلما كان يوم بدر أكرههم المشركون، وأخرجوهم معهم؛ ليقاتلوا ضد المسلمين، فقاتلوا المسلمين مع المشركين، والقرآن سماهم ظلمة؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بعدم الهجرة، وأدرجهم القرآن ضمن وصف حال الذين يموتون على الشرك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء].

قال عكرمة: أنزلت في قوم من أهل مكة آمنوا بقلوبهم ولم يهاجروا، فأخرجهم كفار مكة مكرهين إلى بدر، فقُتِلوا هنالك فنزلت فيهم الآية[1].

وهذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها ليست جوابًا لما قبلها، ولكنها وقعت موقع الجواب كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] كما أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وصف للكفار، فهو بيان من الله تعالى عنهم.

وقوله تعالى ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ﴾ جواب من الملائكة للكفار.

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٣٨٩) و«تفسير التحرير والتنوير» (١٤/ ١٣٨).

مَثْوَى الْكَافِرِ الأَخِيرِ

٢٩-﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ۝٢٩﴾

وبعد المساءلة والاعتراف بالظلم في ساحة الحشر يوم البعث يقال للكفار: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كل واحد منكم يدخل من بابه المستحق له ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ۝٤٤﴾ [الحجر] فيدخلون جهنم، ويخلَّدون فيها، ولا يخرجون منها أبدًا، وبئس المقر ودار الإقامة لمن تكبر عن عبادة الله وطاعته.

فإنها مثوى الحسرة والندامة، ومنزل الشقاء والألم، ومحل الهموم والغموم، وموضع سخط رب العالمين، لا يفتّر عنهم من عذابها، ولا يُرفع عنهم يومًا من أليم عقابها، نسأل الله العفو والعافية والسلامة.

ووصْفهم بالاستكبار في آخر الآية يطابق ما وصفهم الله به في بداية الحديث عنهم في قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ [آية: ٢٣].

وقوله قبلها: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [آية: ٢٢].

وهذا يفيد أن هذا الصنف من الناس يختلف عن المستضعفين الذين كانوا يظهرون الكفر ويبطنون الإسلام، ووجه الشبه بينهما أن كلًا منهم ظلم نفسه من جانب، فالمستكبرون ظلموا أنفسهم بالكفر، والمستضعفون ظلموا أنفسهم بعدم الهجرة من بلاد الكفر.

والذين يموتون على الكفر ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: ٣٦] ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] فهم في عذاب جهنم خالدين فيها، لا يموتون فيها ولا يحيوْن، والكفار يقاسون حر جهنم وسمومها وهم في قبورهم، فإذا كان يوم القيامة انضمت أرواحهم إلى أجسادهم، ويخلدون في النار، كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر]

وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ أي: في قبورهم ﴿دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾.
أي: يوم القيامة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]

فالقبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار.

جَزَاءُ أَهْلِ الْإِيمَانِ يَوْمَ لِقَاءِ اللهِ

٣٠-﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾

لما أخبر ﷻ عن قول الأشقياء الذين كفروا بخاتم الرسل ﷺ، وطعنوا في القرآن، فقالوا عنه أساطير الأولين، ووصفوه بالسحر والشعر والكهانة وبيَّن سبحانه ما يكونون عليه في الآخرة من الفضيحة، والذل، والهوان.

أخبر جلَّ شأنه في هذه الآية عن قول السعداء الذين آمنوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن كتابًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا.

وبيَّن سبحانه ما يكونون عليه في الآخرة من النعيم المقيم؛ لتتم المقابلة بين الأشقياء والسعداء، وبين الأبرار والفجار.

ففي هذه الآية بيان حال المؤمنين الذي سئلوا عن القرآن ورسول الإسلام، فأرشدوا السائلين إلى خير الدنيا والآخرة، وكشفوا لهم عن حقيقة القرآن بأصدق وصف وأوجز بيان.

قال ابن عباس ﷺ: إن مشركي قريش بعثوا ستة عشر رجلًا إلى مداخل مكة أيام الحج على طرق الناس، وفرَّقوهم على كل مدخل أربعة رجال؛ ليصدوا الناس عن رسول الله ﷺ، وقالوا لهم: من أتاكم من الناس يسألكم عن محمد فليقل بعضكم: شاعر، وبعضكم: كاهن، وبعضكم: مجنون، فإذا انتهوا إلينا صدقناكم.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث إلى كل أربعة منهم أربعة من المسلمين، فيهم عبد الله بن مسعود، وأمرهم أن يكذِّبوهم.

فكان الناس إذا مرُّوا على المشركين فقالوا ما قالوا، ردَّ عليهم المسلمون، وقالوا: كذبوا، بل يدعو إلى الحق، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الخير،

فيقولون: وما هذا الخير الذي يدعو إليه؟ فيقولون: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[١].

هذا: وقد بيَّنت الآيات السابقة صفة الكفار وعاقبة كفرهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وجاء هنا؛ صفة المؤمنين، وحُسن عاقبتهم بأنهم إذا قيل لهم: ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ فهم قد أرشدوا السائل في الكشف عن حقيقة القرآن بأوجز بيان وأجمعه، وكلمة ﴿خَيْرًا﴾ لفظ شامل لكل خير في الدنيا والآخرة والقرآن في مقدمته.

ولما أتوْا بالأعمال الصالحة في الدنيا كان ثوابهم في الآخرة مضاعفًا.

والآية تبيِّن موقف عباد الله الصالحين من الصحابة -في مقابلة موقف الكافرين السابق- حين يمر بالمؤمنين الوفود القادمون إلى مكة، ويسألونهم عن دعوة محمد ﷺ، فيقولون لهم: ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ أي شيء أنزله؟ ﴿قَالُوا خَيْرًا﴾ أنزل ربنا خيرًا، أنزل التوحيد والعلم والنور والهدى والآية عامة إلى يوم القيامة.

ثم بيَّن ﷻ -في مقابل بيان جزاء الكفار- جزاء المتقين الذين يخافون لقاء الله، بأن لهم في دنياهم حسنة، ولهم في الآخرة دار النعيم.

فكما أن الكفار يكونون في الدنيا في خوف وقلق وتوتر، وتعاسة وحالة نفسية سيئة، ولو كانوا من أغنى العباد، فإن المؤمن يكون واثقًا بربه، يتمتع بالأمن والأمان والراحة والطمأنينة، فلا يخاف من أحد إلامن رب العالمين، ولذا فهو في سكون، وهدوء، واستقرار نفسي، وهذا معنى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي: لهم في الدنيا عيشة رغيدة، وسعة رزق، وأمن وأمان، فهم في الدنيا في سعادة وحالة طيبة، وهم في الآخرة أفضل من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ فهي خير لهم من الدنيا ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾

فمن أحسن عملَه في الدنيا، أحسن الله إليه عملَه في الدنيا والآخرة، وكان له عند الله الجزاء الحسن كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

(١) «زاد المسير» (٤/٤٤٣) وقد استبدلتُ كلمة (عتاب) بكلمة (مدخل).

وسُمِّيت الدار الآخرة؛ لأنها آخر المنازل للإنسان، بعد أن مر بثلاث مراحل قبلها حيث مر: ببطن أمه، وبالحياة الدنيا، ومدة البرزخ أو القبر، ثم يأتي المثوى الأخير، الذي لا دار بعده، وهي الدار الآخرة.

وقد مدح الله دار المتقين، ووصفها بِنِعْم الدار، وهي دار الأبرار، ودار المتقين ودار المحسنين، وهي خير وأبقى من دار الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى].

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى].

والمتقون لا يريدون التحول عن النعيم الذي أعده الله لهم في الآخرة إلى دار أخرى، قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف].

وحسنة الدنيا: هي الحياة الطيبة وراحة النفس والزوجة الصالحة.

وحسنة الآخرة: هي النعيم الدائم، ولنعم دار المتقين دار الآخرة.

ومعنى الآية: وإذا قيل للمؤمنين الممتثلين أوامر الله، المجتنبين لنواهيه: ما الذي أنزله الله على النبي محمد ﷺ؟ قالوا: أنزل الله عليه الخير والهدى، فتلقَّوْا هذه النعمة بالقبول والانقياد وشكروا الله عليها، ثم بين سبحانه ما أعده للذين آمنوا بالله ورسله في هذه الدنيا، بما دعَوْا به عباد الله إلى الإيمان والعمل الصالح، بأنه أعد لهم الرزق الواسع، وطمأنينة القلب، والأمن والأمان، والتمكين والنصر لهم في الدنيا، ولدار الآخرة لهم خير وأعظم مما أوتوه في الدنيا، ولنعم دار المتقين الخائفين من الله في الدار الآخرة قال تعالى:

٣١-﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

هذه الدار وصفها ربنا بأنها دار استقرار ونعيم في جنات عدن، أي: جنات إقامة يقيمون فيها ولا يتحولون عنها، يقيمون فيها بصفة دائمة ولا يخرجون منها، تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار اللبن، والعسل، والخمر الذي لا يُسكر، والماء الذي لا يتغير، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق] فلا يطلبون أو يتمنون شيئا من النعيم إلا وهو حاضر بين أيديهم، وبمثل هذا الجزاء الطيب يجزي الله أهل خشيته وتقواه.

تَحِيَّةُ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُتَّقِينَ وَبُشْرَاهُمْ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ

٣٢-﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

ثم وصف الله سبحانه المتقين بأنهم الذين توفتهم الملائكة وقلوبهم طيبة، طاهرة من الشرك والكفر، وأحوالهم طيبة ليس فيها خبث ولا سوء وهي صالحة للموت مستعدة له؛ حيث يثبتهم ربهم بالقول الثابت، وتقول لهم الملائكة: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]

وكلمة (طيِّب) تُطلق على محاسن الأخلاق، وكمال النفس، وحُسْن الرائحة.

فتوصف به المحسوسات، كما في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [١١٤] وتوصف به المعاني كما في قولهم: طبت نفسًا، وقول أبي بكر ﷺ لرسول الله ﷺ: طِبْتَ حيًّا، وطِبْتَ ميتًا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨].

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله طيِّب لا يقبل إلا طيبًا**»(١) أي: لا يقبل إلا مالًا حلالًا طيِّبًا غير محرم ولا خبيث.

وقوله تعالى في هذه الآية عن المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ يجمع كل هذه المعاني، أي: تتوفاهم الملائكة وهم منزهون عن الشرك والفسق والمعاصي ونفوسهم مطمئنة، وهذا في مقابلة ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فالمشركون توفتهم الملائكة وهم ظالمو أنفسهم، وهؤلاء تحضُرهم الملائكة عند الموت وهم طيبون، ماتوا على التقوى، والتوحيد والهدى والإيمان، يبشرونهم بدخول الجنة، ويخبرونهم بأنهم من أصحاب اليمين، ويحيونهم بالسلام، ويقولون لهم: سلام عليكم، كلما دخلوا عليهم، ويسلمون عليهم في **أربعة مواطن** على وجه الخصوص:

١- عند الاحتضار للموت.
٢- وعند السؤال في القبر.
٣- وعند الحساب.
٤- وعند دخول الجنة.

ويقولون لهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله، والانقياد لأمره فهنيئًا

---

(١) الحديث في «صحيح مسلم» (٦٥، ١٠١٥).

لكم الجنة بما قدمتم من صالح الأعمال.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف].

وقال سبحانه: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]

وقال أيضًا: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم].

والله سبحانه قد أعد لعباده المتقين جنة عدن، وقال لهم: اعملوا في الدنيا، وهذا جزاؤكم يوم القيامة، وهذا الجزاء ليس واجبًا على الله سبحانه، فالله جلَّ شأنه لا يجب عليه شيء، ولكن هذا محض فضل وكرم من الله جل شأنهً.

ولهذا جاء في الصحيحين: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لن يُدخِلَ أحدًا منكم الجنة عملُهُ»**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»**[1].

وفي بشرى الملائكة للمؤمنين بدخول الجنة ونعيمها يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت].

١- وقد أسند الله سبحانه الوفاة في الآية إلى الملائكة، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾؛ لأنهم أعوان لملَك الموت في نزع الروح من الجسد إلى الحلقوم.

٢- وأُسنِدت الوفاة إلى ملَك الموت في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]؛ لأنه المأمور بقبض الأرواح ينزعها من الإنسان إذا بلغت الحلقوم.

٣- وأسندها إلى نفسه سبحانه في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ﴾ [الزمر: ٤٢]؛ لأنه لا يموت أحد إلا بإذن الله ومشيئته.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾ [آل عمران: ١٤٥]

فهذه ثلاثة أحوال لقبض روح العبد، يكمل بعضها بعضًا، فالله تعالى هو الذي يتوفى

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٦) و«صحيح البخاري» برقم (٥٦٧٣).

عباده، وملَك الموت هو الموكل بقبض أرواحهم، وله أعوان يساعدونه.

مَتَى يُقْلِعِ الْمُذْنِبُونَ عَنْ ذُنُوبِهِم؟

٣٣-﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن[١] تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يتوعد القرآن الكريم مَنْ وصفُوه بأنه حكايات قديمة، وأحكام لا تصلح للعصور الحديثة، ممن تكبروا على الله، وظلموا أنفسهم بعدم الإيمان به، وعدم الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، توعدّهم بسوء الخاتمة عند قبض أرواحهم، وتوعدّهم بحلول العذاب بهم عندما يأتي أمر الله، فحالهم كحال المترقب لأحد أمرين: إما أن تأتي الملائكة لقبض أرواحهم، وإما أن يحل بهم عذاب الاستئصال الذي حلَّ بالذين أتى الله بنيانهم من القواعد، وهكذا فهم مع ظهور دلائل صدق النبي ﷺ كحال من يترقب الموت أو الهلاك، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يونس] ويدخل في الوعيد المسوِّفون بالتوبة من المعاصي والذنوب.

ولهذا: يسأل القرآن الكريم، العصاة والمذنبين، ويسأل المشركين والكافرين في هذه الآية، إلى متى يظلون على عصيانهم وكفرهم وجحودهم؟ وماذا ينتظرون؟ هل ينتظرون بدون توبة إلى ساعة احتضارهم للموت، حين تأتي الملائكة لقبض أرواحهم، وهم على الكفر، فلا يكون ثمة عمل ولا توبة، ولا عودة إلى الدنيا.

هل ينتظرون نزول ملَك من السماء يُصدق محمدًا ﷺ كما طلب المكذبون السابقون.

أو هل ينتظرون قيام الساعة؟ فيحل بهم عقاب الله، أو يحل بهم عذابه في الدنيا، كما

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء على التذكير في (أن تأتيهم)، والباقون بتاء التأنيث، وجاز تأنيث الفعل؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

حل بغيرهم من الأمم المكذبة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم؟ ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بعذاب عاجل يهلكهم في الدنيا، كما جاء لمن قبلهم فأهلكهم؟ ففي هذا وعيد يتضمن قيام الساعة، أو عذاب الدنيا.

ويحتمل أن يكون المراد بأمر الله تعالى هو قيام الساعة، وما فيها من العذاب الأبدي لمن مات على الكفر.

فهم لا ينتظرون ولا يترقبون إلا أحد أمرين: إما الموت، وإما عذاب الاستئصال، ثم ذكر سبحانه وتعالى ما كان من أسلافهم من الأمم السابقة، فعاقبهم الله على كفرهم، ولم يكن هذا العقاب ظلمًا من الله لهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله تعالى، مما جعلهم أهلًا للعقاب.

قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: هل ينتظر المكذبون من عقاب الله إلا مثل السابقين الماضين، حيث تمادى غيرهم في معصية الله، فنزل بهم جزاؤه وعقابه، وما قسا عليهم ربهم، وما ظلمهم شيئًا، ولكنهم هم الذين قسَوْا على أنفسهم، وهم الذين ظلموها باكتساب الكفر والمعاصي والأعمال الخبيثة، وعدم العودة إلى الله سبحانه قبل أن يأتيهم الموت و قبل أن تقوم الساعة. قال تعالى:

٣٤-﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ[(١)] ﴿٣٤﴾﴾

لقد تمادى أهل الضلال في الكفر والجحود، حتى نزل بهم عذاب الله، وأحاط بهم من كل جانب، فأصابهم الجزاء والعقوبة نتيجة أعمالهم السيئة، فالمقدمات تأتي بالنتائج، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] وقال: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠] والذي حاق بهم هو العذاب الأليم في دركات جهنم، وسُنَّة الله في خلقه لا تتخلف، لقد نزل بالمكذبين ما كانوا به يستهزئون، وأحاط

(١) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (يستهزئون) مع ضم الزاي، وصلا ووقفا، ولحمزة وقفا ثلاثة أوجه:

١- التسهيل بين الهمزة والواو. ٢- الإبدال ياء مع كسر الزاي قبلها.

٣- حذف الهمزة وضم الزاي قبلها. وقرأ الباقون بكسر الزاي مع إثبات الهمزة، وكلها لهجات عربية.

بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه، ويقال لهم يوم القيامة:

﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور].

فقد كانوا في الدنيا يسخرون من رسل الله حين يخبرونهم بالعذاب، فحل بهم ما سخروا منه.

التَّمَسُّحُ بِالْقَدَرِ جَدَلٌ كَاذِبٌ قَدِيمًا حَدِيثًا

٣٥-﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾

في يوم القيامة يحتج المشركون على شركهم، بمشيئة الله تعالى، وأنه لو شاء الله ما أشركوا، ولا حرموا على أنفسهم ما أحله الله، وهذه حجة باطلة، ولو كانت حقا؛ ما عاقب الله المشركين على شركهم، فقد جعل الله للإنسان إرادة ومشيئة تصدر عنها أفعاله، فالاحتجاج بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، لأنهم جمعوا بين تكذيب الله وتكذيب الرسل، وتكذيب الأمور العقلية والحسية:

أ- هذا: وبعض الكفار يُقرُّ بوجود الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبِّر، وهذا الصنف من الناس كأنه يقول: نحن نعبد الأوثان؛ لنتقرب بها إلى الله سبحانه، ولو كان الله تعالى يكره ذلك لهدانا، أو أهلكنا.

ب- ومن الكفار الملحدين من لا يعتقد بوجود الله تعالى، وكأنه يقول: إن الله الذي تُثْبتون وجوده، وتقولون: إنه يعلم حالنا، ويقْدِرُ على تغييرها، لو كان يكره الكفْر منَّا لغيَّره فينا.

ج- ومقترفو الذنوب في كل زمان ومكان يرتكبون الموبقات والمهلكات، ثم يقولون: هذه إرادة اللهِ، اللهُ هو الذي شاء ذلك، وهذا أمره وقضاؤه، ولو شاء لنا عدم فعلها لمنَعنا منها، وما دام الأمر كذلك فلا ذنب لنا، ولماذا يعذبنا عليها؟

وهذه إحالة على القضاء والقدر، كأن العاصي يتنصل من الذنب، ويُحيُله على قضاء الله وقدره.

ومَن الذي أعلمه بما عند الله؟ وقدرُ الله لا يطَّلع عليه أحد، وما هو مكتوب ومدوَّن في اللوح المحفوظ، إنما هو في علم الله الغيبي، لا نعرفه، فكيف نحكم عليه؟

والله سبحانه قد أمرنا بالطاعات، ونهانا عن المعاصي.

فإذا وقع الإنسان في الذنب، أو في المعصية، أو الكفر والشرك، فإنه يكون قد اختار ذلك بنفسه، اختاره بحريته ومحض إرادته مخالفًا بذلك رسل الله، ومخالفًا هدْي الله في كتابه.

إنهم يحتجون بالقدَر، ويقولون: لو أراد الله لنا أن لا نعبد غيره لفعل، ولو أراد ألا نرتكب المعاصي لفعل، ولكنه أراد لنا ذلك ومكننا منه، ولو شاء منا الإيمان لحصل.

والجواب: إن الله سبحانه لا يرضى لعباده الكفر، وقد نهاهم عنه، وحذرهم منه، كما أنه سبحانه يرضى لهم الإيمان، وقد أمرهم به، يقول سبحانه ردًّا عليهم في آية مماثلة: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨] هل عندكم علم ومعرفة، بقدَر الله وما يعلمه، فتظهروه لنا؟ هذا إذا وقع الذنب من الإنسان فعلًا.

أما إذا لم يكن الذنب قد وقع بالفعل، فهو شيء في علم الغيب، ولا سبيل لإطلاع أحد عليه، ولا يقع في هذا الكون شيء يخالف إرادة الله تعالى، أو يخالف علم الله، فالله سبحانه علمه محيط بكل شيء، ولكنه جلَّ شأنه لم يأمر بهذه المعصية أو تلك، ونهاك عنها أيها الإنسان، فأنت مسؤول عنها؛ لأن لك عقلًا وحرية واختيارًا، إنهم يقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ السابقون.

وفي آية أخرى يقولون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

ويقول تعالى على لسانهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠].

وكما تنصلوا من الشرك تنصلوا من التحريم والتحليل أيضًا، وألقوا بالتبعة على الله سبحانه، فقالوا: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ أي: ولو شاء الله ما حرمنا شيئًا لم يحرمه الله، إنهم حرَّموا على أنفسهم ما أحل الله، حرَّموا بعض الزروع والحرث، فقالوا: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨] أي: أنها وقف على آلهتهم لا يقربها

أحد غيرهم ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]

كما حرموا البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، وغير ذلك، يقول سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي وبمثل هذا الاحتجاج الباطل احتج الكفار السابقون، وهم كاذبون في دعواهم، فإن الله تعالى أمرهم ونهاهم، ومكَّنهم من القيام بما كلفهم به من الإيمان، وجعل لهم قوة وإرادة ومشيئة، لقد قال السابقون مثل هذا القول: ورُسل الله حُجة عليهم جميعًا، كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]

والكتب المنزلة من السماء حُجة عليهم؛ لتقطع ألسنة المشركين، والعصاة، والكفار، والمذنبين بعد البلاغ المبين، والرسل لا يلْوُون أعناق البشر، ولا يجبرونهم على الهداية، فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، وبهذا قطع الله المحاجة معهم، وأعلمهم أن الرسل ما عليهم إلا البلاغ، وليس عليهم أن يكرهوهم على الإيمان.

والهداية على نوعين:

النوع الأول: هداية إرشاد ودلالة، وهذا هو طريق الرسل، والدعاة إلى الله بعدهم؛ إنهم يرشدون الناس إلى الخير، ويبلِّغون وحي الله تعالى إلى خلقه، ولكنهم لا يُجبِرون الناس على شيء؛ إذ ليس على الرسل المنذِرين لهم إلا التبليغ الواضح لِمَا كُلِّفوا به، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

النوع الثاني: خَلْق الهدَى في قلب العبد، وهذا النوع من الهداية خاص بالله تعالى وهو المراد في مثل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] وقوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]

وكما في الآيتين التاليتين للآية التي نحن بصددها.

وقد خلق الله الهدَى والضلال كما خلق كل شيء في هذا الكون، وكما خلق الإنسان وجعله حرًّا مختارًا، مستعدًّا بفطرته أن يختار الإيمان والكفر، وقد بيَّن الله سبحانه طريق

الحق وأمرنا به، كما بيَّن طريق الضلال ونهانا عنه، ولم يجبر أحدًا على طاعة أو معصية، والعقل الذي خلقه الله في الإنسان هو مناط التكليف، فمن يفتح قلبه للإيمان يهتد، ومن يحجُب قلبه عنه يضلِله الله.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

وقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٢]

وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان].

والآية تزيل شبهة من شُبَهِ المشركين، يحاولون من خلالها إفحام الرسول ﷺ فيقولون: إنه سبحانه قادر عليهم وعلى آلهتهم، وأنه لا يرضى أن يعبد سواه، ولوشاء لنا ألا نعبد الأصنام، وألا نحرم الحلال لفعل، وهم يظنون أنهم قد حاجُّوا النبي ﷺ بذلك وأفحموه، وهذا من باب المغالطة.

قال ابن تيمية في منهاج السنة: والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة باتفاق كل ذي عقل ودين من جميع العالمين، ولهذا لما قال المشركون: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]

والمشركون يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة باطلة، فإن أحدهم لو ظلم الآخر، فقال: لو شاء الله لم أفعل هذا، لم يقبل منه هذه الحجة، ولا يقبلها هو من غيره، وإنما يحتج بها المحتج دفعًا لِلَّوم عن نفسه بلا وجه.

الرُّسُلُ حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ لإقَامَةِ التَّوْحِيدِ وَنَبْذِ الشِّرْكِ

٣٦-﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ[1] ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر النون من (أن اعبدوا) وصلًا، والباقون بالضم.

بعد أن أشار ﷻ في الآية السابقة إلى أن مهمة الرسل هي البلاغ المبين، أقام جلَّ شأنه الحجة على خلقه بأن حكمته تعالى قد اقتضت أن يبعث في كل أمة رسولاً بلسانهم، يأمرهم بعبادة الله تعالى وينهاهم عن عبادة غيره، فما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

ثم بيَّن سبحانه موقف الأمم من الرسل، وأنهم كانوا على فريقين، فرقة استجابت لدعوة الرسل، وفرقة لم تستجب، فكان من كل أمة أقوامًا هداهم الله، فصدَّقوا وآمنوا، ومنهم أقوام تمكنت منهم الضلالة فهلكوا، ومن سار في أرض الله رأى دلائل استئصال السابقين منهم.

مُهِمَّةُ الرُّسُلِ: الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالنَّهْي عَنِ الشِّرْكِ

ومهمة الرسل هي البلاغ، ولقد بعث الله -في كل أمة، وفي كل جيل- رسولًا مهمته بالدرجة الأولى: يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطواغيت.

وهذا هو معنى لا إله إلا الله، ففي لفظ (لا إله) نفي لكل ما يُعبد من دون الله، وفي لفظ (إلا الله) إثبات العبادة لله وحده.

وهكذا فإن لفظ (إلا الله) تساوي ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، و (لا إله) تساوي ﴿اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فهي ذات شقين ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، كما قال خليل الرحمن ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف]

والبشر في كل أمة على نوعين: منهم أهل السعادة، ومنهم أهل الشقاء، منهم مَنْ هدى الله، ومنهم مَنْ حقت عليه الضلالة؛ لأنه تَسبَّبَ فيها، وقد حقت عليه كلمة الله بالعذاب، كما سبق في علمه جلَّ شأنه، أنه يختار طريق الضلال والكفر بنفسه.

---

(١) ذكر هذا التعليل ابن عاشور في تفسيره (١٤/ ١٥٠).

وكلا الفريقين، من أهل الشقاء والسعادة، لم يخرج على مشيئة الله تعالى، ولم يجبر أيٌّ منهما على الهدى أو الضلال، بل أرسل الله الرسل؛ لتبليغ الناس دعوة ربهم، فكان منهم من استجاب إليها ممن هدى الله، ومنهم من كفر بها ممن أضله الله، وكان عاقبة الضالين أن دمرهم الله وأبادهم.

فإن كنتم في شك مما أخبرناكم به فسارعوا إلى التقلُّب في الأرض، وسيروا في أرجائها، وانظروا في كل جهة منها، انظروا في جهة الجنوب تجدوا آثار أهل الأحقاف، قوم عاد، وفي الشمال تجدوا آثار قوم ثمود، وفي جهة أخرى تجدوا آثار أهل مدين، وقوم لوط، وفرعون، وغيرهم، فامشوا في الأرض، وتأملوا بأعينكم كيف كان عاقبة الذين كذبوا رسل الله في كل أمة؟! وماذا حلَّ بهم من عذاب الاستئصال؟ وماذا حاق بهم من دمار؟ لتعتبروا بما حدث لهم، لقد دمرهم الله وأبادهم، وهذا عاقبة من خالف الرسل وكذب الحق ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ [الملك].

والطاغوت: هو كل ما عُبِد من دون الله من: وثن، أو صنم، أو بقر، أو قبر، أو شيطان، أو نبي، أو ولي، أو طاغية جبار؛ فكل رسول جاء يقول لقومه:

﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٦٥] منذ بدأت عبادة الأوثان في عهد نوح عليه السلام إلى بعثة محمد ﷺ.

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

وكما قال أيضًا: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف].

فكان منهم من آمن، ومنهم من كفر، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

وقال: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]

وقال: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

اللهُ تَعَالَى يَعْلَمُ اخْتِيَارَ الْكُفَّارِ لِلْكُفْرِ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقُوا

٣٧-﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى(١) مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

أخبر الله رسوله بأن حرصه على هداية المُصِرِّين على ضلالهم لن يغير من واقع أمرهم شيئًا، لقد كان النبي ﷺ حريصًا على هداية قومه، والله سبحانه يقول له: إن تبذل أقصى جهدك لهدايتهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس]

وقال نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤].

وهذه الهداية بمعنى: خلق الهدى في نفس العبد، وليست هداية الدلالة والإرشاد، والله سبحانه لا يهدي من أصر على الضلالة، ففسدت فطرته، وفسد استعداده، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥] فضيق الصدر كان بسبب سوء اختياره، وعِلْمُ الله لا يتغير، وليس في مقدور أحد أن يغير ما أراده الله من الضلال والهدى بمقتضى ما علمه سبحانه عما يكون عليه العبد حين يصبح بشرًا سويًا كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر]

وقال جل شأنه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

فالضلال لأهل الضلال هم الذين اختاروه، فأراده الله لهم، وقدره عليهم، وكتبه في أم الكتاب قبل أن يوجد هذا المخلوق في الحياة، وهذا يعني انكشاف علم الله تعالى لِمَا كان وما يكون، وأنه سبحانه قد علم اختيار أهل الكفر للكفر، رغم هداية الرسل وإنزال الكتب، فكتب ذلك في اللوح المحفوظ، كما علم سبحانه باختيار أهل الإيمان للإيمان،

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ببناء (لايهدي) للمفعول، بضم الياء وفتح الدال بعدها ألف، و (من) نائب فاعل، والباقون بالبناء للفاعل، و (من) مفعول به.

قبل أن يخلقهم، فسطَّر ذلك في اللوح المحفوظ.

ولذا: استحق كل أحد من الفريقين الجزاء المناسب له، وليس هناك ما يمنع أهل الضلال من النار، ولا من ينصرهم من عذاب الله يوم لقائه.

كُفْرُ مُنْكِرِي الْبَعْثِ

٣٨-﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

يقسم المكذبون بالله واليوم الآخر أيمانًا مؤكدة، على أن الله تعالى لا يبعث الأموات، وأنه لا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا ترابًا، والله تعالى يكذبهم ويقسم على أنه سيبعثهم ويجمعهم ليوم لا ريب فيه.

ومن أسباب النزول أنه كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دَيْن، فذهب إليه يتقاضاه ويطلب حقه، وبينما هو يحدثه قال له المسلم: والذي أرجوه بعد الموت، فقال له المشرك: أتزعم أنك ستُبعث بعد الموت؟ وأقسم بالله إن الله لا يبعث من يموت[1].

فنزلت هذه الآية، تشير إلى أن المكذبين بالبعث يحلفون أيمانًا مغلظة أن الله تعالى لا يبعث من يموت، بعد أن بَلِيَ عظْمه، وتفرق جسده، وبهذا يقول العلمانيون، والملحدون، والكفرة، وما أكثرهم في بقاع الأرض! يزعمون أن الإنسان إذا مات، وتحللت أجزاؤه امتنع عودته بعد فنائه.

جاء في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ فيما يرويه النبي ﷺ عن ربه في الحديث القدسي أنه قال: **«يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، ويكذِّبني وما ينبغي له، أما شتمه إياي فقوله: إن لي ولدًا، وأما تكذيبه فقوله: ليس يعيدني كما بدأني»**[2].

وفي رواية: **«كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه**

---

(١) يُنْظَر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٧٣) و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣١٩٣) عن أبي هريرة وبرقم (٤٩٧٤، ٤٩٧٥).

إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾»[1].

إن بعضهم ينكرون البعث، مع إيمانهم بوجود الله تعالى؛ ولغفلتهم عن وجودهم من العدم، وغفلتهم عن حكمة البعث بعد الموت؛ حتى لا يستوي البر والفاجر، وأن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء.

وفي الحديث: عن أبي موسى ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ﷻ، إنه يُشْرَك به، ويُجعَلُ له الولد، ثم يعافيهم ويرزقهم**»[2].

يقول سبحانه ردًّا على منكري البعث: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ سيبعثهم حتمًا، فوعْده حق، كما قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝﴾ [التغابن] إنهم غفلوا عن خلقهم الأول، ونسوا أن القادر على ابتداء خلقهم قادر من باب أولى على الإعادة، غفلوا عن قدرة الله سبحانه، وغفلوا عن الحكمة من البعث؛ لأنه ليس من الممكن أن تنتهي الدنيا هكذا، يموت الناس ثم لا يكون حساب ولا عقاب، ولا أخذ حق لمظلوم من ظالم، ولا استيفاء للناس في حقوقهم، فهل يستوي الطائع والعاصي، والبر والفاجر، والفاسق والمؤمن؟! لا يستويان.

وقد بيَّن الله سبحانه الحكمة من البعث بعد الموت في قوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] فلا بد أن يكون هناك عدل، وحساب وجزاء، وقصاص من الظالم للمظلوم؛ فالذي ينكر البعث، يغفل عن حكمة إحياء الله تعالى للخلائق يوم القيامة، وأكثر الناس لا يعلمون قدرة الله تعالى على البعث، فينكروه، وهم يتوهمون أن سلامة الأجساد شرط لقبولها الحياة.

وفي الآية أمر عجيب حيث يعترف المشركون بوجود الله تعالى، ويعظمونه بالقسم به، ثم يثبتون له العجز عن بعث الأموات، وقد جاء إنكار الكفار للبعث في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝﴾ [النمل]

(١) حديث قدسي عن أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٤٩٧٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٠٤) وهذا لفظه والبخاري برقم (٦٠٩٩، ٧٣٧٨).

وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس]

وقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات].

حِكْمَتَانِ لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ

٣٩- ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾

ثم بيَّن ﷻ حكمتين من حِكَم البعث بعد الموت في هذه الآية القصيرة:

الحكمة الأولى: إظهار ما اختلف الناس فيه من أمر البعث، وأنه حقيقة.

الحكمة الثانية: إظهار كذب من أنكر البعث، واستهزأ به؛ وذلك أن الناس اختلفوا وهم في الدنيا في الحق والباطل، والشرك والتوحيد، والمعاصي والطاعات، فكان البعث لازمًا؛ حتى يتبين لهم الحق من الضلال في هذا كله يوم القيامة، وليظهر كذب إنكار المنكرين لهذا اليوم، فيكون البعث حقيقة ماثلة أمام أعينهم، ليس في وسعهم إنكاره.

ويوم البعث تتجلى حقيقة هذا الاختلاف الذي كان في الدنيا، فيعلم المؤمن أنه كان على حق، ويعلم الكافر المنكر للبعث والنشور أنه كان على باطل، وأنه كاذب في قسَمِه أن لن يبعث الله أحدًا بعد الموت، وذلك حين يرى عمله حسرات عليه، ويرى أن ما كان يعبده في الدنيا صار حطبًا لجهنم.

وإذا كان يوم القيامة، فإن الزبانية تدفعهم دفعًا إلى نار جهنم، ويقولون لهم: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور].

إِيجَادُ اللَّهِ لِلْأَشْيَاءِ يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ تَوَجُّهِ الْإِرَادَةِ إِلَيْهِ

٤٠- ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ[1] ﴿٤٠﴾﴾

---

(١) قرأ ابن عامر والكسائي بنصب نون (فيكونَ)، والباقون برفعها.

وكل أمر -على الله تعالى- هين، والبعث بعد الموت شيء يسير؛ حيث يَظْهر مراد الله تعالى بمجرد توجُّه إرادته سبحانه إليه، فإذا هم قيام ينظرون، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر] وقال سبحانه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] وقال أيضًا: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [٧٧] إن قيام الساعة أقرب من لمح البصر، وبعث النفس الواحدة كبعث الناس جميعًا.

وتكوين الشيء لا يتوقف إلا على تعلق إرادة الله تعالى بتكوينه، والبعث بعد الموت يتم حال توجه الإرادة الإلهية إليه، حيث يتم بإعادة الحياة إلى الأموات، وقوله تعالى: ﴿كُن﴾ تقريب للأذهان، ولا يتوقف إيجاد الله للأشياء عليها، فالله تعالى لا يعجزه شيء.

ثَوَابُ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

٤١-﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ(١) فِى ٱلدُّنْيَا(٢) حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾

أخبر سبحانه وتعالى أن الذين تركوا أوطانهم خوفًا على دينهم، أعد الله لهم ثوابًا في الدنيا بالرزق الواسع والعيش الهنئ، وثوابًا في الآخرة في جنات النعيم.

وسورة النحل نزلت في آخر؛ الفترة المكية بعد الهجرة إلى الحبشة، وهذه الآية نزلت في المؤمنين بالله واليوم الآخر بعد الحديث عن الكافرين الذين أنكروا البعث والنشور، وهي تقرر صدق المؤمنين في إيمانهم بالبعث بعد أن قررت الآيات قبلها كذب الكافرين في إنكارهم له.

وهذه الآية نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أوذوا في مكة وهاجروا إلى الحبشة، ومن الحبشة رجع بعضهم إلى المدينة، فهم قد هاجروا هجرتين: هجرة إلى

---

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة ياء من (لنبوئنهم) وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) أمال ألف (الدنيا) حمزة والكسائي وخلف، ولدوري أبي عمرو الفتح والإمالة، وقللها الأزرق بخلفه حيث وقعت، وفتحها الباقون.

الحبشة، وظلوا فيها حتى هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، فنزلوا على المدينة، ولم يعودوا إلى مكة.

وكانت هذه الهجرة لنحو ثمانين رجلًا وامرأة، منهم: عثمان بن عفان ﷺ وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، ومنهم جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ الذي وقف خطيبًا أمام النجاشي يعلمه مبادئ الإسلام، ومنهم أبو سلمة، وغيرهم.

ومن هؤلاء العائدين من الحبشة إلى المدينة أسماء بنت عميس، وكان عمر ﷺ ممن هاجر من مكة إلى المدينة، فدخل على ابنته حفصة، وكانت أسماء بنت عميس عندها، فقال لها عمر ﷺ: سبقناكم بالهجرة، أي: جئنا قبلكم من مكة إلى المدينة، قبل أن تصلوا إليها من الحبشة، فنحن أحق برسول الله منكم.

فغضبتْ أسماء، لا لشيء مادي أو دنيوي؛ إنما غضبتْ لأنه كيف يكون المهاجرون من مكة أحق برسول الله ﷺ ممن عاد إلى المدينة من الحبشة؟ قالت: لقد كنتم عند رسول الله، وكنا في أرض الغربة والبغضاء، وكنتم عند رسول الله يُطعِم جائعكم، ويَعظُ جاهلكم، واللهِ لا أَطْعَمُ طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ذلك لرسول الله ﷺ، وذهبت أسماء تسأل النبي ﷺ عن ذلك، فقال ﷺ: **«لا، ليس عُمَرُ بأحق من رسول الله منكم، إن للذين هاجروا من مكة إلى المدينة هجرة واحدة، ولكم يا أهل السفينة -وكانوا قد قدموا إلى المدينة في سفينة- هجرتان»**[1] وفيهم أنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ ظلمهم أهل مكة، فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق منهم طائفة بالحبشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك، فجعلها لهم دار هجرة، فهاجروا إليها، وجعل لهم أنصارًا من المؤمنين، فآووهم ونصروهم وواسوهم ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ ففارقوا ديارهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ أي: أوذوا في مكة وعُذِّبوا، ومنهم ضعفاء المسلمين، ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ ننزلهم منزلة حسنة في الدنيا، وقدفُسِّر ذلك بإقامتهم في المدينة، ومجاورتهم لرسول الله ﷺ، والمنزلة الحسنة في الدنيا تشمل كل شيء حسن.

(١) القصة في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٠٣) وانظر: «صحيح البخاري» (٣١٣٦، ٣٨٧٦، ٤٢٣٣).

وصاحب السعادة في الدنيا ليس بالضرورة أن يكون ثريًّا ، فكم من ثريٍّ تعيس، وكم من غَنِيٍّ شقي، وكم من فقير سعيد، فالسعادة ليست في الأموال، ولا في المتاع، ولا في النساء ولا في الأولاد، إنما هي في الرضىوالتقوى والإيمان.

والمعنى: هؤلاء المهاجرون وأمثالهم لنبوئنهم في الدنيا صحة وأمنًا، واستقرارًا وقناعة ورضى، وهذا هو المهم: القناعة، والرضى.

قالوا: كان عمر بعد نزول هذه الآية إذا أعطى أحد المهاجرين عطاءً يقول له: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ثم يقرأ الآية[(١)] .

ومع أن الآية عامة في كل مَنْ أُوذي وعُذِّب في الله تعالى إلى يوم القيامة، فقد ذكر ابن الجوزي وغيره أنها نزلت في ستة من أصحاب رسول الله ﷺ هم: بلال، وعمَّار، وصُهَيْب، وخبَّاب، وعايش، وجبر مَوْلَيان لقريش، أخذهم أهل مكة، فجعلوا يعذبونهم؛ ليردُّوهم عن الإسلام، وهم المستضعفون.

فأما بلال فكان أصحابه يُخرجونه إلى بطحاء مكة في شدة الحر ويشدُّونه، ويجعلون على صدره الحجارة، وهو يقول: أحد أحد، فاشتراه منهم أبو بكر الصديق ﷺ وأعتقه، واشترى معه ستة آخرين.

وأما صهيب فقال لهم: إني رجل كبير، إنْ كنت معكم فلن أنفعكم، وإن كنت عليكم فلن أضركم، فاشترى نفسه بماله، فباعوه منه، فمرَّ به أبو بكر الصديق، فقال: يا صهيب ربح البيع، وأما باقيهم، فأعطوهم بعض ما يريدون منهم.

وقوله تعالى: ﴿هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ كقوله ﷺ في حديث عمر ﷺ: **«فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله»**[(٢)] أي: أن الهجرة لا بد أن تكون بنية خالصة لله تعالى، وإلا كانت مجرد انتقال من بلد إلى بلد لا فضل فيها.

والذين خسروا ديارهم في الدنيا بسبب الهجرة، ينزلهم الله فيها منزلة حسنة، فيفتح لهم البلاد، ويؤمِّنهم في ديارهم، ويعوضهم في الآخرة خيرًا مما فقدوا في دنياهم ﴿وَلَأَجْرُ

(١) «تفسير الطبري» (١٤/ ٧٤).

(٢) في البخاري (٥٤) ومسلم (١٩٠٧).

﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾. وقد ذكر القرطبي في المراد بحسنة الدنيا ستة **أشياء** هي:

١- نزول المدينة. ٢- الرزق الحسن. ٣- النصر على العدو.

٤- لسان صدق. ٥- ما استولوا عليه من البلاد.

٦- ما بقي لهم في الدنيا من ثناء، وما صار فيها من الشرف.

وكل ذلك قد اجتمع لهم بفضل الله تعالى.

وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [٣٠].

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وفي ثواب هؤلاء المهاجرين يقول تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة]

ولو علم المتخلفون عن الهجرة أن ما عند الله للمهاجرين في سبيله من الثواب والأجر خير وأعظم من الدنيا وما فيها ما تخلف منهم أحد عن غزوة في سبيل الله، ذلكم قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ فلا يحزن المهاجرون على مفارقة ديارهم؛ فالأجر أعظم، والمنزلة أسمى.

وفي الآية بيان لمنزلة الذين آمنوا، وهم أحد الفريقين الذين اختلفوا في اختيار الهدى والضلال، فاختاروا طريق الإيمان والرشاد، وهذا توضيح لقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ في الآية قبل السابقة.

ومجمل معنى الآية: والذين تركوا أوطانهم، وأموالهم، وأهليهم من أجل رضاء الله تعالى، وإعلاء كلمته، ونصرة دينه، فهاجروا في سبيل الله، بعد أن تحملوا الكثير من الأذى، لنسْكِننَّهم في الدنيا مساكن حسنة يرضونها، ونعطيهم عطاء يسعدهم في حياتهم، وننصرهم على أعدائهم، وندخل السرور والطمأنينة على نفوسهم، ونجزل لهم الأجر والمثوبة في الآخرة بدخولهم الجنة، وحلول الرضوان عليهم.

ولو يعلم التاركون للجهاد، المفرطون فيه، علم اليقين ما أعده الله للمجاهدين في سبيله ما تخلف منهم أحد عنه.

ولو يعلم الكافرون سوء مصيرهم لأقلعوا عن كفرهم، ورجعوا إلى ربهم. قال تعالى:

٤٢- ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ثم وصف الله سبحانه المهاجرين في سبيله بوصفين في هذه الآية هما: الصبر، والتوكل؛ فهم قد صبروا على ما أصابهم من: أذى، وظلم، وعدوان، وتوكلوا على ربهم، فسافروا وانتقلوا من ديارهم، وفوضوا الأمر إليه سبحانه، واعتمدوا على الله في السراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، وتوجهوا إليه في هجرتهم، فهجروا الأوطان، وفارقوا الإخوان.

لقد صبر المهاجرون في سبيل الله على أوامر الله ﷻ، وعلى ترك نواهيه سبحانه، وصبروا على أقدار الله المؤلمة، وعلى ما نزل بهم من المحن والضر، ومن الأذى والعذاب، وصبروا على مفارقة الوطن، وعلى الجهاد في سبيل الله، وعلى بذل الأنفس والأموال في الجهاد، وصبروا على ترك الشهوات والمحرمات، فاستحقوا هذه المنزلة العالية، وأحسن الله عاقبتهم في الدنيا والآخرة.

الرَّسُولُ بَشَرٌ يُوحَى إِلَيْهِ

٤٣، ٤٤- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ[(١)] إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟[(٢)] أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ[(٣)] وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

هذه الآية ونظيراتها رد على من استبعد أن يكون الرسول بشرًا، والاستشهاد بأحبار أهل الكتاب ورهبانهم على أن الرسول بشر يوحى إليه؛ كي يخبروا المكذبين أن الرسل يكونون

---

(١) قرأ حفص بالنون وكسر الحاء في (نوحي) مبنيًا للفاعل، والفاعل ضمير مستتر، وقرأ الباقون بالياء وفتح الحاء مبنيًا للمفعول، وإليهم نائب فاعل.

(٢) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف بنقل حركة السين إلى الساكن قبلها من (فاسألوا) هكذا (فسَلُوا)، والباقون بسكون السين وإثبات الهمزة.

(٣) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (إليهُم)، والباقون بكسرها.

من البشر، فأخبارهم حجة عليهم؛ لأنهم يصدقونهم، ولا يتهمونهم في شهادتهم، والفضل ما شهدت به الأعداء، مع أن الحق واضح بنفسه، ونحن لا نفتقر إلى شهادتهم في شيء، وقديمًا كان المشركون في مكة يسألون يهود المدينة، ويستندون إليهم في شهادتهم.

ورد أن الآية نزلت في مشركي مكة؛ أنكروا نبوة محمد ﷺ، وقالوا: الله أعظم من أن يكون الرسول بشرًا، فهلَّا بعث إلينا مَلَكًا؟[1].

ولفظ الذكر يطلق على القرآن؛ فأهل الذكر في الأصل هم أهل القرآن، ويراد به في هذه الآية: علماء أهل الكتاب.

لقد كذب المشركون برسالة النبي ﷺ، كما مرَّ في الآيات السابقة من تكذيبهم للقرآن؛ حيث: ﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

وأنكر المشركون أن يكون الرسول رجلًا من البشر فقالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤].

وتعجبوا من كون الرسول بشرًا، فقالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [يونس: ٢].

وقال سبحانه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦].

وقال أيضًا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وهذه الشبهة ليست خاصة بمحمد ﷺ، بل قالها كل قوم لرسولهم:

قالها قوم نوح ؏: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وقالها قوم هود ؏: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣] وكانوا يقولون عنه: ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٣٤﴾ [المؤمنون].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٤/ ٧٣) و«زاد المسير» (٤/ ٤٤٦).

وهكذا كل أمة قالت عن رسولها: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقد ظن المشركون أن الواسطة بين الله وخلْقه لا يكون بشرًا، وإنما يكون ملَكًا فطلبوا ذلك ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: ٨]

وقالوا أيضًا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

وفي هذه الآية يرد الله تعالى على هذه الشبهة، فيقول لرسوله ﷺ: لستَ وحدك الذي أرسِلتَ من البشر، بل حدث هذا في شأن الرسل جميعًا، أرسلنا رجالًا، ولم نرسل ملائكة، ولم نرسل نساءً، ولم نرسل جنًّا ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ [يوسف: ١٠٩]

وإن كنتم - أيها المكذبون - في شك من ذلك فاسألوا من سبقكم من أهل الكتب السابقة: التوراة، والإنجيل، اسألوا من لا تتهمونهم ممن لهم معرفة بالرسل السابقين، وبأخبارهم، وبأحوالهم؛ فإنهم قد كانوا جميعًا رجالًا من البشر، فإن كنتم لا تعلمون ذلك فاسألوهم.

وليس المراد حقيقة سؤال أهل الكتاب، إنما المراد تأكيد ما بعد السؤال، وهو أن الله تعالى لم يرسل إلى البشر إلا رجالًا، وأنهم بشر يوحى إليهم، إذ لا يسوغ أن يسأل النبي ﷺ من سبقه من الأموات الذين سبقوه بالرسالة.

والآية عامة في كل مسألة من مسائل الدين، إن لم يكن عند الإنسان علم بها، فليسأل الراسخين في العلم من العلماء، فلا ينبغي لعالم أن يسكت على علمه، ولا ينبغي لجاهل أن يسكت على جهله، قال تعالى:

وقد أرسلنا الرسل السابقين قبلك -أيها الرسول- مؤيَّدين بالدلائل الواضحة، والبراهين القاطعة، والكتب السماوية المشتملة على التشريعات الحكيمة، والعقائد الصحيحة، والآداب الحميدة، وأنزلنا إليك -يا رسولنا- القرآن؛ لتوضح للناس ما خفي عليهم من معانيه، وأحكامه، وآدابه؛ لكي يتدبروه، ويهتدوا بهديه، ويعملوا بمقتضاه.

والبينات: هي المعجزات، والأدلة العقلية على صدق الرسل سِيَّمَا من ليس لهم كتب، كرسول أهل الرسِّ: حنظلة بن صفوان، ورسول عَبْس: خالد بن سنان، ولم يذكر الله لنوح عليه السلام كتابًا.

والزبر: هي الكتب، والصحف، والألواح، وما كتبه الحواريون عن عيسى ﷺ، وزبور داود ﷺ، أي: أرسلنا الرسل جميعًا بالحجج والمعجزات القاطعة الدالة على صدقهم، قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢﴾ [القمر] وهذا معنى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا خاتم النبيين ﴿الذِّكْرَ﴾ وهو القرآن؛ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ أحكامه، وأخباره، ومواعظه، ولتبين لأهل الكتب السابقة ما اختلفوا فيه من عقائد، وتشريع، والآية اشتملت على **أمرين**:

الأمر الأول: أن السنة تشرح القرآن، وتوضحه، وتبيِّن للناس ما اختلفوا فيه مما اشتبه عليهم.

الأمر الآخر: التفكر في آيات القرآن، والعمل بها، لعلهم يعتبرون، ويتفكرون، ويتعظون فيرجعون إلى الله سبحانه.

قال حذيفة: لقد خطبنا النبي ﷺ خطبة ما ترك فيها شيئًا إلى قيام الساعة إلا ذكره، عَلِمه من عَلِمه، وجهله من جهله، إن كنتُ لأرى الشيء قد نَسيتُ، فأعرف ما يعرف الرجل إذا غاب عنه فرآه نعرفه[1].

أي: كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه، وكما يرى الشيء الذي نسيه فإذا رآه عرفه.

وسُمِّيَ القرآن ذِكْرًا؛ لأنه يُذْكَر، أي: يتلى ويكرر، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]

فالذكر: هو القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، وفيه التذكير بالله واليوم الآخر، وقد عرف هذا المعنى غير المسلمين فأطلقوه على القرآن، كما قال تعالى حكاية عنهم:
﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر].

وجاء ذكر القرآن بعد الزبور إشارة إلى أن القرآن معجزة وشرع، وهذه مزية لا يشاركه فيها غيره، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وقال ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطِيَ ما مثله آمن عليه البشر،**

---

(١) البخاري (٦٦٠٤) ومسلم (٢٨٩١).

وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[١].

والآية تقرر أن الرسول بشر يوحى إليه كشأن الرسل السابقين، وإن شك أحد في ذلك فإن أهل العلم بذلك ممن نزلت عليهم الكتب السابقة قد تقرر عندهم أن الله تعالى ما بعث إلا رجالًا يوحى إليهم، فهوأمر معلوم وثابت في جميع الشرائع لا يحتاج إلى دليل، وقد أنزل الله القرآن على محمد ﷺ ليوضح للناس أمور دينهم ودنياهم.

حِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى وَإِنْظَارُهِ لِلْكُفَّارِ وَالْعُصَاةِ

٤٥- ٤٧ ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ[٢] ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ[٣] رَّحِيمٌ﴾

بعد أن توعَّد الله تعالى منكري البعث، ومدبِّري المكايد للدعوة الإسلامية، بعذاب يوم القيامة، توعّدهم في هذه الآية بعذاب الدنيا، وهو تهديد ووعيد يشمل كل من بقي على حاله السيئ يدبر المكايد للإسلام وأهله:

١- وذلك أن مِنَ الناس من هو مُصرٌّ على الكفر، والشرك، والإلحاد.

٢- ومنهم من يبيِّت العداوة للإسلام، ويدبر المكايد للنيل منه، وصد الناس عنه، وصرْفهم عن الإيمان بالرسول الخاتم.

٣- ومن الناس من هو مُصرٌّ على الموبقات، والمنكرات، والمعاصي، والسيئات، وهكذا، أنواع من الناس مختلفة.

فالمكر هو السعي بالفساد سرًّا، والسيئات لفظ عام يشمل: الكفر، والظلم، والإلحاد، والنفاق، ويشمل كبائر الذنوب، ويشمل من يُؤْذُون رسول الله ﷺ حيًا، أو ميّتًا، وكذا

---

(١) من حديث أبي هريرة ﷺ في «صحيح البخاري» برقم (٤٩٨١) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٢).

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (بهِمِ الأرض)، وقرأ بضمهما حمزة والكسائي وخلف، والباقون بكسر الهاء وضم الميم.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر بحذف الواو المدية من (لرؤوف) هكذا (لرءف)، والباقون بإثباتها.

من يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ في حياتهم، أو بعد مماتهم، ومن يتعرضون للقرآن بالاستهزاء، أو السخرية، أو النيل منه بوجه من الوجوه.

والله ﷻ يحذِّر هؤلاء جميعًا أنهم لا يأمنون مكر الله ﷻ، وينكر عليهم أن يكونوا في مأمن من عذابه سبحانه.

خمس حالات لتوقّع نزول العذاب بمن يمكرون السيئات:

والمعنى: أفأمن المدبرون للمكايد؛ لإطفاء نور الله تعالى، أن يعاقبهم الله، فيأخذهم العذاب من فوقهم، كما قال تعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] هذه هي **الحالة الأولى**.

والحالة الثانية: أن يأتيهم العذاب من تحت أرجلهم بالخسف والزلازل والبراكين، أو يخسف بهم الأرض كما خسف بقارون، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١] وفي سورة الأنعام ٦٥ ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾.

والحالة الثالثة: أو يأتيهم عذاب الله من مكان لا يحسُّونه ولا يشعرون به، وهم في غفلة لا يعلمون مصدر العذاب، ولا يتوقعون نزوله بهم، كما نزل بقوم لوط، قال تعالى عن يهود بني النضير: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢]

وقال سبحانه عن قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤].

فهذه ثلاث حالات من التخوف، أن يأتيهم العذاب من فوقهم، أو من تحت أرجلهم، أو من حيث لا يتوقعون، وهذا معنى: ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وليسوا بمعجزين الله تعالى في حالة منها.

والحالة الرابعة: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾

أو يأخذهم العذاب في تقلُّبهم وتنقُّلهم في تجارتهم وحركتهم وسكونهم؛ فالله سبحانه قادر على أن يعذبهم في أسفارهم وفي إقامتهم، في ذهابهم ومجيئهم، في تنقلاتهم وهم يبحثون عن سبل عيشهم، وفي بيعهم وشرائهم، بل وفي تقلبهم في فُرُشهم، بحيث يأتيهم العذاب ليلًا أو نهارًا، وفي كل هذه الأحوال إنهم لا يعجزون الله سبحانه، فهو القوي القادر الذي لا يغلبه شيء، ولا يستعصي عليه أمر، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران] فهم في

قبضته تعالى وتحت تصرفه وقهره.

الحالة الخامسة من توقع نزول العذاب بالمكذبين ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾

إن الذين مكروا السيئات لن يأْمَنُوا أن يَنْزِل بهم عذاب الله وعقابه، وهم في حالة ذُعر، ورُعب، وتخوُّف مما يَنْزِل بهم من الأعاصير المدمِّرة فيُنتقِصُهم واحدًا بعد واحد، أو جماعة بعد جماعة، أو أمة بعد أمة، وينْتقِصُ أموالهم وأنفسهم وزروعهم وثمارهم، ولكن رحمة الله واسعة، وفضله كبير، فهو جلَّ شأنه لا يعاجل الناس بالعقوبة، وإنما يمهلهم ولا يهملهم، بل يعطيهم الفرصة، ويَمُدُّ لهم في الأجل، ويفتح لهم أبواب التوبة.

عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»، ثم قرأ ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1] [هود].

وقد يأتيهم هذا العذاب صباحًا أو مساءً أو ضُحىً أو في جوف الليل وهم نيام في حلِّهم وترحالهم وتنقُّلهم واستقرارهم، يأتيهم في صور متعددة ومتنوعة أكثر من أن تحصى، كأن يرسل الله عليهم حاصبًا من السماء، أو أمراضًا وآفات وأوبئة مختلفة أو حوادث جَويّة وبَحْرية وبريّة، أو يذيق بعضكم بأس بعض...

والآيات في هذا المعنى كثيرة، منها قوله جلَّ شأنه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فاعتبروا بهم وتأملوا ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [المُلك: ١٦- ١٨].

وفي قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأعراف]

أي: في فراشهم يتقلبون، **والقرى** في القرآن: هي المدن الكبرى، والأمصار.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف] في وقت الضحى وهم في أعمالهم ومعاشهم، وفي أسفارهم وتنقلاتهم.

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف].

وختمت هذه الآيات الثلاث ببيان فضل الله تعالى، وسعة رحمته بعباده، فهو جلَّ شأنه رؤوف بخلقه، رحيم بهم، لا يُعجِّل لهم العقوبة، لعلهم يتوبون إليه، ولكنهم بدل أن

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).

يرجعوا إلى الله تعالى أمنوا مكر الله تعالى، ولم يخشوْا بأسه وانتقامه.

جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ تَسْجُدُ لِلّهِ تَعَالَى بِلِسَانِ الْحَالِ أَوِ الْمَقَالِ

٤٨ - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا[(١)] إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا[(٢)] ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾

أو لم ير الشاكون في وحدانية الله تعالى كيف يدور ظل جميع المخلوقات ويتمايل سجودًا لربها، مذللة ومسخرة تحت قهر الله وتدبيره، وهذا من أكبر الأدلة على وحدانية الله سبحانه.

وبعد الفراغ من براهين انفراد الله تعالى بالخلق، دلت هذه الآية، وما بعدها على أن جميع الأجسام التي على الأرض، وكل ما في الكون مُنقاد وخاضع ومُسخر لله ﷻ، الجماد والحيوان، والشجر والنبات، والشمس والقمر، والنجوم والأفلاك، والليل والنهار، والإنس والجن والملائكة، وغير ذلك، فهل عمي الكفار والملحدون عن أخذ العبرة من هذه الكائنات؟

أَعَمِيَ هؤلاء الكافرون والمشركون، فلم ينظروا إلى ما حولهم وما فوقهم من كل شيء خلقه الله تعالى له جسم قائم، يتمايل ظله ويدور عن اليمين تارة، وعن الشمال تارة أخرى، تبعًا لحركة الشمس نهارًا، والقمر ليلًا، وذلك من كل جسم قائم له ظل: جبل، أو حجر مرتفع، أو شجر، أو نبات، أو جدار، أو جمل، أو فرس، أو إنسان، كلها تسجد لله طوعًا أو كرهًا، المؤمن يسجد طوعًا، والكافر يسجد ظِلُّه كرهًا، والجماد والنبات والحيوان منقاد ومذلل لله تعالى جِبِلَّة وفطرة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

ومن الجسم القائم الذي لا يسجد لله تعالى طواعية: جسم الكافر؛ وذلك لأن الكافر إذا لم

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بتاء الخطاب في (أو لم يروا)؛ لمناسبة (إن ربكم) آخر الآية السابقة، والباقون بياء الغيب؛ لمناسبة (أفأمن الذين مكروا).

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بتاء التأنيث في (يتفيؤ)، والباقون بياء التذكير، وجاز في الفعل التذكير والتأنيث؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

يسجد لله تعالى بذاته، فإن ظله يسجد لله سبحانه، فهو يسجد طوعًا أو كرهًا.

فكل كائن، وكل مخلوق في هذا الكون ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ والتَّفَيُّؤ: هو الرجوع، أي: أن الظل يرجع وينحسر، ويتقلَّص يمينًا ويسارًا، وفي أحواله كلها يسجد لله تعالى ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾.

وتختلف أحوال اتجاهات ظل المخلوق، من إنسان أو شجر أو جماد أو حيوان، أو غير ذلك:

فإذا توجه الإنسان إلى الجنوب عند مشرق الشمس إلى ما قبل الزوال فإن ظله يكون عن يمينه.

وإذا انتصف النهار، وزالت الشمس يكون ظله خلفه، فإذا مالت الشمس إلى الغروب كان الظل عن يساره.

وذات المخلوق وظله، كلاهما يسجد لله سبحانه، فيدور ويتمايل وينتقل ظلاله عن اليمين والشمائل ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ يأتي الظل تارة يمينًا، وتارة يسارًا، وتارة أمامًا، وتارة خلفًا، وهو في كل الأحوال يسجد لله سبحانه.

قال الضحاك: إذا فاء الفيء توجه كل شيء ساجدًا لله قِبَلَ القِبْلة من بيت، أو شجر[1].

قالوا: إن ظل الجبل: هو سجوده لله سبحانه، وظل الشجر: سجوده لله جلَّ شأنه، وموج البحر: سجوده لله سبحانه، وأغصان الشجر وأوراقها حين تتمايل: تكون متجهة نحو القبلة، إنها تسجد لله سبحانه ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: وهم خاضعون صاغرون، فليس في وسعهم أن يمتنعوا من السجود، بل هم مذللون، ومنقادون، ومسخرون لله سبحانه.

قال الجمل: قال العلماء: السجود على نوعين: سجود طاعة وعبادة، كسجود المسلم لله ﷻ، وسجود انقياد وخضوع، كسجود الظلال، فقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يحتمل النوعين؛ لأن سجود كلٍّ بحسبه: فسجود المسلمين والملائكة سجود طاعة وعبادة، وسجود غيرهم سجود خضوع وانقياد...[2]. قال تعالى:

٤٩، ٥٠- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾

---

(١) الطبري (١٤/ ٢٤١).

(٢) «حاشية الجمل» على «الجلالين» (٢/ ٥٧٤).

ثم تأتي هذه الآية؛ لتشمل: العقلاء، وغير العقلاء في سجودهم وخضوعهم لله تعالى؛ حيث يُستعمل لفظ ﴿مَآ﴾ للدلالة على العموم، وهو في الأصل لغير العاقل، ويشمل العاقل أحيانًا، أما ﴿مَن﴾ فإنها تستعمل للعاقل غالبًا، وقد تستعمل بما يشمل غير العاقل، من كل ما يدب على وجه الأرض: إنسان، وحيوان، وغيرهما.

فالمسلم يسجد بذاته وبظله، والكافر يسجد بظله دون ذاته، والجن يسجد لله سبحانه؛ إذ قالوا: إن السجود على نوعين: سجود عبادة بوضع الجبهة على الأرض، وهذا يصدر من العقلاء المكلفين من جميع المخلوقات: يصدر من الملائكة، ويصدر من الجن المؤمنين، ويصدر من المسلمين من البشر.

وهناك سجود آخر بمعنى الانقياد والخضوع والتسخير فيما خُلق من أجله، وهو سجود غير العقلاء.

مثل: سجود الجبل، وسجود البحر، وسجود الشجر، وسجود الدواب، وغير ذلك مما لا يعقل، وهو مُسخَّر فيما خُلق من أجله، وليس في وُسعه أن يمتنع من أن يكون مُسخَّرًا لله تعالى في أمر من الأمور.

وسجود الشمس والقمر والنجوم والكواكب وغيرها، قد يكون سجودًا حقيقيًّا كسجود الإنسان المسلم، وقد يكون انقيادًا وتسخيرًا فيما خلقت من أجله، والأولى حمل اللفظ على ظاهره، وأن يكون المراد به: السجود الحقيقي، ويرجِّحه ما جاء في الصحيح عن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال له حين غربت الشمس: «**أتدري أين تذهب الشمس؟**» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن، فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها يقال: فكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها**»، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾[1] [يس: ٣٨].

فقد بيَّن النبي ﷺ أن الشمس تسجد لله تعالى، ثم تستأذن في الرجوع إلى مشرقها مرة أخرى، فيؤذن لها، فترجع من حيث أتت، فإذا كانت علامات الساعة الكبرى لم يؤذن لها

(١) أخرجه البخاري برقم (٣١٩٩) وهذا لفظه وهو أيضًا في الأرقام التالية منه: (٧٤٢٤، ٧٤٣٣، ٤٨٠٢، ٤٨٠٣) وفي «صحيح مسلم» برقم (١٥٩).

فترجع لتشرق من المغرب، فهذا الحديث الصحيح يُرجِّح أن يكون سجود الشمس والقمر والنجوم، وغيرها من الأشجار والجماد والدواب سجود عبادة، كسجود الإنسان الطائع المختار لله سبحانه.

والملائكة يسجدون لله تعالى، وهم لا يستكبرون عن عبادته، فهم يسجدون لله تعالى عن بكرة أبيهم؛ لأنهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] وليسوا كالإنسان؛ فالناس منهم المستكبر، ومنهم غير المستكبر، وفيهم الممتنع وهو الكافر.

وقد خص الله الملائكة بالذكر بعد العموم؛ لفضلهم، وشرفهم، وكثرة عبادتهم لله تعالى.

والملائكة يخافون ربهم وهو فوقهم بذاته، وقهره، وسلطانه، وكمال صفاته، وفي الآية إثبات صفة العلوّ، والفوقية لله سبحانه على الوجه اللائق بجلاله، كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦].

والآيات التي تذكر سجود جميع الكائنات لله تعالى كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد].

وكذا الآية الثامنة عشرة من سورة الحج، وهي تَستعمِل لفظ (مَن) الذي هو للعاقل، وتنص على جميع الكائنات، ومنها الشمس والقمر، والنجوم والجبال، والشجر والدواب وفي هذا إشارة إلى أنها تسجد لله تعالى سجودًا حقيقيًّا كالإنسان العاقل، وإن كنا لا ندرك أو لا نرى هذا السجود، كما جاء ذلك مصرحًا به في آية سورة الحج، وكما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وتشير الآية إلى أن جميع الكائنات بلا استثناء تسجد لله تعالى عدا الإنسان، وأن كثيرًا من الناس لا يسجدون لله تعالى ممن حق عليه العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف]

وقال أيضًا: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، يَأْتِي بِالنِّعَمِ، وَيَكْشِفُ النِّقَمَ

٥١- ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ[1] ﴿٥١﴾﴾

لما أبطلت الآيات السابقة تعدد الآلهة، وأبطلت القول بأن القرآن مفترى، عمدت هذه الآية إلى إبطال نوع آخر من الشرك، وهو القول بوجود إله يصدر عنه الخير، وإله آخر يصدر عنه الشر، ويسميه بعضهم: إله الظلمة، وإله النور، وهذا زعْمُ فرقة من أهل الضلال في القديم كالمجوسية، وقد نقله عنهم القبائل المجاورة لفارس، مثل: بني بكر، وبني تميم، في زمن كسرى، وبه يقول بعض أهل الضلال في الوقت الحاضر.

ولم يدخل هذا المعنى في قوله تعالى ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [٣٦]؛ لاختصاص اسم الطاغوت بالصور والأجسام المعبودة، فإله الخير وإله الشر يقول بهما أهل الأديان التي لا تعبد صورًا محسوسة[2].

وبعد أن بيَّن الله سبحانه أن الكون بما فيه ومن فيه مُنقاد، ومُسخَّر لله جلَّ شأنه، نهى ﷺ عن الشرك بالله، فلا بد أن يتجه الخلق إلى الإله الواحد في عبادتهم، وفي دعائهم وتضرعهم؛ فمعبودهم واحد، وهو الله سبحانه، وعليهم أن يخافوه دون سواه، فقد نهى سبحانه عن الشرك به جلَّ شأنه في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ﴾.

وهذه الجملة كانت كافية في النهي عن الشرك، وإنما أتى بعدها بلفظ: ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ تأكيدًا للمبالغة في نفي الشرك عن الله سبحانه، كما أنه كان يكفي أن يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ﴾ وإنما جاء بلفظ ﴿وَٰحِدٞ﴾ من باب تأكيد إثبات الوحدانية لله سبحانه، لا من باب إثبات الألوهية؛ فإن الألوهية ثابتة لله تعالى.

والمشركون يعترفون بوجود الإله الخالق الرازق المدبر المحيي المميت، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزمر: ٣٨] ليس في هذا جحود، ولا إنكار، وإنما الخلاف فيمن يتوجهون بالعبادة، ويتوجهون بالدعاء والتضرع، والنذر والذبح، وطلب المدد، وكشف الضر وغير ذلك.

---

(١) قرأ يعقوب بإثبات الياء وصلًا ووقفًا من (فارهبون)، والباقون بحذفها.

(٢) يُنْظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٤/ ١٧١).

وإذا كان الله سبحانه إلهًا واحدًا، فالرهبة لا تكون إلا منه سبحانه، والخوف لا يكون إلا منه جلَّ شأنه، فلا ينبغي أن يُخاف غير الله، ولا أن يُرهب غير الله ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾. فامتثلوا أمري واجتنبوا نهيي من غير أن تشركوا بي شيئا.

وقد اقتصر ختام الآية على جانب الرهبة دون الرغبة؛ لمناسبة الخوف من إله الشر، فإن رهبتم شيئًا فإياي فارهبون دون غيري،فأنا الذي لا يعجزني شيء،وقول الله تعالى في الآية موجه إلى عباده،عن طريق رسله،عليهم الصلاة والسلام: ألَّايتخذوا معه معبودًا آخر، فهو سبحانه المستحق للعبادة دون سواه.

وقد جاء النهي عن الشرك بالله في عبادته في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء].

وقد نهى الله في الآية جميع البشر أن يعبدوا إلهًا آخر، وأن يشركوا معه غيره، وأن يرهبوه ويعبدوه وحده، فهو الذي بيده النفع والضر، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات].

وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون].

مرَّ النبي ﷺ على سعد بن أبي وقاص وهو يدعو بأصبعيه، فقال له: «**يا سعد أحِّدْ أحِّدْ**»، وأشار بالسبابة[1] فعلى العبد أن يشير في دعائه وذكره بأصبع واحدة؛ فإن في هذا مقمعة للشيطان. قال تعالى:

٥٢- ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾﴾

---

(١) ابن أبي شيبة (٢/ ٤٨٤) و«المسند» (٩٤٣٩) قال محققوه: حديث صحيح وإسناد رجاله ثقات، وأبوداود (١٤٩٩) والترمذي (٣٥٥٧) والنسائي (١٢٧١) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٨٢٠) وعن الترمذي والنسائي: أن رجلًا كان يدعو.

ثم بيَّن ﷺ أن النور والظلمة، والخير والشر، وغيرها كلها مخلوقة لله تعالى، وهي مظهر من مظاهر السماء والأرض ومخلوقاته، فهو سبحانه مالك هذا الكون العلوي والسفلي، وكل ما في السموات والأرض تحت تصرفه وقهره، ملكًا وخَلْقًا وعبيدًا، وهو صاحب النعم كلها.

١- وله سبحانه **الطاعة الخالصة**؛ لأنه سبحانه المنعم على خلقه، الخالق الرازق لهم، فله وحده الطاعة التامة والعبادة الدائمة الواجبة ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

فهو الإله الحق، وكل طاعة لغير الله تعالى لها أجل تنتهي فيه، وهذا معنى ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ أي له وحده الطاعة الدائمة التي لا تنقطع لسبب من الأسباب.

فأنت حين تطيع والدك، فإن هذه الطاعة تنتهي بموته، وحين تطيع رئيسك في العمل، أو تطيع الحاكم، أو غيرهما فإن هذه الطاعة تستمر حتى يموت هذا الرئيس، أو هذا الحاكم، أو حتى تنتهي مدة عمله، أو حكمه، ولكن هناك طاعة واحدة دائمة باقية، لا تنتهي أبدًا، هي طاعة الواحد القهار، ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾.

أي: دائمًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٩]

أي: لهم عذاب دائم لا ينقطع، فالمراد بالدين في الآية: الطاعة، والعبادة.

فكل طاعة لغير الله تعالى تنقطع وتزول بزوال السبب، ولكن طاعة الله تعالى قائمة دائمًا وأبدًا، وكل مُلك يزول، ومُلك الله تعالى لهذا الكون دائم لا يزول، ولا يحول، فلا يليق بكم بعد أن علمتم أن لله ما في السموات وما في الأرض أن تعبدوا غيره، أو ترهبوه، أو تخافوه ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾؟

٢- ويصح أن يكون المراد بالدين: **الديانة والشريعة**، بمعنى: أن الناس لا يدينون إلا بما شرعه الله لهم؛ فهو الذي يشرع لهم الدين، وليس غيرَه من أئمة الضلال، أمثال: عمرو بن لُحَيٍّ، وزَرَادَشْت، ومَزْدَك، ومَانِي، وغيرهم، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

٣- ويراد بلفظ الدين أيضًا: الجزاء، كما قال تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة] أي: يوم البعث، والحساب، والجزاء؛ فهو سبحانه يملك ما في السموات

والأرض، ويملك العرش والكرسي، ويملك يوم الحساب والجزاء، ويملك الظلمة والنور، والخير والشر، وغير ذلك. قال تعالى:

٥٣- ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

أي وكيف تتقون غير الله؟ وكيف تلجؤون إلى غير الله، وجميع ما بكم من نعم فمن الله وحده لا من غيره، وعلى رأس هذه النعم: نعمة الهداية للإسلام، ثم صحة الأبدان، وسعة الأرزاق، ومنح البنين والبنات، فكيف تصرفون العبادة لغير الله، وهو المنعم عليكم بالنعم الدينية والدنيوية؟ وكل عبد يُقرُّ أن الله جلَّ شأنه هو مصدر النعم كلها دقيقها وجليلها، وهو الخالق، الرازق، المحيي، المميت.

ولذا: فإن العبد إذا وقع في ضر، أو أصابته محنة، أو مصيبة، بأن ألَمَّ به فقر، أو مرض، أو هزيمة، أو جدب، أو جوع، أو ضر، ونحو ذلك فإنه يلجأ إلى الله وحده، ويرفع أكف الضراعة إلى الخالق سبحانه، فيرفع صوته بالاستغاثة والتضرع إليه وحده دون غيره؛ ليكشف عنه ما حلَّ به من ضر، كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]

وكما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]

وقال أيضًا ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس: ١٢].

وهكذا تقرر الآيات أن العبد يلجأ إلى ربه إذا وقع في شدة وبلاء، أو عسر وضيق؛ لأنه سبحانه هو الذي يعطي النعم، ويكشف الضر.

قال تعالى ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام] فماذا لو كشف الله عنهم ما هم فيه من ضر؟ قال تعالى:

٥٤- ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾

بيَّن الله تعالى في هذه الآية أن مِنْ بني آدم مَنْ إذا مسهم الضر دعَوا الله مخلصين له الدين، فإذا كشف عنهم الضر، وأزال عنهم الشدة، فإن فريقًا منهم -وهم الكفار- يرجعون

في أسرع وقت إلى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي.

قال تعالى يصف حال الإنسان وقت الرخاء: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُرْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾.

هذا تصوير لحالة الشدة عندما تعصف الأمواج بالإنسان وهو في عُرض البحر فإنه يلجأ إلى الله تعالى، وهذا معنى ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ثم أشار سبحانه إلى بغيهم وظلمهم بعد نجاتهم، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣]

وقال أيضًا في وصف هذه الحال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت].

وهكذا فإذا رفع الله البأس عن الإنسان، ورجع إلى النعمة التي كان فيها، من الصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والنصر بعد الهزيمة، فإنه ينسى ما كان فيه، ويرجع إلى طبعه، فيلجأ إلى الشركاء والأولياء يلتمس منهم النفع والضر، إنه يتعرف على الله في الرخاء، وينساه في الشدة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وهكذا تتمة الآيات السابقة تشير إلى هذا المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الزمر: ٨].

وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].

وهذا هو شأن الإنسان المتمرد على نعمة الله تعالى، الجاحد لفضل الله عليه، إنه ينسى حالة الضيق التي كان فيها، فيتمرغ في النعم التي أصبح فيها، وينسى ما كان فيه بالأمس، وهذا هو حال أغلب البشر إلا من عصم الله. قال تعالى:

٥٥- ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

هذا خطاب للفريق الذي كفر بنعمة الله عليه، وجحد كشف البلاء عنه، فكان منه أن بادر بعد أن رفع الله عنه الضر، بالعودة إلى ما كان فيه من شرك وجحود، فوقع في الكفر بدل الشكر، قال سبحانه: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: بدل أن يشكروا نعمة الله عليهم، فإن عاقبة هذه النعم تحولت إلى كفران وجحود لها.

قال سبحانه مهددًا ومتوعدًا لهم: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة جحودكم وكفركم، فاستمتعوا بدنياكم؛ فإن مصيركم إلى الزوال.

مِنْ مَظَاهِرِ كُفْرِ النِّعْمَةِ فِي بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ

٥٦- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)﴾

ثم بيّن جلَّ شأنه شيئًا من قبائح المشركين ورذائلهم، وأنهم يجعلون نصيبًا منها لآلهتهم وهى جمادات لا تنفع، ولا تضر، ولا تعقل، ولا تعلم شيئًا، وليس لديهم حجة على أنها آلهة، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣] وهي جمادات لا تعلم شيئًا؛ وهم من سخف عقولهم يجعلون لها نصيبًا من زروعهم، وثمارهم، وأرزاقهم، وأنعامهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦] إنهم يخصصون شيئًا من الأنعام للآلهة،ويتركوها بحيث لايتعرض له أحد، كما في البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام التى جاء ذكرها في سورة المائدة في الآية الثالثة بعد المئة.

وهذه الصورة ليست في الجاهلية قبل الإسلام فحسب، بل إنها موجودة على مدى الزمن.

فهناك البقر يُقدس ويُحترم، ويترك، فلا ينتفع به، وتقف له الإشارة.

وفي بعض البلاد الإسلامية يوجد لدى بعض الجهلة ما يسمى بعجل السيد البدوي،

وذلك أن أحد الناس يشتري عجلًا ينذر أن يذبحه لولي من أولياء الله الذين ماتوا، فهو نذر وذبح لغير الله، ويبقى هذا العجل لا يتعرض له أحد، يأكل من أي شيء، ومن أي مكان، لا يُمنع، ولا يُنتفع به، ولا يُستعمل في الحرث أوالزرع، تمامًا كما كان يحدث في البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام.

فأهل الجاهلية كما أخبر الله عنهم: أنهم كانوا يجعلون لله نصيبا وللآلهة نصيبًا، وهؤلاء جعلوا للبدوي،أو لغيره نصيبًا في الأنعام أيضًا،وهو لون من الشرك موجود في عالم اليوم فالقرآن يُصلح الله به كل زمان ومكان.

والله سبحانه يقسم بذاته العلية قائلًا: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ أي: يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ فتختلقونه، وتكْذبون به على رب العالمين حين تحرّمون ما أحل الله، وتحلون ما حرم الله، وهو سؤال توبيخ وتقريع، وفيه تهديد ووعيد لهم، بأن الله تعالى سيعاقبهم على افترائهم بما يستحقون، بعد أن يسألهم ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [يونس: ٥٩، ٦٠] فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

مما سبق يتضح أن ضمير الفاعل في قوله: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ إما أن يعود على الكفار وهو الأرجح نظرًا لسياق الآيات، وإما أن يعود على الأصنام.

وما أجملته هذه الآية، فصَّلتْه آيات سورة الأنعام التي أشرنا إلى بعضها.

حَالُ الْمَرْأَةِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

٥٧- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾

أخبر ﷺ في هذه الآية أن المشركين زعموا أن الملائكة إناثٌ، وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فنسبوا لله الولد، ثم خصوه بالبنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم؛ حيث كانوا يكرهون البنات.

ولما جاء الإسلام، رفع من شأن المرأة، وجعلها ترث بعد أن كانت تُورَّث، وجعلها على قدم المساواة مع الرجل، سواء بسواء في العبادات، والحقوق، والواجبات.

وقد رغب الإسلام في تربية البنات والإحسان إليهن، وجعل ذلك بابًا من أبواب الجنة

وسترًا حاجزًا من النار، بعد أن كان الناس يدفنون البنات وهن أحياء؛ خوف العار، أو الفقر.

في صحيح مسلم، وغيره: عن عبد الله بن أبي بكر أن عروة بن الزبير أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتني، فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة واحدة، فأعطيتُها إياها، فأخذتْها فقسمتْها بين ابنتيْها، ولم تأكل منها شيئًا، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل عليَّ النبي ﷺ فحدثْتُه حديثها، فقال النبي ﷺ: **«من ابتُلي من البنات بشيء، فأحسن إليهن كنَّ له سترًا من النار»**[1].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو»** وضم بين أصابعه[2].

وشأن المؤمن أن يرضى بما قسم الله له؛ فَلَرُبَّ جارية للمرء خير له من غلامين، وقد أخبر الله في هذه الآية تعالى بصنيع المشركين؛ لِنَجْتَنِبَهُ وننتهي عنه، فقد كان أحدهم يُغَذِّي كلبه، ويئد ابنته.

هذا: وقد كرَّم الله ﷻ الإنسان من حيث هو إنسان، ولم يفرق في ذلك بين الرجل والمرأة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

والحياة تنشأ في هذه الدنيا بين زوجين: رجل، وامرأة.

والمرأة تتحمل عبئًا أكبر في بقاء النوع الإنساني، وفي الوجود البشَري، فَرحِمُ المرأة هو المستقَر الذي يبدأ فيه الإنسان أطوار حياته الأولى لمدة تسعة أشهر، أو نحوها قبل أن يوجد فوق هذه الأرض، ومما يقدح في عقيدة المسلم أن يعتقد أن المرأة مخلوق مكروه، أو بغيض للنفس، وقد كان الرجل في الجاهلية إذا وُلد له جارية أمسكها على هوان، أو دسَّها في التراب وهي حية[3].

والقرآن الكريم -في الآيات التي معنا من سورة النحل- يُقبِّح ما كان عليه المشركون من أنهم يكرهون الأنثى ويبغضونها، ومع كراهتهم للأنثى، فهم ينسبونها إلى الله سبحانه

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٢٩) و«صحيح البخاري» برقم (١٤١٨، ٥٩٩٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٣١).

(٣) الطبري (١٤/ ٢٥٥).

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [٦٢] فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، ويجعلون لأنفسهم ما يُحِبُّون من البنين، يقول جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ وفي قراءة: (الذين هم عند الرحمن إناثا)[١].

يقول جلَّ شأنه: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾؟ هل رأوهم إناثا؟ ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

ونسبة الولد إلى الله سبحانه فرية عظيمة تتفطر منها السموات، وتتشقق منها الأرض، وتخر لها الجبال ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم].

وهذا من منتهى الجهل، فإنه حينما ينسب المرء الولد إلى الله سبحانه، فإنه ينسب إليه ما يكرهه - على حد زعمه - وهو البنت، ويجعل الذكر لنفسه، وهذا معنى ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: لهم الذكور من البنين، ولله البنات. سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرا.

قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤] والله جلَّ شأنه منزه عن الصاحبة والولد، ومنزه عن الحاجة إلى خلقه، والعباد هم المحتاجون إلى الله تعالى.

وإنها لقسمة جائرة ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم]

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الصافات].

والذين كانوا ينسبون البنات إلى الله سبحانه من العرب هما قبيلتا خزاعة، وكنانة كانوا يزعمون أن الله تعالى قد تزوج من الجن فأنجب منهم الملائكة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصافات].

وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى أسود وجهه وتوارى من الناس كما قال تعالى:

---

(١) قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب.

٥٨- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾

وكانت قبائل مُضر، وخزاعة، وتميم، هذه القبائل الثلاث كانت تئد البنت، وتدفنها وهي حية، ولم يكن العرب كلهم يفعلون ذلك، فكانوا إذا أُخبر، أو بُشِّر أحدهم، أنه قد وُلد له أنثى اسودَّ وتغيَّر لون وجهه من الكآبة، والحزن، والأسى الذي يصيبه؛ كراهية لما سمع، وامتلأ غمًّا وحزنًا.

وأصل البشارة: الإخبار بما يسر، وتُستعمل في غيره من باب التهكم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧﴾ [الزخرف] أي: أنه يكتم في نفسه الغيظ، والغم، والحنق على هذه الأنثى التي وُلدت له، فهو:

٥٩- ﴿يَتَوَارَىٰ(١) مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

وكان أحدهم إذا قربتْ ولادة زوجته، توارى عن أعين الناس حتى يعلم ما وُلِد له، إن كان ذكرًا فرح، وإن كانت أنثى اختفى عن أعين الناس، وهذا معنى ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ أي: يستتر بعيدًا عنهم، يفكر ماذا يدبر لهذه الأنثى؟ وماذا يصنع بها؟ والمراد بالتواري في الآية: ما يكون بعد البشارة بالأنثى، وليس ما قبلها.

لقد كان من أهل الجاهلية ، مَنْ يقلل الذرية مخافة الفقر، أومخافة كثرة الأعباء، وهذا قدْح في العقيدة؛ فالله الذي خلقكم، هو الذي رزقكم، وهوالذي يحييكم ويميتكم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

هذا: وأرزاق العباد في الواقع المشاهَد تكثُر، وتزداد مع كثرة الخلق يومًا بعد يوم.

ففي أيام الصحابة، وما قبلها كان الناس يشتكون الجوع، والناس في أيامنا هذه تشتكي التخمة، وتشتكي الأمراض من كثرة الطعام والشراب، ويذهبون إلى مصحات الحِمْية؛ لتخفيف الوزن، فالأمر ليس كما يدَّعون، ولا كما تُصوِّره لنا الصهيونية العالمية، وتزرعه في أدمغة أبناء المسلمين للتقليل من نسلهم .

---

(١) أمال ألف (يتوارى) التي بعد الراء حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو، وقللها ورش.

وكان أهل الجاهلية أيضًا يدفنون الأنثى خوف العار عندما تتزوج، وخوف أن تُؤسر في الحروب، فتجلب لهم العار؛ لأنها لا تحمل السلاح، ولا تقاتل العدو.

وكانت المرأة في السابق لا تعمل، ولا تكتسب، فهي غالبًا ما تكون عبئًا على الرجل، لهذا وغيره كانوا يضعون البنات في التراب وهن أحياء، وكانوا يرون أن القبر خير لها من الحياة.

يقول شاعرهم: إن له ثلاثة أصهار: بَعْلٌ يقوم على ابنته ويتزوجها، وبيت تُستر فيه وتختبئ، وقبر يواريها، وأفضل هذه الثلاثة القبر الذي يواريها.

وقال آخر:

فَبَعْلٌ يُرَاعِيهَا، وَخِدْرٌ يُكِنُّهَا   وَقَبْرٌ يُوَارِيهَا وَخَيْرُهُمُ الْقَبْرُ

وقال آخر:

يَخَافُ عَلَيهَا جَفْوَةَ النَّاسِ بَعْدَهُ   وَلَا خِتْنَ يُرْجَى أَوَدُّ مِنَ الْقَبرِ.

والخِتْنُ: هو زوج الأخت، أي: لا قبر خير للمرأة من الزوج.

وكان الرجل يترك امرأته، التي وَلَدتْ أنثى، إلى ضَرَّتها، ويغضب منها؛ لأنها ولدت له أنثى، فأنشدت إحداهن تقول:

مَا لِأَبِي حَمْزَةَ لَا يَأْتِينَا   يَظَلُّ بِالْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
غَضْبَانَ أَلَّا نَلِدَ الْبَنِينَا   لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا شِينَا (أي: ما شئنا)
وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا

وعند ما يُخبر أحدهم بولادة الأنثى يستخفي من قومه؛ كراهة أن يلقاهم بما ساءه من الهم والحزن والعار؛ بسبب البنت التي وُلدت له، ويتحير في أمرها، ماذا يفعل؟ أيُبقي هذه البنت على هوان وذلة، أم يدسها في التراب؟ أحد أمرين:

١- أن يمسك الأنثى على هوان، ولا يقتلها، فإذا كبُرت يُلبسُها جبة من صوف، أو من شعر، ثم يجعلها ترعى في البادية، الإبل والغنم، ويسخِّرها في الأعمال الشاقة.

٢- أو يدسها في التراب، فإذا بلغت السادسة من عمرها قال لأمها: هيئيها فسأذهب بها إلى صديقاتها، ويكون قد أعدَّ لها في الصحراء بئرًا، أو حفرة عميقة، ثم يأخذها في

أحسن ثيابها، ويوقفها على حافة البئر، ويقول لها: انظري، ثم يدفع بها من الخلف، فإذا سقطت في البئر أهال التراب عليها من فوق رأسها، وربما رأت البنت لِحْية أبيها قد اغبرَّت من التراب، فتأخذ تنفض التراب عنه وهو يدفنها.

وتُختم الآية بذمِّ صنيعهم هذا، ألا بئس الحكم الذي حَكَمُوه من جعل البنات لله والذكور لهم، وقد أشار القرآن إلى هذه الرذيلة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير]

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]. قال تعالى:

٦٠-﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦٠﴾

ولما نسب المشركون مثل السوْء للنبي ﷺ في شأن الأنثى، بيَّن سبحانه أن المثل الناقص المعيب، لا يكون إلا لمن لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ولله تعالى أعلى الأمثال في قلوب أوليائه، فهم يعظمونه ويجلّوه ويحبوه.

ولما كانت كثرة البنات أمرًا مكروهًا ومذمومًا عند بعض الناس، فقد نسب المشركون البنات إلى الله تعالى، وجعلوه مماثلًا لأبي البنات من البشر، أخبر الله تعالى أن المثل السيئ لهم على الإطلاق)[1].

وفسر أكثرهم المثل بالصفة، فقد بيَّن سبحانه أن الصفة السيئة، وهي الحاجة إلى الولد الذكر، وكراهية الأنثى، وخوف الفقر والعار، هذا كله من صفات المخلوقين، سِيَّمَا أهل الشرك ممن ينسبون إلى الله سبحانه الصاحبة والولد.

فالذين لا يؤمنون بالآخرة -من منكري البعث، والحساب، والجزاء- لهم الصفة السيئة، والمثل السيئ، وهم أصحاب الحاجة، فالنقص ينسب إليهم لا إلى الله جلَّ شأنه، وهذا معنى ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: لهم المثل السيئ، والصفة القبيحة التي نسبوها إلى الله تعالى من الشريك والولد، والعجز والجهل، وله سبحانه الصفات العليا، والاستغناء عن خلقه، وهذا معنى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فهو سبحانه غني عن خلقه، وهم الذين يحتاجون إلى الولد وإلى غيره.

---

(١) يُنْظَر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ٤٠٢).

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلَب ولا يقهر ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير شؤون خلقه، يضع الأشياء في مواضعها، فلا يأمر إلا بخير، ولا ينهي إلا عن شر.

ولما ذكر سبحانه ما افتراه الظالمون عليه، ذكر كمال حلمه وصبره:

عَدَمُ التَّعْجِيلِ بِالْعُقُوبَةِ لِلظَّالِمِينَ، مِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى

٦١-﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ[1] ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾

ولأنّ وأد البنات ذنب عظيم، وعمل قبيح شنيع، وأشنع منه نسبة البنات إلى الله تعالى؛ فإن هذه الآية والتي قبلها جاءتا في أثناء الكلام على هذين الذنبيْن، فهما كلام معترض فيه توبيخ لهم على كفرهم.

فعرَّفت الآية السابقة بأخص عقائدهم، وهو عدم الإيمان باليوم الآخر، ثم أُتبع ذلك بالوعيد والتهديد على أقوالهم وأفعالهم في هذه الآية.

والظلم هو الاعتداء على الحق، وأعظمه الاعتداء على حق الخالق سبحانه، وهذا الحق هو حق إفراد الله تعالى بالعبادة، وهؤلاء ظلموا أنفسهم، فأشركوا بالله تعالى؛ حيث جعلوا له ولدًا، وهو شرك أكبر، وظلموا غيرهم، فاعتدوا على حياة بناتهم، وقتلوا النفس معصومة الدم التي حرم الله قتلها إلا بالحق، ولو يعاقبهم الله تعالى على هذين الظُّلْمَيْن لاستأصلهم وأبادهم، واقتضى ذلك إهلاك كل دابة تمشي على وجه الأرض معهم، ولكن الله سبحانه رفع عذاب الاستئصال عن هذه الأمة؛ لأن رسالتها باقية إلى يوم الساعة، وليس لها وقت محدد، كرسالات الأمم التي أهلكها الله تعالى؛ لتكذيبهم رسل الله.

والأخذ -في القرآن- معناه: العقوبة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وعدم المؤاخذة -هنا- معناها: عدم تعجيل العقوبة لهم في الدنيا؛ بسبب ظلمهم، ويبقى عذابهم مؤجلًا إلى يوم الحساب والجزاء، فيكون الجزاء بالعذاب خاصًا بمن ظلم أو عصى.

---

(١) أبدل همزة (يؤاخذ) واوًا ورش وأبو جعفر، وحققها الآخرون.

كما جاء عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا أراد الله بقوم عذابًا أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم**»(١).

فالعقاب لا ينال البريء في الآخرة، أما في الدنيا فإن الصالحين ينالهم ما أصاب غيرهم؛ لما في ذلك من حكمة يعلمها الله سبحانه، قد يكون ذلك لرضاهم بالباطل أو لسكوتهم عنه، أو لعدم غضبهم لله تعالى، أو لمجاملة أهل الباطل، وعدم نهيهم عن المنكر لسبب أو لآخر، والله أعلم، كما في الحديث أنه قيل للنبي ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثُر الخبث**»(٢).

ومن حلم الله سبحانه على خلقه، ومن رحمته بهم أنه جلَّ شأنه لا يعجل لهم العقوبة في الدنيا، والعلة في ذلك أنه سبحانه لو عجل لهم العقوبة في الدنيا لأهلك الحرث والنسل، وأهلك كل دابة تدب فوق سطح الأرض، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] فإن النقمة تعم، والنعمة تخص، والعذاب إذا نزل بقوم فإنه يأتي عليهم أجمعين، وقد أراد الله تعالى البقاء لهذه الأمة، فرفع عنها عذاب الاستئصال.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ أي: بسبب كفرهم، وشركهم، وعصيانهم من غير زيادة ولا نقص ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أي: ما ترك سبحانه فوق وجه هذه الأرض من دابة تدب، لا إنسان، ولا حيوان، ولا غيرهما إلا أهلكه، فإن شؤم المعاصي يهلك الحرث والنسل، كما قال ابن مسعود: كاد الجُعل أن يعذب في جُحره؛ بسبب ذنب ابن آدم، ثم قرأ الآية(٣).

فلو كان الله مؤاخذًا الخلق على كفرهم لأفناهم من الأرض، وأفنى دوابهم معهم، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ۝٥٨﴾ [الكهف]

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۝٤٢﴾ [إبراهيم]

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٧٩) و«صحيح البخاري» برقم (٧١٠٨).

(٢) من حديث زينب بنت جحش ﷺ في «صحيح البخاري» برقم (٣٥٩٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٠).

(٣) ابن أبي شيبة (١٣/ ٣٠١) والطبري (١٤/ ٢٥٩) والبيهقي (٧٤٧٨).

وفي الآية التي معنا قال جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: أنه سبحانه يمهلهم، ولا يهملهم؛ حيث يؤخر عقوبتهم إلى وقت محدد، هو العذاب في الدار الآخرة، أو عند انتهاء آجالهم، فإذا جاء وقت هذا العذاب لا يتقدمون عليه لحظة ولا يتأخرون قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً﴾ أي: زمنًا يسيرًا ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

الشَّيطَانُ يُزَيِّنُ الْكُفْرَ لِأَوْلِيَائِهِ

٦٢-﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ[1] ﴿٦٢﴾﴾

يعجب القرآن الكريم من هؤلاء القوم الذين يجعلون لله ما يكرهونه لأنفسهم من البنات، وينسبونه إلى رب العزة، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم] أي: إن هذه قسمة جائرة، يقول تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ من البنات ومن الشركاء؛ فالإنسان لا يحب أن يكون له شريك في ماله ولا في رزقه، ولا يحب أن يطاع معه أحد إن كان أبًا، أو مسؤولًا، أو حاكمًا.

وهؤلاء المشركون ينسبون الذي يكرهونه من البنات إلى رب العالمين، ولا يرضوْن لأنفسهم شريكًا لهم في التصرف، ومع ذلك فقد جعلوا لله شريكًا، ونسبوا له البنات، وجعلوا لله ما لا يرضونه لآلهتهم من الزروع والثمار ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

إنهم يجعلون لله أراذل أموالهم، ولأصنامهم أكرمها، ويميِّزون نصيب آلهتهم على ما زعموا أنه نصيب لله، ألا ما أسوأ قولهم! وما أسوأ فعلهم! فهم يجعلون لله ما يكرهونه

(١) قرأ نافع بكسر الراء من (مفرطون) اسم فاعل، من أفرط إذا جاوز الحد، وقرأ أبو جعفر بكسر الراء مشددة من فرَّط بمعنى: قصَّر، وقرأ الباقون بفتح الراء مخففة، اسم مفعول، من أفرطته خلفي، أي: تركته ونسيته.

من البنات، والأموال، والشركاء، مع أنهم يكرهون البنات، ويكرهون أن يشاركهم أحد في أموالهم وفي مناصبهم، وهم مع كل هذا يقولون على الله كذبًا: إن لهم الحسنى، أي: لهم الجنة في الآخرة، كما يقول كافرهم: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]

وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم]، وقوله: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ].

هذا كلام الكافر يقرره رب العالمين، فالكافر يزعم كما أنه في الدنيا غني وسعيد، فهو في الآخرة كذلك، له الحسنى، والنصيب الأوفر، والحظ الأكبر في الدنيا، وله الحسنى أي: الجنة في الآخرة، وهذه دعوى كاذبة، كما قال تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ أي: أنهم يقولون على الله كذبا أن لهم حُسْن العاقبة.

ثم قرر سبحانه ما أعده لهم في الدار الآخرة فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ فهي مأواهم حقًّا، وهي مأواهم ومصيرهم لا محالة ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي: مقدَّمون ومعجَّل بهم إلى النار، وفي الحديث: عن جمع من الصحابة: «**أنا فرطكم على الحوض**»[1].

فهؤلاء مقدمون إلى النار، ومنسيون فيها، قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

وفي الآية وعيد لهم بإلقائهم في النار، وبيان أنهم قد كذبوا في زعمهم أن لهم العاقبة الحسنى في الآخرة، بل هم مُلْقَوْن في النار، متروكون فيها، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣].

---

(١) «المسند» عن ابن عباس (٢٣٢٧) قال محققوه: حديث صحيح وإسناده ضعيف لضعف ليث بن أبي سليم، وعن ابن مسعود (٣٦٣٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وعن جندب البجلي (١٨٨٠٩) وعن أبي بكرة (٢٠٤٢١) وعن جابر بن سمُرة (٢٠٨٠٥) وعن سهل بن سعد (٢٢٨٢٢) وحذيفة بن اليمان (٢٣٣٣٧) وأخرجه مسلم (٢٢٩٧) والبخاري (٦٥٧٥) وأبو يعلى (٥١٩٩، ٥١٦٨) وغيرهم، وحديث الحوض من الأحاديث المتواترة، حيث ذكره الكتاني في نظم المتناثر ص (١٥١) عن (٥٧) صحابيًا ذكر أسماءهم.

الانحراف في العقيدة ليس قاصرًا على أمة محمد ﷺ:

٦٣-﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ[1] وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ختم الله سبحانه هذا السياق ببيان أن الكفار المتحدَّث عنهم في الآيات السابقة لهم نظائر في الأمم الخالية، استهوتهم الشياطين وزينوا لهم سوء أعمالهم؛ كقوم عاد، وثمود، واليهود، والنصارى، فهم مضيَّعون ومتروكون في النار؛ لأنهم نسوا لقاء ربهم، وأهل الكتاب نسبوا لله الولد، وقالوا: إنهم أهل الجنة.

والله ﷻ يبيِّن لرسوله ﷺ في هذه الآية أن الانحراف في العقيدة ليس فقط في أمتك، وإنما هو في الأمم السابقة أيضًا، فلا تحزن يا محمد، وهكذا يعزي الله نبيه ﷺ، ويسليه، ويسري عنه، فيقول له: هذا طبع كثير من البشر، ويقسم الله تعالى بذاته على هذا قائلًا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: أرسلنا رسلًا إلى أقوامهم، فحدث منهم مثل ما حدث في أمتك ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: حسَّن لهم الشيطان ما كانوا يفعلونه من مخالفة الرسل وتكذيبهم لهم، ومخالفة منهج الله ﷻ، والابتداع في دينه ما ليس منه ﴿فَهُوَ﴾ أي: الشيطان ﴿وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ يتولى إغواءهم في الدنيا، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] ومن كان الشيطان وليَّه فإنه يَخيبُ، ويهلك يوم لقاء رب العالمين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم موجع.

والمعنى: يقسم الله تعالى بذاته أنه أرسل رسلًا كثيرين قبل محمد ﷺ إلى أمم كثيرة، فاستحوذ الشيطان على عامة الأمم، وحسَّن لهم الأفعال القبيحة، وقبَّح لهم الأعمال الحسنة، حتى وقفوا في وجه الرسل فعارضوهم، وحاربوهم، وتولى الشيطان إغواءهم في الدنيا، فلهم في الآخرة عذاب مؤلم، لأنهم رضوا بولاية الشيطان، وتركوا ولاية الرحمن.

الْقُرْآنُ حُجَّةُ اللهِ عَلَى الْخَلْقِ وَالسُّنَّةُ مُبَيِّنَةٌ لَهُ

٦٤-﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

وبعد بيان ضلالات المشركين وشبهاتهم أتبع ذلك ببيان الحكمة في رسالة محمد ﷺ،

---

(١) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من (فهو)، والباقون بضمها.

وإنزال القرآن عليه؛ حيث يبيِّن الله سبحانه في هذه الآية أنه جلَّ شأنه لن يهلك أمة من الأمم إلا بعد أن يقيم عليها الحجة، فيرسل لأهلها الرسل، وينزل عليهم الكتب، ويبيِّن سبحانه أن الكتاب الخاتم، على الرسول الخاتم، يحمل كلمة الفصل بين الأمم جميعًا، وأن الله تعالى أرسل محمدًا ﷺ؛ ليوضِّح للناس ما اختلفوا فيه من الدين والأحكام، لتقوم الحجة عليهم، وفي القرآن هداية للقلوب، ورحمة وشفاء لمن آمن به؛ فقد أُنزِل هذا القرآن؛ لبيان التوحيد من الشرك، والحق من الباطل، والهدى من الضلال، والخير من الشر، وهو هدى ورحمة لقوم يؤمنون، فيه تمام الهداية للبشر، وفيه كشف للشبهات التي عرضت للأمم الماضية والحاضرة، ومن ذلك ما سبق ذكره من ضلال المشركين، فقد جاء في هذا القرآن على لسان رسول الله محمد ﷺ ما يجليها ويوضحها، ويفندها بما لا يترك للباطل مسلكًا للنفوس.

فوظيفة الكتاب الأخير، ووظيفة الرسالة الخاتمة، هي الفصل بين أصحاب الكتب السابقة وطوائفهم، فيما شجر بينهم من خلاف سيَّمَا في شأن العقيدة؛ فالأصل هو التوحيد، وما طرأ على ذلك من شرك أو شُبه، كله باطل، وقد جاء القرآن؛ ليوضح الحق فيه، ويستفيد من هذا أصحاب القلوب المفتوحة؛ لتلقِّي الإيمان والهداية.

الْمَجْمُوعَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فِي السُّورَةِ وَهِيَ سَبْعُ نِعَمٍ

٦٥- ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾

سورة النحل تحاور الكفار والملحدين فتقيم لهم مجموعة من الأدلة على وحدانية الخالق سبحانه، وعلى عظيم قدرته وآثاره في هذا الكون، على نحو ما سبق في السورة.

وفي فوج من هذه الأدلة وهذه النعم، يَذكُر الله تبارك وتعالى أربعة أنواع من الأشربة التي امتن الله بها على الإنسان وهي:

١- نعمة الماء الذي ينزل من السماء.

٢- ونعمة اللبن الذي يخرج من بين الفرث والدم.

٣- ونعمة الرزق الحسن الذي يخرج من النخيل والأعناب.

٤- ونعمة العسل الذي يخرج من بطون النحل.

٥- ونعمة الخلق. ٦- ونعمة الرزق. ٧- ونعمة الزواج والتناسل.

النِّعْمَةُ الأُولَى: نِعْمَةُ المَاءِ

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فالسماء هي مصدر المياه، وبه يحيي الله الأرض بعد موتها، ومن خصائص الإله الحق أنه يحيي الموتى، فالذي لا يخلق ولا يرزق، ولا يحوّل الموت إلى حياة ليس بإله، ومن يفعل هذا غير الله؟

فالله تعالى هو المنعم بإنزال المطر، وإنبات النبات، وهو الذي يحى الأرض بعد موتها، وهو على كل شيء قدير، فهو وحده الجدير بالعبادة دون سواه.

وقد سبق ذكر هذه النعمة في السورة، في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾.

ولكن الاستدلال في الآية السابقة كان استدلالًا بتكوين الماء وخلقه، وهو من أدلة انفراد الله تعالى بالخلق.

أما في الآية التي معنا فالاستدلال بها جاء في معرض الامتنان بنعمة الماء على الخلق، والاعتبار بإحياء الأرض بعد موتها.

ويتضح هذا المعنى في ختام الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ دالة على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾؛ لأن السماع آلة التدبر، والاعتبار.

وفيه ذم وتعريض بالمشركين الذين لم يفهموا أدلة التوحيد، وهي دلائل واضحة ظاهرة لا يصد عنها إلا مكابر، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

والمعنى: والله أنزل من السحاب مطرًا، فتحوَّلت الأرض بسبب نزول هذا المطر عليها من أرض جدباء قاحلة إلى أرض خضراء رابية، فأخرج به النبات من الأرض، إن في إنزال الماء من السماء، وفي إحياء الأرض بعد موتها، وفي إخراج النبات من الأرض، لدليلًا واضحًا -على وحدانية الله تعالى، وعلى بعث الناس بعد موتهم- لقوم يتدبرون، ويتعظون، ويطيعون الله ورسوله.

النِّعْمَةُ الثَّانِيَةُ: نِعْمَةُ اللَّبَنِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْفَرْثِ وَالدَّمِ

٦٦-﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم[1] مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ التي خلقها الله وسخرها لمنافعكم ﴿لَعِبْرَةً﴾ تستدلون بها على كمال قدرة الله تعالى، حتى أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم لبنًا خالصًا، فبالألبان يحيا الإنسان، وبالماء تحيا الأرض، ويحيا الإنسان والحيوان، والماء هو المؤثر في تكوين الألبان بالمرعى، وفي ذلك إدماج للتذكير بنعم الله تعالى على الإنسان، مع أخذ العبرة والعظة منها، قال تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ فقد ذكَّر الضمير هنا؛ لإفادة الجمع، باعتبار لفظ الأنعام، فهو مفرد.

وفي سورة (المؤمنون) ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [آية: ٢١] أنَّثَ ضمير الجمع باعتبار المعنى، فالأنعام مؤنث، وهكذا أسماء الأجناس يجوز فيها الوجهان.

وهذه الآية من أعظم الأدلة على وحدانية الله تعالى وتفرده بالخلق، واستحقاقه للعبادة دون سواه.

والأنعام: هي الإبل، والبقر، والغنم، فيها عبرة دالة على وحدانية الخالق سبحانه، فهي عبرة في خلقها، وفي تسخيرها، إنها منقادة ومذلَّلة للإنسان بقدرة الله تعالى، فأنت ترى الطفل الصغير يسحب الجمل الضخم، ويسير الجمل خلفه طائعًا مذلَّلا مسخَّرًا، فكيف لا تُسخَّرون لخالقكم أيها الناس فتوحدوه وتعبدوه؟ وكيف لا تنقادون لمن رزقكم، وأوجدكم من العدم؟ وهو الذي يسقيكم مما في بطون هذه الأنعام من بين فرث ودم.

﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وليس المراد أن اللبن يخرج سائلًا بين طبقتي الفرث والدم، وإنما المراد أنه وسط بين مرتبتين، كما يقال: الشجاعة صفة بين التهور والجبن، واللبن ألْين من الدم لا يبقى في عروق الضرع كبقاء الدم في العروق، وليس بفضلة كالروْث، إنه إفراز طاهر نافع مغذٍّ، وليس قذرًا ضارًّا غير صالح للتغذية؛ كالبول، والفضلات.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وشعبة ويعقوب بنون مفتوحة في (نسقيكم) مضارع سقى، ومنه (وسقاهم ربهم)، وقرأ أبو جعفر بتاء مفتوحة، على التأنيث، مسند إلى ضمير الأنعام، وقرأ الباقون بنون مضمومة، مضارع أسقى ومنه (فأسقيناكموه).

قالوا: إن العلَف، أو الغذاء الذي يكون في كرش الأنعام يُكوَّن منه الدم، فيجري في العروق.

ويكوَّن منه اللبن، فيجري في الضروع.

ويكوَّن منه البول، فيجري في المثانة.

ويكوَّن منه الروث، فيجري إلى المخرج في الكرش، فإذا خرج منه يسمى زبلًا، ولا يقال له: روث.

والفرث يكون أسفل، والدم يكون أعلى، واللبن يخرج من بينهما، لبنًا خالصًا غير مشوب بحمرة الدم، وغير مشوب بطعم الروث، لونه صاف، ورائحته زكية، فلا يتأثر بلون الفرث والدم، ولا برائحتهما؛ لأن بينهما حاجزًا بقدرة الله تعالى، فمن الذي علَّم محمدًا ﷺ هذا؟ وهي حقيقة علمية لم تكن معروفة طبيًّا في ذاك الوقت، ولم تُعرف إلا من وقت قريب، والنبي ﷺ أمِّي، فمن الذي أعلمه بهذا؟

ومن الذي يقلب العلف الذي تأكله البهيمة، والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين.

في حديث ابن عباس ﷺ: عند أبي داود وغيره: **«إذا أكل أحدكم طعامًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيرًا منه، وإذا سُقِي لبنًا فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه، فإنه ليس شيء يجزئ عن الطعام والشراب إلا اللبن»**[1].

فاللبن قوام الأجسام، وهو أول ما يتغذى به الطفل حين يخرج من بطن أمه، وينمو به بدنه، واللبن دليل الفطرة، وعلامة الهداية لهذه الأمة، فقد صحَّ في حديث الإسراء عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«فجاءني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترتُ اللبن، فقال لي جبريل: اخترتَ الفطرة، ولو اخترتَ الخمر لغوتْ أمتك»**[2].

---

(١) «صحيح سنن أبي داود» (٣١٧٣) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٢٢) و«مشكاة المصابيح» (٤٢٨٣) وهو حديث حسن.

(٢) الحديث في «صحيح البخاري» (٧٥١٧) و«صحيح مسلم» (١٦٢) و«المسند» (١٢٥٠٥).

النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: نِعْمَةُ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ

٦٧-﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا[1] حَسَنًاۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

أي: ولكم - أيها الناس - فيما يخرج من النخيل، والأعناب عبرة نسقيكم منها، وهي من نعمنا عليكم، فقد جعل الله لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد طريًّا ونضيجًا، طعامًا وشرابًا.

والسَّكَر هو السُّكْر، وهو ما يتخذ من التمر، والعنب مما يُسْكِر من الخمر، أو النبيذ.

وكان الناس يسمون الخمر سَكَرًا، وكانوا يشربونها، ثم سماها الله بعد ذلك الخمر حين حرمت[2].

والرزق الحسن: جميع ما يؤكل وما يُشرَب حلالًا من النخيل والعنب، مثل: الدبس، والتمر، والزبيب، والخل، مما يخرج من النخيل والأعناب.

وهذه آية مكية، نزلت في مكة، في سورة مكية، وهي تشير إلى ما يُسْكِر ويغطِّي العقل، وهو الخمر.

والخمر حُرمت في المدينة في آيات الخمر الثلاث من سور: البقرة، والنساء، والمائدة.

وجاء التحريم لها قاطعًا في سورة المائدة، وهذه الآية من سورة النحل هي أول آية نزلت توطئة لتحريم الخمر، وهي الآية الأولى في مراحل تحريمها، وقد نزلت هذه الآية في مكة تذم الخمر وتعيبه، وتصف الواقع الذي كان عليه المجتمع الجاهلي.

فالقرآن يصف الرزق الذي يخرج من النخيل والعنب، بأنه رزق حسن، مثل: التمر، والدبس، والزبيب، ويُثْني عليه، ويسكت عن السكْر ذمًّا وتقبيحًا له، فإذا أثنيت على إنسان وتركت آخر، فمعنى ذلك: أنك تشير إلى ذم الآخر.

فالقرآن يشير من بُعد في هذه الآية إلى تحريم الخمر، في مرحلة من مراحل

---

(١) قرأ خلف عن حمزة بعدم الغنة في (سكرًا ورزقًا). والباقون بالغنة مع الإدغام.

(٢) الطبري (١٤/ ٢٨١).

تحريمها[١]، والخمر ليست من الرزق الحسن.

وإلى الرزق الحسن تشير آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وجاء ذكر العقل في نهاية الآية؛ لأنه أشرف ما في الإنسان، وقد حرم الله الأشربة المسكرة على الناس صيانة لعقولهم، وفيها دليل على قدرة الله تعالى لقوم يعقلون البراهين فيعتبرون بها.

النِّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: نِعْمَةُ الْعَسَلِ يَخْرُجُ مِنَ بُطُونِ النَّحْلِ

٦٨، ٦٩ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا[٢] وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ[٣] ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقولون: ورق التوت يأكله الدود، فيخرج حريرًا، ويأكله الظبي فيخرج مسكًا، ويأكله النحل فيخرج عسلًا، ويأكله الماعز فيخرج روثًا، سبحان الخلاق العليم!

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ المراد بهذا الوحي: وحي الإلهام، والفطرة، والغريزة كوحي الله تعالى لأم موسى، وهناك وحي الرؤيا في المنام، ووحي الله إلى الأنبياء عن طريق جبريل عليه السلام، والوحي بمعنى: الأمر، كما قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة].

---

(١) قال بهذا ابن عباس وابن مسعود وابن عمر والحسن وابن جبير وإبراهيم النخعي ومجاهد والشعبي وأبو زيد، وقال الطبري: لا مدخل للخمر في ذلك، يُنْظَر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ٤٠٥) والألوسي (١٤/ ١٨٠) والقرطبي (١٠/ ١٢٨).

(٢) قرأ ورش وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب بضم الباء من (بُيوتًا)، والباقون بكسرها.

(٣) قرأ ابن عامر وشعبة بضم الراء من (ومما يعرُشون)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

ووحْي الله إلى النحل، وحي إلهام باتفاق، أوحى لها بمعنى: ألهمها، وأرشدها إلى أن تتخذ لنفسها بيوتًا، يستوي في ذلك النحل الوحشي الذي يسكن الجبال والشجر، ويأوي إلى الكهوف، أو النحل الأهلي الذي يسكن البيوت ويربيه الناس، وكلٌّ منهما يعمل بإلهام فطري، أودعه فيه الخالق سبحانه، فمن الذي علَّم النحل فألهمه أن يتخذ لنفسه بيتًا سداسيًّا، غير ثُماني ولا سُباعي، بل سداسي متساوي الأضلاع، ليس فيه فُرْجة ولا منفذ للحشرات، ثم تُغطِّي سطح المسدسات بمادة دُهنية، هي مادة الشمع؛ لتمنع تسرُّب العسل منه، بعد أن تكسوه بالشهْد"؟!

بيت دقيق مُحْكم ينسجه النحل بنفسه، فمن الذي ألهمه رشده؟ إنه رب العالمين.

ألهم الله النحل أن يتخذ له أميرًا مطاعًا نافذ الحكم فيه، هو ملكات النحل، فمن الذي ألهمه هذا؟

ألهم الله النحل أن يجعل لكل خلية بوابًا حارسًا عند باب الخلية، بحيث لا يدخلها أحد من النحل الآخر من غير أبيها، فمن الذي ألهمه بأن يتخذ له ملكات، ويتخذ له حراسًا؟

ألهم الله النحل أن يخرج من عشِّه، ومن وكْره وبيته؛ ليلتقط أرزاقه، فيخرج نوعيَّة العسل تبعًا لما يأكل، عسل أصفر، أو أحمر، أو أبيض، أو أسود، وبين ذلك، ويخرج منه عسل الزهور، وعسل السدر، والعسل الجبلي، وغير ذلك، مختلفًا ألوانه، ثم يبني لنفسه مساكن في الجبال والأشجار والعرائش، فأوحى الله إلى النحلة ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ هي أماكن بيوت النحل ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي: مما يعرشه الإنسان ويصنعه من البيوت التي يعدها للنحل، في سقف بعض البيوت في الريف أو في المزارع، ونحو ذلك، مما يعده الناس للنحل، أو يعده النحل لنفسه، كشجر العنب، وتجويف الشجر، وفجوات الجبال.

- وألهم الله النحلة أن تأكل شيئًا، أو جزءًا من كل ثمرة تشتهيها، تأكل من بعض الثمرات التي يتاح لها الأكل منها من سدر، وزهور، وغير ذلك؛ فالنحلة تتنقل من زهرة إلى زهرة، ومن روضة إلى روضة؛ لتمتص من الأزهار قبل أن تصير ثمرات، فإذا شبعت رجعت إلى بيتها فقذفت ما في بطنها من العسل.

وذلك أن للأزهار غددًا دقيقة، تفرز سائلًا سكَّريًا تمتصه النحلة، وتملأ به ما يشبه الحوصلة التي في بطنها، فيختلط هذا الزهر بما أودع الله في بطن النحلة من مواد، فيأخذ جسمها ما يحتاجه من قوة، ثم تُخرج من فمها ما حصل في بطنها، وقد ذلَّل الله لها الطرق الوعرة، تسلكها هذه الحشرة الضعيفة، وهي تخرج من بيتها، ثم تعود، ولا تضل الطريق، وفي العسل شفاء للناس من كل داء، ومن كل مرض.

قال أهل العلم: ليس فيه شفاء من كل داء، ولا في كل الأحوال، ولو أراد الله ذلك لقال: فيه الشفاء بالتعريف.

والجمهور على أن فيه شفاء من بعض الأمراض وفي بعض الأحوال، ولا يقتضي العموم في كل علة وفي كل إنسان.

جاء في الأثر عن ابن مسعود ﷺ: **«عليكم بالشفاءين، العسل والقرآن»**[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس].

وقال ﷺ فيما يرويه ابن عباس ﷺ: **«الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كيَّة بنار، وأنا أنهي أمتي عن الكيِّ»**[(٢)].

وفي الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رجلًا أتى النبي ﷺ، فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: **«اسقه عسلًا»**، ثم أتاه الثانية فقال: **«اسقه عسلًا»**، ثم أتاه الثالثة فقال: **«اسقه عسلًا»**، ثم أتاه، فقال قد فعلت، فقال: **«صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلًا»**، فسقاه، فبرأ[(٣)].

---

(١) من حديث ابن مسعود في «سنن ابن ماجه» برقم (٣٤٥٢) ورواه ابن جرير (١٤/ ٩٤) موقوفًا، والحاكم (٤/ ٣٠٤) والبيهقي في «الشعب» (٢٥٨١) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٧٥٦).

(٢) من حديث ابن عباس في البخاري برقم (٥٦٨١) واللفظ له، (٥٦٨٠) ومسلم برقم (٥٦٨١) و«المسند» (٤/ ١٤٦) برقم (٢٢٠٨) وابن ماجه (٣٤٩١).

(٣) البخاري برقم (٥٦٨٤، ٥٧١٦) وهذا لفظه ومسلم برقم (٢٢١٧) و«المسند» (١١١٤٦).

لقد كان الذي في بطن أخيه حالة إسهال، فسقاه عسلًا، فازداد الإسهال، فرجع إلى النبي ﷺ، فقال له: اسقه عسلًا ثلاث مرات، وكلما سقاه ازداد بطنه إسهالًا.

قال أهل العلم: إن الرجل كان ببطنه فضلات، وإن هذا العسل الحار حلل هذه الفضلات فاندفعت نحو الخروج، وكلما شرب استطلق وزاد إسهاله، حتى إذا عوفي وخرج المرض، استمسك بطنه وبرئ في المرة الرابعة.

ومن العجيب يقين النبي ﷺ بأنه سيشفى! فمن الذي علَّمه أن العسل فيه شفاء، ولم يكن هذا معروفًا للناس من الناحية الطبية؟ من الذي جعل الرسول ﷺ على يقين وثبات من أمره، حتى يراجعه الرجل في المرات الأربع فيقول له: «**اسقه عسلًا**»، ثم يقول له: «**صدق الله وكذب بطن أخيك، اسقه عسلًا**»؟ فكان الواقع كما أخبر المصطفى ﷺ.

وعن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل[(١)].

وعن جابر بن عبد الله ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوي**»[(٢)].

قال علي بن أبي طالب ﵁ يصف حقارة الدنيا: أشرف لباس ابن آدم فيها لُعاب دودة، وأشرف شرابه رجيع نحلة[(٣)].

وفيما ذكره الله تعالى من إلهام النحل اتخاذ البيوت العجيبة، ومن إدارتها لشؤون حياتها، ومن خروج النحل من بطونها، وغير ذلك دلالات قوية على قدرة خالقها لقوم يتفكرون، فيعتبرون.

---

(١) البخاري برقم (٥٦٨٢) ومسلم برقم (١٤٧٤) مطولًا واللفظ للبخاري وقريبًا منه في «السنن الكبرى» للنسائي (٧٦٠٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٦٨٣، ٥٦٩٧، ٥٧٠٢، ٥٧٠٤) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٠٥). وبنحوه عن معاوية بن خُديْج في مسند أحمد (٢٧٢٥٦) وهو حديث صحيح رجاله ثقات.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٣/٤٠٦).

النِّعْمَةُ الْخَامِسَةُ: نِعْمَةُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ

٧٠- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

ثم انتقلت الآيات من الاستدلال بدقائق صنع الله تعالى على وحدانيته سبحانه إلى الاستدلال بتصرف القدرة الإلهية القاهرة في الخلق، بما لا يمكنهم دفع هذا التصرف عنهم، وهو الحياة والموت، والرزق، والتناسل.

فتختم هذه الأدلة، بالإشارة إلى قدرة الله تعالى؛ فهو سبحانه يخلقهم بدون اختيار، ويتوفاهم على كره منهم.

وقد تحدثت الآيات السابقة عن أربع من نعم الله ﷻ على الإنسان، وهي: نعمة الماء، ونعمة اللبن الذي يخرج من بين الفرث والدم، ونعمة ثمرات النخيل والأعناب، ونعمة العسل الذي يخرج من بطون النحل.

ثم ساق الله ﷻ بعد ذلك ثلاث نعم أخرى عامة، تشمل الناس جميعًا من المهد إلى اللحد، تضاف إلى النعم السابقة، وهي: نعمة الخلق والوجود في هذه الحياة، ونعمة الرزق الذي رزقه الله ﷻ للإنسان، ونعمة الزواج والتناسل الذي يبقى به الإنسان ويستمر وجوده في الدنيا إلى أن تقوم الساعة.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ من العدم، ولم تكونوا شيئًا، ووهبكم هذه الحياة؛ لأداء وظيفة معينة هي طاعة الله تعالى وعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات].

لقد كان من الممكن أن يخلق الله الإنسان ترابًا يداس تحت الأقدام، وكان من الممكن أن يخلق الله الإنسان دابة تركب، ولكنه جلَّ شأنه خلقه خلقًا مميَّزًا، إنسانًا كرَّمه، وفضَّله، وجعله في أحسن تقويم، فوجب عليه أن يشكر هذه الهبة، هبة الحياة التي امتنَّ الله عليه بها، ويقوم بأداء المهمة أو الوظيفة التي خُلق من أجلها.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ من نطفة وجعلها أطوارًا حتى كنتم بشرًا سويًّا ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي: عند انقضاء آجالكم، ومنكم من يموت وهو طفل، أو صبي، أو شاب، أو كهل، أو شيخ؛ حيث يُردُّ إلى أرذل العمر، ويبقى فوق متوسط أعمار هذه الأمة، ومتوسط أعمار الأمة،

كما بيَّن النبي ﷺ ما بين الستين والسبعين، فالذي يُرَد إلى أرذل العمر هو الذي يعيش بعد هذه المدة، أي: فوق السبعين عامًا، والقرآن الكريم سماه أرذل العمر، ووصفه بهذه الصفة؛ لأنه نقص لا يكتمل، ولأنه لا رجعة منه إلى الشباب مرة أخرى، ولأن الإنسان يزداد فيه ضعفًا بعد ضعف، حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، وقد كان من طفولته يزداد قوة بعد قوة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الروم: ٥٤] فمنكم من يبقى محتفظًا بقوة جسده وعقله حتى يموت، ومنكم مَن يعتريه الضعف والنقص.

قالوا: إن الإنسان يمر في حياته بأربع مراحل من العمر، منذ أن يولد إلى أن يصل سن الثالثة والثلاثين.

يكون طفلًا، ثم صبيًا، ثم مراهقًا، ثم شابًا، ثم يبلغ أشده، وهو قوة الشباب واكتماله.

ومن الثالثة والثلاثين إلى سن الأربعين يبلغ رشده وكمال القوة البدنية والعقلية.

ومن الأربعين إلى الستين يمرُّ بفترة الكهولة، ثم من الستين إلى أن يموت وهي فترة الشيخوخة، وقد ضبط العلماء هذه المراتب كما يلي:

أولها: سن النشوء والنماء.

وثانيها: سن الشباب، وهذا من ثلاث وثلاثين سنة إلى أربعين سنة.

وثالثها: سن الكهولة، وهو من الأربعين إلى الستين.

ورابعها: سن الشيخوخة، من الستين إلى نهاية العمر(١) فيرد إلى أرذل العمر؛ حيث تفقد بعض حواس الإنسان شيئًا من مهامها، فيقل العقل، ويقل الإدراك، ويضعف البدن، وهذا يختلف باختلاف أحوال الناس، ومدى سلامتهم من العلل والأمراض، ومدى اتصالهم بالله تعالى وقُربهم منه.

وقد بيَّن الله سبحانه ذلك في قوله: ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ وفي قوله: ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥] إنه ينسى ما كان قد علم، وتضعف قواه العقلية وإدراكه.

---

(١) يُنظَر: «تفسير الفخر الرازي» (٥/ ٣٣٢).

قال عكرمة: من قرأ القرآن لا يرد إلى أرذل العمر؛ حتى لا يعلم بعد علم شيئًا[١].
أي: لا ينسى، ولا تضعُف قواه العقلية.

وفي قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾.

يعني: رددناه إلى أرذل العمر، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين].

قال عكرمة: هم الذين قرؤوا القرآن، أي: لا يردون إلى أرذل العمر، ولا ينسون ما فاتهم، ولا ينسون القرآن.

وكان النبي ﷺ يستعيذ بالله أن يرده إلى أرذل العمر، كما في حديث أنس ﷺ:
«اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»[٢].

وعن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال: **«اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر»**[٣].

قرأتُ في مجلة الدعوة السعودية عن رجل مريض في مدينة الرياض، كان يعالج سكرات الموت وقد نسي كل شئ حوله، وكان ابنه يسأله عن زوَّاره الذين يحيطون به، فلا يعرف أحدًا منهم، وكان هذا الرجل يحفظ القرآن، فكان الابن يقرأ القرآن وهو جالس عنده، وبمجرد أن يخطئ الابن يرد عليه الأب خطأه، وهو يعاني من سكرات الموت.

والله تعالى قد أحاط علمه وقدرته بكل شيء، فالله الذي رده إلى هذه الحالة قادر على أن يميته، ثم يبعثه.

النِّعمَةُ السَّادِسَةُ: نِعمَةُ الرِّزْقِ

٧١-﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ[٤] ﴿٧١﴾﴾

(١) ابن أبي شيبة (١٠/ ١٤/ ٥٤).

(٢) يُنظَر البخاري برقم (٢٨٢٣، ٤٧٠٧، ٦٣٦٧) ومسلم برقم (٢٧٠٦) وهذا لفظه.

(٣) البخاري في الجهاد برقم (٢٨٢٢، ٦٣٦٥، ٦٣٧٠) ومسلم في الذكر (٢٧٠٦) عن أنس، والنسائي (٨/ ٢٥٦).

(٤) قرأ شعبة ورويس بالتاء في (تجحدون)؛ لمناسبة (فضل بعضكم)، وقرأ الباقون بالياء؛ لمناسبة (فما الذين فضلوا).

أي ومن دلائل التوحيد تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق، وكلهم مشتركون في الخلق والرزق، ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم:٢٨] إلا أن الله تعالى جعل منهم الثَّريّ والفقير، والحر، والرقيق الذي لا يملك شيئا.

وهكذا: فالله ﷻ قد فاوت بين خلقه في الأرزاق الحاصلة لجميع الخلق على كل حال، والتفضيل إنما هو في التفاوت بينهم؛ فهم متفاوتون في مقادير الأرزاق ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ اختبارًا، وابتلاء للغني والفقير على حد سواء؛ فالمال ابتلاء، والفقر ابتلاء، كلاهما ابتلاء يجري من الله تعالى على غير رغبات الخلق، ومن غير كدِّهم ولا سعيهم، فقد يكون أكيس الناس أفقرهم، وأسفههم أغناهم، وإن من عباد الله من لو أغناهم الله لفسد حالهم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾﴾ [العلق].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ [الشورى: ٢٧].

ونِعْمَ المال الصالح للعبد الصالح، فهو مغبوط على نعمة الله عليه، وهو الذي يؤدي شكر الله تعالى، ويؤدي واجب هذا المال عليه، فلا يطغى، ولا يفسُد حاله، ولكنه ينفع به إخوانه المسلمين، ويسخِّره في العمل الصالح، وفي وجوه الإنفاق المشروعة.

وهذا أمر يثني عليه رسول الله ﷺ، ويمدحه الإسلام: **«نِعْمَ المال الصالح للعبد الصالح»**(١) **«والغني الشاكر خير من الفقير الصابر»**؛ لأن الأول يتعدى نفعه، بخلاف الآخر فنفعه خاص به، وقد أسند الله سبحانه التفضيل في الرزق إليه سبحانه؛ لأن أسبابه خارجة عن إحاطة عقول البشر.

والآية واضحة وصريحة في أن الله سبحانه فضَّل بعض الناس على بعض في الرزق،

---

(١) قال الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٢٠٤٢): إسناده صحيح، وهو في موارد الظمآن للهيثمي برقم (١٠٨٩، ١/٢٦٨)، وأخرج أحمد نحوه في المسند (١٧٧٦٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم، عن عمرو بن العاص، وكذا الطحاوي في شرح المشكل (٦٠٥٦) وابن حبان (٣٢١٠) والطبراني في الأوسط (٣٢١٣) والحاكم (٢/٢٣٦) والبغوي (٢٤٩٥).

وهذا إبطال للمذهب الاشتراكي الماركسي البائد الذي يقول: إن الناس سواسية تشترك في الأموال، وكانوا يطبقون ذلك على غيرهم من عامة الشعب.

وكم من أناس استخدموا هذه الآية وآية سورة الحشر ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ وألّفوا كُتبًا استدلوا فيها بهاتين الآيتين على مدح الاشتراكية، وقالوا: إن (عمر) هو أبو الاشتراكيين!! وهؤلاءهم الذين يتلمسون في نصوص الشرع ما يرضى الحكام!!.

والله ﷻ له حكمة في تفاوت الأرزاق، بيَّنها جلَّ شأنه في قوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: في الأموال، وفي المتاع، وفي الجاه، وفي العقل والإدراك، وفي الصحة والقوة، وفي الجاه والسلطان، وغير ذلك.

وقد بيَّن الله سبحانه العلة في ذلك، فقال: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] ليس هذا من السخرية، بمعنى: الاستهزاء، وإنما هو من التسخير، فلو كان الناس سواسية في الرزق لَمَا عمل هذا عند هذا، ولا استمع هذا إلى كلام هذا، ولا قبل إدارته، ولم يقبل أن يكون خادمًا، أو صانعًا، أو موظفًا، أو عاملًا عند الآخر؛ فالله تعالى يسخر هذا إلى هذا، ويسخر هذا في خدمة هذا؛ لينتظم الكون، وتدوم الحياة، وليس في وسع العبد إلا الإقرار والرضى بعد بذل الأسباب المشروعة، ولو كان الناس على درجة واحدة في الرزق لما سار ركب الحياة.

قال سبحانه مخاطبًا المشركين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وسورة النحل تركِّز على جانب التوحيد، وهي من آخر ما نزل من القرآن في مكة، وتركز بالضرورة على ترك الشرك بالله سبحانه، وتذكُّر العبد بهذه النعم، وتربطها بوجوب

شكر المنعم المتفضل ﷻ، وتقرن ذلك بأن الشرك، لا يليق بالخلق، وقد أغدق الله عليهم بخيراته، فأنعم عليهم بهذه النعم وغيرها؛ فكيف يليق بهم أن يعبدوا غيره؟! والقرآن يخاطب البشر جميعًا، فلا يخاطب العرب وحدهم، ولا يخاطب أهل الجزيرة وحدها، وإنما يخاطب العالم أجمع.

ولذلك فإن القرآن الكريم فرَّع على ما سبق بيانه، من تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق، بضرْب مَثَل لأهل الشرك يبيِّن فيه فساد عقولهم في تسويتهم بين الخالق والمخلوق؛ حيث أشركوه سبحانه مع آلهتهم، كما كانوا يقولون في الحج: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك.

فمثَّل سبحانه بطلان عقيدتهم في الشرك بحال الأغنياء الذين لا يقبلون أن يشاركهم في أموالهم ونسائهم، عبيدهم أو خدمهم؛ حتى لا يستووا معهم، فكيف يسوُّون بالله عبيده وخلقه في الإلهية.

وهذا المثل ضربه الله سبحانه أيضًا في سورة الروم، فقال جلَّ شأنه: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [الروم: ٢٨].

فالمالك لا يقبل أن يعطي المملوك أموالًا تجعله يتساوى معه في المال والمكانة، وكذلك الله سبحانه لا يقبل أن يكون له شريك يتساوي معه في توجّه العباد إليه بالعبادة، وكُلٌّ من الغني والفقير، والمالك والمملوك مربوب ومخلوق لله تعالى، وهم أمام رزقه سواء، فقوله تعالى: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ فيه توبيخ لمن يشركون مع الله غيره، وفيه دعوة لمن وسَّع الله عليه في الرزق ألا يبخل على خدمه، ومن يملك، ومن يعملون تحت يده.

جاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم**»[1].

ولذلك فالقرآن الكريم يحث الأغنياء، والأحرار، أي: السادة الذين يملكون أرقاء

---

(١) من حديث أبي ذر في البخاري برقم (٦٠، ٢٥٤٥، ٦٠٥٠) ومسلم برقم (١٦٦١).

وعبيدًا، أو خدمًا تحت أيديهم، أو عمالًا، ونحوهم، أن يفيضوا من أموالهم على خدمهم، ويعطوهم من المال الذي منحهم الله إياه؟

ونعود إلى السؤال: هل يرضى المالك أن يكون المملوك شريكًا مساويًا له في المال، أو في النساء، أو في الخدم والحشم، ونحو ذلك؟ فإذا كان المالك لا يرضى بذلك، والغني لا يقبل، فكيف تَرضوْن لربكم ما لا تَرضوْنه لأنفسكم؟! فالذي لا تَرضوْنه لأنفسكم لا ترضوه لرب العالمين.

فإذا لم يقبل السادة أن يشركوا عبيدهم معهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون مع الله تعالى عبيده في سلطانه؟ وكيف تسوُّون بين الخالق والمخلوق؟

إن النصارى يساوون مع الله تعالى عيسى ابن مريم، حين يجعلونه إلهًا، أو يجعلون الإله مكونًا من ثلاثة.

إن المشركين ارتضوْا لله تعالى أن تكون له صاحبة، وأن يكون له ولد، وأن يكون له شريك مناظر له في الملك والعبودية، وهم لا يرضوْن لأنفسهم أن يتساووا مع من يملكون، أو مع خدمهم وفقرائهم.

ذلكم ما تشير إليه الآية ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ أي: فليس مِنَ الذين فضلهم الله بالمال، والمتاع، والجاه ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي: أنهم لن يعطوا، ولن يمنحوا عبيدهم ومواليهم من الأموال؛ حتى لا تستوي أحوالهم بهم ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: حتى لا يتساوَوْا معهم، إن هذا لمن أعظم الجحود لنعم الله تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فينكروا هذه النعم المذكورة في السورة وأمثالها.

والله سبحانه ينكر عليهم جحودهم ؛لفضله عليهم،وبدل أن يشكروا المنعم ويوحِّدوه، فهم يشركون معه غيره، ويرضوْن له ما لا يرضوْن لأنفسهم.

ومعنى الآية: والله فضل بعضكم - أيها الناس - على بعض فيما أعطاكم في الدنيا من الرزق، فمنكم غني، ومنكم فقير، ومنكم مالك، ومنكم مملوك، وليس الأغنياء بمشركين عبيدهم ولا خدمهم معهم فيما رزقهم الله من الأموال والنساء؛ حتى لا يستووا معهم في المكانة والمنزلة، فإذا لم يرضَوْا بذلك لأنفسهم، فلماذا رضي المشركون أن يجعلوا لله شركاء من خلقه؟! إن هذا لمن أعظم الظلم والجحود لنعم الله عليهم.

قال ابن عباس ﷺ في معنى الآية: لم يكونوا ليشْركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟[1].

(١) الطبري (١٤/ ٢٩٣).

فإن لم ترض لنفسك بهذا فالله أحق أن تبرِّئه من ذلك، ولا تعدل بالله أحدًا من عباده وخلقه [١].

وكما أن السادة لا يُشركون العبيد معهم في أموالهم، فإنه من الممتنع كذلك أن يكون أحد من الخلق شريكا لله تعالى، إذ كيف يمتنع أن يكون الرقيق شريكًا لسيده في ماله، ولا يمتنع أن يكون أحد من الخلق، شريك لله في ملكه؟

النِّعْمَةُ السَّابِعَةُ: نِعْمَةُ الزَّوَاجِ وَالتَّنَاسُلِ

٧٢-﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

يمن الله على عباده بأن جعل لهم أرواحًا يسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولادًا وأحفادًا تقرُّبِهم أعينهم، ورزَقهم من أطايب الطعام والشراب، فهذه ثلاث نعم يمتنّ الله بها على عباده في هذه الآية:

١- فمن فَضْلِ الله تعالى علينا أن جعل الزوجة من جنس الذكر، من شكله وعلى هيئته، خلقها منه؛ لكي تتم بينهم الألفة، والمودة، والأنس، والرحمة، ولتستريح نفوسكم معهن، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وقال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] ولو جعل الله الزوجة من الجن، أو من عالم آخر لَمَا استقامت الحياة، وما بقي التناسل البشري إلى يوم القيامة.

الزواج من الجن:

وكون الإنسان يتزوج من الجن، في هذه المسألة خلاف بين أهل العلم، فبعضهم يمنع، وبعضهم يقول بجواز ذلك، على خلاف الأصل في زواج الإنس بالإنس، وأن ذلك يكون في حالات خاصة وشاذة لمن لهم اتصال بالجن بطريقة أو بأخرى.

ومما يذكر في هذا أن مِلِك اليمن كان عظيم الشأن فأنف وتكبر أن يتزوج من بنات أحد من رعيته، وقال: لا يوجد كفء أتزوج منه، فزوَّجوه امرأة من الجن، يقال لها: ريحانة بنت السكن. فولدت له بلقيس ملكة سبأ، ولم يكن له غيرها، قيل: إن في مؤخرة قدميها ما يشبه حافر الدابة [٢].

وفي رواية ضعيفة عن أبي هريرة: أن أحد أبوي بلقيس كان جنيًّا.

وقيل: إن السبب في زواج أبيها من الجن أنه كان وزيرًا لملك عادٍ يغتصب نساء

---

(١) هذا قول قتادة كما أخرجه الطبري (١٤/ ٢٩٤).

(٢) «شرح المناوي للجامع الصغير».

الرعية، وكان الوزير غيورًا، فلم يتزوج، فقال له جني في صورة رجل: هل لك من زوجة؟ قال: لا أتزوج أبدًا؛ فإن ملك بلدنا يغتصب النساء من أزواجهن، فقال: لئن تزوج ابنتي لا يغتصبها أبدًا، قال: بل يغتصبها، قال: إنا قوم من الجن لا يقدر علينا، فتزوَّج ابنته فولدت له بلقيس[1].

ويستدل بهذا بعضهم على جواز أن يتزوج الإنس من الجن.

وربما يستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قلت: وقد شاهدتُ رجلًا لا يبرح غرفته وحوله ذريته من الجن في صورة قطط.

أعرف اسمه وأعرف بلده ومكانه.

وذكرت لي إحدى أرحامي أنها لا تستطيع الاقتراب من زوجها بسبب زوجته من الجن.

وقصص العشق بين الإنس والجن كثيرة ومعروفة في عالم مَنْ يستخرجون الجن من الإنس، حيث يقول الجنِّي: إني أحبها وأعشقها فلن أخرج منها، وهكذا.

والله سبحانه يقول: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ وهو الأصل في الزواج، والتزوج من الجن يكون على غير الأصل، وكثير من الناس ينكره، لاختلاف الجنسيْن في الخلْق والسعي، وغيرهما.

٢-والتناسل هو ثمرة الزواج، والحفَدة هم أبناء الأبناء في الأصل، ويطلق الأحفاد على: الأصهار، والخدم وأبناء الزوجة، والأعوان؛ لأن كلًّا من هؤلاء يسعى في الخدمة، وكل من سارع إلى الطاعة فهو حفيد، ولذلك جاء في دعاء القنوت المأثور: «**وإليك نسعى ونحفد**»[2] أي: نسارع إلى الطاعة.

فكل من يسارع إلى الطاعة من أبناء البنين، أو من الأصهار، وهم أقارب الزوجة وأزواج البنات، أو من الخدم، أو من الأعوان يُطلَق عليه حفيد، والأحفاد يكونون أيضًا من نسل البنات، والإنسان يشعر بامتداد حياته في أبنائه وأحفاده.

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٣٢٠) و«تفسير القرطبي» للآية.

(٢) يُنظر صحيح ابن خزيمة برقم (١١٠٠).

٣- والله سبحانه لم يعطنا في هذه الدنيا جميع الطيبات؛ لأن الطيبات كلها تكون في الآخرة، إنما رُزقنا في الدنيا شيئًا منها، ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ ومِنْ للتبعيض، أي: رزقكم في الدنيا بعض الطيبات من الثمار، والحبوب، واللحوم، وغير ذلك، أما الطيبات كلها فهي في الآخرة.

صحَّ في الحديث عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ممتنًا عليه: ألم أكرمك، وأسوِّدك وأزوِّجك؟ ألم أسخِّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟**»[1].

وقد جمع الله سبحانه أنواع الشهوات في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران].

أفغير الله سبحانه من الأوثان والأصنام ونحوهما من الآلهة الباطلة، تعبدون وتكفرون بالله الواحد الأحد المنعم المتفضل عليكم؟!

والباطل يشمل: كل اعتقاد، أو قول، أو فعل يخالف الحق والرشاد، ويشمل كل ما يعبد من دون الله، والنعم تشمل جميع النعم التي لا تعد ولا تحصى.

عَجْزُ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ وَضَرْبُ الأَمْثِلَةِ لِلْمُشْرِكِ وَالْمُوَحِّدِ

٧٣- ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾

لقد كان أهل الجاهلية يعترفون بوجود الله سبحانه، وفي نفس الوقت يقرون بوجود شريك له، ويعتقدون أن هذا الشريك مملوك لله سبحانه، ففي الحج كانت بعض القبائل تلبي قائلة: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك، أي: أنهم ينفون الشرك في قولهم: (لا شريك لك)، ويثبتونه في قولهم: (إلا شريكا هو لك)، وهذا الشريك (تملكه)، أي: أنه مِلْك لرب العالمين، (وما ملك) هو شيئًا، فهم يقولون بوجود الشريك لله، ويعترفون بأنه لا يمتلك شيئًا.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٨) من حديث طويل عن أبي هريرة.

إن أقبح القبائح، وأعجب الأمور أن يعبد المرء بشرًا مساويًا له في الخلق، أو يعبد صنمًا، أو حجرًا، أو شجرًا، أو كوكبًا، أو بقرة!!

ذلك إن من خصائص الألوهية: الخلق، والرزق، فالذي يُعبد هو الذي يخلُق، وهو الذي يرزق، وهذه الآلهة التي تُعبد من دون الله لا تملك أن تدفع الذبابة عن نفسها، ولا أن تملك رزقًا لنفسها، ولا لغيرها، ولا تستطيع ذلك ببرهان يظهرونه، ولا حجة يثبتونها.

والله تعالى يوبِّخهم على شكر من لا يستحق؛ فالذي لا يرزق لا يستحق العبادة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ [العنكبوت: ١٧].

ولا يملكون ضرًّا، ولا نفعًا، ولا حياة، ولا نشورًا، فاطلبوا الرزق من الله وحده مسبب الأسباب، واعبدوا الخالق الرازق القائل: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات].

والقائل: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ۝١٣٢﴾ [طه].

والمعنى: إن المشركين لا يملكون أن يعطوا غيرهم أقل القليل من الماء، كالمطر، ولا من الأرض كالزرع، فهم لا يملكون شيئًا البتة، ولا يتأتى منهم أن يملكوه؛ لأنهم لا يقدرون عليه، فكيف يعبدون من دون الله ما لا يملك ضرًّا، ولا نفعًا، ولا رزقًا، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا؟!

وقد جاء لفظ: ﴿رِزۡقٗا﴾ نكرة؛ للدلالة على أنهم لا يملكون أدنى رزق.

وجاء بعده لفظ: ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرة أيضًا؛ للمبالغة في نفي ملكهم لأي رزق؛ للإشعار بعجزهم تمامًا، وأنهم لا يقدرون على شيء، مطلقًا. قال تعالى:

٧٤-﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٧٤﴾

والله جلَّ شأنه ليس له شبيه ولا مثيل، فلا تساووه بأحد من خلقه، فإذا علمتم أن الأصنام والأوثان لا تنفع نفسها فضلًا عن أن تنفع غيرها، فلا تجعلوا -أيها الناس- لله أشباهًا مماثلين له من خلقه، تشركونهم معه في العبادة؛ ولا تضربوا له الأمثال المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه، لأن الله تعالى يعلم أفعالكم، ويسمع أقوالكم، وأنتم في غفلة عن أخطائكم، وعن سوء عاقبتكم، ومنها ما تضربونه لله من أمثال، ومن أمثالهم التي

ذمها القرآن الكريم ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾.

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨].

ومثل ذلك في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨﴾ [يس].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

فإذا ثبت أنّ من لوازم دلائل التوحيد وجوب انفراد الله تعالى بالعبادة، ونفْي الشريك له فيما خلَق وأنعم، فمن باب أولى ألا يكون له ولد، وألا يشبه المخلوقين في شيء، فلا تتجاسروا وتتطاولوا، وتضربوا لله الأمثال، كما يضرب بعضكم المثل لبعض؛ إذ إن الله تعالى وحده هو الذي يعلم كيف تُضرب الأمثال، وأنتم لا تعلمون ذلك.

مَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ الْعَبْدِ الْعَاجِزِ وَالْحُرِّ الْمُتَصَرِّفِ

٧٥-﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٧٥﴾

هذه الآية وما بعدها، موضحة ومبينة، للآية السابقة وما قبلها، بما ضربتْهُ، لبطلان الشرك من مثالين لله تعالى ولمن يُعبد من دونه:

أحدهما: عبد مملوك، لا يملك نفسه ولا يملك مالًا ولا متاعًا.

وثانيهما: حرّ ثريّ، عنده مال كثير، ينفق منه في جميع أحواله، فهل يستوي العبد والحر؟ وإذا كانا لا يستويان فكيف يستوي المخلوق الذي لا يملك شيئا بالخالق الذي يملك كل شيء.

فالمثال الذي في هذه الآية مضروب للمؤمن والكافر، وهو يشتمل على حالتين: حالة العبد المملوك، وحالة الحر المتصرف، فالعبد المملوك يمثِّل حال من يعبد غير الله تعالى، والحر المتصرف يمثِّل حال المؤمن الذي يعبد الله وحده، وكلاهما مثَلٌ للعابد مع من يعبده، الأول كافر، والآخر مؤمن.

والمثال الذي في الآية التالية مضروب للمعبود مع عابده، وهو أيضًا يشتمل على حالتين هما:

١- الصنم الجامد الذي يحتاج إلى من يحرسه، وينفّض عنه الغبار والوسخ.

٢- والمعبود بحق، وهو الله سبحانه الكامل في ذاته وصفاته، وإفاضته الخير على خلقه.

وفي كلا المثالين بحالاتهما الأربع: لا يستوي الخالق بالمخلوق، ولا يستوي من يعبد صنمًا بمن يعبد الواحد القهار، ولا يستوي الموحِّد بالمشرك.

وقد كان المشركون يقولون: إن الملِك يخدمه كبار القوم، وكبار القوم يخدمهم صغارهم، أو عامتهم، فلا يليق بالعبد أن يتجه إلى إله الملِك مباشرة -على حد زعمهم- فالله أجلُّ من أن يتوجه إليه المخلوق الضعيف بنفسه.

ولذلك فقد كانوا يتخذون الأصنام آلهة تقربهم إلى الله تعالى، ويقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فهم يتوسلون، أو يتوسطون بهذه الآلهة إلى الله، مع اعترافهم بوجود الإله الخالق، وهم يحتقرون أنفسهم بكونها لا تصلح لمباشرة الخطاب معه سبحانه.

هذه الصورة موجودة حاليا، فمن الناس من يقول: إنه كثير الذنوب، وإن فلانًا عبد صالح مقرب إلى الله تعالى، والله سبحانه يجيب دعاء هذا العبد الصالح ويقبل منه، ولا يقبل مني؛ لأني ملطخ بالذنوب، فلذلك لا أطلب من الله مباشرة، إنما أسأل هذا الواسطة؛ كي يرفع لي دعائي؛ لأنه مسموع الدعاء عند الله أكثر مني.

هذه مقولة جاهلة تتردد في بعض بلاد المسلمين، وهي نفسها ما كان يقوله المشركون من أهل الجاهلية، أمثال الذين كانوا يطوفون بالبيت وهم عرايا، ويخلعون ملابسهم، ويقولون: بأنها دُنِّست بالمعاصي؛ لأنهم عصوا الله فيها، ولذا فهم يطوفون بالبيت عرايا.

والله سبحانه ليس بينه وبين عباده حجاب، فليس هناك حاجب، ولا وزير، ولا واسطة، والله تعالى أقرب إلى عبده من حبل الوريد يسمع من كل مخلوق، ويجيب كل سائل مهما كان عاصيًا، فليس هناك من هو أشقى من إبليس، وقد استمع الله إليه، وأجابه في حواره معه: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٣٨﴾ [الحجر] وذلك لمَّا سأل ربه النَّظرة قائلًا: ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦] فأجابه الله تعالى بأن مدَّ في أجله إلى وقت انتهاء أعمار الخلائق، وهو منهم، وذلك عند النفخة

الأولى، وكان قد سأل الله أن يمدَّ في أجله إلى يوم البعث عند النفخة الثانية؛ لينجو من الموت، ولكن الله تعالى فوَّت عليه مقصوده.

فالتوجه بالدعاء يكون مباشرة إلى الله تعالى، ومن عجب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يستطيع خَلْقًا، ولا يملك رزقًا.

وقد ضرب الله ﷻ مثلين في هذه الآية يتبيَّن بهما حال المؤمن والكافر، ويتضح منهما حال المشرك فاسد العقيدة، ويستدل بهما على وحدانية الله تعالى.

وفي المثليْن في الآية التالية موازنة بين الحق تبارك وتعالى، وبين الأوثان أو الآلهة التي تُعبَد من دون الله.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾.

هذا طرف من المثل الأول: عبد رقيق لا يملك نفسه ولا يملك شيئًا من حطام الدنيا فهو مسخر بإرادة سيده، وهو عاجز عن التصرف في نفسه، وليس عنده شيء من المال أو المتاع، وهذا المثل مضروب للكافر الذي لم يعمل بطاعة الله، ولم يقدِّم لنفسه خيرًا فعاقبه الله على ذلك.

والطرف الثاني من المثل الأول: إنسان آخر حر، رزقه الله أموالًا كثيرة يتصرف فيها كيف يشاء، وهو ينفقها في وجوه الخير والبرِّ سرًّا وجهرًا، هذا معنى ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ وهذا هو الحر القادر على التصرف، وهو مثل مضروب للمؤمن الذي أعطاه الله مالًا ورزقًا حلالًا فعمل بطاعة الله، وأنفق في سبيل الله، فأثابه الله على ما قدَّم.

فهل يستوي المثلان؟ مع أن الرجلين يستويان في البشرية، والمخلوقية لله تعالى ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾؟ أي: هل يستوي العبد العاجز الذي لا يملك شيئًا، بالحر المتصرف الذي يملك كل شيء وينفقه كيف يشاء في السر والعلن، هل يستويان مثلًا؟ هل يقول عاقل بالتساوي بين الرجلين؟ وفي هذا نفي للتسوية بين من يعبد الله تعالى، ومن يعبد غيره، فالتسوية بينهما باطلة بكل المقاييس.

فكذلك الله الخالق المالك المتصرف، مدبر الأمور، لا يستوي سبحانه مع خلقه وعبيده، فكيف تسوُّون بينهما؟

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الله سبحانه يحمد نفسه بنفسه، ويعلمنا كيف نحمده، ويبيِّن لنا أن هذا المثل حجة قوية على خلقه، فالحمد لله على هذه الحجة القوية، والحمد لله على نعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى، والحمد لله الذي أنعم على أوليائه بالتوحيد، فالحمد له وحده، وهو المستحق للحمد والثناء.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: أن أكثر المشركين لا يعلمون أن الحمد والنعمة لله، وأنه وحده المستحق للعبادة دون سواه.

وجملة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معترضة بين الاستفهام والإضراب، وهذا الاعتراض يناسب ما تقدم من قوله تعالى عن المشركين: ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر].

وَمَثَلُ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ: كَمَثَلِ الصَّنَمِ الْأَبْكَمِ الْأَصَمِّ، وَالْإِنْسَانِ الْفَصِيحِ الْمُتَكَلِّمِ

٧٦-﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

والمثل الثاني: يُستدل به على بطلان الشرك برجلين:

أحدهما: رجل أخرس أصم، فهو لا يتكلم ولا يسمع، ولا ينفع نفسه ولا غيره، فهو ناقص من كل وجه، وهو عبء ثقيل على من يعوله، وإذا أرسله صاحبه أو سيده إلى أمر لا يقضيه، ولا يعود عليه بخير ولا فائدة؛ لأنه لا يفهَم ولا يُفهِم.

هذا هو الطرف الأول من المثل الثاني.

وقد وصف الله تعالى فيه الإنسان الكافر، بأربع صفات تدل على عجزه، وقلة حيلته، فهو: أبكم، عاجز، عالة، لا يأتي بخير.

وثانيهما: رجل مؤمن، سليم الحواس، متكلم، بليغ، فطن، قوي، يأمر بالعدل ويبذل النصيحة، ينفع نفسه وينفع غيره، يأمر بالعدل والإنصاف، وهو على طريق واضح لا عوج فيه.

وهذا يمثل الطرف الآخر من المثل الثاني، وقد وصفه الله تعالى بوصفين اثنين هما:

الإنصاف والاستقامة، وهما جماع الأوصاف الأربعة، من هذا المثل؛ لأن الأول لا يستحق شيئًا، والآخر يستحق كل شيء، فهل يستوي الرجلان في نظر العقلاء؟

فكيف تسوُّون بين الصنم الأبكم الأصمِّ، وبين الله القوي القادر، المنعم على خلقه بكل خير؟! وكيف تسوُّون بين من لا ينطق، بمن هو فصيح بليغ متكلم؟!

وكيف تسوُّون بين المعبود بحق، وبين الآلهة الباطلة؟! وكيف تسوُّون بين الموحد والمشرك؟!

وقد شبَّه الله سبحانه حال الأصنام في عجزها بحال العبد المملوك في عجزه.

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [٢٠، ٢١]

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: ١٧].

وشبَّه شأنه سبحانه في رزقه لخلقه بالغني المالك أمْر نفسه.

وسواء أكان لهذين المثلين سبب نزول في أبي جهل ومولاه، أم في عثمان ﷺ ومولاه، أو غير ذلك، فإن المثل فيهما عام يشمل كل مؤمن وكافر، أو كل مشرك وموحد.

عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن إبراهيم، عن عكرمة، عن ابن عباس ﷺ قال: نزلت هذه الآية ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ في هشام بن عمرو، وهو الذي ينفق ماله سرًّا وجهرًا، ومولاه أبو الجوزاء الذي كان ينهاه، فنزلت ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ فالأبكم منهما، هو الكَلُّ على مولاه، أسيد بن أبي العيص، والذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم هو عثمان بن عفان ﷺ[١].

وفي رواية الطبري:[٢] أن الآية الأولى نزلت في رجل من قريش وعبْدِه، والآية الثانية نزلت في عثمان بن عفان، ومولاه أسيد بن أبي العيص كان يكره الإسلام، وكان عثمان ﷺ ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة، وكان الآخر ينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت

(١) النيسابوري (٢٣٥) والسيوطي (١٦٣) و«الدر المنثور» (٤/ ١٣٥).

(٢) «تفسير الطبري» (١٤/ ١٠١) وانظر: «تفسير الألوسي» (١٤/ ١٩٧).

فيهما وهو نفس المعنى السابق، وورد غير ذلك.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ وُلِدَ أخرس، لا ينطق ولا يتكلم، وفي الغالب يكون أصمَّ لا يسمع، وهو ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ عاجز تمامًا، وهو ضعيف وعالة على سيده أو صاحبه، هذا معنى ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ أينما يوجَّه هذا العبد العاجز، الأصم الأبكم في طريق من الطرق ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ فهو لا ينطق ولا يفهم، ولا يؤدي مهمة، يتساءل سبحانه: هل يستوي هذا العاجز عن النطق، بمن يأمر بالعدل، فينطق بالحق، ويأمر بالحق، ويحكم بالحق ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وطريق واضح، إذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي أحد من خلق الله، مع رب العالمين؟!

السَّاعَةُ تَأْتِي بَغْتَةً

٧٧- ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

هذه الآية لبيان أن الغيب لا يعلمه إلا الله، فلا يعلم ما غاب عن العباد ولا ما خفي عليهم إلا الله، ومنه قيام الساعة، فقد زعم الكفار أن فناء العالم، وإحياء العظام وهي رميم، أمر مستحيل، فأقسموا بالله لا يبعث الله من يموت، فبيَّن سبحانه أنه قادر على كل شيء، ولا يخرج عن قدرته أعظم شيء، وقيام الساعة التي أنكروها لا تخرج عن تصرف الله تعالى ومشيئته.

وهي من قضايا العقيدة التي لقيتْ جدلًا في كل عصر، ومع كل رسول، ولو علم الناس موعدها لتوقفت عجلة الحياة أو اختلّت، وهي مما غاب علمه عن العباد، وكل ما غاب عن العباد معرفته في السموات والأرض، مما كان، وما يكون، وما هو كائن إلى قيام الساعة، علمه عند رب العالمين، مختص به وحده، فهو جلَّ شأنه يعلم أهل السعادة، ويعلم أهل الشقاء، ويعلم سائر الأمور والأحوال.

وقيام الساعة لا يحتاج إلى وقت طويل إذا تعلقت به قدرة الله تعالى، فقيامها أسرع من لمح البصر؛ لأن لمح البصر يحتاج إلى حركة وزمن بمقدار إطباق الجفن وفتحه.

وقدرة الله تعالى إذا تعلقت بشيء فإنه يقول له: كن، فيكون، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كل ما غاب عن العباد في السموات وفي الأرض، وما فيهما وما بينهما ﴿وَمَآ أَمْرُ﴾ قيام ﴿ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ فهي من السرعة، بحيث يشك الرائي لقيامها هل هي كلمح البصر؟ أو هي أقرب من ذلك؟ وهي آتية لا محالة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر]

أي: في قرب مجيئها، يستوي في ذلك بعث الناس جميعًا في آن واحد ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]

أي: أن ذلك لا يحتاج إلى وقت مطلقًا، والله تعالى قادر على كل شيء، لا يعجزه أي أمر.

والمقصود من الآية: إنذار الناس وتحذيرهم من قيام الساعة بغتة؛ ليقْلِعُوا عما هم فيه من المعاصي، ويُقْبِلوا على ربهم، ويثوبوا إليه.

وفي الآية بيان لوحدانية الله تعالى، واختصاصه بعلم الغيب، وأن قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، وإذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾.

الْمَجْمُوعَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فِي السُّورَةِ، وهِيَ أَرْبَعُ نِعَمٍ: النِّعمَةُ الأُولَى: نِعْمَةُ خَلْقِ الْحَوَاسِّ وَالإِدْرَاكِ

٧٨-﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ(١) لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾

ثم ساق سبحانه أنواعًا أخرى من نعمه تعالى على عباده وهي نعم لا ينكرها عاقل، وهي من قدرة الله سبحانه الدالة على وحدانيته جلَّ شأنه، ومن هذه النعم: حواس الإنسان ومداركه؛ حيث يصحَب الإنسان عند ولادته الجهل وعدم المعرفة، فلا يعلم شيئًا من أمور دينه ولا دنياه، ولا ما ينفعه أو يضره، وقد زوَّده ربه بأدوات الحس، وهو في

(١) قرأ حمزة بكسر الهمزة والميم من (أمهاتكم) حالة وصلها بـ(بطون)؛ لمناسبة الكسرة فيها، وقرأ الكسائي بكسر الهمزة فقط وصلًا أيضًا، وعند البدء بـ (أمهاتكم) تضم الهمزة وتفتح الميم، والباقون بضم الهمزة وفتح الميم وصلًا ووقفًا.

بطن أمه، ومنها: نعمة حاسة السمع، ونعمة حاسة البصر، ونعمة حاسة الفؤاد أو القلب، وقد خص الله هذه الثلاثة بالذكر، لأنها مفاتيح العلوم، وبمجرد خروج الجنين من بطن أمه، فإنه ينتفع بهذه الحواس، فيرفع بها جهله الذي وُلد عليه، ويتعرف بها على ربه، وفي هذا باعث على شكر الله تعالى، بتوحيده وعدم الإشراك به:

١- فقد زوَّد الله الإنسان بوسائل الإدراك، زوَّده بحاسة السمع؛ ليدرك به الأصوات، وليستمع إلى كتاب الله فيهتدي، ويستمع إلى سُنَّة رسول الله ﷺ، فيتعلم منهما ما يصلح دينه وما يُصلح دنياه، ويستمع إلى كل ما هو نافع ومفيد في معاشه ومعاده.

٢- وزوَّده بحاسة البصر؛ لينظر في ملكوت السموات والأرض، وعجائب صنع الله وخلقه، ويدرك به جميع المرئيات، فيستدل بآثار قدرة الله سبحانه على وجوده ووحدانيته، ويدرك أنه جلَّ شأنه المستحق للعبادة دون سواه، كما قال تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك].

٣- وزوَّد الله الإنسان وهو في بطن أمه بالعقل؛ ليستدل به على وحدانية الله تعالى، ويتميز به على سائر الكائنات من الحيوانات والدواب وغيرها، فيعقل ويفهم ويميز بين النافع والضار.

ويناط بهذا العقل: الأوامر، والنواهي التي أمره الله بها، ونهاه عنها.

لقد خلق الله الإنسان وصوَّره وهو في بطن أمه، وعَلِمَ ما يتعلق به قبل اللقاء بين الرجل والمرأة، وبعد حصول التلقيح بينهما وهو في الرحم قبل التكوين وبعده، ثم رزقه هذه الحواس؛ كي يستدل بها على وجود الله سبحانه، ويحقق الفائدة، أو الغرض الذي خُلق من أجله في هذه الدنيا؛ ليتمكن بها من عبادة ربه.

فإذا أخلص العبد طاعته لله تعالى، واستعان بكل جارحة من جوارحه على عبادة الله سبحانه فإن أفعاله كلها تكون لله تعالى، فلا يسمع إلا ما شرعه الله، ولا يبصر إلا طاعة الله، ولا يبطش بيده إلا بما ينفعه ذلك البَطش في دينه ودنياه، ولا يمشي برجله إلا في طاعة الله وما أباحه له.

وهذا ما يشير إليه الحديث القدسي عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«قال**

الله ﷻ: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما تردَّدْتُ عن شيء أنا فاعله تَردُّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكرهُ مَساءتَه»[١].

فإذا أخلص العبد الطاعة، صارت أفعاله كلها لله، فلا يسمع إلا ما شرعه الله، ولا يبصر إلا ما شرعه الله.

وكما أخرجكم الله من العدم، وجعل فيكم الإدراك والوعي، فكذلك ينشئكم يوم البعث بعد الموت، وهذا مما يبعث على شكر الله تعالى بتوحيده وطاعته؛ إذ ليس في إمكان أحد أن يمدكم بوسائل الحس والإدراك إذا سلبها الله منكم ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ﴾ [الأنعام: ٤٩].

وقد أخرج الله الإنسان من ضيق بطن أمه، بعد مدة الحمل إلى سعة الدنيا؛ لكي يعيش في هذه الحياة ويقضي فيها عمره، وقد كنتم - أيها الناس - لا تدركون شيئًا، فجعل لكم وسائل الإدراك من السمع والبصر والفؤاد وهو وعاء العقل، وزوَّدكم الله بهذه الحواس الثلاث وهي أهم شيء في الإنسان ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ خالقكم الذي أنعم عليكم بنعمة الوجود، وتستدلون بذلك على وحدانيته سبحانه، فتعبدوه ولا تشركوا به شيئًا.

النِّعْمَةُ الثَّانِيَةُ: نِعْمَةُ تَسْخِيرِ الْفَضَاءِ لِلْإِنْسَانِ

٧٩-﴿أَلَمْ يَرَوْا[٢] إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ[٣] إِلَّا ٱللَّهُۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

لقد حث سبحانه عباده على التفكر في آثار صنع الله في هذا الكون.

---

(١) يُنْظَر: «صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٢) عن أبي هريرة.

(٢) قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب وخلف العاشر بتاء الخطاب في (ألم يروا)؛ لمناسبة (أمهاتكم)، والباقون بياء الغيب على الالتفات.

(٣) وقف يعقوب بهاء السكت على (ما يمسكهن) بخلفه عنه، والباقون بدونها وهو معهم في الوجه الثاني.

ومن عجائب قدرة الله سبحانه الدالة على وحدانيته هذه الطيور التي تحلق في الفضاء على مختلف أشكالها وألوانها، وأحجامها وثقلها وخفتها، يحملها الهواء في الفضاء، فقد خلقها الله على هيئة تصلح للطيران، ثم سخر لها الهواء، وأودع فيها قوة الحركة والقدرة على الطيران، والله ﷻ هو الذي يمسكها عن الوقوع على الأرض، حال بسط أجنحتها وحال قبضها، وحين تقف في الهواء، وتصطف صفوفًا في الفضاء بقدرته جلَّ شأنه، إن ذلك آية من آيات الله تعالى دالة على وحدانيته سبحانه.

والإنسان ينتفع بهذا المخلوق العجيب، من عالم الطيور في جو الفضاء، كما ينتفع بعالم السمك في البحار، وكلاهما مخلوق مسيَّر بقدرة الله سبحانه.

وقد انتفع الإنسان بعالم الطيور في شكله وخلقته فصمم الطائرات التي هي من أدوات النقل الحديثة؛ ليستخدمها الإنسان في حياته منتفعًا بآثار الله تعالى في هذا الوجود.

والله الذي يمسك الطير في الهواء، هو الذي يمسك الطائرة حين تقلع وترتفع عن جاذبية الأرض، والعبد في هذه اللحظات وهو معلق في الفضاء، يجدر به أن يتذكر نِعَم الله تعالى، ويتقرب منه سبحانه، ويسبِّحه ولا يعصيه، فلا يستمع إلى لغو، ولا يشرب محرمًا، ولا نحو ذلك، وإنما يسأل الله تعالى أن يحفظه في الجو، ويحفظ أرواح الناس معه وهم تحت قدرة الله جلَّ شأنه، في هذا الكرب وهذه الشدة، فيشغل وقته بذكر الله، والتفكير في آلائه.

والمعنى: ألم ينظر المكذبون بدلائل التوحيد إلى الطير مذلَّلات للطيران بين السماء والأرض بأمر الله، ما يمسكهن عن الوقوع، في حال قبضهن وبسطهن، إلا الله الذي خلقهن، وأقدرَهن على التحليق في الفضاء، إن في ذلك التذليل والإمساك لدلالات على التوحيد لقوم يؤمنون، فالمؤمن هو الذي يعتبر، وهو الذي ينتفع، وهو الذي يتعظ.

وغير المؤمن لاهٍ غافل، مشغول بدنياه عن آخرته، فالذي يصنع الطائرة ويصممها، إن لم يكن مؤمنًا ينتفع بقدرة الله سبحانه، ويتأمل في خالق الكون ومبدعه، فإنه يكون ممن قال عنه ربه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم].

ولما كانت هذه الآية مسوقة؛ لبيان عظيم قدرة الله تعالى، وبديع صنعه حُذِف منها

حرف العطف من ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ وختمت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أما آية سورة الملك ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ﴾ فقد ختمت بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [آية: ١٩] وذُكر فيها حرف العطف بين الهمزة واللام؛ لأنها معطوفة على آيات سبقتْها في الدلالة على قدرة الله تعالى.

النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: نِعْمَةُ الْمَسْكَنِ وَالْأَثَاثِ

٨٠-﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ[1] سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا(١) تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ[2] وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾

والإنسان يتقلب صباحَ مساءَ في نعم الله سبحانه، ولكنه يألف هذه النعم في غدوه، ورواحه، وصباحه، ومسائه، ولذا: فهو لا يفكر فيها غالبا؛ لأنها ملازمة له، وهو مغمور بها في جميع حالاته، وعدم التفكر فيها من الغفلة، والله ﷻ يلفت نظر الرجل البدوي الذي نزل عليه هذا القرآن أوَّلًا، بما هو معروف لديه، مألوف عنده، فحدثه في هذه الآية عن نعمة المسكن الثابت، والمسكن المتنقل، كالخيام وبيوت الشعر ونحوها، ويدخل في الآية مساكن العمارات والقصور والفلل.

ولكن القرآن ذكر من المساكن ما هو معروف عند العرب وقت نزول القرآن، كما جاء في الأثر: **«حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله»**[3].

وقد نزل القرآن في بيئة معينة، ولو خاطبها بغير ما تألف، لكذَّبوا رسول الله ﷺ.

أي ومن نعم الله تعالى على الناس أن جعل لكم من بيوتكم راحة، واستقرارًا تكنكم من الحر والبرد وتستركم، وتحفظ أموالكم وأمتعتكم، أنتم وأهليكم، وأنتم مقيمون في الحضر أو البادية، وهذا المسكن أوهذا البيت الذي تأوي إليه - أيها الإنسان - في صباحك ومسائك، فتستقر فيه، وتهدأ وتطمئن، نعمة من نعم الله سبحانه على الإنسان،

---

(١) قرأ ورش وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب بضم الباء من (بُيوتكم) و (بُيوتًا)، والباقون بكسرها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بفتح العين من (ظعَنكم)، والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

(٣) من كلام الإمام عليّ ﷺ، «صحيح البخاري» برقم (١٢٧).

لا يشعر بها إلا المشرَّد الذي لا مأوى له، ممن يسكن العراء، ولا يجد له مكانًا يقطُنه، أو ممن تُشتته الحروب، أو يُشتته الفقر، أو الغُرْبة أو الأسفار، ونحو ذلك.

والبيوت على **قسمين**: بيوت من المسلح، والحجارة، والأخشاب، وهي قسم من العقار الذي لا ينتقل، ولا يتحول من مكان إلى مكان.

٢- وهناك صنف آخر من البيوت أشار إليه رب العالمين في هذه الآية، وهي بيوت تتنقل من مكان إلى مكان يحتاج الإنسان إليها؛ فالغني يتنقل بها في أسفاره ورحلاته، والبدوي يعيش دائمًا في بيوت الشعر من الصوف، ومن الوبر.

وقد خصَّ القرآن بالذكر القباب، والخيام التي تصنع من الجلود، ويلحق بها ما يُصنع من البلاستيك والقماش، وغيرهما.

والمعنى: والله جعل لكم في أسفاركم، وفي إقامتكم، وفي رحلاتكم وتنقلاتكم من جلود الإبل والبقر والغنم قبابًا وخيامًا يسهل نصْبها؛ لتنتفعوا بها؛ فهي خفيفة المحمل، لكل من الحضريِّ والبدويِّ، فكلٌّ منهما في حاجة إلى هذه البيوت يستخدمها في إقامته، أو تنزهاته؛ للوقاية من الحر والبرد بالنسبة للبدويِّ أو القرويِّ، وللنزهة والترفيه بالنسبة للحضريِّ أو المدنيِّ، وهذا امتنان من الله تعالى، خاص بالبيوت القابلة للانتقال، والارتحال، كما في موسم الحج، والسياحة، والرحلات.

٣- وبعد حديث الآية عن المسكن يأتي حديثها عن الأثاث، فيبيِّن تعالى أنه جعل لنا من أصواف الغنم، وأوبار الإبل، وأشعار الماعز ما تصنعون منه أثاث البيوت مثل: البُسُط، والفُرُش، والأكسية، والأغطية، والزينة تتمتعون بها إلى نهاية أعماركم.

وأثاث البيوت في وقتنا يزيد عن هذا، ويُصنَّع من مواد أخرى، ولكن القرآن يخاطب أقوامًا لم يكونوا ليعرفوا غير هذه الخامات التي يصنع منها هذا الأثاث، وإلى غيره يشير قوله سبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٨] وأنتم تتمتعون بهذا الأثاث إلى حين تنقضي أعماركم، أو إلى حين يبلى هذا الأثاث وتنتهي صلاحيته.

النِّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: نِعْمَةُ الظِّلَالِ وَالْجِبَالِ وَاللِّبَاسِ

٨١-﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾

ونعم الله تعالى على العباد تختلف بحسب أحوالهم وبلادهم، فبعد الحديث عن نعمة البيوت والأثاث يأتي الحديث عن نعمة الظلال والجبال واللباس.

١- والله جعل لكم من كل شيء خلقه مما له ظل، من الشجر، ومن الجبال، ومن السقف، ومن البناء، ما تستظلون به من شدة الحر والبرد؛ فالظل نعمة من نعم الله تعالى، تأوون إليه في الحقول والصحاري والقفار، كي يقيكم في شدة الحر والبرد، كما تقيكم الأبنية والجدران، والأشجار، ونحوها ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ .

٢- ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ **الكنّ:** هو الذي يكنُّ إليه الإنسان، أي: يستتر فيه فيحفظه من الريح، والمطر، ومن الحر، والقر، ويكون في الجبال من المغارات، والكهوف، والأسراب، ونحو ذلك مما يحتاج إليه قطاع كبير من البشر، لا سِيَّمَا فقراؤهم من سكان الصحراء، والجبال، ونحوهم ممن يلجؤون إليها عند الحاجة فتغطِّيهم ويستترون بها، وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥] أي: في ستر وحجاب فلا يصل إليها ما تقول.

٣- ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ **السربال:** هو الثياب، والقميص، والدرع، وغير ذلك من الملابس التي تُصنع من الصوف والقطن والكتان ونحوها، وهي ملابس ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أي: والبرد، ولم يُذكر البرد في الآية، لأن الوقاية من البرد من أصول النعم الضرورية، أما الوقاية من الحر فهي من مكملات النعم ومتمماتها، وقد ذُكرت أصول النعم في أول السورة، وذُكر هنا مكملاتها.

وقد جعل الله لكم سرابيل أخرى من الدروع تُصنع من الحديد في الحرب تشبه الثياب، وتنتفعون بها عند مقابلة العدو، وتقيكم البأس؛ لتردَّ عنكم الطعن والأذى من عدوكم في الحروب، وهذا معنى ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ من السلاح والدروع، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]

وقال: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]

وقال جلَّ شأنه عن الملابس: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣٦]

وقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف].

وكما أنعم الله عليكم بهذه النعم يُتم نعمته عليكم ببيان الدين الحق؛ لتستسلموا لأمر الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا في عبادته، وتُسْلِموا وجوهكم إليه، فتدخلوا في دين الله عن قناعة واختيار، فإن من يشاهد كل هذه النعم لا يسعه إلا الدخول في الإسلام، وكثرة النعم موجبة لزيادة الشكر، وعدم الشكر ظلم وتمرد. قال تعالى:

٨٢-﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾

أي فإن لم يُسلموا وأعرضوا عنك -أيها الرسول- بعدما رأوا الآيات فلا تحزن؛ فإن مهمتك البلاغ والإنذار بما أُرسِلتَ به، وأما الهداية فهي إلى الله وحده، ولستَ بقادر على خلْق الإيمان في قلوبهم، فبلِّغ لهم أمر الله ونهيه، فإن آثروا ما هم فيه من الكفر والشهوات، فليس عليك عتبٌ ولا شيءٌ من التقصير؛ فإنما عليك البلاغ الواضح، وعلينا حسابهم وجزاؤهم.

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله، فقرأ عليه النبي ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ قال الأعرابي: نعم، جعل الله لنا من بيوتنا سكنًا، ثم قرأ عليه النبي ﷺ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ قال الأعرابي: نعم، وقرأ النبي ﷺ على الأعرابي بقية النعم التي في الآيتين، والأعرابي يقول: نعم، فلما بلغ ﷺ نهاية الآيتين: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ ولَّى مدبرًا، وكان الأعرابي غير مسلم فأنزل الله الآية[1].

وهكذا: يبيِّن الله تعالى لرسوله ﷺ أن الكفار إن عرفوا هذه النعم فأعرضوا عنها، ولم

---

(١) حديث مرسل، عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ١٥٥) وفي «أسباب النزول» (١٦٣) لابن أبي حاتم عن مجاهد، وهو في «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٩٢).

يدخلوا في الإسلام، أو جحدوها، ولم يشكروا فضل الله عليهم، فلا تحزن، ولا تأسف - يا رسول الله - فمهمتك هي البلاغ، وأنت لا تملك هدايتهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]

وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤].

وقوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ [التغابن].

تَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ لِمَنْ يُنْكِرُ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ

٨٣-﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

في هذه الآية تقريع وتوبيخ لمن لم يقر بأن الله تعالى هو مصدر النعم، وأجلُّ نعمة أنعم الله بها على هذه الأمة، هي بعثة محمد ﷺ، وكل من عرف هذه النعمة ثم جحدها، كاليهود والنصارى الذين أنكروا ما بشَّرت به كتبهم، كما جاء ذلك في التوراة والإنجيل، فهم كافرون مستحقون لعذاب الله، لأنهم، يعرفون أن الله هو الخالق الرازق، ولكنهم لا يوحدونه ولا يفردوه بالعبادة ولا يؤمنون برسوله.

إن دلائل الإسلام لم تَخْفَ على أهل الشرك والكفر فهم يعرفونها، ولكنهم أعرضوا عنها إنكارًا ومكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]

وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا

الْمَشْهَدُ الأَوَّلُ: عَدَمُ الإِذْنِ لِلْكُفَّارِ فِي الاعْتِذَارِ وَهُمْ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ

٨٤-﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

وفي يوم القيامة يشهد على كل أمة رسولها، بأنهم أجابوا دعوته أم أعرضوا عنه،

ومحمد ﷺ يشهد على أمته بأعمالهم، فلا يُقبل اعتذار من الكفار، ولا يعودون إلى الدنيا مرة أخرى لتدارك مافاتهم.

هذا: والله ﷻ في الآيات الست التالية، يتحدث عن يوم القيامة؛ ليبين فيها أنه بعد البلاغ المبين من الرسول ﷺ لأمته سيكون الحساب والجزاء.

وسورة النحل سورة مكية عناصرها: التوحيد، والبعث، **والوحي**: (القرآن)، وفي هذه الآيات الست حديث منفرد عن يوم القيامة، يأمر الله تعالى فيها نبيه أن يذْكُر لأمته يوم الحشر والبعث، وهو اليوم الذي يمثُل فيه الخلائق جميعًا بين يدي رب العزة، فيحاسبهم على النقير والقطمير، وهو آت لا محالة.

وفي هذا اليوم يبعث الله من كل أمة شهيدًا عليهم، هو نبيُّها الذي بلَّغهم رسالات ربه، وشهيد هذه الأمة، هو النبي محمد ﷺ الذي بُعِث فيها حيث يكون شهيدًا على أمته، من آمن منهم ومن كفر، من وحَّد منهم ومن أشرك، يشهد ﷺ أنه بلَّغهم رسالة ربه، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء].

وكان النبي ﷺ إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه شفقة على أمته.

ثم بيَّن تعالى مصير الكفار السيئ يوم القيامة، بأنهم يُطردون من رحمة الله، ولا يجدون من يسمع لهم قولًا، أو يقبل منهم اعتذارًا، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم]

وكما قال تعالى عن أهل النار: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥]

حيث لا يؤذن للكفار في الاعتذار، ولا يؤذن لهم في الكلام، ولا يؤذن لهم في الرجوع إلى الدنيا، ولا يؤذن لهم في معارضة الشهود.

وذلك لأن الآخرة ليست دار تكليف، فلا مجال فيها للعمل على ما يرضي الله تعالى؛ لأن هذا قد فات وقته في الدنيا، وانتقل الإنسان إلى دار أخرى، فيها الحساب والجزاء، فلا توبة يومئذ، ولا عملٌ صالح، فقد مضى أوان ذلك، فلا يؤذن للذين كفروا بالمجادلة عن أنفسهم، ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات]

وعدم الإذن للكفار بالنطق والاعتذار، يكون في موطن مسبوق بمواطن أخرى من مواطن يوم القيامة:

١- وبداية الأمر، يسألهم ربهم عن الشرك بالله، فيقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] حيث ينكر المشركون أنهم أشركوا بالله، ويحلفون على ذلك.

والله سبحانه يلفت النظر إلى التعجب من كذبهم فيقول: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام]

٢- وبعد أن يحلفوا أنهم ما أشركوا بالله، يختم الله على أفواههم، فلا يتكلمون ويقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾.

٣- ثم تنطق الجوارح، وتشهد ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥] قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت]

فحينئذ يكون الاعتذار لا جدوى منه، ولا فائدة فيه؛ لأن الكفار لا يرجعون إلى الدنيا مرة ثانية، ولا يكلّفون بعمل صالح؛ لتدارك ما فاتهم، فالآخرة دار حساب وجزاء، وليست دارًا للعمل، ولذا فإنه لا يؤذن لهم في الاعتذار، ولا في الرجوع إلى الدنيا، ولا يؤذن لهم في الكلام، ولا يطلب منهم أن يُرضوا ربهم، أي: لا يطلب منهم العتبى، وهي طلب الرضا والتوبة؛ لأن الوقت قد مضى، ولا توبة في هذا اليوم.

المَشْهَدُ الثَّانِي: الْعَذَابُ لَا يُخَفَّفُ عَنِ الْكُفَّارِ وَلَا يُمْهَلُونَ إِلَى التَّوْبَةِ

٨٥-﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

وإذا شاهد الكفار عذاب الله في الآخرة، فلا يخفف عنهم منه شيء، ولا يُمهلون، ولا يؤخر عذابهم، بل يؤخذون سريعًا من الموقف بلا حساب، ويؤتى بجهنم، تُقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام، سبعون ألف ملك يجرونها.

وآيات القرآن تنطق بأن النار يوم القيامة ترى أهلها فتتغيظ، وتتقطع حقدًا وحنقًا عليهم،

قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: إذا رأت النار أهلها من مكان بعيد ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨].

وأهل النار، وهم في أرض المحشر، في عرصات القيامة، يرون النار بأعينهم، قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات]

وقال سبحانه: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف].

وقال جلَّ شأنه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء].

وعندما يرى الكفار النار، يتمنون العودة إلى الدنيا؛ كي يؤمنوا، ويرجعوا عن كذبهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام]

قال سبحانه: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾ أي ظهر لهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟﴾.

أي: لو رجعوا إلى الدنيا ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]

وهكذا أخبر الله سبحانه أن الكفار إذا رأوا عذاب الله في الآخرة فلا يُخفَّف عنهم شيء منه، ولا يُمهَلون إلى التوبة؛ لأن وقتها قد انتهى، ولا يُؤخر عذابهم لحظة؛ فخوفهم وفزعهم في هذا اليوم لن يغيِّر من الأمر شيئًا.

المَشْهَدُ الثَّالِثُ: تَكْذِيبُ المَعْبُودِينَ لِلْعَابِدِينَ فِي أَنَّهُمْ أَغْرَوْهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ

٨٦- ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ[1] إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾

إذا شاهد المشركين آلهتهم يوم القيامة قالوا يا ربنا هؤلاء الذين كنا نعبدهم فردت عليهم الآلهة إنكم لكاذبون حيث جعلتمونا شركاء لله، وهكذا يصف القرآن الكريم الجاحدين لتوحيد الله تعالى، الذين لا يتوجهون إليه وحده بالعبادة، المنكرين لرسالة محمد ﷺ يصفهم في هذه الآية، والآيتين قبلها، بثلاثة أوصاف، وكلها لموصوف واحد، وهي تسجل عليهم أنواع إجرامهم.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضم الهاء والميم من (إليهُمُ القول) وكسرهما أبو عمرو، وقرأ الباقون بكسر الهاء وضم الميم، وعند الوقف على (إليهم) يقف حمزة ويعقوب بضم الهاء، والباقون بالكسر.

١- فوصفتْهم أولًا بالكفر في الآية قبل السابقة، وبيَّنت أنهم لا يؤذن لهم في الاعتذار يوم القيامة، ولا في استرضاء الله تعالى.

٢- ووصفتْهم ثانيًا بالظلم حين يرون العذاب بأعينهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

٣- وهذه الآية وصفتْهم بالشرك، وأنهم حين يرون الأصنام التي كانوا يعبدونها في الدنيا، وقد علموا بطلانها ولم يمكنهم الإنكار إذا رأوْها وهي تُحشَر معهم على رؤوس الأشهاد توبيخًا لهم، إذ ليس فيها نفع ولا شفع، وقد بدت العداوة والبغضاء بينهم وبينها عندما أشاروا إليها وقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ يريدون بذلك إلقاء المسؤولية عليهم، وحينئذ تنطق الآلهة بتكذيب من عبدوها، فتقول: إنا لم نأمركم بعبادتنا، ولا زعمْنا أننا آلهة، فأنتم المذنبون، فيستسلم العابدون ويعلمون أنهم مستحقون للعذاب.

ومعنى ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: رد المعبودون على العابدين مكذبين لهم، ومتبرئين منهم:

١- وذلك أنَّ مَنْ كانوا معبودين من البشر، ينطقون بلسانهم مكذبين لهم في أنهم لم يكونوا آلهة، ولم يأمروهم بعبادتهم، فاللوم عليكم أيها العابدون.

٢- أما إن كان المعبود جمادًا، فإنها تنطق بقدرة الله تعالى، وتكذِّب المشركين في وصفهم بأنهم آلهة، وكذلك الحال حين يرى المشركون آلهتهم تُقذف معهم في النار؛ ليكون العابد والمعبود وقودًا لجهنم كما قال تعالى: ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]

يقول سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء].

٣- أما عباد الله الصالحين كعيسى، وعزير، وغيرهما ممن عُبد من دون الله، فيقول الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء].

وحين يرى المشركون أن الأصنام أُلقيتْ معهم في النار، يتنصَّلون من عبادتها، ويُلْقون بالتبعة أيضًا على قادتهم في الشرك، أنهم هم الذين أغروهم بعبادتهم، كما قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة].

وأهل النار حين يرون آلهتهم من البشر، أو من الحجارة، تُقذف معهم في النار، يعترفون على أنفسهم أنهم أشركوا بالله، ويقولون: ربنا هؤلاء الذين عبدناهم في الدنيا، يقولون ذلك اعترافًا منهم، أو تنصُّلًا، يريدون أن يتحملوا عنهم أوزارهم، وأن يشاركوهم في التبعة والمسؤولية، وعندئذ فإن الأصنام تتبرأ منهم يوم القيامة، ويقولون لهم: أنتم كذَبة، حين جعلتمونا شركاء لله تعالى، فنحن لم نأمركم بذلك، ولا زعمْنا أننا مستحقون للألوهية، فاللوم عليكم، ونحن جماد، لم نكن نعرف شيئًا عن عبادتكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف].

إنهم غافلون عن عبادتهم لهم، ولا يعرفون عنها شيئًا، وإذا كان يوم القيامة تبرؤوا منهم، وأنكروا عبادتهم لهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال أيضًا: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾﴾ [الكهف].

المَشْهَدُ الرَّابِعُ: اسْتِسْلَامُ المُشْرِكِينَ فِي سَاحَةِ الحَشْرِ

٨٧- ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

ولما عجز المشركون عن الرد على شركائهم استسلموا، وخضعوا لحكم الله فيهم، وذهب عنهم ما كانوا يفترون واستمعوا له استماع إذلال، وطاعة قهر، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ﴾ [مريم: ٣٨] أي: ما أسمعهم، وما أبصرهم يومئذ!! وهم في مشهد ذل وخضوع وإنابة، قال سبحانه يصف حالهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة] وذكر جلَّ شأنه رهبة الموقف في مثل قوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه].

ذلكم ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ﴾ أي: استسلموا، وانقادوا

لله في هذا الموقف العظيم وهو يوم الحشر.

مُضَاعَفَةُ الْعَذَابِ لِمَنْ كَفَرَ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

٨٨-﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾

وهؤلاء الكفار أذنبوا مرتين: مرة بكفرهم، وتكذيبهم بآيات الله، فاستحقوا عذاب النار المعدَّة للكفار.

ومرة بمنعهم الناس من الدخول في الإسلام، ومحاربتهم الدعوة إلى الله، فاستحقوا عذاباً إضافيًا زائدًا على عذاب أهل النار المعهود لأن منْعهم الناس من الدخول في الإسلام إفساد كبير في الأرض، يؤهلهم إلى هذا العذاب المضاعف .

وأمثلة صدهم الناس عن دين الله أكثر من أن تحصى:

١- فهذا أبو ذر ﷺ قد تعرضوا له بالأذى في المسجد الحرام حين علموا إسلامه.

٢- وهذا الأعشى حين جاء مكة مادحًا للرسول ﷺ راغبًا في الإسلام، لقي من أعداء الإسلام ما يصده عن دين الله.

٣- وهذا عامر بن الطفيل الدوسي، حين قدم مكة، مشى إليه رجال من قريش، قالوا: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقوله كالسحر، وإننا نخشى عليك وعلى قومك، فلا تكلمه ولا تسمع إليه.

٤- وقصة بلال، وعمار، وسمية، وخباب، وغيرهم، أشهر من أن تذكر.

فكل من كفر بالله، أو آمن به ولم يؤمن بخاتم المرسلين، وإلى جوار ذلك وقف عقبة كؤود في وجه الدعوة، وحال دون نشر الإسلام، زاده الله ﴿عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾.

العذاب الأول: عذاب عام هو عذاب الكفر.

والعذاب الآخر: عذاب خاص لصدهم الناس عن دين الله.

والعذاب العام للكفار مُعرَّف بالألف واللام؛ لأن عذاب الكفار معروف أنه في نار جهنم.

وعذاب آخر جاء نكرة؛ لأنه عذاب خاص، أعده الله لهؤلاء الذين منعوا الناس، وصدوهم عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنعام].

أي: أنهم يَمنعون الناس من الدخول في الإسلام، ويمتنعون هم من الدخول فيه.

قيل في هذا العذاب الزائد: إنه عقارب كالبغال، وحيات كالنخل الطوال، وهذا بسبب تعمدهم الإفساد، وإضلال العباد بالكفر والمعصية، وهذا دليل على تفاوت الكفار في العذاب، كما أن أهل الجنة يتفاوتون في المنازل والدرجات، قال تعالى عن عذاب أهل النار: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

أخرج الحاكم وغيره بسنده عن مسروق قال: قال عبد الله في قول الله ﷻ: ﴿عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: عقارب أنيابها كالنخل الطوال[1].

وأخرج أبو يعلى بسنده عن الحسن عن ابن عباس ﷺ أنه قال: ﴿عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: هي خمسة أنهار فوق العرش، يعذبون ببعضها بالليل، وبعضها بالنهار[2].

وفي الآية تنبيه للمسلمين أن يحذروا كيد غير المسلمين، وإفسادهم في الأرض، وعدم الوقوع في شرورهم.

شَهَادَةُ الرُّسُلِ عَلَى الْأُمَمِ، وَهَيْمَنَةُ الْقُرْآنِ عَلَى الْكُتُبِ

٨٩- ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

---

(١) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، «المستدرك» (٢/ ٣٥٥) ووافقه الذهبي، وأخرجه الطبراني من طريق الأعمش برقم (٩١٠٤، ٩١٠٥) وأخرجه أيضًا عن ابن مسعود برقم (٩١٠٣) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٩١٠): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه الطبري في تفسيره بإسناد صحيح على شرط مسلم (١٤/ ١٠٧) وأخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٥/ ٦٦) برقم (٢٦٥٩) وعبد الرزاق (١/ ٣٦٢) وابن أبي شيبة (١٣/ ١٥٨).

(٢) «مسند أبي يعلى» (٥/ ٦٦) برقم (٢٦٦٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٩٠): رجاله رجال الصحيح.

ثم يختتم الله ﷻ هذا الربع من سورة النحل بهذه الآية التي تبيِّن أنه إذا كان يوم القيامة فإن الله تعالى يبعث في كل أمة شهيدًا عليهم من أنفسهم يشهد عليهم بما أجابوا به رسولهم، وأن محمدًا ﷺ يأتي شاهدًا على هذه الأمة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]

وقال سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف].

وكل رسول يشهد على قومه يكون من جنسهم، ومن بيئتهم وبلسانهم؛ ليكون أتم للحجة، وأقطع للمعذرة، وهو الذي شاهد في الدنيا تكذيبهم وكفرهم، أو إيمانهم وهداهم.

ولما كانت رسالة النبي ﷺ عامة إلى الثقلين، لم يقل الله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ لأنه ﷺ مبعوث إلى جميع الأمم، وشهيد عليهم جميعًا، ولذا قال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

فيشهد ﷺ أنه قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، يشهد للصالحين، ويرجو من الله المغفرة للعصاة المذنبين.

قال ابن عطية: ويجوز أن يبعث الله شهداء من الصالحين مع الأنبياء ﷺ[1].

وقال بعض الصحابة: إذا رأيتَ أحدًا على معصية، فانهه، فإن أطاعك وإلا كنتَ عليه شهيدًا يوم القيامة.

ولهذه الآية مثيل في سورة النساء، وذلك أنه لما طلب النبي ﷺ من عبد الله بن مسعود ﷺ أن يقرأ عليه القرآن، قال: يا رسول الله أأقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**»، فقرأ سورة النساء حتى وصل إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن مسعود: «**حسبك**»، قال ابن مسعود: فالتفتُ فإذا عيناه تذرفان[2].

هذه الآية أبكت رسول الله ﷺ شفقة على أمته؛ لشهادته على من آمن منهم ومن كفر، فكل أمة يشهد عليها نبيها أنه بلَّغها رسالة ربه، فيشهد للمؤمن بالإيمان، ويشهد على الكافر بالكفر، ويشهد على جميع الأمم وعلى جميع الرسل أنهم قد بلغوا رسالات ربهم،

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٤١٥).

(٢) يُنْظَر الحديث في «صحيح البخاري» برقم (٤٥٨٢، ٥٠٥٠، ٥٠٥٦) و«صحيح مسلم» برقم (٨٠٠).

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالرسول ﷺ هو النبي الخاتم، وكتابه هو الكتاب المهيمن، وهو الذي جمع كل ما في الكتب السابقة؛ فالقرآن شاهد على ما نزل قبله من الكتب، والرسول شاهد على أمته ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: على أمتك وقومك، فقد أرسلك الله إليهم؛ لتخرجهم من الظلمات إلى النور.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو القرآن ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: بيانًا شافيًا لكل ما يحتاج إليه الناس في أصول الدين وفروعه، وكل ما يحتاج إليه العباد في الدارين، من: إصلاح النفوس، وكمال الأخلاق، وتقويم المجتمع، وتبيين الحقوق والواجبات، ودلائل التوحيد، وصدق الرسول ﷺ، وأحوال الأمم والرسل، وأسباب الفلاح والخسران، وما أعدَّه الله للعصاة والطائعين.

فما من عِلْم من العلوم الدينية والدنيوية إلا وله أصل في كتاب الله، والسُّنَّة موضحة لما جاء في القرآن، وهذا القرآن فيه الهداية للبشر، وفيه الانتفاع للمؤمنين الذين تتفتح قلوبهم للقرآن، فتنتفع وتتعظ بما فيه، ولا تنقبض ويضيق صدرها من سماع القرآن، ومن الموعظة والحكمة.

وقد وصف الله تعالى القرآن في هذه الآية **بأربعة أوصاف**:

الوصف الأول: أنه تبيان لكل شيء، أي: أنه موضِّح لكل ما أمر الله به، أو نهى عنه مما يحتاج إلى بيان؛ كالحلال والحرام، والثواب والعقاب؛ فالسُّنَّة موضحة للكتاب.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

أو يحال التبيان على الإجماع، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء].

ثم القياس، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[1] [الحشر: ٢].

---

(١) يُنْظَر: «حاشية الجمل» على «الجلالين» (٢/ ٥٩٣).

قال الحسن البصري: أنزل الله مئة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان، ثم أودع علوم القرآن، المفصل، ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير الكتب المنزلة[1].

والقرآن في الأصل كتاب هداية للبشر، ولكنه أشار إلى كثير من العلوم الكونية والتجريبية، فاعتنى بأصول الطب وصحة الأبدان، واعتنى بعلم الجيولوجيا وطبقات الأرض وكنوزها، واعتنى بعلوم الفلك والعالم العلوي وما فيه من أسرار وغيبيات.

وأشار إلى علم الهندسة، ومنه أن الشكل المثلث لا ظل، له قال تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ [المرسلات].

وفيه أصول الصنائع، وأسماء الآلات، وأصول التجارة والزراعة، وعلم الأولين والآخرين، وأسرار البلاغة واللغة، فكان القرآن بحق ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

الوصف الثاني: أنه كتاب هداية للبشر من الضلال والغواية، يخرجهم الله به من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان وطريق السداد والرشاد ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

الوصف الثالث: أنه كتاب رحمة لمن آمن به، وصدق ما فيه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس].

وقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء].

الوصف الرابع: أنه بشارة طيبة للمؤمنين بحسن مصيرهم عند رب العالمين، بشارة لمن أسلموا وجوههم لله، فأحسنوا القول والعمل ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فهو بشارة طيبة لهم بحسن المصير.

الْأَمْرُ بِأُمَّهَاتِ الْفَضَائِلِ وَالنَّهْيُ عَنْ أُمَّهَاتِ الرَّذَائِلِ

٩٠- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب».

وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[١] ﴿٩٠﴾﴾

بينت هذه الآية، كون القرآن تبيانا لكُل شيء، باشتماله على أصول التشريع الإسلامي المتمثل في الأوامر والنواهي.

فجمعت هذه الآية، أمهات الفضائل في **ثلاثة أشياء** هي: العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وهي جماع الحقوق الإلهية والاجتماعية.

كما جمعت أمهات الرذائل في **ثلاثة أشياء** هي: الفحشاء، والمنكر، والبغي، وهي أصول المفاسد الدينية والدنيوية، فهذه ثلاثة أوامر، وثلاثة نواهٍ هي أصول الشريعة.

وقراءة هذه الآية في نهاية الخطبتين يوم الجمعة ليست شرطًا، ولا ركنًا ولا سُنَّة في صحة الخطبة، وإنما هي آية فذة جامعة للأوامر والنواهي، وفيها الوعظ والتذكير، فإن قرئت من باب النصح والإرشاد فلا بأس بذلك، وإذا لم تُقرأ فلا شيء في هذا، وهو أمر لم يكن في عهد النبي ﷺ، ولا في عهد الخلفاء الراشدين، وإنما حدث ذلك لأمر سياسي حينما استُخلف عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- سنة تسع وتسعين هجرية، فقد كتب يأمر الخطباء بتلاوة هذه الآية في نهاية الخطبة يوم الجمعة، وتُجعل تلاوتها عوضًا عما كانوا يأتونه في خطبة الجمعة من كلمات لا تجوز، لِمَا جمعتْه هذه الآية من الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، ومنه سبُّ بعض الصحابة رضي الله عنهم.

وقال عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه: كنت عند رسول الله ﷺ جالسًا إذ شَخَصَ بصَره فقال: «**أتاني جبريل، فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع**» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[٢].

قلت: وفي هذا - على فرض صحته - دليل على أن ترتيب الآيات توقيفي عن رسول الله ﷺ حيث كان يأمر بوضع الآية بجوار الآية في السورة التي يذكر فيها كذا.

فكان وضعها في هذا الموضع من السورة، بيانًا لما قبلها ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، ومقدمة لما بعدها ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾.

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بتخفيف الذال من (تذكرون)، والباقون بتشديدها.

(٢) رواه أحمد «المسند» (٢١٨/٤) برقم (١٧٩١٨) و«مجمع الزوائد» (٥١/٧) قال محققو «المسند»: ضعيف؛ لضعف ليث بن سليم، وشهر بن حوشب.

وقد ورد في هذه الآية المباركة **أقوال مأثورة**، منها:

١- ما يقوله عنها عبد الله بن مسعود ﷺ: هي أجمع آية في كتاب الله للخير والشر.

٢- ويقول عنها عثمان بن مظعون ﷺ: إني قد أسلمت حياء من رسول الله ﷺ؛ لكثرة ما يعرض عليَّ الإسلام، فلما نزلت هذه الآية، وأنا عنده، استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمدًا[1].

قال: فقرأتُها على الوليد بن المغيرة فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر.

وهكذا فقد كانت الآية سببًا في تمكن الإيمان من قلب عثمان بن مظعون، وكان حديث عهد بالإسلام.

٣- ويقول الحسن البصري: إن الله جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة، فوالله ما من أمر أمر الله به إلا وهو يدخل تحت العدل والإحسان، وما من معصية نهى الله عنها إلا وتدخل تحت الفحشاء والمنكر والبغي[2].

٤- وقال قتادة: ليس من خُلُق حسن، كان أهل الجاهلية يعملون به، ويستحسنونه إلا أمر الله به في هذه الآية، وليس من خلُق كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدح فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامِّها[3].

٥ - وروى ابن ماجه عن عليٍّ ﷺ أن النبي ﷺ، وهو يعرض دعوته على القبائل ويدعوهم إلى الإسلام، قال له مفروق بن عمرو: إلام تدعونا أخا قريش؟ فتلا عليهم الرسول الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ فقال مفروق: دعوتَ والله إلى مكارم الأخلاق،

(١) يُنْظَر: «المسند» (٣١٨/١) عن ابن عباس من حديث طويل بتحقيق أحمد شاكر برقم (٢٩٢٢) وهو في «الدر المنثور» (١٢٨/٤) و«مجمع الزوائد» (٤٨/٧) عن الطبراني، وفي إسناده (شهر) وثَّقه أحمد وجماعة، وفيه ضعف لا يضر، وبقية رجاله ثقات، وحسنه الترمذي برقم (٣٣١٥)، وضعّف إسناده محققو المسند برقم (٢٩١٩) عن ابن عباس لضعف شهر بن حوشب.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» برقم (١٤٠).

(٣) الطبري (٣٣٧/١٤).

ومحاسن الأعمال، ولقد أفِكَ قوم كذَّبوك وظاهَروا عليك[1].

٦ - وقال ابن عباس وابن مسعود ﷺ: أعظم آية في كتاب الله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾.

وأكثر آية في كتاب الله تفويضًا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق].

وأكثر آية في كتاب الله رجاء ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾[2] [الزمر: ٥٣].

٧ - وورد أن علي بن أبي طالب ﷺ مرَّ بقوم يتحدثون، فقال: فيم أنتم؟ قالوا: نتذاكر المروءة، فقال: أو ما كفاكم الله ﷻ في كتابه إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ **فالعدل**: الإنصاف، **والإحسان**: التفضل، فما بقي بعد هذا[3].

٨ - ويقول حكيم العرب أكثم بن صيفي، حين أرسل رَجُلَيْن إلى النبي ﷺ يسألانه: من هو؟ وما هو؟ وإلى أي شيء يدعو؟ فقال ﷺ: أمّا من أنا؟ فأنا محمد بن عبد الله، وأمّا ما أنا؟ فأنا عبد الله ورسوله، ثم تلا عليهم هذه الآية فقالوا: اردد علينا هذا القول، فردَّده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم فقالا: أَبَى أن يرفع نسبه، فسألْنا عن نسبه فوجدناه زاكي النسب، واسطًا في مُضَر، وقد رمى إلينا بكلمات، قد سمعناها، فلما سمعهنَّ أكثم قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن مساوئها، فكونوا في هذا الأمر رؤوسًا، ولا تكونوا فيه أذنابًا، وكان أكثم يريد أن يُقْدِمَ على النبي ﷺ بنفسه فأبى قومه عليه،

---

(١) وقد أُلف الشيخ عز الدين بن عبد السلام كتابًا سمَّاه «الشجرة» بيَّن فيه أن هذه الآية اشتملت على جميع الأحكام الشرعية في سائر الأبواب الفقهية، وسماه السبكي في الطبقات: «شجرة المعارف».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٨٩) والطبراني والحاكم وصححه (٢/ ٣٥٦) والبيهقي في «الشعب» (٢٤٤٠) وابن جرير (١٤/ ٣٣٧) والطبراني (٨٦٥٨) وابن أبي حاتم و«صحيح الأدب المفرد» (٣٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ من طريق الكلبي عن أبيه.

وقالوا له: أنت كبيرنا، فأرسل إليه الرَّجُليْن[١].

فهو ينصحهم أن يبادروا في الدخول إلى الإسلام، وأن يكونوا أول من أسلم، ولا ينتظروا حتى يكونوا في المؤخرة، فيقول لهم: كونوا أولًا، ولا تكونوا آخرًا.

٩ - وأما أعداء الإسلام وصناديد الكفر، فقد أثنوْا أيضًا على هذه الآية، فقد قال أبو جهل حين سمع هذه الآية: إن إلهه -يقصد إله محمد ﷺ- ليأمر بمكارم الأخلاق.

١٠ - وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية، قرأها النبي ﷺ على الوليد بن المغيرة، وهو من أكبر أعداء الإسلام، فلما قرأها عليه قال: أعِدْها عليَّ يابن أخي، فأعادها النبي ﷺ عليه، فقال الوليد يصف القرآن: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول بشر.

وهكذا: فالآية تأمر بثلاثة أشياء هي: العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وتنهى عن ثلاثة أشياء هي: الفحشاء، والمنكر، والبغي.

الأمر الأول والثاني: هما العدل والإحسان:

والمراد بالعدل: القسط، والإنصاف، والمساواة، وعدم الجور.

قال محمد بن كعب القُرَظيُّ: دعاني عمر بن عبد العزيز فقال: صف لي العدل، فقلت: بخ، سألتَ عن أمر جسيم، كن لصغير الناس أبًا، ولكبيرهم ابنًا، وللمثْل منهم أخًا، وللنساء كذلك، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسادهم، ولا تضْربنَّ لغضبك سوطًا واحدًا متعدِّيًا فتكون من العادين[٢].

وهناك عدل بين العبد وربه، وعدل بين العبد ونفسه، وعدل بين العبد وسائر خلق الله، فهذه **ثلاثة أنواع** من العدل:

١- فالعدل الذي بين العبد وربه، هو الإنصاف، وأعظم الإنصاف: توحيد الله تعالى

(١) يُنْظَر: «معرفة الصحابة» (٢/ ٤٢٠) قال ابن حجر: وهو مرسل، وانظر: «الاستيعاب» (١/ ١٤٦) وأنكر كون أكثم بن صيفي من الصحابة، وانظر: الإصابة (١/ ١١٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٩/ ١٠٤).

وعدم الإشراك به، وطاعة الله ﷻ وعبادته، وتقديم حق الله تعالى على حظ النفس، وتقديم رضى الله تعالى على هوى النفس، وأداء فرائضه على الوجه المشروع.

والأحسان في هذا العدل: هو الإتقان والإخلاص، كما أخبر النبي ﷺ: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[١] وهذا يعني مراقبة الله ﷻ في السر والعلانية.

وعبادة الله تعالى بالعدل، أي: بغير زيادة ولا نقصان، بغير غُلُوٍّ ولا تقصير، بغير إفراط ولا تفريط، وبهذا المعنى فسَّر ابن عباس العدل في الآية، فقال: إن العدل: شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا يعني: تحقيق التوحيد وإخلاصه، وعدم الشرك بالله سبحانه.

والعدل في العبادة: هو أداء الفرائض، فتحقيق التوحيد أولًا، ثم القيام بالتكاليف الشرعية ثانيًا.

والإحسان في العبادة: هو الصبر على طاعة الله تعالى فيما أمر ونهى، في الشدة والرخاء والمكره والمنشط[٢]

٢- **والعدل** بين الإنسان وبين نفسه هو: أن تستوي السريرة والعلانية، وأن يستوي ظاهره وباطنه، بأن يكون ما في داخله موافقًا لما يقوله على لسانه، ولِمَا يَظْهَرُ عليه من أفعال وتصرفات بلا نفاق، ولا تملُّق، ولا نحو ذلك، واستواء السريرة والعلانية عدل:

فإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فهذا إحسان، وهو درجة أعلى من العدل؛ لأن فيه نافلة وفضْلًا.

وإن كانت العلانية أفضل من السريرة -والعياذ بالله- فهذا ظلم وجور وطغيان، وهو من الفحشاء، والمنكر، والبغي.

٣- **والعدل** بين الإنسان وبين غيره من الناس: هو إعطاء كل ذي حق حقه، وعدم الظلم، وعدم الجور، والمساواة.

---

(١) من حديث عمر ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان في «صحيح مسلم» برقم (٨) و«صحيح البخاري» برقم (٥٠، ٤٧٧٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره للآية بسند حسن عن الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

والإحسان في هذه الحالة درجة أعلى من العدل، كما بيَّن النبي ﷺ بألا يكتفي العبد بالمساواة في التعامل مع الناس في الحقوق والواجبات، وإنما يرتقي إلى درجة أعلى بأن تحسن -أيها المسلم- إلى من أساء إليك، وأن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك.

والآيات في القرآن الكريم بهذا المعني كثيرة:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ هذا عدل.

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [١٢٦] هذا إحسان وفضل.

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الشورى] هذا عدل، فالانتصار بعد الظلم عدل وأعلى منه ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى] هذا فضل وإحسان.

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ هذا عدل.

وأعلى منه ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] هذا فضل، وإحسان.

ومن العدل مع الناس: قول كلمة الحق ولو على النفس، أو على أقرب الناس، كالوالدين والأقربين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

ومن العدل قول كلمة الحق بالنسبة للعدو، أو من يبغضه الإنسان قال تعالى:
﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ومن العدل قول كلمة الحق في وجه سلطان جائر، كما في حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «**أفضل الجهاد كلمة تقال عند سلطان جائر، أو أمير جائر**»[(١)].

---

(١) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ في أبي داود برقم (٤٣٤٤) بتصحيح الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٥٠) وفي صحيح ابن ماجه (٤٠١١).

وهكذا فالإحسان -في توحيد الله تعالى وطاعته- رتبة أعلى من أداء الفرائض ومِنْ تَرْكِ المحظورات، فترتقي النفس إلى توقي الشهوات والشبهات، وأن يدع الإنسان ما يريبه إلى ما لا يريبه، ويدع ما لا بأس به مخافة ما فيه بأس، والإكثار من النوافل والقربات، ومراقبة الله تعالى في السر والعلن، فيعبد الله تعالى كأنه ناظر إليه في جميع أحواله، في خلْوته وجلْوته.

وقد فسَّر النبي ﷺ الإحسان في قوله: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[1].

أما الإحسان إلى الخلْق: فيكون بالقول والعمل، وهو رتبة فوق رتبة العدل والتعامل بالمثل.

وآداب التعامل مع الوالدين، ومع الزوجة ومع الأبناء، وسائر المجتمع، وكذا حُسْن العشرة والصحبة، كلها ترجع إلى الإحسان، وليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك، ولكن الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك.

والإحسان إلى الوالدين على وجه الخصوص أمر أوجبه الشرع، وألزم به كل إنسان، وجعله في المرتبة الثانية بعد حق الله تعالى، فهو من باب الواجب، وليس من باب الفضل والتكرم؛ لأن الإحسان إلى الخلق هو المعاملة بالحسنى لمن لا يلزمه الإحسان إليهم، ولمن هو ليس من أهلها، أما مقابلة الإحسان بالإحسان، والفضل بالفضل، فهذا من باب العدل والإنصاف.

وأدنى مراتب الإحسان ما جاء في الموطأ: **«أن امرأة بغيًا رأت كلبًا يلهث من العطش يأكل الثرى، فنزعت خفها وأدْلَتْه في بئر، ونزعتْ فسقتْه، فغفر الله لها»**.

وقد **«عُذبت امرأة في هرة حبستْها، حتى ماتت جوعًا، فدخلت النار لا هي أطعمتها وسقتْها إذ حبستْها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»**[2].

وفي الحديث: عن شداد بن أوس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»**[3].

---

(١) «صحيح مسلم» (٨).

(٢) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما في صحيح البخاري برقم (٢٣٦٥، ٣٤٨٢) وصحيح مسلم (٢٢٤٢).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٩٥٥)، وسنن أبي داود برقم (٢٨١٥).

والله تعالى يحب المحسنين، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وهكذا يتبيَّن أن الإحسان في الإسلام، لا يقتصر على الإنسان، بل يشمل الحيوان والدواب وسائر المخلوقات.

والأمر الثالث: في الآية، جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وقد خص القرابة؛ لأن فيها صلة الرحم، وهم الأقربون والأبعدون من جهة الأم ومن جهة الأب، والعلم رَحِم بين أهله، والجيرة رحم بين أهلها، والزمالة والصداقة رحم بين الناس، وهكذا.

وصلة الرحم: تعني أنه إن كان الرحم من أهل الصدقة، أو أهل الزكاة فهو أولى بها؛ لأن الصدقة على القريب بِرٌّ وصدقة وصلة، وإن لم يكن القريب من أهل الصدقة والزكاة، فالصلة تكون بالمودة والسؤال عنه، وبالهدية، وبالمجاملة، وبالمهاتفة، وبالرسالة، ونحو ذلك من الأحوال في صلة الرحم.

والله ﷻ قد اشتق للرحم اسمًا من اسمه، فقال: **«أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»**[1].

وقطيعة الرحم: فساد موجب للعنة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد].

وأعلى درجات صلة الرحم أن تصل الرحم الذي يبغضك ويكنُّ لك الكراهية، والبغض؛ فالفضل والإحسان أن تتصدق عليه بالمودة والرحمة والكلمة الطيبة، مهما جفاك، ومهما ابتعد عنك؛ فالإسلام يأمرك أن تتقرب إلى قريبك الذي يضمر لك العداوة، قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف].

أما النواهي الثلاث، فالنهي الأول منها جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾.

---

(١) من حديث عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله (عن ربه عزَّ وجلَّ في «المسند» برقم (١٦٥٩، ١٦٨٠)، قال محققوه: حديث صحيح لغيره ورجاله ثقات، وأخرجه أبو يعلى (٨٤١) والحاكم (٤/ ١٥٧) ومصنف عبدالرزاق (٢٠٢٣٤) وأبو داود (١٦٩٥) والبزار (٩٩٣) وابن حبان (٤٤٣).

والفحشاء: كل ما عظُم من الذنوب من كل قول، أو فعل فاحش فيه تجاوز للحد.

فالفعل الفاحش: كالزنى، واللواط، والقتل، والسرقة، وشرب الخمر، والحرابة، ونحو ذلك.

والقول الفاحش: كالسب، والقذف، واللعن، ونحو ذلك من الألفاظ السيئة القبيحة، ولم يكن رسول الله ﷺ: فاحشًا، ولا متفحشًا، ولا صخَّابًا، فلم ينطق بالألفاظ القبيحة الرديئة ولم يكن طعَّانًا ولا لعَّانًا.

وسبُّ الرجل كقتْله، جاء في الحديث عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

والنهي الثاني في الآية هو النهي عن المنكر: ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: كل ما أنكره الشرع من المعاصي والذنوب التي هي من حقوق الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك، ثم كبائر الذنوب، ثم صغائرها فيشمل كل ما هو محرم وما هو مكروه.

والمنكر أيضًا: كل ما أنكره العقل الصحيح، والفطَر السليمة.

وتغيير المنكر واجب على الولاة والحكام والأمراء، وعلى كل مسؤول بحسبه، إلا أن الذي يغير المنكر لا يجوز له أن يتجسس، ولا أن يعمل بظنه، ولا يبحث عن المستور، ولا يُغيِّر إلا المنكر الظاهر، وليكن أمره ونهيه بالمعروف.

وتغيير المنكر باليد يكون للحكام، ولمن فوضُوهم في ذلك، ويكون للوالد في بيته، ولصاحب المصنع في مصنعه، وللمدير في إدارته، وللمدرِّس في فصله، وهكذا، وإقامة الحدود تكون من قبل الحاكم المسلم، والأمر بالجهاد يكون من قبل الحاكم المسلم، وقد ذم الله تعالى قومًا كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة].

---

(١) من حديث ابن مسعود ﷺ في البخاري برقم (٤٨) ومسلم برقم (٦٤).

والنهي الثالث في الآية هو النهي عن البغي: والبغي هو: ما يتعلق بحقوق العباد من كل ما فيه ظلم وتعدٍّ على خلق الله تعالى، وفيه مجاوزة للحدود في أموال الناس، أو أعراضهم، أو أنفسهم، أودمائهم.

وفي الحديث: عن أبي بكرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخره الله لصاحبه في الآخرة، من البغي، وقطيعة الرحم**»[1].

ولو أن جبلًا بغى على جبل لدُكَّ الباغي، حتى في الجمادات، فكيف بالإنسان؟

وكما أن الفحشاء أعظم درجات المنكر، فإن البغي نوع من المنكر، والبغي هو ظلم الناس والتعدي عليهم.

وكان العرب يُغِيرون على غيرهم في الحروب وغيرها بدون ذنب، من باب الكسب والحصول على الغنائم، وكانوا يتجاوزون الحد في مقابلة الذنب، حتى يكون هناك إفراط في المؤاخذة.

ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤] أي: بدون تجاوز، ولا إفراط.

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

وحاصل معنى الآية: أن الله ﷻ يأمر عباده في هذا القرآن العظيم بستة أشياء:

أولًا: أن يلتزموا بالحق والعدل والإنصاف في كل أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم، ففي عبادتهم لربهم، أمرهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وفي تعاملهم مع الناس أمرهم أن يعطوا كل ذي حق حقه.

ثانيًا: ويأمر الله تعالى عباده أن يلتزموا بالعفو، والصفح، والتسامح في أقوالهم

---

(١) رواه أحمد بنحوه في «المسند» (٥/ ٣٦) برقم (٢٠٣٧٤، ٢٠٣٩٨) وإسناده صحيح، وأبو داود في «السنن» برقم (٤٩٠٢) والترمذي في «السنن» برقم (٢٥١١) وابن ماجه في «السنن» برقم (٤٢١١) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، «المستدرك» (٢/ ٣٥٦) قال الألباني: وهو كما قالا، فإن رجال إسناده كلهم ثقات، وصحح إسناده محقق الإحسان، في صحيح ابن حبان برقم (٤٤٥، ٤٤٦).

وأفعالهم مع الناس، وأن يحسنوا في عبادتهم لله تعالى بأداء فرائضه على الوجه المشروع، وأن يخلصوا فيها، ويُتْقنوها على أكمل وجه.

ثالثًا: ويأمر الله جلَّ شأنه عباده بصلة الأقارب، وتقديم العون والمساعدة للفقير منهم بكل وجه من وجوه الخير والبر، ففي هذه الفضائل الثلاث سعادة الدنيا والآخرة.

رابعًا: وينهى الله ﷻ عباده عن كل ما اشتد قبحه من الأقوال والأفعال.

خامسًا: وينهاهم عن كل ما ينكره الشرع، ولا يرضاه من الكفر والمعاصي والرذائل على اختلاف أنواعها، وأشكالها.

سادسًا: وينهاهم ربهم عن ظلم الناس، والتطاول عليهم، وتجاوز الحد في كل شيء.

وبهذه الأوامر والنواهي يعظهم ربهم، ويذكِّرهم العواقب، لعلهم يحسنون التذكر لما ينفعهم، ويعملون بما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدارين.

ولَمَّا أمر الله تعالى بما هو واجب في أصل الشرع، أمر بعد ذلك بالوفاء بما أوجبه العبد على نفسه من العقود والعهود:

نَاقِضُوا الْعَهْدِ كَنَاقِضَةِ الْغَزْلِ بَعْدَ إِحْكَامِهِ

٩١-﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾

ومن أعظم البغي نقض العهد وخلف الوعد، سِيَّمَا إذا كان هذا العهد أو الوعد موثَّقًا ومؤكدًا باليمين، ولفظ العهد عام يشمل ما كان مكتوبًا، وما كان كلامًا باللسان، والتزم الإنسان به من بيع أو شراء، أو وعد، أو وصية، أو صلة، ما لم يكن عهدًا على معصية، أو في أمر محرم، والعهد كل ما من شأنه أن يراعى ويُحفظ، كالوصية والأمانة والدَّيْن، فنقض العهد من كبائر الذنوب.

والإسلام لم يتسامح في هذه النقطة من الكبائر، فقد شدد على وجوب الوفاء بالعهد؛ لأن نقض العهد يفقد الناس الثقة والمصداقية بين الأفراد والمجتمعات، وبينه وبين نفسه:

١- فهناك عهد بينك وبين الله تعالى، بأداء ما عليك من طاعة، وعبادة، ونذر،

وكفارة، وأوامر، ونواهٍ، وغير ذلك.

٢- وهناك عهد بينك وبين الناس من الحقوق، والعقود، والتعاهدات، والمعاوضات.

٣- وهناك عهد بين الدول بعضها مع بعض، وبين الأفراد والقبائل والمجتمعات. وكلها عهود أَمَر الله بالوفاء بها، وألا نرجع فيما تعاهدنا عليه، بعد أن وثّقناها بالأيمان؛ لأنها أقوى من الأيمان التي هي للحث على فعل شيء، أو المنع منه، فكونوا أوفياء بعهودكم، ولا تنقضوا أيمانكم بعد توثيقها وتغليظها.

والتزموا -أيها المسلمون- بالوفاء بكل عهد ولا تنقضوه؛ فإن هذا من كبائر الذنوب، وقد جعلتم الله، حين حلفتم به، ضامنًا لكم فيما ألزمتم به أنفسكم من العهود فيما بينكم وبين الله، وفيما بينكم وبين الناس، ما دام لا يخالف كتاب الله ولا سنة نبيه؛ فالكفيل مهيمن على مكفوله وضامن له، والله رقيب، وشهيد، ومطلع عليكم، وسيجازيكم عليه، فهو يعلم ما تفعلون.

وخلف الوعد، ونقض العهد من علامات النفاق، كما في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»**[(١)] وفي رواية: **«وإذا عاهد غدر»**.

وقد نهى الإسلام عن نقض الأيمان، إلا إذا كانت هذه الأيمان مانعة من فعل الخير، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

وكذلك إذا حلف الإنسان على شيء، ورأى أن غيرها خير منها، كما قال ﷺ في حديث أبي موسى ﷺ: **«إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها، إلا أَتَيْتُ الذي هو خير، وتحلّلْتها»**[(٢)] وفي رواية: **«وكفَّرْتُ عن يميني»**.

وأول العهود في الإسلام بيعة النبي ﷺ من أصحابه، على ألا يعصوه في معروف، كما في بيعتي العقبة والحديبية، وغيرهما، والخطاب في الآية عام.

---

(١) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة في البخاري (٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥) ومسلم (٥٩).

(٢) البخاري (٢٦٤٩، ٣١٣٣، ٦٧٢١) ومسلم (٦٤٩).

وجاء في الحديث عن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان...**»(١)

والآية تشمل جميع العهود فيما بين العبد وربه، وفيما بينه وبين الناس.

فلا يحل للمؤمن أبدًا أن ينقض عهدًا أخذه على نفسه مع الله، أو مع الناس.

ومن أكبر العهود مبايعة أصحاب رسول الله ﷺ له على الإسلام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] وكذا مبايعة المسلم لربه على الإسلام باعتناقه له، فإنه إن خرج منه -والعياذ بالله- يكون قد نقض هذا الدِّين وارتد عنه، وكان فتنة لغيره، فإذا رآه غيره أنه قد خرج من دينه، فإن هذا يكون سببًا لفتنة الناس وخروجهم من دينهم.

وقد جاء الأمر بالوفاء بالعهد في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] وقد بيَّن ﷻ أن من أوفى بعهده يؤته الله أجرًا عظيمًا، ومن نقض العهد فلا يَضرُّ إلا نفسه، قال تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]

ونقض العهد والميثاق موجب للعنة الله تعالى، قال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد].

ونقض العهد من صفات الفاسقين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة].

وقد مدح الله تعالى الموفين بعهودهم فقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وبيَّن سبحانه أن من يبرمون العهد على الالتزام بالإسلام دينًا، فإن عهدهم معقود مع الله

(١) البخاري برقم (٣١٨٨) ومسلم برقم (١٧٣٥) عن ابن عمر ﷺ و «المسند» (٢/٤٨) برقم (٥٠٨٨، ٥٨٠٤).

تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]. قال تعالى:

٩٢-﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

أي ولا تكونوا في نقضكم للعهود كصاحبة أسوأ الأمثال، وهي امرأة كانت تغزل غزلًا قويًّا محكمًا، فإذا فرغت منه، نقضتْه من جديد، فلم تستفد سوى سفاهة العقل، وضياع الوقت، فلا تخدعوا غيركم بالأيمان الكاذبة ولا تنقضوها بعد إحكامها.

ومن ذلك نقض عهد دولة للتحالف مع دولة أخرى، وهذا من أسباب المحن التي يمتحن الله بها عباده ليظهر الوفى من الشقي ويجزي كلا بما يستحق.

وهكذا: ضرب الله ﷻ المثل لمن ينقض عهده مع الله تعالى أو مع خلْقه، بمن يغْزل غزلًا ويُحكِمُ نسْجه، ثم يفكُّه بعد إبرامه.

١- ويضرب هذا المثل بامرأة كانت تسمى: رَيطة بنت سعد التيْميَّة، من بني تميم، كانت هذه المرأة في مكة، وهي مختلة العقل، ولها جَوارٍ، وعندها مغزل، تغزل هي وجواريها من الصوف، أو الوبر، أو الشعر، من الصبح إلى منتصف النهار، فإذا انتصف النهار تأمر جواريها أن ينقضْن ما غزلْن، بعد إبرام الغزل وإحكامه، ثم تعيد غزله من جديد.

وهكذا تفعل كل يوم، فهي امرأة حمقاء، تُضيِّع وقتها، وتبدد طاقتها وجهدها بهذا العمل.

٢- وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي حفص قال: كانت سعيدة الأسدية مجنونة تجمع الشَّعر، والليف، ثم تنقضه بعد أن تعبت في نسيجه فنزلت الآية[١].

٣- وفي الصحيحين: عن عطاء بن رباح قال: قال لي ابن عباس ﷺ: ألا أُرِيك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إنِّي أُصْرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: «**إن شئت صبرتِ ولك الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافيَك**»، فقالت: أصْبِرُ، فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها[٢].

(١) النيسابوري (٢٣٦) و«تفسير الطبري» (١٤/ ١١٠).

(٢) البخاري (٥٦٥٢) ومسلم (٢٥٧٦).

قال ابن عباس ﷺ: فاختارت الصبر والجنة، قال: وهذه المجنونة، سُعَيْرَةُ الأَسَدِيةُ وكانت تجمع الشَّعر والليف، فنزلت الآية[١].

٤- وقال مجاهد: هذا شأن نساء أهل نجد، كانت المرأة تأتي بحبل لها فتنقضه، وبعد ما تنقضه تخلطه بالصوف ثم تغزله.

٥- قال قتادة: لو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم: ما أحمق هذه! وهذا مثل ضربه الله تعالى لمن نكث عهده[٢].

ويبدو أنه كان يوجد أكثر من امرأة شأنها ذلك، فليس المراد امرأة بعينها، والله سبحانه ضرب ذلك مثلًا لمن يُبرم العهد، ثم ينقضه.

قال المفسرون: نزلت هذه الآية في العرب، الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت قبيلة أخرى، ثم جاءت إحداهما قبيلة ثالثة قوية، فداخلتْها، غدرَتْ بالأولى، ونقضتْ عهدها، وحالفت القوية، فنهى الله تعالى عن ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ بعدما أحكمتْه وأبرمتْه، أي: ولا ترجعوا في عهودكم، فيكون مثلُكم مَثَلُ امرأة غزلت غزلًا وأحكمتْه، ثم نقضتْه.

ومعنى ﴿أَنكَٰثًا﴾ أي: منقوضًا، تجعله خيوطًا عديدة، أي: تجعلون أيمانكم الصالحة أيمانًا فاسدة كاذبة، وهذا معنى ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ أي: تجعلون ﴿أَيْمَٰنَكُمْ﴾ الحقيقية ﴿دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي: خديعة لمن عاهدتموه، فتجعلونها وسيلة للغدر، والمكر، والغش؛ **فالدخَل**: هو الفساد،وهو الذريعة إلى الخداع والغدر؛ لأن المحلوف له، يكون مطمئنًا، فيتمكن الحالف من ضُرِّه والغدرِ به.

وقد بيَّنت الآية أن هذا الغدر، يكون عادة من جماعة، عندما توجد لها جماعة أخرى للتحالف معها، وهي أقوى من سابقتها، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ﴾ أي: أقوى وأشد ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ أخرى، وأكثر منها عددًا، وأوفر مالًا، وأقوى سلاحًا وعتادًا.

قال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء،

---

(١) أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء بن رباح كما في «الدر المنثور» (٩/١٠٦).

(٢) الطبري (١٤/٣٤٣).

ويحالفون أولئك[١].

فلا يحْملكم على نقض الأيمان كون أمة هي أحسن وأقوى من أمة، فلا تنقضوا العهود والمواثيق؛ بسبب المصالح والمنافع الدنيوية، كالذي يحدث بين الدول من معاهدات ومواثيق، أو ما يحدث بين الأفراد، أو العشائر والقبائل، فيرجعون عنها، وينقضونها والإسلام ينهى عن هذا:

كان بين معاوية، وبين ملك الروم، عهد إلى أجل، فأراد معاوية أن يسير إليه في نهاية المدة؛ ليكون قريبًا منه، فإذا انتهى الأجل بينهما، غار عليه وهو لا يشعر، وساق جيشه ذاهبًا إليه.

فقال له عمْرو بن عَبَسَة: الله أكبر يا معاوية، وفاء لا غدر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلَّن عقدة حتى ينقضي أمدها»**[٢]. فرجع معاوية بالجيش.

أي: أنه لا يحل لرجل أن ينقُض عهد قوم، حتى يأتي الموعد المضروب بينهما، فكان من معاوية أن وقف عندما سمع حديث رسول الله ﷺ - وكانوا وقَّافين عند حدود الله تعالى - ورجع بجيشه.

فالإسلام يأمر بالوفاء بالعهود، والعقود، والوعود، وينهى عن نقضها.

ينهى الحاكم المسلم إذا وجد دولة أقوى من دولته عسكريًا، أو اقتصاديًا، أو نفوذًا، أن يترك الأمة الضعيفة المتحالف معها، ويلجأ إلى الأمة القوية، وينقض عهده السابق.

وقد حدث هذا حين خرج قوم عن بيعة رسول الله ﷺ فانحازوا إلى قريش؛ لأنهم أكثر وأعز مالًا ونفرًا.

وكذلك الشأن في عصرنا من الدول التي توالي القوى الكبرى في العالم؛ لأنها أكثر نفوذًا، وأكثر قوة اقتصادية وعسكرية.

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٠/ ١٨٠).

(٢) يُنظر «المسند» (١٧٠١٥، ١٧٠٢٥، ١٩٤٣٦)، (قال محققو): وهو حديث صحيح بشاهده، كما في حديث أبي هريرة في البخاري (٣٦٩، ٣١٧٧) وفيه كيف ينبذ إلى أهل العهد، وأخرجه الطيالسي (١١٥٥) والنسائي في الكبرى (٨٧٣٢) وصححه ابن حبان (٤٨٧١) وأخرجه أبو عبيد في الأموال (٤٤٨) وأبوداود (٢٧٥٩) والترمذي (١٥٨٠)

وهكذا كانت قريش في الجاهلية تعقد الحلف، أو المعاهدة مع القبيلة فإذا وجدت أن غيرها أقوى منها نقضت عهدها معها، وانضمت إلى القبيلة الأقوى.

ومن ذلك أنه لا ينبغي الخروج على الحاكم المسلم إلا إذا أتى بكفر بواح، عندكم فيه من الله برهان، أي: دليل قاطع على أن ما يفعله كفر ظاهر، وهذا بحكم البيعة له، وهي عهد بينه وبين من بايعُوه، حتى لو تسلّم هذا الحاكم إدارة البلاد بالغلبة والقوة، وذلك حقنًا لدماء الناس، ولعدم إثارة الفتن والحروب.

وفي نهاية الآية، أخبر سبحانه أنه يبتلي عباده بما أمركم به من الوفاء بالعهود، وما نهاكم عنه من نقضها، وبين سبحانه أن ذلك فتنة وإغراء ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾.

وردُّ الفصل بين العباد يوم لقاء الله تعالى فيما اختلفوا فيه في حياتهم الدنيا:

١- من الإيمان بالله تعالى. ٢- ونبوة محمد ﷺ.

٣- ومن الغدر ونقض العهود، وردّ كل ذلك إلى الله تعالى وحده:

فيجازي أهل الحق بما يستحقون من ثواب، ويجازي أهل الباطل بما هم أهله من عقاب.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝﴾

الْإِنْسَانُ حُرٌّ مُخْتَارٌ

٩٣-﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾

ثم إن الله تعالى قادر على بيان الحق من الباطل في هذه الدنيا، بأن يجعل الناس كلهم على دين واحد، وملة واحدة هي الإسلام والإيمان، بلا خلاف ولا فرقة، ويلزمكم به جميعًا، ولكن الله تعالى خلقكم باستعدادات متعددة، فأمركم ونهاكم؛ ليختبركم، ويحاسبكم، هل وفّيتم بميثاق التوحيدالذي أخذه الله عليكم وأنتم في أصلاب آبائكم أم لا؟ وذلك كي يضل الله من يشاء، ممن علِم منه إيثار الضلال واختياره قبل أن يُخلق، فكتب ذلك عنده، ويهدي من يشاء، ممن عَلِم منه إيثار الهدى واختياره حسب استعداده الشخصي، فكتب ذلك عنده، وعِلْمُ الله تعالى، مجرد انكشاف لما سيكون عليه حال العبد عندما يكون إنسانًا مكلفًا، وليس فيه إجبار له على القول أو الفعل، فقد ترككم الله سبحانه لحريتكم واختياركم، وجعل لكم عقولا تميزون بها الخير مّن الشر، ولم يترككم لها، بل أرسل

لكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب.

فإذا كان يوم القيامة، فإن الله تعالى سائل كل أحد عما عمل في الدنيا، مما أمركم به ونهاكم عنه، وسوف يجازيكم على ذلك.

ولهذه الآية نظائر كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣].

النَّهْيُ عَنْ خِدَاعِ النَّاسِ بِالْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ لِكَسْبِ ثِقَتِهِمْ

٩٤-﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾

أي ولا تخدعوا الناس بالأيمان الكاذبة، فتزل أقدامكم عن الصراط يوم لقاء الله، بعد ثبوتها، كحال ناقض العهد، وتذوقوا سوء العذاب بسبب ضلالكم عن سبيل الله وضلال غيركم ممن تسببتم في خديعتهم وإغوائهم.

وبعد أن نهانا سبحانه عن نقض العهود بصفة عامة، نهانا عن الغش والخديعة، بأن نجعل الحلف بالله تعالى ذريعة إلى غش الناس وخداعهم، وأخذ حقوقهم، وقد جاء ذلك تأكيدًا للآية السابقة، ومبالغة في النهي عن خداع الناس بالأيمان الكاذبة.

وقد جرت عادة الناس أن يَطْمئنوا إلى صدق من يقسم بالله تعالى، فلا تجعلوا - أيها المخادعون - هذه الثقة، وسيلة للكذب، وإفسادِ ما بينكم وبين الناس من مودة.

وقد جاء النهي في هذه الآية بنفس اللفظ الذي حذَّرت منه الآية قبل السابقة، في ضرب المثل بالمرأة التي نقضت غزلها، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي: لا تخدعوا الناس بالأيمان الكاذبة؛ لنقض العهود التي أبرمت مع غيركم، فإن غير المسلم إذا رأى المسلم قد عاهد ثم غدر، لم يبقَ لديه ثقة في هذا الدِّين فيمتنع من الدخول فيه، ويصد الناس عنه، ويكون في هذا إساءة إلى الإسلام وأهله.

فلا تجعلوا أيمانكم التي تحلفونها خديعة وغشًا لمن حلفتم لهم بها ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي: تُهْلَكوا بعد أن كنتم آمنين، ولا تثبتوا على الصراط يوم تزل الأقدام، كمن زلَقت قدمُه عن موضعها بعد أن كانت راسخة ثابتة، أو كمن سقط في ورطة، أو وقع في بلاء ومحنة، بعد أن كان في سلامة وعافية، وهو مثل يضربه العرب لمن كان كذلك.

وفضلًا عن ذلك فإنكم تتحملون وزر من علَّمتموه نقض العهود من الناس، ذلكم معنى قوله تعالى: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: عذاب الدنيا؛ بسبب صدكم لغيركم عن دين الله، وبما تسببتم فيه من منع غيركم من الدخول في الإسلام لَمَّا رأى منكم هذا الغدر ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يوم لقاء الله بالإضافة إلى ما يسؤوكم في الدنيا من الخزي والفضيحة.

عن عبد الله بن عمرو ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**»[(١)].

النَّهْيُ عَنِ الرِّشْوَةِ وَالْيَمِينِ الْغَمُوسِ

٩٥-﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ثم نهى الله سبحانه عباده أن يبيعوا دينهم بدنياهم، فينقضوا عهودهم ومواثيقهم مقابل عَرَض من أعراض الدنيا، أو منفعة دنيوية زائلة، وكل عوض يؤخذ على نقض عهد من عهود الله، فهو عوض قليل، ولو كان أعظم المكتسبات، فلا تنقضوا عهد الله؛ لتستبدلوا مكانه عرضًا قليلًا من متاع الدنيا.

وفي الآية نهي عن الرشوة بأخذ المال على ما يجب على الإنسان فعله أو تركه؛ فإن في ذلك نقضًا للعهود مقابل منفعة، ومهام الوظيفة يجب القيام بها دون مقابل من الناس، ودون الإضرار بالآخرين، وهذا هو النهي الثالث في هذا الربع من السورة.

فالنهي الأول: نهي عن نقض الأيمان ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

والنهي الثاني: نهي عن اتخاذ الأيمان وسيلة لإبطال الحق، أو إحقاق الباطل.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦٧٥).

والنهي الثالث: نهي عن استبدال عهد الله تعالى بمتاع الدنيا القليل.

جاء رجلان إلى النبي ﷺ يختصمان في قطعة أرض بينهما، فأراد أحدهما أن يحلف كذبًا، فأرجأه النبي ﷺ أي: أمهله لأن لا يحلف، فأنزل الله قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[1].

وهو مثَل ينطبق على كل من حلف بالله يمينًا يعلم أنه غير صادق فيها؛ ليقتطع به حق امرئ مسلم، وهو اليمين الغموس؛ ليشتري به عرض الدنيا، فإن ما عند الله من الثواب على الوفاء بالعهد، أفضل لكم - أيها الناكثون للعهود - من هذا الثمن القليل، إن كنتم من أهل العلم، فتتدبروا الفرق بين خيري الدنيا والآخرة.

نَعِيمُ الدُّنْيَا يَزُولُ وَنَعِيمُ الآخِرَةِ لَا يُفَارِقُ صَاحِبَهُ

٩٦- ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ[2] وَلَنَجْزِيَنَّ[3] ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

وبعد أن بيَّن ﷻ أن ما عند الله من الفضل والمثوبة خير من كل ثمن، مهما عظُم قدره، بيَّن جلَّ شأنه العلة في ذلك بأن ما ادخره الله لعباده من الخير في الدنيا والآخرة، لا يفنى ولا ينقضي ولا يزول، بل هو متجدد لا ينفد؛ فخزائن الناس تنفد، وخزائن الله باقية، وكل ما عند الناس من عطاء هو من حطام الدنيا الزائل، وما عند الله من الرزق والثواب لا يزول، وهذا كقوله تعالى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى] وكقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]

فنعيم الدنيا يذهب عن الإنسان، أو يذهب الإنسان ويتركه، ونعيم الآخرة لا يفارق صاحبه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى، والله تعالى يثيب الذين تحملوا مشاق التكاليف الشرعية، ومنها الوفاء بالعهد، والصبر على السراء والضراء، يثيبهم الله تعالى أحسن من

---

(١) قال أبو بكر بن الخطيب: اسم صاحب الأرض: ربيعة بن عبدان، وقيل: عيدان، وهو المدعي، واسم المدعى عليه امرؤ القيس، وهو الذي همَّ أن يحلف، يُنْظَر: «زاد المسير» (٤/ ٤٨٧) وهو مروي عن ابن عباس عن أبي صالح.

(٢) وقف ابن كثير على (باق) بالياء، والباقون بحذفها وصلًا ووقفًا، ومعهم ابن كثير في الوصل.

(٣) قرأ ابن كثير وعاصم وأبو جعفر وابن عامر بخلف عنه بنون العظمة في (ولنجزين)، والباقون بالياء؛ لمناسبة (وماعند الله باق) ومعهم ابن عامر في الوجه الآخر.

أعمالهم، فيضاعف لهم الأجر والمثوبة على أدنى الأعمال الصالحة، كما يعطيهم أعظم منه على أعلى الأعمال الصالحة، فضلًا منه وكرمًا، وجزاء الصابرين على طاعة الله، وعما حرم الله، وعلى أقدار الله، جزاء بلا حدود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»**(١).

وكل ما في الدنيا من مال ومتاع فهو زائل، وما عند الله خير وأبقى.

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]

ثَوَابُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

٩٧-﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

ثم عمَّم ﷻ مضاعفة الأجر والجزاء لكل من ثبت على الإسلام وعمل صالحًا، بعد أن خص به الذين صبروا على الوفاء بالعهود في الآية السابقة، مبيِّنًا سبحانه أنه يستوي في ذلك الذَّكَر والأنثى، فيعطى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، مع استيفاء شروط ثلاثة لقبول العمل الصالح وهي:

أولًا: أن يكون العبد مؤمنًا سليم العقيدة، وهذا شرط لقبول الأعمال الصالحة.

ثانيًا: أن يكون هذا العمل خالصًا لله تعالى، لا يشوبه شرك.

ثالثًا: أن يكون العمل موافقًا لما جاء به محمد ﷺ، وهذا شرط آخر لقبول الأعمال.

والعمل الصالح يشمل جميع الطاعات، وقد جاء مقيَّدًا بالإيمان؛ ليخرج عمل غير المسلم فإن عمله مردود على صاحبه.

والرجل والمرأة يستويان في الجزاء، والتكاليف، والعقوبات، والمثوبات.

---

(١) «المسند» (١٩٦٩٧، ١٩٦٩٨) قال محققوه: حسن لغيره، وأخرجه الحاكم (٤/٣٠٨) وصححه، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠٣٣٧).

ثم بيَّن سبحانه الجزاء المترتب على العمل الصالح في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ﴾ وذلك في الدنيا، بأن يعيش العبد عيشة رغيدة، ويرزقه الله رزقًا حلالًا طيبًا؛ فالحياة الطيبة بأن يرزق الله العبد رزقًا حلالًا، فيأكل حلالًا، ويشرب حلالًا، ويلبس حلالًا، ويسكن حلالًا، وإن كان فقيرًا، أو معسرًا، فإنه يكون سعيدًا في دنياه قانعًا برزقه.

فالثروة عنصر واحد من عناصر السعادة في الدنيا، وقد تكون الثروة مصدرًا للشقاء.

وهناك عناصر عديدة يجد فيها المسلم السعادة؛ كالرضا، والقناعة، وإسعاد الآخرين، والبحث العلمي، والإحسان إلى الوالدين، وحسن تربية الأبناء، وصلة الرحم، ومحبة الناس، وقوة الرجاء في رضوان الله تعالى، ونشاط النفس، والقراءة المفيدة، والكتابة المفيدة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، والاعتقاد بأن ما هو فيه من أحوال أصلح له، فإن فيه اطمئنانًا وسعادة وعدم قلق.

١- في الحديث عبدالله عن ابن عمرو ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«قد أفلح من أسلم، ورُزق كَفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه»**[1].

٢- وفي لفظ عن فضالة بن عبيد: **«طوبى لمن هُدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا، وقنع»**[2].

٣- وكان النبي ﷺ يقول: **«اللهم قنِّعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف عليَّ كلَّ غائبةٍ لي بخير»**[3].

(١) رواه مسلم برقم (١٠٥٤) عن عبد الله بن يزيد المقرئ، وهو في الترمذي (٢٣٤٨) وابن حبان (٦٧٠) وابن ماجه (٤١٣٨) و رواه أحمد في «المسند» (٢/١٦٨) برقم (٦٥٧٢) عن عبد الله بن عمرو.

(٢) أخرجه الترمذي في «السنن» برقم (٢٣٤٩) من حديث فضالة بن عبيد، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وهو في «صحيح سنن الترمذي» برقم (١٩١٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٠٦) والتعليق الرغيب (٢/١١).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/٣٥٦) وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه وأقره الذهبي، وهو عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠٣٤٧) وابن خزيمة (٢٧٢٨) وضعَّفه الألباني.

فالرضى والقناعة فيهما السعادة؛ لأن القانع احتقر الدنيا فزالت همومها عنه.

وهناك السعادة بالعمل الصالح، والفرح به، وكذا الفرح بالاتصال بالله سبحانه في الصلوات، وفي ذكره سبحانه، وفي تلاوته للقرآن.

وهناك السعادة في الصلح بين الناس، وفي قضاء حوائج المسلمين، والسعادة في الصحة والأمن والاستقرار وعدم القلق، وهكذا: ألوان من السعادة يسعد بها المسلم في حياته.

ولذلك يقول بعض المفسرين: كل أمر فيه هدوء وراحة، فهو من العيش في الحياة الطيبة التي عناها الله في الآية.

أما غير المسلم فهو - وإن كان غنيًا - لا يلزم أن يكون سعيدًا بماله، فقد يكون شقيًا قلقًا، لا ينام الليل خوفًا على ماله وحساباته، ومصادره وموارده، وقد يجلب عليه ماله الشقاء والتعاسة.

فكم من ثريٍّ يعيش في قلق، واكتئاب، وصراع نفسي، وصحة عليلة، وقد يكون الثريُّ عبدًا صالحًا يرزقه الله مالًا، فينتفع بهذا المال، وينفقه في وجوه الخير، وينفع به إخوانه المسلمين، وهو من الحياة الطيبة له في الدنيا.

وكم من صاحب جاه يعيش في خوف على الجاه والكرسيّ، وكم من حاكم يخشى على نفسه من الرعية، فلا يمكنه أن يتحرك إلا بالحراس، وتسخير أعداد من البشر لحمايته، وكل ذلك من الشقاء والتعاسة.

أما ثواب الآخرة للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، فإن الله تعالى يوفيهم أجورهم، ويثيبهم في أخراهم بأحسن ما عملوا في الدنيا، وهذا وعد من الله تعالى لهم بدخول الجنة.

ذكر الطبري عن أبي صالح أنه قال: نزلت هذه الآية؛ بسبب قوم من أهل الملل تفاخروا، وقال كل منهم: ملَّتي أفضل، فعرَّفهم الله تعالى في هذه الآية أفضل الملل.

قال الحسن: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة؛ لأنها حياة بلا موت، وغنى بلا فقر، وصحة بلا سقم، وسعادة بلا شقاوة[1].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يعطى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعى بحسنات ما عمل بها لله في**

(١) «حاشية الصاوي» على «الجلالين» (٢/ ٣٢٧).

الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها»[١].

ومن مات من المسلمين الذين عملوا الصالحات، وكان يعيش في دنياه في شظف من العيش، فإن الله تعالى يعوضه عن عمله ما فاته في الدنيا.

كما صح عن خبَّاب بن الأرت ﷺ قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي بذلك وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنَّا من مضى لم يأكل من أجره شيئًا، كان منهم مصعب بن عمير قُتل يوم أحد، فلم يترك إلا نمِرة كنا إذا غطَّينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غُطِّي بها رجلاه خرج رأسه، ومنَّا من أينعتْ له ثمرتُه فهو يَهْدُبُها.

الاستِعَاذَةُ عِنْدَ بَدْءِ التِّلَاوَةِ

٩٨- ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ[٢] ٱلْقُرْءَانَ[٣] فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾

بعد أن ذكر ﷻ أن هذا الكتاب تبيانا لكل شيء، وذكر أمهات الفضائل، وأصول الرذائل، أمر عباده أنهم إذا شرعوا في تلاوة هذا الكتاب العزيز، المشتمل على أصول التشريع، والعبادة، والعقيدة، أن يبدؤوا بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

ومن عناصر القرآن المكي، الحديث عن: الوحي، والرسالة.

والآيات التالية تتحدث إلى جوار الاستعاذة عند بدء تلاوة القرآن الكريم، عن شبهتين من شبه الكفار والملحدين:

الشبهة الأولى: النسخ في القرآن الكريم.

والشبهة الثانية: دعوى أن هذا القرآن علَّمه شخص لرسول الله ﷺ.

والاستعاذة عند بدء تلاوة القرآن الكريم هي تمهيد وتهيئة للجو الذي تتلى فيه آيات القرآن الكريم، وتطهير له من وساوس الشيطان ونزغاته.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٠٨).

(٢) قرأ أبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر ومعهما حمزة وقفًا بإبدال همزة (قرأت) ألفًا، والباقون بهمزة ساكنة.

(٣) قرأ ابن كثير ومثله حمزة عند الوقف بنقل حركة همزة (القرآن) إلى ما قبلها، والباقون بتحقيق الهمزة وإسكان الراء.

فالمسلم يلجأ إلى الله ﷻ، ويستعيذ به، ويعتصم بجنابه، ويلوذ بحماه، أن يوسوس له الشيطان في تلاوته فيلبِّس عليه، أو يَخْلط عليه أمره، فتشتبه عليه آيات القرآن الكريم، أو يصرفه الشيطان عن تدبر معانيه وتأمل آياته، أو يصرفه عن العمل بما فيه.

وهكذا يأمر الله المسلم أن يستعيذ به ﷻ من نزغات الشيطان ووساوسه عند بدء تلاوة القرآن الكريم.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: إذا أردت أن تبدأ تلاوة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم؛ فالاستعاذة لأول القراءة وليست لآخرها، والوضوء لأول الصلاة وليس لانتهائها كما قال تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

أي: إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا..

والرجيم: هو المرجوم المطرود من رحمة الله تعالى، والخطاب موجَّه لرسول الله ﷺ، وموجَّه لجميع المسلمين من باب أولى.

ومن أفضل الأعمال الصالحة أن يستعيذ المسلم بالله تعالى من الشيطان المطرود من رحمة الله تعالى، عند بدئه التلاوة، وفي الركعة الأولى من الصلاة بعد دعاء الاستفتاح.

عن أبي سعيد ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح الصلاة قال: «**سبحانك اللهمَّ وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدُّك، ولا إله غيرك**»، ثم يقول لا إله إلا الله ثلاثا، ثم يقول: الله أكبر كبيرا ثلاثا: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه..**»[1].

---

(١) صحيح «سنن أبي داود» (٧٠١) (٧٠٢) والبيهقي (٢/ ٣٥)، ومسند أحمد (١١٤٧٣) قال محققوه: وإسناده ضعيف، لأن جعفر بن سليمان متكلّم فيه، وأخرجه عبدالرزاق في المصنف (٢٥٥٤) وأبو داود (٧٧٥) والترمذي (٢٤٢) وابن خزيمة (٤٦٧) وأبو يعلى (١١٠٨) وألفاظهم متقاربة قال الترمذي: وقد تُكلّم في إسناد حديث أبي سعيد، وقال أحمد: لا يصح هذا الحديث وضعفه النووي في المجموع (٣/ ٢٧٨) وإلى (لا إله غيرك) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٢٣٢) والنسائي في المجتبى (٢/ ١٣٢) وفي الكبرى (٩٧٣) وابن ماجه (٨٠٤) (انظر تحقيق المسند (١٨/ ٥١) قلت: وقد صح الحديث عن عائشة كما في صحيح ابن ماجه (٦٥٧) وأبي داود (٧٤٩) إلى (غيرك) فقط، وابن أبي شيبة (١/ ٢٣٢) والنسائي في المجتبى (٢/ ١٣٢)

ويستعيذ المسلم بالله تعالى من الشيطان ندبًا عندما يبدأ أي عمل صالح.

وظاهر القرآن الكريم يفيد أن الأمر بالاستعاذة عند بدء التلاوة للوجوب؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ وهذا الأمر لا صارف له عن الوجوب، ولم يثبت أن النبي ﷺ تركها عند بدء التلاوة.

وأكثر أهل العلم على أن الاستعاذة عند بدء التلاوة للندب والاستحباب.

وكان النبي ﷺ يعلِّم الأعرابي الصلاة، حين سأله عن كيفيتها، فلم يذكر له الاستعاذة؛ لأنه لم يكن يعلّمه تلاوة القرآن.

ولعل القول الأول هو الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون].

فإذا بدأ المسلم القراءة من أول السورة فإنه يستعيذ بالله ويبسمل حتمًا، ويستعيذ بالله كذلك في الركعة الأولى من صلاته سرًّا.

ويستعيذ بالله جهرًا في القراءة الجهرية في غير الصلاة، ويستعيذ سرًّا في القراءة السرية.

فإذا بدأ القارئ من أواسط السورة، فله أن يبسمل بعد الاستعاذة، وله أن لا يبسمل، وإذا ابتدأ بآية يعود فيها الضمير على الله تعالى أو على نبيه ﷺ، أو فيها نعيم الجنة ونحو ذلك، فمن الأدب أن يبسمل بعد الاستعاذة حتى لا يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (هو الذي خلقكم) أو (الله لا إله إلا هو).

وله أن يبسمل أيضًا اختيارًا في وسط سورة براءة، ولكنه لا يبسمل في أولها باتفاق.

واللفظ المشروع للاستعاذة، هو ما نطقت به الآية: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وقد تضافرت الروايات عن رسول الله ﷺ بهذه الصيغة.

وما جاء في حديث الترمذي وغيره عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كان رسول الله إذا قام من الليل يقول: «**أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه**»[1].

فهذا من باب التعوذ والتحصن، وليس من باب الاستعاذة لأجل قراءة القرآن.

---

(١) ذكر ذلك ابن عطية في تفسيره والحديث في «صحيح الترمذي» (٢٠١) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٨٠٤) و(٦٥٨) عن ابن مسعود بنحوه.

وورد أن ابن مسعود ﷺ قرأ على النبي ﷺ فقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال له النبي ﷺ: **«يابن أم عبد، قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأني جبريل»**[١].

والحكمة في مشروعية الاستعاذة عند بدء القراءة: أنه لما كان الشيطان مسلَّطًا على الإنسان، ساعيًا في إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم، وهو مصدر الضلال، ويقف للإنسان بالمرصاد، فيثير في نفسه ألوانًا من الشكوك؛ ليفوِّت عليه الانتفاع بهدْي القرآن، كانت الاستعاذة بالله تعالى مانعة من ذلك، فلذلك أَمَر الله رسوله بالاستعاذة، وهو غير محتاج إليها؛ لأنه ﷺ معصوم من فتنته، وقد أعان الله رسوله على شيطانه فأسلم، وأصبح زمامه بيد النبي ﷺ فلا يأمره إلا بخير.

وأَمَر المؤمنين -من باب أولى- بالاستعاذة عند بدء القراءة؛ حتى تكون التلاوة مصونة من وساوس الشيطان.

وفي حديث جبير بن مطعم ﷺ عند أبي داود وغيره أنه رأى النبي ﷺ صلى صلاة فقال: **«الله أكبر كبيرًا، ثلاثًا، والحمد لله كثيرًا، ثلاثًا، وسبحان الله بكرة وأصيلًا، ثلاثًا، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من نفخته، ونفثه، وهمزته»**[٢].

ونفخة الشيطان: هي الكبر، **ونفثه**: السحر، **وهمزه**: الموتة بالجنون.

ومعنى **الاستعاذة**: الاعتصام بالله تعالى، والالتجاء إليه سبحانه من شر الشيطان ووسوسته.

والشيطان هو إبليس، أبو الجن، ويطلق على جميع المرَدَة من الشياطين؛ لأن لهم قدرة على إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم بإذن الله تعالى وقدرته؛ لابتلاء الإنسان واختباره، والاستعاذة تَصْرِفُ كيد الشيطان، وهي تتضمن التوكل على الله تعالى والانقطاع إليه.

---

(١) رواه الثعلبي والواحدي كما في «تفسير الألوسي» (١٤/ ٢٢٨).

(٢) «سنن أبي داود» (٧٦٤)، ومسند أحمد (١٦٧٣٩، ١٦٧٦، ١٦٧٤٠) قال محققوه: وهو حديث حسن لغيره، لضعف الراوي عن نافع بن جبير، فقد اختلف في اسمه، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٥٦٩) وفي المسند عن عبد الله بن عمر (٤٦٢٧) نحوه بإسناد صحيح.

نَفْىُ وِلَايَةِ الشَّيْطَانِ وَإِثْبَاتِهَا

٩٩، ١٠٠- ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

ثم إن الشيطان وليٌّ لغير المؤمن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أما المؤمن الحق فلا سلطان له عليه، كما في هذه الآية، وقد بيَّن الله ﷻ أن الشيطان ليس له تسلط، ولا تغلّب، ولا حجة، ولا قهر، على من يتوافر فيهم **شرطان:**

الشرط الأول: هو الإيمان الكامل بالله تعالى.

الشرط الثاني: هو حُسْن التوكل على الله سبحانه؛ فالشيطان ليس له سلطان على المؤمنين المخلصين لله تعالى في إيمانهم، المعتمدين عليه في جميع أحوالهم، المتوكلين عليه حق توكله.

والإيمان هو المبدأ الأصيل؛ لتوهين سلطان الشيطان في نفس المؤمن، فإذا انضم إليه التوكل على الله تعالى اندفع سلطان الشيطان عن المؤمن المتوكل؛ فوسوسة الشيطان ليس لها أثر على المؤمنين الصادقين، وهم الذين أخلصوا لله جلَّ شأنه، فحسُن إيمانهم، وحسُن توكُّلهم على الله سبحانه؛ فليس للشيطان عليهم سبيل في إغوائهم أو إضلالهم، أو التأثير فيهم بوسوسة، أو نزغات، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر].

وهم الذين قال فيهم إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر].

وقال تعالى عنهم: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [سبأ: ٢١].

وقال الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء].

فهذا هو الجانب الأول، وهو نفي ولاية الشيطان وسلطانه على من أخلص إيمانه وتوكل على الله.

أما غير المخلصين من أتباع الشيطان وهم الذين يتَّبعون أهواءهم، ويسيرون في ركب الشيطان ويتأثرون به، فإن منهم أصحاب الشرايع المخالفة لدين الإسلام، وهم من الذين اقتفوا أثره، فجعلوه معينًا لهم، ولمَّا أطاعوه صرفهم عن الدين الحق، وعن الطريق الصحيح.

وهم بسبب ولايتهم له مشركون بالله سبحانه في عقيدتهم وعبادتهم، وهذا هو الجانب الآخر، وهو إثبات ولاية الشيطان لمن اتخذوه وليا وكانوا من حزبه.

وفي وقتنا المعاصر فريق من الناس يسمون أنفسهم: عُبّاد الشيطان؛ لأنهم يعبدون الشيطان نفسه، ويسمونه: إله الشر، وهم يداهنونه، ويتخلصون منه بطاعته وإرضائه؛ ما دام هو الذي يأمرهم بالشر - حسب زعمهم هذا - كما أشركه أسلافهم في عبادتهم له من دون الله تعالى.

النَّسْخُ فِي الْقُرْآنِ

١٠١- ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ[1] قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

١- من أهم ما تعرضت له سورة النحل بيان أن القرآن منزل من عند الله، فكان في بداية السورة ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [٢].

٢- ثم أتبعت ذلك بطعن المكذبين في القرآن ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

٣- ثم بيَّنت السورة أن القرآن الكريم فيه بيان ما اختلف فيه أهل الكتاب.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤].

٤- ثم أشارت السورة إلى أن القرآن قد جمع أصول الشريعة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [٨٩].

٥- ثم نبَّهت السورة على تميُّز قراءة القرآن عن غيره من سائر الكلام، بوجوب بدء تلاوته بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيف الزاي من (ينزل) مضارع أنزل، والباقون بتشديدها مضارع نزَّل.

شبهتان للمكذبين بالرسالة:

ثم عرضت السورة إلى شبهتين من شبهات المكذبين للقرآن الكريم في هذه الآيات الثلاث، وهذا مبني على أن المراد بلفظ (آية) آيات القرآن وليست الآيات الخارقة التي يطلبها المكذبون، وهو ما عليه جمهور المفسرين بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية وهي تصف القرآن بأنه ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

الشُّبْهَةُ الأُولَى: شُبْهَةُ النَّسْخِ[1]

أما الشبهة الأولى من المكذبين للقرآن في كل زمان ومكان فهي شبهة النسخ في القرآن الكريم، وقد جاءت هذه الشبهة في آية سورة البقرة ١٠٦ وفي هذه السورة، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ أي: أن الله تعالى هو الخالق للعباد، وهو أعلم بما يصلح شأنهم بما ينزله من الأحكام في الأوقات المختلفة، وأعلم بما يوافق أحوالهم، ومن ذلك أنه تعالى يبدل آية بآية، وحكمًا بحكم بما يتناسب مع أحوال العباد، فإذا رآى المكذبون ذلك قدحوا في القرآن وفي رسول الإسلام.

وهذه الجملة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ جملة معترضة في الآية بين شرط (إذا)، وجوابها؛ لتعليم المسلمين أن الله تعالى أعلم بما ينزل.

ثم بيَّن تعالى موقف المكذبين للقرآن عند تبديل آية بآية، أو حكمًا بحكم، فقد كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله لم يتغير ولم يتبدل، وإنما هو افتراء محمد ﷺ؛ حيث يصوب ما أخطأ، فقد قالوا لرسول الله ﷺ: أنت كاذب مختلق على الله ما لم يقلْه، فأنت مفتر، أي: أنت تختلق القرآن، وتكذب على الله تعالى!!

ثم بيَّن جلَّ شأنه أن أكثرهم لا يعلمون الحكمة، والفائدة من هذا النسخ، وأنه سبحانه أعلم بما يَصْلُح للعباد فترة من الوقت، ثم ما يَصلُح لهم طول الوقت بعد ذلك، فلا علم لهم بشرع الله وأحكامه، ولا علم لهم بما يُصلِح أحوال العباد.

ومصلحة الأمس قد تكون مفسدة اليوم؛ فالطبيب يصف علاجًا للمريض اليوم، وينهاه

---

(١) يراجع الموضوع أيضًا في تفسير الآية (١٠٦) من سورة البقرة.

عنه غدًا، أو يأمر له بغيره، والله سبحانه أعلم بالمصالح والمفاسد.

وقد كان القرآن الكريم ينزل بتشريع، ويستمر هذا التشريع فترة من الوقت، ثم ينزل تشريعًا آخر، ولو أدرك الطاعنون في القرآن هذه المعاني، ما اتخذوا من النسخ شبهة ومادة يلمزون بها القرآن.

وهكذا: كان المشركون يقولون: إن محمدًا يَسْخَرُ بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدًا، ولا يقول هذا إلا من عند نفسه، فأنزل الله سبحانه هذه الآية[1].

والنسخ في القرآن ثابت بالكتاب، والسُّنَّة، والإجماع، قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقد اقتضت حكمة الله أن يتدرج مع خلقه في التربية والتشريع، فينزل سبحانه حُكْمًا على لسان رسول الله ﷺ عن طريق الوحي، وهو جلَّ شأنه يعلم أن هذا الحُكْم لفترة معيَّنة، وأن مصلحته لزمن معين، فإذا انتهى هذا الوقت وانتهت هذه الصلاحية ينزِّل الله حُكْمًا آخر، ينسخ به الحكم الأول.

وهذا يشبه ما يطرأ للإنسان من الثراء بعد الفقر، أو المرض بعد الصحة، وعكس ذلك، كأن يقول الطبيب للمريض: خذ هذا العلاج المكثف لمدة أسبوع، أو شهر، أو ثلاثة أشهر، أو سنة.

فإذا استقامت الصحة، وذهبت العلة، وصار الجسد في وضعه الطبيعي فإن الطبيب ينصحه بأن يستمر على طعام أو غذاء معين، أو على علاج أخف من العلاج السابق، ولله المثل الأعلى.

والله ﷻ أعلم بما يصلح شؤون عباده، فينزل حُكْمًا، ثم ينسخه بعد ذلك بِحُكْم آخر أثقل، أو أخف منه، أي: أهون، أو أشد، بما يناسب أحوال الناس ومراحل نُضجهم، فالطفل يبدأ بالرضاعة، ثم يتدرج في الأكل إلى أن يصل إلى منتهاه، وهكذا الإنسان في تلقى الشرائع والأحكام.

---

(١) جاء ذلك عن ابن عباس كما في «التفسير الكبير» للفخر الرازي (٢٠/١١٦) و«تفسير ابن عاشور» (١٤/ ٢٨١) و«زاد المسير» (٤/ ٩١).

ونسْخ القرآن بالقرآن أجمع عليه جمهور أهل العلم، كما أجمعوا على جواز نسخ السُّنَّة بالسُّنَّة المتواترة، واختلفوا في نسخ السُّنَّة المتواترة بسُنَّة الآحاد، واختلفوا أيضًا في جواز نسخ السُّنَّة بالقرآن، فهذه أربع حالات للنسخ، **ونسخ القرآن بالقرآن له ثلاث حالات:**

الحالة الأولى: نسخ التلاوة والحكم معًا عن المكلفين:

كما في صحيح مسلم وغيره من حديث عائشة ﵂ قالت: كان فيما أنزل: عشر رضعات معلومات يُحرِّمْن، فنسخن بخمس رضعات[1].

أي: أن هذا الحكم، وهو تحريم الرضاع بعشر رضعات معلومات، نُسخ بخمس رضعات، ونسخت التلاوة، أي: الآية المتعلقة بذلك، فهي غير موجودة في المصحف، فهذا نسخ للحكم ونسخ للتلاوة معًا.

الحالة الثانية: نسخ التلاوة عن المكلفين وبقاء الحكم:

كنسخ آية سورة النور: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم)، قال عمر لما أُنزلتْ أتيت رُسول الله ﷺ فقلت: أكتبْنيها، قال شعبة: فكأنه كره ذلك، فقال عمر: ألا ترى أن الشيخ إذا لم يُحْصَن جُلِد وأن الشاب إذا زنى وقد أحْصِن رُجم[2].

فإن هذه الآية قد نُسخت، وبقي الحكم ثابتًا بالسُّنَّة الفعلية المتواترة عن رسول الله ﷺ، وهو رجم الزاني المحصن حتى الموت، فهو ثابت بوحي السنة، وليس بنص قرآني، لأن آيات القرآن لا تثبت إلا بالتواتر، وهذا الحديث من أخبار الآحاد[3].

الحالة الثالثة: نسخ الحكم عن المكلفين وبقاء التلاوة:

وهذا معظم ما في القرآن الكريم، وذلك مثل نسخ حُكْمِ تقديم الصدقة بين يدي

---

(١) مسلم (١٤٥٢) وأبو داود (٢٠٦٢) وابن ماجه (١٩٤٢) والترمذي (١١٥٠).

(٢) وقد جاء ذلك عن زيد بن ثابت، وعمر بن الخطاب، وعن أبي أمامة بن سهل كما في «سنن النسائي الكبرى» (٧١٠٧، ٧١٠٨) و«المسند» (٢١٥٩٦) والدارمي (٢٣٢٧) و«التحفة» (٣٧٣٧، ١٨٣٦٥)، قال محققو المسند: رجاله ثقات رجال الشيخين غير كثير بن الصلت فقد روى له النسائي وهو ثقة.

(٣) أنظر أقوال أهل العلم عند هذا الحديث في تحقيق المسند (٣٥/ ٤٧٢) وما بعدها.

التحدث إلى رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: إذا أردتم التحدث إليه ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ [المجادلة: ١٢]

فنُسِخَتْ هذه الآية، أي: نُسخ حُكْمها والعمل بها، وهو تقديم الصدقة عند إرادة مناجاة الرسول ﷺ بالآية التي بعدها، وفيها تشريع الإكثار من الأعمال الصالحة بدلًا من الصدقة ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ يعني: خفف الله عنكم، ورفع هذا الحكم ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [المجادلة: ١٣] فنسخَ الله تقديم الصدقة، بهذه الأعمال الصالحة، وهي إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله.

ونسْخ الأحكام كان بعد الهجرة؛ حيث شُرعت الأحكام التشريعية، وهو قليل جدًّا في مكة، ومنه نسخ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] بقوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ [الحجر].

أما نسخ التلاوة، فلم يقع في مكة، بل كان في المدينة.

والنسخ في الأحكام هو مقتضى مصلحة العباد المناسبة لِطوْر حياتهم، والله أعلم بما يصلح شؤون عباده، فهذا التبديل من الله تعالى والرسول ﷺ هو المبلِّغ عن الله ﷻ أحكامه وتشريعاته، والذين يقدحون في القرآن بسبب النسخ جهال لا علم لهم، وقدح الجاهل لا عبرة به، لأن القدح في الشيء فرع عن العلم به، وهؤلاء لا علم لهم.

الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ وَلَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ

١٠٢-﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ[1] مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾

ثم أجاب الله سبحانه الذين قالوا للنبي ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾ أي: مختلق لهذا القرآن عن طريق التلقين للنبي ﷺ بما ينقض دعواهم، ويبطلها بأن هذا القرآن ليس مختلقًا من عند محمد ﷺ، بل نزل به جبريل الأمين من عند الله تعالى بالصدق والعدل، وهو مشتمل على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه.

---

(١) سكَّن دال (القدس) ابن كثير، وضمها غيره.

وروح القدس هو جبريل، أي: الروح المقدس، وهو الطاهر من كل ما لا يليق، والمطهر من أدناس البشرية، والروح تحيى بها الأجسام، وجبريل يحمل الرسالة الإلهية التي تحى بها القلوب، فجبريل يشبه الروح الحقيقية التي هي مادة الحياة للبشر، **والقدس** معناه: الطهر، والبركة.

وقد جاء نزول جبريل بالقرآن من عند الله تعالى في آيات كثيرة منها قوله تعالى:

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة].

ثم بيَّن سبحانه وظيفة القرآن بالنسبة للبشر، فذكر أوصافًا ثلاثة للقرآن الكريم:

الوصف الأول: أنه تثبيت لقلوب المؤمنين؛ حتى يزدادوا إيمانًا ورسوخًا ويقينًا بربهم، وصدق نبيهم، فقد نزل به جبريل بالحق تثبيتًا للمؤمنين شيئا فشيئًا حتى يصل إلى قلوبهم فيكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي.

والوصف الثاني: أنه كتاب هداية للبشر من الضلال يخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان، ويبين لهم الهدى من الضلال، والحق من الباطل.

والوصف الثالث: أنه بشارة طيبة لمن أسلم، وخضع لله رب العالمين، فآمن به، واستقام على منهج الله تعالى، فإن له أجرا حسنا يمكث فيه أبدًا.

أما أهل الزيغ، والضلال، والكفر، والإلحاد فإن القرآن لا يثبِّتهم، ولا يهديهم، ولا يبشِّرهم؛ لأنه هدى ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا، فهو هدى للمتقين لا للكفار.

الشُّبْهَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُ المكَذِّبِينَ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ بَشَرٌ

١٠٣-﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ[1] إِلَيْهِ

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بفتح الياء والحاء من (يلحدون) مضارع لحد، والباقون بضم الياء وكسر الحاء مضارع ألحد، وهما بمعنى: الميل.

﴿أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

وهذه مقولة متجددة من أهل الكفر والإلحاد، فقد عُقد في روسيا في عهد الاشتراكية البائدة، عام أربعة وخمسين بعد التسع مئة والألف من الميلاد مؤتمر استشراقي، وقرر المستشرقون في هذا المؤتمر، أن القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد، فهم يستكثرون أن يكون القرآن من عمل شخص واحد، وإنما هو في زعمهم عمل مجموعة كبيرة من الناس، وقرروا أيضًا أنه لا يمكن أن يكون هذا القرآن قد خرج من جزيرة العرب.

هذا: ومعجزة القرآن في أخباره، وأحكامه، وأسلوبه، وفصاحته، وبلاغته، ولا يمكن لهذه الفصاحة والبلاغة التي تحدى الله بها فصحاء العرب، وبلغاءهم، أن يأتي بها لسان أعجمي؛ إذ لا يمكن للأعجمي أن يذكُر اسمه صحيحًا بالحروف العربية، وقد ورد في تسمية هذا الأعجمي، الذي زعموا أنه يعلِّم محمدًا القرآن، نحو تسعة أقوال، منها:

١- أن اسمه: (يعيش)، كان عبدًا نصرانيًّا روميًّا يقرأ التوراة، وكان غلامًا لبني المغيرة[١].

٢- وقيل: هو غلام، يقال له: (بلعام)، كان نصرانيًّا، وكان يقرأ التوراة، وكان حدادًا في مكة، وكان النبي ﷺ يدخل عليه ويخرج، يعلمه شيئًا من آداب النبوة، فقالوا: إنه يعلم محمدًا القرآن[٢].

٣- وقالوا: إن رجلين يقال لهما: (يسار، وجبر) عبدان كانا يصنعان السيوف بمكة، وكان لهما علم بالإنجيل، وكان النبي ﷺ إذا مرَّ بهما وَقَف واستمع، فقال المشركون: إنما يتعلم منهما، فنزلت الآية[٣].

٤- وقال مجاهد في قول كفار قريش: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ أي: إنما يعلِّم محمدًا (عبد لابن الحضرمي)، وهو صاحب كتب[٤] أي: لسانه أعجمي، وقيل غير ذلك، وكله كلام ساقط، وقد جاءت الآثار مبينة لهذه الأقوال الأربعة:

---

(١) قاله عكرمة كما في «تفسير الطبري» (١٤/ ٣٦٥).

(٢) يُنْظَر: الطبري (١٤/ ٣٦٥) وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس.

(٣) كما في «تفسير مجاهد» ص (٤٢٥) والطبري (١٤/ ٣٦٧) والبيهقي في «الشعب» (١٣٨).

(٤) أخرجه آدم بن أبي إياس بسند صحيح عن مجاهد، كما في تفسيره ص (٤٢٦) وأخرج الطبري نحوه بسند حسن عن قتادة (١٤/ ٣٦٥) وابن أبي حاتم، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٧، ١٤٦) والحاكم (٢/ ٣٥٧).

١- أخرج الطبري بسنده عن عبيد الله بن مسلم قال: كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر -وهي قرية في العراق- اسم أحدهما: يسار، والآخر: جبر، وكانا يقرآن كتبًا لهما بلسانهما، وكان رسول الله ﷺ يمرُّ بهما فيسمع قراءتهما، وكان المشركون يقولون: يتعلم منهما، فأنزل الله الآية فكذَّبهم[(١)].

٢- وقال ابن عباس ﷺ: كان في مكة غلام أعجمي لبعض قريش، يقال له: بلعام، فكان رسول الله ﷺ يكلمه، ويعلمه الإسلام، فقالت قريش: هذا يعلم محمدًا من جهة الأعاجم، فنزلت الآية بسببه، وكان هذا الغلام عبدًا لرجل من قريش، وكان أعجمي اللسان، وكان الرسول ﷺ يدخل عليه، ويخرج من عنده يعلمه الإسلام[(٢)].

٣- وقال عكرمة، وسفيان، وقتادة: كان اسم الغلام يعيش[(٣)].

٤- وقال ابن إسحاق: كان رسول الله ﷺ فيما بلغني -كثيرًا ما يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له: جبر، عبد لبعض بني الحضرمي، فكانوا يقولون: والله ما يعلِّم محمدًا كثيرًا مما يأتي به إلا جبر النصراني غلام بني الحضرمي، فأنزل الله الآية[(٤)].

وكان هذا الغلام يصنع السيوف بمكة، وكان مولى لعامر بن الحضرمي، وكان هذا الغلام قد أظهر الإسلام.

ولم يصرح القرآن باسم هذا الغلام؛ لأن خطأ القائلين يدور على نسبة تعليم النبي ﷺ لأحد من البشر، كائنًا من كان، والله جلَّ شأنه يبيِّن أن هذا اللسان الذي يذكُرونه ليس بعربي، فكيف له أن يأتي بهذا القرآن، وما فيه من فصاحة وبلاغة، والقرآن لسان عربي مبين؟! ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون فيه من التناقض والفساد ما يوجب رده.

ثم إذا نظرنا إلى التوراة والإنجيل، ونظرنا إلى القرآن، نجد فرقًا واضحًا، فقد دخل

---

(١) «تفسير الطبري» (١٤/ ١٢٠).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٤٢١) و«تفسير الطبري» (١٤/ ١١٩) و«زاد المسير» (٤٩٦٤).

(٣) «تفسير الطبري» (١٤/ ١١٩) وابن كثير (٤/ ٦٤).

(٤) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٩٣).

التحريف إليهما من بعد موسى وعيسى عليهما السلام، وإننا لنجد التوراة المحرفة تقوم على التجسيد لله ﷻ في كثير من مواطنها، وتقوم على وصف رب العزة بأوصاف لا تليق بجلاله، فيصفونه -وحاشاه- بأنه يندم ويجهل، ويلعب مع الحوت، ويغضب، وغير ذلك، تعالى الله عما يشركون ويقولون، فالله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فأين ما جاء في كتبهم المحرفة مما يعرفه هؤلاء الغلمان الذين أشاروا إليهم، بما جاء في القرآن الكريم؟ هل القرآن يتضمن شيئًا من الأوصاف السابقة ونحوها، حتى يقال: إن القرآن اقتُبس، أو أُخذ عن التوراة، أو الإنجيل؟ إنها دعاوى كاذبة تحمل بطلانها في ثناياها، فالله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه].

والقرآن الكريم يقوم على وحدانية الله سبحانه، كما جاء في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

فماذا يقول النصارى في أناجيلهم تجاه هذه الوحدانية؟ إنه اختلاف جوهري في العقيدة؛ حيث يقولون عن عبد من ملائكة الله، وهو جبريل الأمين، الروح القدس، - والروح القدس يطلق على جبريل أو على مريم - يقولون: إنه جزء من الإله، المكون من الأب، والابن، والروح القدس، ويقولون عن عبد من رسل الله، وهو عيسى ﵇: إنه ابن الله، فسمَّوه بالإله الابن، وأما الله ﷻ الخالق القادر، فسمَّوه بالإله الأب، وقالوا عن الكل: واحد، الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، والذات مكونة من هذه الثلاثة، ولا مانع عندهم أن يكون الابن هو الرب، وهو الإله.

فهل القرآن الكريم تضمَّن شيئًا من هذه الخرافات؟ حتى يقال: إن محمدًا ﷺ قد أخذ القرآن عمن عنده علم سابق بالوحي المنزل على رسل الله؟

إن القرآن الكريم جاء بالوحدانية المطلقة ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم] ولذا فإن الله تعالى يلقن رسوله الجواب كما في الآية السابقة: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

وروح القدس هو جبريل، سُمِّي كذلك نسبة إلى الروح المقدسة، أي: المطهرة من

دنس الأخطاء التي يرتكبها البشر، فجبريل عليه السلام لا يخون ولا يغفَل، وهو يبلِّغ الرسالة عن ربه، وقد نزل بهذا القرآن على محمد ﷺ، كما نزل بالتوراة على موسى، والإنجيل على عيسى.

ومعنى الآية: ولقد علمنا علمًا مؤكدًا، مقالة المشركين الشنيعة ودعواهم أن النبي ﷺ تلقى هذا القرآن عن أحد من البشر من بني آدم، وقد كذبوا فيما زعموه؛ فإن لسان الذي نسبوا إليه هذه المقالة أعجمي، لا يُفصِح في نطقه، وهذا القرآن عربي في غاية الفصاحة والبيان، فكيف يمكن لصاحب اللسان الأعجمي أن يعلِّم محمدًا هذا القرآن العربي المبين؟ ومن أين للأعجمي أن يتذوق بلاغة هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه؟!!

وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ

١٠٤- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ[1] ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

ثم يعلل القرآن مقولة الكفار الضالة -أن الرسول ﷺ يعلمه بشر- بأن هذا القول يصدر مِمَّن عَلِمَ الله أن الإيمان لا يدخل قلوبهم؛ بسبب زيغهم وعنادهم، وإيثارهم الضلال على الهدى، وإعراضهم عن آيات الله، فالذين لا يصدقون بالقرآن، لا يوفقهم الله لإصابة الحق، ولا يهديهم إلى طريق النجاة والسعادة، وهذا تهديد ووعيد لهم على كفرهم وافترائهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣].

فوصفهم سبحانه بثلاثة أوصاف: الكذب، وشدة الكفر، وعدم هدايتهم للإيمان؛ لأن جبلَّتهم تنافي الإيمان، والكافر غير مُعَرَّضٍ للإيمان، ولذا فإن الهداية لا تتكون في قلبه.

ثم بيَّن سبحانه في ختام الآية أن الكفار معذَّبون في الآخرة بعذاب مؤلم موجع؛ بسبب إصرارهم على الباطل، وعدم استجابتهم لداعي الحق.

وهذا الصنف من البشر قد علم الله منهم في الأزل أنهم لن يؤمنوا، فحقت عليهم كلمة العذاب، ووجبت عليهم قبل وجودهم في هذه الحياة، وقبل مرورهم بمرحلة التطبيق العملي؛ لعدم إيمانهم في الدنيا.

---

(١) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم من (لا يهديهم الله)، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضمهما، وقرأ الباقون بكسر الهاء وضم الميم، وضم هاء (يهديهم) الثانية يعقوب وقفًا.

ولعل هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس]

وهم الذين زاغت قلوبهم أوَّلًا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]

وهم الذين فسقوا، وخرجوا عن طاعة الله أوَّلًا، فأضلهم الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج].

وهذا الصنف من البشر يختلف عن الكفار الذين علم الله منهم أنهم سيتخلَّوْن عن كفرهم ويدخلون في الإسلام، فهم غير داخلين في الآية.

ومن الأمثلة على ذلك: أبو جهل، وأبو سفيان؛ فكلاهما كان كافرًا، بل إن أبا سفيان كان أطول مدة في الكفر من أبي جهل، ومع هذا فإن أبا جهل هلك كافرًا، ودخل أبو سفيان في الإسلام، وشرفه الله بمصاهرته للنبي ﷺ.

وهذا الوليد بن المغيرة، وعمر بن الخطاب، كانا كافرين، يمنعان الناس من الدخول في الإسلام، وكان الوليد يختلق أساليب الطعن في القرآن، وكان عمر ﷺ يصدُّ الناس عن الدخول في الإسلام علنًا، فعزَّ الإسلام بعُمر ﷺ ، وحُرم الوليد الهداية.

فتبيَّن بهذا أن أبا جهل والوليد ممن علم الله أنهم لا يؤمنون بآياته، ولا يهتدون بهداه.

افْتِرَاءُ الْكَذِبِ لَا يَصْدُرُ إِلَّا عَنْ كَافِرٍ

١٠٥-﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

ثم يأتي الرد الآخر من الله تعالى على قول المشركين للرسول ﷺ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ حيث بيَّن سبحانه أن افتراء الكذب لا يصدر إلا عن الكافرين، وأن المؤمنين بوحدانية الله تعالى، المصدقين برسول الله ﷺ، وباليوم الآخر، وما فيه من: بعث، وحشر، ونشر، وحساب، وجزاء على الأعمال، هؤلاء المؤمنون لا يفترون الكذب، ولا يختلقونه؛ لأن إيمانهم الخالص يجعلهم يخافون عقاب الله تعالى، ويرجون ثوابه، على عكس الكافرين.

فإذا كان هذا شأن المؤمنين فما بالكم بالرسول ﷺ، وهو المؤمن الأول، المبلِّغ عن

ربه وحيه، المصطفى المختار؟! إنه من المحال أن يكذب على الله تعالى، ويقول عليه ما لم يقله، فالذين يفترون الكذب على الله لا يتوقعون ثوابًا ولا عقابًا.

وبعد أن أخبر سبحانه عن الكفار، أنهم يفترون الكذب على الله، وصفهم بأن الكذب صفة ملازمة لهم، فقال سبحانه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ أي أن الكذب منحصر فيهم، أما محمد ﷺ فمحال أن يكذب على الله تعالى ويتقوّل عليه ما لم يقله.

وقد نفى الله سبحانه عن رسوله ﷺ ما يزعمه الكفار بالنسبة لرسول الله ﷺ في افترائه للقرآن، فقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾ [الحاقة].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم]

فالكفار هم الذين لا يصدقون بأن القرآن وحي من عند الله، والله سبحانه يقرر أنه لا يمكن لمحمد ﷺ أن يغيّر، أو يبدِّل شيئًا من كتاب الله كما طلبوا منه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٥﴾ [يونس].

وقال سبحانه حاكيًا أقوال المكذبين: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الفرقان].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ أي: تعلمتَ على غيرك ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥] فالكذب يفتريه غير المؤمنين، والرسول ﷺ أول المؤمنين، فكيف يفترى على الله الكذب؟

وقد عُرف ﷺ قبل الوحي والرسالة بالأمانة والصدق، فقالوا عنه: الصادق الأمين، حتى أعداء النبي ﷺ، شهدوا له بذلك، فهذا أبو سفيان يسأله هرقل: هل تتهمونه بالكذب؟ قال أبو سفيان: لا، وكان ذلك قبل أن يسلم، فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس، ويكذب على الله ﷻ.

فالمؤمن قد يكون جبانًا، أو مرتكبًا لبعض الكبائر، وليس من شأن المؤمن أن يكون

كاذبًا؛ فالكذب يتنافى مع الإيمان.

ولذا فإن النبي ﷺ لما جاءه رجل يريد الدخول في الإسلام، وهو يرتكب جميع الموبقات، ويقول للنبي ﷺ: إنه ليس في استطاعته ترك الزنى، ولا السرقة، ولا غيرهما من كبائر الذنوب، فقبل النبي ﷺ منه ذلك، وقال له: عاهدني فقط على ترك الكذب، فعاهده على ألّا يكذب، ورأى الرجل أن هذا أهون شيء بالنسبة له، فكان ترك الكذب سببًا لتركه جميع الذنوب؛ حيث إنه كان إذا أراد أن يُقْدم على الزنى، سأل نفسه: إن زنيت وسألني رسول الله ﷺ: هل زنيت؟ فإن قلت: نعم، أقام عليَّ الحد، وإن قلت: لا، أكون قد كذبت وخنت العهد، فترك الزنى، وهكذا السرقة، وهكذا الخمر، حتى ترك جميع الذنوب.

الْفِتْنَةُ فِي الدِّينِ

١٠٦-﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ[1] غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

ولمَّا بيَّن سبحانه أمر الكاذبين الذين كفروا بعد إيمان، أخرج منهم المؤمنين الذي يضطرون تحت وطأة التعذيب إلى النطق بكلمة الكفر بألسنتهم.

فالآية تبيِّن أنه إنما يفتري الكذب، من نطق بكلمة الكفر اختيارًا، وارتد بعد إيمانه، وهؤلاء عليهم غضب من الله إلا من أرغم على النطق بالكُفر فلا لَوْم عليه، أما من كان الكفر متمكنًا من قلبه، فعليه غضب شديد من الله، ولهم عذاب عظيم؛ لأنهم فضَّلوا الدنيا على الآخرة.

وقد كان أعداء الإسلام -ولا يزالون- يحاولون فتنة المسلمين؛ ليردوهم عن دينهم، ويحاولون أيضًا، الإحالة بين الإسلام وبين من يريد الدخول فيه، ومن ذلك قول المشركين للرسول ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ وقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ وهذه الآية تتحدث عن فتنة الكافرين للمسلمين في دينهم.

---

(١) ضم الهاء من (فعليهم) حمزة ويعقوب، وكسرها الباقون.

وسياق الآيات في فتنة الناس عن دينهم،والرد على القائلين: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ فإن هذا الغلام الذي أشاروا إليه وهو على الأرجح: جبر مولى عامر بن الحضرمي، كان قد أسلم، ثم فتنَهُ المشركون فكفر.

في صحيح البخاري: عن عكرمة قال: أُتِيَ عليٌّ ﷺ بزنادقة، فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس ﷺ فقال: لو كنت أنا لم أُحرِّقهم؛ لِنَهْي رسول الله ﷺ: **«لا تعذبوا بعذاب الله»** ولَقتلْتُهُم؛ لقول رسول الله ﷺ: **«من بدَّل دينه فاقتلوه»**[1].

كما أن المشركين راودوا عددًا من ضعفاء المسلمين على الارتداد عن دينهم؛ كبلال، ورفاقه، فثبتوا على الإسلام، وفَتنوا نفرًا آخرين فكفروا، ومنهم: الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج.

ولعل هؤلاء هم الذين نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[2] [العنكبوت: ١٠].

هذا: وأول من دخل في الإسلام سبعة هم أول من فُتنوا فيه:

أبو بكر، وبلال، وصُهَيْب، وخباب، وعمار، وأبوه ياسر، وأمه سمية.

١- أما (أبو بكر) فمنعه قومه وعشيرته من أذى قريش، وكان رجلًا غنيًّا يشتري الأرقاء، ويعتقهم لوجه الله سبحانه، فمنعتْه مكانته وماله من أذى المشركين.

٢- وأما (خبَّاب) فكانوا يَسْحبونه على الشوك ويعذبونه، وكانوا يوقدون له النار الملتهبة، فما يطفئها إلا ودَك ظهره.

٣- وأما (بلال) فكانوا يسحبونه في حر الظهيرة في الرمضاء، ويضعون الصخرة العظيمة فوقه، ويعرضون عليه الكفر، وهو يقول: أحد أحد، ولو أعلم كلمة أغيظ على المشركين لقلتُها، فاشتراه أبو بكر، وأعتقه.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٠١٧، ٦٩٢٢) وأبوداود (٤٣٥١) والترمذي (١٤٥٨) وعبدالرزاق (٩٤١٣) و«المسند» (١/ ٢١٧) برقم (١٨٧١، ٢٥٥١، ٢٩٦٦) وعن أبي موسى الأشعري برقم (٢٢١٠٥)، وإسناده صحيح على شرط البخاري

(٢) «التحرير والتنوير» (٧/ ٢٦٢).

٤، ٥- وأما (سمية) فقد ربط أبو جهل رجليها بين بعيرين، وأتى بحربة فطُعِنت بها في فرجها، وخرجت من ظهرها حتى ماتت، وقتلوا زوجها (ياسرًا)، وهما أول شهيديْن في الإسلام، وهكذا بقية المسلمين الضعفاء.

٦- وأما (عمَّار) ابنهما، فلما اشتد به الأذى أخذه بنو المغيرة، فغطُّوه في بئر سيمون، وقالوا له: اكفر بمحمد، و أُكرِه على النطق بكلمة الكفر، فقالها وقلبه مطمئن بالإيمان، لقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا.

ولما قالوا: إن عمارًا قد كفر، بلغ ذلك النبي ﷺ فقال: **«كلَّا، إن عمارًا ممتلئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه، وإن الإيمان يخالط لحمه ودمه»**، وجاء عمار وهو يبكي، فقال له النبي ﷺ: **«كيف تجد قلبك؟»** قال: مطمئن بالإيمان يا رسول الله، فقال ﷺ وهو يمسح دموعه: **«إنه لا يضرك، وإن عادوا فعد»** فنزلت هذه الآية[١]

وفيها رخصة النطق بكلمة الكفر، خوفًا من الهلاك، ما دام القلب ثابتًا على الإيمان، ولا لوم عليه في ذلك.

٧- أما (صهيب) فقد ابتلى في نفسه وماله وأهله وولده.

صحَّ عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كان أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمَّار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد وافقهم على ما أرادوا، إلا بلالًا، فإنه هانت عليه نفسه في الله، وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الوِلْدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد[٢].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٤/ ١٢٢) وعبد الرزاق (١/ ٣٦٠) وابن سعد (٣/ ٢٤٩) والحاكم (٢/ ٣٥٧) وابن عساكر (٤٣/ ٣٧٣) وغيرهم وكلها أسانيد مرسلة.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٤٢٣) والحديث في «سنن ابن ماجه» برقم (١٥٠) و«المسند» (١/ ٤٠٤) و«المستدرك» (٣/ ٢٨٤) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وحسَّنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١/ ٣٠) برقم (١٢٢).

وقال ابن عباس ﷺ: نزلت في عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرًا، وأمه سمية، وصهيبًا، وبلالًا، وخبابًا، وسالمًا.

فأما سمية فإنها رُبطت بين بعيرين ووُجئ قُبُلها بحربة، وقيل لها: إنك أسلمت من أجْلِ الرجال، فقُتِلت، وقُتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين في الإسلام، وسبقت الإشارة إلى قصة عمار.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية، في أناس من أهل مكة، آمنوا، فكتب إليهم المسلمون بالمدينة أن هاجروا، فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدون المدينة، فأدركتهم قريش بالطريق ففتنوهم مكرهين، وفيهم نزلت هذه الآية[١].

والآية عامة إلى قيام الساعة.

وهل يجوز للمسلم أن يُعَرِّض نفسه للقتل في مثل هذه الحالة؟

١- قال الألوسي: في الآية دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه، وإن كان الأفضل أن يتجنب ذلك إعزازًا لدينه، ولو تيقَّن القتل، كما فعل ياسر وسميَّة، وليس ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة، بل هو كالقتل في الغزو كما صرحوا به[٢].

٢- وقال ابن عطية: أما من عذبه كافر قادر عليه؛ ليكفر بلسانه، وكان هذا العذاب يؤدي إلى قتله، فله الإجابة باللسان قولًا واحدًا فيما أحفظ، فإن أراد منه الإجابة بفعل كالسجود إلى صنم، ونحو ذلك ففي هذا اختلاف فقال الجمهور: يجيب بحسب التقية، وقالت فرقة: لا يجيب ويسلِّم نفسه، وقالت فرقة: إن كان السجود نحو القبلة أجاب واعتقد السجود لله.

٣- وقال القرطبي: أجمع أهل العلم على أن من أُكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبِين منه زوجته، ولا يُحكم عليه بحكم الكفر[٣].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٤/ ١٢٢) و«المستدرك» (٢/ ٣٥٧).

(٢) هذا كلام الألوسي في تفسيره (١٤/ ٢٣٧).

(٣) «تفسير القرطبي» (٦/ ٣٧٩٨).

٤- وقال ابن كثير: والأولى والأفضل أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر[١].

قلت: إن الآية تنطق بأن من يرتدَّ عن دينه، فيكفر بعد إيمان، فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم، ثم استثنت من ينطق بكلمة الكفر من لسانه تقية وخوفًا من هلاك حقيقي قائم، وهو ثابت القلب على الإيمان، فإنه لا إثم ولا حرج عليه في ذلك، ويشهد لهذا قول النبي ﷺ: «**إن عادوا فعد**» وهذا بمثابة الرخصة لمن أراد ذلك.

ويدل على ذلك أنه لا عبرة بكلام المكره على الطلاق والعتاق أو البيع والشراء.

أو سائر العقود، ولا يترتب عليه حكم شرعي.

أما من آثر الموت، واحتسب نفسه عند الله فأجره على الله، وإذا ثبتت الرخصة بالنطق بالكفر وقاية للنفس من التهلكة المحققة، فإن ما عدا الكفر من سائر المعاصي يكون من باب أولى إن أُجبِر الإنسان عليه تحت وطأة السلاح، ونحوه.

ومن أصحاب رسول الله من لم يرض النطق بكلمة الكفر، وآثر الشهادة على النطق بها، ومنهم من أخذ بهذه الرخصة:

فتنة حبيب بن زيد الأنصاري:

جيء بين يدي مسيلمة الكذاب بحبيب بن زيد الأنصاري، فقال له مسيلمة: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ فوضع أصبعيه في أذنيه وهو يقول: لا أسمع، فردد عليه مرارًا وهو يقول: لا أسمع، فقطَّعه إربًا إربًا، وهو ثابت على ذلك، وقد آثر حبيب أن يقطَّع جسده إربًا إربًا، على أن ينطق بكلمة الكفر بلسانه[٢].

فتنة عبد الله بن حذافة السهمي:

وهذا عبد الله بن حذافة السهمي أسره الروم، وجيء به إلى مليكهم، فقال له ملكهم:

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٦٠٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٢/ ٣٥٧) عن الحسن، وانظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر (١/ ٣٢٧) و«أسد الغابة» لابن الأثير (١/ ٤٤٣).

تنصَّر وأنا أزوِّجك ابنتي، وأُشركك في مُلكي.

قال ابن حذافة: لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ما يملك العرب على أن أترك دين محمد طرفة عين ما فعلت، فقال: إذًا أقتُلك، قال: أنت وذاك، فأُمر به فصُلب، وأمر الرماة فرموه قريبًا من أطرافه: يديه، ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية تحت وطأة التعذيب فيأبى.

ثم أمر بِقِدْرٍ من نحاس، فأُحميت حتى صارت كأنها قطعة من الجمر، ثم أمر بأسير من المسلمين فألقاه في هذا القِدْر وهو ينظر، حتى صار عظمًا يلوح، وعرض عليه الكفر، فأبى.

ثم أمر أن يلقى به في القدر، فرفعوه في بكَرة؛ لكي يُنزلوه بها في هذا القِدْر الذي يَغْلي، فبكى عبد الله وهو معلَّق في البكَرة، فطمع فيه الملك، ودعاه لمَّا رآه يبكي، وقال في نفسه: لعله ضعُف، أو يتنازل، فقال له: لماذا تبكي؟ قال: أبكي؛ لأن لي نفْسًا واحدة سوف تُلْقى في هذا القِدْر مرة واحدة وتنتهي، فأحببتُ لو أنَّ لي أنفُسًا بعدد شعْر جسدي حتى تُلقى في هذه القِدْر؛ لتعذب في سبيل الله.

جاء في رواية أن الملك سجَنه ومنَع عنه الطعام والشراب أيامًا، ثم أرسل إليه بلحم خنزير وخمر، فامتنع عبد الله من تناوله فاستدعاه، وقال له: لماذا لا تأكل، ولا تشرب؟ قال: أما إنه قد حلَّ لي فأنا مضطر؛ كي لا أشرف على الموت، ولكن لم أكن لأُشمِّتك فيَّ.

قال الملِك لعبد الله: قبِّل رأسي وأنا أُطْلقك. قال: لا، بل تُطْلِق جميع الأسرى المسلمين، فأذْعن الملك، فقبَّل عبد الله رأسه، وأطلق جميع أسرى المسلمين بهذه القبلة، فلما رجع عبد الله إلى عمر ﷺ، وعرف عمر ما حدث، قال عمر: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أولهم، وبدأ عمر فقبل رأس عبد الله[١].

هذه أمثلة من التضحية بالنفس مقابل الثبات على العقيدة مع وجود الرخصة.

عبدالله بن أبي سرح:

أما من رضي بالكفر، وفتح له قلبه مثل: عبد الله بن أبي سرح، وأضرابه، فعقابه عند

---

(١) يُنْظَر: «تفسير ابن كثير» و«تاريخ دمشق» المخطوط (٩/ ١١٦).

الله عظيم، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ ممن يطمئن إلى كلمة الكفر، وينطق بها من قلبه ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

عن السُّدِّي أن عبد الله بن أبي سرح أسلم، ثم ارتد، فلحق بالمشركين، ووشى بعمَّار، وجبْر عبد ابن الحضرمي -أو ابن عبد الدار- فأخذوهما وعذَّبوهما حتى كفرا، فنزلت ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾[1].

وكان عبد الله بن أبي سرح يكتب لرسول الله فأزلَّه الشيطان فلحق بالكفار، فأمر به النبي ﷺ أن يُقتل يوم فتح مكة، فاستجار له عثمان بن عفان، فأجاره النبي ﷺ[2].

قال ابن عباس ﷺ: أخبر الله سبحانه أن من كفر بعد إيمانه فعليه غضب من الله، وله عذاب عظيم، فأما من أُكره فتكلم بلسانه، وخالفه قلبُه بالإيمان؛ لينْجوَ بذلك من عدوه، فلا حرج عليه؛ لأن الله سبحانه إنما يأخذ العباد بما عقدتْ عليه قلوبهم[3].

وقد وصفهم ربنا في هذه الآية والآيتين بعدها بصفات ست:

أولًا: عليهم غضب من الله.

ثانيًا: لهم عذاب عظيم في الآخرة.

ثالثًا: أنهم اختاروا الدنيا على الآخرة.

رابعًا: لقد حرَمهم الله من الهداية.

خامسًا: أنهم أهل الغفلةوالطبع على القلوب.

سادسًا: أنهم الخاسرون في دنياهم وآخرتهم.

لأن الإنسان قد يخسر في الدنيا؛ ليكتسب الجنة في الآخرة، فإذا وجد نفسه في النار، فإنه يكون قد خسر رأس ماله وهو الإيمان، وبهذا يكون قد خسر دنياه وآخرته.

وعلى هذا فإن من كفر بالله عن عقيدة ورضى، فإنه معاقب بأمرين:

---

(١) ، (٢) الطبري (٩/ ٤٠٥).

(٣) البيهقي في «السنن» (٨/ ٢٠٩) والطبري (١٤/ ٣٧٦).

أولهما: غضب الله تعالى عليه، وهذه أعظم عقوبة -نعوذ بالله من غضبه- واستحقاق الغضب من الله تعالى لا يكون إلا من كبائر الذنوب.

وثانيهما: عذاب الله له يوم القيامة.

وقد وصف الله هذا العذاب بأنه عذاب هائل لا يعرف حقيقته إلا رب العالمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج].

مِنْ أَسْبَابِ اسْتِحْقَاقِ الْمُرْتَدِّ لِغَضَبِ اللهِ وَعَذَابِ الآخِرَةِ

١٠٧، ١٠٨- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ[1] وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾

ثم بيَّن ﷻ أن السبب في استحقاق المرتد لهذا العذاب؛ لأنه آثر الدنيا وزينتها، وفضلها على الآخرة وثوابها، فلم يدخل الإيمان في قلبه، ولم يهتدِ بنور الإسلام، والله تعالى لا يوفق من ضل الطريق إلى الحق والصواب، فزهد في الآخرة، واختار الكفر على الإيمان.

والسبب في حرمان الكفار من النظر الصادق في دلائل التوحيد، ومن الإذعان لرسول الله ﷺ، والاهتداء بالوحي المنزل عليه: أنهم قد انسلخوا عن الإيمان وشرحوا صدورهم بالكفر، وطابت نفوسهم به،فصارت ممنوعة من وصول الحق إليها، وعاجزة عن الانتفاع به.

حيث ختم الله على قلوبهم بالكفر فلا يصل إليها نور الهداية.

وأصمَّ سمعهم عن آيات الله، فلم يسمعوها سماع عبرة وتدبُّر.

وأعمى الله أبصارهم وبصائرهم، فلم يروا البراهين الدالة على ألوهية الله تعالى، وغفلوا عما أعد الله لهم في الآخرة من العذاب، ولا غفلة أشد من غفلة المعرض عن عاقبة أمره، ولا بلاهة أفدح من بلاهة من آثر الفانية على الباقية.

والطبع هو الختم على الشيء، بحيث لا يخرج منه ما هو بداخله، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه. قال تعالى:

---

(١) أمال ألف (أبصارهم) أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري ودوري الكسائي، وقللها ورش، وفتحها الباقون.

١٠٩- ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

لا شكَّ ولا محالة، في أن هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان، سيكونون يوم القيامة من الخاسرين الهالكين، الذين صرفوا حياتهم إلى ما فيه عذابهم وهلاكهم ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى حقا ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ لأنهم أضاعوا النعيم الأخروي إضاعة أبدية.

فالإنسان يعمل في الدنيا؛ ليربح في الآخرة، وهؤلاء دخلوا النار، فخسروا دنياهم وأخراهم.

الْهِجْرَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ الْفِتْنَةِ فِي الدِّينِ

١١٠- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا[1] ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

أي: ثم إن ربك لمن هاجر في سبيله من المستضعفين بعد أن فتن في دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإسلام،بعد أن وافقهم على الكفر باللسان ثم تمكن من الهجرة وجاهد أعداء الله بيده ولسانه، وصبر على طاعة الله، فهو أهل لمغفرة الله ورحمته، وهكذا:

تشير الآيات إلى قوم من المستضعفين في مكة فتنهم المشركون في دينهم، ومنعوهم من الدخول في الإسلام، فأعطوهم ما أرادوا بلسانهم؛ ليَسْلَموا من شرورهم؛ حتى يتمكنوا من الهجرة، واللحاق برسول الله ﷺ فلما أمكنهم الخلاص منهم هاجروا، وجاهدوا، وصبروا.

١- جاء في أسباب النزول أن هذه الآية نزلت في جماعة فتنهم المشركون في دينهم وعذبوهم، ثم تمكنوا من الهجرة بعد ذلك.

ومن هؤلاء: عياش بن أبي ربيعة، كان أخًا لأبي جهل من أمه، أو أخًا له من الرضاع، ومنهم: أبو جندل بن سهيل، والوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعبد الله بن أسد الثقفي[2].

---

(١) قرأ ابن عامر بفتح الفاء والتاء من (فتنوا) مبنيًّا للفاعل، أي: فتنوا المؤمنين بإكراههم على الكفر، أو فتنوا أنفسهم ثم أسلموا، كعكرمة وسهل بن عمرو، والباقون بضم الفاء وكسر التاء مبنيًّا للمفعول، أي: فتنهم الكفار بالإكراه على التلفظ بالكفر وقلوبهم مطمئنة بالإيمان كعمار بن ياسر.

(٢) «تفسير الخازن» (٣/ ١٣٦).

٢- قال ابن عباس ﷺ: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخْفُون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأُكرهوا، فاستغفِروا لهم، فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧] إلى آخر الآية.

قال: وكتبوا بها إلى من بقي بمكة من المسلمين، وأن لا عُذْر لهم، في عدم الهجرة فخرجوا، فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة، فنزلت ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]

فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا، ويئسوا من كل خير، فنزلت فيهم ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ فكتبوا إليهم بذلك أن الله تعالى قد جعل لكم مخرجًا، فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقُتِل من قُتِل[1].

٣- وقال قتادة: ذُكِر لنا أنه لما أنزل الله: أن أهل مكة لا يقبل الله منهم إسلامًا حتى يهاجروا، كتب بها أهل المدينة إلى أصحابهم من أهل مكة، فلما جاءهم ذلك خرجوا، فلحقهم المشركون فردُّوهم، فنزلت ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ١، ٢] فكتبوا بها إليهم، فتبايعوا بينهم على أن يخرجوا، فإن لحقهم المشركون من أهل مكة قاتلوهم؛ حتى ينجوا ويلحقوا بالله، فأدركهم المشركون فقاتلوهم، فمنهم من قُتل، ومنهم من نجا، فأنزل اللهِ هذه الآية[2].

٤- قال ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله تعالى، ومن حماية عمه أبي طالب له، وأنه لا يقْدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملِكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارًا بدينهم.

ولا يستقيم معنى الهجرة هنا إلا بالهجرة لأرض الحبشة ممن أذن لهم النبي ﷺ بالهجرة

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٤٢٥).

(٢) النيسابوري (٢٣٨) و«زاد المسير» (٤/ ٤٩٧) والطبري (١٤/ ٣٧٨).

إليها للتخلص من أذى المشركين؛ لأن هذه الأحداث كانت قبل الهجرة إلى المدينة.

فإن الله تعالى لما ذكر الذين آمنوا وصبروا على الأذى.

وعذر الذين نطقوا بكلمة الكفر وقاية لأنفسهم وقلوبهم مطمئنة بالإيمان.

ذكر في هذه الآية فريقا آخر فرُّوا من الفتنة بالهجرة إلى الحبشة، حتى يتم استيفاء فرق المسلمين كلها، ولئلا يتوهم متوهم أن بُعْدهم عن النبي ﷺ يوهن من شأنهم.

والهجرة بهذا المعنى هي مفارقة الأوطان، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات: ٩٩]

وقال سبحانه في الأنصار: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

والمعنى: ثم إن ربك للمستضعفين في مكة الذين عذبهم المشركون، حتى وافقوهم على ما هم عليه ظاهرًا، ففتنوهم بالتلفظ بما يرضيهم، وقلوبهم مطمئنة حتى تمكنوا من الهجرة، وجاهدوا مع رسول الله ﷺ، وصبروا على أداء الطاعات، وترك المحرمات، وعلى مشاق الجهاد، فغفر الله لهم ورحمهم.

وأصل **الفتنة** في اللغة: إدخال الذهب في النار؛ لتظهر جودته من رداءته، ثم استعمل في الابتلاء والمحن، والمراد هنا: العذاب والأذى الشديد، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: ١٣] والمجاهدة هنا معناها: مقاومة العدو، ومدافعته جهد الطاقة؛ حتى لا يردوهم إلى الكفر.

أسماء بنت عميس:

وهذه السورة مكية، نزلت قبل الهجرة إلى المدينة، ويدل على ذلك ما في صحيح البخاري:

عن أسماء بنت عميس، وهي ممن قدم من أرض الحبشة إلى المدينة؛ حيث دخلت على حفصة فدخل عليهما عمر، فقال لها: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت أسماء، وقالت: كلَّا والله، كنتم مع النبي يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في أرض البعداء والبغضاء بالحبشة، ونحن كنا نؤذَى ونخاف، وذلك في الله ورسوله، وايم الله لا أطعم طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، فلما جاء النبي ﷺ بيت حفصة، قالت أسماء: يا رسول الله، إن عمر قال كذا

وكذا، قال: «**فما قلتِ له؟**» قالت: قلت: كذا وكذا، قال: «**ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان**»(١) فهؤلاء جاهدوا في سبيل الله، وصبروا على مشاق التكاليف، إن ربك من بعد توبتهم لغفور لهم رحيم بهم.

والآية تنطبق على كل من كان على شاكلتهم من الأقليات المسلمة في العالم إلى يوم القيامة ممن يؤذوْن في سبيل الله، ويفتنون في دينهم.

وقيل: إن هذه الآية مدنية، وإن المراد بالهجرة فيها: الهجرة إلى المدينة؛ فهي تشير إلى هجرة الذين فتنوا في دينهم كعمار بن ياسر إلى المدينة، أما الهجرة في الآية الحادية والأربعين فهي تشير إلى الهجرة إلى الحبشة ﴿ ﴾.

يَوْم الحِسَابِ وَالجَزاءِ

١١١ - ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ(٢) كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

واذكر -يا محمد- يوم القيامة، يوم الثواب والعقاب، حيث تأتي كل نفس مؤمنة، أو كافرة تدافع بأقوالها، وتجادل عن ذاتها، وتعتذر عما كان منها في الدنيا، فكل إنسان يومها يخاصم، ويدافع عن ذاته، فإذا كذَب الكافر وجحد، شهدت عليه الجوارح وشهدت الرسل، وذلك حين لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون.

وفي يوم القيامة لا يفكر أحد في أحد، لا في زوجة، ولا في ابن، ولا أخ، ولا أم، ولا أب، وإنما كل واحد مشغول بنفسه، ويجازى كل من أحسن بإحسانه، وكل من أساء بإساءته، وهم لا ينقصون من أعمالهم الصالحة، ولا يُزاد على أعمالهم السيئة، بل يوفَّوْن جزاء أعمالهم كاملة بالعدل والقسط، وتعطى كل نفس جزاء ما عملت في الدنيا وافيًا غير منقوص، لايزاد في سيئاتها ولا يُنقص من حسناتها ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]

قال كعب: كنت عند عمر بن الخطاب، فقال: خوِّفْنا يا كعب، فقلت: يا أمير المؤمنين، أوَ ليس فيكم كتاب الله وحكمة رسوله؟ قال: بلى، ولكن خوِّفْنا، قلتُ: يا أمير المؤمنين، لو وافيْتَ القيامة، بعمل سبعين نبيًا، لأزْدَريْتَ عملك مما ترى، قال: زدنا، قلت: يا أمير

---

(١) البخاري (٣١٣٦) ومسلم (٢٥٠٣).

(٢) أمال الألف من (توفى) حمزة والكسائي وخلف، وقللها ورش بخلف عنه.

المؤمنين، لو فُتح من جهنم قدْرُ مَنْخَر ثوْر بالمشرق، ورَجُلٌ بالمغرب لغلَى دماغه حتى يسيلَ من حرها، قال: زدنا، قلت: يا أمير المؤمنين، إن جهنم لتزْفِرُ زَفْرَةً يوم القيامة، لا يبقى ملَك مُقرب، ولا نبي مرسل، إلا خرَّ جاثيًا على ركبتيه، حتى إن إبراهيم خليله ليَخرنَّ جاثيًا على رُكبتيه، فيقول: ربِّ، نفسي نفسي، لا أسألك اليوم إلا نفسي، فأطرق عمر مليًّا، قلت: يا أمير المؤمنين أوَ ليس تجدون هذا في كتاب الله؟ قال: كيف؟ قلت: قوْل الله تعالى في هذه الآية ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾[1].

كُفْرُ النِّعْمَةِ وَأَهَمُّهَا نِعْمَةُ الإِسْلَامِ

١١٢-﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

يضرب الله سبحانه المثل لكفر النعمة، بأهل مكة، كانوا في أمن وطُمأنينة، وهي بلد ليس فيها زرع ولا ثمر، فيسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، وأرسل الله فيهم رسولًا يعرفون صدقه وأمانته، فكذبوه وكفروا بنعمة الله، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بسبب كفرهم النعمة وعدم إيمانهم بالرسول الخاتم.

وهكذا في مطلع الربع الأخير من سورة النحل يضرب الله ﷻ مثلًا عامًّا لمجتمعات الكفر في كل زمان ومكان، يهدد به كل من قابل نِعَم الله تعالى بالجحود والكفران، وفي طليعتهم أهل مكة؛ لأنهم أول من خوطب بهذا القرآن،

وذلك أنهم لمَّا لم يشكروا فضل الله عليهم، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأشركوا بالله تعالى، فعبدوا الأصنام من دونه، وكانوا يعيشون في أمن واستقرار، ورَغد من العيش، وكثرة أرزاق فبطروا النعمة وجحدوها.

- ولما بلغتهم دعوة محمد ﷺ فكذبوها، وبدل أن يشكروا نعمة الله سبحانه، فيوحدوه ويعبدوه، كفروا بأنعم الله عليهم.

وأعظم النعم على البشرية هي نعمة رسالة محمد ﷺ، وكان الواجب عليهم أن يؤمنوا بها، ويعملوا بمقتضاها، ولكنهم ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨] فكذبوا بدعوة النبي ﷺ، ولم يؤمنوا بها.

والمجتمعات الكافرة في كل زمان ومكان أهل لأن تحل بها نقمة الله سبحانه، وينزل

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص ١٢١ وابن أبي شيبة (١٣/ ١٥٥) وابن المبارك (٢٢٥).

بها عذاب الله ﷻ إن عاجلًا أو آجلًا ؛ فهي أهل لأن يبدل الله أمنهم خوفًا، وأن يبدل رخاءهم جوعًا وجدبًا وقحطًا.

وهذا المثل المضروب في سورة النحل، كما ينطبق على أهل مكة المكرمة وقت التنزيل، ينطبق على غيرهم، في كل زمان ومكان، مِنْ كل مَنْ كذّب رسول الله وكفر بأنعم الله ﷻ، فيبدل الله غناهم فقرًا، وأمنهم خوفًا

وأهل مكة من لدن دعاء إبراهيم ﷺأن يجعل الله بلدهم حرمًا آمنًا، إلى سرايا النبي ﷺ وغزواته، وما بعد ذلك وهم يعيشون في أمن واستقرار، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧] حتى إن الإنسان ليرى في الحرم قاتل أبيه فلا يهيِّجه، ولا يتعرض له بأذى، إلى أن يخرج من الحرم، حتى إن الطير والحيوانات لتأمن على نفسها فيه، ومع أن أهل الحرم في صحراء وبادية، فإن الله سبحانه يرسل لهم الأرزاق من كل مكان، كما قال تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وذلك في رحلتي الشتاء والصيف قديما، وعن طريق التجارة حديثًا ولا زالت الثمار تأتيهم فيأكلون فاكهة الصيف والشتاء التي ترد إليهم من شتى أرجاء المعمورة.

سبب تحويل النعمة إلى نقمة :

وأهل مكة لما جاءهم محمد ﷺ كذبوه، ولم يؤمنوا به، واشتد إيذاؤهم له ﷺ، وتآمروا على قتله، حتى أمره ربه بالهجرة من مكة إلى المدينة، فبدَّل الله أمن أهل مكة خوفًا بسرايا النبي ﷺ وغزواته، حتى فتحت مكة.

وبدَّل الله رخاءهم ورزقهم جوعًا حين دعا عليهم النبي ﷺ أن يشدد الله وطأته على مُضَر، وأن يجعلها عليهم سنوات كِسني يوسف ﷺ فأصابهم القحط، والجدب، والجوع، حتى أكلوا الميتة، والجيف، والعظام، وأوبار الإبل، وأصبح أحدهم ينظر إلى السماء فيرى كأن بينه وبينها دخانًا كثيفًا ؛ لِمَا يصيبه من آلام الجوع والخوف.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للناس كافة ﴿قَرْيَةً﴾ هي مكة المشرفة وغيرها ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ من الاعتداء عليها في الجاهلية والإسلام، ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ من ضيق العيش، هادئة البال.

والقرية في القرآن تطلق على المدينة العظيمة، وعلى العاصمة الكبرى، ولذلك فإن مكة

تسمَّى أم القرى.

وقد وصف الله هذه القرية المضروبة مثلًا للناس إلى يوم القيامة **بثلاثة أوصاف:**

الصفة الأولى: كانت آمنة تتمتع بنعمة الأمن، وهو مقدم على نعمة الرزق في الآية، وجاء في آية أخرى؛ تقديم نعمة الرزق (الطعام) على نعمة الأمن، قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش].

الصفة الثانية: أن رزقها يأتيها كثيرًا سهلًا هنيئًا من كل مكان، ولكن أهل هذه القرية لما كفروا بأنعم الله ولم يشكروه، وجحدوا فضل الله عليهم، ولم يوحدوه أذاقهم الله لباس الجوع والخوف؛ بسبب سوء صنيعهم.

وشكر المنعم سبحانه يكون بالإيمان به، وبتوحيده جلَّ شأنه، ويكون بعمل الجوارح بفعل الفرائض، والسنن، والأركان، وغير ذلك؛ فالشكر ليس مقصورًا على نطق اللسان، وإنما يتعداه إلى الاعتقاد بالعقل والجنان، وإلى العمل بالجوارح.

ولما كفرت هذه القرية بأنعم الله، عاقبها الله سبحانه على سوء صنيعها، فأذاق أهلها لباس الجوع والخوف، والله سبحانه يعبر عن الجوع والخوف الذي أصابهم بأنه لباس لهم؛ لما يغشاهم ويحيط بهم من آلام الجوع والخوف، وقد تذوقوهما حقيقة، وظهر آثارهما على أهل مكة بضمور الجسم، وشحوب اللون، وكسوف البال، وتغيير الحال؛ بسبب سوء صنيعهم.

الدخان المبين:

وقد نزلت هذه الآية بعد ما أصاب أهل مكة الجوع الذي أُنذروا به في الآية التي فسرها ابن مسعود ﷺ كما في صحيح مسلم، بأنه الدخان الوارد في قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان]

وهو الذي كان يراه أهل مكة أيام القحط الذي أصابهم، فقد كان الواحد منهم ينظر إلى السماء، فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان الكثيف، لا يستطيع من خلاله أن يحقق الرؤيا من شدة الجوع، فيدعو ربه قائلًا: ﴿رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الدخان] وهذا علامة من علامات الساعة الصغرى.

وأما الخوف المذكور في الآية فكما جاء في التفسير المأثور من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ قالوا: إن القارعة هي السرية الأولى من سرايا رسول الله ﷺ التي خوفت أهل مكة بعد أن هاجر منها المصطفى ﷺ ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أنت يا محمد ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١] وتفتح مكة فتحًا مبينًا على يد رسول الله ﷺ، فكان هذا الخوف هو المفسَّر بهذه الآية، وهذا بالنسبة لأهل مكة في عصر التنزيل، أما في العصور اللاحقة بالنسبة لهم ولغيرهم فإنه يتحقق بعدم توافر الأمن، عن طريق تسلط العدو، أو تسلط الحاكم الظالم، ونحو ذلك.

ولا يلزم أن يكون الجوع بسبب القحط والجدب، وإنما قد يكون بسبب قلة الموارد، أو سرقة الأموال، أو غلاء الأسعار، أو عدم نزول الأمطار، أو تجفيف منابع الخير، أو الحصار الاقتصادي، ونحو ذلك.

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ لِمُجْتَمَعَاتِ الْكُفْرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

١١٣- ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ[(١)] رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ[(٢)] فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

أرسل الله في أهل مكة رسولًا من بينهم يعرفون أصله وفصله، ويعرفون نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، حيث كان يدعوهم إلى توحيد الله، ويأمرهم بكل خير، وينهاهم عن كل شر، فكذبوه، فحل بهم عذاب الله، بأن بدل أمنهم خوفًا، وشبعهم جوعًا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران] وكان ذلك بسبب الكفر برسالة خاتم الرسل محمد ﷺ، يأمرهم بطاعته واتباعه فكذبوه وأعرضوا عنه، فحل بهم عذاب الله تعالى؛ بسبب كفرهم، وتكذيبهم، وهذه سنة الله في جميع الأمم مع جميع الرسل.

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) أدغم الدال في الجيم من (ولقد جاءهم) أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف، وأمال (جاءهم) ابن ذكوان وخلف وحمزة.

(٢) وصل هاء (فكذبوه) بحرف مد ابن كثير، وقصرها الآخرون.

وهكذا حدث لأهل مكة لمَّا لم يقبلوا ما جاءهم به محمد ﷺ، ولم يصدقوه فأخذهم العذاب بالشدائد العظام، وبالجوع والخوف، وقتَل رسول الله ﷺ عظماءهم يوم غزوة بدر، وكان السبب في ذلك أنهم ظلموا أنفسهم فأشركوا بالله، وصدوا الناس عن سبيله.

وهكذايفعل الله بكل من كذب خاتم النبيِّين ﷺ في كل زمان ومكان، فهولن ينجو من عذاب الله تعالى إن عاجلًا وإن آجلًا، وما من قرية أهلكها الله إلا وقد جاءهم رسول منهم فكذبوه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص].

الطَّيِّبَاتُ وَالْخَبَائِثُ فِي الْمَآكِلِ

١١٤ - ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

يأمر الله عباده أن يأكلوا مما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار وغيرها، على أن يكون هذا من الحلال الطيب، من غير إسراف ولا تبذير، واشكروا نعمة الله عليكم وأخلصوا له العبادة.

وهكذا: فإن الله ﷻ يوجه الخطاب إلى كل مجتمع لم يؤمن برسول الله محمد ﷺ ممن استحقوا العذاب وهم ظالمون، كأنه تعالى يقول لهم: إن كنتم تريدون السير على منهج الله، والاهتداء على طريق الحق، فاتركوا ما أنتم عليه من الكفر بالرسالة الأخيرة، واشكروا نعمة الله عليكم، وأعظمها نعمة بعثة محمد ﷺ فآمنوا به وبدعوته، بعد أن تؤمنوا بالله وحده، واصرفوا عبادتكم له وحده دون سواه، وكلوا من طيبات ما رزقكم الله من الحلال المشروع، واتركوا الأموال الخبيثة المحرمة.

فالشرط الأول: أن يكون الطعام حلالًا جاء من طريق مشروع.

والشرط الآخر: أن يكون طعامكم طيبًا، مما أحله الله، وليس من المحرمات.

فكلوا مما جعله الله لكم حلالًا مستطابًا، واشكروا نعمة الله عليكم، ووحِّدوا الله، وأطيعوه إن كنتم مؤمنين بالله، مخلصين له في العبادة، مصدقين بما جاء به رسول الله ﷺ؛ فقد رأيتم حال الذين بدلوا نعمة الله كفرًا، وأحلوا قومهم دار البوار، ورأيتم كيف

أذاقهم الله لباس الجوع والخوف، فاحذروا أن تكونوا مثلهم، وكما أحل الله لكم الطيبات فقد حرم عليكم الخبائث، قال تعالى:

١١٥-﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ[١] وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ[٢] اضْطُرَّ[٣] غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

والله جلَّ شأنه لم يحرم عليكم الكثير من المطعومات، إنما حرم أمورًا محصورة ومحدودة لصالحكم، لما فيها من الأضرار التي تعود على البدن، والأضرار التي تعود على عقيدة المسلم، وهذه المحرمات جاء ذكرها في كتاب الله تعالى في سور: البقرة، والمائدة، الأنعام، وهذه السورة، وهي **محرمات أربع**:

أولًا: الميتة، أي: ميتة الحيوان البري الذي له نفْس سائلة؛ لِيُخرج بذلك ما ليس له نفْس سائلة؛ كالجراد، والذباب، والبراغيث، وليخرج أيضًا حيوان البحر.

ويراد بالميتة التي ماتت حتف أنفها، أو قُتلت على هيئة غير مشروعة، ويدخل فيها: المنخنقة، والموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما عدا عليها السبع؛ لفساد جسمها، ولتعفُّنها، ولقذارتها، وما فيها من ضرر البدن، واستثنى من ذلك، السمك والجراد.

ثانيًا: الدم المسفوح السائل من الحيوان الحي بعد ذبحه، كثيرًا كان أو قليلًا.

أما ما بقى في العروق واللحم فلا يضر.

ثالثًا: لحم الخنزير بما يشمل شحمه، ودمه، وجلده، وغضاريفه؛ لقذارته وخُبثه، ولما فيه من الأضرار والأمراض التي أثبتها العلم الحديث، كالدودة التي تضر بمن يتعاطى شيئًا منه.

رابعًا: ما أهل لغير الله به، أي: وما ذبح على غير اسم الله تعالى؛ فإن في هذا فسادًا للعقيدة، كالذي ذبح على اسم الصليب، ونحوه من كل ما ذبح لغير الله، بأن ذبح لجن،

---

(١) قرأ أبو جعفر بتشديد الياء مكسورة من (الميتة)، والباقون بتخفيفها ساكنة.

(٢) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر النون وصلًا (فمن اضطر)، والباقون بضمها.

(٣) قرأ أبو جعفر بكسر الطاء من (اضطر)، والباقون بضمها، وأجمع القراء على ضم همزة الوصل عند الابتداء بها.

أو لقبر، أو في مكان يذبح فيه لغير الله تعالى.

فمن ألجأته الضرورة إلى أكل أو شرب شيء من ذلك، بأن كان مشرفًا على الهلاك، فأخذ ما يُقيتُه ويردُّ إليه الحياة من هذه المحرمات، وهو غير متجاوز للقدر الضروري، ولا متجاوز لحد؛ فإن الله غفور له، رحيم به لا يعاقبه على ما فعل.

وتحريم ما أُهِلَّ لغير الله به سببه التوجه بالمذبوح إلى غير الله سبحانه، وما عدا ذلك فتحريمه لعلة ذاتية ضارة فيه، والله ﷻ لم يحرم علينا من المطعومات غير ما هو منصوص عليه في هذه الآيات.

حَقُّ التَّشْرِيعِ لِلَّهِ وَحْدَهُ

١١٦، ١١٧-﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

بيَّن جلَّ شأنه أن التحريم والتحليل والتشريع حق خاص بالله وحده، فلا ينبغي لأي إنسان، ولا لأي مجتمع، ولا لأي مجلس شورى، أو مجلس أمة أو شعب، ونحو ذلك أن يدلي برأي في الثوابت الشرعية القطعية، فضلاً عن أن يُحل ما حرمه الله، أو يُحرم ما أحله الله، فلا يجوز أن يُطرح على طاولة المفاوضات مثلًا: هل تُمنع الخمر، أو لا تُمنع في بلد مسلم؟! ولا يجوز لأحد من خلق الله أن يشرع شيئًا لنفسه، ولا لغيره، كما حرم أهل الجاهلية على أنفسهم أمورًا أحلها الله لهم؛ فقد حرموا على أنفسهم: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ [الأنعام: ١٣٩] وقالوا بزعمهم: هذا لله، وهذا لشركائنا، فإن هذا من فعل أهل الجاهلية، ومثلها في كل زمان ومكان، من يحرمون ما أحل رب العالمين، أو يحلون ما حرم الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس].

والمعنى: ولا تقولوا أيها المشركون للكذب الذي تَصِفُه وتَحْكِيه ألسنتكم من أقوال وأحكام لا صحة لها، لا تقولوا: هذا حلال لما حرمه الله، وهذا حرام لما أحله الله؛ لتختلقوا الكذب على الله، وتنسبوه إليه زورًا وبهتانًا، وتَظْهَروا بمظهر العلْم، وتتفاخروا بذلك على الناس.

ويدخل في هذا كل من ابتدع في دين الله ما ليس منه، أو شرع للناس ما لم يشرعه رب العالمين، أو أحل لهم ما حرمه الله سبحانه.

ثم حذر سبحانه المسلمين أن يتقوَّلوا على الله ما لم يقلْه بنص صريح، أو بتحميل الألفاظ ما لا تتحمله، أو تأويلها على غير وجهها الصحيح، فبيَّن سبحانه أن الذين يختلقون الكذب على الله، لا يفوزون في الدنيا ولا في الآخرة.

وفي الآية تحذير للمسلمين أن يقولوا على الله تعالى بغير علم.

قال أبو نَضْرة: قرأت هذه الآية ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ فلم أزل أخاف الفُتْيا إلى يومي هذا[1].

ثم إن الذين يشرعون لأنفسهم، أو لغيرهم ما لم يشرعه الله؛ للحصول على منفعة، أو متاع من متاع الدنيا، فإن نفعهم مؤقت، ومتاعهم ضئيل زائل، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم وموجع.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس]

وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان].

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

مَا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى الْيَهُودِ عُقُوبَةً لَهُمْ

١١٨- ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٩/ ١٢٩).

ولما قص الله على المؤمنين ما حرمه عليهم من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما ذبح على غير اسم الله، أتبع ذلك ببيان ما حرمه على اليهود عقوبة لهم على تبديل شرع الله، ثم ما حرموه من تلقاء أنفسهم كما جاء في الآية الثالثة والتسعين من سورة آل عمران.

وما حرمه الله سبحانه على اليهود قبل نسخ شريعتهم؛ إنما كان بسبب ظلمهم، وبغيهم، وتجاوزهم الحد؛ فقد حرم الله عليهم بعضًا من الطيبات التي هي في حد ذاتها حلال، ولكن الله عاقبهم بتحريمها عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

وقال هنا: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: حرم سبحانه ما قصَّهُ علينا في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥] وهذا بالنسبة للبشر عامة.

وبالنسبة لليهود خاصة فقد حرم الله عليهم ما في الآية بعدها ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ أي: حرم الله على اليهود كل ذي ظفر؛ كالنعام، والبعير، وحرم عليهم الشحم، أي: الدهون الخالصة من البقر، والغنم، وشحم الكلى، إلا شحم الظَّهر، وشحم الأمعاء، وهو المراد بالحوايا، وكذا الشحم المختلط بعظم، كشحم الذنَب ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ أي: شحوم البقر، والغنم ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ إلا الشحم الذي في الظهر ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ أي: شحم الأمعاء ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أي: أن هذا كله حلال في حد ذاته، ولكن الله تعالى حرمه عليهم عقوبة لهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: أنهم لما ظلموا أنفسهم بالكفر والبغي استحقوا هذا التحريم عقوبة لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس].

وقد حرم الله ما ذكر على اليهود ابتداء، ولم يكن محرمًا في شريعة إبراهيم عليه السلام، وهي التي كان عليها سلفهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ [آل عمران: ٩٣] فهو تحريم خاص بهم دون غيرهم؛ بسبب بغيهم وظلمهم، أما ما حرمه الله على المسلمين من الميتة وغيرها فكان رحمة بهم، وحرصًا على مصلحتهم.

فَتْحُ بَابِ الْمَغْفِرَةِ لِكُلِّ مَنْ تَابَ

١١٩-﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

ولما ذكرت الآيات السابقة ما كان من أهل الشرك فيما حرموه على أنفسهم من بهيمة الأنعام، في قوله: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ وكان بعض المسلمين قد شاركوهم في شيء من ذلك في الجاهلية، بالإضافة إلى ما حرمه اليهود على أنفسهم، في قوله تعالى:﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾[آل عمران:٩٣].

وما حرمه الله عليهم عقوبة لهم﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[النساء:١٦٠].

بعد ذلك أراد الله سبحانه أن يُطمئن الجميع أنه جلَّ شأنه يغفر ذنب من تاب، وإلى ربه رجع وأناب، ومن ذلك الكفار الذين افترَوْا على الله الكذب ممن سبق ذِكْرهم في الآيات، في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ الآية: ١١٦فهم إذا تابوا من كفرهم، فآمنوا، وأصلحوا نفوسهم، وأعمالهم، غفر الله لهم، وتشمل الآية أيضًا كل من عصى الله تعالى عمدًا، أو جهلًا؛ فإن الله تعالى يتوب عليه، فبيَّن سبحانه أنه يفتح باب التوبة أمام المشركين والكفار والعصاة، ممن ﴿عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ والسوء: لفظ يتناول كل قول وفعل قبيح، فيدخل تحته الكفر والشرك، وسائر المعاصي، والجهالة عدم الإصرار والتعمُّد، وهي ليست قيدًا ولا شرطا، وإنما هي بيان للواقع.

وكل من عصى الله تعالى فهو جاهل، لا يعرف مقدار العقوبة المترتبة على هذه المعصية.

١- فالجاهل هو الذي يعصي الله تعالى في لحظة ضعف إنساني، مِنْ تغلُّب شهوة أو نزوة، فهو في حقيقة الأمر لا يريد عصيان الخالق جلَّ شأنه، وإنما غلبتْه شهوته أو غضبه، أو ثارت حميته.

٢- أو أن الجاهل هو الذي يجهل أدلة الشرع على تحريم الشيء، ويجهل العقاب المقرر على المعصية، وأنه موجب لسخط الله تعالى، أو أنه يعمل عملًا حرامًا، ويجهل أنه حرام، من غير تقصير منه في الأخذ بأسباب العلم به.

٣- أو أنه ارتكب الذنب ليس عن عمد، وإنما بدافع الحمق، والطيش، والسفه، وعدم تدبر عواقب الأمور.

وقد خص الله سبحانه من يعمل السوء بجهالة؛ لأن هذا شأن من يفعل الذنوب غالبًا من المسلمين، فهو بيان للواقع الكثير في الناس، وليس شرطًا في التوبة، وإلا فإن الله تعالى يغفر لكل من تاب من ذنبه، سواء عمله بجهالة أم بغير جهالة، أي: مخطئًا أو متعمدًا عالمًا بالتحريم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء] ومعنى تابوا من قريب أي: قبل غرغرة الموت، وقبل ظهور علامات الساعة الكبرى، فإن الله يتوب عليهم.

ومعنى ﴿وَأَصْلَحُوٓا۟﴾ أي: أصلحوا الأعمال السيئة التي عملوها قبل التوبة، فمن تاب من ترك الفرائض فلْيقضِها، ومن تاب من الغيبة فلْيثن على صاحبها، ويرجع عن قوله أمام من تكلم معهم، ومن تاب عن السرقة فلْيُعِدْ الأموال المسروقة إلى أصحابها، وهكذا بأن تاب توبة صادقة، فأصلح نفسه، وأكثر من العمل الصالح، وهيأ نفسه للسير على الطريق المستقيم، إن ربك من بعد التوبة، وما يصاحبها من رد المظالم والحقوق ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وأناب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده.

عَشْرَةُ أَوْصَافٍ لِخَلِيلِ الرَّحْمَنِ

١٢٠ - ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ[١] كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

وبعد أن بشَّر سبحانه عباده بمغفرة ذنب من تاب ورجع إلى الله تعالى، بيَّن سبحانه فضل الإسلام الذي اتبعوه، وقدَّم لذلك بالثناء على إبراهيم أبي الأنبياء، وهو الذي سمَّانا المسلمين من قبل وفي هذا القرآن؛ للدلالة على أن فضل الإسلام فضل زائد على جميع الأديان، وللدلالة على أن المشركين الذين حرموا الطيبات على أنفسهم، لم يكونوا على دين إبراهيم؛ لأن إبراهيم عليه السلام جاء بالإسلام، وبالحنيفية السمحة، فأباح الطيبات وحرم الخبائث.

---

(١) قرأ هشام وابن ذكوان بخلف عنه بفتح الهاء وألف بعدها في (إبراهيم) هنا وفي الآية (١٢٣)، والباقون بكسر الهاء وياء بعدها وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

وإبراهيم خليل الرحمن ﷺ أتى بدعوة التوحيد، ومحمد ﷺ وَصَلَ ما جاء به إبراهيم، مقتفيًا أثره، ومتبعًا لدينه في توحيد الله ﷻ، واتباع شريعته فيما لم يُنسخ كما يقرر ذلك علماء الأصول.

وقد وصف الله سبحانه إبراهيم عليه السلام بأوصاف عشرة في الآيات الثلاث التالية من سورة النحل.

وذلكم لأن المشركين يقولون: إنهم على دين إبراهيم، واليهود والنصارى يقولون: إنهم على دين إبراهيم، والله ﷻ يبرئ إبراهيم منهم جميعًا، فيبيِّن سبحانه أن إبراهيم ﷺ لم يكن مشركًا، وإنما كان حنيفًا مسلمًا، وأنتم يا أهل الكتاب قد غيرتم وبدلتم دين إبراهيم، وأولى الناس به هو محمد ﷺ، وهذه هي الأوصاف العشرة:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ كَانَ أُمَّةً: جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: كان إمامًا قدوة جامعًا لخصال الخير، هاديًا مهتديًا، **ولفظ أمة له عدة معان:**

المعنى الأول: أنه كان وحده أمة، أي إمامًا جامعًا لخصال الخير، وإبراهيم ﷺ كان مؤمنًا وحده، والناس كلهم كانوا كفارًا، فهو أمة؛ لأنه وحده الذي كان مسلمًا من بين قومه، وكان قومه كلهم كفارًا، عبدة أوثان، فهو أمة وحده، كما كان معلِّمًا للخير، هاديًا ومصلحًا.

قال مجاهد: سُمي إبراهيم أمة: لانفراده بالإيمان في وقته.

المعنى الثاني: أنه وحده يساوي أمة أو بمنزلة أمة.

فإن إبراهيم وحده يعدل أمة من الناس في طاعته لربه، وفي صفات الخير، وإبراهيم ﷺ كان وحده بمنزلة أمة كاملة في الفضل والكمال، وكان أمة وحده في الدين، فقد أحيا الله به التوحيد، وبثَّه في الأمم والأقطار، وجعل الكعبة مَعْلَمًا له حين دعا الناس لها، ولم يزل هذا باقيًا على مر العصور.

وفي البخاري أن إبراهيم ﷺ قال لزوجته سارة: ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك[1].

وقال عمر رضي الله عنه: لو كان معاذ حيًّا لاستخلفتُه؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أبوعبيدة**

---

(١) من حديث طويل عن أبي هريرة في البخاري (٢٢١٧، ٣٣٥٨) ومسلم (٢٣٧١).

أمين هذه الأمة، ومعاذ أمة قانت لله، ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون»(١).

وقال ﷺ في زيد بن عمرو بن نفيل: **«يبعثه الله أمة وحده»**؛ لأنه كان قد فارق الجاهلية، وما هم عليه من عبادة الأصنام. فالأمة في الأصل هي الطائفة الكبيرة من الناس، التي تجمعها جهة جامعة.

المعنى الثالث: ويأتي لفظ ﴿أُمَّةً﴾ بمعنى: الملة والدين، قال تعالى ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢] أي: على دين وملة.

المعنى الرابع: ويأتي لفظ ﴿أُمَّةً﴾ بمعنى: الحين والزمان، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨] أي: إلى زمان معين.

المعنى الخامس: والأمة أيضًا: الإمام الذي يقتدي به الناس فيؤمهم، ويهديهم إلى الخير، وهو يأخذ أجر فعله للخير، وأجر فعل الأمة التي اهتدت بهديه، واقتدت به؛ فالإمام هو الذي يُقتدى به، ويُقتفى أثره.

الْوَصْفُ الثَّانِي: أَنَّهُ كَانَ قَانِتًا: إن إبراهيم عليه السلام كان قانتًا لله، أي مديمًا لطاعة الله مخلصًا له العبادة **والقانت**: هو المطيع الممتثل لأمر الله ﷻ، والمجتنب لمعصية الله ﷻ.

أخرج عبد الرزاق بسنده إلى مسروق قال: قرأت عند ابن مسعود ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ فقال: إن معاذًا كان أمة قانتًا لله، قال: فأعاد عليه، قال: فأعاد عليهم، ثم قال: أتدرون ما الأمة؟ الذي يعلِّم الناس الخير، والقانت: الذي يطيع الله ورسوله.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ كَانَ حَنِيفًا: إن إبراهيم خليل الرحمن كان حنيفًا، أي: مائلًا عن الشرك، مجتنبًا له، مخلصًا توحيده وعبادته لله وحده، مقبلا عليه بالمحبة والإنابة والعبودية، معرضًا عما سواه، لا يميل عن دين الإسلام إلى غيره، ولا يميل عن الحق إلى الباطل.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: أَنَّهُ كَانَ مُوَحِّدًا: إن إبراهيم عليه السلام كان موحدًا لله غير مشرك به ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في قوله وعمله وجميع أحواله، أي: لم يعبد صنمًا، ولم يستقسم بالأزلام كما زعموا، ولم يكن من الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى في الطاعة والعبادة، بل كان

---

(١) يُنظَر حديث أنس عن أبي عبيدة في البخاري (٣٧٤٤، ٤٣٨٢) ومسلم (٢٤١٩).

حنيفًا مائلًا عن الباطل، وعن الشرك، وعن جميع الشرائع الباطلة، كما قال تعالى على لسانه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام] بل كان إمامًا للموحدين الحنفاء.

الوصف الخامس: أنه كان شاكرًا لأنعم الله

١٢١-﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ﴾

أعطى الله إبراهيم في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها خير قيام، ومن ذلك إن إبراهيم كان لا يأكل إلا مع ضيف، وإذا لم يأت إليه ضيف فربما طوى بطنه أيامًا حتى يأتيه ضيف، وربما مشى الأميال على قدميه لمقابلة الضيف.

ورد أن الله تعالى ابتلى إبراهيم عليه السلام في كرمه، وشُكْره لربه، فأرسل له ملائكة في صورة بشر كأن بهم مرض الجذام، فلم يمنعه هذا من ضيافتهم، ومؤاكلتهم قائلًا: الآن وجبت مؤاكلتكم شكرًا لله تعالى على أن عافاني وابتلاكم[1].

الْوَصْفُ السَّادِسُ: اصْطِفَاءُ الله لإبراهيم: إن الله تعالى اجتباه، أي: اصطفاه لخلّته واختاره للنبوة والرسالة، وجعله إمامًا يقتدى به ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] وقد اختاره ربه ليكون أبًا للأنبياء، من سلالة العرب وسلالة بني إسرائيل، وجعله من صفوة خلقه وعباده المقربين.

الْوَصْفُ السَّابِعُ: الاهْتِدَاءُ إِلَى أَقْوَمِ الطُّرُقِ: ﴿وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ[2] مُّسْتَقِيمٍ﴾

وإبراهيم عليه السلام هو أول من اختتن، وضحَّى، وأقام مناسك الحج، وقد حببه الله سبحانه لجميع خلقه، فكل منهم يدَّعي أنه على دينه. إن الله تعالى هداه إلى صراط مستقيم، هو دين الإسلام، دين التوحيد ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨] ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة]. فكان إبراهيم عالمًا عاملًا، علم الحق وعمل به.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) من «تفسير النسفي» للآية.

(٢) قرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاء في (صراط)، وقرأ قنبل ورويس بالسين، وقرأ الباقون بالصاد.

الْوَصْفُ الثَّامِنُ: الثَّنَاءُ الْجَمِيلُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا

١٢٢- ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٢٢)﴾

جاء في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أنَّ حسنة الدنيا لإبراهيم هي: الثناء الجميل عليه، والذكر الحسَن من أهل الشرائع جميعا إلى يوم القيامة، ونحن في صلاتنا وعبادتنا نجد أن الله سبحانه قرَن الصلاة على إبراهيم، بالصلاة على محمد ﷺ في التشهد، فأنت تقول في صلاتك في كل ركعتين: **«اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد، وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»**. . . وهكذا.

فكل مسلم يصلي على إبراهيم ﷺ في صلاته، كما يصلي على محمد ﷺ في صلاته، فهذا ذكر وثناء حسن على إبراهيم، إلى يوم لقاء رب العالمين.

والحسنة في الدنيا أيضًا راحة العيش، وهناءة البال، والزوجة الحسناء، والذرية الصالحة، واطمئنان القلب، والصحة والسلامة، وطول العمر على الصلاح وسعة الرزق الكافي، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١].

الْوَصْفُ التَّاسِعُ: أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ فِي أَعْلَى الْجَنَّاتِ:

هذا الوصف ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ تمام الاستقامة وثمرتها، وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا ربه بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣) وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْءَاخِرِينَ (٨٤)﴾ [الشعراء] وهو من أصحاب الدرجات الرفيعة في أعلى الجنات وهذا معنى ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي أنه يحشر في زمرتهم، وينال أفضل النعيم جزاءً وفاقًا على صلاحه وهدايته في الدنيا.

الوَصْفُ الْعَاشِرُ: أَمْرُ سَيِّدِ الْخَلْقِ بِاتِّبَاعِ أُصُولِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَفُرُوعِهَا

١٢٣- ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾

ومن أعظم فضائل إبراهيم عليه السلام أن الله تعالى أوحى إلى سيد الخلق ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم ويقتدى به.

هذا: ولما وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات الشريفة العالية، أمر الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ مع علوّ درجته، وسمو منزلته، وكونه سيد ولد آدم، أن يتبع أصول ملة إبراهيم في عقيدة التوحيد، وأصول الدين الثابتة في جميع الشرائع، ومنها كثير من سنن الفطرة، والتوسط بين اللين والشدة، وهذا من جملة الحسنات التي آتاها الله إبراهيم، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]

كما أُمر النبي ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم في كثير من الفروع الشرعية، مثل الختان وخصال الفطرة، وهذه الفروع تختلف من شريعة إلى أخرى، وفق مقتضيات أحوال البشر وتربيتهم على أيدي الرسل، فقد أمرناك - يا محمد - أن تتبع دين الإسلام، كما اتبعه إبراهيم، وأن تستقيم عليه، ولا تَحِدْ عنه؛ فإن إبراهيم لم يكن من المشركين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام].

وقال سبحانه عن رسل الله جميعًا: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: صلى جبريل بإبراهيم، الظهر والعصر بعرفات، ثم وقف حتى إذا غابت الشمس دفع به، ثم صلى المغرب والعشاء بجمْع، ثم صلى به الفجر كأسرع ما يصلي أحد من المسلمين، ثم وقف به، حتى إذا كان كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين، دفع به، ثم رمى الجمرة، ثم ذبح وحلَق، ثم أفاض به إلى البيت فطاف به، فقال الله لنبيه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾[1].

وقد وصف الله إبراهيم عليه السلام في الآية السابقة بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ووصفه في هذه الآية بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ ليؤخذ منهما **ثلاث فوائد:**

أولًا: نفي الشرك عن إبراهيم في الماضي.

ثانيًا: تجدد واستمرار نفي الشرك عنه.

ثالثًا: براءته من الشرك براءة تامة.

وعُلم من هذا أن دين الإسلام منزه عن أن تتعلق به شوائب الشرك، فقد سدَّ القرآن

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» الجزء الأول ص ٣٧٤ والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٧٥، ٤٠٧٦).

منافذ الشرك بصراحة أقواله وفصاحة بيانه، فلم نجد في الإسلام وَصْفَ النبوة مثلًا كما زعم اليهود في قولهم: عزير ابن الله، ولا كما زعم النصارى في قولهم: عيسى ابن الله.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى في قوله في حجة الوداع كما جاء في حديث جابر ﷺ: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه أبدًا، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم**»[1].

فاتباع النبي ﷺ ملة إبراهيم، كان بالقول والعمل، وفق أصول الشريعة بإثبات التوحيد ونفي الشرك، وما تقتضيه سنن الفطرة، وسائر ما أوحى الله به إلى نبيه من الحنيفية السمحة.

قال تعالى مقررًا أن إبراهيم ﷺ كان حنيفًا مسلمًا، ولم يكن يهوديًا، ولا نصرانيًا، ومُبْطِلًا مزاعمهم في اتباعهم له، وكونهم على دينه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران].

تَعْظِيمُ يَوْمِ السَّبْتِ عِنْدَ الْيَهُودِ

١٢٤-﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

أي إنما جعل الله تعظيم يوم السبت بعدم العمل فيه، فرضًا على اليهود، حين ضلوا عن يوم الجمعة واختلفوا فيه، فصار اختلافهم سببًا لتعظيمه واحترامه عندهم، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدى الله إليه هذه الأمة.

ولما كان اليهود مخالطين للعرب في بلادهم، وكان أهل مكة يتصلون بهم في أسفارهم وأسواقهم، بخلاف النصارى، فقد كانوا غير مخالطين لهم، وكان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم.

---

(١) يُنظَر «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٢).

لذا بيَّن ﷻ أن اليهود لم يكونوا على الحنيفية، ملة إبراهيم، ومن ذلك خروجهم عن دينه، باختيار يوم السبت؛ لتعظيمه بالعبادة، ومنع العمل فيه.

فبيَّن سبحانه أن ما فُرض على اليهود من تعظيم يوم السبت، وحُرمة الاصطياد فيه، بعد إعراضهم عن يوم الجمعة، كان عقوبة من الله لهم على مخالفتهم هدْي نبيهم موسى ﷺ كما أوضح ذلك النبي ﷺ في حديث أبي هريرة وحذيفة ﷺ قالا: قال رسول الله ﷺ: **«أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا، فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، والمقضي بينهم قبل الخلائق»**[(١)].

وعن أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتينا من بعدهم، وهذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فهم لنا فيه تبع، فاليهود غدًا، والنصارى بعد غد»**[(٢)].

فالتحريم الخاص بيوم السبت ليس من ملة إبراهيم ﷺ، وليس من ملة محمد ﷺ، إنما هو تحريم خاص باليهود عقوبة لهم، وتعظيم يوم الجمعة ادَّخره الله للملة الإسلامية؛ لقول النبي ﷺ: **«فهدانا الله إليه»** أي: بعد أن ضل عنه اليهود والنصارى.

وإنما جعل الله تعظيم يوم السبت على الذين اختلفوا فيه على نبيهم، فكل أمة من الأمم جعل الله ﷻ لهم يومًا يجتمعون فيه لعبادته، فأمر موسى قومه أن يتخذوا يوم الجمعة ويخُصُّوه بالعبادة فأبوا، وقالوا: لا نريد يوم الجمعة، ونريد يوم السبت؛ لأنه اليوم الذي تفرغ الله فيه من الخلق -على حد زعمهم- فنحن نريد أن نوافق الله - سبحانه - في عدم العمل في هذا اليوم، فهم يزعمون أن الله تعالى يعمل ويتعب ويستريح، وأنه لم يخلق شيئًا في يوم السبت، فجُعل لهم يوم السبت وألزمهم الله به إلزامًا قويًا، ووصاهم

---

(١) رواه مسلم برقم (٨٥٦) وهذا لفظه، وأخرجه أحمد بنحوه في «المسند» برقم (٧٢١٤، ٧٣١٠). قال محققوه: حديث صحيح بإسناد حسن ورجال ثقات.

(٢) البخاري برقم (٨٧٦، ٨٩٦، ٣٤٨٦، ٦٦٢٤) ومسلم برقم (٨٥٥) وهذا لفظه وأخرجه الشافعي في «الأم» (١/ ١٨٨).

أن يتمسكوا به، ويحافظوا عليه ونهاهم عن الاعتداء فيه كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ١٥٤] ثم شدد الله عليهم فيه، فمنعهم من العمل والصيد فيه، وابتلاهم الله بالحيتان تَطْفُو على وجه الماء في يوم السبت ابتلاء لهم.

١- فكان منهم من اصطاد في يوم السبت مخالفًا بذلك ما حرمه الله عليهم .

٢- ومنهم من احتال فحجز السمك في الشبك إلى الليلة التي بعدها؛ حتى يصطاده فعلًا في يوم الأحد.

٣ـ وكان منهم من نهى الذي يصطاد عن الصيد في يوم العبادة.

٤- ومنهم من سكت.

فكانت عقوبة الله تعالى لهم أن مسخهم قردة وخنازير، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة] فتعظيم يوم السبت، وتحريم العمل فيه خاص باليهود الذين ضلوا عن يوم الجمعة أفضل الأيام، ففيه تمام الخلق وكماله.

ويوم القيامة يحكم الله بين اليهود الذين اختلفوا على نبيهم، واختاروا يوم السبت؛ لتعظيم العبادة فيه بدل يوم الجمعة الذي أمرهم الله به، ويجازي كلًّا منهم بما يستحقه.

وفي زمن قسطنطين تحوَّل النصارى إلى يوم الأحد لمخالفة اليهود، كما تحولوا في الصلاة إلى جهة الشرق.

والله سبحانه وتعالى سوف يحكم في هذه القضية وغيرها يوم لقائه، فيُظهر المحق من المبطل، والمستحق للثواب ممن يستحق العقاب.

أَسَالِيبُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى ثَلَاثَةٌ

١٢٥-﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

يوجِّه الله رسوله ﷺ، ويوجِّه الدعاة إلى الله تعالى، والهداة والمرشدين في كل زمان ومكان، إلى المنهج الصحيح في الدعوة:

ادع -أيها الرسول- أنت ومن تبعك إلى دين ربك بالحكمة، أي: بالمقالة الصحيحة، والمعرفة، والأسلوب الحسن بالدليل القطعي اليقيني، وبالحجة، والإقناع، وادع إلى دين

ربك بالنصيحة الحسنة، وبالتحذير من الشر والتنفير منه، والترغيب في الخير، وهذه هي الموعظة الحسنة، وهكذا أمر الله موسى في دعوته لفرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه]، فالحكمة لطائفة من الناس، والموعظة الحسنة لطائفة أخرى.

فالناس أنواع:

١- منهم العالم الذي يريد دليلًا مقنعًا، قطعيَّ الثبوت والدلالة، موصِّلًا إلى الحقيقة العلمية، فهو يحتاج إلى الحكمة، ومراعاة مقتضى الحال، ومن الحكمة: الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبدء بالأهم فالمهم، وبالأقرب للفهم والذهن، وبالرفق واللين، وما يكون قبوله أوْقع وأتم.

٢- ومنهم غير العالم صاحب الفطرة الصحيحة السليمة، الذي تنفع فيه الموعظة، والكلمة الطيبة بالترغيب والترهيب الذي يليِّن القلب بالطرق الحكيمة، ومنها الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، وما تشتمل عليه من المنافع والمضار، وما أعده الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعده للعصاة من العقاب العاجل والآجل، وهكذا، وَوُصِفت الموعظة بالحسنة؛ لأن المقصود منها -غالبًا- ردع نفس الموعوظ عن أعماله السيئة، أو ما يتوقع منه.

ولأن الوعظ ثقيل على النفوس، يحتاج إلى لطف ورقة، لا إلى جفاء وغلظة، قال تعالى مخاطبًا موسى وهارون: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه].

وفي حديث العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجِلت منها القلوب، وزرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع[1].

والوعظ يشتمل على الحكمة، والخطابة، والجدل حين يسلك الداعية مسلك الإقناع والبرهان. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٤٦]

٣- وهناك المجادل المعاند المكابر الذي لا يقبل الحق، ويجادل فيه، وهذا النوع من

(١) الحديث في أبي داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح و«المسند» (١٢٦/٤).

الناس جادله بالحسنى ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالرفق واللين، وعدم العنف، أو الغلظة والفظاظة من أهل الكتاب، ومن الملحدين والمجادلين والمكابرين، وذلك بإبطال حججهم ونقض دعواهم، وهم في هذا أنواع:

فمنهم من يليِّن الله قلبه، ويهديه للطريق القويم، ومنهم من لا تفيد فيه موعظة.

فإنْ ألجأتْك الدعوة إلى محاجة غير المسلمين فجادلهم بالتي هي أحسن، والمجادلة لا تكون إلا مع المعارضين والظالمين منهم حيث يُقابلون بما يناسبهم.

ومنهم من لا تلين له قناة، كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قرأ القرآن على الوليد بن المغيرة، ثم قال له: **«هل ترى بما أقول بأسًا؟»**، قال: لا.[1] ولكنه لم يُسلم.

وقرأ النبي ﷺ القرآن على عبد الله بن أُبيٍّ فقال: إن كان ما تقوله حقًّا، فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدِّثه، ولا تأتينا في مجالسنا بما نكْره.

ولَمَّا وُضع السيف على عنق سيد بني قريظة التفت إلى النبي ﷺ، وقال: والله ما لمتُ نفسي في عداوتك يومًا، فقد آثر الموت على قبول الإسلام، وهذا صنف ثالث من البشر، وهذه ثلاثة طرق من أساليب الدعوة إلى الله تعالى، وهي:

١- الدعوة بالحجة اليقينية والدلائل القطعية.

٢- والدعوة بالترغيب والترهيب عن طريق الموعظة الحسنة.

٣- والدعوة بإقامة البراهين المفحمة للخصم بإبطال زعمه، وتصويب خطئه.

فمن الناس من يكون علاجه بالمقالة المحكمة الدقيقة.

ومنهم من يكون علاجه بهزِّ المشاعر، وتحريك الوُجدان، وإثارة العواطف.

ومنهم من يكون علاجه بالحوار، والمناقشة، والمناظرة، والجدال الحسن.

ومنهم من لا يفيد فيه الجدال الحسن، فيعامل بما يرْدعه ويصده.

وذلك لاختلاف مراتب الناس، وأفهامهم، واستعداداتهم لقبول الحق، أو رفضه.

---

(١) ينظر موطأ الإمام مالك (١/ ٢٠٣) برقم (٤٧٦) عن هشام بن عُروة عن أبيه.

وقد طبق النبي ﷺ هذه الأساليب في دعوته لأصناف الناس، حسبما يقتضيه حال المخاطبين من خاصة وعامة، ومنكرين وغير منكرين، ولا يلزم أن يكون الكلام الواحد مشتملًا على هذه الأساليب الثلاثة، فقد تشتمل الحكمة على الموعظة والوعيد، مع وضوح الدليل وإزالة الشبهة، ووضع الأمور في نصابها، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقد جمعت هذه الآية أصول الاستدلال العلمي الحق، وهي: البرهان، والخطابة، والجدل، وكل ذلك يرجع إلى الموعظة الحسنة الموجهة إلى أكثر الناس في المجتمع كله.

وبعد النصح الحسن، ومخاطبة الناس بما يناسب كلًّا منهم، وترغيبهم في الخير، وتنفيرهم من الشر، ومجادلتهم بالرفق واللين، فما عليك - أيها الداعية - إلا البلاغ، وربك أعلم بمن ضل عن سبيله ومن اهتدى.

ويجب على من يتصدى للدعوة إلى الله تعالى أن يتزود -إلى جانب ثقافته الدينية الواسعة- بالكثير من العلوم الأخرى؛ كعلوم النفس، والاجتماع، والتاريخ، والسياسة، والاقتصاد، وطبائع الأفراد والأمم؛ فإن ذلك أنجع في معالجة مختلف أحوال الناس وجميع الأمور.

ولما كانت لغات العالم متعددة، وعلماء الإسلام منوط بهم تبليغ دعوة الله تعالى إلى الخلق جميعًا، فلا بُدَّ لكل عالم من علماء الإسلام أن يجيد ولو لغة واحدة على الأقل من لغات العالم تحدثًا وكتابة؛ ليستطيع تبليغ المعلومة الصحيحة إلى من يدعوهم من غير الناطقين بالعربية، ولا بُدَّ من الانتفاع بالقنوات الفضائية، وشبكة المعلومات، والاتصال الشخصي، وسائر وسائل الإعلام وما يجدّ منها.

وقد ختم الله الآية ببيان أن الهداية من الله وحده، فهو الذي يملك خلْقها في نفوس العباد، وهو سبحانه الذي يعلم أحوال خلقه من سعادة وشقاء، وهداية وضلال، وهو أعلم بمن ضل من خلقه عن صراطه المستقيم، وسيجازي كلًّا بما يستحق من الثواب والعقاب، ومهمة الرسل والدعاة إلى الله تعالى هي البلاغ والنصح والإرشاد، ومن الناس من ينتفع ويهتدي، ومنهم من لا ينتفع ولا يهتدي، فلا تيأس من دعوتهم، ولا تحزن على عدم هدايتهم.

الْعَدْلُ وَالْفَضْلُ فِي الْعِقَابِ

١٢٦-﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

أي وإن عاقبتم من اعتدى عليكم وأساء إليكم بالقول أو الفعل، فعاقبوا بالمثل، من غير زيادة منكم، وإن عفوتم عن جُرمهم، وصبرتم على أذاهم، فهو خير لكم ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ﴾ [الشورى: ٤٠]

أي: فإن اعتدى على الدعوة، أو على الدعاة أحد، وهم يبلِّغون إلى الناس رسالة ربهم، وأردتم القصاص منه، والمعاملة له بالمثل فعاقبوا من اعتدى عليكم بمثل عدوانه من غير زيادة، ولا تجاوز.

قيل: إن هذه الآيات الثلاث الأخيرة من سورة النحل نزلت بالمدينة لما قتل المشركون في غزوة أحد سبعين من المسلمين، وقتلوا حمزة عم رسول الله ﷺ ومثَّلوا به، وبقروا بطنه، فقال أصحاب النبي ﷺ: لو أصبنا مثل هذا اليوم لَنُرْبينَّ عليهم، أي: لنزيدنَّ في القتل على هذا العدد، والتمثيل بهم، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ من غير زيادة كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ وهذه درجة أفضل ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ قال النبي ﷺ: **«نصبر، ولا نعاقب»**[1].

أخرج الحاكم وغيره بسنده إلى أُبَيّ بن كعب ﷺ قال: لما كان يوم أُحُدٍ أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلًا، ومن المهاجرين ستة، فمثَّلوا بهم، وفيهم حمزة، فقالت الأنصار: لئن أصبناهم يومًا مثل هذا لَنُرْبينَّ عليهم، فلما كان فتح مكة أنزل الله ﷻ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ فقال رجل: لا قريش بعد اليوم، فقال رسول الله ﷺ: **«نصبر ولا نعاقب،**

---

(١) يُنْظَر: زوائد «المسند» (٥/ ١٣٥) برقم (٢١٢٢٩) عن أبي بن كعب بإسناد حسن، وقد جاء مثل ذلك في «مسند البزار» برقم (١٧٩٥) في «كشف الأستار» وفي «تفسير الطبري» (١٤/ ١٣٢) بإسناد ضعيف، وأخرجه الضياء في المختارة (١١٤٤) والترمذي (٣١٢٩) والنسائي في الكبرى (١١٢٧٩).

كفوا عن القوم غير أربعة»[١].

وفي هذه الآية مشروعية العدل في الجزاء، والندب إلى الفضل، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

الأصل في العقاب هو التماثل:

أخرج البخاري وغيره بسنده إلى أنس بن مالك ﷺ أن يهوديًا رضَّ رأس جارية بين حجَرْين، فقيل لها: من فعل بكِ هذا؟ أفلان، أفلان؟ حتى سُمِّي اليهوديُّ، فأومأتْ برأسها، فجيء باليهودي فاعترف، فأمر به النبي ﷺ فرضَّ رأسه بالحجارة، وقد قال همام: بحجرين[٢].

ولا يجوز لمن ظلمه رجل في أخذ مال ائتمنه عليه، أن يخونه بمقدار ما أخذ منه، كما لا يجوز خيانة الأمانة في الأعراض بقصد القصاص ممن خانه في عرضه؛ إذ لا ينبغي للمرء أن يقابل السيئة بمثلها.

والمعنى: وإن أردتم معاقبة من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل ما فعل بكم ولا تزيدوا عليه؛ فإن في الزيادة حيفًا وظلمًا، وإن صبرتم وتركتم مقابلة السيئة بمثلها فهو خير لكم في الدنيا والآخرة. قال تعالى:

١٢٧- ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ[٣] وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ[٤] مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾

---

(١) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقر الذهبي في «المستدرك» (٢/٣٥٨) وأخرجه الترمذي برقم (٣١٢٩) قال الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٣/٦٧) برقم (٢٥٠١): حسن صحيح الإسناد وقال الترمذي: حديث حسن غريب وأخرجه النسائي برقم (٢٩٩) قال محققه: وإسناده حسن وأخرجه ابن حبان في صحيحه برقم (٤٨٧) الإحسان، قال محققه: وإسناده حسن وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٦٩) والطبراني في «الكبير» (٢٩٣٧) والبيهقي في «الدلائل» (٣/٢٨٩) والضياء في «المختارة» (١١٤٣، ١١٤٤) وعبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٢١٢٣٠). بإسناد حسن، بدون (غير أربعة).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٨٨٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٧٢).

(٣) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهم)، والباقون بكسرها.

(٤) قرأ ابن كثير بكسر الضاد بعدها ياء مدية في (ضيق)، والباقون بفتح الضاد بعدها ياء ساكنة وهم لغتان في المصدر.

رغَّب سبحانه في الصبر على الأذى، والعفو عمن أساء، فأمر رسوله ﷺ والدعاة إلى الله بعده أن يصبروا على الأذى في سبيله صبرًا يثبتهم ويُعينهم ويقويهم، حتى يأتيهم الفرج.

وما صبْر الإنسان في حالة من الحالات بِمُؤْتٍ ثماره إلا بتوفيق من الله سبحانه؛ فهو الذي يعين العبد ويثبته، فاصبر على من أصابك، وعلى من خالفك ولم يتبعك، ويهتدي بهديك.

فلا تحزن أيها الرسول على من استُشهد في غزوة أحد ومنهم عمك، ولا تحزن أيها الداعية إلى الله إذا أعرض عنك الناس، أو نالك منهم الأذى، ولا تغْتم من كيد الناس ومكرهم؛ فإن وبال ذلك عائد عليهم، وإن الله تعالى منجِّيك من شرورهم، ولن يَضيع أجركَ عند الله على ما يصيبك من أذى؛ فإنَّ عِلْمَ ذلك لا يخفى على الله، وهو الذي يثيبك ويجازيك أحسن الجزاء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر].

مِسْكُ الْخِتَامِ

١٢٨- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

ثم يختم الله سبحانه السورة ببيان أن الله تعالى مع الذين اتقوا الفواحش والكبائر، وسائر المعاصي، وأحسنوا في عبادتهم لله، وأحسنوا إلى خلق الله، وهذه معية خاصة مع المؤمنين المتقين بتأييدهم، وبنصرهم، وبتوفيقهم، فهو سبحانه معهم بهذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢].

وقوله سبحانه لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

وقول النبي ﷺ لأبي بكر ﷺ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال موسى ﷺ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]

وهذه المعية الخاصة تعني: معية الله تعالى للمؤمنين بالإعانة، وبالنصر، وبالتوفيق والتسديد وبالعون وبالنصر، ومن كان الله معه فلن يضره كيد الكائدين.

وهناك معية عامة لله تعالى مع الخلق كلهم بالإحاطة، وبالعلم التام، وبنفوذ قدر الله

تعالى فيهم، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

والمتقون المحسنون هم القائمون بفرائض الله تعالى، وحدوده، وشرائعه مع الإحسان في القول والعمل، ولزوم طاعته تعالى وهم يقابلون السيئة بالإحسان.

لما نزل الموت بهَرِمِ بنِ حيَّان، قالوا له: أَوْصِ، قال: أوصيكم بآخر سورة النحل[1].

تم تفسير (سورة النحل) ولله الحمد والمنة.



(١) ابن أبي شيبة (١٣/ ٥٦٢) وابن سعد (٧/ ١٣٢) والطبري (١٤/ ٤٠٩).

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٥	النِّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: نِعْمَةُ خَلْقِ الْأَنْعَامِ لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ، فيها خمس منافع:	٤١٠
	المنفعة الأولى: الدفء بالفرش والأغطية والخيام وغيرها	٤١٠
	المنفعة الثانية: النسل والألبان والجلود وغيرها - المنفعة الثالثة: الطعام والشراب	٤١١
٦	المنفعة الرابعة: الجمال والزينة	٤١١
٧	المنفعة الخامسة: حمل الأثقال	٤١٢
٨	النِّعْمَةُ الْخَامِسَةُ: نِعْمَةُ وَسَائِلِ الْمُوَاصَلَاتِ قديمًا وحديثًا	٤١٣
٩	النِّعْمَةُ السَّادِسَةُ: نِعْمَةُ الْهِدَايَةِ وَالْبَيَانِ	٤١٦
١١،١٠	النِّعْمَةُ السَّابِعَةُ: نِعْمَةُ إِنْزَالِ الْمَاءِ مِنَ السَّحَابِ لِيَحْيَا بِهِ كُلُّ كَائِنٍ حَيٍّ	٤١٩
١٢	النِّعْمَةُ الثَّامِنَةُ: نِعْمَةُ تَذْلِيلِ الْكَوْنِ لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ	٤٢١
١٣	النِّعْمَةُ التَّاسِعَةُ: نِعْمَةُ إِخْرَاجِ مَا فِي جَوْفِ الْأَرْضِ وَتَذْلِيلِ مَا عَلَى ظَهْرِهَا لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ	٤٢٣
١٤	النِّعْمَةُ الْعَاشِرَةُ: نِعْمَةُ تَسْخِيرِ الْبَحْرِ وَاسْتِخْرَاجِ مَا فِيهِ لِنَفْعِ الْإِنْسَانِ	٤٢٥
١٥	النِّعْمَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: نِعْمَةُ تَثْبِيتِ الْأَرْضِ بِالْجِبَالِ وَإِيجَادِ الْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ فِيهَا	٤٢٧
١٦	النِّعْمَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: خَلْقُ الْجِبَالِ وَالنُّجُومِ لِهِدَايَةِ الْإِنْسَانِ فِي أَسْفَارِهِ	٤٢٩
١٨،١٧	هَلْ يَسْتَوِي الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ؟ - نِعَمُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى	٤٣١
١٩	أَرْبَعٌ مِنْ خَصَائِصِ الْأُلُوهِيَّةِ الْحَقَّةِ - الْخَاصِّيَّةُ الْأُولَى: عِلْمُ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ	٤٣٢
٢١،٢٠	الْخَاصِّيَّةُ الثَّانِيَةُ: خَاصِّيَّةُ الْخَلْقِ-الْخَاصِّيَّةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ الرَّابِعَةُ: عِلْمُ قِيَامِ السَّاعَةِ	٤٣٣
٢٢	النَّتِيجَةُ الْحَتْمِيَّةُ لِهَذِهِ الْخَصَائِصِ	٤٣٤
٢٣-٢٥	إِحَاطَةُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِمَنْ يُنْكِرُونَ التَّوْحِيدَ وَالرِّسَالَةَ وَبَيَانُ عُقُوبَتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ	٤٣٦
٢٧،٢٦	الْاعْتِبَارُ بِمَا حَدَثَ لِجَبَابِرَةِ الْأَرْضِ فِي الدُّنْيَا وَمَا يَحْدُثُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ	٤٤٣
٢٨	حَالُ الْكُفَّارِ عِنْدَ انْتِزَاعِ أَرْوَاحِهِمْ وَعِنْدَ وُقُوفِهِمْ لِلْحِسَابِ	٤٤٧
٢٩-٣١	مَثْوَى الْكَافِرِ الْأَخِيرِ وَجَزَاءُ أَهْلِ الْإِيمَانِ يَوْمَ لِقَاءِ اللهِ	٤٥٠
٣٢	تَحِيَّةُ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُتَّقِينَ وَبُشْرَاهُمْ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ	٤٥٤
٣٤،٣٣	متى يقلع المذنبون عن ذنوبهم؟	٤٥٦
٣٥	التَّمَسُّحُ بِالْقَدَرِ جَدَلٌ كَاذِبٌ قَدِيمًا حَدِيثًا - والهداية على نوعين	٤٥٨
٣٦	الرُّسُلُ حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ لِإِقَامَةِ التَّوْحِيدِ وَنَبْذِ الشِّرْكِ - وهي مُهِمَّةُ الرُّسُلِ	٤٦١
٣٧	اللهُ تَعَالَى يَعْلَمُ اخْتِيَارَ الكفار لِلْكُفْرِ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقُوا	٤٦٤
٣٩،٣٨	كُفْرُ مُنْكِرِي الْبَعْثِ - حِكْمَتَانِ لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ	٤٦٥
٤٠	إِيجَادُ اللهِ لِلْأَشْيَاءِ يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ تَوَجُّهِ الْإِرَادَةِ إِلَيْهِ	٤٦٧
٤٢،٤١	ثَوَابُ الْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ	٤٦٨
٤٤،٤٣	الرَّسُولُ بَشَرٌ يُوحَى إِلَيْهِ	٤٧٢
٤٥-٤٧	حِلْمُ اللهِ تَعَالَى وَإِنْظَارُهُ لِلْكُفَّارِ وَالْعُصَاةِ، خمس حالات لتوقع نزول العذاب بمن يمكرون السيئات	٤٧٦
٤٨-٥٠	جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ تَسْجُدُ للهِ تَعَالَى بِلِسَانِ الْحَالِ أَوِ الْمَقَالِ	٤٧٩

فهـرس المـوضـوعـات